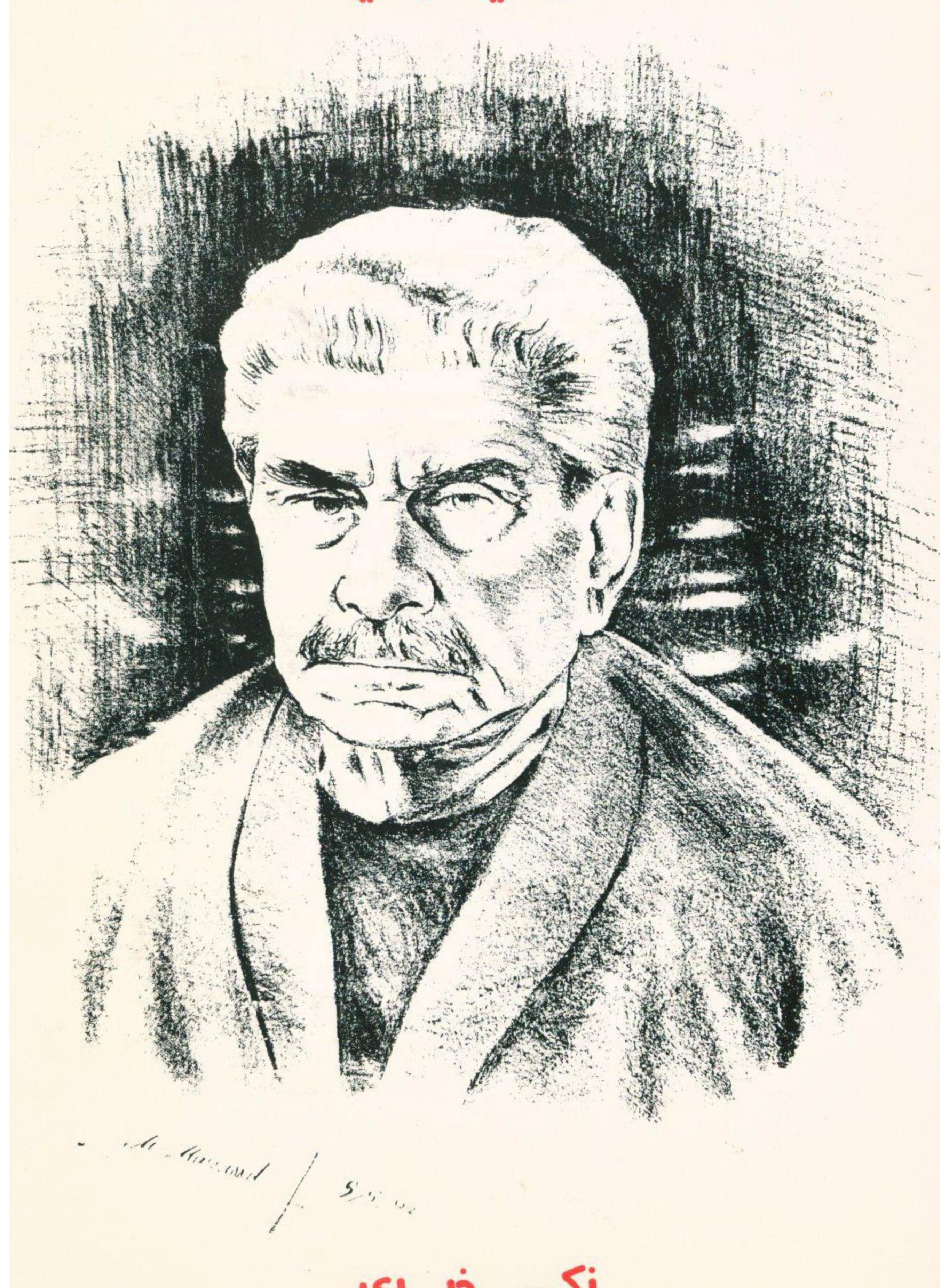
صدى السنين في

ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم



زكـي خيـري



زكي خيري　　　　　　　　　　بريشة الفنان : فيصل لعيبي

صدى السنين في

ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم



زكــي خيــري

الإهـــداء..

من شيوعي عراقي مخضرم

إلى الأمهات العراقيات الصـامدات علـى أرض الوطـن. المتحديـات للامبريالية وعقوباتها البربرية المذلــة، وللدكتاتورية وإرهابها، الضامنات لتدفق الحيـاة على أرض الرافدين.

إليهن وهن اللواتي آوينني من تشرد وأطعمنـني مـن جـوع، وآمنـني من خـوف، في أزقّـة بغــداد وأريـاف الفرات، وجبـال كردستــان.... أقــدّم هذه الـذكـريـات.

زكــي خيـري

ستوكهولم ـ السويد في ٢٥/ ١٢ / ١٩٩٤

نبذة عن حياة

المناضل الوطني والمفكر والكاتب الشيوعي

زكــــي خيــري

ولد زكي خيري في بغداد في نيسان ١٩١١ وفي التاسع عشر من شباط توقف دفق الحياة في القلب الذي روّى ضمير العراقيين بحبّ الوطن وخدمة الشعب.

• ساهم في الحركة الوطنية منذ صباه، وشارك في أول مظاهرة في بغداد دفاعاً عن حرية الرأي عام ١٩٢٧، وفي أول مظاهرة لنصرة الشعب الفلسطيني وضد الصهيونية في ٨ شباط ١٩٢٨

• دعم الحركة النقابية العمالية منذ نشوئها، وساهم في كتابة عرائضهم وبلورة مطالبهم ودعم اضراباتهم في العشرينات.

• تعلم اللغة الانكليزية بجهوده لكي يطلع على الفكر الماركسي لندرة المصادر العربية آنذاك — إن لم نقل انعدامها ـ وخاض الصراع الفكري من أجل تأسيس الحزب الشيوعي العراقي في الحلقات الماركسية في أواخر العشرينات ومطلع الثلاثينات حتى تحقق.

• أصبح عضواً في أول لجنة مركزية للحزب منذ كان يسمى (لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار) وعضو تحرير أول جريدة مركزية للحزب (كفاح الشعب) عام ١٩٣٥

• اعتقل لأول مرة عام ١٩٣٥ وحكم عليه سنتين.. أطلقت سراحه حكومة بكر صدقي بعد الانقلاب أواخر عام ١٩٣٦

• ساهم في تنظيم الخلايا الشيوعية داخل الجيش. واعتقل بسبب ذلك عام ١٩٣٧ قبل أن تصدر المادة ٨٩ أ من قانون العقوبات البغدادي التي تحكم بالإعدام لمن يبث الشيوعية في القوات المسلحة ولذلك حكم عليه سنتين بالحبس وسنتين مراقبة في عانه كان أصعب ما فيها انقطاعه عن الحزب.

• عمل بعد خروجه من السجن في مطلع الأربعينات كصحفي محترف في جريدة الأهالي للجادرجي والرأي العام للجواهري.

• عمل في فترة الهجوم الهتلري على الاتحاد السوفيتي في مركز الإعلام البريطاني ثم الأمريكي في مجال تغطية أخبار الحرب كجزء من كفاحه ضد الفاشية، وفصل لعدم التزامه بالتوجهات المطلوبة لتشويه إنجازات الجيش الأحمر قبل نهاية الحرب.

• ساهم في تأسيس اللجنة الوطنية الثورية واعتقل عام ١٩٤٦ أثناء القائه خطاب في حشد جماهيري في الكاظمية وحكم عليه سنتين في سجن الكوت.

• التقى الرفيق فهد في السجن وبعد انقطاع عن الحزب غير مبرر عاد إليه وكما عبر عن ذلك في مذكراته: وجدت نفسي ثانية.. وشعرت بحرية غامرة بعد أن تحررت من عبء شعور كان يثقل كاهلي ويشل إمكانياتي.

• حرر جريدة الاساس طيلة فترة الوثبة عام ١٩٤٨ وكانت جريدة الحزب العلنية.

• اعتقل في ١٩ شباط ١٩٤٩ وحكم عليه سبع سنوات تضاعفت بسبب محاولات الهروب الفاشلة وقراءة الاناشيد الثورية في السجن وأسقطت عنه الجنسية العراقية مع مجموعة من المناضلين البارزين مثل كامل قازانجي وتوفيق منير.

• ترجم في السجن العديد من الكتب الماركسية وألف كراسه القيّم (ربع قرن من تاريخ الحركة النقابية في العراق) عام ١٩٥٤

• بعد تسع سنوات ونصف أطلقت ثورة تموز ١٩٥٨ سراحه ليعود عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي وعضواً في تحرير (اتحاد الشعب) جريدة الحزب المركزية.

• زار الصين والاتحاد السوفيتي لأول مرة.

• وضع الأسس لسياسة الحزب في القضية الزراعية ثم نشر كراسه (مسائل في الإصلاح الزراعي) الذي حصل على تقدير من المعاهد العلمية العالمية.

• ساهم بفعالية في صياغة مشروع الحكم الذاتي لكردستان عام ١٩٦١ لحل القضية الكردية حلاً ديموقراطياً وسلمياً. وفي تموز من هذا العام تزوج.

• كان أثناء انقلاب شباط ١٩٦٣ في النجف واختفى في ريف الفرات وعايش الفلاحين ودرس نفسيتهم ومعاناتهم نساءً ورجالاً

• هرب إلى الخارج أواخر عام ١٩٦٤ وأصبح ممثل الحزب في مجلة قضايا السلم والإشتراكية وعضو هيئة تحريرها وهناك ولد ابنه يحيى في ١٩٦٥/١١/٩

• وفي صيف عام ١٩٦٦ عاد إلى الوطن سرّاً وأصدر وثيقة تقييم سياسة الحزب منذ سنة ١٩٥٨ حتى عام ١٩٦٧ التي أقرها الكونفرنس الحزبي الثاني المنعقد في خريف ١٩٦٧ لتصبح جزءاً من تاريخ الحزب.

• وضع مشروعاً للجبهة الوطنية ومشروع برنامج الحزب للمؤتمر الوطني الثاني عام ١٩٦٨ الذي انعقد أواخر عام ١٩٧٠ وفي ٢٧ آب ١٩٦٨ ولدت ابنته وداد.

• ساهم في مباحثات الجبهة مع البعث وأصر على المواقف المبدئية التي أقرها المؤتمر الوطني الثاني في برنامج الحزب وأهمها عدم القبول بقيادة حزب البعث للجبهة وللسلطة والمجتمع ورفض التوقيع على مثياق الجبهة في اجتماع اللجنة المركزية للحزب في نيسان ١٩٧٣

• أكد دائماً على ضرورة الاحتفاظ بجهاز سري للحزب وعمل من أجل تحقيق ذلك في ظروف صعبة ومعارضة في قيادة الحزب.

• خرج من العراق لحضور مؤتمر الشعب العربي في دمشق في ٥/ تشرين ثاني ١٩٧٨ ولم يعد.

• عقد مؤتمر صحفي في باريس بعد أن حضر مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي في أيار ١٩٧٩ كشف فيه حملة الإبادة الجسدية للشيوعيين التي ينفذها الحكم في العراق.

• عمل في الفترة ١٩٧٩ ـ ١٩٨١ ثانية ممثلاً للحزب في مجلة قضايا السلم والإشتراكية وكتب العديد من البحوث النظرية والسياسية لم ينشر معظمها لتعارضها مع سياسية المجلة آنذاك.

• حضر العديد من المناسبات الأممية والكونفرنسات العلمية قدم فيها بحوثاً نشرت في عدة كتب وترجمت لعشرات اللغات.

• مثّل الحزب في العشرات من مؤتمرات الاحزاب الشيوعية بما فيها الحزب الشيوعي السوفيتي والصيني والهندي والفرنسي والإيطالي والكوبي والبرتغالي واليوناني ولم يُسمَح له بحضور

مؤتمر الحزب الشيوعي البريطاني والامريكي لعدم منحه الفيزة.. وله في كل هذه المجالات مداخلات متميزة ولقاءات حيوية في خدمة الحركة الشيوعية والقضايا العربية والعراقية.

• حضر العديد من مؤتمرات الاحزاب الشيوعية والتقدمية العربية في المغرب والجزائر والسودان وسوريا ولبنان والاردن وحضر مؤتمرات الشعب العربي في سوريا وليبيا ومؤتمر العمل المشترك للمعارضة العراقية في بيروت عام ١٩٩١ حيث أهمل طلبه بضرورة عودة المجتمعين إلى بغداد لقيادة الانتفاضة التي كانت في أوجها.

• حظيت دمشق الشام بحبه العميق بعد بغداد وعاش فيها ثماني سنوات وكانت أمنيته عدم مفارقتها إلا إلى بغداد.. وبألم وحسرة غادرها إلى براغ عام ١٩٨٩

• وأقسى مراحل الغربة الانتقال الأبعد عن الوطن إلى السويد.. ولكن وجد في السويد نوعاً من الاستقرار النفسي فكتب كراسه القيم (وحدة النظرية والمنهج) وانعش طاقاته وجود المئات من شبيبة العراق المجروحين والمحملين باعباء كوارث الوطن والحركة الشيوعية وآلام الغربة وعذابات الأحبة في الوطن وحاول أن يدفئهم ويتدفأ بهم. أن يكون بينهم يتبادل معهم الأفكار ويتعاون معهم للوصول إلى ما يخدم الشعب والوطن مؤكداً دائماً على:

• التعويل على شعبنا في تحقيق البديل الديموقراطي وليس على العامل الخارجي المتمثل بالدول الامبريالية وصنائعها مثل (المؤتمر الوطني الموحد).

• النضال من أجل إلغاء الحصار الاقتصادي عن العراق بدون أية شروط لتنطلق طاقات شعبنا في النضال من أجل اسقاط الدكتاتورية وإقامة الحكم الديموقراطي الذي يضمن للشعب الكردي حق تقرير المصير.

• النضال من أجل كسب القوات المسلحة إلى جانب الشعب.

• النضال من أجل وحدة القوى الوطنية على الأسس الوطنية المعادية للامبريالية ورفض فرض إرادة أو قيادة أي من أطرافها على الأخرين.

• بدأ كتابة مذكراته في سوريا عام ١٩٨٧ وأتم الجزء الأول منها في براغ عام ١٩٩١ ومازالت تنتظر الطبع ولذلك لم يتحمس لكتابة الجزء الثاني. وبقيت مشاريع كتابة نظرية وسياسية عديدة لم تتحقق.

• لم يفكر بالموت مطلقاً ولم تتزعزع ثقته بحتمية انتصار شعبنا والعودة للوطن وكان يسابق الزمن في العمل الدؤوب متحدياً ضريبة العمر فكان يستعين بالضوء الساطع والمكبرة والنظارات من أجل أن يقرأ وما أصعب انسجامها جميعاً.

• أي ينبوع من المعرفة.. وأي قابلية للحديث والاقناع وأي اسلوب سلس وممتع في الكتابة ذو نكهة متميزة رائعة.

مؤلفاته:

١ ـ ربع قرن من تاريخ الحركة النقابية في العرق عام ١٩٥٤

٢ ـ مسائل في الاصلاح الزراعي ١٩٥٩

٣ ـ دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي مع رفيقة حياته سعاد خيري عام ١٩٨٤

٤ ـ الحرب العراقية الايرانية وقضايا الثورة عام ١٩٨٧

٥ ـ وحدة النظرية والمنهج ١٩٩٣

٦ الجزء الأول من مذكراته تحت عنوان (صدى السنين في ذاكرة شيوعي مخضرم) لم تنشر بعد.

إعداد سعاد خيري ١٩٩٥/٩/٢٠

زكي خيري الانسان

عميق كالبحر يزخر بالعواطف الانسانية واسع الحلم كالكون لايمكن سبر أغواره وينبوع للمعرفة فيّاض بقدر ما هو تلميذ متواضع في الحياة. يشعر كل من حوله بأنه يحتاجه ويعتمد عليه. وما أعظم صبره وقدرته على التحمل اللتين تجدا تعبيرهما في الأسماء الحزبية التي كان يختارها: جلمود.. جندل.. وأين من جلمود وجندل تحمل ما تحمله زكي خيري! وأين من جلمود وجندل يتمتع بصلابة إرادته وقوة عزمه!

وزكي خيري رقيق المشاعر كالنسيم رائع المعشر متوقد الذهن، حاضر البديهة، لاتفارقه الفكاهة.. ملأ حياتي سعادة رغم كل الصعوبات والعقبات وخيبات الأمل التي عشناها معاً. ولازلت أتمتع بحضوره الدائم وبزخم رفقتنا ودفء عواطفنا، بأحلامنا وآمالنا.. ولازلت استمد العزم والصبر والإقدام منه كما تعودت طيلة حياتنا.. فكم شجعني على القراءة والكتابة! وكم اخجلتني مثابرته وجلده أمام الصعوبات ودفعتني لاقتحام مالم أتصور قدرتي على اقتحامه..

لم أكن أتصور يوماً أنني أستطيع العيش بدون أبو يحيى لعمق الروابط واتساعها بحيث كانت تغطي كل لحظة من حياتنا.. وعن إيمان راسخ صرحت له بذلك عدة مرات عندما كان يمرض.. فيرد علي دائماً: كلا يجب أن تعيشي وتهتمي بصحتك لأن مسؤولياتك ستزداد ولابد لك من العمل المضاعف قراءةٍ وكتابة ونضالاً متعدد الجوانب.. وقد أثبتت الحياة صحة أقواله.. أعمل بوصيته وأجده دائماً إلى جانبي يشد عزمي ويقوي إرادتي.. ويخفف مصابي وجود وداد ويحيى وكذلك رعايتكم وعوطفكم كما خفف آلامي الاستقبال المهيب الذي تم لجثمانه في دمشق وتشييعه وتأبينه فشكراً لسوريا ولحزب خالد بكداش وللرفيق أبو سعيد.

ويبدو إن إرادة الحياة يجب أن تنتصر على الألم مهما كان عميقاً.. فالانسان يولد لأن قانون الكون يفرض استمرار البشرية وهدف الحياة أن يسهم كل فرد فيها بتحقيق تطورها نحو الأفضل كل حسب قدرته وتوفر الظروف الملائمة لذلك، بانياً لكيانه ومطوراً إمكانياته بمساعدة من حوله وعليه أن يكرس ذلك لخدمة مجتمعه مستعيناً بالروابط التي يتربى عليها.. فهو لم يأت للحياة من أجل أفراد مهما كانت عمق الروابط التي تربطه بهم.. ولا من أجل أشياء أو متع مهما عظمت وغلا ثمنها.. بل من أجل أهداف أعمق وأشمل وأهم وهي استمرار الحياة وتطورها لخير البشرية.. ومثلما يأتي إلى الدنيا عارياً لايملك إلا ما وهبته الطبيعة من كيان وقدرة على الحياة.. يذهب عارياً لايأخذ معه أي شيء مهما ملك.. ولايبقى إلا ذكراه وآثاره الفكرية والأخلاقية لتكمل حياته بعد الموت وتعيش بالأجيال التي تلهمها وبقوة المثل والعزم على تحقيق الأهداف التي كرس حياته لها.. هكذا أردّ على المتفجعين بموت زكي خيري الذين يرددون على سمعي: لقد وهب زكي خيري كل حياته للنضال فماذا حصل؟

لقد حصل ويحصل زكي خيري على أفضل ما يحصل عليه الانسان بعد موته وهي: الذكرى العطرة والأثر المتجدد مع تجدد الحياة.. ظفر بحبكم وعواطفكم التي كانت تدفئه في منفاه والتي تدفىء روحه اليوم وتمده بحياته الأخرى..

نعم.. لم يحصل زكي خيري على كل ما يتمنى أن يحصل عليه.. فطموحاته واسعة وعظيمة وأحلامه ليس لها حدود.. كان يتمنى أن يعيش حتى تتحرر البشرية من الرأسمالية وتتمتع بكل منجزاتها الحضارية.. كان يصور لي مدن المستقبل وهي تعوم في المحيطات ومنتزهات اليابسة وهي تعج بأنواع الحيوانات والأثمار.. كان يحلم بتحرر البشرية من أعباء الحياة ولاسيما المرأة فيصمم ملابس المستقبل وغيرها من الحاجيات الانسانية التي لايعاد استعمالها بل يعاد صنعها آلياً.. كان يتمنى أن يشهد مولد القرن المقبل.. قرن انعتاق البشرية.. وكرس الجهد الأكبر من تفكيره لتجديد الحركة الشيوعية وفكرها لثقته بأنها حاملة رسالة تحقيق حلم البشرية هذا.. فكتب في مذكراته:

ها قد مضت سبعون عاماً ونيف وأنا أكتب هذه السطور.. فما أسرع ما ينطوي الزمن! ولست آسفاً على مافات، إذ اتذكر قول الفيلسوف جون بريمون: الشيخوخة هي أن يحل الأسف على مافات محل الأمل بما هو آت.. كيف آسف وقد نذرت حياتي لتحرر الانسان من استثمار أخيه الانسان ومن ظلمه!. هذه القضية وهي أعظم القضايا تستأهل تكريس حياة جيل وجيلين أو أكثر..

تمتع زكي خيري بكل العواطف الانسانية النبيلة.. عرف الحب ولهفة العاشق وعذاب الحرمان والشوق الممض دون أن يخل في التوازن بينها وبين منبعها الأساسي: حب الوطن والانسانية وكان سعيداً بانسجامهما لأننا كنا شيوعيين قبل أن نلتقي وكل منا يخضع كل شيء للهدف الأسمى.. كم كنا سعيدين بكل خدمة وكل تضحية نقدمها في هذا السبيل.. وكان دائماً هو الرائد وهو الموجه..

وكم تلهف على تحسس طعم الأبوة.. ولم يتمتع بها إلا بعد الرابعة والخمسين.. وكم سهر ليهدىء روع يحيى ويسكن ألمه في طفولته الأولى وكم رعى وداد وأرضعها ليفسح لي المجال للنضال.. وكان سعيداً بالتوفيق بين جميع هذه المهام الرائعة.. وكم أسعد يحيى ووداد بالنزهات القليلة ولاسيما في شوارع بغداد القديمة مقابل وزارة الدفاع قبل هدمها حيث كان بيت العائلة لعدة أجيال والنخلة الباقية والكنيسة القديمة.. ولكن انغماره التام بالمهمة الأساسية في حياته كان لها تأثيرها على الأولاد وعبر عنها يحيى مرة قائلاً: كم أتمنى أن ألعب مع بابا وأتعامل معه كصديق كما يفعل كل الأطفال.. أنا لاأستطيع أن أفعل مثلهم لأنني احترمه كثيراً وأقدر اهتماماته ولذلك سوف أتزوج وأنجب الأطفال مبكراً حتى لا أحرم أطفالي من هذه المتعة..

ومع ذلك فإنه وسوف يبلغ الثلاثين في نهاية هذا العام ولم ينجب أطفالاً لأنه يعتبر ذلك مسؤولية كبيرة يجب الاستعداد لها.. ويحيى كثير التأثر بخصال أبيه: حبه للمعرفة مثابرته وصبره.. وقد عبر عن مشاعره اتجاه أبيه برؤوس أقلام أراد قولها في حفل التأبين هنا ولم يستطع:

عاش التاريخ من أول سيارة إلى القنابل الموجهة بالليزر

كان مجدداً بدون أن تتملكه الخيلاء في إمكانية صنع التاريخ..

متواضعاً.. متسامحاً.. صارماً.. كريماً.. أميناً.. عنيداً

وخلف ذلك كله قلب عامر بالحب للناس وللعراقيين خصوصاً

نعم يملك يحيى الكثير من قابليات أبيه وكذلك وداد وهذا يسعدني. فوداد رقيقة المشاعر عميقة الشعور بالمسؤولية رغم فرط حساسيتها وكم أقلقني كبتها لعواطفها إذ لم ترني دمعة واحدة ولم أسمع منها سوى جملة واحدة يوم المصاب: ماما لم أشبع منه بعد.. وكما كتب عنا في مذكراته وسرعان ما أصبحنا فرقة عمل.. فنحن سنبقى فرقة عمل رغم اختلاف أوضاعنا، نعمل ونحلم لنكمل عمل وأحلام زكي خيري معكم..

زكي خيري مثال للانسان في جبروته وأحلامه الزاخرة بالحب العميق للوطن والذوبان في مشاكل شعبه والبحث الدائم عن الحل لها.. تغلغل عشق العراق في دمه منذ نعومة أظفاره

وتحسس جماله ومكامن سحره عندما كانت تضطر عائلته للتنقل بين مدن العراق واقضيته قبل أن يشهد دخول أول سيارة.. فكان يتنقل مع العائلة على ظهور الحمير أو المراكب النهرية وحتى الكلك وأحياناً عبور نهر الفرات العاتي بالقفة. وتمتع بضفاف الرافدين وتاه في نخيل البصرة وتصور الجنة الموعودة ورفضها باعتبارها جنة الكسالى وأخذ يصور جنة حقيقية من صنع البشر وبنشاطهم وإبداعهم الذي ليس له حدود..

كم أحب زكي خيري شعبه وتغلغل في أعماقه وتحسس كرمه وتعاطفه وشعر بمعاناته وتمرداته ضد الحكم العثماني ومن ثم البريطاني فكانت تشيد في أعماقه أسس الوعي الوطني والقومي قبل أن يبلغ العاشرة من عمره.. وأصغى لمناقشات أبيه وأعمامه في ثورة العشرين في البيت وفي الجوامع وتلقفت ذاكرته الغضة عبارات ثورة اكتوبر وحكومة الفقراء.. وما أن تعلم القراءة والكتابة حتى تعود قراءة الصحف فكان يقرأ الجريدة التي يشتريها لأبيه قبل أن يوصلها إلى البيت ثم اعتاد الذهاب إلى نادي التضامن لقراءة الصحف العراقية والعربية بعد انصرافه من المدرسة حيث ينسى الجوع والتمتع باللعب مع أترابه ليغرق في أخبار الوطن العربي وأخبار الاتحاد السوفيتي والصين.

وبدأ وعيه يتفاعل مع الأحداث اليومية ولم يزل يافعاً ويحضر المقاهي السياسية. فكان من نشطاء أول مظاهره طلابية في العراق تطالب بحرية الرأي عام ١٩٢٧، ومن نشطاء أول مظاهرة عراقية ضد الصهيونية عام ١٩٢٨ وتفاعل مع تطور الحركة النقابية في العراق منذ نشوئها وكتب العرائض للعمال وساهم في بلورة أفكارهم ومطالبهم في أواخر العشرينات وواكب تطور حركتهم عام ١٩٣٦ بعد انقلاب بكر صدقي وصدور قانون العمل رقم ٧٢ لسنة ١٩٣٦ والنضال من أجل تطبيقه ونشط بينهم عام ١٩٤٦ بعد النصر على الفاشية من أجل تأسيس نقاباتهم على أسس جديدة. وفي وثبة كانون ١٩٤٨ خصص حيزاً كبيرا من جريدة الاساس للنشاطات العمالية التي طغت على كل النشاطات الجماهيرية ودعمتها وأرعبت المستعمرين وعملائهم.. فجاء كراسه (ربع قرن من تاريخ الحركة النقابية في العراق) الذي كتبه في السجن عام ١٩٥٤ تلخيصاً لذلك التاريخ المجيد للطبقة العاملة العراقية الفتية.

قرأ زكي خيري (الصحفية) أول جريدة ماركسية تصدر علناً في العراق صدرت لفترة عام ١٩٢٤ ثم لفترة عام ١٩٢٦ وتأثر زكي خيري بأفكارها التحررية ولاسيما في ميدان تحرير المرأة فكتب أول مقال له للصحافة دعى فيه لتحرير المرأة عام ١٩٢٦ باسم مستعار لامرأة.

نعم زكي خيري نصير صادق للمرأة قرن القول بالعمل دائماً في هذا الميدان أيضاً وأهدى مذكراته للمرأة العراقية وفاءً لها لما منحته من عطف وحنان في المدينة والريف في الجنوب وفي كردستان فقد تحسس معاناتهن وصبرهن وتلمس طموحهن وشجاعتهن واستعدادهن للتضحية وقدر دائماً دورهن في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ودورهن في النضال ضد الدكتاتورية ومن أجل تحرير العراق وصيانة حاضر ومستقبل شعبنا.

وفي وقت مبكر شعر بأهمية التنظيم السياسي وقام بعدة محاولات فجة لم يكتب لها النجاح فأدرك أن ما يحتاجه أولاً هو المعرفة ولايمكن الحصول عليها إلا بروح التلمذة فواصل حضور حلقات الرحال الداعية الماركسي الموهوب الأول والتقى بأصدقاء جدد وتوصل إلى ضرورة دراسة اللغة الانكليزية لتوسع معارفه. وكان أول مشترك عراقي في جريدة الحزب الشيوعي البريطاني: (مورننك ستار) في أواخر العشرينات.

وإذ تحرر مبكرا من الدراسة النظامية وهو في الثاني متوسط عام ١٩٢٨ وجد نفسه مكبلا بقيود الوظيفة إذ عمل موظفاً في الجمارك حتى عام ١٩٣٥ حيث فصل بعد اعتقاله..

انتظم بالحزب الشيوعي العراقي في آذار ١٩٣٥ ليكون عضو اللجنة المركزية ومحرر جريدته المركزية (كفاح الشعب) التي سجل إصدارها تحول (لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار) إلى (الحزب الشيوعي العراقي).

وإدراكاً منه لأهمية القوات المسلحة في بلد يفتقر لأبسط الحريات الديمقراطية ويرزح تحت نير التبعية الامبريالية وجه زكي خيري اهتمامه لتعبئة وتنظيم الجنود والعمل على كسب القوات المسلحة إلى جانب الشعب وسلب أعداءه من أداتهم الضاربة وناضل دائماً من أجل الفهم الماركسي اللينيني لدور ومهام الجيش وجوهره المزدوج باعتباره أداة السلطة لقمع إرادة الشعب من جهة وباعتباره الجزء المنظم والمسلح من الشعب الذي يدافع عن الوطن ويمكن كسبه إلى جانب الشعب الوطن في المعارك الفاصلة ضد السلطة وانتقد كل فهم وحيد الجانب لطبيعة الجيش سواء التمجيد المجرد مثل: صانع أمجاد الشعب.. أو اعتباره جيشاً عقائدياً وكتلة صلدة تسير وراء الدكتاتورية. وقد برهنت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وانتفاضة ١٩٩١ على أهمية دور كسب القوات المسلحة ودروها في نضالات الشعب الحاسمة.

وبشعوره الأممي العميق عمل من أجل سياسة تضمن الحقوق القومية للشعب الكردي بما فيه حقه في تقرير مصيره وكانت له كتابات وصداقات ومواقف مبدئية ومساهمة أساسية في صياغة أول مشروع برنامج للحكم الذاتي لكردستان العراق في برنامج الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٦١ وربط تحقيق ذلك بقيام نظام حكم ديموقراطي في العراق وتفهم شعار الحكم الفدرالي باعتباره شكل من أشكال الحكم الديمقراطي في بلد متعدد القوميات وناضل دائماً من أجل النظام الديموقراطي الذي يضمن حق تقرير المصير للشعب الكردي ودعى إلى تعبئة وتوعية الشعب الكردي ليأخذ مصيره بيده دون الاعتماد على القوى الخارجية وحمايتها التي لم تكن إلا لخدمة أهدافها ووسيلة للتدخل في شؤونه الداخلية وإثارة الفرقة والمشاكل، ودون الاعتماد على القيادات القومية البيروقراطية التي وضعت مصالحها الخاصة فوق مصالح شعبها وكبدته الآلام والكوارث التي عجزت الدكتاتورية عن تحقيقها.

عايش زكي خيري الفلاحين العرب والأكراد وغيرهم من أبناء شعبنا ودرس قضيتهم التي يكمن في جوهرها قضية الأرض. وكرس جهودا كبيرة لدراستها منذ الأربعينات ونشر بحثاً على حلقات في جريدة الأساس عام ١٩٤٨ لم يستكمل بسبب إغلاق الحكومة للجريدة وواصل اهتمامه بالقضية في السجن ولذلك استطاع بعد ثورة ١٤ تموز أن يقدم للحزب الأسس العامة للسياسية الزراعية والإصلاح الزراعي وألف كراسه (مسائل في الإصلاح الزراعي) عام ١٩٥٩ وطور سياسة الحزب في مجال القضية الزراعية وحقوق الفلاحين مع بقية الرفاق وفقاً لتطور الظروف وبالاستفادة من الكونفرنسات الفلاحية التي كان يحضرها.

وتميز شعوره القومي العربي بطابعه الأممي ونظر دائماً إلى الوحدة العربية من وجهة نظر ماركسية باعتبارها طموح مشروع للشعوب العربية ومصدر قوة في نضالهم ضد الامبريالية ومن أجل التقدم والديموقراطية وموئل دعم للسلم والتحرر في العالم يستند إلى وحدة التاريخ واللغة والأهداف المشتركة. واعتبر زكي خيري قضية الوحدة العربية من مهام الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية المقترنة بقضية الديمقراطية التي تعترف للقوميات الأخرى المتعايشة معها بحق تقرير المصير كما اعتبر دائماً أساسها الراسخ هو الاقتصاد المشترك ولذلك نجد الامبريالية اليوم تعمل بكل جهودها لقتل كل بوادر التعاون والتكامل الاقتصادي بين الدول العربية وتقديم مشروع (السوق الشرق أوسطية) الذي تشكل إسرائيل محوره وأداة الرأسمال العالمي للهيمنة على المنطقة من المحيط إلى الخليج.

وانتقد زكي خيري غلاة الوحدويين الذين اساءوا إلى الوحدة العربية أكثر من أعدائها سواء عن طريق تجاهل إرادة الشعوب العربية أم عن طريق فرضها بقوة السلاح كما فعل صدام حسين فكان غزو الكويت أكبر انتكاسة لقضية الوحدة العربية.

وساند زكي خيري دائماً حركات التحرر الوطني العربية ولاسيما القضية الفلسطينية وفي نكسة حزيران عام ١٩٦٧ بلور زكي خيري شعار حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بنفسه بما فيه حقه في إقامة دولته على أرضه واستنكر سياسة التهافت من قبل بعض الحكومات العربية للصلح والتطبيع مع إسرائيل المستندة على مصالح الرأسمال العربي والعالمي والصهيوني والمصادرة لإرادة الشعوب العربية بالقهر والدكتاتورية.

وعمل زكي خيري من أجل وحدة القوى الوطنية منذ الأربعينات وكان يرى دائماً بأنها من المهام الأساسية للحزب الشيوعي العراقي الذي يشكل محورها لأنه يجسد وحدة الشعب العراقي بكل قومياته وفئاته الاجتماعية وطوائفه الدينية ويعبر عن مصالحهم وهو الذي يربط بين حاضر العراق ومستقبله ولاتعيقه عن تحقيق حرية الوطن وسعادة الشعب لامصالح فردية ولا فئوية. وأكد دائماً على شرطين أساسين لقيام التحالفات الجبهوية الناجحة الأول: أن تقوم على الأسس الوطنية المعادية للامبريالية.. والثاني: استقلالية كل طرف من أطرافها وعدم فرض قيادة أي منها على الجبهة.

وإذا يعترف الجميع بهذين الشرطين إلا أنه من الصعب إقران هذا القول بالعمل في ظروف العراق الذي لم يذق طعم الديمقراطية إلا لماماً وحيث تقمع إرادة الأفراد بل والاحزاب بقوة السلاح. وإذا استطاع زكي خيري الصمود في موقفه هذا خلال ثلاث سنوات كان يقود فيها مفاوضات الجبهة مع حزب البعث في السنوات: ١٩٧٠-١٩٧٣رغم كل التهديدات بما فيها التهديد بالاغتيال، وسجل موقفه المبدئي في رفض التوقيع على ميثاق الجبهة في اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في نيسان ١٩٧٣ فإنه التزم بقرار الحزب وبالدعوة له وفقاً للتقاليد الحزبية التي أصبحت بآلية وعائقاً أمام تطور الأحزاب الشيوعية ولاسيما تحريم تبشير العضو الحزبي المخالف برأيه بل وإمعاناً بالقسوة يفرض عليه التبشير ضد إرائه ومن هنا كانت معاناة زكي خيري التي رافقته طويلا حتى تمكن من التحرر منها في مطلع الثمانينات عندما شعر بخطر الالتزام بهذا التقليد الحزبي على المصالح الوطنية فنشر كراسه (الحرب العراقية الايرانية وقضايا الثورة) عام ١٩٨٧ بعد أن استنفذ كل الوسائل التي يتيحها النظام الداخلي للحزب لعرض أرائه في قضايا جوهرية تمس مصلحة الشعب والوطن استمرت خمس سنوات.

حضر زكي خيري مؤتمر لجنة العمل المشترك للمعارضة العراقية الذي عقد في بيروت في آذار ١٩٩١ وانتفاضة شعبنا كانت في أوجها وأهمل طلبه بضرورة عودة المجتمعين إلى بغداد لقيادة الانتفاضة مباشرة حيث كان السبب الأساسي لفشلها غياب القيادة السياسية لها.

زكي خيري صحفي وكاتب وأديب يتميز بأسلوب أخاذ ذو نكهة خاصة تجمع الجدّ والفكاهة والسخرية.. تأسر القارىء وتشده.. يكره الحشو والتطويل والكلمات الرنانة ويجهد إلى إيصال القارىء إلى ما يريد أن يعلم مباشرة ويبسط أعقد الأفكار بأسلوب ممتع لايفقدها جوهرها.. ورغم معارفه الموسوعية كان يشعر بالحسرة والندم لأنه لم يكمل تعليمه وبكل جد ومثابرة وحتى آخر يوم في حياته كان يتلقف الكتب العلمية ويغرق في دراستها بما فيها كتب الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلوم اللغة وكان يزور أرقى المعاهد العلمية والكتنولوجية في البلدان الاشتراكية ويصغي للعلماء في شرح آخر منجراتهم وتأثيرها على تطوير انتاجية العمل وفي آخر ليلة وقبل ثماني ساعات فقط طلب من يحيى في مكالمة تلفونية أن يرسل له أحدث الاحصائيات الدولية عن الاقتصاد العالمي..

وزكي خيري ذواق للشعر والغناء يطرب للجيد منهما ويحفظ الكثير من الشعر الجميل ولاسيما شعر المتنبي والجواهري.. وقدس العلم والأدب والفن وقدر عالياً دور العلماء والأدباء والفنانيين

ودروهم في تطوير البشرية وإدرك معاناتهم وهو منهم في ظل العلاقات الرأسمالية التي حولت طاقاتهم الابداعية إلى بضاعة وأكد على ضرورة تلاحم شغيلة اليد والفكر من أجل تحرير البشرية فهم طليعة البشرية وخالقي قيمها المادية والروحية.

وكم ناضل زكي خيري من أجل رفع المستوى الثقافي للشعب العراقي عامة وللشيوعيين خاصة وساهم في مكافحة الأمية بين العمال عام ١٩٢٨ في مقر أول مركز نقابي عراقي (جمعية أرباب الصنائع) وصاغ أكثر البرامج الثقافية للحزب الشيوعي العراقي وناضل من أجل ايصال الكتب قبل السلاح للأنصار مقدراً أننا حزب سياسي ثوري تفرض علينا الظروف أحياناً حمل السلاح ولكن قوتنا الاساسية في فكرنا وسياستنا التي تستمد فاعليتها من تفاعل أفكارنا مع الواقع ومن استجابتها لمصالح الجماهير التي تحولها إلى قوة مادية.. وكم كتب زكي خيري الكلمات الرائعة في تثمين دور حركة الانصار وتضحياتهم وقدم الدراسات لتطويرها وناضل من أجل إرسال البعثات لاتقان مختلف العلوم والفنون العسكرية.. وكم تألم لتشويه مواقفه من حركة الانصار التي طالما حلم بها وهو يقرأ عن حركات الانصار منذ فجر التاريخ وأراد لها أن تكون نموذجاً إنسانياً معاصرا تستطيع أن تسهم بفعالية في تحرير شعبنا وبناء مستقبله.

زكي خيري شيوعي ثابت وتميزت شيوعيته بحزبيته المتينة وحبه لرفاق حزبه ووفائه لشهدائه. كرس حياته وفكره لخدمة وطنه وشعبه والانسانية ولذلك كان همه الرئيسي ينصب على تقوية حزبه وتصليب رفاقه ليكون معهم أهلا للمهمات الجبارة التي تقع على عاتقهم. وعمل من أجل تجديد الحزب وتطوير نظريته وبرنامجه استجابة لمتطلبات العصر التي تفرض الجهد العلمي المتواصل والتفاعل المتفتح مع الأحداث وتجديد الشعارات وأساليب ووسائل الكفاح ولذلك لايمكن فصل سيرة حياته عن تاريخ الحزب الشيوعي العراقي الأمر الذي ساعدنا معاً على إصدار كتاب (دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي) عام ١٩٨٤

وناهض زكي خيري الجمود العقائدي والعدمية على السواء وكرس الكثير من جهده لدراسة النظرية الماركسية اللينينية وسبر أغوارها وقدرتها على إطلاق الفكر لاستيعاب الحاضر واستشراف المستقبل ومتفتحاً لكل ثمار الفكر الانساني.. تتدفق طاقاته الفكرية أثناء الكوارث والنكسات ليجعل من كيانه وفكره مشعلا يبدد الأوهام وينير السبيل لتجتاز القوى الخيرة المحنة وتنهض من جديد بقوة أكبر وخبرة أغزر لمواجهة المهمات بثقة بقدرتها وبقدرة البشرية على تحرير نفسها. وأكد على أن انهيار المنظومة الاشتراكية إنما هو فشل مؤقت في السيرورة التاريخية نحو الاشتراكية وليس حتمية تاريخية بل نتيجة حتمية لتراكم الأخطاء الذاتية التي لعبت فيها الصدف دورا سلبياً معيناً وهذا ما يميز الظاهرات الاجتماعية التاريخية عن الظاهرات الطبيعية. ولولم تكن شروط قيام الاشتراكية ناضجة تاريخياً لما شارك فيها ملايين البشر لعشرات السنين متحملين أقسى التضحيات من أجلها.. والنظرية الماركسية اللينينية قادت الانتصارات التاريخية العالمية منذ ١٩١٧ حتى أواسط هذا القرن. وهي ليست مسؤولة عن الجمود والأخطاء ثم الانهيارات بل هو النوم على النظرية. فالماركسية ليست عقيدة بل نهج للعمل هذا ما أكده مؤسسوا الشيوعية العلمية وجميع تلامذتهم وهي لاتعطي عقائد جاهزة بل نقاط انطلاق لأجل مواصلة البحث وطريقة البحث.. إن نظريتنا ليست عقيدة جامدة بل توضيح لعملية التطور التي تنطوي على جملة من الأطوار المتلاحقة ومن هذا يتضح بأن أجزاء من النظرية تشيخ، تتخلف لأن عملية التطور لاتتوقف وهذا الواقع يستلزم بتر الأجزاء الشائخة وتطوير نظريات جديدة تجاه الأطوار المتلاحقة الجديدة وعلى أساس النظرية العامة نفسها ومنهجها. إذ لايمكن الفصل بين النظرية والمنهج فالنظرية تجسيد للمنهج في فترة تاريخية معينة والمنهج مرشد لتطوير النظرية لمرحلة جديدة.

ولاشك بأن دراسة مؤلف زكي خيري (وحدة النظرية والمنهج) الصادر عام ١٩٩٣ عن نشرة (خبر) وفي الثقافة الجديدة في ثلاث حلقات بغيد كل إنسان مهما كان اتجاهه السياسي فالمعرفة العميقة في عصرنا أصبحت من أسس متطلبات فهم الواقع الذي نعيشه والعمل على حل مشاكله.

زكي خيري وطني حميم وبغدادي أصيل بعشق وطنه بسهوله وجباله.. بنهريه الخالدين.. وبنخيله الشم.. عايش هموم وطموحات الشعب العراقي بكل قومياته وفئاته واضطر بعد سفره من العراق عام ١٩٧٨ لحضور مؤتمر الشعب العربي في دمشق للبقاء فيها وأحبها بعد بغداد وعاش فيها ثماني سنوات وكانت أمنيته عدم مغادرتها إلا إلى بغداد وبدأ فيها كتابة مذكراته عام ١٩٨٧ وبألم وحسرة غادرها إلى برأغ حيث أكمل الجزء الأول من مذكراته التي لم تنشر حتى الآن.

وأقسى مراحل الغربة الانتقال الأبعد عن الوطن.. إلى السويد.. ولكنه وجد في السويد نوعاً من الاستقرار النفسي وانعش طاقاته آلاف الشبيبة العراقية فحاول أن يتدفأ بهم ويدفئهم.. أن يكون بينهم يتبادل معهم الأفكار ويتعاون معهم للوصول إلى ما يخدم شعبنا ووطننا.

كان إحساسه العميق بآلام أطفال العراق وعذابات الأمهات وجراحات الرجال تفجر طاقاته الفكرية متحدياً أعباء السنين وآلام الغربة من أجل إنقاذ شعبنا من الدكتاتورية ولم تتزعزع ثقته يوماً بقدرة شعبنا على التحرر من الهيمنة الامبريالية ومن الدكتاتورية وأكد دائماً على:

- التعويل على شعبنا في تحقيق البديل الديموقراطي وليس على العامل الخارجي المتمثل بالدول الامبريالية وصنائعها مثل (المؤتمر الوطني الموحد).
- النضال من أجل إلغاء الحصار الاقتصادي عن العراق بدون أية شروط لتنطلق طاقات شعبنا في النضال من أجل إسقاط الدكتاتورية وإقامة البديل الديمقراطي الذي يضمن حق تقرير المصير للشعب الكردي.
- النضال من أجل كسب الجيش إلى جانب شعبنا.
- النضال من أجل وحدة القوى الوطنية على الأسس المعادية للامبريالية وضرورة تواجدها على الساحة ولا سيما في بغداد حيث يتقرر مصير العراق ورفض فرض إرادة أو قيادة أي من أطرافها على الآخرين.

لقد رحل عنا زكي خيري في وقت يمر فيه شعبنا ووطننا بل والانسانية في أقسى محنة ونحن في أمس الحاجة إلى فكره المتقد ووضوح رؤيته وثقته العالية وعزيمته الصلبة.. وعزاؤنا حضوره الدائم الذي تغذيه منطلقاته الأساسية في حياته العملية روح التلمذة والدأب على اكتساب المعرفة.. تحرير الفكر والإرادة وتعميق الشعور بالمسؤولية تجاه الشعب والوطن والانسانية.

وكم آلمني رحيله في ١٩/ شباط/ ١٩٩٥ دون أن تكتحل عيناه برؤية هذا الجزء من مذكراته الذي أنجزه عام ١٩٩١ بين يدي القراء ويتحسس تأثرهم بها وتفاعلهم الوجداني بصورها الحيوية.. وكم أحزنني فشل محاولاته المتكررة لنشرها خلال أربع سنوات فلم يجد المشجع لكتابة الجزء الثاني رغم ثقته بأنها ستكون يوماً في متناول الجيل الصاعد من أبناء شعبنا وتسهم في تعزيز قدراتهم وإغناء تجاربهم في النضال من أجل مستقبل مشرق للعراق والإسهام الفعال في تحرير البشرية.

كانت تساؤلات الرفاق والأصدقاء وتشوقهم لقراءتها تلهب مشاعري وتضطرم بدمي وتمدني بالطاقة لاقتحام الصعوبات.. فشكراً وألف شكر للحزب الشيوعي السوري حزب خالد بكداش ورفاقه على جهودهم وحميتهم الرفاقية التي تكللت بإصدار هذا الجزء من مذكرات زكي خيري في الذكرى الأولى لرحيله.

سعاد خيري ١٩٩٥/٩/٢٠

تقديم

حثّني العديد من الرفاق والاصدقاء على أن أكتب ذكرياتي، فأبيت عليهم ظناً مني أن الكتابة عن الذكريات شأن من شؤون الشيوخ المتقاعدين. فكيف أحيل نفسي على التقاعد ولا أزال دون الثمانين؟! هيهات!!

ولكن زوجتي سعاد مشعل، شريكة حياتي وزميلتي في عملي ورفيقة نضالي، لم تكف يوما واحداً عن تذكيري بواجبي نحو الجيل الطالع، بتذكيره بتجارب (الآباء المؤسسين) الذين أمسوا أجداداً ولم يبق الا واحداً يسرع الخطى كلما اقتربت نهاية الشوط. بيد أنّ شيخاً واحداً فقط استطاع ان يورطني في محاولة كتابة الذكريات هو: ظهير عبد الصمد الحمصي الشامي، العضو السابق في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري. فقد قال لي مرّة:

- يجدر بك ان تكتب ذكرياتك فانت عندما تتناول موضوعاً تحيط به من جميع جوانبه.

كان هذا الثناء أقوى مشجع لي لكي أقدم على كتابة ذكرياتي التي لا أملك وسيلة لتذكيري بها سوى ذاكرتي التي تشيخ مع عمري. فالتحاقي بالتنظيم السري في شرخ شبابي عودني على أن أتلف كل وثيقة وكل ورقة قد تفيد العدو الطبقي أو عدو الوطن، في اكتشاف التنظيم. أما مكتباتي فقد زادت على العشرة ذهبت جميعا إما طعمة للنيران على يد أهلي خوفا من الملاحقة البوليسية او صودرت لتتلف على يد الشرطة السياسية التابعة لدولة تكره الكتاب وتخافه كما يخاف الشيطان من النار. في بلد عرف شعبه بحب الكتاب ولا سيما الكتب النظرية وفيه لأول مرة نظرت اللغة العربية كما يؤكد طه حسين، المؤرخ للادب العربي الكبير، وفيه اكتشفت أقدم اللوغاريتمات.

شرعت في الشام منذ منتصف عام ١٩٨٨بكتابة هذه الذكريات بلا مراجع ولا أسانيد ولا وثائق ولا يوميات. وخلال السنوات الست المنصرمة انجزت سعاد أم ولديي تبييض المسودات مرتين أو ثلاث. ولولاها لما خرج هذا الكتاب بالصورة التي يراها القارئ بفضل ما بذلته هي من تشذيب وتهذيب وتبويب.

وكلي ثقة سيجد هذا الكتاب طريقه إلى يد القراء يوماً.

زكي خيري

استوكهولم ٢٥/ ١٢ /١٩٩٤

1

مولدي

ولدت في ١٢ نيسان (ابريل) ١٩١١ (سنة الثلجة) بعد شتاء فريد في تاريخ بغداد المعاصر إذ هطل الثلج كثيفاً وبلغ حد الركبتين. ولدت في دار كانت في الساحة المجاورة لجامع المرادية مقابل قلعة الدفاع. وفي هذه الساحة كانت أيضاً الدار التي تعاقب على سكناها نحو سبعة اجيال من آبائي منذ القرن الثامن عشروكانوا من عساكر القلعة.

أما أمي فهي من بدرة (بدرايا) على الحدود الشرقية من الأكراد الجنوبيين (الفيلية). كان أبي مأمور مخفر الدرك (الجندرمة) في البلدة وقد رآها وهي لا تزال صبية تلعب مع أترابها. فشغف بها وخطبها من أهلها بعد أن دفع لهم كل ما لديه من مال مهراً لها. وكان أبوها فقير الحال كثير العيال، فزوجها للدركي البغدادي الذي يكبرها ١٥ سنة. أمّا هي فقد استسلمت لإرادة أبيها شأنها في ذلك شأن أية فتاة عراقية من ذلك الزمان. وقبلت أن تتزوج الرجل الذي لم تره سوى مرة واحدة عندما أطلق عليه أحد الشقاة نار بندقيته وكسر فخذه ليعرج عليه طوال حياته، وقد رثت حاله لامها في حينه دون ان تدري أن القدر سيحفظه لها ليتزوجها فيما بعد.

وفي بحر خمس سنوات فقط وقبل أن تبلغ العشرين وتنبت لها الأرحية الأربعة (أسنان العقل) غدت أماً لثلاثة أطفال، أكبرهم زكية، وأوسطهم أنا، وأصغرهم كامل ثم أنجبت بعدهم أربعة أطفال آخرين ماتوا جميعاً، وعمرنا نحن الثلاثة. ورغم كل ما عانته في حياتها، حافظت على مسحة من الجمال الذي أسرت به أبي حتى شيخوختها. وإلى جانب طبعها الحاد كانت تتحلى بذكاء فطري وقاد ومع أنها كانت أمية فقد كانت سياسية بالسليقة. وعندما كنا نعتقل وندخل السجون كانت تنقلب إلى لبوة تدافع عن أشبالها. ولا أعني أنها كانت مشجعة لي في نضالي السياسي بل كانت خصماً وطالما حاولت أن تثنيني عن النشاط السياسي خوفاً مما يجره علينا من تضحيات. وعندما اعتقلت للمرة الثانية في تشرين الثاني ١٩٣٧في الموقف العام في باب المعظم واعتقل أخي كامل، وكان عريفاً في القوة الجوية، في معسكر الوشاش، بقيت أمي لوحدها في الكرادة الشرقية تعد لنا الطعام وتتراكض لتوصله إلينا على بعد الشقة بيننا وصعوبة المواصلات عهد ذاك. كانت تجادل الشرطة، الذين كبسوا بيتنا، بجرأة وتدافع عن حقنا في قراءة الكتب وتقرعهم على كبس البيوت وإقلاق راحة الناس مع أنها كانت تعلم علم اليقين بنشاطنا الثوري وخطره على السلطة القائمة.

كان الجيران يسألونها: لماذا حبسوا ابنك؟ فتجيب:

- إنّه يسعى لإقامة دولة الفقراء ويدافع عن حقوق العامل والفلاح.

كانت فكهة طيبة المعشر وتتمتع بشعبية خاصة لدى الفتيات. خفيفة الظل لا تثقل على أحد في زياراتها لصديقاتها اللواتي كن يحاولن عبثاً إبقائها مدة أطول في ضيافتهن. وبعد وفاتها

حضرت الوفاة إحدى صديقاتها الأصغر سناً وطالبت بأن تُدفن إلى جانب أم زكي في مقبرة وادي السلام في النجف، مع أنها سنيّة المذهب، آملة أن تأنس بجوارها من وحشة القبر المظلم.

وقد روت لي ثمينة ناجي يوسف كيف أقنعت أم زكي بالمشاركة في مظاهرة الرفيقات تضامنا مع اضراب السجناء السياسيين عن الطعام قبيل ثورة ١٤/ تموز /١٩٥٨ فشاركت بالمظاهرة واعتقلتها الشرطة مع الرفيقات الشابات ومن ثم دخل عليهن في قاعة التوقيف ضابط الشرطة وطلب منهنّ أن يتعهدن بألا يعدن إلى التظاهر ليطلق سراحهن. فسكتن لحظة يفكرن فيما عسى أن يكون عليه الجواب إذ لم تكن لديهن تجربة سابقة مع الشرطة فبادرت العجوز زينب محمد (أمي) إلى الجواب بدون تردد: بلي نطلع للمظاهرة ما دام أولادنا مضربين! فخيم السكوت، سكوت الرضى، عليهن جميعا. وخرج الضابط بخفي حنين وأطلق سراحهن بعد قليل من دون أي تعهد، فقد كان الجو السياسي مشحوناً بارهاصات ثورة ١٤ تموز.

كانت والدتي تحسن الاقناع طلية الحديث عندما تريد أي عندما يروق مزاجها وإلا فهي خصم لدود عندما تضيق بها الأمور، ويتعكر مزاجها. وقد مات زوجها فترملت وهي في الثالثة والثلاثين. لاتزال (إحديثة) ولم تشأ ان تتزوج ثانية وترك ذلك أثره السلبي على الجانب المشرق من طبعها الحساس.

أما أبي فقد كان من نسيج آخر تماماً. كان الابن البكر لأبويه، وأبعد الأبناء عن قلب أبيه. إذ كان ولداً جامحاً. يريد أن يكون نفسه بنفسه ويعمل ما يعن له على بال رضي أبوه أم لم يرض لانهاية لاهتماماته وأهوائه. كان أبوه ضابطاً مسلكياً بدأ جندياً متطوعاً (نفر) حتى غدا يوز باشياً (رأس المئة) او (نقيبا) بلغة اليوم العسكرية.

وراح الولد الضال يجرب كل شيء: فساعة تجده مع عمال البناء ليسقط من أعلى الجدار ويكسر أنفه ويحمل هذا التشويه طوال حياته وأخرى يدخل المطبعة ويدس إصبعه بين دواليبها فتكسره ويبقى إصبعه معوجا حتى الموت أو يخاصم شقياً هارباً من (وجه العدالة) في بدرة يحاول ان ينتزع منه عنوة بندقيته التي تتوقف عليها حريته وحياته فيحذره الشقي منذرا متوعداتارة وراجياً متوسلا تارة اخرى. فيأبى إلا أن ينتزع منه سلاحه ولم يبق أمام الشقي سوى الضغط على الزناد باصبعه وتثور طلقة واحدة لتكسر عظم الفخذ وليبقى خيري سعيد أعرج بقية حياته.

وذات يوم من أيام البطالة، وما أكثرها، أراد أبي أن يشغل نفسه فامسك بالفأس وأخذ يهدم جدار المطبخ المائل للانهدام ليقيمه. فانزعجت أمي جداً وحذرته من العقارب فأعارها أذناً صماء كعادته مواصلا عمله بكل إصرار فثار بركان غضب أمي ورفعت يديها إلى السماء ذارعة إلى ا لله أن يرسل عقرباً ليلدغ زوجها جراء عناده. فلبى ربها دعوة أمته على الفور وبعث عقرباً من عقارب الجحيم فلدغت بعلها وراحت هي تهرول وتولول لتسعفه من لدغة قد تكون مميتة استجلبتها هي له بدعواتها الحارة من ربها الذي لا يخيّب أمثال هذه الدعوات عادة.

عندما تخرّج والدي من المدرسة الابتدائية أراد الدخول في الثانوية العسكرية بيد أنّه اسقط في الفحص الطبي لعلة في عينيه. وكان الطبيب يقنع بست ليرات ذهبية أي ما يعادل راتب جدي لشهر واحد لتغيير التقرير بيد أنّ جدي ترفع عن دفع (الجزية) لأنه كان ضابطاً ويجب أن يكون ابنه ضابطاً بالوراثة. ويقال أنّ السبب الحقيقي: سخطه على ابنه العنيد. فتطوع أبي في سلك الدرك حتى كسرت رجله فانتقل إلى وظيفة حكومية ككاتب باوطأ درجة من درجات الافندية. وهكذا بقي حتى وفاته مع فترات بطالة طويلة.

2

طفولتي

ولعل أقدم ما تعيه ذاكرتي كان في الثالثة من عمري. كان بيتنا في زقاق رأس الكنيسة في محلة الميدان عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى وهذه الحارة على الطريق من شارع الرشيد حتى جامع الفضل. خرجت يومها من البيت قرب الكنيسة وهي كنيسة أرمنية قديمة بنيت في القرن السابع عشر، ومشيت شرقاً باتجاه جامع الفضل وضللت الطريق فلم أعرف كيف أعود إلى أهلي. وفي سوق الفضل أخذني أحد الأخيار إلى بيته القريب حيث قوبلت من أهله بعطف وحنان أنساني، حتى جاء المنادي يناد: وين ابن الحلال؟ وين اللاكي ولد؟ وكان المنادي (الدلال) سلف المذيع الذي يعطي في يومنا هذا أوصاف المفقودين ويطلب من يعثر عليهم تسليمهم إلى أقرب مركز للشرطة. ولازالت في ذاكرتي صينية العشاء الحافلة في ذلك البيت الشعبي عندما نادى المنادي فقمت على الفور!

تلكم كانت اللمحة الاولى من وطني وأهله الكرام وعتها ذاكرتي بحيث لم تمحها الأيام وكانت الذكرى الثانية السفر من بغداد جنوباً إلى العزيزية (نحو ٩٠) كيلو متر على خط مستقيم وإضعاف ذلك مع مجرى النهر الملتوي كالافعوان جنوب بغداد. كانت وسيلة النقل الحديثة الوحيدة المركب البخاري. وكان رصيف المراكب عند المسناة المعروفة باسم (المصبغة) في نهاية شارع السموأل كما كان يسمى مؤخراً وحيث تقوم الآن عمارة الدفتردار للأوقاف ذات الأربعة عشر طابقاً. فركبنا: أمي وأختي وأخي الصغير الرضيع وأنا وكان أخي مريضاً لا يكاد يكفّ عن البكاء. وفرشنا المطارف والحشايا على متن المركب المحتشد بالمسافرين. وكان في وسط المركب فجوة كنا نرى في أسفلها ماء النهرالفوار. وفي مؤخرة المركب (سربس) وهو دولاب ضخم يدور بقوة البخار ليسير المركب ولا أذكر، كم من الوقت بقينا في المركب لأن ذاكرتي لم تكن تعرف الأيام ولا الساعات. وفي العزيزية استقبلنا أبي وكان موظفاً فيها.

ثم عدنا إلى بغداد وقد مات جدي وكثر عيال والدي. وغادرنا بغداد إلى الرمادي (الأنبار) ولم تكن بينهما أيّة واسطة نقل سوى الحمير أو عربات حلب التي تجرها الخيل. فامتطينا الحمير بعد أن شد المكاريةالحشايا على ظهورها وأجلسونا فوقها وسرنا في طريق (الجزيرة) بين النهرين الخالدين. وفي الطريق انطبعت في ذهني أول صورة لتربة الوطن. كانت علامات الخصب: الاشواك والعاقول بادية للعيان..وكان المكارية يلتقطون لنا بيوض الدراج (الحجل) والقطا المرقطة من بين الادغال والجل (سيقان الحنطة والشعير المحصود)، فنزدردها وهي نيئة. ولم يكن لشهيتنا حد. وكانت السفرة ممتعة ومن المحال نسيانها. ولا أذكر كم بتنا في الطريق ليلتين ام ثلاثة.

وحط رحالنا على ضفة الفرات اليسرى (الجزيرة) في أقرب مكان للعبور إلى الرمادي في موسم الفيضان الربيعي. كان ماء النهر الخابط يفور كالتنور. وعبر النهر جاء أبي لاستقبالنا ومعه حزام

من الرجال تأهبوا لأي طارىء. وانطبعت في ذاكرتي آنذاك ثلاثة تلاويين من الأحمر: خابط الفرات الفوار ووجه ابي الاصهب وكان في عز شبابه وطربوشه الأحمر القاني. وراحت ملامح وطني في ذاكرتي تغتني بالالوان والتلاويين.

لقد بلغنا من الرحلة مرحلتها الحرجة إذ كان علينا عبور الفرات وهو في اوج طغيانه الربيعي ولم تكن هنالك أي واسطة آلية للعبور، لاعبارة ولا معدية ولا حتى جسر. فكيف نذلل هذا المارد الجبار (السلطان الجاري) كما يسميه شعبنا وهو في عنفوانه؟ وكان في مقدوره ان يقتلع الصم الراسيات ويجعل من الجزيرة الفراتية بحرا لجيا؟! وماذا كان يستطيع ان يفعله من اجل عبورنا ابي وحزام رجاله في الصوب الاخر سوى التشجيع الذي يعطيه إيانا مجرد حضورهم ليرعونا بنظراتهم، وكأنها حبال النجاة، واحتمال إنتشالهم إيانا بعد الغرق أحياء أو أموات! وكان الفلاح ابن النهرين يعبر الشط كلما دعته الحاجة وفي أي وقت بفضل نشأته البرمائية بواسطة زق ينفخه ويشده بقبضتيه إلى صدره ويجذف برجليه مكدسا ثيابه فوق رأسه ليشق عباب اليم عاريا كما ولدته أمه. ولكن أحداً لم يكن ينتظر منا طبعاً نحن العيال الحضريين حتى أن يلامس جسد أحدنا وإن لمساً ذلك التيار الخابط البارد الهائج المائج المعربد المدوي وكأنه حصان الملك الضليل:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وجد ابن النهرين وسيلته منذ عشرة الاف سنة ونيف إذ اضطرته الحاجة إلى اختراع (القفة) وهي سلة محيوكة من القش ومطلية على ظاهرها بالقار تشق اليم بقوة ذراعي الرجل النحيف المزدري القابض على مغرفة من اللوح لا تزيد مساحة عن مضرب التنس يدفع بها الماء من الجانبين بقوة ساعديه المفتولين وكأنه موسى يشق اليم بعصاه الاسطورية.

ركبنا القفة نحن التسعة عمي أنور وجدتي مريم وعمتايا منيرة وفخرية وأمي زينب وشقيقتي زكية وشقيقي الصغير كامل وأنا، مع الملاحين النحيلين المعروقيين. وغاصت بنا القفة حتى شفتيها وبدت للناظرين من بعيد وكأنها كربة جريد تحمل قربانا لخضر الياس (القديس جرجيس) الذي لا يغادر الشط. ونشب الصراع بين الانسان الجبار وأمه الطبيعة: بين الملاحين النحيلين والسلطان الهادر الجاري بمنتهى العنفوان. وتصارع الملاحان مع أمواجه العاتيه وسلاحهما اللوحين الاهيفين من الخشب. وانتصرت إرادة الانسان. ولكن السلطان الجاري انتقم لكرامته إذ جرفنا بعيداً وقطعنا في العبور مسافة هي اضعاف عرض النهر.

وركبنا مطينا من جديد إلى البلدة القريبة المنشودة. وكان اول عهدي بالفرات الذي امضيت على ضفافه بين الرمادي وأبو صخير (الحيرة) ردحا طويلامن طفولتي وصبايا. ومن أصغر التفاصيل تولدت تلك الظاهرة العظيمة التي هي حب الوطن. كما يولد نهر دجلة الجبار (ومن النطاف النزر مولده) كما يقول شاعرنا الكبير محمد مهدي الجواهري. وقد رأيت تلك النطاف النزر بام عيني في شمال الوطن تقطر من ركام الثلج على ذرى كردستان عندما تلفحها شمس تموز المحرقة.

أمضيت أكثر من سنتين من طفولتي في الرمادي وكانت في الاصل خاناً اسمه (خان الرمادي) وفيه محطة لعربات بغداد ـ حلب. ثم خططها كبلدة عصرية ومركز قضاء الدليم، والي العراق التركي الليبرالي الكبير مدحت باشا. وكانت المدة التي قضيناها في الرمادي خلال الحرب العالمية الاولى التي عرفنا فيها الغلاء وشحة المؤن. وكانت العيلة كبيرة وراتب الوالد صغير يدفع له بالليرات التركية الورقية. وكان سعر صرفها بالليرة الذهبية يتدهور بسرعة فلكية. وكانت العشائر ترفضها ولا سيما مربي الاغنام وتطلب الدفع بالذهب. وانقطع نهائياً استيراد السكر والشاي الذي كان تعاطيه محصورا بالافندية والحضر الميسورين. وحتى التمر اصبح نادرابعد سقوط بغداد بيد الانكليز. وذات يوم كنت بصحبة عمي أنور ننتظر دورنا عند القصاب وفتح جاره البقال ظرفاً

صغيراً داكناً من جلد الماعز فاسفر عن تمر يتضوأ كالياقوت. فتوقف القصاب عن قطع اللحم فجأة ورنى إلى التمر كالمتوحمة وفتل شاربه الاسود المعقوف وسأل البقال:
- كم سعر الاوقية؟ (٣٢٠ غراماً). فرد البقال:
- ببيشلغ (٥ قروش صاغ او نحو درهم عراقي). فقال القصاب
- هات نصف اوقية (نحو ١٥حبة تمر)، حتى أكسر هذي النفس الدنية، نفس الكحاب! معنفاً نفسه لضعفها أمام التمر كما لو كان يتشهى اكلة نادرة باهضة الثمن كالكافيار الروسي، أو كأساً من الشامبانيا الفرنسية!

وذات يوم من أيام الشتاء طبخ الاهل عشاءً من اللوبياء الحمراء الجافة باللحم. وبينما كان القدر يغلي على النار اكتشفوا فجأة جيفة قط في البئر الذي أخذوا منه ماء الطبخ. فحلت النكبة. إذ قذفوا كل ما في القدر على كومة القمامة. وحتى يومنا هذا اتشهى أحياناً في أيام الجوع عشاء: اللوبية الحمراء باللحم شتاءً وأذكر جيفة القط اللعين عندما أخرجت من البئر. فالخسارة لا تعوض. وكان فطورنا ولا سيما في الشتاء: حساء (الكشك) وهو جريش القمح المعجون باللبن الخاثر المجفف للادخار.

وذات مرة طرق باب الدار طارق فخرجنا اليه وإذا هو جندي تركي وسيم الوجه وفي مقتبل العمر وعلى رأسه برنيطة صغيرة جميلة (أنورية) تيمناً بإسم وزير الحربية أنور باشا المشهور عهد ذاك. ولولا الحرب لحسبته طالباً من الفتوة. فشكا الجوع! نعم الجوع! بمدلوله البسيط الاولي الطبيعي، أي الحاجة إلى الخبز المجرد. والحال كانت اكداس الطحين والدهن والدبس... والخ تملأ عنابر الجيش التركي حتى السقف ووجدها الانكليز كذلك عند احتلالهم الرمادي وأباحوها للفرهود (النهب الجماهيري). كان الفساد بين القادة العسكريين الأتراك قد بلغ النخاع. أعطينا الجندي التركي حفنة تمر فخلع الانورية ووضع فيها التمر الزهدي القسب. وراح يأكل والدمع يتناثر من عينيه متنافساً مع النوى المتساقط من فيه. كان الجندي التركي مقاتلاً رابط الجأش وعندما يحتدم القتال كان يركع كما لو كان يصلي ويشد ركبتيه بلفافي ساقية ليكبح نفسه عندما تسول له بالهرب.

اشتغل عمي أنور جابياً لضريبة الماشية (الكودة) ليشارك في إعالة العائلة. وكان لا بد له أن يشتري حصاناً ينقله إلى المراعي. وكان سوء الحظ يترصده فقد نفق له بضعة حصن الواحد بعد الأخر. إذ كان الوباء منتشرا بين الخيول في الدليم عهد ذاك. وفيما كان ذات مرة يساوم على بغل عند باب بيتنا، وقفت أنا في المكان الخاطئ خلف البغل. فرفسني في صدري حيث القلب ورأيت بعيني لأول مرة في حياتي نجوم الضحى.

كان خط الدفاع التركي عند الرمادي، عند قاعدة الحبانية الان، في برزخ (الجرف الأحمر) بين الفرات وبحيرة الحبانية. وكان أول هجوم بريطاني على البلدة في رمضان بعد سقوط بغداد بثلاثة أشهر. وقد صد الأتراك الهجوم واستخدم المهاجمون الطائرات على ارتفاع كبير فوق البلدة وقد نهضنا في الصباح الباكر مذعورين من صوتها حيث كنا نائمين في فناء الدار. وقد اصيب شقيقي الصغير كامل بفزع من صوت الطائرة وصراخ النساء. وبقي يفزع في نومه ويصرخ خلال عدة سنوات بعد الغارة وينهض من كابوسه مذعورا.

وتطوعت مجموعة من نساء البلدة الباسلات لسقاية الجند الأتراك. وكن يحملن قمام الماء على اكتافهن ويتراكضن في قيض تموز المحرق غير مكترثات بالطائرات البريطانية المحومة فوق رؤوسهن ترشهن بالرصاص، وقداستشهد بعضهن، بعد أن أدين رسالتهن الانسانية بشرف وشجاعة.

وكانت العشائر متقلبة الاهواء تبعا لتقلب ميزان القوى بين الطرفين المتحاربين وكان الفلاح العراقي لا يعرف عن الجندي التركي سوى الحملات (التأديبية) حملة كل ثلاثٍ سنوات لجباية الضرائب المتراكمة عن الماشية. وكان معظم العشائر الدليمية يسكن عهد ذاك بيوتاً من شعر الماعز بدلا من بيوت المدر (الطين) وسرعان ما كانوايقوضون خيامهم وينتشرون في البادية هرباً من الجيش التركي. هكذا انقضت أربعة قرون من الحكم التركي العثماني في العراق.

وفي يوم من الايام دخلت كوكبة من الفرسان العشائريين تحمل على الرمح رأس عسكري انكليزي أشيب، مهوسة أمام سراي (القائم مقام) لقضاء الرماديٍ. وبعد ساعات تركت الرأس على قارعة الطريق ليعبث به الصبيان وتركت البلدة. كان ذلك تعبيراً عن الولاء للاتراك. وفي الهجوم الثاني في الخريف دلوّا الانكليز على رأس جسر للانزال خلف خطوط الاتراك الدفاعية فكانت الضربة القاضية وانهار الدفاع التركي عن البلدة.

وعاد عمي سامي وهو شقيق أبي الاصغر من إستانبول ليهرب من الجيش التركي ويلتحق بالثورة العربية بقيادة شريف مكة الحسين إبن علي. وقد التحق معه أيضاً اثنان من ابناء العم: طاهر محمد عارف (ابو العقيد وصفي طاهر) أحد قادة ثورة ١٤ / تموز /١٩٥٨ وشقيقه عبد الرحمن محمد عارف (المصور الاهلي) مع عددكبير من الضباط العراقيين الذين هربوا من الجيش التركي بعد أن صدمتهم شوفينية الضباط الأتراك وغطرسة الالمان المهيمنين على قيادة الجيش التركي. وتحت تأثير الدعوة القومية التي نشرتها بينهم جمعية (العهد) وكانت أكثريتها من الضباط العراقيين. ولم أجد ما يدل على أن والدي قد تأ ثر بالتيار الجديد وبثورة (الشريف) إلا بعد جلاء الأتراك. إذ وضعت أمي بنتا فسموها (شريفة) تيمناً بشريف مكة الذي انتفض على الحكم التركي مطالباً بالاستقلال ومتحالفاً مع الانكليز والفرنسيين الذين كانوا قد تحالفوا سراً لاقتسام بلاد العرب الشرقية.

وفي الهجوم الثاني في الخريف على الرمادي سلط الانكليز نيران مدافعهم على بيوت السكان المدنيين مما دفع عائلتنا تفاديا للقذائف للإلتجاء إلى غرفة خلفية مظلمة بلا نوافذ معدة لحفظ مؤنة البيت. وبعد أن توقف القصف المدفعي خرجنا إلى فناء البيت فوجدناه مفروشاً بكرات الرصاص التي نثرتها قذائف الانكليز المتفجرة وراحت الأمهات يستخدمنها لسنوات عديدة للكشف عن (الفزة) أي ليكتشفن الشبح الذي افزع اطفالهن وسبب لهم المرض الفجائي. في حين كان الطب الحديث معدوماً أو بحكم المعدوم. فتذاب الرصاصة في المقلاة وتلقى في كأس فيه ماء فوق رأس الطفل المريض فيجمد ذوب الرصاص ويتخذ شكلا مبهماً يستعينون بذوي الحدس لتشخيصه: أهو روح شريرة أم قط أسود أم رجل مخيف من جنود الاحتلال أم امرأة حسود؟!.. والخ ليصفوا له العلاج المناسب.

ودخلنا غرفة عند الباب وفيها مكتب أبي فرأينا دفاتره وأوراقه وقد تعلقت بالسقف متدلية وكأنها عناقيد كاربونات الكالسيوم المتدلية من سقوف الكهوف (ستالكتايت). كان هذا الديكور من صنع القذائف المنثارية. وكان أبي قد نقل مكتبه من السراي، خوفاً من قصف العدو، إلى البيت.

ظن الكبار أن قرب مسكننا من السراي هو الذي جلب اليه قذائف المدفعية الانكليزية فانتقلنا في فترة صمتت فيها المدافع، وعلى وجه السرعة، إلى ابعد محلة عن السراي. ودفعتهم الغريزة البشرية إلى البحث عن كهف مظلم يأوي العوائل ليكونوا بمأمن من الخطر، كما كان الانسان الاول عندما يداهمه الخطر. فجمعوا النساء والاطفال من عدة عوائل في غرفة خلفية خاصة بالمؤن وجلس الرجال الراشدون في غرفة الاسقبال، قرب باب الدار يتكهنون عن نتائج القتال بين (الرجل المريض) تركيا والامبراطورية التي لم تكن الشمس تغرب عنها. ويحلمون بمعجزات تقلب

موازين القوى رأساً على عقب لصالح المسلمين. وفجأة يستأنف القصف وتشاء أول قذيفة أن تقصف سقفٍ (الكهف) وينطلق عياط الاطفال والنسوة ويهب الرجال النشامى للانقاذ. لم تقتل القذيفة أحداً بل أرادت فقط أن تضحك من أوهام الانسان الذي يبحث عن الامان عندما تشتعلٍ الحرب! هذا عندما لم تكن القنبلة الذرية قد اخترعت بعد. ومع ذلك فقد جرحت الشظايا عدداً من النساء والاطفال. وخدشت شظية منها جبيني فعمدتني كمحارب قديم خاض غمار الحرب العالمية الاولى وهو في السادسة!!

وكان تأثير القنبلة اسوأ على أعصاب أمي. إذ أصيبت بالذهول ولم تعد تعي ما يجري حولها يوم ذاك. وقبل أن يدخل الانكليز البلدة هربنا لاجئين إلى الأرياف إلى مضارب العشائر القريبة من البلدة. وأبت جدتي مريم وعمتي الكبرى منيرة أن تتركا البيت واستسلمتا للقدر مفضلتين ذلك على ركوب المجهول وكذلك حرصاً على ما في البيت.

خرجنا من البلدة حشرا مع الناس. وأسرينا على أنوار النجوم وخضنا مخاضات لا عدّ لها ولا حصر، مشياً على الاقدام العارية ندوس الشوك والعاقول. كنت متشبثاً بيد عمي أنور لآمن الغرق والضلال. ولما انبلج الفجر رأينا أفراداً من العشائر يجر كل واحد منهم بضعة خيول محملة بغنائم من الجيش التركي المهزوم. والويل للمهزوم! كان واضحاً أنهم قتلوا الجنود المقطوعين عن وحداتهم. وجردوهم من كل ما كان عليهم. وكان بعض أولئك الرجال يحمل عدة بنادق يبدو انه التقطها من ارض المعركة. كانت البندقية أعز قنية عند الفلاح والراعي. فهو مستعد للمجازفة بحياته ليحصل عليها. وكانت بنادق الأتراك القصيرة (كوجك جابلي) ألمانية الصنع. وبقي العراقيون يفضلونها على ما عداها حتى انتشار البرنو الجيكوسلوفاكية القديمة أيضاً. ثم انتقلت شعبية السلاح إلى الكلاشنكوف والسميرنوف، السوفيتية الحديثة القناصة ذات الناظور.

ويبدو ان الفرهود مثل الأكل لدى الفرنسيين كلما زاد زادت الشهية. فما أن رآنا العشائريون المثقلون بالاسلاب إلا وسال لعابهم من جديد فسلبونا كل ما يستحق السلب كالاحذية من الرجال ثم عادوا الكرة مع النساء فانتزعوا من كل ذات عباءتين عباءة واحدة وتركوا لها الاخرى. وفي المرحلة التالية أمعنوا في تخفيف الحجاب عن الحضريات الهاربات من الجحيم فتركوا لكل امرأتين عباءة واحدة. فقد أبت عليهم مرؤتهم العشائرية ان يجردوا النساء من العباءة كلياً. فالعباءة كانت للمرأة (سترها) عهد ذاك. وبقي مفتي البلدة الحنفي المذهب بمنجى من السلب والنهب. ولكن هذا لم يدم حتى الاخير. فقد انتزعوا منه أولاً الحذاء ليساووا بينه وبين سائر الرعية. ثم عاد أحدهم وكان مقنعاً بكوفية الرأس بحيث لا يبدوا من وجهه سوى عينيه وإشار بسنان خنجره إلى ساعة المفتي في جيب صدريته. ولم يكن يتكلم لأن المفتي كان يعرفهم واحداً واحداً حتى من اصواتهم ناهيك عن وجوههم. فلطالما التمسوه الفتوى ليستأنفوا نكاح زوجاتهم المطلقات في ساعة غضب من دون تجحيشهن، أي تزويجهن مؤقتامن ازواج آخرين. وكان الدليمي سريع الغضب على زوجته ويحلو له بخاصة في ساعة غضبه، أن يقول لها: طلقتك بالثلاثة! بلا رجعة ولا فتوى! وكان المفتي سمحاً متبحراً في الفقه. فلا يعجز في كل مرة من أن يستخرج الفتوى. ويجد العذر المشروع ليبطل الطلاق متفادياً مغبة التجحيش. ومن هذه الفتاوي السمحاء تقديم الطعام للفقراء ككفارة عن الاثم. فكانت شعبيته واسعة في ريف الرمادي. ومع ذلك لم يسلم من السلب وسلم ساعته الوحيدة في القافلة. وكانت ساعة جيب سويسرية أصيلة. وقد علمنا فيما بعد انهم أعادوا إليه ما سلبوه منه، عرفاناً بجميله. كما لو كان سلبهم اياه، كان مزحة فلاحية خفيفة.

وأخيراً وصلنا مضارب العشائر فرحبوا بنا وانزلونا في مضاييف رحبة في خيام من الشعر. وربما كانت «الدليم» آخر قبيلة فراتية انتقلت من بيوت الشعر إلى بيوت المدر. وكنا قد جلبنا معنا من

البلدة زادنا من الطحين وأخذ النسوة يشجرن التنانير. فأكلنا الخبز الحار الذي لم يكن في العالم آنذاك شيء اطيب منه واشهى! وتكرموا علينا باللبن الخاثر المخفف بالماء (الشنينة).

وبعد بضعة أيام عدنا أدراجنا إلى البلدة. ولأول مرة تقع أبصارنا على الفاتحين الجدد الذين احتلوا بلادنا، يعني الجنود البريطانيين. وكانوا اخلاطاً من أجناس بشرية شتى. ملابسهم زاهية، يعلو الريش خوذات بعضهم فاستوقفونا عند مدخل البلدة. ساعات طويلة وبعد التفتيش الدقيق عن السلاح سمحوا لنا بالدخول. ولفت أنظارنا أكداس من البنادق والمسدسات والسيوف والحراب تكدست أكواماً على قارعة الطريق هنا وهناك. وعلمنا فيما بعد ان جيش الاحتلال البريطاني قبل أن يدخل البلدة بعث بمنادي ينادي: يا أهل الرمادي! إللي عنده سلاح إيذبه بالطريق وإللي نشوف عنده سلاح عليه جزاء. ترى الانكليز عندهم بزونة (قطة) من حديد تشتم الكاع وتطلع السلاح المدفون.

ربما كانت مع المحتلين كاشفات الالغام. ولكنها قد لا تكون كافية للكشف عن جميع الاسلحة المخبأة. ومع ذلك فقد فعل التهديد مفعوله. ورمى أهلنا خوفاً حتى بسيف جدي الذي كان ذخراً يعتزون به. ودخل الضباط البريطانيون البيوت يفتشون عن الاتراك المختبئين وعن السلاح غير المدفون في الارض. ونهبوا ما خف حمله وغلى ثمنه كالحلي والساعات التي كانت من الاشياء النادرة في العراق عهد ذاك.

وعرض المحتلون على موظفي الادارة التركية العودة إلى وظائفهم. ولكن كثرة منهم لم تلب الدعوة خوفاً من عودة الاتراك التي بقيت أمنية مرتقبة لدى البعض حتى استسلمت تركيا. وقد استخدم دعاة ثورة العشرين شبح العودة لزعزعة هيبة الاحتلال البريطاني وليجرئوا الناس عليه. وامتنع والدي عن التوظف في حكومة الاحتلال بادىء ذي بدء واختار مهنة كاتب عرائض (عرضحالجي) واتخذ من تخت في المقهى مكتباً له.

كان الغلاء وضآلة الدخل لا تساعد على اعاشة عائلة كبيرة حتى على الخبز وحده فضلاً عن تسديد إيجار البيت. فقرر ابي الانتقال إلى الفلوجة على الفرات على بعد ٤٠ كيلو متراً على خط مستقيم إلى الجنوب الشرقي. وكانت السفينة الشراعية أرخص واسطة نقل. فركبناها. وكان النهر ضحلا (صيهود) في أواخر الخريف أو أوائل الشتاء فكان الملاحون يجرون السفينة بالحبال عندما لا تكون الريح رخاء او يرفعون شراعها فتجري مع الريح الشمالية الغربية باتجاه تيار النهر. ومن معالم السفينة الخالدة: التنور والعمة الهمامة فخرية تعجن ثلاث وجبات في اليوم. والملاح الخباز على استعداد ليخبز لنا خبزنا. ولعل تقاليد الملاحين المجيدة كانت تأبى عليهم أن يدعوا النساء يخبزن في السفينة وهم يتفرجون.

كانت سفرتنا مع مجرى الفرات المتعرج طويلة ومتعبة بسبب ضحالة مياه النهر. وعند سن الذبان، وهو جرف صخري يمتد إلى قاع النهر ليجعل الملاحة أمراً عسيراً عندما يهبط مستوى ماء النهر. فوجئنا بمنظر غريب لم نر مثله من قبل. فقد كان الانكليز عراة يسبحون في النهر ويلعبون كرة الماء. فكنا ننظر إليهم ونحن وجلين. ولعل سفينتنا كانت تذكرهم بسفينة نوح أو باجدادهم القراصنة.

استرجعنا أنفاسنا عندما اجتازت سفينتنا منطقة الخطر. وهنا بنى الانكليز فيما بعد قاعدة الحبانية الحربية بموجب اتفاقية ١٩٣٠ البريطانية العراقية. وفي أول بيان أصدره الشيوعيون العراقيون بأسم (لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار) وضعوا كأول مطلب (الغاء معاهدة ١٩٣٠ وقلع سن الذبان والشعيبة) وكأن كاتب البيان، عاصم فليح أراد أن يستعمل المجاز فالذبان تعني الذباب بلغة أهل العراق.

وصلنا الفلوجة لنقيم فيها وهي على بعد ٦٥ كم على خط مستقيم غربي بغداد مدينتنا التي كنا عاجزين عن العيش فيها في عهد ذلك الغلاء الفاحش.

استأجرنا بيتاً بسيطاً في طرف البلدة وكان مبنياً منٍ الطين أو بالاحرى الجص فالارض هناك كلها من خامات الجص وما عليك الا أن تحرث حوضاً (جوة) وتنشر فوقه الشوك أو ما يتيسر من البعرور وتحرقه وتحصل على الجص حاضراً للبناء. وقد فعلنا هذا لملج جدران الغرف. وكان جنود الاحتلال الهنود يبيعون خلسة بعض جراياتهم (الراشن) من السكر البني والشاي فصار الشاي آدام خبزنا. ومرة اجروا لنا جراية :وزنة (١٠٠كغم) من التمر الزهدي القسب. وكان ذلك اليوم عيداً حقيقياً لنا نحن الصغار. أما اللحم فكان نادراً.

وكان حاكم الفلوجة السياسي ضابطاً ارلندياً ساخطاً على الانكليز الذين قمعوا بلا رحمة ثورة شعبه عام ١٩١٦ وكان أبي يراجعه معقبا اشغال الناس ودعاويهم وسرعان ما وثقا ببعضهما فراحا يتناقشان في السياسة ويبدو أن أبي اطمأن من عدم عودة الاتراك فتوظف كمأمور شعبة، وهي أصغر وظيفة ادارية، في جدول أبو غريب. وانتقلت العائلة اليها وسكنت في مسجد جوار الخان في منتصف طريق بغداد الفلوجة حيث لم يكن هناك سوى هاتين البنايتين.

وفي الفلوجة بلغت السابعة. ومرة كنت ألعب بالكعاب مع إبن الجيران في دارهم فتشاجرنا على كعب وتماطلنا (تصارعنا) وتدحرجنا إلى حافة البئر وكانت حافتها رخوة من الجص فلم تتحمل الضغط من طفليين غاضبين متصارعين فانهارت بنا. وفجأة رأيت نفسي وكأنني اسقط إلى اعلا على سربس البئر (الدولاب) الذي يلف حبل الدلو. إذ رأيت صورة السربس منعكسة على صفحة الماء وبعد رمشة عين وجدت نفسي مع خصمي منغمريين في ماء البئر حتى الركبتيين. وسمعنا في لحظة عياط الاستغاثة من النسوة. وسرعان ما أطل الرجال المنتشلون علينا من أعلى البئر وادلوا لنا بالحبل. ساعدت خصمي وزميلي وكان اصغر مني سناً وجرماً على شد طرف الحبل على وسطه كما أوصانا الكبار من فوق وانتشلوني بعده.

وكانت دشداشتي (الجلابية) مبللة فجلست القرفصاء في الشمس طلباً للدفء. لم أكن أنانياً وقد تعلمت الإثار من الكبار فقد كانوا يحرمون أنفسهم من الحوامض والموالح، وكانت نادرة، كلما وجدت ليطعمونا إياها نحن الصغار.

وشرعت العب مع من هم أكبر مني عمراً من الصبيان. وكان أحب اللعب إلينا خوض المعارك بالسيوف. ولم تكن سيوفنا سوى اشرطة من الصلب تقيد بها البالات. وقد توفرت لنا من قمامة قوات الاحتلال وكانوا يقيدون بها مكعبات التبن المضغوط المستورد لخيولهم من أستراليا. وعندما يتطاير الشرر من ضربات سيوفنا على قارعة الطريق الصخرية كنا نحس بنشوة المنتصر وتذكرت تلك السيوف بعد أربعين عاماً عندما قطعنا براميل الماء إلى سيوف في سجن نقرة السلمان الصحراوي حيث كنا نهزها بوجه طواحين الهواء الخيالية.

ومن الحوادث التي لا تنسى أننا رأينا على ضفة الفرات سمكة (بزّ) ضخمة اصطادها الفلاحون بواسطة شص كبير صنعه الحداد المحلي وقد ربط بحبل متين من القنب ووضعت فيه سمكة كاملة كطعم والقي في النهر بعد أن شد طرف الحبل ببكرة الكرد وهو جهاز السقي المعروف الذي يستخدم فيه حيوان الجر الثور الجبار. وكنا نحن جوقة كبيرة من الصبيان فتطوعنا في الحال لجر السمكة الضخمة التي بلغ وزنها (٣٠٠)كغم، وسحبناها إلى السوق فتهافت عليها الشراة وكان جزاؤنا الوحيد التفرج ولم نسمع حتى كلمة اطراء أو شكر. لم نستغرب ولم نحزن فقد كانت متعتنا وأي متعة، سحب الوحش الهولة.

اشتغل عمي أنور تنديلا، يسجل العمال ويرافقهم إلى الاعمال الترابية العسكرية للمحتلين الجدد ولحمل الاثقال، ليراقبهم ويعود معهم ويوزع عليهم أجورهم يوماً بيوم. فسجلني لعدة ايام معهم كنت احظر فقط في التعداد الصباحي والمسائي واقبض اليومية لاسلمها إلى أهلي. وهكذا صرت عاملا باجرة يومية دون ان امارس عملا وانا ابن السابعة. وسرعان ما اكتشفت الحيلة وانتهت اللعبة. وأراد العريف الانكليزي أن يجرب شجاعتي فامسك بي من تحت إبطي وأدلاني في البئر. فتماسكت إذ غدوت مجرباولم أعد اخشى الآبار. ورأيت مرة في الفلوجة مركبا كبيراً وقد شله أي جنح على السن في قعر النهر الصخري تحت الماء الضحل في وسط الفرات أيام الصيهود. ولم تكن لدى قوات الاحتلال وسيلة لجره سوى قوة الرجال الاجراء من الفلاحين الفقراء. فرأيت العشرات من الرجال (المساليخ) العراة يشدون على الحبال سوية بايعاز واحد من رئيسهم (التنديل) ليزحزحوا قليلا المركب الجانح. وبعد أن يستعيدوا أنفاسهم يتكرر الايعاز والشد على الحبل وعلى هذا المنوال بعد ساعة أو ساعتين انتشلوا المركب الشاله وسحبوه إلى الماء العميق ليعوم من جديد. وكان الجنود يسددون آلات التصوير إلى عري هذه القوة البشرية التي ليس لديها من ادوات العمل سوى الحبل الازلي لتنقذ به أحدث اختراعات الثورة الصناعية الأولى. وكان المصاليخ يقابلون بالضحك متعجبين من اهتمام (السولجر) بآلة الحياة الخارقة التي فضلهم فيها واهبها على اندادهم المتمدنين.

كان المساليخ يأتون إلى العمل وليس على جلودهم سوى عباءة من الصوف الخشن من غزل ايدي نسائهم. وقد نفشوا فروة رؤوسهم لتقيهم ضربة الشمس. ويحسب المرأ لو يراهم بعد أن قلعوا المركب من الجرف الصخري أن بمقدور جهدهم الجماعي المركز ان يقتلع الجبال الراسيات. وزع عليهم التنديل روبية هندية (٧٥ فلساً) لكل منهم. كان واضحاً ان بريطانية جهزت حملتها بأسم (ميزوبوتامية) بلاد بين النهرين، لفتح العراق الاولى باموال الهند ورجالها مع أقلية من الجنود البيض من الناطقين بالانكليزية ليهيمنوا على العساكر الهندية. وكانت نسبة غير ضئيلة من الهنود من المسلمين. جاءوا ليحاربوا السلطان التركي (أمير المؤمنين وخليفة رسول العالمين خادم الحرمين الشريفين).

ومن الفلوجة عدت إلى بغداد بعد غياب عنها طيلة سنوات الحرب. عدنا من الفلوجة على سكة حديد حربي مؤقتة، اناوجدتي وكانت معتلة الصحة. جلسنا القرفصاء على الارض الحديدية لعربة حمل عارية من كل فراش وخالية من الركاب. ولم يكن في القطار عربات للمسافرين من أي درجة. وكان ذلك في شتاء (١٩١٨-١٩١٩)

كان يسكن بيت جدي لأبي عماتي من آل محمد عارف. وكان اللقاء بين النسوة بادئ ذي بدء حاراً كالعادة. استهل بالعناق والنحيب واختلطت الدموع: دموع فرحة اللقاء بدموع الأرامل والثكالى اللواتي فقدن اعزائهن في الحرب. ومن بابة الترحيب انقدوني آنة هندية واحدة، نحو (٥ فلوس) وقد حرت فيما عساني أن اشتري، إذ لم أعرف التصرف بالنقود من قبل. فرأيت صمونا ابيضاً جبل من طحين بمبي المستورد الناعم (نمرة صفر) فدفعت آنتي واشتريت صمونة لاجربها وعدت إلى البيت مسرعاً. فضحك العمات من هذا المعيدي الصغير الذي لا يعرف أن يشتري بآنته شيئا غير الخبز، والحال كان هذا موجوداً في البيت. ولأول مرة عرفت الصمون من أسماء الخبز الحسنى وأنه مجبول من الطحين ليس إلا!

وذات يوم أردفني عمي أنور وراءه على الحصان إلى أبو غريب ولم يكن هذا الاسم يعني سوى مسجد وخان كما أسلفت يسكن أهلي في الأول وكان في الثاني مكتب المأمور وهو أبي وبعض مهندسي الري للاشراف على جدول أبي غريب المتفرع من الفرات جنوبي الفلوجة والممتد حتى

أطراف بغداد. وكان عند المهندسين كلاب سلوقية للصيد وجربت هناك لأول مرة أكل لحم الارانب من صيدهم. ورأيت هناك لأولٍ مرة أيضاً واحدة من بنات آوى. ولأول وهلة حسبتها كلباً سائباً وتوقفت أنظر إليها ونظرت شزراً إلينا أنا وأخي الصغير، وسرعان ما ولت عنا مهرولة لاتلوي على شيء. وهناك مارست عادة سيئة ،إذ كنت ادخل في منخري أوراق (الحدمدم) وهو دغل أوراقه كأرجل الجراد ممسكاً إياها بكفي الأيسر لاطرقها بالكف الأيمن مردداً: حدمدم! حدمدم !جدح ميّ وجدح دم! حتى ينزف الدم من أنفي.

لم تكن حولنا جماعة من الأنس فاستوحشنا (جنة بلا أوادم ما تنراد!) هكذا يقول أهل العراق. وزرنا في أحد الأيام مضرباً من بيوت الشعر لجماعة من زوبع. فاستقبلنا النسوة الزوبعيات المضيافات هاشات باشات، بوجوههن الصبوحة وعيونهن تلمع بالبشر والترحاب. وتناولنا الكثير من الشنينة وزبدة الغنم في ذلك النهار القائض، قبل أن نعود إلى اهلنا في مسجدنا الخالي من المصلين.

ولم تطل بحبوحة العيش في أبي غريب فقد اكتشف الانكليز أن المنطقة كانت مسرحاً لنشاط رسل الثورة التركية الكمالية. وأنهم كانوا يحرضون العشائر على الثورة ضد الاحتلال البريطاني. فحامت الشبهات حول المأمور، أبي. ففصلوه عن وظيفته واعتقلوه. فرحلنا من جديد إلى بغداد في عام ١٩١٩.وكان الغلاء لا يزال متفاقماً والمعيشة صعبة للغاية. ولم تكن الحياة صعبة في بيتنا فقط وكان السخط يعم سائر البيوت. و الناس تجأر بالشكوى. وقد مضى على نهاية الحرب عامان دون حل أي مشكلة من المشاكل التي خلفتها الحرب.

ودخلنا أنا وأخي كامل الكتاب. وكان معلمنا، الملا أو اللالا وتعني بالبلوشية (المربي) والذي كان نفسه بلوشياً، أسمر اللون نحيفا معمما بعمة بيضاء هندية أو أفغانية الطراز. وعصى الخيزران الشريرة كالصل لا تفارق يده. كان يجمعنا في الصباح من بيوتنا فنمر على البيت التالي وننادي بأعلى أصواتنا زميلنا ليلحق بنا. وهكذا ندور على بيوت زملائنا الواحد بعد الآخر حتى يكتمل عقدنا ونذهب إلى كتابنا، وهو بيت اللالا، بعد ان نتسلق تبة الكرد (تلة الأكراد) وهي تلة شقها بعدئذ شارع الجمهورية. ولا أدري ما إذا كانت مقبرة قديمة أو رابية أثرية. ومع أن اللالا عليوي كان جلادنا وليس مربينا، فقد كنا ندافع عنه عندما يهاجمه الصبيان الغرباء أي غير المنتسبين إلى الكتاب. فتنطلق حناجرنا على الفور لتكيل للمعتدين الصاع صاعين وكنا دائما المنتصرين. فيرفع الملا صدره اعتزازاً دون ان يتخلى عن جلدنا أو جمع آناتنا، فيشتري ببضع آنات منها أرخص السكاكر أو الجزر أو الخس الشائخ متعدد الرؤوس، يقطعها ويعطي منها لكل منا ما يعادل عشر معشار الآنة. هذا فضلا عن أنه كان يتقاضى عن كل طفل روبية واحدة في الشهر. عدى عن هدايا العيد و(الختمة) عند الانتهاء من قراءة القرآن. وكان لا يتوانى عن جلدنا على أخامص أقدامنا بالخيزرانة بعد أن يلفها بالفلقة التي يشدها إلى متكأ المقعد الطويل الوحيد ويوعز لجمهرة الصبيان ليرتلوا القرآن بإيقاع معين يتجاوب مع ضربات العصي وبأعلى أصواتهم بحيث تطغي على صراخ الصبي المجلود لئلا تسمع أم اللالا العجوز المكفوفة صراخ الصبي فتشتم إبنها وتنهره وتنهاه عن الجلد. وفي المدرسة الحكومية فيما بعد وجدت معلمين ساديين أقسى من ذلك اللالا الأمي.

وخلال سنتين عند الملا تعلمت ان أقرأ دون أن أفهم بالطبع، جزئيين من الثلاثين جزءاً من القرآن وهما (جزو عمّ) و(وجزو تبارك) كما كنا نسميها وفي نهاية المطاف ختمت القرآن لوحدي مع نفسي قراءة غير جهورية فاحتجت احدى عماتي وقالت لي:

ـ إن الله لا يقبل منك أن تقرأ قرآنه بصوت غير جهوري وبلا ترتيل.

فلم آبه لاحتجاجها إذ لم يكن لدي من الصبر ما يكفي للقراءة الجهورية وللترتيل واعتدت كل حياتي فيما بعد أن اقرأ صامتاً مع نفسي وعلى انفراد وبسرعة حتى يغلبني النوم.

وفي ليلة من الليالي قرأت كتاباً عن الاسماعيلية (وادي الحشاشين) لفريا ستارك، وهم فرقة من المنشقين المسلمين المنعزلين في الجبال في اقليم خراسان بايران. وكنت في المتوسطة وعندما فرغت من قراءته زقزقت عصافير الصباح. وكانت صفحاته نحو ٣٠٠، ذلك لأن الزميل الذي أعاره إياي اشترط علي أن أرده إليه في اليوم التالي.

لقد تخلفت عن الدراسة النظامية ثلاث سنوات بالنسبة لهذا اليوم بفضل الكتّاب ومع ذلك فان قراءة القرآن في ذلك الوقت ساعدت في تكوين الملكة اللغوية لديّ

في تلك الفترة كنا نسكن داراً واحدة مع جدتي، خالة أبي. وكانت امرأة فارعة عاشت مائة وعشر سنوات ونيف محافظة على حواسها وسلامة عقلها وقدرتها على الحركة حتى الموت. كانت مؤمنة. ولكي تحثنا على الايمان كانت تعمل دعاية مغرية للجنة التي هي في السماء أو في حياة الاخرة. وكان أحلى ما يغرينا في جنتها الفواكه إذ كانت هذه نادرة في حياتنا فكانت تستغل ضعفنا هذا ازاء الفاكهة. وسألتها مرة:

- بيبي! أكو بالجنة تين رجاو؟ (وهو نوع من تين سنجار المجفف المشهور)

فضحك الجميع من تواضعي لأنني لم أشتهي من الفاكهة الاالمجففة تاركاً ارطابها! واليوم كم أشتهي تين سنجار أو تين رجاو، وما ابعد الرجاء! وكانت جنة جدتي كلثوم فيما عدى ذلك سادرة ساكنة فلا حر ولا برد، لا صيف ولا شتاء، لارياح ولا عواصف ولا حتى ضوضاء، ولا شغل ولا شاغل إلا التفكه ولا عمل ولا إبداع. فهي حقا جنة البلهاء (أغلب أهل الجنة البلهاء ــ حديث شريف) ولا أي تجديد والنمطية المملة المبلّدة قانونها العام. فمتى اشتهيت أكلة وجدتها جاهزة بين يديك قبل أن يرتد إليك طرفك وليس بك حاجة بعدئذ لتنظيف المائدة فسرعان ما تختفي وما عليها من صحون وفضلات ولا أن تذهب إلى التواليت. فلا هضم ولا قضم ولا إفرازات ولا حمام! فقد قالت جدتي التقية الورعة التي لم تؤجل موعداً للصلاة خلال مائة سنة ونيف مضيفة لاحاجة بك لأن تقوم من مكانك وتمشي خطوات وتمد يدك وتقطف الفاكهة من الشجرة لتأكلها. لاحاجة بك إلى كل هذا العناء فما أن تقع عينك على فاكهة أو رطبة حتى تسعى اليك وتستقر بين شفتيك. وتذوب في فمك دون أن تحرك فكيك!

كانت بغداد داخل حدود سورها القديم، باستثناء بساتين السنك في الجنوب، جرداء بلا خضرة ولا زهر ولا ورود لولا نخلة أو سدرة أحياناً داخل البيت البغدادي القديم العالي الجدران، وحديقة الأمة (ملت بقجه سي) الصغيرة انتقلت من جنوب قلعة الدفاع لتحل محلها البيوت إلى السنك قرب ساحة سمير أميس ثم إلى الصالحية حيث ساحة جمال عبد الناصر الآن.

وفي تلك الفترة أصبنا أنا وأخي برمد حاد ،كان وافدة أودت بأبصار عدد كبير من الأطفال. فراجعنا المستشفى (المجيدية) حيث الآن مدينة الطب، وكانت فيه العيادة الحكومية المجانية الوحيدة التي أسسها الاتراك ووسعها المحتلون الجدد في بغداد. وكانت مباني العيادة وقتية على الطراز الهندي (بنكالو) جدرانها كالحة مبنية من اللبن غير المشوي وسقوفها محدبة من (الجملون) مصنوعة من صفائح الفولاذ المضلع (الجنكو) ومطلية بالطين. وكان الشيء الذي يبهجنا الواح الورد (الجوري) الكثير وكان منظرها فريداً ونادرا ومبهجاً متعدد الألوان من الاحمر الغامق [illegible] وكذلك كانت وجوه (الماسيرات) الانكليزيات الزاهرة المرحة الطافحة بالبشر

[illegible] العمى

وذات يوم اصطحبني عمي أنور إلى قهوة الشط (مقهى البيروتي فيما بعد) على رأس جسر الشهداء صوب الكرخ. وكان الجسر عائماً عهد ذاك يعتمد على الصنادل واطئاً بحيث لا يحجب عن الناظر المشهد العباسي لرصيف دجلة في جانب الرصافة من المدرسة المستنصرية إلى قلعة الدفاع. وكان في جانب الكرخ مشهد آخر حيٌّ يخلب الالباب: طيور النورس. أجل طيور النورس في بغداد وكأنها لاذت بالفرار من حر شط العرب ولجأت إلى بغداد فاستهواها هذا الجسر العباسي الرومانسي الطافي فاتخذته ملاذاً لها وعشعشت في صنادله. كانت النوارس بيضاء ناصعة كالثلج العذري النقي لولا لطخات سود حالكة في اطراف ريشها من بقايا ظلام الليل الدامس ذوقتها بحذق ليزيدها الطباق بداعة. كانت تحووم النهار بطوله عند رقبة الجسر الكرخية تراقب فرائسها تحت الماء بعين الصقر وفجأة تنقض عليها كالصواعق مطلقة صرخات مروعة، صرخات الصياد الظافرة.

كان الجسارة يرعون أعشاش النوارس ويحمون فراخها. وبعد أن حل محل الجسور العائمة الأثرية جسور ثابتة راسية كالاعلام راحت الاوكار مع قوارب الجسر ومعها ولى الرعاة ورحلت الرعية. وفقدت بغداد منظراً رائعاً خلاباً. بيد أن أرواح النوارس ظلت تحوّم فوق الجسر في الكرخ من بغداد حتى يوم الجسر من ملحمة كانون الثاني ١٩٤٨ حيث رعين الكرخيات اللواتي اقتحمن الجسر تحت وابل من الرصاص المنهمر من أعلى المنائر يتقينه بعباءاتهن ليفتحن الطريق أمام الرجال الواثبين لنجدة إخوانهم المتظاهرين في الرصافة لتتكلل وثبة الشعب بالنصر وتعمد الجسر بدم الشهداء فسمته الجماهير بجسر الشهداء.

وتعود بي الذكرى إلى نوارس شط العرب التي كانت تبعث الطمأنينة إلى نفوس البحارة القادمين إلى بر السلامة. فلا سلام اليوم ولا بحارة مسالمين ولا نوارس السلام، بل القنابل والصواريخ تقصف وطني.

ونصبت في أحلام اليقظة نصبا للوثبة عند رأس جسر الشهداء من جانب الكرخ والفتاة الكرخية على رأس المظاهره تنطلق صوب الرصافة وقد شرّعت عباءتها، يحوم فوقها سرب من النوارس منطلقة كالسهم.

3

ثورة العشرين - مولد العراق المعاصر

استهلينا عام ١٩٢٠ المشهود في تاريخ العراق الحديث ونحنٍ في حال من العسر والضنك الشديد. كان أبي بلا وظيفة ويبدو أنه لم يكن على استعداد نفسياً ليكون كاتب عرائض من جديد يجلس على مقعد واطىء ويضع أمامه طاولة صغيرة ويكتب العرائض لمراجعي الدولة في مدينته بغداد كما كان يفعل في الفلوجة والرمادي بعد سقوطهما بيد الإنكليز. فكتاب العرائض في العراق عادة من الكهول العجزة. ولعل إنجراره للنشاط السياسي الآخذ بالصعود الذي استهواه عهد ذاك كان سبباً آخر. وكان عمي أنور بلا عمل يكسب منه إذ انتسب لدراسة مسح الأراضي ليتخرج مهندسا في (الطابو)، دائرة تسجيل العقارات. فلجأ والدي إلى الاحتياط الأخير للعائلة فباع مسكنها الوحيد وسدد ديونه واشترى طناً من الحنطة ليؤمن خبز العائلة لفترة من الزمن واستأجر مسكناً به مع أقرباء آخرين.

ولأول مرة كنت اسمع صوت أبي الجهوري في البيت، إذ كان يحتفظ به للمناقشات خارج البيت. أما مع العائلة فكان يلازم الصمت وينفث الدخان ولا يتكلم إلا عندما تستفزه أمه العصبية المزاج. وكانت تقرعه لتقاعسه عن تدبير مورد ثابت لمعيشة العائلة. ولكنه عندما يجلس مع أقربائه من الرجال كنا نسمع منه ومنهم كلمات جديدة وفكرات جديدة لا عهد لنا بها من قبل. بل أخذ ينكشف لنا عالم جديد تتضاءل أمامه كل تصوراتنا السابقة بما فيها تصوراتنا ومشاهداتنا بصدد الحرب التي عشناها لأربع سنوات عجاف.

ففي الفترة التي تلت الحرب مباشرة انتفضت النجف على الاحتلال البريطاني وقتلت حاكمها الإنكليزي وتحملت الحصار المنهك الذي ضربه العدو عليها. و كان وضع الاحتلال البريطاني في الفرات الأوسط على كف عفريت وانتفضت ألسليمانية على الحاكم البريطاني بقيادة الشيخ محمود الحفيد. و بالطبع لم تكن تلك الأحداث لتنعكس في أذهاننا عهد ذاك كمفاهيم مجردة كما سردتها الآن. فحتى الكبار كانوا يجسمونها كأشياء حية تتحرك مؤلفة من لحم ودم كما يفعل الحكواتي عندما يسرد الأساطير في حكايات الماضي البعيد. فعلى القارئ ألا يطمع في أن انقل له بنفس الحيوية والوضوح صوراً ذهنية لأحداث سمعت بها دون أن أراها وأنا طفل في التاسعة أو دون ذلك أي منذ حوالي سبعين سنة. ومن أبسط الصور أن الإنكليز قيدوا بالسلاسل (طوب أبو خزّامة) وهو المدفع الذي استخدمه السلطان مراد الرابع في الفتح التركي الثاني لبغداد، أوائل القرن السابع عشر، خوفاً من أن يساهم في الانتفاضة المسلحة للشعب العراقي. وآية المدفع هي أنه كان يبتلع الحجارة فيحيلها في جوفه إلى قذائف من حديد، ويلتهم التراب ليجعل منه باروداً يقذف به القلل الحديدية. أما الشيخ محمود الحفيد الذي غدا شخصية وطنية عراقية أسطورية حالما ثار على الإنكليز في كردستان، فكان ينفض الرصاص البريطاني من عباءته كما لو كان حب فلفل إذ كان يحمل (حجاباً) ورثه عن أجداده أحفاد الرسول، مشدوداً على زنده ليعصمه من الرصاص.

وأن عشيرة من عشائر الفرات الأوسط التي هبت ضد الاحتلال ولربما كانت عشيرة بني حجيم، كان رجالها قصار القامة كما يقولون ولكنهم سابقوا القطار المسلح عدواً لأن أرجلهم لا تنثني لانعدام الركبتين أو الرضفتين. كان هذا تلخيصاً ساذجاً لملحمة بطولية بين الفلاحين والقطار العسكري المنسحب من منطقة الثورة، استمرت عشرة أيام.

كانت هذه أساليب يعبر بها شعب ثائر لا يملك من الوسائل الحديثة إلا البندقية القديمة البالية وكان يخوض حرباً ثورية ضد جيش أوربي حديث مدجج بالسلاح وتحميه الطائرات والدروع. كان شعبنا يقاتل هذا الجيش بأبسط الأسلحة وحتى بأدوات عمله البدائية. وكان انعدام الركبتين أو إستحالة انثنائها تعبيراً فطرياً عن رفض الفلاحين الثائرين الركوع للعدو الجبار.

وفي تلك الأيام كان الجيش الأحمر السوفيتي الجديد قد طرد قوات التدخل البريطاني من وراء القفقاس ومن شمال إيران. وكان هذا الحدث التاريخي بالغ الخطورة بالنسبة للشعب العراقي. ولا حاجة هنا للمبالغة فالشعب الثائر على قوة عالمية كالإمبريالية البريطانية التي لم تكن الشمس تغيب عن أطرافها، هذا الشعب الثائر كان يحس بسليقته الثورية بأن قضيته لن يكتب لها النجاح من دون ظهير عالمي معادي للإمبريالية. فوجد ضالته بشخص روسيا السوفيتية التي انتصرت تواً على الحملة الصليبية المؤلفة من ١٤ دولة رأسمالية بضمنها جميع الدول الرأسمالية الكبرى المنتصرة في الحرب العالمية. كانت هذه قوة معنوية لا تقدر بثمن لشعب خرج تواً من سبات القرون الوسطى، فقد أخذت تتبدد الأسطورة القائلة بأن من المستحيل خروج الإنكليز من أرض دخلوها. ولذا بدأنا نسمع كلمات جديدة غريبة عجيبة مثل: «البولشفيك» بالطبع لم نعرف كنه الكلمة، جوهرها الداخلي بل التقطنا صورتها الحسية: مواكب بشرية لا نهاية لها تحمل غابة تغطي الأفق من الأعلام الحمراء والرايات. تواصل السير كتيار جارف ما من شيء يصدها. كانت هذه الصورة الذهنية التي تصورها ثوار ١٩٢٠ للبلشفية دلالة كافية على إدراكهم للطابع الشعبي للبلشفية ومنهجيتها وروحها الثورية التي لا تقهر. فما أذكى آباؤنا الثوار وأوعاهم وما أشجعهم. وقد ألهمتهم ثورة أكتوبر الظافرة وانتصارات الجيش الأحمر الفتي والمنهجية الجماهيرية البلشفية: أنه بالإمكان إسقاط الطغاة مهما بلغ بأسهم وجبروتهم وأنه من الممكن انتزاع السلطة من أيديهم.

كانت الطليعة من المتنورين وجلهم من (الافندية) أي الموظفين وتعيب عليم المس بيل السكرتيرة الشرقية للحكم البريطاني «أنهم طلاب وظائف» وكانت الوظائف جلها بيد المحتلين من أبناء الأسر الأرستقراطية البريطانية أو من خدمهم من الهنود.

وجاء رمضان المصادف ٨/ أيار ـ حزيران /١٩٢٠ وقرر الثوريون تسييسه وإعطاء حفلات المولد النبوي والتعازي الحسينية مضموناً وطنياً جديداً وكان ذلك بداية الأعداد العلني للثورة التي اشتهرت بثورة العشرين. ولعب الشعر العمودي وكان الفن السائد في العراق وإيقاعاته الحربية دوراً فعالاً في الدعاية والتحريك كالهوسة الشعبية بالنسبة للفلاحين.

وكانت حماية الاقليات ورقة لعب مفضلة يلعب بها الاستعمار في كل مكان لتفريق صفوف الشعب الثائر لتبرير قمع الثورة. ولكن ثوريي ١٩٢٠ الأذكياء عرفوا كيف ينتزعون هذه الورقة من يد حكومة الاحتلال البريطاني فبادروا إلى زيارة كنائس النصارى واليهود في أعياد الفصح ليرشوا مواطنيهم من الاقليتين بماء الورد. وقد كسبوهم فعلا ضد العدو المحتل. وفي لقاء مع الحاكم البريطاني، ولسن انحاز ساسون حسقيل الزعيم السياسي للطائفة اليهودية إلى الصف الوطني.

يقع جامع المرادية على شارع الرشيد مقابل وزارة الدفاع ويتحلى بمنارة كانت عهد ذاك أزهى وأبهى منائر بغداد باستثناء الكاظمين. وكان أبي في صباه قد تطوع مع المتطوعين في شق أساسها

حينما جدد بناؤها في أواخر القرن التاسع عشر. ولعل هذا كان سبباً لتحيزي لها. وكان السوّاح الأجانب أيضاً تستوقفهم ليلتقطوا لها الصور الفوتوغرافية، باعتبارها إحدى معالم بغداد القليلة التي تستحق التصوير. وقد تسنى لي رؤيتها بالتلسكوب من الطابق العلوي للثانوية المركزية فبدت لي أبهى وأزهى. وفي يوم من تلك الأيام الثورية من عام ١٩٢٠ دخلت الجامع من بابه الرئيسي على شارع الرشيد لأخرج من الباب الآخر، في طريقي إلى أهلي ففوجئت في فناء الجامع بجماعة من المصلين الخاشعين يصلون صلاة الجنازة على صف من التوابيت الشاحبة الرخيصة من صنع باب الآغا تبلغ الستة أو السبعة. علمت أنهم هنوداً مجندين في جيش الاحتلال وقد استشهدوا في معركة جرت في داخل المعسكر بينهم وبين جنوه من ذوي البشرة البيضاء. نقلوا إلى الجامع ليغسلوا ويحنطوا بالكافور ويكفنوا بالخام القطني الناصع البياض وليصلى عليهم صلاة الجنازة ويشيعوا إلى مثواهم في مقبرة الغرباء أو الشهداء شمال باب المعظم بعدة مئات الأمتار. وكان معظم المصلين من العراقيين. وما أن تمت الصلاة حتى تقدم ضابط هندي كبير من أول تابوت وببساطة هندية لا تقلد انكفأ على رأس الشهيد المسجى بعد أن أسفر القناع الأبيض عن وجه اسمر شاحب لرجل في عنفوان شبابه ليودع شاربيه الأسودين قبلته الأخيرة، وكأنه يودع طفله ويخشى أن يوقظه من نومه البريء الوديع. وهكذا انتقل من شهيد إلى أخر حتى الأخير فترك في مخيلتي اليافعة انطباعاً لا ينمحي عن الشهادة والشهداء ولا سيما تكريم الشهداء. ولا بد أن المشيعين العراقيين استنتجوا بان ليس كل شيء كان هادئاً في معسكرات الاحتلال.

أما بغداد فقد كانت تشيع شهدائها الذين أعدمهم المستعمرون على نحو آخر. إذ كانت تزفهم كالعرسان بالشموع المضيئة وطبول الحرب المروعة (الدمامات) الرهيبة الإيقاع.

ولم تعرف القيادة السياسية للثورة في بغداد كيف تحفظ نفسها لمواصلة النضال في بغداد عندما أرادت حكومة الاحتلال اعتقالهم ونفيهم فتشتتوا ولجأ بعضهم إلى الريف الثائر بدلاً من أن يعتصموا بجماهير بغداد التي كان بإمكانها حفظهم. إذ لم يهيئوا أنفسهم لأي مقاومة في بغداد، حيث لم يكن فيها آنذاك حتى شارع مستقيم واحد يصلح لرمي المدفعية أو لسير الدروع. وكان شارع الرشيد وحده يصلح لمرور العجلات المصفحة. وكانت الدعاية الاستعمارية تنشر الشائعات عن استعداد العشائر لنهب المدن. أما الحقيقة فإن حكومة الاحتلال هي التي كانت تشجع على الفرهود لترهب أهل المدن وتشل مقاومتهم للاحتلال ولتفرق بين المدينة والريف لتسهل سيطرتها عليهما جميعاً. وقد نظم وكلاء بريطانية الفرهود في بغداد عند احتلالها ثانية في حزيران ١٩٤١ وفي البصرة عندما دخلت القوات البريطانية بعد حركة مايس ١٩٤١.

وبعد حل القيادة السياسية وتشتيت شملها في بغداد انتقل زمام القيادة إلى النجف، إلى أيدي التجار والملاكين الكبار وإلى رجال الدين. وعندما اندلعت الانتفاضة المسلحة انتقل الزمام إلى شيوخ العشائر. وبلغت الانتفاضة ذروتها في أيلول ١٩٢٠ ثم أخذت بالهبوط ولم تشعر قيادة الاحتلال بزوال الخطر إلا في شباط ١٩٢١

وفي خريف ١٩٢٠ بعد أن بدأ مد الانتفاضة بالانحسار نصّب الإنكليز حكومة عراقية مؤقتة برئاسة السيد عبد الرحمن الكيلاني، نقيب أشراف بغداد، الذي قبل المسؤولية لهذه الوظيفة الدنيوية المحرمة على (درويش صوفي قادري) مثله رضوخا لإلحاح (الخاتون صاحب) على حد تعبيره. وعاد ضباط فيصل العراقيون الذين سحبهم الإنكليز من سوريا عن طريق قناة السويس بحرا إلى البصرة ثم بغداد. وكان بينهم ثلاثة من أعمامي: سامي سعيد، وطاهر محمد عارف أبو وصفي وشقيقه عبد الرحمن، فأكتظ البيت بالنزلاء الجدد. وكان ذلك حدث عائلي مثير وتبادل الرجال الأخبار السياسية مع أبي ووجدنا نحن الأطفال مع القادمين أشياء جديدة ملفتة

أدهشتنا ومنها الأطعمة المعلبة وأداة للطبخ تحرق النفط بضغط الهواء (البريمون) وكنا نصغي ببالغ الاهتمام إلى أحاديث الكبار القادمين من الشام، الجنة التي تجري من تحتها الأنهار، وعن الانسحاب الفاجع إلى قناة السويس والمعسكر الذي أسكنهم فيه الإنكليز والباخرة اليونانية التي أقلتهم من السويس إلى البصرة وكأنها سفينة نوح وكانت عامرة بالفئران.

وبعدها جاء الإنكليز بفيصل إبن شريف حسين بعد أن سحبوه من سوريا، التي بموجب اتفاقية «سايكس بيكو» تكون من حصة الفرنسيين وفقاً لتقسيم الغنائم بين المنتصرين. وكان فيصل صيغة للمساومة بين بريطانية وقيادة الثورة الوطنية. وبقي يلعب هذا الدور طيلة حكمه ملكاً على العراق أي حتى وفاته في أيلول ١٩٣٣ وكان جديراً بهذا الدور بخلاف ابنه غازي الذي قتله الإنكليز جراء طموحه قبيل الحرب العالمية الثانية، لضم الكويت إلى العراق.

4

العصا أيضاً

دخلت المدرسة وأنا ابن التاسعة. وكانت مدرستنا (البارودية) الابتدائية، وقد ابتلعها شارع الجمهورية. ولأول مرة أرتدي البدلة الإفرنجية وهي من نسيج قطني وليست مكواة وكأنها بيجامة سجين. جلست على الرحلة لأرى على السبورة تاريخ ذلك اليوم ١٩٢٠/١٠/١ عام الثورة العراقية التي أنجبت الدولة العراقية المعاصرة، فعرفت التقويم ميزان الزمن. و ها قد مضت سبعون عاماً ونيف وأنا اكتب هذه السطور فما أسرع ما ينطوي الزمن! ولست آسفاً إذ أتذكر قول جون بريمون: أحد نوابغ نجوم هوليود في أيام عزها التقدمي:

ـ الشيخوخة هي أن يحل الأسف على ما فات، محل الأمل بما هو آت!

كيف آسف وقد نذرت حياتي لتحرير الإنسان من استثمار أخيه الإنسان ومن ظلمه! هذه القضية وهي أعظم القضايا تستأهل تكريس حياة جيل أو جيلين أو اكثر.

كان مدير المدرسة ناجي القشطيني معمما هو أيضاً كما كان لالا عليوي مع الفارق، فقد كانت عمامته إستانبولية أشبه بإطار عجلة السيارة ملفوفة حول طربوش أحمر مبطن بحصير أسطواني. ولم يمسك قط بالحية الصفراء: الخيزرانة. بل كان في الشتاء يحمل زجاجة الغلسرين ليدهن ظاهر أيدينا المصابة بالمشق. وهو من أعراض البرد وسوء التغذية. ومع ذلك كنا نمل مواعظه الطويلة ونحن واقفين في فناء المدرسة. وكان أول نشيد تعلمناه

ظلمات الليل ولت   وانجلت شمس الفلاح

وكان لتلك الكلمات مغزاها السياسي في عام الثورة ذاك. وكنا ننشد النشيد الوطني المصري «مصر العزيزة أمنا»، ولكن بعد أن يحرفونه ليحل اسم المدرسة محل اسم الوطن لنقرأه: البارودية أمنا !

وكان من علائم التغيير إلغاء درس اللغة الإنكليزية في الصفوف الأربعة الأولى بالتدريج. فعندما دخلت الصف الأول ألغوه منه وكذلك في الثاني ثم الثالث وأخيرا الرابع ولم الحق به إلا في الخامس. وكان في جوارنا مدرسة التفيض الأهلية. وتلامذتها كانوا كبار السن وكانوا يقرأون الأناشيد الوطنية الثورية على المكشوف. فكنا نصغي إليها ونهتز لها. ما أجرأهم!

كانت المدرسة الأهلية والمدرسة الجعفرية منارات من منائر الثورة الوطنية الأم. وفي عام ١٩٢١ دخلت الأناشيد الوطنية الصريحة إلى مدارسنا.

وجرت الاستعدادات في المدارس لاستقبال فيصل الأول. فوسعوا فرق الكشافة. ورغم ضيق ذات اليد اشترى لي أهلي بذلة الكشافة والحذاء وقد تساهل معلم الكشافة نجيب الراوي (نقيب المحامين فيما بعد) عن شروط السن بالنسبة لنا نحن التلاميذ الصغار وغض النظر عن أخطائنا في

تنفيذ التمارين السويدية. إذ كان يضعنا وراء التلاميذ الكبار ذوي الشوارب الكثة ليحجبوا أخطائنا عن عينيه. كان بحاجة ماسة إلى العدد إذ احتدمت المنافسة بين معلمي الكشافة لمختلف المدارس الابتدائية لتحشيد أكبر عدد من كل مدرسة للاستقبال الملكي.

جاء فيصل بالقطار من البصرة إلى محطة غربي بغداد. وقد اصطفت الكشافة على جانب من الطريق المؤدي إلى المحطة وقد تعاونت الحكومة المؤقتة مع الوطنين لحشد الرجال لاستقباله. وكان الاستقبال بنظرهم عرضاً للقوى أمام الإنكليز. والحال أن هؤلاء هم الذين اختاروه لتنصيبه ملكاً على العراق. وبعد تنصيب فيصل ملكاً على العراق كتبت المس بيل إلى زوجة أبيها متبجحة: أن صنع الملوك عملية صعبة كما تبين لها من تنصيب فيصل ملكاً!

أركب الملك سيارة لتنقله إلى السراي فأحاط به الضباط الشريفيون الذين كانوا معه في سوريا. وجاء جمهور المستقبلين كالسيل وجرف الكشافة عن الطريق وعدنا إلى المدرسة متعبين مكسوفين بعد أن غادرناها مزهويين. وبعد أيام قلائل جمعنا المعلم وصفّ الكشافة الصغار في الصفوف الأمامية والكبار في الخلفية أي بالعكس مما كان الأمر عليه قبل الاستقبال. وأخذ يملي الايعازات بسرعة فارتبكنا وتوالت الأخطاء وتبعا لذلك: الطرد من الكشافة حتى لم يبق كشاف صغير واحد! وكان هذا أول درس في الغش عرفناه في المدرسة، ومن هذا المعلم الذي غدا فيما بعد من وجوه الرجعية ونقيب المدافعين عن العدالة! وقد تركت هذه التجربة المبكرة في نفسي كرهاً للرياضة المدرسية المنسقة.

وفي عام ١٩٢١ تأسس أول فوج في الجيش العراقي باسم (فوج موسى الكاظم) وكانت العلامة المميزة له الخوذة ذات العقال والكوفية المتدلية منها على القفا لصيانته من أشعة الشمس. وفتحت أول دورة للضباط العائدين من سوريا في الثكنة الشمالية (الكرنتينة) وكنت أذهب إليها لأحمل لعمي سامي سعيد ملابسه. ورأيت رقيبا (سارجنت) إنكليزي يعطي الإيعاز بالعربية بلهجة مصرية. ولما عدت إلى البيت رحت أردد الإيعازات بأعلى صوتي ولوحدي ومع ذلك لم أصبح عسكرياً.

وفي السنة الدراسية الثانية أرسلنا أبي: أمي وأخي كامل وأنا إلى بعقوبة لنعيش مع عمي أنور وزوجته. وليتفرغ هو لنشاطه السياسي في الحلّة. وكانت هذه إحدى غرائب أطواره. وبعقوبة آرامية وتعني: بيت العيقب، وهو أحد رتب الكهنوت النصراني. وكانت قصبة صغيرة على جدول خريسان تكتنفها البساتين العامرة. وكان بيتنا في المشرق والمدرسة في المغرب. وكنا في كل يوم نخترق البلدة من أولها إلى آخرها في المجيء والذهاب. وكان معلم الجغرافية قاسياً إلى حدود السادية وجامداً في أسلوب التدريس كالصخر. إذ كان يلزمنا بان نستظهر عن ظهر قلب جميع البلدات التي يمر بها الفرات على التوالي: من جرابلس عند الحدود السورية التركية إلى حيث يلتقي النهر بدجلة في القرنة. وكانت عقوبة الغلطة أن نبسط أيدينا بعد أن نغمسها في دلو الماء البارد لينهال عليها بسيف قدّه من القصب الفارسي (المامبو) ومع كل ضربة كنت اترحم على لاعليوي الذي كان يكتفي بضربات الخيزرانة على أخمص القدمين وبدون الماء البارد في الشتاء.

كان درس الجغرافية أول درس في بداية الأسبوع وكان علينا أن نستظهره في يوم العطلة الأسبوعية (الجمعة) ولكن العقوبة السادية على قسوتها لم تحملنا على أن نضحي بجمعتنا في درخ الجغرافية، بل كنا نقضي اليوم كله باللعب في الهواء الطلق دون أن يخطر ببالنا سيف المامبو. ولدى العودة من المدرسة كان أحد التلاميذ يحاول إذلالي فينشب العراك بيننا حتى يأتي من يفصل بيننا من المارة. لم أكن قوي البنية بيد إنني كنت عنيداً لا أرضخ، قوي الشكيمة.

كان أبي في الحلة يدير (المنتدى الأدبي) ولطالما كان الأدب ستاراً للسياسة في العراق المحروم من حرية النشاط السياسي ولا سيما التنظيم. وبعد أن أغلقت الحكومة النادي توظف أبي كاتب ناحية واستدعانا لنلتحق به في الحلة.

ركبنا من بعقوبة إلى بغداد في عربة هي عبارة عن صندوق مستطيل من صفائح الفولاذ المثبتة على أضلاع من خشب التوت الصلب وتحتنا فراشنا. ولم يكن الطريق معبداً. وفي كل طبة من مطبات الطريق كانت رؤوسنا ترتطم بأضلاع السقف القاسية فنرى بأعيننا نجوم الضحى. وتوقفنا في (خان بني سعد) في منتصف الطريق لتبديل الخيول. ثم وصلنا بغداد بعد بضع ساعات. وكان ذلك في النصف الأول من عام ١٩٢٢ ومن بغداد ركبنا القطار إلى الحلة في الدرجة الثالثة لعدم وجود الدرجة الرابعة.

نزلنا في الحلة في محلة جبران قرب باب النجف. وفي اليوم التالي ذهبنا أنا وأخي إلى المدرسة وكانت في النهاية الجنوبية للبلدة وقرب قصر الإقطاعي اليهودي مناحيم دانيال. دخلت الصف الثاني من دون أن أخبر إدارة المدرسة بوصولي أو أبلغهم بانتقالي من بعقوبة إلى الحلة، وكأن شيئاً لم يكن! واستدعاني المدير مندهشاً من تصرفي غير المبالي بالرسميات، التي لم أكن أعرف عنها شيئاً. استجوبني المدير أمام المعلمين ثم صرفني لأعود إلى الصف. ومرة كنت أجيب المعلم على سؤال مركب. بدأت بأولاً..ثانياً..ثالثاً..عاشراً وبعد توقف قصير قلت داعشاً! فعجب المعلم من جرأتي عل النحت والاشتقاق.

كانت دارنا خربة لم يبق منها عامراً سوى المجاز للجلوس وغرفتين صغيرتين للنوم بيد أنها كانت كافية لسكنانا. وكان فيها بئر عميق كلما دلونا منه دلواً وجدنا فيه فأراً واحداً على الأقل، ميتاً. والأهم من كل ذلك كان مالك الدار صديقاً لأبي جواداً كريماً، لم يطالبنا ببدل الإيجار. وذات ليلة وضعت أمي طفلها السادس ولم يكن لدينا حطب. فذهبت على ضوء النجوم إلى بيت عمي سامي. وفي الطريق استوقفني العسس متعجبين من خروج صبي بعمري في تلك الساعة من الليل. واستجوبوني. ثم أخلوا سبيلي. وصلت بيت عمي وأعطتني عمتي فخرية شدة من الطرفاء، عدت بها على الطريق الخالي من المارة في الهزيع الأخير من الليل ليصنعوا لأمي العصيدة من الطحين والسمن. لم أكن أخاف الظلام فكان الأهل يعتمدون علي في قضاء المهمات (تحت جنح الظلام). وكان أكثر ما يخيف الأطفال (الطنطل) الذي يترصد الصبيان المتسكعين في الطرقات بعد الغروب. إذ كان يضع رجلاً على جدار وأخرى على الجدار المقابل لينقض على الصبي من أعلى ويخنقه بين رجليه. وقد اختفت الطناطل بعد أن توسعت الأزقة وأنيرت بالكهرباء وتعلم الأطفال في المدارس ولم تعد تنطلي عليهم هذه الوسائل لمنعهم من اللعب في الليل. ولم أر أنا بعيني طنطلاً ولا طفلا خنقه الطنطل فلم أصدق بالطناطل.

عين والدي كاتب ناحية في الجعارة (الحيرة) في آب ١٩٢٢ فرحلنا من الحلة وركبنا العربانة إلى طويريج (الهندية) حيث تنتظرنا سفينة شراعية صغيرة (طرادة) وانحدرنا مع المجرى الرئيس للفرات. وقد نصبت على جرفه الأيمن الكرود. وهي بكرات خشب كبكرات الآبار تدلى عليها الدلاء التي تجرها الثيران لترفع الماء من النهر وتصبه في السواقي. ورأيت من جديد الفلاحين الكادحين (المساليخ) كاخوانهم في أعلى النهر ذاته في الفلوجة وليس على أجسادهم سوى (البشت) عباءة الصوف الخشنة شدت على أوساطهم بحبل مجدول من الصوف. وقد نفشوا شعورهم لتقي جماجمهم من ضربة الشمس. وكلما لمحوا طرابيشنا الحمر القانية صرخوا بجذل: نعلة على جحيفيته ..به به..! لاعتقادهم أن تحت طرابيشنا رؤوس عصمانلية. يعني أفندية بيروقراطية تدين بالولاء لذلك الذي كسر ضلع الزهراء البتول الذي كان اليوم يصادف يوم وفاته وقد جعلوه

عيداً لأم الحسين الشهيد وخلافا لسائر أيامهم وكلها مآتم، كان اليوم يوم فرح ومرح! ولم يمسونا بسؤ سوى الضحك على طرابيشنا التي نصحنا ملاحونا وقد كظموا فرحتهم هم أيضاً مجاملة لنا في ذلك اليوم المشهود. ونصحونا بإخفاء طرابيشنا تجنبا للسخرية.

وقد حكى لي صالح الرازقي بعد وقت طويل عن عيد الزهراء وآية ذلك: أن الجندرمة أخبروا باستياء وغضب القائممقام التركي للنجف: أن الشيعة فرحون بعيدهم ويضحكون بصخب. والأسوأ من ذلك أنهم يشبهون كاسر ضلع الزهراء برجل حامل شماتة به!! فقال القائم مقام:

ـ دعوهم يضحكون في هذا اليوم وليشمتوا بمن يشاؤون حتى لو كان عمراً رضي الله عنه. فكل أيامهم بكاء وأحزان. و إنا لله وإنا إليه راجعون!

ولم نصب بسؤ حتى ألقينا مراسينا في الكوفة حيث تركنا السفينة وامتطينا الكارى (الترام) الذي تجره الخيل إلى النجف لنتبرك بضريح علي بن أبي طالب. وفي النجف اجتزنا السوق الكبير إلى باب الضريح. وكان من الأسواق الشرقية الطراز المعروف (بالقيصرية) وقد بهرنا مظهره فلم نر من قبل ما يضاهيه رونقا حتى في بغداد، ست البلاد! وبقي لمعانه منطبعا في مخيلتي حتى اليوم مع إنني رأيت في حياتي الكثير من الأشياء الباهره.

أمضينا ليلتنا في بيت أحد الأصدقاء في الكوفة وفي اليوم التالي ركبنا زورقاً آلياً (فلكة) إلى أبو صخير ضاحية الحيرة. وفي ذلك اليوم بالذات (٢٢/آب/١٩٢٢) ونحن في الفلك سمعنا دوي القنابل المتفجرة يلقيها سلاح الطيران البريطاني على منازل آل فتلة وهي من إحدى القبائل الكبيرة التي ثارت ضد الاحتلال البريطاني وأبلت بلاء حسناً في المعارك خلال الثورة الوطنية ١٩٢٠

كان الإنكليز قد سحبوا من العراق معظم قواتهم البرية واحتفظوا بسرب من الطائرات لقمع تطلعات الشعب العراقي، عندما تعجز القوات المسلحة للدولة العراقية الخاضعة للانتداب البريطاني. وفي أبو صخير نزلنا داراً في جوار السيد هادي الزوين وكان من كبار المزارعين ومن زعماء الثورة الوطنية وقد عاقبه الإنكليز بمصادرة أراضيه. ومع ذلك بقي متمسكاً بكرامته الوطنية وبكرم ضيافته العربية. وعندما حان وقت العشاء نقل الخدم إلينا من بيته صفائح الطعام (الصينيات) تحمل ما يكفي لإطعام عشرة أمثالنا من الرجال، من صحون نجفية متنوعة مثقلة بلحم الضأن.

كانت أبو صخير أروع من معاصرتها بعقوبة. والمياه تتفجر من أرضها، وعندما يتفرع العمود الرئيس من الفرات، شط الهندية إلى فرعين: فرع الشامية وفرع أبو صخير تحفها جنات النخيل. وإلى هناك كان يتوافد فحول الشعر العربي: طرفة بن العبد وعمر وبن كلثوم والنابغة الذبياني وغيرهم كثيرون لينشدوا ملوك الحيرة وليستلهموا جوها الشعري. وكان السكان هنا لا يزالون يحلمون في هذا الجو ويستوحونه الخيال. فقد حدثونا عن ليالي أبو صخير وكيف أن الجن ينتشرون ليلاً طائفين في فرعي الفرات على قوارب من ذهب الابريز المرصع بالياقوت، تحرسها عفاريت من الجن تشع من عيونها الأنوار في ليل الجنوب الدامس فتجعله نهاراً.

كان مركز القضاء في أبو صخير والناحية في جارتها الجعارة أي الحيرة حيث كان قصر الخورنق والسدير في عاصمة المناذرة. وسبحان مغيير الأحوال الذي جعل منها مركز ناحية ليس إلا، تابعة لقضاء تابع للواء تابع لعاصمة الدولة!

ذهبت مع أبي مشياً على القدمين من أبو صخير إلى الجعارة بين النخيل والمياه الغامرة. وانكب أبي على عمله الروتيني في مكتبه منصرفاً إليه عن كل شيء في العالم كعادته. وجاء وقت الغداء ولكنه لم ينتبه إليه ولم يجرأ أحد على تنبيهه. وسمعت أحد الجباة (القولجية) يتأوه من

الجوع ويقول: والله شبعنا جوعاً! وأعجبتني المفارقة ـ الشبع من الجوع! وعند العصر جاء العوض مجزياً فقد دعانا المختار إلى الغداء في بيته وكنا عصبة من الرجال. وقدم لنا الثريد (التشريب) المطبوخ على الطريقة الفارسية (الآب كوشت) المتوبل بالكركم والمحمض بليمون البصرة المجفف والغني بلحم عجل الجاموس (الشفج). ولولا أن الجوع سيد المقبلات لقلت جازماً انها كانت أشهى أكلة في العمر.

وفي أنهار أبو صخير تمرنت على السباحة بعد أن أشرفت على الغرق بضع مرات ولقد مررت بأبو صخير ثانية بعد انقلاب ٨/ شباط المشؤوم ولم أجد سحرها المعهود. وسألت عنه أهلها فقالوا لي انه رحل عنا، ولسوف يعود!

5

حوابي

لم يطل بقاؤنا في أبو صخير بل عدنا إلى الحلة ثانية. وبعد حين انتقلنا إلى المسيب حيث التحق أبي بوظيفة كاتب ناحية في (جرف الصخر) على الجانب الأيمن من الفرات. حيث سكنا بيتاً منيفاً من الطابوق أوله ديوان للضيوف هدمته قذائف المدفعية الإنكليزية خلال ثورة العشرين إذ اتخذه الثوار ربيئة لهم. وبقي آخره (الحرم) عامراً وكان من ثلاث طوابق, وهذا شئ نادر عهد ذاك. وكان إلى جانب دارنا دار مماثلة وكأنهما توأمان. والداران يعودان إلى ملاك كربلائي بناهما للاصطياف على ضفاف الفرات. وقد أعفانا من تسديد بدل إيجار الدار. وكذلك فعل مع سكان الدار الأخرى الذين كانوا بمثابة حرس للدارين.

وقد اشتهرت المسيب بجسرها بفضل أغنية شعبية شجية:

على جسر المسيب سيبوني   خذوا أحباب كلبي وتيهوني

وكان جسراً عائماً على صنادل من خشب. وكثيرا ما تتقطع عراه في موسم الفيضان وتنحدر مع تيار بعض الجساريات إلى سدة الهندية على بعد خمسة كيلومترات إلى الجنوب فتوقفها السدة عند حد وإلا لواصلت الانحدار حتى الخليج العربي (الفارسي). كان جانبنا، الجانب الأيمن، الشامية، يعرف بصوب حمدان وليس فيه عهد ذاك سوى بضعة عشر بيتا ودارين للعبادة أحدهما للشيعة والآخر للسنة ومقهى وخان يرتادها زوار كربلاء ولا سيما في أربعينية إستشهاد الحسين (٢٠ صفر) وكان التركمان الشيعة يأتون من شمال إيران على ظهور الخيل وتحتهم السجاجيد التي يبيعونها في كربلاء ليشتروا بديلها من السلع ليعودوا إلى وطنهم رابحين الزيارة والتجارة معا. ولكن أضخم المواكب كان «عزاء الكاظم» وكان ينصب خيامه في العراء ويطبخ الرز عشاؤه في قدور راسيات كالأعلام.

كان بيتنا على ضفة النهر مباشرة وهي أول وآخر مرة نسكن فيها على ضفاف نهر عظيم كالفرات. وخلال تلك الفترة من صيف ١٩٢٣ وصيف ١٩٢٤ شبعت من السباحة في النهر من أول النهار إلى آخره مع جاموس الماء، لا أخرج من النهر إلا لتناول الطعام. وفي خريف ١٩٢٣ شاهدت أول فيض وقد تورد خد النهر بالخابط بعد أن كان أزرق شاحباً وقد علته اطواف من القش الداكن من بقايا الصيف جرفها عن شاطئيه في المجرى الأعلى ليؤذن بمجيء الشتاء. وبانت فجأة ملكات الجمال في عالم الطير المعترف بهن من الجميع: الاوز العراقيات لائذات من شمال الدنيا مخافة أن يداهمهن الشتاء القطبي وقد سمون عروشهن، صهوة النهر العاتي مدلات بجمالهن المهيب واثقات بأنفسهن مطمئنات إلى غدهن، مشرئبات الأعناق يستطلعن آفاق الجنوب غير البعيد حيث بنت حواء، أم الناس، جنتها للعاملين المبدعين، حيث الخير والدفء والجمال في بطاح العراق ــ الاهوار - بحيرات البجع العراقي، مهبط وحي روائع الفن فما أروعك يا وطني!

وفي شتاء ١٩٢٤ إذ كنت على أبواب الثالثة عشر أدركت الحلم وودعت طفولتي لابدا صباي وأرى فيما يرى النائم أطياف الجنس الآخر وفي يقظتي أحاول دون وعي أن ألفت أنظار من هن أكبر مني سناً وابذل محاولات يائسة للغناء ولم أكن أحفظ غزلاً ولا شعراً سوى الأناشيد المدرسية وألطفها وأرقها نشيد للرصافي:

سمعت شعراً للعندليب تلاه فوق الغصن الرطيب

وعندما أنشدته بحضور بنات الجيران ضحكن على صوتي النشاز في تلك الفترة من عمر الصبا. وهذا النشاز سبب لي كارثة فيما بعد. كان في جوارنا بيت مزارع كبير أخذت أتردد إليه وكانت البنت الكبرى تكبرني بضع سنوات مخطوبة لإبن عمها. وكان يزورهم زيارات طويلة ويقيم نهاراً في الحرم مع أخته ربة البيت و «اسماء» في المجاز حيث ديوان الضيوف فلم يكن مباحا للخطيب أن يخالط خطيبته وأن كانت ابنة عمه. فكانت تستضيفني في جوارها وأنا لا أمل عشرتها حتى إذا كانت طوال نهار الصيف ولا أفارقها بإرادتي إلا لتلبية طلب من طلباتها. كأن أشتري لها من السوق الكبير في الصوب الآخر من النهر شيئاً من مواد الزينة «الزباد» مثلا. فاعدو لأسبق ظلي كما يقول الشاعر، وأعود به قبل أن يرتد إليها طرفها. فتزجج بالزباد حاجبيها الفاحمين الاثنين لينورا جبينها الابلج فينشرح صدري الصبوي. جعلت من السلالم الموصلة من المجاز إلى سطح الدار عرشاً لها وجعلت منها محرابا لقلبي يؤمه. ولم تطل سعادتي فإن عقارب الغيرة طفقت تنهش بجنون صدر غريمي: خطيبها. فاحتال ليكشف لأهل الدار خطر صباي فناشدني من الحرم أن أرتل ترتيلا آيات من الذكر الحكيم. فلبيت طلبه في الحال وانكشف نشاز صوتي للجميع. وفي اليوم التالي أوصدت أسماء باب دارها بوجهي. فودعت طفولتي بقلب باك. ها قد غدوت رجلا تخشاه الرجال على حليلاتهم قبل أن ينبت لي ذقن فوا حر قلباه! من سوف يشتري لها ما يزينها؟ والخروج محرم على بنات جنسها والحياء يمنعهن من طلب ذلك من أوليائهن. ولكن بنت حواء لا تعدم وسيلة لتجميل نفسها كأن تقطع ورقة ليمون وتبلل قفاها بلسانها الرطب الطويل لتلصقها على جبينها فتبدو أحلى وأشد إلفاتاً لنظر الرجل كنت أنيسها في وحشتها، أيام خطوبتها وكانت أما لقلبي الوليد، وسرعان ما بلغ الفطام. وكانت حارتنا الريفية توحي بالحب العذري الذي يزخر به الشعر العربي. إذ كان سيف القبلية المسلول لا يزال فاصلا منيعاً بين الصبايا والصبيان، بين العذارى والشبان. بيد أن الحجاب كان مرفوعاً خلافاً لما عليه الحال في المدن والبلدات. وفي إحدى الأمسيات طرقت إحدى بنات الجيران باب دارنا ففتحته لها. وكان أهلي في الطابق العلوي وكانت البنت العبلاء اكبر مني ببضع سنوات وكانت قامتي تناسبها وشاءت أن نختبىء أنا وإياها في المطبخ المظلم لا لشيء سوى أن يقلق أهلي قليلاً بانتظار الزائر المجهول حسب ظنها. واستجبت لطلبها في الحال واختبأنا سوية في مخزن صغير داخل المطبخ في ظلام دامس وبقينا على حالتنا دقائق معدودات لم يخطر على بالي خلالها أن أداعبها ولو بكلمة. خيبت أملها واحسرتاه! لم تكن براءة الأطفال قد فارقتني وإن فارقتني الطفولة ذاتها.

كانت أم أسماء تعنى بأمي وتعيدها إلى مذهبها الشيعي لتسبل يديها لدى الصلاة وهي قائمة وتشهد بولاية علي وتسجد على قرص من تربة الحسين الشهيد تحت جبينها. وما أن شاهدنا أمنا هكذا قد عادت إلى مذهبها بين عشية وضحاها حتى ضج ضجيجنا. ولكن والدي لم يأبه لذلك. وكأن شيئاً لم يكن. وقد عاد هو نفسه إلى الصيام والصلاة على مذهبه السني في جامع السنة في صوب حمدان. وكان يرتل القرآن بصوته الجهوري ويلحن كل آية مرة أو مرتين ويصحح له إمام الجماعة بمرارة دون أن يكترث له أبي إذ كان كما يبدو مفرط الثقة بمعرفته بتلاوة القرآن، أومفرط الإعجاب بصوته الرخيم، أو بكلا الأمرين. وفي تلك الأيام صمت أنا أيضاً شهر رمضان

وصليت في الجامع، لأول مرة وآخر مرة في حياتي. والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو على كل شيء قدير. وتلك الفترة من العمر زاخرة بالتفاعلات والتناقضات إذ تكون نفس الإنسان على مفترق الطرق، وظروفه المحيطة به هي التي تقرر مصيره.

وصادف محرم الحرام في آب ١٩٢٤ فانغمرت في شعائر عاشوراء مع الشيعة وشعرت بديناميكية الطقوس الشيعية، التي تميزها عن الطقوس السنية، وتشد إليها عنصر الشباب. وسهرت ليلة العاشر من عاشوراء حتى الصباح مع الجيران في تحضير الهريسة المصنوعة من القمح ولحم الضأن. وفي نهار العاشر من عاشوراء شهدت آخر فصل الملحمة الحسينية «الطبك» وهو تمثيلية كبرى جماهيرية مسرحها المتحرك، في الهواء الطلق في قلب الجمهور من الرجال والنساء وهو الذي كان يمثل دور الكمبارس والمشاهدين وقد مثل دور الحسين الشهيد «شبيه الحسين» معلم الدين واللغة العربية في مدرستنا، وهو معلم من النجف وسيم أشقر اللحية فارسي السيماء. والجمهور يحب الوسامة في الرجال. وكانت المعركة التاريخية بين جيش الحسين المؤلف من بضع مئات وجيش يزيد الأموي نحو ٣٥٠٠٠ مقاتل. وقد دارت على بعد مسيرة بضع ساعات إلى الغرب من مسرحنا السيار قبل ذلك بنحو ثلاث عشر قرناً. وكان أسلوب القتال المبارزة. وكان الحسين آخر من استشهد في المعركة. ويعتز الجمهور باستشهاده إذ انه يرى فيه تضحية رجل من علية القوم، حفيد نبيهم، يستشهد في سبيل قضية العامة فيغمرهم شعور الامتنان.

ومن المفارقات أن الحداد ينتهي ما أن ينتهي آخر فصل من فصول المأساة إذ تبلغ ذروتها عند الزوال. فتصدح الغرامافونات، بعد صمت مطبق طوال عشر أيام، وتذيع الاغاني والألحان.

وفي المسيب أتيحت لي فرصة عبور الفرات بكامله، سباحة، قبل أن يتفرع على بعد خمس كيلومترات إلى الجنوب، عبرته دون الاستعانة بطوق النجاة المصنوع من زوج من كرب النخيل (قاعدة السعفة) ونزلت مرة من منتصف الجسر إلى الماء لأسبح مع التيار، الذي كان شديد الجريان فدفعني بعيداً وجرفني نحو الجانب الأيسر مقابل بيتنا. وفجأة وجدت نفسي أمام دفتين متجاورتين لسفينتين شراعيتين متلاصقتين وكأنهما باب الموت المحتوم مشرعا ليتلقفني. وكان التيار يدفعني بقوة نحو الفرجة بين الدفتين لأكون لقمة سائغة بين فكي حوت هائل من الخشب فألاقي حتفي تحت قعر السفينتين. كان علي أن اقرر مصيري في طرفة عين ودفعتني إرادة الحياة إلى أن اتشبث بكل ما تبقى لدي من قوة باحدى الدفتين واجعل منها حبل النجاة ريثما اتنفس الصعداء وأجدد قواي لاوأصل السبح إلى الجرف القريب لأعود إلى اهلي من على الجسر سعيداً بحياتي الجديدة، نشوانا بالانتصار على الموت.

وإلى المسيب كانت تمخر عباب اليم صنادل «شخاتي» من خشب مستوية القعر لتطفو في المياه الضحلة شديدة الانحدار، آتية من مسكنة على اعالي الفرات في سوريا محملة بالصابون الرقي (نسبةً إلى الرقة) المعطر بالهال (أبو الهيلة) من صنع حلب. وتنتهي الرحلة في سدة الهندية حيث تباع الشخاتير كالواح خشب مع حمولتها لأنها لا تستطيع العودة ضد المجرى. وكان الملاحون يربطون شخاتيرهم أمام بيتنا ويذهبون إلى السوق لشرب الشاي أو لتناول وجبة طعام ساخنة وكنا نحن الصبيان نتناول بمودة في غيابهم قالباً من الصابون لنغتسل به غاطسين في مياه الشط. وكانت العوائل تحرم سرقة الصابون وإلا لوصلت الشخاتير إلى السدة خالية من حمولتها الثمينة. وكانت السفن الشراعية أيضاً، وهي التي بحاجة إلى مغاطس أعمق من مغاطس الشخاتير، تجري في الشط مشرقة ومغربة بين هيت وسدة الهندية تحمل الملح والقار من منابع هيت. وكنت أصغي إلى الأغاني الشجية ينشدها الربان (النوخذة) وعلى إيقاعاتها كان الملاحون يجرون الحبال سوية كرجل واحد ليرتفع الشراع إلى أعلى فأعلى، تداعبه الريح الرخاء! وكذلك عندما تجر السفينة من

الشاطىء الرملي إلى الماء لتعويمها من جديد بعد إصلاحها. فالرجال يشدون على الحبل مع إيقاعات النوخذة، تطربهم الأنغام الشجية وتشد حيلهم مرددين المقطعين الأخيرين من إيعازه هيللاه! وبعد أن قرأت انجلس عن دور العمل في تكوين الإنسان تذكرت أغاني الملاحين ودورها في تنسيق العمل الجماعي للإنسان. وخيل إلي أن الموسيقى والغناء والرقص والكلام وعقل الإنسان إنبثقت وتطورت جميعها سوية مع العمل الجماعي، وانعكاسا له، ومن أجل تنظيمه وتنسيقه، وطرد الملل عنه، وتشجيع العاملين على اقتحام الصعاب والشدائد. ولم يكن الإنسان الأول قادراً على العمل الفردي، وحتى العيش خارج الجماعة، فلو انفصل الفرد عن جماعته لبقي حيوانا أعجم حتى يومنا هذا. ولم ينطبع في ذاكرتي نغم أشجى واعمق من أنغام ملاحي الفرات.

وفي الذكرى الأولى لثورة ١٤/تموز التقيت وفداً لنقابات العمال الصينية وكنت قد تعارفت مع مترجمة الوفد في شنغهاي فسألتها عن انطباعاتها عن الشعب العراقي فقالت فيما قالت:

ـ زرت عدة بلدان في الشرق والغرب فلم أرى شعباً آخر يرحب بضيوفه على نحو ما يرحب به شعب العراق بضيوفه. قلت:

ـ وكيف؟ قالت:

ـ انهم ينظمون الشعر ارتجالاً ويلحنونه فوراً وينشدونه ويرقصون على أنغامه حالاً!

فكرت لحظة فيما تعنيه وبعد أن أمعنت النظر في عينيها المرحتين الذكيتين وردت فجأة «الهوسة» العراقية إلى خاطري. وفي تلك اللحظة فقط انتبهت إلى أن الهوسة موسيقى وشعر وغناء ورقص في أن واحد. ولا غنى عنها سواء في العمل الجماعي أو القتال، ضد العدو أو ضد قوى الطبيعة العمياء أو في تكريم الأصدقاء. وكما أن الغابة أنواع وأنواع من الشجر فكذلك الهوسة فنون وفنون. وكنت أظن من قبل أن الهوسة، هوسة وحسب كما أن الغابة، غابة ليس إلا! مع أنني سمعت ورأيت ما يكفي من الهوسات والقليل من الغابات، أما الرفيقة البروليتارية من شنغهاي، ذات العينين النيرتين الملهمتين، فقد رأت الهوسة وسمعتها لأول مرة في حياتها وألمت بها من جميع جوانبها في الحال!

وبنو حجيم في السماوة، وهم القبيلة التي أبلت أحسن البلاء في الثورة الوطنية الأولى (١٩٢٠)، قد اشتهروا بهوساتهم سواء في الحرب أو العمل، وهي من روائع الشعر الشعبي اللاذع. وقد عاقب الإنكليز وعملاؤهم الملكيون هذه القبيلة شر العقاب وحرموهم من أي مشروع إروائي لسقي أراضيهم فغدا رجالهم بروليتاريين رحالين يجوبون الآفاق طلباً للقمة الخبز. وعندما كنا سجناء في قلعة كلوب باشا «أبو حنيك» في بادية السماوة شرعت الحكومة ببناء سجن جديد أوسع، ليتسع لألف سجين أو يزيد، فاستجلبت العمال من بني حجيم. وكنا نسمع هوساتهم بوضوح. ولم يكونوا قادرين على العمل بلا هوسة. وقد حفظت بيتاً منها:

شوف الدنيا إش ساوت بيه   يتريك ما يتعشـــى!

وهي تصف البروليتاري الرحال الذي كان فلاحاً قادراً على تناول وجبتين من الطعام يومياً: الفطور والعشاء. وعندما غدا عاملاً معدماً لم يسلم إلا على وجبة الإفطار. وهذه بدايات الوعي الطبقي.

6

فيصل بين السماء والأرض

اصطحبني أبي إلى بغداد في أيار ١٩٢٤ وسمعت هنا بأخبار المظاهرات الوطنية في جانب الكرخ حيث انعقد المجلس التأسيسي لإبرام المعاهدة البريطانية مع العراق فكان الوطنيون يحتشدون في الشوارع المؤدية للمجلس للضغط على المندوبين وتشجيعهم على رفض المعاهدة. وقد عبأت الحكومة كتيبة الهاشمي، أول كتيبة للخيالة في الجيش العراقي، لحماية المجلس الوطني من الوطنيين! وهكذا وضعت الحكومة البريطانية النهاية القذرة من العصا بيد الحكومة العراقية! وأخيراً هددت بريطانيا بإلغاء «الحكم الوطني» وإعادة الحكم البريطاني المباشر على العراق. وتكونت جمعية إرهابية سرية لتهديد أعضاء المجلس من شيوخ العشائر الموالين لبريطاني، وأطلقت النار فعلاً على عداي الجريان شيخ مشايخ البو سلطان. وتحت طائلة التهديد البريطاني انعقد المجلس ليلاً في جلسة طارئة وكانت المعارضة بقيادة يس الهاشمي فأعلنت انسحابها من المجلس احتجاجاً! وبعملها هذا أفسحت المجال للحكومة لإمرار المعاهدة عن طريق الإستعجال وكان فيصل الأول نفسه قد حضر الاجتماع وألقى كلمة قال فيها: لا تدعوا فيصلاً معلقاً بين السماء والأرض! وبكى! ومرت المعاهدة ونجحت مؤامرة الثعلب البريطاني «المندوب السامي» السير برسي كوكس.

ولم تكن بريطانيا قادرة على إعادة الحكم المباشر فلا الرأي العام البريطاني ولا الدولي كان يوافق على ذلك وكان الاحتلال باهض التكاليف على «دافع الضرائب البريطاني» على حد تعبير البرلمان الإنكليزي. ولكن المعارضة الوطنية بدورها لم تكن تريد الحسم بل كانت ترفض لتحصل على شروط أفضل نسبيا فقط. فكانت تتجنب المواقف الفاصلة. وكان فيصل نفسه يشجع المعارضة على لعب هذا الدور ليستخدمها كوسيلة ضغط في مساوماته مع بريطانيا وكان يكبحها حالما تنتهي اللعبة. وكان يدفع إيجار مقرات أحزاب المعارضة لتستأنف نشاطها عندما تكون هناك مفاوضات مع بريطانيا.

وفي تلك الزيارة الخاطفة لبغداد رأيت لأول مرة الشطر الأكبر من شارع الرشيد: من باب المعظم إلى مدخل جسر مود (الأحرار) وتعجبت لكثرة المخازن واللافتات واستوقفني أول كاريكاتير رأيته وهو اعلان للمشروبات الغازية يصور قنينة انطلق سدادها فضرب رجلا قزماً في مؤخرته فطار في الهواء! فعجبت له كثيراً وتابعت الوقوف إزائه كلما مررت به مقابل جامع مرجان.

وكان أبي لا يملك بدلة صيفية تناسب حر أيار في بغداد والأنكى من ذلك لم يكن يملك سترة شتوية يرتديها مع سرواله الشتوي اليتيم فكان يرتدي معطفا شتويا ولم يكن أحد يفكر بالخروج إلى الشارع بالقميص من دون سترة في ذلك الزمان.

7

سنة لوفة

وفي بداية السنة الدراسية ١٩٢٤/ ١٩٢٥ انتقلت إلى طويريج (الهندية) والتحقت بمدرستها لشهر واحد وصرت كشافاً واضطر معلم الكشافة أن يعهد لي بالضرب على الطبل الكبير أثناء المسيرة خارج المدرسة في إحدى المرات لسببين: لأن أبناء الذوات كانوا يرفضون قرع الطبول لترفعهم ، ولان قامتي كانت طويلة نسبيا. وعندما صرنا في الشارع وسرنا من أمام المقاهي أوعز لي، لسوء حظه، بالضرب على الطبل فضربت بلا إيقاع «شيش بيش» إذ لم اضبط الإيقاع وثارت أعصاب المعلم وما كنا نبتعد عن الجمهور المحتشد في المقهى حتى انتزع مني الطبل بعنف. ومع ذلك لم اصب بخيبة أمل مريرة كما يقول الأدباء! ولم اضبط المشي على الإيقاع طيلة حياتي! كما أنني لم اضبط لسوء حظي أنا بحار الخليل أو أوزان الشعر! مع أنني لا زلت ممن تطربهم القصيدة العمودية ومن المؤمنين بجدواها بل ومن عشاقها، وحتى من المتحيزين لها إلى هذا الحد أو ذاك.

نقل أبي إلى المدحتية في جوار الحلة في بداية السنة ١٩٢٤ / ١٩٢٥ وفي هذه المرة لم نجد داراً تناسب دخلنا لنسكنها لوحدنا فأستأجرنا غرفة واحدة نسكنها نحن الأطفال الخمسة والأم والتحقت بنا الجدة مريم أم أبي وكانت تعاني من مرض الموت لتكون عبأ إضافياً يلقى على عاتق أمي دون غيرها من الكنات المدللات.

وكانت سنة ١٩٢٥ وقد سماها الفلاحون سنة «لوفة» لأنها أشأم السنوات في العراق بعد الحرب العالمية الأولى. وفيها جف نهر الغراف وتشردت العشائر عن ضفافه ايدي سبأ كما لو أن سد مأرب قد إنهار، عوداً على بدء، وإرتفعت أسعار الطحين إلى روبية واحدة (أكثر من ستة دولارات حالياً) للكيلوغرام وكان طحيناً عفناً مستورداً من الهند (طحين بومباي) وانتشرت الملاريا تفتك بالسكان. وكان في الحلة طبيب واحد هو الطبيب العسكري الملحق بفوج التدريب. وكان يفتح عيادته للأهالي بعد الظهر وحتى ساعات الليل الأولى ولكثرة المرضى المراجعين لم يكن لديه من الوقت لتشخيص وكتابة الوصفة إلا دقيقة وعدة ثواني. ولماذا التشخيص الكل يشكو من نقيضي الملاريا المجتمعين: الحمى والبرداء، والدواء المتيسر محلول القناقينة (الكنين) وهو المر كالعلقم، وأحياناً يختلط المرض بالتيفوئيد والتهاب السحايا. وكما يبرىء الكينين المريض من الملاريا يقتله إذا كان مصاباً بالتيفوئيد. وهكذا كان مصير أختي شريفة. وكان علي أن اسقيها الكنين إذ كانت أمي لا تطيق ذلك فألقت على عاتقي هذه المهمة المرة. ولم يترك موت أحد من أقاربي ما تركه في نفسي موت تلك الحمامة البريئة من حزن عميق، إذ كنت اسقيها المر بالإكراه. فذابت شريفة من الحمى (التيفوئيد) كما تذوب الشمعة النحيفة وهي دون السابعة ولم ترتوي بعد من عبث الطفولة.

وماتت جدتي مريم في نفس الصيف كما ماتت، مائدة، أختي الرضيعة في الوقت ذاته. ومات أبي في خريف تلك السنة ذاتها. وهكذا فقد تألبت علينا سوء التغذية وبؤس الخدمة الطبية وسوء السكن والغبن البيروقراطي في وقت واحد.

و كان أبي قد اشترك عهد ذاك في امتحان جرى في وزارة الداخلية لاختيار مدير ناحية، وكان الراتب أربعةٍ أضعاف راتبه ككاتب ناحية، وقد فاز في الامتحان على الجميع وصدر أمر وزاري بتعينه مديراً لناحيةِ المحاويل في لواء الحلة ولكن المتصرف محمد نديم الطبقجه لي عكس الآية إذ عين بدلاً منه واحداً من حاشيته الشبان والأسباب الموجبة لحرمان والدي «عدم اللياقةِ البدنية (العرج) وعدم القيافة (سوء الهندام)». كتب لي أبي رسالة بأن أراجع المتصرف شخصياً لاطالبه برفع الغبن عنه وكنت آنذاك في الرابعة عشر وفي الصف الخامس الابتدائي. فراجعت المتصرف عن طريق سكرتيره مشتاق افندي والد طالبٍ مشتاق وقد بذل جهده ليدبر لي اللقاء ولكن دون طائل. وقد عجل الغبن في موتِ أبي فضلا عن سوء أحوال المعيشة لوجوده في ريف المدحتية عهد ذاك، وترك ذلك في نفسي أثراً لم يكن في صالح النظام السائد في العراق بأي حال من الأحوال، نظام «المحسوبية والمنسوبية» البيروقراطي الشنيع.

كان مسكننا في الهيتاويين: أقرب محلة عهد ذاك في الحلة إلى خرائب بابل وصادفت يوماً جماعة من طلاب بغداد الكبار السن ومعهم استاذهم في التاريخ، أمين زكي. كانوا يمشون في طريقهم إلى بابل فساقني حب الاستطلاع وتبعتهم ورأيت لأول مرة أسد بابل وجدرانها المزينة بصور بارزة من الآجر لحيوانات عجيبة أسطورية. ودخلت معهم المتحف وسمعت الأستاذ يشرح لهم كيف سرق الاثاريون الغربيون اثمن آثارنا الخالدة. وفي وقت الغداء جاءوا إليهم بالقوازي المحشية من الحلة ، ولم يدعني أحد لتناول الغداء معهم، وأبيت أن أتطفل عليهم، ورحت لأشتري رغيف خبز وشيئاً من التمر القسب بآنة واحدة عالجت بهما غائلة الجوع.

عدنا إلى بغداد في صيف ١٩٢٥ وكان أبي طريح الفراش. أما أنا فقد شفيت من الملاريا بفضل اهتمام عمي سامي إذ وفر لي العناية الطبية وكنت مكلفاً بشراء مواد المعيشة يومياً من علاوي الشورجة. وكنت أشتري لأبي جريدة «المفيد» لابراهيم حلمي العمر. وكانت جريدة المعارضة التي يتزعمها الهاشمي. وكنت أقرؤها وأنا أمشي الهوينا على رصيف شارع الرشيد في طريق عودتي إلى البيت في محلة الميدان فانتهرني عمي المصور عبد الرحمن عندما رآني هكذا وأنا أمرّ أمام محله للتصوير في باب الآغا. كان يظن أنني غير منتبه إلى العجلات والسيارات لدى عبور الشارع. بيد أني كنت ألاحظ ذلك مِن خِلال قِراءتي للجريدة. وهكذا بدأت قراءاتي للصحف. كان إبراهيم حلمي العمر محرراً بارعاً قادراً على كتابة مقالين افتتاحيين متساجلين في يوم واحد ينشر أحدهما بلا توقيع في الجريدة الحكومية «العراق» والآخر في جريدة المعارضةِ. وكان يلعب هذه اللعبة المزدوجة حتى عندما عينته الحكومة مديراً للمطبوعات. وكان صحفياً في الشام عندما كان فيصل ملكاً على سوريا. فهل ياترى كان يلعب نفس اللعبة فيها أيضاً؟!

بعد وفاة أبي لم يبق من عياله سوى أمي وأبناءها الثلاثة الأوائل، كما قلت آنفاً أي إنها فقدت خلال خمس سنوات (١٩٢٠ـ ١٩٢٥) أربعة: ثلاث بنات وولد واحد وهم الأواخر. وأصبحنا عالة على أعمامنا ولا سيما العم أنور الذي لم يتوان حتى لشهر واحد عن إرسال الحوالة (٣٠ روبية) بالبريد خلال ثلاث سنوات توظفت أنا بعدها.

دخلت المأمونية وكانت على شارع الرشيد عند باب قلعة الدفاع الجنوبي وكانت مدرسة ابتدائية نموذجية ذات ستة صفوف. وكان المربي العربي الكبير ساطع الحصري يجري تجاربه في تدريس قراءته «الخلدونية»

(نسبة إلى نجله خلدون) في الصف الأول فيها. وكان لا يزال هو نفسه يلفظ القاف كافاً إذ كان متأثراً باللكنة التركية التي نشأ عليها. فكان يقرأ لهم «رَكَب» ويعني «رقبة» فيردد التلاميذ الصغار على الفور«رَكَبَ» فيعيد ما يلفظه بالذات المرة بعد المرة ويستخدم لغة الإشارة باعتبارها أبلغ إذ يضع كفه على قفاه في حين يلفظ «رَكَبَ» فيقلده الملاحيس تقليداً حرفياً بنفس اللفظ والإشارة! كان الكثرة من التلاميذ من العوائل الميسورة المدللين ومع ذلك نجحت القراءة الخلدونية بطريقتها الجديدة التي بقي التدريس يسير بها في السنين التالية.

كان المنهاج الدراسي الذي وضعه ساطع الحصري مثقلاً بالمواد إذ كان هو نفسه متأثراً بالطريقة التربوية اللاتينية. وكانت أعمار التلاميذ عهد ذاك يتحمل تلك الأثقال. وعندما كنت في الرابعة عشر درسنا تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى ونحن لا نزال في الصف السادس الابتدائي فألهبنا الموضوع حماسة للحرية. أما معلمنا لتاريخ أوربا الحديث هذا فكان عبد اللطيف الفلاحي. وقد صار نائبا في المجلس النيابي فيما بعد وانظم إلى كتلة المعارضة (حزب الشعب) بقيادة يس الهاشمي. ومرة انتقد ميزانية الدولة بأسلوب طريف إذ عاب عليها عدم الاهتمام بإرسال البعثات العلمية إلى الخارج ولم يكن في العراق جامعة، فقال على سبيل المقارنة أن المخصصات للبعثات لهذا العام (٥٠٠٠٠) روبية في حين أن مبلغاً مساوياً خصص لتنظيف مراحيض الجيش! وكان معلمنا للغة العربية فاضل الشبلاوي (من محلة البو شبل في بغداد) وهو شقيق عبد الله«سرّية» أحد أعضاء الجمعية السرية «الإرهابية» التي شرعت بمحاولة قتل عداي الجريان رئيس عشيرة البو سلطان الإقطاعي المؤيد للانتداب وعضو المجلس التأسيسي. وكنا نقرأ في كتاب جمعه للقراءة عبد القادر وجدي وفيه مقال مكرس لشتم البلاشفة. وبعد الفراغ من قراءته وقف المعلم وألقى كلمة من عنده منددا بالمقال وكاتبه وفضح ما فيه وقال إنه موحى به من الإنكليز. وشرح لنا البلشفية بأنها دولة الفقراء فحصلنا لأول مرة على فكرة عن كنه البلشفية وطبيعة الاتحاد السوفيتي. أثارت الفكرة عندي حب التتبع والاستطلاع الذي لا ينتهي. وأستطيع القول الآن بعد نحو سبعين سنة إنها كانت الانعطاف الحاسم في حياتي. ومن حيث أراد أعداء الشيوعية إبعادي عنها فقد قربوني إليها. فكم أنا مدين لمعلمي فاضل الشبلاوي، طابت ذكراه، وكان هو بدوره عضواً في حلقة حسين الرحال في قهوة النقيب في قنبر علي. ولم أكن قد تعرفت بعد على الرحال الذي عرفني به رشيد مطلك فيما بعد.

وذات يوم كنا مصطفين في القاعة الكبيرة لمدرسة المأمونية وكانت أرضها مبلطة بالخشب وكنا على استعداد للانصراف والكتب والدفاتر تشغل أيدينا فدخل فجأة محمود نديم الطبقجه لي متصرف بغداد ومعه مفتش الكشافة نوري ثابت (حبزبوز) الناقد الاجتماعي والسياسي الهجاء الموهوب. وقدم لنا متصرف بغداد الجديد مع الاشادة برعايته للكشافة. ويبدو أنه كان هو الموحي بهذه الإشادة وانه كان ينتظر تصفيق الاستحسان على أحر من الجمر. فلم نخيب ظنه بل صفقنا ولكن بأرجلنا على القاع الخشبي. ولم يدعها نوري ثابت تمر بل قال في الحال:

ـ أولادي! هذا لا يليق! التصفيق بالأرجل تحقير لسعادة المتصرف!

كان حبزبوز يخشى ألا يشعر المتصرف بالاستهانة به.

وفي فيضان ١٩٢٦ الاستثنائي جاءنا حبزبوز ثائراً ببدلة مفتش الكشافة العام. كان نهر دجلة قد أغرق البلاط القديم والثكنة الشمالية ومحطة قطار بغداد الشمالية واحاط بالرصافة من كل جانب واخذ يفتت سدادها الهشة كما يفتت الماء الساخن فص السكر أو الملح. فأهاب بنا نوري ثابت بالطريقة العراقية الاستفزازية:

ـ أولادي! بغداد راح تغرك هذولة الأهالي غيرة سزيّة! بقت السدة عليكم يالله يا أولادي!

فقذفنا في الحال كتبنا ودفاترنا وسدائرنا ورحنا نهوس «جبناها وجينا يا محمد!» حتى السدة الشرقية عند باب المعظم فرأينا أمامنا بحراً لجياً. أخذنا ننقل التراب على أكتافنا لنحكم السدة قبل أن يركبها الماء. وكان غداؤنا على حساب دائرة الري التي لم يشتهر موظفوها بالنزاهة المفرطة فقد قدموا لنا الخبز الفطير ونصف المشوي والتمر المكبوس بالحصير والذي لم يخلو من الحموضة. ومع ذلك ما اشهاه من غداء! بفضل الجوع، في ذلك الجو الشبابي والحماسة وهواء الربيع المنعش! شرط ألا يتكرر. وفي الحقيقة كان الاهالي «عديمي الغيرة» على حد زعم البيروقراطية، هم الذين ينقذون بغداد من الغرق في كل مرة بعمل السخرة. في حين كان موظفو الحكومة الفاسدون وشركاؤهم المقاولون هم الفئران التي تسبب تآكل السداد والغرق كما فعلت في سد مأرب الجرذان الاسطورية.

افتقدنا في بغداد الالعاب الحرة في الهواء الطلق الريفي والسباحة بالشط إذ كانت هذه تباع بالنقود فالشواطىء الصالحة للسباحة قليلة وبعيدة ومكلفة ومحتكرة والرياضة المدرسية الرتيبة مملة ونزهات الكشافة إلى البساتين نادرة. وتوجد حديقة عامة واحدة بعيدة في الصالحية، والدخول فيها ليس مجاناً. وأقرب نزهة مجانية شاطئ دجلة بين مدينة الطب الراهنة والاعظمية وكان خالياً من البيوت سوى بضعة قصور ومنها قصر الملك. وكذلك كان الطريق البراني بين باب المعظم والاعظمية (شارع الامام الأعظم الآن) وكان ترابياً ولا تطرقه سوى بضع عربات تجرها الخيول. وفي فيضان ١٩٢٦ تتبعنا الماء المتدفق من الكسرة قرب البلاط ورأينا بأم العين كيف كان يلحس السداد الواحدة بعد الأخرى وكأنه جاجوج وماجوج اللذين لحسوا سور الصين العظيم.

وفي عام ١٩٢٧- ١٩٢٨ كبرت وأخذت أتنزه مع بعض أعضاء نادي التضامن من زملاء عزيز شريف على شاطىء دجلة من المجيدية حتى الأعظمية وكنا نهرول أحياناً في فصل الشتاء على سدة دجلة. كانت رياضتنا مجانية وكذلك قراءة الصحف العربية في نادي التضامن وقد تعودت على قراءتها منذ ربيع ١٩٢٦ فكنت في طريق عودتي من المدرسة إلى البيت في فترة الغداء اعرج على «النادي العلمي» وكان في دار تحولت بعدئذ إلى «مقهى البرلمان» مقابل جامع الحيدرخانة فكنت التهم الصحف قبل الغداء كما لوكانت مقبلات. وفي احد الايام تقدم مني رئيس النادي وكان اسمه ثابت عبد النور الذي انضم فيما بعد إلى حزب نوري السعيد وقد لاحظ شغفي بقراءة الصحف فبادرني بالسؤال:

- ماذا تقرأ؟ وعلى الفور ودون أن أرفع رأسي عن الجريدة قلت:

- أخبار البلاد العربية.

وفي الحقيقة كنت اقرأ اخبار "الجيش الحديدي" الصيني الثوري الذي كان يزحف بسرعة من الجنوب إلى نهر اليانغتسي في وسط الصين ويكتسح أمامه جيوش لوردات الحرب. واقترب هو ليرى بعينه ما كنت اقرأ فقال:

- تكذب علي! تريد أن تبعدني عن وجهك الكالح؟ وأدار ظهره وولى. وكان وجهي والحق يقال جهماً صارماً كالمعتاد. بيد أنه لم يكن كالحاً بأي حال من الاحوال. وواصلت قراءة الصفحة بكاملها ولم انقطع عن قراءتي المجانية حتى في السنة التالية. وعندها تشاجرت بقبضات الايدي يوماً مع أحد الزملاء إذ كنت من مؤيدي الحزب الوطني المصري، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد وشعاره «لا مفاوضات قبل الجلاء!» أما زميلي فكان من مؤيدي «حزب الوفد» والاسم ذاته يدل على التفاوض قبل الجلاء. فكنت مع اليسار ضد الوسط ولم أكن أعرف بوجود الحزب الشيوعي المصري عهد ذاك.

وجاء الامتحان النهائي للدراسة الابتدائية ١٩٢٦ وكان عدد المتحنين من الصفوف السادسة في العراق جميعا لا يزيد على (٥٠٠) تلميذ .ففزت بالدرجة السابعة بينهم وبالدرجة الثانية بين

زملائي في المأمونية. ولم أكن لا من كبار السن نسبيا ولا من بين اللامعين منهم. فكانت مفاجأة لي وللجميع ولاسيما لاحد المعلمين وهو زكي علي الذي عبر عن دهشته بقوله «عبالي هذا بودلة (أبله) طلعت اني بودلة» وكان مدير المدرسة شاكر العاني على الاخص قد بذل جهداً شخصيا استثنائياً لبروز المدرسة في ذلك الامتحان بتنظيم دروس إضافية مجانية للتلاميذ.

وجاءت مشكلة متابعة الدراسة بعد الابتدائية فأعطاني عمي سامي كتاب طه الهاشمي عن جغرافية العراق المفصلة وكتاب الجبر وقال لي ادرسها خلال العطلة الصيفية لتدخل المدرسة العسكرية لتتخرج ضابطاً. ولم يكن لدي ميل للعسكرية ولعل صعوبة السير العسكري الرتيب على هي التي أبعدتني عنها، ولم تكن العسكرية بعد قد أحرزت الشعبية التي أصبحت لها فيما بعد بين الطلاب. ولم أكن بعد قد اخترت مهنتي المفضلة فكان همي الوحيد أكمال الدراسة الثانوية. فقرأت إعلاناً من كلية الامام الاعظم بأنها مفتوحة لخريجي الابتدائية وأنها تمنح المتخرجين شهادة معادلة للثانوية (البكلوريا) فركبت العربة إلى الاعظمية بعد أن دفعت آنة (٥فلوس) مع ركاب آخرين والتقيت المدير ملا نعمان الاعظمي وطلبت منه شرطاً واحداً: إلا البس العمامة وكان هو نفسه معمماً فرفض شرطي وحاول عبثاً بلسانه الذلق أن يقنعني بلبس العمامة والجبة ولألتحق بمدرسته. وبعد ذلك راجعت مدير دار المعلمين الابتدائية مجيد زيدان فوافق على قبولي ولكنني كنت متردداً وبعد أن اقنعت أمي دخلت المدرسة الثانوية وحصلت على شهادة فقر لاعفائي من الاجور المدرسية. ولست الآن نادماً الا على شيء واحد وهو أنني لم أختر التعليم مهنة لي. كان المعلم موضعاً للتنديد في المجتمع حتى بين المعلمين أنفسهم وقد أشاد شوقي بالمعلم قائلاً:

قم للمعلم وفه التبجيلا　　　كاد المعلم أن يكون رسولا

ولكن بعض المعلمين عارضها بمرارة واستخفاف ينمان عن مدى سخط المعلم على وضعه الاجتماعي والمعاشي فقالوا:

قم للمعلم وفه التقريعا　　　كاد المعلم أن يكون رقيعا

وسار هذا البيت المزدري بين المعلمين في حين يحمل المعلم الصفات الايجابية من المثقف والعامل، وفي بلاد متخلفة كالعراق يوم ذاك حيث كان الجهل سائداً وتفتقر للطبقة العاملة الحديثة، كان المعلم يلعب دوراً استثنائياً في الحركة الثورية. فلا عجب أن رأينا أن أغلب مسؤولي منظماتنا المحلية كانوا من المعلمين في مرحلة قيادة فهد. ومن ابرزهم حسين محمد الشبيبي عضو المكتب السياسي الذي استشهد مع فهد في ١٤/شباط/١٩٤٩ وسامي نادر من مؤسسي الحزب الشيوعي وعضو اللجنة المركزية وكان مسؤول منظمة المنطقة الجنوبية للحزب الشيوعي لفترة طويلة.

8

أول الرقص حنجلة

كانت دراسة الثانوية أربع سنوات و المنهج مثقل بالمادة الدراسية في حين كان المعلمون نخبة من المنورين الذين يصلحون للتدريس في المدارس العليا وكان بعضهم من سوريا ولبنان وبعضهم من بريطانيا لتدريس اللغة الإنكليزية للصف الرابع. ومن الشاميين أذكر أبو قيس عز الدين علم الدين التنوخي وهو أول من عرّب كلمة «الفيزياء» على وزن كيمياء و ترجم كتاباً بعنوان: «الفيزياء» أقر للتدريس في الصفين الأول والثاني الثانوي ليحل محل الكتاب المصري الذي كان يحمل عنوان «العلوم الطبيعية» وكان من الطبيعي أن يهدي المترجم كتابه للمدير العام للمعارف ساطع بك الحصري ليقرر تدريسه، فقال:

إليك مربي الشرق أهدي كتيبي ويهديك منه القلب مهدي كتابه

أما رزق الله أوغسطين الموصلي معلم الحساب، فلم يستعمل الطباشير إلا أحياناً إذ كان يعلمنا الحساب «الذهني» من دون استعمال الطباشير أو القلم ليس في الأعمال الأربعة فقط بل في التربيع والجذر التربيعي وحل مسائل معقدة. وكان محمد علي مظلوم معلم الهندسة المستوية هو الآخر قد وهب نفسه للرياضيات فلم تكن بالنسبة له مجرد مهنة لكسب العيش بل كانت هي حياته وعمله وسلواه سواء بسواء. ويقال انه عين لدى تشكيل الحكومة العراقية قائم مقاماً لقضاء من الأقضية وداهمه ذات يوم المفتش الإداري وضبطه في مكتبه متلبساً بعملية حل مسألة رياضية فاحالوه على الفور إلى مهنة التدريس غير المجزية. فانغمر في مائه حتى الأذقان. وكأن شيئاً لم يكن. اما الجباري وهو من عشيرة الجباريين في جوار كركوك فكان معلم اللغة العربية وكان يشجعنا على الخطابة والارتجال. وقد ارتجلت مرة كلمة حملت فيها حملة شعواء على (مشروع سكة حديد بغداد حيفا) الذي لم يتحقق لعدم جدواه الاقتصادية والحقيقة أنني لخصت ما كتبته الصحف الشامية والفلسطينية التي كنت اقرأها على الدوام في نادي التضامن ففاجأت الآخرين بها. وكان اسلوبي خطابيا مثيراً على ما يبدو واستحسنه المعلم واصغى اليّ الزملاء بلا تأفف. وأراد معلمنا الجباري أن يعلمنا المنهجية في الكتابة بوضع خطة لكيفية تناول موضوع البحث قبل أن نشرع بالكتابة وأعطانا موضوعاً نكتبه فكتبناه وسلمنا كتاباتنا إلى المعلم باستثناء الزميل صديق شنشل الذي سلم المخطط غير الكامل فقط! وتبين أن أحداً غيره لم يتورط في وضع مخطط للموضوع! ضحكنا من زميلنا شنشل. ولكن كما يقول الانكليز: من يضحك أخيراً يضحك كثيراً. فلو احترمنا نصيحة المعلم وأخذنا بأسلوب التخطيط منذ ذلك الحين فلربما أصبحنا كتاباً نظاميين وفيري الانتاج وأن لم يصبح شنشل كذلك. وبزنا شنشل في شيء يجب أن نحسده عليه هو صوته الجهوري وقد اكتشفناه عندما شارك في تمثيل رواية «في سبيل التاج» على مسرح المدرسة الثانوية فاهتزت لصوته القاعة والمدرسة ولربما البيوت المجاورة أيضاً وسمعت صوته هذا مرة ثانية

على أمواج الاثير في أيار ١٩٤١ إذ كنت مبعداً في عانة مع يوسف متي عندما أعلن شنشل مدير الدعاية، تحرير قاعدة الحبانية السابق للأوان. إذ تحررت القاعدة بعد ١٧ سنة في ثورة ١٤/تموز.

ولا يغيب عن البال معلم الرياضة البدنية توفيق الشيخ أحمد الداوود. وكان درس الرياضة فرصة للتسلية وكان المعلم متساهلا إلى حد انه كان مجرد صديق للطلاب ويحب أن يقضي حتى الفرصة بين الدروس معهم ليخوض معهم النقاش السياسي وكانوا يشتمون أباه أمامه شتماً سياسياً مقذعاً من قبيل «صحيح أستاذ الوالد صديق مس بيل؟» ولم يثره هذا في أي مرة.

وكان أنيس زكريا النصولي معلم التاريخ العربي في صف أعلى من صفنا، وقد ألف كتاباً في تاريخ الإسلام قائماً على العصبية الأموية متحيزاً لمعاوية بن أبي سفيان بالضد من علي ابن أبي طالب بإجراء مقارنة سطحية بين الشخصيتين التاريخيتين دون تحليل معمق للعوامل الاجتماعية السياسية المحيطة بهما. وبدلا من الرد عليه بأسلوب ديموقراطي عمدت الحكومة إلى فصله من العمل وإبعاده مخفورا عن العراق. فالسلطة في العراق أيا كانت تخشى المناقشة كما يخاف الشيطان من النار فتقطع بسيف البيروقراطية البتار جهيزة كل مناقشة وكفى الله المؤمنين شر الجدال.

واستفز إبعاد المعلم اللبناني طلاب المدرسة، ولا شك في أن العناصر القومية اليمينية المتحيزة للعصبية الأأوية شاركت من جانبها في التأجيج بيد أن هذا لا يؤبه له فما أن سمعنا باضطهاد «حرية الفكر» حتى قمنا جميعاً للاحتجاج وطالبنا بإعادة المعلم المفصول. وهكذا بدأت اول مظاهرة سجلها تاريخ الحركة الطلابية العراقية. وقد جرت في بداية شباط ١٩٢٧ وقد اشترك فيها جميع الطلاب وبضمنهم الشيعة. ولم تكن النعرة الطائفية ظاهرة في المدرسة فقد كان المناخ تقدمياً والروح الوطنية الثورية تنبض بنشاط والنضال محتدم ضد الانتداب البريطاني على العراق.

خرجنا من المدرسة من فورنا رتلاً واحداً مهرولين بلا لافتات وبايدينا سدائرنا نهتف ملء حناجرنا وعل إيقاع واحد رتيب: فلتحيا الحرية الفكرية!

حتى بلغنا وزارة المعارف حيث الان المتحف البغدادي في شارع المأمون. تجاهلونا فترة وقد تجمهرنا على أبواب الوزارة ثم خرج يناسكرتيرالوزارة أحمد زكي الخياط وأخذ يتفوه بكلام بذئ: «شوفوا فرد نوبة أنتو سويتو أدب سز لغية ييزي عاد ردوا ألمكتبكم كفاكم اساءة للأدب عودوا إلى مدرستكم!»

كان هذا أدب سكرتير وزارة المعارف أي التربية! وكال له الطلاب الصاع صاعين! والجزاء من نفس العمل! والبادىء اظلم! وفي الحقيقة كان هذا أول درس في السياسة تعلمه الطلاب من حكومتهم ومن المكلفين «بتربيتهم» على وجه التعيين. تواري السكرتير عن الأنظار ثم طلع الوزير وكان السيد عبد المهدي المنتفقي وكان كلامه دبلوماسياً معسولاً وأهاب بالطلاب بالانفضاض. ولكن الطلاب أصروا على اعتصامهم في الشارع. وعاد الوزير إلى مكتبه. وبينما كان الطلاب يفورون حماسة فاجأتهم السماء بوابل من الماء البارد أو بالأحرى بسيل منهمر. تشتت شملنا في الحال ورأينا فرقة اطفاء المستر فيشر وقد فتحت خراطيمها كالسيل العرم وعلى رؤوس أفرادها الخوذ الفولاذية. وفي البداية لاذ الطلاب بالازقة الضيقة ولا سيما زقاق السيد يحيى السيد حسين. ووقف كامل ابراهيم أحد الزملاء كالطود الشامخ والماء ينهمر على رأسه وكأنه «يأخذ دوش» هاتفاً بأعلى صوته: أخوتي وينكم ترى ميّ، ميّ! وراح على الفور تأثير الصدمة «الكتمان والمباغتة» على حد تعبير الزعيم عبد الكريم قاسم! ولم الطلاب شملهم وكروا كرجل واحد. وبوغت رجال الاطفاء بدورهم بهذا الهجوم المضاد الصاعق وتركوا سيارتهم الجبارة تزمجر ولاذوا بأذيال الفرار وعلى رأسهم المستر فيشر. وأخرج الزملاء سكاكينهم النابضة (أم الياي) وقطعوا أنابيب الماء المطاطية إربا إربا.

لم يتحقق مطلب الطلاب ولكن معنوياتهم تعززت إذ لم يهزموا بل تعلموا أول درس في الكفاح الذي خاضوه بأنفسهم في أول معركة شوارع وعرفوا قبل كل شيء أن ما يقرأونه في الكتب وفي الدستور العراقي والقانون الأساسي عن الحريات والحقوق لا وجود له في حياتهم وفي تعامل السلطة مع الشعب.

وفي تلك الفترة من عام ١٩٢٧ فتحت أبواب الاحزاب السياسية من جديد وكان لهذا النشاط علاقة بالمفاوضات الجارية بين العراق وبريطانية لتجديد المعاهدة وتعديلها. وكان من عادة الملك فيصل الأول كما سبق القول، تشجيع الاحزاب من طرف خفي على استئناف النشاط السياسي في الجانب المعارض كوسيلة للضغط على الانكليز في المساومة. ومن هنا موسمية الاحزاب الوطنية في العراق، وموسمية النشاط السياسي على العموم قبل قيام الحزب الشيوعي العراقي.

قررنا نحن الزملاء الثلاثة لبيب الألوسي وحسين فوزي وأنا، أن ننتمي إلى الحزب الوطني برئاسة الزعيم محمد جعفر جلبي أبو التمن ولقب الجلبي (بالجيم المثلثة الفارسية) هو لقب التجار المحترمين وتعني بالبغدادية الدارجة ما تعنيه بالانكليزية «الجنتلمان» أي الرجل المهذب والأنيق. وكان الجلبي محمد جعفر كل ذلك فعلاً! فلم يكن في بغداد من معاصريه من هو اكثر اناقة وجنتلمانية على السواء فكانت على رأسه الكشيدة وهي شبيهة بالعمة التجارية الشامية المطرزة بالحرير الذهبي، أن لم تكن هي بعينها، ويرتدي الجبة «القفطان» من الاجواخ الانكليزية الناعمة (الكبردين) وبطانتها من الدمقس المفتل فوق البذلة الفرنجية من أفخر الاجواخ الانكليزية. وكان طويل القامة ممشوق القوام كحيل العينين مخضب اللحية مقضبها. وكان من عادته أن يمشي الهوينا عصراً في منتزه الصالحية، آتياً لوحده من بيته في صبابيغ الآل فيعبر جسر الأحرار متبختراً وكأنه عريس في ليلة زفافه. وكان هو وفيصل الأول يتبادلان التحية برفع اليد في أن واحد عندما يتقابلان، الملك في سيارته وأبو التمن راجلا.

مشينا إلى مقر الحزب الوطني وكان في رأس القرية في دار بغدادية فريدة الطراز ذات ثلاثة طوابق وهو أمر نادر في بيوت بغداد القديمة التي لا تزيد عادة على الطابقين. دخلنا الدار ثلاثتنا وبهرنا منظرها المخملي الناعم فارضها من الرخام (المرمر) الموصلي الصقيل كالمرآة وكذلك أساطينها. كل شيء كان حريري الملمس. طلبنا لقاء الزعيم وبعد أن كشفنا هويتنا، وكأن الامر جرى على أساس المعاملة بالمثل، جاء للقائنا نحن الثلاثة، ثلاثة من زعماء الحزب: أبو التمن وسعيد الحاج ثابت ومحمود رامز. وبعد تبادل السلام بدأنا الحديث رأساً بلا مقدمات ولا مواربات: نريد الانتساب للحزب لنعمل في صفوفه لتحرير العراق. وبعد أن فرغنا من حديثنا تولى الرد الزعيم أبو التمن بحديث ناعم مخملي متأني يتساقط على السمع كنقاط الماء الصافي يقطر نقطة نقطة على مهل فلا يخدش الاذن ولا يثير أحداً ولا يستجيب لشيء. والخلاصة هي أننا ما دمنا لا نزال طلاباً فما علينا إلا أن ننصرف كلياً للدراسة حتى نتخرج وعندئذ وعندئذ فقط يمكننا أن نتعاطى السياسة. وفي الحقيقة لم يكن هذا ما قاله حرفيا بل ما استشفيناه من حديثه استشفافاً. أما حديثه فكان حديثاً أبوياً طويلا ممطوطاً يدور حول القضية ولا يدخلها. حرنا فيما عسانا أن نقول فاستأذنا بالخروج.

وفي الطريق، كنا ممتلئين سخطاً على ذلك الجيل، على اولئك الاباء الذين يرفضون تجنيد أبنائهم، أبناء ثورة العشرين الذين هيأوا أنفسهم باروداً لمدافعهم وهم يرفضون أن يستعملوا هذا البارود. أهكذا يستقل العراق؟ ونفسنا عن سخطنا باقسى الكلمات في القاموس البغدادي على اقرب الناس إلينا، كما يفعل العراقيون عادة عندما ينفجر بركان الغضب في صدورهم.

كنا لانزال في السادسة عشر وقد غدونا من رجال السياسة كما كنا نعتقد بأنفسنا.

9

جمهوريون... ولكن

بعد غرق القصر الملكي في ربيع ١٩٢٦ انتقلت العائلة المالكة إلى مدرسة الصنائع بعد ترميمها، وهي نفس البناية التي غدت داراً لمجلس الأمة ثم مقراً لمحكمة الشعب. وصار الملك فيصل جاراً للمدرسة الثانوية. وبناء على حق الجيرة أولم وليمة لطلاب المدرسة ومعلميها. وسمعنا بالخبر فتشاورنا نحن الزملاء: حسين جميل والملاكم توفيق وهبي الذي اصبح فيما بعد مترجماً، ويكتب بلغة سكرية عن الملاكمة وعن رقص الملاكم محمد كلاي، وأنا، تشاورنا نحن الثلاثة وتوصلنا إلى مقاطعة الوليمة الملكية واتفقنا أن ندعو الطلاب للمقاطعة. وفعلاً قمنا بالدعاية ولا أدري مدى اندفاع الزميلين الآخرين. ولكنني قمت بالالتزام ولم أصادف أي معارضٍ فتيقنت أن المقاطعة ستكون إجماعية ولن يحضر إلا المعلمون. وذهبنا إلى نادي التضامن انتظاراً لاخبار المقاطعة. وفي الساعة المعينة رحنا نستطلع. وكانت الوليمة قد تقررت إقامتها في ساحة التنس في نادي الضباط على دجلة في جوار القصر الملكي والمدرسة الثانوية. ومن خلال خصاص السياج المضنوع من الحصران بصينا إلى ساحة التنس لنرى ما إذا كان بعض الذين يعانون من الضعف اتجاه الخراف المحشية بالرز قد سولت له نفسه التسلل إلى الوليمة، فوجدنا الساحة مكتضة بالموائد وهذه محتشدة بالخراف وحواليها المدرسة بكامل طلابها باستثنائنا نحن الفرسان الجمهوريون الثلاثة — فضلاً عن معلميها وقد تهافتوا على «القوازي» الملكية تهافت الجياع على القصاع. وبصقنا على السياج القصبي ولم نلم أنفسنا نحن بالطبع على سؤ تقديرنا لمزاج جمهرة الطلاب، نحو (٣٠٠) طالب واستحالة مقاطعتهم الصريحة للوليمة الملكية. وكان سوادهم يرى في الملك رمزاً للوطن ويطمح إلى التمسح بالملك ويحلم بوظيفة كبيرة في المستقبل، بل صبينا جام غضبنا عليهم ونعتناهم بشتى النعوت.

وذات يوم كنا في شرفة نادي التضامن وصادفٍ يوم استقبال فيصل في تلك السنة بعد عودته من إجازة طويلة في أوربا. وقد بذلت الحكومة جهوداً كبيرة لتنظيم أوسع استقبال شعبي له، بواسطة مخاتير المحلات ووجوهها. ونجحت فعلا وإلى أبعد حد مستثمرة دافعين لدى الناس. أولهما ميل الجماهير الفطري إلى المهرجانات الواسعة مهما كانت المناسبة بسبب الحرمان من الحياة الاجتماعية. وقد تجلى في حفلات تتويج فيصل الثاني ملكاً على العراق في اوائل الخمسينات عندما بلغ الوعي الديموقراطي الثوري شأواً بعيداً في صفوف الشعب، وكان الدافع الثاني: وطنية الجماهير التي تهدف لدعم فيصل في مفاوضاته مع الانكليز. وقد تجلى هذا الدافع في الحماسة التي أحاطت بها الملك وقد جرفتنا نحن «الجمهوريين» عندما مرّ الموكب أمامنا إذ وجدنا أن أكفنا قد التهبت من التصفيق! كانت جمهوريتنا هشة رشيمية أو بالأحرى جمهورية مثقفين وطنين.

وكان في جوار المدرسة الثانوية المركزية المكتبة العامة «مكتبة المعارف» وتضم غرفتين للمطالعة وغرفة للكتب. شرعنا في البحث عن كتب ثورية. فوجدنا كتاباً عنوانه «مذكرات لينين» مطبوعاً في مصر. وبعد أن قرأناه تبين لنا أنه لا يمت بصلة بالعنوان وأنه كتاب نظري صعب علينا فهمه والترجمة العربية حرفية ولم تكن سلسة على أي حال. وقد علمنا فيما بعد أنه كتاب لنين «الدولة والثورة» وعثرنا بكتاب محمد عبد الله عنان وهومصري أيضاً عنوانه أن لم تخني الذاكرة «الجمعيات السرية والحركات الهدامة» وأعجبنا بخاصة ما سرده عن زعماء اليعاقبة الفرنسيين، ابطال الثورة الفرنسية، ومنهم (مارا) داعية الارهاب الثوري ضد أعداء الثورة الذي قتلته الارهابية (شارلوت كورادي) وهو غاطس حتى ذقنه في حوض الماء (البانيو) إذ كان لا يستطيع العمل خارج الماء لإبتلائه بمرض جلدي أصابه منذ عهد النشاط الثوري السري عندما كان مطارداً ولا يجد ملجئاً أو مخبئاً آمناً إلا في مجاري المياه القذرة تحت الارض في انفاق باريس «كاتاكوم» وغدا «مارا» بطلاً من أبطالنا الأسطوريين. وحياته نبراساً لنا في الصبر والتحمل الثوري وركوب الأهوال. وصرنا من أنصار الارهاب الثوري في الحقيقة جيلا «يعقوبياً» كنا نميل إلى الثورية الجذرية الفطرية، يوم لم يكن هناك دعاة يبحثون عنا ليكتشفونا ويلقنوننا، بل كنا نحن الذين نبحث عنهم حتى في طيات الكتب يوم عزّ الرجال القادرين على التنظيم. ولم تكن المكتبة العربية بعد حاوية كما هي اليوم على منتجات الفكر الثوري الكافية لتخريج كوادر متكاملة الأوجه من الثوريين. كنا نتسلق الجبل الوعر غير المطروق بأظافرنا لعلنا نبلغ القمة. وكان لابد لنا من تعلم لغة أوربية وعلى وجه التحديد اللغة التي لم نكن نحبها بأي حال من الأحوال. ولكن لا بد مما ليس منه بد كان لابد من تعلم اللغة الانكليزية بصبر ودأب. وكذلك تثقيفنا الذاتي. فقد كنا كمن يجمع ثروة من أكوام الحطام والقمامة، ساعياً طوال حياته..

10

جنات النخيل...

في صيف ١٩٢٧ رحلت إلى البصرة مع أقرباء لي وكان فيها دكان مبشر بروتستاني يرتاده الشبان المتعلمون إذ لم يكن لديهم نوادي تجمعهم سوى المقاهي فيدخلون في جدل صاخب مع المبشر حول الثالوث والواحد الاحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد. وكانت مهمته التوفيق بينهما فينتهي الجدل بتعجيزه في كل مرة بعد أن يبذل عرق القربة. ولكن ذلك لم يخرجه عن طوره في أي مرة. وكان واحد من الشبان ينتصر له حباً في إطالة الجدل زاعماً «لو كنت أؤمن بالواحد لآمنت بثلاثة إذ ما الفرق ما دام الاعتراف بخالق مفروضاً سواء كان واحداً او مثلثاً؟!» فيتجدد الجدل البيزنطي عوداً على بدء. وكان يجري بين اولئك المثقفين جدل من طراز آخر أيضاً في تلك السنة إذ كانت تصدر جريدة «النهضة» في بغداد لصاحبها محمد أمين الجرجفجي الذي كان يطالب بحقوق الشيعة ولا سيما في وظائف الدولة. والمشكلة هي من مخلفات العهد التركي أن لم تكن أقدم. كانت الدولة التركية سنية فاعتمدت على البيروقراطية السنية المشبعة بروح العداء للشيعة. وانصرف الحضريون الشيعة إلى التجارة والحرف. وغدا معظم المتعلمين المؤهلين للوظائف الحكومية من السنة. وكذلك كان معظم الطلاب أيضاً طبقاً لسياسة مرسومة. واحتجاجاً على اضطهاد الدولة واقتصار مهمتها على «النهب الداخلي» جباية الضرائب والحرب «النهب الخارجي» على حد تعبير أنجلس تحول معظم الفلاحين العرب، في القرنين الاخيرين من الحكم التركي، إلى المذهب الشيعي. وفي ذينيك القرنين بالذات تحول معظم الرعاة الرحل إلى فلاحين مستقرين فسهلت على الدولة جباية الضرائب منهم. وفي الثورة الوطنية ١٩٢٠ اتخذ جميع الوطنين على اختلاف اديانهم ومذاهبهم وطوائفهم موقفهم ضد الانكليز وتناسوا خلافاتهم. وتأسست الدولة العراقية وكانت فئة الموظفين من مدنيين اوسع فئة مستفيدة من الدولة العراقية الجديدة. ولم ينل الفلاحون، مادة الثورة، أي شيء، وكذلك العمال والحرفيون. فتجدد الشعور بالغبن، السياسي لدى الشيعة ولا سيما المثقفين منهم. وكانت جريدة النهضة تعكس هذا الشعور بالغبن، الذي كان يختفي في أوقات النهوض الثوري ويعود فيتأجج في فتراة الجزر وتفاقم الاضطهاد. ولم يعد الشعور بالغبن مقتصراً على توزيع الوظائف بل على ممارسة السلطة أيضاً. وتتوقف إزالة الغبن بجميع أشكاله على إقامة نظام حكم ديموقراطي نيابي حقيقي لا على أساس طائفي بل على أساس حزبي سياسي ديموقراطي تعددي الامر الذي لم تشهده الدولة العراقية منذ تأسيسها حتى الآن.

وفي صيف ١٩٢٧ انتشرت الهيضة «الكوليرا» واغتالت في البصرة المئات من الناس. وفرضت الحكومة التلقيح الالزامي. وانتشرت نقاط التلقيح على مفارق الطرق. وقررت رفض التلقيح وأن اعتمد على مناعتي الذاتية بعد أن قرأت مقالاً في هذا الموضوع منقولا عن مجلة التربية البدنية

الامريكية، يهزأ فيه المحرر من الطب، ويسفه العلاج بالعقاقير، ويؤله المناعة الذاتية عند الانسان ويوصي بالرياضة باعتبارها الدواء الشافي لكل داء. ولم أكن أمارس الرياضة عدا المشي واحياناً السباحة. ومرت الهيضة ولم اصب بها فازداد تعصبي للمناعة الذاتية ضد الطبابة.

وكنت أمشي في بساتين الخورة، ولم يكن فيها أي بناء، ساعات دون ملل أهيم على وجهي في جنة النخيل. وكانت محافظة البصرة فريدة في العالم تضم نحو ثلاثين مليون نخلة على طول شط العرب بين البصرة والفاو ولم يبق حتى نصفها الان. هنا أزهقت أرواح اجيال من الافريقين «الزنج» ليكتسحوا الاسباخ ويطيبوا الأرض ويأتي الفلاحون ليغرسوا فيها النخيل. هاهي النخلة البصرية نبتت جذورها في عظام الزنج، وتوجت رأسها الاخضر غدائر بناتهم. وجرى نسغ الحياة في عروقها من عرق جباه التعابة لتثمر ثمارا من ذهب، صفراء وحمراء تحملها اثداء ضخام متدلية مثقلة حانية تدعو ابناء حواء الجياع: هلموا احتسوا رحيقي فهو احلى من الشهدة وازكى من الخمرة. ورأيت ازاء هذه الجنة التي مدت اصولها في الارض الرطبة ورؤوسها الخضراء تسبح في اشعة الشمس المحرقة، جنة انغمرت جدائلها الخضر في مياه الشط وفروعه هروباً من لهيب الشمس. ستون عاماً ونيف لم تطفئ نيران الحب الأول للنشاوى الباسقات بل أججتها نيران القصف الجهنمي (الذي لا يفرق بين الاخضر واليابس).

لم أصب بالكوليرا، بفضل مناعتي، ولكن حملت معي إلى بغداد شراً منها، جرثومة الملاريا الخبيثة، اسهال وقيء داميين. هرولت أمي مولولة إلى الطبيب وفي غيابها جاءتني جدتي كلثوم وقد ناهزت المائة ولقنتني بالاستجواب الرهيب الذي سألاقيه على أيدي ناكر ونكير حالما يحثى علي التراب. ولن تتركني الا بعد أن تيقنت من استظهاري الحوار المرعب حرفياً. فجاء الدكتور مظفر، أقدم أطباء بغداد الثلاثة في بداية القرن العشرين، وأعلم الأطباء بأمراضها فسقاني الدواء لاكتب لكم هذه الذكريات. وانقذني مؤقتاً من الامتحان الرهيب في عالم الموتى الذي اعدتني له جدتي كلثوم اعداداً دقيقاً كما لو كانت جنرالاً ألمانيا يعد جنوده للمعركة الوشيكة المحتومة. ولكنني بليت فيما بعد بامتحانات أصعب في الحياة الدنيا.

وبعد إبلالي من المرض صرت أقل احتفالاً بالمدرسة وبالدراسة النظامية لسوء الحظ، وإن أكثر اهتماماً بالقراءة العشوائية «حاطب ليل» وأكثر انغماراً بالجدل السياسي.

11

المعركة الأولى في سبيل فلسطين

كنت انتمي إلى مؤسستين سياسيتين في آن واحد: نادي التضامن والمدرسة الثانوية المركزية. فبعد الدوام المدرسي كنت أذهب إلى النادي حيث الصحف العربية وكان من أبرزها تأثيرا على «الشورى» الفلسطينية التي تصدر بالقاهرة ورئيس تحريرها محمد علي الطاهر و«فتى العرب» الدمشقية ورئيس تحريرها معروف الارناؤوط. وكنا نسمع أخبار المعارضة العراقية ونقرأ صحفها ونتجادل فيها وعن مستقبلنا السياسي. وسمعت مرة من عزيز شريف أنه يجب على المرء أن يكون لنفسه في البداية مركزا اجتماعيا لكي يكون له دور مؤثر عندما يشتغل في السياسة. وكنت ضد هذا الرأي على خط مستقيم، كنت مع النشاط السياسي بلا شروط سابقة وبلا تحفظ.

أخذ وعينا الوطني العربي يتبلور كلما زاد اطلاعنا على الحياة السياسية للبلاد العربية الاخرى ولا سيما فلسطين ونضال شعبها ضد «الوطن القومي لليهود» ولم نكن نعرف شيئاً عن المغرب العربي باستثناء ثورة الريف التي كانت قد انتهت وأسر زعيمها عبد الكريم الخطابي الذي أبعده الاستعمار الفرنسي إلى جزيرة مدغشقر، المستعمرة الفرنسية آنذاك. وكنت أحفظ له في مجموعتي الصغيرة صورة اقتطعتها من إحدى الصحف وأضفت إليها صور سلطان الأطرش وأحمد مريود وعبد الرحمن شهبندر من زعماء الثورة السورية لعام ١٩٢٥ــ ١٩٢٧ وجاء إلى الثانوية درويش المقدادي الفلسطيني مدرساً للتاريخ العربي خلفاً للنصولي. كان على شاكلة سلفه النصولي ولكنه أكثر احتراساً. وبدأ يفرض الاسم الثلاثي. وكان أغلبنا لا يزيد على ذكر اسمه واسم أبيه. ولا يزال هذا هو الشائع في الريف العراقي. ولبى دعوته الكثير من الطلبة. واندفع أحد الزملاء في صفنا إلى أكثر من الثلاثي إذ أخذ في كل يوم يضيف اسماً جديداً من خط أبائه، السلف الصالح. وبعد فترة وجيزة اصبح اسمه ثمانياً على طول السبورة: «محمد جواد جودت جاسم الشذر آل الأمير طه العماري» فغدا موضع تندرنا. وكان يكفينا لاستفزازه أن نكتب أسماءه الحسنى بالطباشير على السبورة.

كنا نعتقد أن الوحدة العربية لن تتحقق إلا من خلال كفاح مسلح وطويل ضد الاستعمار ولا سيما البريطاني والفرنسي ولأننا كنا ندرس تاريخ أوربا الحديث فقد تأثرنا بطريقة بسمارك العسكرية في توحيد الدويلات الألمانية بالحاقها بمملكة بروسيا. فكنا نبحث عن بسمارك العرب بين الاقطار العربية. واستقر رأينا على اليمن الشمالي. فقد كان هذا القطر العربي الوحيد الخالي من الهيمنة الاستعمارية. وكان في الحقيقة منعزلاً عن العالم أيضاً وكنا نردد القول المأثور «الايمان يماني والشجاعة يمانية» وقرأنا لأمين الريحاني كتاب «ملوك العرب» فازددنا اعتزازاً باليمن بالرغم من سخرية الريحاني الطاغية بالإمام يحيى حميد الدين مؤسس اليمن المستقل المعاصر. وقد كان ممسكاً لأنه كان حريصاً كل الحرص على بيت مال المسلمين.

كنا نتتبع بقلق بالغ أخبار الشعب الفلسطيني ونضاله ضد الصهيونية والاستعمار البريطاني ومن هنا معارضتنا لسكة حديد بغداد حيفا ولكل مشروع له صلة ببريطانية ونفوذها في فلسطين.

وذات يوم جاءتنا الصحف الدمشقية بأخبار وصول (سير الفريد موند) الذي غدا بعدئـذ (لورد ميلتشيت) رئيس شركة الصناعـات الكيمياويـة الامبراطوريـة .I.C.I الاحتكـار البريطـاني الضخـم. وكان من زعماء الصهيونية. وبلغتنا الاخبار عن وصوله إلى دمشق وكيف حاصره الوطنين في الفندق ثلاث أيام متوالية احتجاجاً على الزيارة الاستفزازية. وعلمنا أنه سيزور العراق بدعـوى مـن الملـك فيصل فاقسمنا أن نفسد عليه الزيارة ونحول دون استقباله رسمياً مهمـا كلـف الأمـر وأن لا نكـون أقل حصانة من أهالي الشام أو أقل غيرة منهم.

كـانت مظـاهرة العـام المـاضي، شبـاط ١٩٢٧ أي مظـاهرة «الحريـة الفكريـة» مظـاهرة سـريعة خاطفة، وأول الرقص حنجلة كما يقال، اما مظاهرة فلسطين هذه الاولى في تاريخ العراق فيجب أن تكون مهيأة ومنظمة وذات شعارات مكتوبة على لافتات من نسيج القطن «الخام الابيض النـاصع» ويجـب أن تكـون مشـتركة، أي أن يشـارك فيهـا طـلاب الثانويـة المركزيـة وطـلاب دار المعلمـين الابتدائية في الكرخ وكانت حيث الآن مستشـفى الكـرخ للـولادة وكـان المعهـدان سلفين صـالحين لجامعة بغداد، والمعهدين الكبيرين الوحيدين عهد ذاك.

وبدأنا العمل علانية بين طـلاب الثانويـة وقـد أمسـك حسـين جميـل بقائمـة طويلـة وبـالقلم لتسجيل التبرعات والمتبرعين لشراء ما يلزم لصنع اللافتات ودفع اجور الخطـاط وقمـت أنـا بـدور الدعاية والتحريك: أليس من العار علينا أن ندعه يمر في حين أهل الشام حصروه في الاوتيل ثلاث أيام متوالية! انها مناسبة للاحتجاج على وعد بلفور! الكل اصغـوا باهتمـام وناقشـونا واسـتجابوا وتبرعوا بالبيزات والآنات الهندية باستثناء يهودي واحد من بـين عـدد مـن اليهـود بقـي يجـادل ويبدي عدم قناعته حتى الأخير فتركناه وشأنه

توقعنا سلفاً أن لفيفاً من الطلاب سيأتي إلى المدرسة ويتخلف عن المظاهرة وعليه كان لابـد مـن إقامة حراسة للاضراب في كافة المسالك المؤدية إلى الثانوية المركزية. وفي صباح المظاهرة جئـت مـن الزقاق المجاور لدائرة البريد المركزي القديمة، حيث كان مكتب جريدة الاسـتقلال فوجـدت أحـد حراس المظاهرة، الملاكم توفيق وهبي. وقال أن الجميع محتشدون عند باب المدرسة. بلغت الحشد ورأيت بين ثلاثين وأربعين طالبا قد استطاعوا أن يتسللوا إلى المدرسة ولم يكونـوا مـن اليهـود وقـد وقفوا خلف المدير (طالب مشتاق) وكان المتظاهرون يحرضون المتسللين، كاسـري الاضـراب، على الخروج والانضمام إلى المظاهرة. ويرد عليهم طالب مشتاق بهدوء مدروس، وكـان قـد عـاد تـواً مـن الدراسة العليا في لندن، ويحثهم على دخول المدرسة والدوام لئلا يندمـوا فيمـا بعـد. وكـان طـالب مشتاق مناضلاً في شبابه وكأنه الآن يريد أن يبرىء ذمته امام الحاكمين حرصاً على وضيفته

سارت المظاهرة تاركة المتسللين المتخلفين مع المدير الوسيم الـذي اسمعـه الطـلاب كبـار السـن دعابات نؤاسية. ووصلت المظاهرة الساحة مقابل مركز شرطة السراي لتأخذ اللافتـات مـن جـلال الخطاط. وكان قد نشرها لتجف امام اعين الشرطة. وكانت الشرطة عديمـة التجربـة في هـذا الفـن الذي يسمونه مظاهرة منظمة ذات شـعاراتٍ مخطوطـة ومحمولـة. هـذا الفن الـذي عممـه الحـزب الشيوعي العراقي فيما بعد حتى غدا تقليداً من التقاليد الوطنية. واخترقت المظاهرة سـوق السـراي وعبرت جسر الشهداء. وفي جانب الكرخ التحمت بمضـاهرة دار المعلمـين فتضـاعف عددهـا فـورا. وواصلت السير في شارع علاوي الحلة حتى الساحة التي يقوم عليها الان المتحف الوطني. وكانت هناك عربات حمل مكشوفة لسكك الحديـد. وتوقفـت المظـاهرة ليلقـي الخطبـاء كلمـاتهم الناريـة. وانطلقت المظاهرة بعد ذلـك علـى جسـر الأحـرار وعبرتـه ثـم مـالت في شـارع الرشيـد إلى نهايتـه الجنوبية على النهر حيث كان مبعوثو أمريكا وفرنسا والقائد العام للقوة الجوية البريطانية. وألقـى الخطباء خطبهم أيضاً على كومة من الطين ثم سلمت احتجاجات المتظاهرين علـى وعـد بلفـور إلى

ممثلي الدول الاجنبية. وعادت المظاهرة ادراجها على طول شارع الرشيد إلى جسر الشهداء لتعبره مرة أخرى إلى الكرخ، مواصلة سيرها باتجاه جسر الخر لتقطع طريق المرور على السيارة القادمة من دمشق والتي تقل الزائر الصهيوني غير المرغوب فيه من الأهالي. وفي آخر النهار لم تعد المظاهرة طلابية، فقد بلغ عدد المتظاهرين العشرين الفا من مختلف الفئات الاجتماعية. ومنعت المرور واضطرت السلطات إلى تهريب ضيفها إلى الكاظمية على طريق أبو غريب الوعر غير المعبد. ودامت المظاهرة حتى الليل. وحدث عندما اقتربت المظاهرة للمرة الثانية من دائرة الكمارك، وكانت آنذاك بالقرب من بناية المتحف الوطني الحالية، أن جوبهت بكمين نصبه مدير شرطة بغداد حسام الدين جمعة خلف بناية الكمرك بسرية من شرطة الخيالة. وما أن بلغت المظاهرة البناية حتى فوجئت بالخيول تطير فوق رؤوسها. انفرجت المظاهرة ولكنها لم تتشتت ولم تعيد الشرطة الكرة. وسقط ثلاث جرحى في ميدان المعركة وكنت أحدهم والثاني الزميل حسين فوزي ونسيت الثالث. لم استطع مواكبة المظاهرة إذ أن حصان مدير الشرطة «حسام الدين جمعة» كسر عظم الترقوة في كتفي وإذ أذكر كلمح البرق الخاطف حافر الحصان الطائر وصوت قرقعة العظم المنكسر. امسكت بيدي اليمنى بذراعي الأيسر لأعود ادراجي. وكان البرد قارصاً ورآني شاب يعمل في معمل الزنكغراف الوحيد في بغداد عهدذاك، فنزع معطفه ودثرني به. وعند رأس جسر الشهداء في جانب الكرخ رأيت ثلة من الشرطة وعلى رأسها المفوض عبد القادر «دولة» وكان زميلنا في المأمونية وقد أعطيناه هذا اللقب، لضعفه إزاء هذه الاكلة البغدادية التي يتحدث عنها بشغف. فقلت له: مديركم كسر كتفي. فأرشدني إلى مركز شرطة الكرخ حيث سجلت دعوى كسر عظم الكتف على مدير الشرطة حسام الدين جمعة. وأرسلوني إلى المستشفى الملكي حيث ضمدوني وعدت إلى البيت.

وعندما علم مدير الشرطة أن أحد المتظاهرين قد سجّل عليه دعوى كسر عظم، جن جنونه فأرسل ثلة من الشرطة مع مختار المحلة لالقاء القبض عليّ لإيداعي التوقيف.

وطرق الباب بعد منتصف الليل واستيقظ أحد أقاربي، جمال محمد عارف وكان عريفاً للاعاشة في الجيش وهو كهل ومعتد بمسلكه العسكري وسلالته العسكرية أيما اعتداد. وبعد أن عرف جلية الأمر انتهر المختار والشرطة ومديرها باعلا صوته المجلجل فلاذوا بالفرار دون أن يفتح الباب. ولكنهم عادوا بعد ساعة وطرقوا الباب وكان العم جمال قد نام نومه العميق بعد أن تناول ١٨٨ غراماً من حليب السباع كعادته. فتفاوضنا أنا ووالدتي من خلف الباب الموصد مع المختار فقال: أن المدير قد أعطى أوامر مشددة بكسر الباب وأخذي عنوة إلى التوقيف. فلم أرى بداً من الخروج اليهم وفي مركز الشرطة لم يدعوني مع الموقوفين الاخرين، فنمت على مكتب الشرطي الكاتب وتوسدت دفاتر الشرطة وتغطيت بمفرش المكتب بعد مطالبتي بالفراش والمجادلة الحامية معهم إذ كانت أوامر المدير مشددة بعزلي. وكانت تلك أول مرة اعتقل بها. وفي الصباح نقلوني إلى غرفة التوقيف مع الاخرين وكان من بينهم حسين جميل وعبد القادر اسماعيل وعزيز شريف وحسين الرحال وآخرون وثلاثة أو أربعة من الطلاب الاحداث. ودخل حسام الدين جمعة وسأل عن الاحوال. ولم يكترث له أحد من الكبار وبقوا جالسين. وقلت له: انت كسرت كتفي وقد سجلت عليك دعوى. فصرخ بأعلى صوته مخاطباً الكبار. أنا اسأل عن أحوالكم ولا أحد يرد عليّ. ولم يرد عليه احد أيضاً وخرج محنقاً على سخرية الصمت التي قوبل بها.

وفي المساء جاء إلى مركز الشرطة طاهر محمد عارف وكان ضابطاً في كتيبة الهاشمي للخيالة في الجيش ليطلق سراحي بكفالته الشخصية. ولما رأى الضمادات أشار إلى الكسر في كتفي وقال لي: هذا أول وسام شرف تحمله على كتفك. ولا يزال هذا الوسام على كتفي فلم يلتحم العظم التحاماً سوياً لسوء التجبير وسأحمله باعتزاز إلى قبري كأعز ذخر.

كانت المظاهرة علامة واضحة على الوطنية العربية الجديدة المناهضة للامبريالية والصهيونية. فقد دعا فيصل الأول موند أملاً في أن يستثمر رؤوس.الأموال البريطانية والصهيونية في الزراعة في العراق ولم يدر في خلده انه سيفاجأ بمثل هذا الرفض من لدن الشعب. فهل من المعقول انهم يرفضون أن توظف الملايين من الباونات الاسترلينية لا عمار بلادهم الخربة؟! هكذا فكر الملك. ولكن الشعب العراقي كان دائماً يباغتهم بوعيه الوطني الثوري. لم تعد الوطنية العربية حكراً لحفنة من الملوك والمشايخ أو لحفنة من المثقفين ولا سيما الضباط بل غدت ملكاً للجماهير

لقد رفعت المظاهرة اهتمام الشعب العراقي بمصائر الشعب العربي ولا سيما الفلسطيني. أما الطبقات الحاكمة وبايعاز من المندوب السامي البريطاني فقد اعتقلت قادة المظاهرة وطردت بعضهم من مدارسهم والغت إجازة نادي التضامن وأبعدت رئيسه المدرس يوسف زينل إلى عانه. وهللت البلاد العربية للعراق وشعبه لنهضته لنصرة الشعب الفلسطيني.

كانت المظاهرة صورة من صور النضال الجماهيري ونموذجاً واعياً ومنظماً رائداً لانتفاضات الشعب العراقي المتوالية. وكانت استجابة الجماهير لها وانضمامها إليها رغم مفاجأتها بها برهاناً ساطعاً على الروح الثورية العراقية التي اشاد بها فهد. وكانت في الحقيقة انتفاضة شعبية كما يحلو للناس القول في هذه الايام.

12

بواكير التنظيم

غدونا بعد المظاهرة رجالاً، ثواراً، وأخذنا نفكر بالتنظيم وقد اتفقنا، أنا وعبد الوهاب محمود (من البصرة) وأحمد الشيخ الطيف (من العمارة) على تأسيس جمعية سرية تآمرية. ولم يخطر على بالنا تأسيس تنظيم علني أو شرعي أو العمل بين الجماهير إذ كنا تحت تأثير الأدب الارهابي التآمري الذي اطلعنا عليه في كتاب محمد عبد عنان عن الحركات الهدامة في التاريخ. وسمينا جمعيتنا «الوفاء للعهد» تحت تأثير جمعية «العهد» التي أسسها الضباط العرب برئاسة عزيز علي المصري في تركيا. وكتب عبد الوهاب محمود نظامها الداخلي وطبعه سراً في الآلة الكاتبة في مكتب أخيه المحامي أحمد زكي محمود. وكان من أركان حزب الشعب برئاسة يس الهاشمي. وسطونا على آلة استنسال حكومية بسيطة مع بعض المواد الكيمياوية. والآلة عبارة عن إطار خشبي لحصر ورق «الاستنسال» المشمع الذي يكتب عليه بقلم «ستيلوس» حديدي وبرأسه عجلة دقيقة مسننة وبقي الجهاز عندي ردحاً طويلا دون استعمال. وماتت الجمعية تلقائياً أو بالاحرى ولدت ميتة بسبب عطالة أعضائها وانعزاليتها. ثم انتسبت إلى جمعية أخرى وقد تألفت من رجال كان كلهم أكبر مني سناً وكان من بينهم حسين الرحال وعزيز الاعرجي والضابط شاكر محمود شكري. وقد تأسست في أواخر العشرينات كرد فعل على حوادث حائط المبكى وهبة البراق في القدس للكفاح ضد الصهيونية. وأعطيتهم آلة الاستنسال فطبعوا عليها بياناً سرياً كتبه عبد العزيز الاعرجي. ولما جاء دور توزيعه وقفت سفينة المساكين! فقد كانوا جميعاً من الموظفين وعلى غير استعداد للمجازفة بوظائفهم. وماتت الجمعية في المهد كاختها «الوفاء للعهد».

وبقيت بدون تنظيم حتى تأسيس (لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار) التي انتميت اليها في آذار ١٩٣٥ وأصبح اسمها (الحزب الشيوعي العراقي) في تموز من نفس السنة.

كان حسين الرحال في عام ١٩٢٧ قد قام بأول محاولة لتأسيس الحزب الشيوعي وجمع حوله لفيفاً من المتعلمين وكتب تقريراً عن احوال العراق الاجتماعية والسياسية وأرسله بيد أحدهم (كمال) لايصاله إلى الاممية الشيوعية عن طريق طهران يسشيرهم في تأسيس الحزب الشيوعي. فجاء الجواب، حسب رواية الرحال لي، ينصحهم بعدم تأسيس حزب شيوعي مستقل بل الانتساب إلى الحزب الوطني برئاسة أبو التمن. ولكن عقدهم إنفرط دون أن ينضموا إلى أي حزب ولم يمارسوا بعدها أي نشاط جماعي أو منظم باستثناء عبد الله جدوع، وهو من محلة بني سعيد في الرصافة من بغداد وكان ابوه شيخ صنف الحياك أما هو فكان موظفاً صغيراً في مديرية البرق والبريد العامة وكان على اتصال وثيق بأول زعيم نقابي وهو محمد صالح القزاز وقد قدم عبد الله جدوع بنكران ذات خدمات كثيرة وصامتة للحركة النقابية البكر في العراق ووجههم في وجهة الشرعية. ولم يوجههم نحو إتحاد النقابات العالمي الاحمر (البروفنترون) كما كان منتظرا من ماركسي مثله بل وجههم نحو الاتحاد العالمي اليميني ومكتب العمل الدولي التابع لعصبة الامم.

وكان أعضاء حلقة الرحال في ١٩٢١ ومنهم عبد الله جدوع يكتبون في الصحف بتواقيع مستعارة غالباً. ومن بين تلك الصحف «العراق» لصاحبها رزق غنام و «العالم العربي» لصاحبها سليم حسون. وهم الذين أثاروا ضجة ضد الحجاب وطالبوا بالسفور. واستخدمت الرجعية ضدهم أساليب مختلفة، كالتهديد والابتزاز وعندما امتنعت الصحف عن نشر مقالاتهم اصدروا جريدة (الصحيفة) في بغداد في كانون الاول ١٩٢٤ أي قبل صدور زميلتها (الانسانية) البيروتية. وكان عنوانها مطبوعاً بالأحمر وقد صدر منها خمس أعداد وتوقفت عن الصدور لعجز محرريها عن مواصلة تمويلها ولم يكن السفور موضوعها الوحيد فقد نشرت مقالات ماركسية لينينية ومنها مقال عن الامبريالية.

تعرفت بحسين الرحال عام ١٩٢٨ عن طريق زميلي في المدرسة الثانوية رشيد مطلك وكان يعرفه من أيام «قهوة النقيب» في قنبر علي ببغداد التي كانت بمثابة نادي سياسي قرب جامع قمبر علي في الرصافة كان الرحال يجيد الانكليزية والفرنسية والألمانية والتركية وكان متحدثاً لبقاً جوال الفكر. وإذ كنت قليل الإلمام بالانكليزية آنذاك ولا أعرف أي لغة أجنبية أخرى ولندرة الأدب الماركسي بالعربية أن لم يكن انعدامه في العراق، فقد لازمته كظله لاسمع ما عنده أو ليترجم لنا إرتجالاً بعض ما يقرأ. وكانت أولى لقاءاتنا في كازينو سينما رويال في باب الآغا مقابل ضريح الامام طه حيث يشمخ الآن تمثال الرصافي. وكان الرحال لا يزال شاباً طويل النفس متوقد الذكاء وكانت نقطة ضعفه الانضباط الذاتي إذ لم يكن قادرا على ضبط حياته أو تنظيمها ناهيك عن ضبط الاخرين. وشيئاً فشيئاً كان ضعفه «حب الحياة» وانغماره في الشرب ينمو وانتهت صحبتي له بعد بضع سنوات. وقد نشط عام ١٩٣٤ في مساعدة يوسف متي ولطفي بكر صدقي وآخرين في اصدار مجلة كان يتغير اسمها بعد صدور عدد او عددين منها أي بعد أن تغلقها السلطة فيضطرون إلى استحصال إجازة جديدة باسم جديد: عطارد ـ فينوس ـ العقاب الاسبوعي ...والخ.

وفي تلك الفترة أخذ يتألق نجم يوسف سلمان يوسف (فهد) في جنوبي العراق الذي اعتنق الفكر الماركسي منذ عام ١٩٢٧ وكان من قادة الحزب الوطني برئاسة أبو التمن في فرع الناصرية. وأخذ منذ ١٩٣٢ ينظم الخلايا الشيوعية في مدن الجنوب. وكنا نسمع باسمه ونشاطه من بعيد وكاننا في بلد آخر. كانت مزايا فهد الأساسية القدرة على تنظيم العمل الجماهيري وقيادته والانضباط المعملي البروليتاري والروح الثورية الجهادية المواضبة. وكان قبل كا شيئ يختلط بالجماهير، بالكادحين مباشرة واحداً كأحدهم أي بدون تكلف ودون أن يلحظ أحد أنه يختلف عنهم بشيء. وهذا ما لم يستطيعه المثقفون الماركسيون قبله ولذلك بقيت الشيوعية في بغداد بين المثقفين حديث المقاهي السياسية ولم تعرف التنظيم إلا بعد المنطقة الجنوبية عام ١٩٣٣-١٩٣٤

13

الانعتاق من أسر الوظيفة

في الاول من أيار ١٩٢٨ تركت المدرسة من الصف الثاني متوسط (السنة الثامنة من الدراسة النظامية) إلى غير عودة. وتوظفت في الكمارك والمكوس براتب شهري قدره (٨٠) روبية هندية أي نحو ستة دنانير عراقية وهو الراتب الذي كان يتقاضاه أبي في آخر حياته وقد ادهش ذلك اقربائي ولم أعد عالة على أعمامي بل غدوت معيلاً. ولكن شقيقي الصغير أبى أن يكون عالة عليّ فالتحق بأول دورة لصف الضباط للقوة الجوية العراقية التي تأسست عام ١٩٢٨ وفي نفس السنة تزوجت شقيقتي زكية وهي أكبر مني سناً ولم يبق معي إلاّ أمي.

كان ذلك بعد مظاهرتنا ضد الزعيم الصهيوني الفريد موند وقد ضقنا ذرعاً بالمدرسة وبحثنا عن مهرب. فجاءني زميل الدراسة رشيد مطلك وسألني: هل تريد أن تتوظف؟! فوجدت المهرب من الدراسة والخلاص من الاتكال على الاعمام في المعيشة. فوافقت على الفور وكتب رشيد مطلك بخطه الجلي أربع عرائض إلى مدير كمرك ومكوس بغداد ووقع كل منا على طابع: رشيد مطلك رسول ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وكامل ابراهيم الذي كان قدوة الجميع في مظاهرة «الحرية الفكرية» في شباط ١٩٢٧ وعزيزعلي الذي غدا فيما بعد اشهر منولوجست في العراق وكان طالبا في دار المعلمين وأنا. ونجحنا في الامتحان وتوظفنا في أول أيار/ ١٩٢٨ ولكن كرهي لرتابة الحياة في الوظيفة أخذ يشتد في كل يوم حتى فصلت منها بعد انتمائي للحزب الشيوعي وبلغت بالفصل وأنا في سجن التوقيف بعد ثماني سنوات في الوظيفة. وخلال الخدمة نجحت في امتحان مديرية الري لوظيفة مترجم براتب أعلى بدرجتين من وظيفتي في الكمارك فرفض مديرها البريطاني المستر مونك اعارة خدماتي للري كما رفض ترفيعي درجتين بذريعة أنني ذهبت للامتحان في الري دون علمه فازددت كرها للوظيفة الحكومية.

كنت عازماً على تكريس حياتي للنضال فلم أفكر في الزواج أو تكوين عائلة لاعتقادي أنها ستعوقني عن النضال ولم يكن ما عانيناه من عوز في عائلتنا مشجعا على إعادة التجربة. ولم تكن توجد فتاة متعلمة سافرة استطيع التعرف عليها والتدرج معها من الصداقة إلى الحب فالزواج إلا في شعر شوقي إذ كان الحجاب لا يزال يرخي سدوله على المرأة العراقية الحضرية باستثناء الكادحات ولم أكن من اولئك الشبان خفيفي الدم البارعين في اختراق الحجاب الاسود الكثيف. ولم أوفر مالا ولم أفكر بالتدرج في الوظيفة من أجل الترقية أو تكوين «مركز اجتماعي».

وكان الأدب النهلستي (العدمي) كرواية سانين (ابن الطبيعة) لارنز يباشيف ترجمة المازني اثره السلبي أيضاً. وفي الحقيقة لم أكن مصيباً في عدم السعي إلى الزواج رغم كل ما تقدم. فأهم ما في الزواج وتكوين عش هو تأثيره على الرجل والمرأة في تكوين الشخصية واستكمالها (تعدد الجوانب) وتربيتها بروح المسؤولية والحدب على الاخرين، هذا فضلاً عن أن تكوين عائلة واجب اجتماعي. ومما أساء للزواج بنظر المناضلين الأوائل هو أنه كان مهرباً لليائسين الذين كانوا يبررون

اعتزالهم النضال بالزواج! وكان عزوف المناضلين القدامى عن الزواج بدوره سبباً لتأخر الحركة بين النساء وبالتالي تأخر الحركة النسوية الجماهيرية. وما لهذا التأخر من تأثير على الحركة الثورية ككل. وكان الابتعاد عن حياة الكادحين أو بالاحرى الاندماج بسواد الشعب سبباً مهما جداً في عزوبة الرواد!. إذ كانوا من النخبة المتعلمة نسبيا في حين أن وجود الفتيات المتعلمات كان قليلا جداً وهن من بنات الذوات أو من الطامحات إلى «الارتفاع» إلى مستوى بنات الذوات. أما الجيل الاخير فقد إنغمس أكثر مما ينبغي في الحرية الجنسية وكأنه يعوض ما فات السلف الصالح.

وكانت حياة جيلنا الفتي جافة تماماً وحتى رهبانية أو صوفية ثورية بالأحرى إذ كان الاختلاط بين الجنسين محرماً وحتى رؤية وجه المرأة الحضرية السافر كانت نادرة باستثناء وجوه النصرانيات وبدرجة أقل اليهوديات. سواء في بغداد أو البصرة. والحال كان أربعة أخماس نساء العراق فلاحات سافرات الوجوه وعندما اتهم الرجعيون، دعاة السفور بالدعوة للفسق والفجور رد الأخيرون عليهم باستفهام إستنكاري: هل يعني هذا أن ثمانين بالمائة من النساء العراقيات عاهرات؟! فألقموهم حجرا.

كانت الدعوة للسفور وتحرير المرأة ومساواتها بالرجل في الحقوق إحدى الحوافز التي حثتنا نحن الشبيبة المتعلمة نسبيا إلى البحث عن الطريق الثوري وقد سبقنا إلى ذلك جيل حسين الرحال الذين ولدوا في بداية القرن وكانوا متأثرين بالثورة التركية الكمالية وباصلاحات قائدها آتا تورك الذي فرض السفور فرضاً بموجب القانون على النساء المحافظات.

14

موكب زفاف أبو التمن

في سنة ١٩٢٩ جرت انتخابات عامة لمجلس النواب وقد رشحت المعارضة الوطنية أبو التمن عن بغداد وكان الزعيم زعلاناً على السياسة معتزلا إياها وكان لابد من حمله حملا على الاكتاف لقبول الترشيح. وراح موكب الزفاف فالتحقت به وواكبنا أبو التمن من بيته في محلة صبابيغ الآل إلى رويال سينما وكانت في مدخل شارع المأمون مقابل تمثال الرصافي وإلى اليسار منه. وقد نجح أبو التمن فعلا بمقعد في مجلس النواب وكانت الحكومة تتنازل عن بعض المقاعد للمعارضة لا لعدم شعبية المعارضة بل جراء فقدان الديموقراطية. وهكذا أعدنا الزعيم أبو التمن إلى السياسة رغم طلاقه إياها وقتيا. وكان هذا الدلال البرجوازي على السياسة مألوفاً في العراق قبل ثورة ١٤/تموز/١٩٥٨ وسبب هذا الدلال هو أن البرجوازية الوطنية كانت متشاركة في الحكم إلى حد ما. ومن بابة الشيء بالشيء يذكر: كان أحد مرشحي المعارضة في انتخابات ١٩٢٧ عطا الخطيب موظفا في الاوقاف فرشحته المعارضة عن لواء ديالى ورشحته الحكومة عن لواء الكوت وفاز بالنيابتين في وقت واحد. فاستقال من وظيفته ومن النيابة في مقعد المعارضة عن لواء ديالى ليوفر لنائب معارض آخر واحتفظ بالنيابة الحكومية عن لواء الكوت. وانضم لدى افتتاح المجلس إلى صف المعارضة رغم أنه مرشح الحكومة. وبدأت أول مناقشة للطعون أي شرعية الانتخابات، فطعن بشرعية انتخاب المجلس وضرب مثلا بنفسه إذ أنه انتخب عن الكوت في حين لم يكن أحد يعرفه فيها!! فنهض خطيب الحكومة ناجي السويدي وكان ضليعاً بالتلاعب بالقانون ومطاطيته فقال: «الاعتراف حجة قاصرة»، فانتخاب النائب عن الكوت غير مشروع باعترافه هو واقترح على المجلس إسقاطه من نيابة الكوت فوافقت الأكثرية الحكومية! وكانت ثالثة الاثافي: إذ خسر الوظيفة والنيابتين. ورحنا نحن «وفود الشباب» إلى بيته نواسيه ونهنئه على تضحياته الثلاثية. ولكن الدراما الحزينة لم تنته عند هذا الحد فقد راح النائب المعارض الذي فقد كراسيه الثلاثة إلى رئيس الحكومة عبد المحسن السعدون وكان ارستقراطيا عشائرياً مثالياً من سلالة آل مانع زعماء الحلف القبائلي المعروف «المنتفك» فابت شهامته إلا أن يعيد له نيابة الكوت الحكومية من جديد بفوزه في الانتخابات التكميلية لينضم إلى صف المعارضة عوداً على بدء! ولم نذهب نحن الشباب خجلا لتهنئته على الفوز المبين! وقد مات النائب بعد عدة اشهر من المحنة بالسكتة القلبية مأسوفا عليه. فقد خسرت المعارضة بفقده صوتاً من اصواتها في مجلس النواب.

لقد ادخل الانتداب البرلمانية البريطانية إلى العراق بعد تعهيرها.

15

حزب علو جلو

شهدت بداية الثلاثينات انعطافاً في تـاريخ العـراق الحديـث تكلـل بانهـاء الانتـداب بموجـب معاهدة ٣٠/حزيران/١٩٣٠ وهو يوم إبرامها من مجلس النواب. وقـد صـوت نـواب المعارضـة ضـد المعاهدة التي اعطت لبريطانية مهمة الدفـاع عـن العـراق وقـاعدتي الحبانيـة والشـعيبة الجويتـين واحتكار تسليح الجيش العراقي وربط السياسة الخارجية برغبات بريطانية..والخ وقد قبل العـراق فعلاً في عصبة الأمم في اوائل تشرين الاول ١٩٣٢ وكان أول دولة عربية تقبل عضوا في عصبة الأمم وبعد أربعة سنوات قبلت مصر وسوريا.

وفي تلك الفترة كان قد تكون الائتلاف المعارض للحكومة الذي عرف «بالتـآخي» بـين الحـزب الوطني العراقي برئاسة أبو التمن وحزب الاخاء الوطني برئاسة يس الهاشمي. وانتهـى الائتـلاف بدخول العراق عصبة الأمم واستيزار يس الهاشمي الذي صرح عندئذ أن معاهدة ١٩٣٠ «خطـوة إلى الامام» وأعلن أبو التمن تجميد حزبه احتجاجـاً علـى سلوك حليفه! وزعـل علـى السياسـة مـرة أخرى، وطلقها مؤقتاً.

وكنت أزور مع الرحال مضيف فهمـي المـدرس في رأس الكنيسـة ولاحظـت بـين الـزوار ملاكـاً متوسطاً من بعقوبة كان يجادل فهمي المدرس معارضاً تجميد الحزب الوطني العراقـي نشـاطه فـرد عليه المدرس: بأن زملاءهما أي زملاء أبو التمن والمدرس، في الهيئة الاداريـة للحـزب كـانت مـع الهاشمي متهافته على الكراسي. فتساءل الملاك: ولماذا لا تعقدوا المؤتمـر الحزبـي وتنتخبـوا هيئـة جديدة لقيادة الحزب ؟ وكان رد المدرس إستفهاماً استنكارياً: ومن الـذي ننسبـه لـوزارة الداخليـة عضواللهيئة الادارية؟! علو جلو؟! كناية عامية بغدادية عن علي وجليل الارستقراطية.

كان فهمي المدرس يستغرب انتخاب قـادة للحـزب مـن بـين الوطنـين المغموريـن أي مـن غـير الوجوه الاجتماعية المعروفة من المتعاطين بالسياسة القدامى عهد ذاك.

كان واضحاً أن الحاجة تدعو إلى حزب جديد لا يعرف التجميد ولا الزعل على السياسة ولا يحل نفسه بنفسه، حزب يقوده علوجلو بالذات. وقد بدأ فهد فعلا بوضع اللبنات الأساسية لهذا الحزب لبنة فلبنة أو بالاحرى تكوين خلايا هذا الكائن الحي خلية خلية منذ عام ١٩٣٢ في مدن العراق الجنوبية.

كنا ساخطين على اولئك السياسيين الذيـن أعطـوا بريطانيـة كـل تلـك الامتيـازات وكـان هـذا الجانب السلبي وليس اضطـرار بريطانيـة إلى إجـراء التنـازلات علـى حسـاب نفوذهـا هـو الشـيء الرئيس عندنا. وكان بالامكان بالاعتماد على نضال الجماهير انتزاع المزيد من بريطانية، كمـا كـان يرى فهد، وهو على حق، وبالفعل عندما أرادت الطبقة الحاكمة تجاوزت قيود المعاهدة بالاعتمـاد على جماهير الشعب كما جرى في بداية الحرب العالمية الثانية.

وفي تلك السنوات شهد العالم أحداثاً ضخاماً. فقد تفاقمت الازمة الاقتصادية العالمية الكبرى ١٩٢٩ـ١٩٣٣ وكانت اطول فترة كساد في تاريخ الرأسمالية وأعمقها وأعمها. وقد رمى النظام الرأسمالي في أحضان البطالة والفاقة عشرات الملايين من العمال بحيث بلغ عددهم في الولايات المتحدة فقط (١٨) مليوناً أي نحو ثلث الايدي العاملة في البلاد عهد ذاك. ورغم التخلف الرأسمالي في العراق فقد سرت حمى الازمة في اوصاله حتى غمرته عام ١٩٣١ وكان التمر من أهم صادرات العراق ولكن سعره بلغ من الانخفاض حداً أوطأ من تكاليف قطافه ونقله فكان أرباب البساتين يتركونه يتهرى لحاله. وكان رغيف الخبز بفلس واحد ولكن الفلس كان عملة نادرة عزيزة على من يطلبها إذ لايحصل عليها الكادحون إلا بشق الأنفس. لقد تجلت للعيان سلبيات تبعية العراق للسوق الرأسمالي العالمي بكل بشاعتها في حين كان العراق لا يزال يعاني أشد العناء من بقايا الاقطاع الضخمة الوخيمة.

قرأت في تلك الأيام مقالاً عن الأزمة للكاتب الشيوعي البريطاني بالم دات في مجلة «ليبر منثلي» كان مستبشراً ظناً منه أن الأزمة سوف تقصف عمر الراسمالية وبالتالي ستعزز البروليتاريا وتلهمها بروح الثورة مستشهداً ببيت لشكسبير في روايته «مكبث» على لسان ليدي مكبث تصف فيه الفعل المزدوج المتناقض للخمرة التي اسقتها لحاشية الملك «دانكن» لتنيمهم ولتمهد لمؤامرة قتله فتقول:

ما أسكرهم ألهبني جسارة، وما أخمدهم ألهبني نارا.

ففرحت بالإزمة باعتبار انها ستقرب يوم الثورة العالمية ولكن الأزمة جاءت بالفاشية والحرب. وإذ كنت موظفاً حكومياً صغيراً فقد عانيت من نقص الراتب والحال أن الأزمة خفضت الأسعار تخفيضا شديداً. وقد أثر في نفوسنا بؤس الكادحين وقد عززت الازمة قناعتنا بالماركسية وبافضلية الاشتراكية على الرأسمالية عن طريق المقارنة بين النظاميين القائمين في العالم

وفي تلك الفترة بالذات ١٩٢٨ـ١٩٣٢ انتشرت في العالم أنباء البناء الاشتراكي واسع النطاق في الاتحاد السوفيتي حيث كان يجري على قدم وساق تطبيق أول مشروع من مشاريع الخمس سنوات، المشروع الذي حول الدولة الاشتراكية الأولى والوحيدة في العالم في بضع سنوات إلى ثاني اكبر دولة صناعية في العالم. كنا نتتبع انباء البناء الاشتراكي بلهفة وقد ألهبت انتصارات التصنيع الاشتراكي خيالنا فكنا نتصور ما أن تتحرر بلادنا حتى يتسنى لنا بمشروعين أو ثلاثة من مشاريع السنوات الخمس أن نجعل بلدنا بلداً صناعياً متقدماً

وفي تلك الفترة ترجم عبد الكريم الشيخ علي شقيق علي محمود الشيخ علي احد زعماء الحزب الوطني كتاباً سوفيتيا بعنوان «موسكو لها خطة» تأليف «إيلي» وهذا اسم ادبي لاديب سوفيتي كبير كان يكتب للاطفال. والكتاب يصور بناء الاشتراكية بصورة ملهمة تلهب الخيال وقد نشر الكتاب بادىء الأمر تباعاً في جريدة الاستقلال البغدادية ثم نشر في كتاب على حدة وكان أول اصدار مهم عن البناء الاشتراكي في العراق.

16

العقد النقدي

وفي تلك الأيام اختار عبد الله جدوع اقصوصة لمكسيم غوركي منشورة في كتيب أزرق الغلاف من سلسلة بلو بوكس الامريكية التي تحتوي على كل موضوع في العلم ولا يزيد حجم الواحد منها على كف اليد وسعره الآنه أو الآنتين وكان الدكان المتواضع للبائع نعوم مقابل جامع مرجان حيث تشمخ الآن جبابرة البنوك، يعرض هذه الكتيبات مع جميع الحاجيات الصغيرة التي تتسوقها الطالبات السافرات من مدارس النصارى فكنا نفضل أن نشتري في كل مرة كتاباً واحداً فقط بعد أن نتفحص الكتب المعروضة ووجوه الشابات المليحة بنظرات خاطفة. وبعيون عطشى للجمال النسائي.

كانت قصة غوركي تلك عن صعلوك من صعاليك البروليتاريا الرثة، الذين ولع غوركي في المرحلة الاولى من حياته الادبية بالكتابة عنهم. ترجمها عبد الله جدوع إلى العربية وطبعها على نفقته الخاصة. إذ لم يكن في العراق ناشر يجازف بماله ينشر الكتب الادبية لأي مترجم ناشيء أو أديب مغمور أو أجنبي غير معروف. وقد تطوعنا نحن شلة من اصدقائه لتجليد الكتاب في ليلة العيد ليكون في صباح العيد جاهزاً للبيع. وسهرنا الليل بطوله في دكان «الصحاف» أي مجلد الكتب في شارع المتنبي نعمل بحماسة منقطعة النظير لانجاز التجليد على الطريقة «الاستخانوفية» أي طريقة عمل الفرقة الجماعي الذي ابتدعه عامل المنجم السوفيتي استيخانوف. والتي أحدثت ثورة في رفع انتاجية العمل السوفيتية عهدذاك. وكان عبد الله جدوع قد اهدى الترجمة لذكرى صديقه وجاره عبد الوهاب بيرو الشبلاوي وكان من شقاواة أي قبضايات الريسز (سباق الخيل) وكان قد قتل تواً. وكان الريسز يعمل صباح العيد ويؤمل أنه ما أن يعرض الكتاب في ساحة السباق إلا ويتهافت عليه أصدقاء الفقيد من مدمني الريسز تهافت الجياع على القصاع. وسلمنا في الصباح الباكر بضع مئات النسخ لمتعهد بيع الصحف عزرا ليبيعها بنفسه في ساحة الريسز وخرجنا من الدكان نشوانين بهذا النجاح. وكان عنوان القصة «رجل الليل.كريشكا جلكاش».

التقينا مساءً بالبائع عزرا وكان يرتجف من البرد وبهدوء وكلمة كلمة سرد لنا كيف وصل الريسز في الوقت المناسب وكيف طفق ينادي بالأسماء التي لقناه أباها وكيف التف حوله هواة الريسز ومحترفوه وتصفحوا الكتاب الذي كان يحمل صورة عبد الوهاب بيرو واهداء عبد الله جدوع له وكيف أن أحدهم وهو شقيق الفقيد اشترى نسخة واحدة بأربعة آنات ! ولم يبيع غير ذلك. وصرخنا جميعنا: نسخة واحدة! أجاب هذه كل ما بقي! وبهدوء الباعة اليهود اضاف واليكم الزكيبة أحصوا ما فيها من الكتب الباقية لتصدقوني! الله من بدالكم.

فيما بعد كنا أحسن حظاً في اختيار ما نترجم وما نصدر ولكن لم نكن أحسن حظاً بكثير في استرجاع نفقات الطبع والورق في جميع المجازفات الفردية من هذا النوع وبصعوبة، بعد خيبات مريرة قاسية طويلة تعلمنا أن إصدار الكتب مشروع رأسمالي ليس إلا في كل مجتمع يسوده الانتاج

البضاعي النقدي، أي أنه يقتضي الالتزام بجميع قواعد اللعبة السوقية. وأن انتاج العقل في المجتمع البضاعي هو أيضاً بضاعة. وان المنتج لن يتحرر ما لم يهب نفسه للجماعة. وتعلمنا في مدرسة الحياة أن العمل «المستقل» والمهنة «الحرة» أحاديث خرافة!

وفي خريف ١٩٤٧ في سجن الكوت ترجمت للرفاق السجناء مقال ماركس بعنوان «العقد النقدي» يعارض فيه كتاب جان جاك روسو «العقد الاجتماعي» واذكر منه: أن البرجوازية حولت كل شيء إلى بضاعة بما في ذلك عظام القديسين واضرحتهم التي حولتها إلى مشاريع سياحية تدر عليها النقود. فكيف لا تحول نتاج العقل البشري لعامة الناس إلى بضاعة مزجاة؟! فتجعل من الكتب والاحذية قيما نقدية من كنه واحد، حذوك النعل بالنعل، كما يحلو قوله لاسلافنا الصالحين.

17

مخاض ميلاد الطليعة الجديد

في ذلك الحين وبالضبط في تموز ١٩٣١ انتشر الاضراب العام في جميع المدن والقصبات احتجاجا على رفع الرسوم والضراءب المحلية لسد العجز في ميزانية الدولة ، على يد حكومة نوري السعيد نفسه وهو الذي أبرم معاهدة ١٩٣٠ مع بريطانية. كانت زيادة الرسوم والضرائب المحلية القشة التي كسرت ظهر البعير والنقطة التي طفح بها الكأس! إذ كانت الازمة الاقتصادية، وهي امتداد لأزمة الكساد الرأسمالي العالمي، السبب الاساسي للاضراب واتخذ طابعاً سياسيا لأنه كان ضد زيادة الضرائب التي فرضتها الحكومة لتلقي أعباء الازمة على كاهل الجماهير. ولذا حشدت كل قواها لكسره ولم تتورع حتى عن الاستنجاد بالبوارج البريطانية التي دخلت شط العرب وسددت مدافعها إلى البصرة حيث كان الاضراب ورد فعل الحكومة عنيفين بخاصة وكان فهد مؤسس الحزب الشيوعي فيما بعد من منظمي الاضراب العام والمظاهرات في البصرة فقمع الجيش المظاهرات بالرصاص. وكان الاضراب شاملا ولا سيما في بغداد وكانت نقابات العمال، والحرفيين حديثة التكوين الداينمو المحرك والمنظم للاضراب. وتجلت عبقرية التنظيم للبروليتاريا العراقية في هذا الاضراب بشكل ساطع .كل اوجه الحياة كانت تسير بانتظام كالساعة على يد القيادة المركزية غير المرئية كما هي الحال في الانتفاضة الفلسطينية الجارية الان، انتفاضة الحجارة، وبالمناسبة أيضاً استخدمت الحجارة ضد فرسان الشرطة في شارع الرشيد. وكان الاضراب عصياناً مدنياً في نفس الوقت فبمعزل عن الحكومة وبالضد منها كان الناس يشترون الخبز والخضراوات واللحم من بيوت القصابين والخبازين والبقالين وترمي الحكومة ذبائحها الكاسدة التي قاطعها الجمهور بالمئات في النهر من على الجسر في نهاية النهار وكانت الجماهير تدخل مقرات الاحزاب: الوطني والاخاء الوطني، وتخرج منها كما لو كانت تطوف مزارا مقدسامنتظرة دون جدوى شعارات سياسية أو خطبا سياسية ملهمة أو موجهه لتطوير الاضراب. صحيح أن الاحزاب الوطنية دافعت عن الاضراب ومطالب المضربين ولكنها لم تحاول قط تطوير المحتوى السياسي أو الاهداف السياسية للاضراب، بتوجيهه ضد قيود معاهدة ١٩٣٠ التي حلت محل الانتداب أو لتطوير الديموقراطية السياسية، أو حتى لاجراء انتخابات عامة حرة.

استمر الاضراب اسبوعيين كاملين (٥ ـ ١٩/ تموز/١٩٣١) وكانت مطالبه لصالح الحرفيين والتجار ولم يكن للعمال فيها مطالب خاصة بهم، ومع ذلك فقد كانوا هم الطليعة في الشارع والمنظم. بيد أنهم كانوا سياسياً ينتظرون القيادة من الاحزاب البرجوازية الوطنية. وانتهى الاضراب بحل وسط، بتخفيف مقدار الزيادة التي فرضت على الرسوم والضرائب المحلية وليس إلغاؤها بالمرة.

وكان وزير الداخلية خلال الاضراب مزاحم أمين الباجه جي شخصية متقلبة زئبقية وكان سفيراً للعراق في سفارته الوحيدة يومذاك في لندن وقد فصلته الحكومة من الوظيفة عام ١٩٢٧

لتعين مكانه جعفر العسكري ليس إلا وفي طريق العودة قام بجولة في العواصم الاوربية وملأ الدنيا بالتصريحات السياسية المثيرة مبشرا بالاشتراكية على نمط حزب العمال البريطاني. وعاد إلى بغداد وانتمى على الفور إلى قيادة الحزب الوطني وواصل إلقاء الخطب الوطنية الحماسية بصوته الجهوري. فالتف حوله الشباب المثقف الراديكالي معلقين عليه آمالاً ضخاماً. ولكن بعد ثلاث سنوات استدرجه الشيطان الرجيم، نوري السعيد وأسند إليه أهم وزارة في حكومته، وزارة الداخلية. فقبلها شاكراً وأدار ظهره لحزبه وللمعارضة. فاجتمعت الهيئة الادارية للحزب الوطني وأصدرت قراراً بطرد مزاحم الباجه جي من الحزب لخروجه على مبادئه. وكانت خيبة الامل مرة والشعور بالاحباط قاسياً بالطبع لدى الشباب الراديكالي لقد كان مزاحم الباجه جي مثقفاً ثقافة سياسية غربية جديدة على سياسي العراق المخضرمين عهدذاك وملماً بالانكليزية. وانفجر الاضراب العام بوجه مزاحم عندما أصبح وزيراً للداخلية ورئيساً للوزراء بالوكالة لغياب رئيسه نوري السعيد في لندن. فطار صوابه وآلت كل اجراءته لكسرالاضراب إلى الفشل. وقد تسنى لي رؤيته في احد ايام الاضراب عند رأس جسر الاحرار من جانب الرصافة وبيده عصا غليظة وطويلة من الخيزران يحيط به كبار موظفيه وتحيط بهم الشرطة وصوته الجهوري يلعلع بالأوامر فقد كان الشارع خالياً من المضربين ويكاد أن يكون خالياً من المارة. ولم ينته الاضراب إلا بعد عودة نوري السعيد وعلى الارجح بعد التفاهم سرا مع يس الهاشمي، اقوى زعماء المعارضة آنذاك وهم الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر دخول العراق عصبة الامم وكان عليهم أن يبرهنوا للانكليز أن في العراق طبقة حاكمة قادرة على «حفظ الامن»! أي اخضاع شعبها لارادتها البيروقراطية لتطمئن الحليفة بريطانية والدول الامبريالية الاخرى أنها لن تترك العراق بيد شعبه الثوري الأصيل. وعلى كل حال لم يكن بديلا من زيادة الرسوم والضرائب عهدذاك سوى زيادة عوائد الحكومة من ارباح شركات النفط الاستعمارية: كزيادة شلن واحد على الأربع شلنات التي كانت تستوفيها الحكومة من كل طن من النفط الخام!

لم أشترك بالاضراب فقد كنت موظفاً صغيراً في الحكومة ولم يشترك أحد من موظفي الدولة في الاضراب ولم تحاول أية جهة اشراكهم ليكون الاضراب شاملا. وكنت أدخل مع الجمهور في مقرات الاحزاب واخرج معهم لعلنا نسمع شيئاً جديدا، شعاراً سياسياً؟! إيعاز بالعمل! ما العمل؟! ماكو أوامر!

كان عبد الله جدوع مستشاراً متطوعاً للزعيم النقابي صالح القزاز. بيد أن الاضراب لم يكن خاصا بالعمال الاجراء بل بالعمال الفرديين الذين يملكون أدوات العمل والحرفيين وصغار أصحاب العمل وحتى التجار الأعضاء في غرفة التجارة. وكان المضحون هم العمال الاجراء. وقد دفعت نقابات العمال ثمن الاضراب العام إذان الحكومة السعيدية ألغت اجازتها واعطت إجازة بتأسيس نقابات صورية لعميل من عملاء وزارة الداخلية اسمه عبد الرزاق السامرائي. قابله العمال بالمقاطعة التامة رغم ما أغدقت عليه الحكومة من أموال. واعيدت الاجازة إلى النقابات في ظل الحكومة التي تلت حكومة نوري السعيد. ثم نظمت النقابات هذه مقاطعة لشركة كهرباء بغداد البلجيكية البريطانية لتخفيض الاسعار المرتفعة للوحدة الكهربائية. وكانت المقاطعة ناجحة جداً ودامت عدة اشهر! حاربتها الحكومة بالاسراف في استهلاك الكهرباء من جانبها في الدوائر الرسمية وإنارة المنائر والجوامع والشوارع... والخ لتعويض الشركة عن الخسارة. فقد كان مدير شركة كهرباء بغداد كورنواليس الذي جاء إلى العراق مع فيصل الاول كمستشار خاص ومستشار للداخلية أكثر من عشر سنوات وعين سفيراً لبريطانية في بغداد بعد فشل حركة مايس ١٩٤١ وكان آخر إجراء لكسر المقاطعة إلغاء النقابات نهائياً وإبعاد رئيسها محمد صالح القزاز إلى عانه وللمرة الثانية يضحى العمال بنقاباتهم دفاعاً عن مصالح الاخرين من عامة الشعب. وقد كان التأثير الحرفي قوياً

على النقابات وكان القزاز نفسه من صغار أرباب العمل بعد أن كان عـاملاً وقـائداً لاضـراب عمـال السكك عام ١٩٢٧ وقد فصلته السلطات عن العمل في السكك جراء نشاطه.

ومن ألطف ما يروى عن أيام الاضراب العام نكته رويت عن الدكتور فائق شاكر، الطبيب الذي تولى منصب أمين العاصمة لفترة من الزمن، فقد شبه الصراع بـين المضربـين والحكومـة بمـتراهنين وضع كل منهما سبابته بين أسنان الآخر وأطبق بفكيه بكل ما أوتي مـن قـوة علـى إصبـع غريمـه والخاسر هو أول من يصرخ «آخ». ولم يدر هذا الفكه أن المراهنات السياسية قد لا تنتهي بـآخ بـل بهمسة مساومة أو بصفقة!

18

الوطنية أم الشوفينية

شهد عام ١٩٣٢ دخول الدولة العراقية في عصبة الامم ، فاستثمرت مركزها الدولي الجديد لتصفية آخر بقايا الاستقلال الذاتي الكردي المتمثلة آنئذ بمنطقتي بارزان وبشدر الحدوديتين المنيعتين فجردت عليهما الحملات العسكرية تحت مظلة السلاح الجوي البريطاني. وكانت اعنف مقاومة جوبهت بها الحكومة، مقاومة البرزانين الذين لجأوا إلى تركيا بعد تغلب الجيش على مقاومتهم ليعودوا فيما بعد على اثر المصالحة بينهم وبين الحكومة التي اقامت مركز ناحية بارزان في منطقتهم وكانت سلطته شكلية بالاساس. ورغم الفشل المحتوم بالنظر لنسبة القوى فان بارزان استقطبت المشاعر القومية الكردية، ليس فقط في العراق بل في المنطقة أيضاً. وكانت الحكومة العراقية تتعكز في قمعها للتطلعات القومية الكردية على الادعاء، أن صدقاً أو كذباً، بصلات تلك الحركات بالقوى الاجنبية ولا سيما بريطانية وفرنسا التي كانت تحتل سوريا وكانت السلطات تبث الدعاية بين البسطاء بعدم إسلامية بارزان وادعاء شيخه بالالوهية. وكنت من الانصار الرواد لقضية الشعب الكردي القومية بيد أن انتصاري لها كان افلاطونياً ولم يصبح عملياً الا بعد انتمائي للحزب الشيوعي العراقي.

اختطف البارزانيون بعد مقاومتهم الباسلة الانوار من الشيخ محمود الحفيد آخر أمير كردي مستقل وكان معتقلا في بيته في رأس الحواش في الاعظمية وكنت أراه جالساً عند باب منزله كنسر مهيض الجناح يتحين الفرص قبل إفلاته من الأسر ليقود آخر انتفاضة عام ١٩٤١ وكانت حركة مايس ١٩٤١ فرصته الاخيرة.

كانت عشائر بارزان من الفلاحين المعدمين يعيشون على الطبيعة بين الجبال الوعرة أما عشيرة الشيخ محمود فكانت من الفلاحين الميسورين وتعيش في وادي خصب ممرع وتؤدي له عشر الارض والزكاة تديناً منها وتيمنا بحفيد نبيهم العربي، أن لم يكن خشية من صولته.

19

فاتحة الجدال بين الشعبية والشيوعية

واستهل عام ١٩٣٢ بصدور جريدة «الاهالي» وكانت الكلمة تعني يومذاك ما تعنيه «الجماهير» بلغة اليوم وكان صاحبها عبد القادر اسماعيل الزعيم الروحي لثلة من الشباب المثقف الراديكالي من خريجي الكليات وهو أقربهم إلى الشيوعيين. وغدا شقيقه الاصغر الذي يليه عمرا، يوسف اسماعيل من مؤسسي الحزب الشيوعي العراقي ومن زعماء حركة السلام فيما بعد. بيد أن تيار «الاهالي» لم يكن متجانساً تماماً وإزداد اختلاطاً بعد أن انضم اليهم عبد الفتاح ابراهيم وكامل الجادرجي. وقد كلفت جماعة الاهالي عبد الفتاح ابراهيم بصياغة برنامج لها. فأصدر عام ١٩٣٤ كراساً بعنوان «الشعبية» وقد ردد فيه ما تقوله الدعاية الاستعمارية والرجعية بحق الشيوعية أي الاضداد الثلاثة: ضد الدين، ضد الوطنية، ضد العائلة!

أن هذا الجزء من الكراس المعادي للشيوعية كتب بالحاح من كامل الجادرجي. وقد ردّ يوسف متي على الكراس في مجلة «عطارد» أو إحدى بديلاتها «فينوس» أو «العقاب الاسبوعي» رداً عنيفاً بعنوان: «الشعبية في الميزان» وأطلق عليهم لقب «عسكر رديف» يعني احتياطي للرجعيين ومع ذلك فان الاهالي لم تكن معادية للشيوعية وبقيت طول أيام تولي عبد القادر اسماعيل لاصدارها، جريدة راديكالية مستقلة. ولذلك كانت تعتبر شيوعية بنظر السفارة البريطانية والسلطات العراقية وكانت أيام اغلاقها بأمر إداري من مجلس الوزراء أضعاف أيام صدورها.

لقد أوحت تجربة «الاهالي» للثوريين أن الطريق إلى الشرعية العلنية، لم تكن كافية كوسيلة للنضال الوطني الديموقراطي. وأن اللاشرعية أوالتنظيم السري والنشر السري كانا ضروريين ومكملين للوسائل الشرعية العلنية وأن الاثنين يجب أن يسيرا جنباً إلى جنب وأن تتظافرا على تحقيق الاهداف. وفي تلك الفترة من عام ١٩٣٢ ظهرت على جدران الناصرية بعض الملصقات بتوقيع «عامل شيوعي» وهو فهد كما يروي حنا بطاطو ومن الملفت للنظر ظهور شعار «يحيا اتحاد الجمهوريات العمالية الفلاحية العربية» على تلك الملصقات.

وأصدرت الحكومة في اوائل الثلاثينيات لائحة قانون حقوق وواجبات الزراع. وطرحت اللائحة للمناقشة في مجلس النواب. وقد هاجمها نواب المعارضة بعنف وقال أحدهم: كان من الاصوب تسمية القانون: «حقوق الملاك وواجبات الفلاحين!» والقانون يقيد الفلاحين بالارض إذ كان مديناً للملاك ولا يسمح له بمغادرتها مالم يسدد ديونه. والحال كان معظم الفلاحين مديناً وكان تسديد الديون من المحال وهكذا غدا الفلاح القبلي قناً للملاك او عبداً من عبيد الارض. ودافع بعض النواب عن اللائحة. ونشرت الاهالي محاضر المناقشة وكتبت إلى جانب اسم النائب المؤيد للقانون: (له أراضي) بين هلالين وإلى جانب النائب المعارض: (ليست له اراضي) وهكذا كشفت الستار عن طبيعة النضال الطبقي بين النواب بوسيلة غاية في البساطة ولكنها ذكية وقاطعة الدلالة.

ومن أبرز ما نشرته الأهالي في تلك الفترة سلسلة مقالات بعنوان: «أربعون يوماً في الاهوار بين المعدان» بقلم عبد القادر اسماعيل وصف فيه حياة فلاح العمارة المأسوية وصفاً مروعاً. كان ذلك قبل ستين سنة ومؤخرا كتبت «الثورة» لسان حزب البعث: أن المعدان وجاموس الماء استوردهم الحجاج من الهند والسند لتبرير إبادتهم!

وفي تلك الفترة بالذات من الثلاثينات بدأت تتكون بسرعة خارقة طبقة جديدة من كبار الملاكين على أساس قانون اللزمة وقانون تسوية حقوق الاراضي اللذين وضعا بناء على توصية الخبير البريطاني داوسن عام ١٩٢٩ وعلى غرار ما فعل الحكم البريطاني في الهند لخلق طبقة ملاكين كبار كقاعدة اجتماعية للحكم. فتحولت الاراضي الاميرية التي كان للعشائر حق التصرف بها أي تزرعها باعتبارها حيازة مشتركة وتدفع الخراج (ريع الارض) للدولة تحولت إلى مقاطعات للاقطاعيين الجدد من شيوخ العشائر وتجار المدن وكبار البيروقراطيين. وقد نصب يس الهاشمي (بسمارك العرب) كما كان يحلو للقومين اليمينين تسميته، نصب لوحده (٣٦) مضخة ليستولي على أراضي العشائر في قضاء سامراء. وهكذا استغلت البيروقراطية وحلفاؤها الاستقلال ودخول عصبة الامم لنهب اراضي الفلاح ونهب الخراج من المسلمين في وقت واحد.

رفعت الأهالي آنذاك الوعي الديموقراطي الثوري بين المثقفين العراقيين وكانت عوناً للحركة الشيوعية الرشيمية. وكان من زملاء عبد القادر اسماعيل البارزين عزيز شريف وعبد الفتاح ابراهيم وحسين جميل. وقد حاولت الفئات الحاكمة، كما كان شأنها مع المناضلين، إسكات صوت عبد القادر اسماعيل بعرض منصب رسمي كبير عليه وباءت بالفشل. وأخيراً أسقطت عنه وعن شقيقه يوسف الجنسية العراقية عام، ١٩٣٧ وبقيا مبعدين في ديار الغربة عشرين سنة ونيف حتى ثورة ١٤ / تموز/ ١٩٥٨ وكانت "اهالي عبد القادر اسماعيل منبراً للحركة العمالية العلنية أيضاوكان ذلك يعرضها لسخط السلطة شأن الحركة ذاتها. وكان للأهالي مراسلون من مثقفي الشعب في اطراف العراق يزودونها بشكاوى الاهالي. وكان أقدر اولئك المراسلين يوسف سلمان يوسف (فهد) في الناصرية والبصرة.

وكانت الأهالي تعنى بالثقافة التقدمية العالمية فقد أحيت ذكرى غوته الشاعر الالماني الكبير وبتهوفن الموسيقي العظيم وغيرهم من عباقرة الانسانية. فكانت مربية جيلنا في الثقافة والسياسة.

وفيما بعد انضم الجادرجي إلى جماعة الاهالي وكان قبل ذلك من الشباب المقربين جداً إلى يس الهاشمي ومستشاراً له في حزب الاخاء الوطني. وكان كامل الجادرجي من عائلة ارستقراطية ملاكية وبيروقراطية عثمانية. وكان هو نفسه ديموقراطياً برلمانياً مثالياً. وقد خاب امله بالسياسين المخضرمين وعميدهم يس الهاشمي. فتزعم جماعة الأهالي لاليسمح لنفسه بالانجراف في تيارها الراديكالي بل ليكون كابحاً لها ويحولها إلى الطريق الليبرالي وليشق طريقاً وسطاً بين المحافظين والشيوعيين. وقد تمكن من ذلك ولاسيما بعد إبعاد عبد القادر اسماعيل عن العراق. وكان هم الجادرجي أن يفصل الأهالي عن الحزب الشيوعي ويميزها عنه وعن الاحزاب الأخرى ليحافظ على شعبية الجريدة بين المثقفين الراديكالين متمسكا باهداب الشرعية والعلنية. ولم يحاول أن يواصل العمل في ظروف الارهاب وما قد يسببه من اضطهاد لأعوانه وهذا واضح من سلوكه السياسي وفي مذكراته. والحقيقة هي انه تعاون مع الجنرال بكر صدقي في التطويح بدكتاتورية يس الهاشمي / نوري السعيد. وقد أدلج ذلك فيما بعد إذ قال: أنه من الجائز استخدام العنف دفاعاً عن الديموقراطية.

20

بذور الشيوعية
تنبت في التربة العراقية

في عام ١٩٣٣/ ١٩٣٤ عاد من الدراسة في موسكو عبد الحميد الخطيب بعد أن نشر سلسلة من المقالات بعث بها من استانبول في جريدة «البلاد» البغدادية يندد فيها بالاتحاد السوفيتي. وعندما سألوه بعد عودته لماذا هاجمت الاتحاد السوفيتي؟ إدعى أنه فعل ذلك لتضليل الاستخبارات البريطانية لئلا تعرقل عودته إلى العراق! فصدقه البسطاء ليقعوا في أحابيله. وكانت المقاهي السياسية في بغداد ولاسيما مقهى البرلمان في الحيدرخانه في شارع الرشيد تعج بنشاط الثوريين المحبين للاتحاد السوفيتي وللشيوعية ولم يكن هناك ما يميز بين حب الشيوعية وحب السوفييت في العراق. وكانوا يبحثون عن نقطة البدء عن «ماذا يجب عمله؟» عن رأس الخيط الذي أمسك به فهد منذ ١٩٣٢، اعني التنظيم الشيوعي. وكانوا أيضاً يتحرقون شوقاً لدراسة أسس الشيوعية العلمية في الاتحاد السوفيتي. وكان بعضهم يتشوق لمجرد الاطلاع على نمط الحياة السوفيتية. وقد استغل عبد الحميد الخطيب هذه الرغبة المشروعة كما لو كانت نقطة ضعف وأمسك بقائمة سجل فيها أسماء الراغبين في دراسة الشيوعية العلمية في الاتحاد السوفيتي مع صورهم الفوتوغرافية موهما إياهم بأن ذلك كان ضرورياً لقبولهم في الدراسة المنشودة. وسلم قائمة طويلة بأسماء شيوعي المستقبل إلى دائرة التحقيقات الجنائية المكلفة بمكافحة المعارضة ولاسيما الشيوعيين.

ولكن الحركة الشيوعية كانت قد بدأت إذ نبتت جذورها في أرض العراق الخصبة وكان من المحال وقفها من جانب أي مخرب أو وكيل مندس. واستمر النشاط والبحث عن رأس الخيط للبدء بالنشاط الشيوعي المنظم في بغداد التي تخلفت سنتين عن البصرة والناصرية ومدن جنوبية اخرى حيث كان يعمل فهد ورفاقه في النضال، سامي نادر وظافر صالح وزكريا دوكا وغيرهم.

في تشرين ثاني ١٩٣٤ تم اعتقال عشرات الشيوعيين وأكثرهم من الجنوب وبعضهم من بغداد وزجوا في سجن الناصرية بانتظار محاكمتهم وكان الحاكم عبود الشالجي وطنياً تقدمياً فأصدر قراره بالافراج عن الجميع لأنه لم يجد في قانون العقوبات نصاً صريحاً يحرم الشيوعية! كانت تلك أول محاكمة للشيوعيين في العراق. وهكذا سمع الشعب بمخاض الحزب الجديد ــ الحزب الشيوعي العراقي.

وبعد ربيع ١٩٣٥ ذهبت إلى الحلة بوظيفة رسمية وكان حسين جميل حاكما في المدينة وفي بيته التقيت لأول مرة شاعرنا الجواهري وكان كل منصف يراه يقر أنه لايزال لم يبلغ سن الكهولة إذ كان يومئذ في العقد الرابع من عمره وكان قد أصدر ديوانه بعنوان «ديوان الجواهري» بخط ريحاني قد يتوهم المرء ويقرأه «ديون الجواهري» وكان كل من يعرف بثروة الجواهري يقترح عليه أن يضيف فوق العنوان عبارة «خصص ريعه لتسديد

وفي تلك الفترة كانت الاحزاب الوطنية البرجوازية قد سكرت ابوابها بوجه الجماهير إذ أعلنت حل أحزابها بعد أن «استنفذت الغرض من تأسيسها!» إذ «استقلت البلاد!» والحقيقة هي أن البرجوازية لم تكف عن تحزباتها أي تكتلاتها السياسية وراء الكواليس وأخذت تستخدم الجيش ورؤساء العشائر كأداة لتغيير الحكومة أو بالاحرى لتداول الحكم فيما بين كتلها وانما ارادت بحل احزابها العلنية أن تحرم الجماهير من أي تنظيم سياسي شرعي وأن تتحلل من كل التزام أمام الشعب. فكان لابد من حزب سياسي يفتح ابوابه على مصاريعها للجماهير سواء كان هذا الحزب مجازاً أو غير مجازٍ علنياً او سرياً أي بصرف النظر عن موقف السلطة القائمة من الحياة الحزبية. ولم يكن احداً قادراً علىتأسيس مثل هذا الحزب وتحمل الاهوال في تأسيسه سوى الشيوعيين وقد فعلوا ذلك.

وكانت أهم ثغرة هي بغداد. فهنا كان قلة من المثقفين الدعاة أو المجادلين وأقل منهم من المنظمين. وهنا الصعوبة. وفي أواسط ١٩٣٤ عاد من الدراسة في الاتحاد السوفيتي الخياط عاصم فليح وبدأ بتنظيم الخلايا الشيوعية في حي باب الشيخ «الكيلاني» وكان الشيوعيان: يوسف اسماعيل ونوري رفائيل يعملان بين المثقفين وقد وحدوا جهودهم مع عاصم فليح لبناء منظمة الحزب في بغداد التي يجب أن يقوم على اكتافها مركز الحزب في العراق.

وقد اختار عاصم فليح في البدء اسم «لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار» ليكون عنواناً لأول تنظيم شيوعي مركزي. وأعتقد أنه انطلق من اعتبارين: أولهما عدم استفزاز السلطة بادىء ذي بدءٍ والثاني التواضع لان التنظيم الشيوعي في بغداد حيث أكثرية عمال العراق، كان لايزال صغيراً جداً.

وصدر فعلا أول بيان في آذار ١٩٣٥ وبتوقيع «لجنة مكافحة الاستعمار والإستثمار» بمناسبة انتفاضة الفرات الأوسط المسلحة المناوئة للحكومة وكنت قد انتسبت للتنظيم تواً أي في آذار ١٩٣٥ ولكنه سرعان ما غير عاصم فليح رأيه عشية المؤتمر العالمي السابع للاممية الشيوعية في أواخر تموز من السنة ذاتها إذ كان مدعواً لحضوره كمراقب بالنيابة عن منظمتنا فأصدر أول عدد من أول جريدة للحزب «كفاح الشعب» وكانت أول جريدة تصدر سراً في العراق. فكتب تحت العنوان «لسان الحزب الشيوعي العراقي» ففوجئت إذ كان قد استشارني فلم اوافق على ذكر اسم الحزب الشيوعي الصريح لأن ذلك كان في رأيي سابقاً لأوانه بناء على الاسباب التي ذكرت. ولكن عاصم فليح كان متلهفاً لحضور المؤتمر ممثلا لحزب «كامل الريش» إذ كان مبالغاً في إمكاناته التنظيمية.

جاء انتسابي للتنظيم متأخراً. كنت أعرف عاصم قبل سفره للدراسة في ١٩٣٢ ببضع سنوات كنا نلتقي حسين الرحال في المقاهي السياسية ونتجادل. وكان عاصم يعاني من رومانسية المثقفين ذوي الامزجة الرقيقة وقد ترك دكانه وكان من أشهر خياطي بغداد على النمط الاوربي. وذهب لدراسة الشيوعية العلمية في موسكو وبعد أن عاد وبدأ العمل التنظيمي اتصل بي جميل توما وهومهندس سكك وقد عاد توا من أمريكا وتوظف في سكك الحديد وراح يبشر بكامل حريته بالشيوعية شفوياً وعلى الماشي كما يفعل مبشرو المسيحية ولم يتردد لفرط طيبته حتى في دعوة رجال الدولة من أمثال جميل المدفعي إلى اعتناق الشيوعية. فكانوا يضحكون ويطلبون منه التريث بدعوى أن الشيوعية سابقة للاوان في العراق «البدوي» أجل كان جميل توما بحق اجرأ وانشط داعية للشيوعية وللحزب بالذات في بغداد منذ عودته إلى العراق وكان سريع الاتصال، سريع التعارف، سريع الصداقة، سريع في كل شيء على الطريقة الامريكية. كان يلتقينا في قهوة كريم في باب الآغا أو في مقهى في أبو نؤاس، فكلفني بالاتصال بعاصم فليح ليضمني إلى الحزب. وكان المقهى أحد نوادي «الشلل»، الشبان الراديكالين ومن بينهم الممثل عبد الله العزاوي والصحفي

خالد الدرة الذي أصدر فيما بعد مجلة «الوادي» وهو كاتب سياسي هجاء متشكك أو ريبي متشائم. وكان عبد الله العزاوي مثالاً للطيبة والبراءة وللفنان العراقي البائس عندما كان المجتمع ينظر إلى الفنان نظرته إلى المومس، كمادة للترفيه الرخيص. وكان رواد المسرح من المثقفين الاشد بؤساً ومعاناة والمفتقرين لأبسط مستلزمات المسرح الضرورية ولاسيما المسرح نفسه والتي كانت بعيدة المنال عنهم بل كانوا هم أنفسهم يعانون الجوع كالشهداء. فكان عبد الله عندما ينزعج وما أكثر الاسباب التي تزعجه، يخرج من جيبه مسكوكة من عشر فلوس ليشتري عشر صمونات صغار بيضاء حارة شهيه، ويطلب شاياً اضافياً، وكان الاستكان الاضافي بفلسين، ليؤدم به الخبز ويسكت جوعه ويهدئ اعصابه. كانو شباباً موهوبين يشعرون لآلام شعبهم ويسخطون على الاستعمار والرجعية بيد انهم لم يجدوا الطريق بعد! لم يجدوا بعد الجواب!

ضربت مع عاصم فليح موعداً بناء على نصيحة جميل والتقينا في مطعم «سافواي» وكان عند ملتقى شارع الكيلاني بشارع الرشيد حيث الآن بناية البرق المركزي بدأت الحديث فابديت كامل استعدادي للعمل في صفوف الحزب وأن لدي مطلب واحد وهو أن يرشدني كيف ابدأ العمل التنظيمي، كيف أنظم خلية. كنت انتظر أن يعطيني توصيات عملية لأبدأ نشاطي المنظم إذ لم أمارس أي عمل تنظيمي شيوعي. فبادرني بجواب لم أكن قط اتوقعه:

ـ ها انتم المثقفون أول شيء تطلبونه الحصول على «زبدة» القضية. فصعد الدم إلى رأسي كما لو قالوا لي:

ـ أنت برجوازي! وعلى كل حال فان كلامه لم يخل من الاستعلاء واستخفاف بالمثقفين فبادرته من فوري:

ـ وأنت صاحب دكان!

والحقيقة أنه كان رب عمل صغير. وافترقنا دون أن نتفاهم. والتقيت جميل توما وسردت له كل ما حصل. فاكتسح كل هذا القيل والقال بإشارة عريضة من يده وأكد عليّ أن ادعوا للقاء عاصم ثانية. وفي اللقاء الثاني أعطاني عاصم حزمة من أول بيان شيوعي بتوقيع «لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار» مؤرخ بآذار ١٩٣٥ وكان لقاؤنا في هذه المرة في مكان أكثر تواضعاً، مقهى شعبي بسيط «جاي خانه» بلا مصابيح كهربائية بل بمصباح غاز سيار «لوكس» كانت جاثمة على السدة الشرقية قرب باب المعظم حيث كان يخيم الظلام وحيث الان المدخل الشمالي لشارع الجمهورية. ونهضنا في طريقنا إلى بيتي الذي كان قريباً. ورفض أن يعطيني رزمة البيانات في الشارع الخالي من المارة وكان يخفيها تحت قميصه ففتحت أمي الباب وكان الوقت عشاءً وأمي لا تزال مستيقظة. فناولني عاصم حزمة البيانات مع توصية شفوية. سمعت أمي قرقعة صوته وخشخشة الورق وتوجست خيفة وكأنها حزرت ما سيأتي به الغد من تضحيات وراء هذا اللقاء تحت جنح الظلام!

قرأت نسخة من البيان وفوجئت وكأني تعرضت لزخة ماء بارد إذ كان البيان الذي صدر بمناسبة انتفاضة العشائر في الفرات الأوسط والأسفل والتي اعتبرها البيان «ثورة العشرين الثانية» لا يتضمن من المطالب ما يزيد كثيراً على ما كانت تطالب به جريدة الاهالي، في حين كنت أتوقع بياناً كالبيان الشيوعي لماركس وأنجلس، بياناً طبقياً بروليتارياً مجلجلا، رغم أن البيان كان يحتوي على الشعارات الأساسية للمرحلة تحت عنوان: ماذا نريد؟

ـ إلغاء معاهدة ١٩٣٠

ـ قلع سن الذبان والشعيبة (يعني إلغاء القواعد العسكرية البريطانية)

- حل المجلس النيابي وإجراء انتخابات حرة.
- توزيع الأراضي الأميرية على الفلاحين.
- تحديد يوم العمل بثماني ساعات.
- استقلال كردستان.

ومطالب أخرى لا أذكرها.

وبعد لقاء آخر مع عاصم فليح ومناقشة حادة بيننا أخذت أعيد النظر في موقفي المتطرف ولاسيما بعد أن قرأت تقرير ديمتروف عن الفاشية والحرب في المؤتمر السابع للأممية الشيوعية (تموز/آب /١٩٣٥) ولا أعني مطلقاً انني تخلصت من التشدد مرة وإلى الأبد. وسرعان ما ضموني إلى الهيئة القيادية وأنا في الرابعة والعشرين من العمر في ربيع ١٩٣٥

أصبحت شيوعياً حزبياً منظماً بعد أن كنت من رواد المقاهي السياسية مع الشباب الذين كانوا يجدون أنفسهم في إقامة مسابقات السهر الصاخب على ضفاف دجلة المقفرة! وكنت اقرأ لهم ابياتامن المسرحية السريالية لارنست تولر «الجماهير والانسان» المترجمة للانكليزية فيحفظ عبد الله العزاوي منها الابيات التي تلوم الرب وتمجد الانسان وكان يلقيها باسلوب مسرحي معجبا بها وكانت المسرحية عن ثورة ١٩١٩ في المانية. كان المثقفون محرومين من وسائل التعبير ومشغولون عن الانتاج والابداع الفكري بالوظيفة الحكومية وما تفرضه من نمطية على حياتهم أو البحث عن لقمة العيش وهذا الحجر الفكري كان من أقوى الحوافز لتمردهم ومع ذلك لم يصبحوا جميعا ثوريين منظمين بل قلة منهم. وكانت النهلستية (العدمية) أوسع انتشاراً بينهم لأنها لا تستلزم الانضباط بل التمرد على كل انضباط. وكنت من اوائل من خلعوا لباس الرأس (السدارة) وساروا حاسري الرأس في شارع الرشيد وكان هذا بحد ذاته خروجاً عن المألوف. ثم لحقت السترة بالسدارة في الصيف قبل أن يختفي البرقع الأسود عن وجه المرأة الحضرية. وسرعان ما غدا ذلك الشذوذ ظاهرة عامة إذ لم يعد يلبس السدارة إلا الموظفون المتقاعدون.

وبعد أن نلت عضوية الحزب الشيوعي العراقي تملكتني نزعة جديدة في الحياة فابتعدت عن السهر الصاخب في شارع أبي نؤاس وعن شرب الكحول وتحررت من ديوني بعد أن قرأت ذكريات (البلشفي القديم بياتنتسكي) واطلعت على ما جاء فيها من توصيات «للثوري المحترف» وفيما بعد غدا الشيوعييون المتقاعدون يدفعون ابناءهم إلى النضال في صفوف الحزب الشيوعي ومن بين أغراضهم صيانتهم من الحياة التافهه المبتذلة وتربيتهم بروح المسؤولية وحب التضحية ونكران الذات والابتعاد عن الادمان.

كانت سنة ١٩٣٥ عاماً مضطرباً في تاريخ العراق الحديث. وفي هذا العام ظهر اسم «الحزب الشيوعي العراقي» الصريح على صدر أول جريدة سرية في تاريخ العراق وهي «كفاح الشعب» وقد صدرت في أواخر تموز/١٩٣٥ عشية انعقاد المؤتمر السابع للاممية الشيوعية في موسكو. وكان المؤتمر مكرساً للنضال ضد الفاشية والحرب ولتحرير الاحزاب الشيوعية من الجمود العقائدي والانعزالية.

21

تكوين شيوعي منظم

صدرت كفاح الشعب السرية في ظلِ دكتاتورية يس الهاشمي/ نوري السعيد التي كممت الأفواه واغلقت الصحف المعارضة وشنت حرباً شعواء ضد انتفاضات العشائر من الحدود التركية حتى اسفل الفرات لتفرض عليهم التجنيد الاجباري بعد أن عجلت في سلبهم عن أراضيهم ومنحتها لكبار الموظفين البيروقراطيين والتجار والمرابين ورؤساء العشائر الاقطاعيين. وقد روى لنا فائق السامرائي في مكتب المحامي عبد الوهاب محمود: أن رشيد عالي الكيلاني، وزير الداخلية بعد عودته من الحملة العسكرية التي شنها لقمع انتفاضة فلاحي سوق الشيوخ في صيف ١٩٣٥ وجد على مكتبه نسخة من «كفاح الشعب» جريدة الحزب الشيوعي العراقي فقال لسكرتيره:

ـ أن هذه أخطر من العصيان المسلح الذي قمعناه، فاذا نبتت جذورها فسوف يتعذر قلعها.

وقد نشرت لي كفاح الشعب في العدد الثاني مقالاً عن كيفية تنظيم الاضراب العمالي.

عندما لم أجد ضالتي عند عاصم فليح كتبت رسالة إلى مخزن كتب العمال العائد للحزب الشيوعي البريطاني طلبت فيها تزويدي بما يتيسر من أدبيات حول التنظيم وأساليب النضال بالنسبة لحزب شيوعي سري. وقد زودوني فعلا برزمة بريدية فيها ما نحتاجه في هذا الصدد. ومن ضمن ذلك قواعد تنظيم الاضرابات العمالية وقيادتها. والتنظيم الحزبي السري في القوات المسلحة. وكنت قد دفعت ثمنها بموجب حوالة بريدية بريطانية، وكانت الصكوك تباع في دائرة البريد المركزي في بغداد. وكان البريد البريطاني يتمتع بحصانة في العراقِ ولذا مرت الرزمة بسلام. ومن أبرز تلك المطبوعات «مذكرات بلشفي» لبياتنيسكي الذي كان زميلا للينين في عمله التنظيمي ومسؤولا عن تهريب الطبعة الاصلية لصحيفة الحزب البلشفي «إسكرة» التي تصدر في الخارج إلى داخل روسيا لاعادة طبعها من قبل اللجان المحلية. وكان الكتاب مفعم بالحيوية ويحتوي على قدر كبير من خبرة البلاشفة في التنظيم السري وقد عمل بياتنتسكي في الاممية الشيوعية لتزويد الاحزاب الشيوعية بخبرة البلاشفة التنظيمية لتسديد خطواتها الاولى. واحتوت الرزمة امثلة عن الصمود البطولي للشيوعيين بوجه العدو الطبقي في زنزانات التعذيب البوليسي. ومن انفع تلك المطبوعات كتاب عن خبرة الشيوعيين الهنود ولا سِيما في العمل في القوات المسلحة وتنظيم الخلايا الشيوعية فيها وقد التهمت تلك الادبيات التهاماً في فترة وجيزة لحاجتي الماسة إلى التجارب الغزيرة في العمل الشيوعي اليومي التي احتوتها. وقد انغمرت توا في هذا العمل.

أما من ناحية التثقيف النظري فكان أكبر معوق للشيوعيين الرواد في العراق إذ كانت بلاد الشام في وضع أفضل. فكان لابد مما ليس منه بد كما يقول ابو الطيب. كان لابد من دراسة اللغة الانكليزية التي لم نكن نضمر لها الحب باعتبارها «لغة الاستعمار الجاثم على بلادنا». وقد آليت على نفسي أن اتعلمها مهما كلف الأمر فكنت اقرأ جريدة «تايمس» اليومية التي تصدر في بغداد

بالانكليزية وأعطاني عبد الله جدوع مجموعة مجلة (ليبر مونثلي) الشيوعية البريطانية إبتداء من العدد الأول الصادر في تموز ١٩٢٠ وفي أحد اعدادها آذار ١٩٢٤ تأبين بالم دات رئيس تحرير المجلة للينين وقد استهل التأبين بعبارة حفظتها عن ظهر قلب شأن من يحاول وصف لينين بالانكليزية، شأن بربري يحاول أن يصف رجلا متمدنا ويشرح ذلك فيقول:

- أن لينين معلم الثورة. ولكن مدلول كلمة الثورة الشائع في الانكليزية المعاصرة لا يعني سوى التدمير والتخريب!

واشتركت في المجلة لثلاث أو أربع سنوات في بداية الثلاثينات. كنت اقرأ المقال فلا أفهم إلا نتفا منه ومع ذلك آليت على نفسي أن أواصل قراءتها حتى ياتي يوم أفهمها جلها أن لم يكن كلها. وقد تحقق ما أردته بعد سنتين أو يزيد. وذهبت مع حسين الرحال إلى مكتبة مكنزي في بناية بيت لنج في شارع الرشيد لاشتري قاموس إنكليزي - إنكليزي كما نصحني الرحال الذي اختار لي قاموس «كاسل» ففتحته للتو واللحظة بحثا عن كلمة «كومونيزم» أي الشيوعية فلم أجدها إذ أن ورقتين قد سقطتا من القاموس أثناء التجليد. ودهش مكنزي، وكان اشتراكيا من حزب العمال البريطاني، لهذه الصدفة ووعدني بجلب الورقتين الضائعتين من لندن بيد انني كنت قليل الصبر في البحث في القاموس عن كل كلمة لا أعرفها فاخترت طريقة اخرى هي أن اقرأ واقرأ حتى افهم كنه الكلمة عن طريق التكرار والتأويل. ولا أوصي أحدا باتخاذ هذه الطريقة في تعلم اللغة. كما أني لم أدرس جيدا قواعد اللغة (الغراماطيقة) الانكليزية (الايديوم) إلابعد عشر سنوات في منفاي في عانه مع يوسف متي الذي كان أقل مني إلماما بالانكليزية ولم آنف بعد ترك المدرسة المتوسطة من قراءة قصص الاطفال كقصة السندباد بالانكليزية بناء على نصيحة الرحال وقد رسخت أساس اللغة عندي.

وكانت «الليبرمونثلي» مدرسة لمتابعة الحركة العمالية العالمية والسياسة الدولية الضرورية لتوسيع أفق المناضل. وكان بالم دات رئيس تحريرها من أب هندي بنغالي وأم سويدية من مؤسسي الحزب الشيوعي البريطاني ومناضلا بارزا ضد الفاشية وخبيرا عالميا بها وبشؤون بريطانية وامبراطوريتها. وبعد استيلاء هتلر على الحكم في ألمانيا مباشرة ألف بالم دات كتابه الشهير «الفاشية والثورة الاجتماعية» كشف فيه بعمق عن جذور الفاشية وحلل مختلف جوانبها تحليلا شاملا. ومن الاوصاف التي قالها عن الفاشية: إنها إجهاض للثورة الاجتماعية أي أنها تأتي نتيجة لازمة ثورية تعجز البروليتارية فيها عن الاستيلاء على السلطة وتعجز البرجوازية عن الحفاظ على سلطتها بالأساليب المألوفة أي البرلمانية. كما وصف الفاشية بأنها كاريكاتير أي صورة ممسوخة للبلشفية، إذ تقلد بشكل سطحي ممسوخ الطابع الديناميكي والشبابي الجماهيري للبلشفية. ولعب بالم دات دورا مرموقا في المؤتمر السابع للاممية الثالثة المكرس ضد الفاشية وقد نبهنا بالم دات إلى أن الفاشية خطر على كل الشعوب وليس فقط على الدول الرأسمالية الغربية فقط.

أما للالمام بالأسس النظرية الماركسية اللنينية فلم يكن لنا من بد إلا دراسة مؤلفات كلاسيكي الشيوعية العلمية باللغة الانكليزية. وكنا أيضا نستوردها من لندن بالبريد. وكانت توجد لدى دائرة البريد قائمة بالكتب المنوعة منذ الاحتلال البريطاني، يمنع بموجبها جميع الكتب والمطبوعات السوفيتية ويشمل هذا النص حتى الكتب المقدسة.

ومن ضمن ما قرأته عهدذاك مجموعة لينين في فترة التحضير لثورة اكتوبر بعنوان «نحو الاستيلاء على السلطة» كنا نؤمن أن ثورتنا البروليتارية قاب قوسين أو أدنى، فكانت هذه المؤلفات تشدنا اليها. وكنا نعير إهتماما أقل للفلسفة والاقتصاد السياسي، والحال كان فهد يولي

اهتماماً خاصاً للاقتصاد السياسي الذي يشرحه للرفاق بنفسه إذ كان يعده وهو على حق، الاساس الراسخ للنضال السياسي والاقتصادي، بيد أن المادية الديالكتيكية والتاريخية هي أهم ما يجب أن يهتم به المناضلون في الأزمات كالازمة الراهنة التي تمر بها الحركة الشيوعية. وقد قال أحد أخصام الماركسية:

- إن ماركس لم يكرس كتاباً لبحث المادية التاريخية! فرد عليه لينين:

- وهل يوجد كتاب لماركس لم يبحث فيه المادية التاريخية؟!

22

مصاعب العمل السري

عندما غادر عاصم فليح بغداد إلى سوريا في طريقه إلى المؤتمر السابع للاممية الشيوعية في أواخر تموز ١٩٣٥ بعد أن أنجز العدد الأول من «كفاح الشعب» عهد إليّ بمسؤولية قيادة الحزب في غيابه خلال اجتماع حضره عبد الرحمن داوود المسؤول عن أدوات الطباعة وموسى حبيب، في أواسط حزيران ١٩٣٥ وكان عبد الرحمن داوود من تلامذة فهد وزملائه في تنظيم الناصرية في بداية تأسيس التنظيم الشيوعي.

وكان أول خلاف في الحزب قد وقع حول البدء بالنشر أم بالتثقيف النظري، بين عاصم فليح وعضويين قياديين آخرين هما يوسف اسماعيل ونوري رفائيل وكانا من مؤسسي التنظيم في بغداد وقد عارضا البدء بالنشر داعيين إلى التمهل ريثما يتكون كادرمثقف بالماركسية مؤهل للقيام بأعباء حزب سياسي. أما عاصم فليح فقد أصر على النشر وزج التنظيم بالعمل السياسي الجماهيري باعتبار ذلك الوسيلة الضرورية لتدريب الكادر الثوري وتأهيله للعمل السياسي. فحدث أول إنقسام في التنظيم وانضم إلى يوسف ونوري عبد القادر المسؤول عن ادوات الطباعة الحزبية وانفصلوا عن التنظيم. فاضطر عاصم إلى تدبير جهاز طبع جديد لإصدار أول بيان وكان بصدد حركة الفرات الأوسط كما مر سابقاً ـ وأصدر يوسف ونوري بالمقابل بيانهما في نفس الموضوع بعد أن انشقا بحجة أن النشر والتحريك السياسي سابقان لأونهما! ! وقد سمت الشرطة بيانهما بالبيان القرمزي بناء على لون الورق الذي طبع عليه.

أعيد عاصم فليح من حلب إذ كشفه البوليس السياسي الفرنسي ومنع سفره إلى بيروت لركوب الباخرة في طريقه إلى موسكو. فعاد إلى بغداد منزعجا ولابد أن البوليس الفرنسي اخبر بغداد بكل ما يعرفه عن تحركات عاصم فقد كانت هناك اتفاقية ١٩٢٧ بين دوائر الأمن البريطانية والفرنسية في بغداد ودمشق والقدس لمكافحة الشيوعية. ولكن عاصم فليح لم يغير شيئاً من نمط حياته فقد عاد إلى دكانه يمارس الخياطة في رأس القرية، في شارع الرشيد. وكانت الشرطة السرية المفضوحة ترصده ءلى المكشوف من بداية يوم العمل الىنهايته وتلازمه في حله وترحاله حتى فقد أعصابه مرة فكال اللكمات للشرطي السري الذي تجاوز كل حد في تعقبه إذ لاحقه حتى تواليت الجامع في أحد أزقة رأس القرية. وفي اليوم التالي ترصدته ثلة من الشرطة السرية في زقاق النصارى وكالت له الصاع صاعين أو يزيد. ومن بعد وجدت الحكومة أن هذا الاسلوب في الترصد لم يعد مجدياً فأودعت عاصم فليح التوقيف دون أي حجة قانونية سوى اعتباره «خطراً على الامن» واستشارني قبل توقيفه عما عساه أن يعمل وقد تجاوزت المراقبة البوليسية حد التحمل وأن توقيفه بات قاب قوسين. فأشرت عليه بحياة التخفي والعمل في بيت حزبي سري. فرد عليّ: ودكاني؟!!

ربما كان مستعداً للتضحية بدكانه ومع ذلك كان يخشى الاختباء والتحرك سراً فقد ألف حياة نمطية معينة وكان من الصعب عليه تركها فجأة إلى عالم مجهول إذ لم يهيء نفسه نفسياً إلى قفزة كهذه، في الظلام كما فعل فهد من قبل، والحال كان يتوقع اعتقاله في كل لحظة. وضميري لايساعدني على لومه فقد تعرضت أنا إلى نفس المصير بعد مدة وجيزة فلم يخطر على بالي الاختباء وترك الوظيفة قبل أن أفصل منها رسمياً من قبل الحكومة نفسها.

تلقيت أمر الفصل فيما بعد بارتياح لاحظه علي الرفاق الموقوفون معي فقد تحررت من القيد الثقيل الذي كان يقيدني بحياة رتيبة ويتركني رهينة. ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان إذ كنت في سجن التوقيف في باب المعظم مع زملائي الرفاق ننتظر الحبس منذ تشرين الثاني /نوفمبر/١٩٣٥ اعتقلوا عاصم فليح ومهدي هاشم في أيلول ١٩٣٥ وأودعوهما سجن التوقيف لغرض مراقبتهما بصرامة أشد والكشف عن طريقهما (كما لو كانوا فخا) عن الرفاق الاخرين. وكان لمهدي هاشم صديق من أيام المراهقة اسمه عبد الحسين كاشف الغطاء، يبحث عن وظيفة فأراد الدخول في دورة مفوظي الشرطة. فراجع التحقيقات الجنائية ليأخذ شهادة حسن السلوك ليقبل في الدورة كما ادعى في حينه. والتقى بأحد ضباط الشرطة وعرفه بأنه صديق مهدي هاشم. فكلفه الضابط بالاتصال بمهدي وجر لسانه! وهكذا أحكم الفخ فقد كان لسان مهدي هاشم رخواً فكشف لصديقه بسرعة خارقة كل من أعضاء الحزب وكل ما يعرف عنهم. ودعم كل ذلك برسالة خطية لي يوعز لي فيها ببعض التعليمات بقلم عاصم فليح مع مقالة بخطه هو للنشر تتناول فيما تتناول قضية الاحتجاج ضد اعتقاله واعتقال عاصم فليح. وسلم كاشف الغطاء الرسالة المكشوفة الغطاء لضابط الشرطة الذي أخذ لها صورة فوتوغرافية احتفظ بها وأعاد الاصل ليسلمه لي. وجاء إلى مقهى حسين العجمي في الحيدرخانه يبحث عني وسلمني الرسالة وامتثلت للتعليمات وظهر المقال في عدد كفاح الشعب الرابع أم الخامس، وكان لنا صديق من رواد المقهى من أهالي الحلة كنا نسميه رؤوف النبي إذ كان يقارن نفسه بالمتنبي وقد أصدر مجلة باسم «الحكمة». نبهني رؤوف ولكن بعد فوات الأوان إلى أن عبد الحسين صديق مهدي كان جاسوساً!

كان هم عاصم فليح أن يثبت للحكومة انه ليس المسؤول عن الحزب أو عن إصدار الجريدة «كفاح الشعب» وذلك عن طريق الاستمرار في اصدارها وهو في التوقيف. ومنذ بداية اعتقاله كنت أزور بيته ليلا في محلة رأس الحواش في الأعظمية لالتقي أمه حسب طلبه هو حيث اتسلم رسائله منها وأسلمها الجواب وأخبار نشاطنا إذ كانت تزوره في التوقيف لتسلمه الطعام وتتسلم الغسيل منه فلم تكن توجد أية ضرورة لإيجاد الواسطة الاخرى للاتصال بين المعتقلين والحزب. فكيف اقتنع عاصم بتوسط كاشف الغطاء؟!

لقد كان قلق عاصم فليح وثرثرة مهدي وحبه للظهور هي الأسباب لنجاح الفخ البوليسي. لقد أصدر الحزب خمسة أعداد من كفاح الشعب بدون تدخل المعتقلين باستثناء المقال مار الذكر. أن العادات السيئة أوالعيوب الخلقية لدى بعض الشيوعيين هي المنفذ الأخطر الذي تنفذ منه دسائس اعدائهم. هذه خلاصة تجربتي في باكورة الحياة الحزبية، ذلك هو المغزى من هذه القصة لو كان لابد لكل قصة من مغزى.

وكان من أبرز عيوب عملنا إرتياد المقاهي السياسية أي اتخاذ بعض المقاهي محلاً للقاءتنا الأمر الذي يسهل مراقبتنا على الشرطة السرية. بيد أن هذا ليس هو الشيء الأهم فتجربة البلاشفة الروس وتجربتنا نحن أيضاً تدل على أن العدو الأخطر هو العنصر المندس داخل التنظيم والأكثر خطرا عيوبنا الذاتية نحن وبناء عليه يجب أن يكون التنظيم والانضباط من الدقة والصرامة بحيث لا يستطيع الرفيق الاطلاع على أشياء في داخل الحزب ليست من صلب مسؤولياته المحددة بدقة، وكذلك اتخاذ الضمانات الضرورية في حالة انهيار الحزبيين.

ولم يكن من السهل علينا أن نغيير كل عاداتنا المألوفة أوالسيئة حالما صرنا مناضلين منظمين في صفوف الحزب. وبيوتنا الخاصة لم نستطع استخدامها دائما للاجتماعات الحزبية فلم يكن من السهل كسب أهلنا بالذات لخوفهم من إنتقام السلطات وحتى من الافتضاح أمام الجيران بعد كبس الشرطة لبيوتنا الخاصة. وهذه الصعوبات كانت تهون علينا إرتياد المقاهي السياسية أي المقاهي التي يرتادها المناضلون والساخطون على النظام القائم للتهامس بالسياسة. وقد حل الصراع بيني وبين أمي منذ أول بيان تسلمته في المجاز مساءً من عاصم فليح. وراحت تستنجد بأقربائي لإبعادي عن النضال. وذات يوم جاءتني بابنة عم أبي وبلسان دبلوماسي سلس أرادتني أن أكف عن النضال لقاء المغريات الدنيوية كالزواج بفتاة معينة مليحة. واختصرت الجواب ببضع كلمات باترة كالسيف قلت لهم: ستجدوني في يوم من الأيام معلقاً بحبل هنا. وأشرت إلى باب المعظم. وكان قريباً جداً من البيت. كان هذا الجواب ينطوي ليس فقط على حزم بل أيضاً على ضيق صدر. إذ لم يكن ثمة حاجة لإرعابهم مقدماً إلى هذا الحد. بل كان يجب اعدادهم بنفس طويل وتدريجيا لقبول التضحيات اعتباراً من أبسطها وليس عن طريق إعلان التحدي لهم والتنبؤ بأقصى الاحتمالات.

23

انتشار الشيوعية بين الجنود

كنا في إحدى الأمسيات من صيف ١٩٣٥ في مقهى في الطابق الثاني من بناية كانت على ملتقى شارع الرشيد بمدخل جسر الاحرار. فجاءنا كالمعتاد محمد فراش المدرسة العسكرية وأسر الينا: أنا ويوسف متي، أن يوسف اسماعيل ينظم اجتماعاً موسعاً في بيت جاسم الكرادي في الكرادة الشرقية «داخل» وعلى الفور قمنا ثلاثتنا وركبنا الباص إلى الجنوب ونزلنا في الكرادة وطرقنا باب جاسم وكان ضابط صف في القوة الجوية وزميلا لأخي كامل. فوجدنا الدار عامرة والمجاز يغص بالرفاق. وقد توسطهم الرفيق يوسف اسماعيل وعلى ركبتيه نسخة من المجلد الأول لرأسمال ماركس بالانكليزية، ويحيط به رجال من مختلف الاعمار بين ضباط صف ببزاتهم العسكرية وجميعهم من فوج المخابرة (اللاسلكي) الأول التابع للفرقة الأولى، وعمال بناء وملاكين صغار وسواس خيل... الخ فسلمنا وردوا علينا السلام ثم أعادوا التحية على عادة اهل العراق وساد الصمت لحظة ثم استأنف المحاضر حديثه عن أسرار البضاعة ولم يطل الدرس إذ أننا جئنا متأخرين. واختتمه المحاضر بالقول: هل من سؤال؟ فساد الصمت من جديد. وفيما بعد علق احد الظرفاء قائلاً: إما أنهم فهموا الدرس بوضوح ما بعده وضوح ولم يبق لديهم سؤال أو أنهم لم يفهموا شيئاً على الاطلاق، فعلام السؤال؟

وقطعنا السكون بسؤال لا علاقة له بالدرس: ما رأيكم أستاذ في الوضع السياسي الراهن؟ فكان الجواب مفاجئاً أيضاً كالسؤال:

- أنا مو مثل ما حكوا لكم عني! مشيراً إلى الخلاف الذى أدى إلى انشقاقه عن الحزب ثم تأبط الرأسمال واستأذن وانصرف.

وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام هذا الحشد الكثيف بالنسبة لاجتماع سري فكيف نضيع مثل هذه الفرصة؟ دخلنا في مناقشة الوضع السياسي القائم على الفور فتغير جو الاجتماع ودبت فيه الحياة. فالسياسة هي التي كانت همهم وكانت قوانين البضاعة صعبة جداً عليهم بالنسبة لمستواهم الثقافي ولعدم وجود عمال صناعيين بينهم أو مثقفين تؤهلهم ثقافتهم لفهم هذا الموضوع المعقد.

ثم انتقدنا اسلوب تنظيمهم واجتماعاتهم باعتبارها «كعدة مضيف» حسب التعبير الذي ساد الوسط الفلاحي الحزبي بعدئذ. وشرحنا لهم نظام الخلايا وضرورة فصل الخلايا العسكرية عن المدنية. فاستهواهم هذا الكلام التنظيمي وطلبوا منا على لسان مسؤولهم (العريف اسماعيل الأغا، من أهالي بعقوبة) أن ننظمهم. فلم نعتذر عن هذا التكليف الذي كان غايتنا الوحيدة من الزيارة. **وهكذا بدأنا بتنظيم أولى الخلايا العسكرية للحزب في فوج المخابرة الأول في الفرقة الأولى على وجه التحديد وكان مقره في الثكنة الشمالية (الكرنتينة) في صيف ١٩٣٥.**

أما عن منشأ هذه المنظمة السرية التي عثرنا عليها هكذا فجأة فقد عرفناه فيما بعد عندما التقينا بمؤسسها وهو تاجر صغير أو حرفي من الهندية (طويريج) وكان الساخطون على النظام القائم يبحثون عفويا عن تنظيم يلم شعثهم بعد أن اغلقت الاحزاب البرجوازية الوطنية أبوابها بوجههم. إذ جمدت نفسها ظاهرياً، وبالاحرى إختبأت فيما وراء الكواليس مستخدمة الجيش والعشائر كأدوات لتغيير الحكومة أو تداول الحكم فيما بينها كما قلت كما أن العناصر الثورية لم تجد ضالتها المنشودة في الاحزاب الرسمية فراحت تنظم الجمعيلت السرية. وكانت جمعيات انعزالية منغلقة على نفسها وليست منظمات جماهيرية كانت ساخطة ولكن لم يكن لديها برنامج محدد وكان بعضها يعكس الشعور بالغبن لدى طائفة الشيعة.

وبدأنا يوسف متي وأنا بتنظيمهم وكنا نلتقي بهم ونزودهم بالادبيات الثورية ليلاً على السدة المحيطة بمقبرة الإنكليز في جوار الثكنة الشمالية القديمة. وكانت أحاديثنا عن الوضع السياسي الذي كان مضطرباً أشد الاضطراب جراء السخط العام على دكتاتورية يس الهاشمي / نوري السعيد والضائقة الاقتصادية ونهب أراضي الفلاحين وفرض التجنيد الاجباري على الفقراء دون الاغنياء الذين كانوا يتملصون من الخدمة بالزواج المبكر ليصبح معيلاويدفع بدل نقدي زهيد بالنسبة لجيوبهم.

كنا نعالج معهم المشاكل التنظيمية الجديدة وكان قسم المخابرة (الاسلكي) أثقف فوج في الجيش إلى جانب القوة الجوية، وأكثر شعوراً بالغبن، رغم انه لم يكن اسوأ حالاً من حيث الرواتب لأنهم كانوا متطوعين وينالون راتب مهنة. وحتى في القوة الجوية حدث اضراب على الطريقة الايطالية. فقد أخذ ضباط الصف والجنود والعمال يتماهلون في إصلاح الطائرات. وعندما يأتيهم المفتش يعملون جعجعة بلا طحن. وربض معظم الطائرات في مطار معسكر الرشيد وعلى كل طائرة علامة (off) يعني غير صالحة للاستعمال فأحس الضباط الطيارون المتخرجون جميعاً من بريطانية أن شيئاً غير عادي يسود سلاحهم فطلب آمر القوة الجوية محمد علي جواد من اخي العريف كامل خيري أن يبين أسباب هذا التأخير. فبين له مطالب المضربين بصدد تحسين ظروف العمل والمعيشة ، فلباها عموما وسرعان ما محيت علامة (off) عن الطائرات وغدت صالحة للطيران(O.K.) كان الطيارون وعلى رأسهم محمد علي جواد يتعاملون مع ضباط الصف والجنود معاملة سبورت أي من دون عجرفة عسكرية بيروقراطية ولم يكن للاضراب الصامت نتائج سلبية كالطرد والملاحقة فالروح الوطنية كانت هي السائدة بين الطيارين. أما في سائر القطعات العسكرية فالعصى هي السائدة في العلاقة بين الجنود والضباط.

24

في الأممية الشيوعية

وعلى الصعيد العالمي أيضاً كان عام ١٩٣٥ مضطرباً. كانت الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى ١٩٢٩ـ ١٩٣٣ قد انتهت دون أن يعود الرواج الذي كان قبلها. وبعد مجيء هتلر إلى الحكم (٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣) غدت الفاشية الدولية خطراً يهدد جميع الشعوب بالحرب والعبودية. وبدأت دول محور برلين ـ روما ـ طوكيو سباقاً جنونياً للتسلح ولغزو العالم. ومن الجهة الاخرى كان الاتحاد السوفيتي قد أنجز التصنيع الاشتراكي الواسع السريع وأصبح ثاني دولة صناعية في العالم. وفي فرنسا استطاع التحالف الشيوعي الاشتراكي الديموقراطي وقف الزحف الفاشي إلى السلطة. وفي الخريف غزت ايطالية الحبشة (أثيوبيا) وهبت الاحزاب الشيوعية لتنبيه الشعوب إلى خطر الفاشية والحرب. ولأجل تنظيم النضال العالمي ضد الفاشية والحرب انعقد المؤتمر العلمي السابع للاممية الشيوعية في تموز/١٩٣٥ في موسكو بقيادة جورجي ديمتروف قائد الحزب الشيوعي البلغاري الذي أصبح شخصية عالمية وقائداً بارزاً في النضال ضد الفاشية الدولية منذ محاكمته على يد الهتلريين في لايبزك عام ١٩٣٣ وقد حضر المؤتمر عن حزبنا قاسم حسن كما حضر فهد مؤتمر (بروفنترن) الاتحاد العالمي للنقابات العمالية الحمراء الذي إنعقد في نفس الوقت في موسكو حيث كان فهد يدرس الشيوعية العلمية.

لم يمنح حزبنا العضوية التامة في الكومنترن إلا في السنة التالية ١٩٣٦ أي بعد المحاكمة الأولى للشيوعيين في بغداد. وعلى هامش المؤتمر عقد مؤتمر الاحزاب الشيوعية في البلدان السائرة في الفلك البريطاني وحضره ممثلنا وأصدر بياناً مشتركاً ساهم فيه حزبنا كما ساهم في المؤتمر الذي عقدته الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية وكانت مساهمة فهد غنية وحيوية لانه كان من المؤمنين بالوحدة العربية على أساس اتحادي (فدرالي) يحفظ لكل قطر شخصيته وعلى أساس ديموقراطي معادي للاستعمار والاقطاع.

وفي عام ١٩٣٥ وضع قانون التجنيد الإجباري موضع التطبيق من جانب حكومة يس الهاشمي وكان أحد رجال المعارضة علي محمود الشيخ علي قد هاجمه وأطلق عليه اسم «ضريبة الدم» وكان القانون جائراً لأنه يفرض على الفلاح العراقي هذه الضريبة في حين يحرمه من الأرض التي نهبتها الطبقة الحاكمة استناداً إلى تقرير داوسن ١٩٢٩ وكانت الوجهة الايجابية للقانون أنه يدرب الشعب على أساليب القتال الحديثة ويعطيه جيشاً وطنياً يمكن أن يستخدمه كأداة لتحقيق الاستقلال التام ويؤهله للثورة الشعبية ولذا لم يرفضه الحزب الشيوعي رغم مطالبة بعض الرفاق. كان القانون سببا لعدد من الانتفاضات الفلاحية في الشمال والجنوب سحقتها الحكومة بدون رحمة. وكانت الحكومة تريد الجيش كقوة بوليسية لفرض سلطتها على الشعب وتحقيق بعض الطموحات «الوحدوية»، وبالحقيقة لضم سوريا والكويت. وكان الانكليز يريدون توسيع الجيش بقدر

ما يخفف اعبـاء هـم البوليسـية لضبـط العـراق بيـد أن تعزيـز الجيـش عجـل في تقو ، النفـوذ البريطاني في العراق وبر؛ على المسرح السياسي دور المؤسسة العسكرية كقوة سياسية مقر ي حياة البلاد.

وكان موقفنا من الضباط إنعزالياً إذ يبـالغ في دور التنـاقض الطبقـي بـين الضبـاط والجنـود في مرحلة التحرر الوطني وقد اعتمد نشاطنا بالأساس على الجنود وضباط الصـف وعندمـا كنـا نلتقـي هؤلاء على السِدة المحيطة بمقبرة الانكليز تحت جنح الظلام وتحت ظلال الأشجار اليوكـالبتوس لم نلتق ضابطاً واحداً. وفي تلك السنة لم تكتشف السلطات تنظيمنا في الجيش لأن مهدي هاشـم لم يكن يعلم به ليسرب الخبر إلى وكيل الشرطة عبد الحسـين كاشـف الغطـاء، ولم نخـبر أحـداً مـن الموقوفين بمن فيهم عاصم فليح نفسه. وعندما اعتقلنا قام هذا التنظيم بطبع العدد السادس والأخير من «كفاح الشعب» وبتوزيعه ليلا على محلات بغداد.

وفي أحد البيوت الحزبية في جانب الكرخ قرب سينما الارضرملي التي كانت بستان الارضرملي التقيت بثلاثة من طلاب الكلية العسكرية أحدهم محي حميد الذي غدا وزير اللمعارف في حكومـة عبد الكريم قاسم والآخر يوسف من أقرباء نوري رفائيل الذي صار بعد إحالته علـى التقـاعد بـائع كتب مستعملة ومستشار طلاب الدراسات العليـا ونسـيت الثـالث. أجبتهـم علـى اسئلتهم بصـددِ التنظيم الشيوعي وشروطه وأهدافه وبعد أن أداروا أبصارهم حيث الأثاث الوحيد في البيت حصـيراً من القصب «بارية» جلسوا عليه متربعين وكوز «تنكة» لشرب الماء خرجوا. وكان هذا اللقـاء معهـم الأول والأخير بعد أن وعدونا بالتفكير بالأمر. والتقيتهم بعد ربع قرن، بعد ثورة ١٤/ تموز/ ١٩٥٨ ترى لو كان البيت الحزبي مؤثثاً بالرياش هل كان اللقاء الثاني يأتي بعـد ربـع قـرن! ! ويتطلـب ثورة ١٤ / تموز؟! كنا في الحقيقة لا نعادل عاملا واحداً في مشروع كبير كمعامل السكك الحديدية في الشالجية بضابطين بالجيش. كنا متزمتين بشأن الطابع البروليتاري للحـزب في بلـد كـان عـدد عماله ضئيلا.

25

البحث عن البروليتارية

وجدنا ضالتنا بين عمال السكك ولكن ليس في معامل الشالجية التي كان يربو عدد عمالها على الألف وهو أكبر عدد من عمال العراق كان يعمل تحت سقف واحد آنذاك. وكان من بينهم عامل شيوعي واحد من أقرباء نوري رفائيل لم يتعاون معنا. كانت السكك خاضعة لرقابة صارمة من جانب الادارة التي كان النفوذ البريطاني مهيمنا عليها رغم امتلاك الحكومة العراقية لرقبتها، بل وجدنا عاملين (C.G.) أي من فاحصي عجلات القطارات في محطة غربي بغداد بالكرخ. وكان احدهم مسيحياً لا أذكر اسمه والآخر اسمه حاتم وكلاهما في العقد الرابع من العمر. كنت التقيهما بنفسي في ساعات عملهما على الخط الحديدي كلا على انفراد، إذ كانا يتناوبان العمل. ولم نستطع أن نكسب بواسطتهما أي عامل آخر لامن عمال الشالجية ولا غيرها. بيد أننا عثرنا بعش دافئ في مستشفى السكك في الصالحية قرب محطة قطار البصرة، وقد زال من الوجود منذ عشرات السنين. لقد كسبنا الطباخ موسى ساوى. وسرعان ما تحول مطبخ المستشفى إلى «وكر» على حدتعبير البوليس السياسي. وألقينا بثقلنا على العش لسهولة العمل وبلا مبرر. كان موسى ساوى المسيح بعينه طيبة ورحمة وفداء! وكنت إذا أردت العثور بموسى حبيب إناء الليل أو أطراف النهار لا أجده الا عند موسى ساوى في مطبخه الدافيء وهنا كانت تخزن جريدة الحزب ومنشوراته وترزم وتوزع إلى الالوية. وهنا كانت توضع المنشورات في قعر سلة اسطوانية مجدولة من عود الرمان وتغطى بالفواكه الحمضية ليحملها «عبد» مساعد موسى وهو من اصل فلاحي جنوبي إلى محطة البصرة ليسلمها إلى صادق الالقوشي الذي يعمل في عربة المطعم في قطار البصرة ـ بغداد. وفي البصرة يسلم هدية الفواكه إلى المحامي عزيز شريف الشيوعي العراقي المعروف ورجل السلام العالمي فيما بعد. وكان عزيز شريف بدوره يسلم الفواكه والسلة برمتها إلى المنظمة الحزبية المحلية في البصرة.

سارت الأمور على ما يرام بالنسبة لبريد البصرة الحزبي نحو خمسة أشهر متوالية حتى عنّ لموسى حبيب أن يرسل رسالة ونسخة من جريدة الحزب إلى عاصم فليح لا عن طريق البريد الحزبي الرسمي أي عن طريقي بل بواسطة «عبد» مراسله في كل شيء، وكأن عبد هذا لابس كلاو الخناس! أي طاقية الاخفاء أو قاضي الحاجات. وفي الموقف العام وقع عبد في الفخ إذ كان عبد الحسين كاشف الغطاء مرابطاً ولا سيما في ساعات الزيارات للموقوفين. وبسهولة تحول عبد إلى وكيل مندس للتحقيقات الجنائية على يد عبد الحسين واستعجلت التحقيقات فكبست بريد البصرة كمستمسك «جرمي» وكان فيه العدد الخامس من «كفاح الشعب» وبيان عن احتجاج الحزب على غزو ايطالية للحبشة، اثناء تسليمه من يد عبد ليد صادق. وكأن الامر محض صدفة. واعتقلوا طباخنا المناضل الرفيق موسى ساوى والرفاق صادق وزكريا الياس دوكا وكان مسؤول

المنظمة الحزبية في البصرة. واعتقلوا موسى حبيب. ولكي يخلص نفسه وينكل بالمنشقين تبرع بشهادة ضد يوسف اسماعيل ونوري رفائيل، فاطلقوا سراحه بكفالة ليجعلوا منه فخا دون أن يدري. والتقانا ليخبرنا بما فعل فوبخناه على فعلته المنكرة وشهادته ضدهما. واقترح هو أن يختفي فرفضنا الموافقة على تخفيه و ألزمناه بالحضور عند استدعائه وإنكار شهادته ضد نوري رفائيل ويوسف اسماعيل. وانصاع لايعازنا وأفرجت عنهما المحكمة فيما بعد, وانتهت علاقة موسى حبيب بالحزب اثر انتهاء مدة حبسه بعد إنقلاب بكر صدقي.

وكان اسم يوسف مكتوباً على غلاف الرسالة التي بعث بها مهدي هاشم بيد صديقه عبد الحسين وكيل التحقيقات الجنائية المندس وكان يوسف هذا الاسم الحركي لأحد عمال دكان خياطة عاصم فليح ولكن الشرطة السرية لم تشخصه بل ظنت انه الاسم الصريح ليوسف متي. وعندما اعتقلته الشرطة تعرض لتعذيب وحشي لمدة سبعة أيام ظناً من البوليس أنه هو المسؤول عن اجهزة الطباعة. وقد تحمل التعذيب بصبر وجلد فيأسوا منه وكفوا عن تعذيبه ولكنهم أبقوه معزولاً عن سائر الموقوفين زهاء ثلاثة أشهر.

ألقي القبض عليّ في دائرة الكمارك، حيث كنت أعمل، في تشرين الثاني ١٩٣٥ وأودعت موقف شرطة السراي سيء الصيت معزولاً عن الرفاق الموقوفين الآخرين زهاء ثلاثة أشهر أيضاً. وهنا التقيت مهدي هاشم إذ جاءوا به من الموقف العام إلى مركز السراي لمحاكمته. وكان حاكم الجزاء الاول عبد العزيز الخياط (الاعرج) المعروف بشراسته تجاه الثوريين والمعارضين وسائر المتهمين، قد أصدر حكمه على مهدي بالحبس سنتين. ويبدو انه لم يكن يتوقع هذا الحكم فاهان الحاكم بقوله: أنت خلك شرطي وجاسوس! فحكمته محكمة أخرى بالحبس الاضافي لمدة ستة أشهر لاهانته المحكمة.

وفي موقف مركز السراي التقيت موقوفين من مختلف الفئات الاجتماعية: محامين، ملاكين، وضباط يخفون هويتهم خوفاً من رئيس اركان الجيش طه الهاشمي الذي كان متشدداً إزاء الضباط الذين يأخذون حريتهم في الملاهي، إلى جانب غلمان كانوا يعرضون انفسهم على ذوي الشذوذ في ساحة الميدان القديمة إلى سماسرة في بيوت البغاء السري. كانت الشرطة تلقي القبض عليهم عندما لاتحصل على مبلغ من الرشوة وتوزيعها بواسطة رجال شرطة الاخلاق من دور البغاء السري والنشالين...والخ والكل يأخذ حصته ويرفع الباقي إلى المافوق حتى رجال البلاط. رأيت ضباطا كنت اعرفهم سلبتهم الشرطة كل ما في جيوبهم من نقد وهي تعرف انهم ضباطا يخفون هوياتهم خوفا من عقاب أشد على أيدي رؤسائهم. وكانت الشرطة تطلق سراحهم بعد أن يتنازلوا عما سلب منهم. وكانت الشرطة تسجل على الموقوفين سلسلة من الدعاوي: كالسكر والعربدة وازدحام الطريق العام، وسب الحكومة والملك والسكر في شهر رمضان المبارك في حين كان الموقوفون يسجلون دعاوي على الشرطة التي سلبتهم ما في جيوبهم بحجة التفتيش لدى مرورهم إلى المركز من سوق السراي المظلم ليلا خلف دائرة البريد المركزي ثم يتم تنازل الطرفان كل عن دعواه وتسقط الدعاوى المتقابلة ويطلق سراح الموقوف بكفالة وإلا فيقدم للمحكمة لتغريمه. لأن المواطن لم يكن لديه شهود أما الشرطة فتشهد لنفسها بنفسها وتكسب الدعوي أمام القضاء بانتظام. وفي كثير من الاحيان كانوا يهملون القذف بالذات الملكية لكثرة هذه الحوادث.

وكانت غرفة التوقيف تكتظمساء بالموقوفين وتنتشر روائح البول والقيء الكريهة إلى حد لايطاق. وعندما التقينا ببعضنا نحن الرفاق بعد ذلك بثلاثة أشهر في الموقف العام شعرنا وكأننا غدونا أحرار.

وفي مركز السراي مرّ بي جميل توما بعد اعتقاله وكان متطيراً لأنه التقى في أول موقف باشوربهم من الموصل أحدهما عبد الكريم قره كلا وزميله المحامي عبد الكريم باقي وكانا متهمين

بتنظيم انتفاضة فلاحية ضد التجنيد الاجباري في جبل سنجار. فنقلتهم الشرطة إلى المحكمة العرفية في الموصل حيث حكما بالاعدام وقد نفذ بهما الحكم على الفور. وقد دققت محكمة التمييز الوثيقة الخطية التي كانت البينة الوحيدة للحكم عليهما بالموت فوجدت انهما لم يستكتبا ولم يثبت أن كانت الوثيقة بخطيهما أو أنها كانت مزيفة. وقد سبق السيف العذل!! ولات ساعة مندم! وليس أخف يداً من أيدي الجلادين في العراق!

وكان لهذا الحدث تأثيره السلبي البالغ على معنويات عاصم فليح بعد أن التقاه جميل توما في الموقف العام وقصى عليه القصة. وقد توسط سعيد الحاج ثابت من زعماء الحزب الوطني لعاصم فحكمته المحكمة لمدة التوقيف زائدا شهرا واحدا ليتذوق طعم حساء السجن ويرتدي ملابسه الخشنة ويحلق رأسه «نمرة صفر» ويخرج بعد نهاية الشهر ليعتزل النضال السياسي مدى الحياة. وقد عاد لممارسة مهنة الخياطة وتجارة الاجواخ حتى مات رحمه الله ثريا، في مستشفى في المانية الغربية حيث ذهب لمعالجة مرض مزمن عضال في معدته في أوائل السبعينات.

وجرت محاكمتنا نحن العشرة الموقوفين في أول محاكمة جماعية للشيوعيين في بغداد أمام حاكم جزاء بغداد الأول عبد العزبز الخياط وكان جلاداً أكثر منه رجل قضاء. وجرت المحاكمة سراً ولم يحضرها سوى محاميّ الدفاع وعلى رأسهم عبد القادر اسماعيل.

فعمدنا إلى إنكار كل شيء وتفنيد شهادات الشهود، وطعن المحامون الجاسوسية والتجسس الذي قام به خصومنا والذين شهدوا ضدنا باعتبارها محرمة في الاسلام وقد أنهى القرآن الكريم عنها: «ولا تتجسسوا» وضحك الحاكم المتدين في سره من تفسير المحامين هازا رأسه تأكيداً على حكمة رب العالمين.

وقد أفرجت المحكمة عن يوسف اسماعيل ونوري رفائيل ويوسف متي «لعدم كفاية الادلة ضدهم» وحكمت على الباقين وأنا منهم بالسجن سنة أو سنتين مع وضعهم لنفس المدة تحت مراقبة الشرطة بعد خروجهم من السجن. وقد اندهش رفاقنا في سوريا ولبنان من هذه الاحكام الثقيلة. أما نحن فقد اندهشنا من الاحكام التي صدرت بحق رفاقنا الايرانيين، رفاق تقي ارائي، مؤسس الحزب في إيران. إذ حكموهم في نفس الوقت لمدد تتراوح بين العشرة والعشرين سنة!!

وفرقونا بعد الحكم أيدي سبأ على سجون الالوية كل واحد في سجن بعد أن قدمنا عريضة جماعية نطالب بحقوقنا كسجناء سياسين طبقا للقانون الذي شرعته حكومة يس الهاشمي، بناء على توصية عصبة الامم في جنيف الذي لم يطبق بحق الشيوعيين في العراق. وبعد سنة كاملة في السجن اطلق سراحنا بالعفو العام الذي أصدرته حكومة حكمت سليمان بعد إنقلاب بكر صدقي في تشرين الاول ١٩٣٦

26

ميلاد الصحافة الشيوعية
«كفاح الشعب»

كانت «كفاح الشعب» أول جريدة للحزب الشيوعي العراقي وأول جريدة تطبع وتوزع سراً في تاريخ العراق. وقد صدر العدد الأول في نهاية تموز ١٩٣٥ بثماني صفحات من نصف حجم الجرائد اليومية المعتاد في بغداد وغلاف قرمزي من ورق الغلاف الرقيق وكانت تطبع بالآلة الكاتبة على الورق الشمع ستنسل وتستسخ بآلة الاستنسال وكانت تحمل على غلافها شعار البيان الشيوعي: «يا عمال العالم اتحدوا!» وتحته «فلترتعش الطبقات الحاكمة من شبح الثورة الشيوعية فليس للبروليتاريا ما تفقده فيها سوى أغلالها وتربح من ورائها عالما بأسره!» فضلاً عن شعار الحزب: يا عمال العراق اتحدوا! وتصدرتها مطالب الحزب الآنية التي صدرت سابقاً في أول بيان باسم لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار في إذار ١٩٣٥ وكانت تطبع بخمسمائة نسخة في وقت لم يكن يتجاوز ما يوزع من أي جريدة يومية علنية ليزيد عن هذا العدد. وكان المعارضون يتلهفون لقراءتها في وقت اغلقت فيه الحكومة جميع الصحف المعارضة.

أصدرنا خمسة أعداد منها وبعد اعتقالنا صدر العدد السادس والأخير الذي أصدره ووزعه الجنود الشيوعيون.

أن صدور كفاح الشعب أحدث ضجة دعائية للمولود الجديد «الحزب الشيوعي العراقي» وكانت هذه الضجة ضرورية في حياة كل مولود سياسي جديد. ومن جهة أخرى أصبحت الحكومة أقل تشدداً إزاء الصحافة المعارضة العلنية أو الشرعية وصارت المعارضة أكثر جرأة على الحكومة عندما كانت تصدر صحافة الحزب الشيوعي ونشرياته السرية. هذا فضلا عن المفاهيم والشعارات الثورية الصائبة التي كانت تبثها هذه الصحافة وتنشرها بين الجماهير وتجعل منها قوة مادية، رغم قلة تواتر صدورها بالنظر لظروف النشاط السري الثوري الصعبة. ومع ذلك كانت الصحافة اللبرالية العلنية تعيرنا أحياناً بسرية نشرنا كلما استشاطت غضباً علينا. وكانت الجريدة السرية بالنسبة لنا وكما علمنا لينين الهيكل الذي يبنى على أساسه تنظيم الحزب سواء عن طريق توزيعها على القراء والجماهير بواسطة المنظمات الحزبية أو بتزويدها عن طريق هذه باخبار الجماهير ونضالها. ومن حزبنا تعلمت احزاب المعرضة الاخرى ومنها حزب البعث التنظيم السري والنشر السري غيرالشرعي.

ومن الاخطاء الصغيرة «لكفاح الشعب» انها نشرت مادة بعنوان: «هل تعلم؟» جاء فيها: «هل تعلم أن يس الهاشمي يتظاهر بالعفة نهاراً ويزور بنات شعبيا ليلا؟» وكانت هذه إشارة لدكتاتور يريد أن يظهر أمام الملأ وكأنه زعيم العرب جميعاً. فشدد النكير على الحزب

كان التطرف اليساري شيئاً منتظراً من شبان ثوريين ضعيفي التكوين النظري وقليلي التجربة السياسية كما هي الحال في حركة ثورية جديدة. وقد تلقينا نقداً من أشقائنا الشيوعيين في الخارج لتطرفنا عهد ذاك. ومع ذلك فالحياة هي التي تعلم آخر الامر. ولم يكن بيننا نحن هيئة التحرير من نال تحصيلاً علمياً عالياً بل كان بيننا واحد أو اثنان من ذوي التحصيل الثانوي. كنا «مثقفين شعبيين» إذا جاز التعبير، وعلى استعداد لأن نحترق لنضيء الدرب للشعب وكنا نتغنى بكلمات ناظم حكمت في أحلك الأيام:

ـ إذا لم أحترق أنا ؟ ولم تحترق أنت ؟ ولم نحترق نحن ؟ فكيف يخرج من الظلمات نور!

بهذه الحمية الثورية دخلنا السجون دون اكتراث لما سنلاقيه فيها من حرمان وعذاب وما نفقده من حرية شخصية ومن مصادر العيش. ولأننا عشاق الحرية فقد تخلينا عن حريتنا الخاصة! ولأننا من أنصار التجديد فقد وهبنا عز شبابنا وصبرنا السنين الطوال في الحبس أو النفى حيث أمضينا شطراً كبيراً من أعمارنا فزرعنا حب شعبنا في قلوب أبنائه ورسخنا حب الحزب الشيوعي في ضمير شعبنا. وقد ضحى خيرة قادتنا ورفاقنا بأرواحهم في سبيل حرية وطننا وكانت صحافتنا تنير طريق الشعب في أحلك الليالي.

27

العلم الأحمر في سماء بغداد

كرسنا العدد الخامس من «كفاح الشعب» للعيد الثامن عشر لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى في ٧/ تشرين الثاني/ ١٩٣٥ إذ بلغت الثورة سن الرشد وعلى الغلاف رسم هادي هاشم، وكان معلماً للرسم، صوراً تخطيطية للينين وستالين مع المطرقة والمنجل، إضافة لشعارات الجريدة الأخرى. وكرسنا مواضيعها للثورة.

وفكرنا بفعالية أخرى لنحتفل بالمناسبة السعيدة عن طريقها أمام أعين الجماهير. كنا بضعة عشر شيوعياً فلم نفكر باجتماع أو مظاهرة. وكنا نعرف أن الشيوعيين في البلدان التي لا يملكون فيها الحرية كبلدنا يعلقون علم ثورة اكتوبر الأحمر على الابراج العالية وما شاكل ذلك. ففكرنا بوسيلة مشابهه تتناسب وقوتنا العددية، وبناء مدينتنا. وهي أن نعلق الاعلام الحمراء على الأسلاك العالية في الشوارع العامة. فقمنا بخياطة عودين في نهايتي العلم وربطنا خيطاً في وسط أحد العودين وربطنا حجراً ملفوفاً بالقماش في نهاية الخيط الحرة ووضعنا الحجر الملفوف في القبضة اليمنى والعصويين المطبقتين في اليد اليسرى وقذفناها بواسطة المنجنيق البشري إلى الأعلى فوق السلك فاول ما يهوي الحجر ويدور دورته حول السلك المعلق يتدلى العلم بكامل طوله وأجريت التمارين الأولية ونجحت وتولى العمل فريقان من الرفاق احدهما بقيادة يوسف متي.

وبقيت الاعلام الحمراء متدلية حتى ضحى نهار العيد واقتضى إنزالها استخدام أطول سلم متحرك لفرقة اطفاء الحرائق. وكان من أعلى الاعلام ارتفاعاً علم مقابل دائرة البرق المركزية في شارع الرشيد والآخر في بداية شارع أبي نؤاس قرب جسر الجمهورية الحالي.

وكان الخطأ الوحيد الذي ارتكبناه والذي نبهنا اليه فيما بعد المواطن أدهم مشتاق هو أننا وضعنا المطرقة والمنجل والنجمة الخماسية من لون أبيض وليس ذهبياً. ولكن عندما التقينا عاصم فليح في التوقيف بعد ثلاثة أشهر وجدناه يتندر على عملنا هذا. فحسب قوله لم يفهم الناس مغزى العطلية وحتى بعضهم لم يفهم صورة المطرقة والمنجل الذي حسبه اصبعاً معقوفاً يشير إلى المجهول! هذا رغم أن العملية بحد ذاتها كانت على بساطتها في حينه قد رفعت معنوياتنا نحن الشيوعيين لقلة عددنا وعدتنا فكان التندر عليها بمثابت دلو ماء بارد يصبه المعلم على رؤوس تلامذته الصغار بعد أن فرغوا من قراءة نشيدهم الحماسي. وقد، بلغت حرارة دمائهم أقصاها.

28

في السجون الملكية

وفي سجن التوقيف في باب المعظم حشرونا نحن الشيوعيين في غرفتين صغيرتين كانتا أشبه بزنزانتين. وبصورة عفوية كما يفعل المهتمون بقضية واحدة، وحدنا سفرتنا بحيث لم يكن أحد منا يدري فيما إذا كان أهله قد جاءوا اليه بشيء من الطعام أم لا وكان احدنا يأتيه (سفرطاسي) كما يسميه الاتراك حافلاً بالمأكولات العراقية الدسمة الوافرة والمتنوعة والمتوبلة، فتضايق من اختلاط مأكله مع مأكل الآخرين واعترض قائلاً: لو أننا ننظم أكلنا! قلنا له على الفور طيب بامكانك أن تتخذ لنفسك سفرتك الخاصة من الان فصاعداً. ففعل! وحافظنا على معنويات الرفاق الذين لا تستطيع عوائلهم تزويدهم بطعامهم الخاص ولا يبقى أمامهم سوى طعام السجن.

وكان نظام السجون قاسياً جداً وحتى شرب الشاي كان محرماً فضلاً عن التدخين ومستوى التغذية واطئاً. وتتواطأ ادارة السجن مع المقاول المتعهد بتجهيز طعام السجناء لتسق أكثر من نصف أرزاقهم. ومع ذلك كان مستوى معيشتنا في السجون العراقية افضل من مستوى معيشة اكثرية الفلاحين وبالتالي أكثرية سكان العراق. وبلا شك كان وضعنا عموماً أفضل مما عاناه رفاقنا الاردنيون في السجون الاردنية، التي صورها بحيوية وصدق زيادين السكرتير الأول للحزب الشيوعي الاردني، في ذكرياته «بدايات».

كانت قراءة الصحف ممنوعة على السجناء ولم تكن الإذاعة دخلت اليها وكنا نسمع في الزيارات النادرة بعض الأخبار. وقد سمعنا مثلاً نبأ صدور قانون العمل رقم ٧٢ لسنة ١٩٣٦ وكان صدوره يعود من جهة لنشاط الحركة العمالية النقابية وظهور الحزب الشيوعي، ومن جهة اخرى مجاراة لروح العصر وميل الطبقة الحاكمة للظهور بمظهر حضاري، وتلبية توصيات مكتب العمل الدولي لدى عصبة الامم التي صار العراق عضواً فيها منذ أربعة سنوات، وأخيراً لاحتواء الحركة العمالية الفتيه وسد الطريق أمام التيار الشيوعي كما كانوا يظنون.

وفي سجن كركوك التقيت عدداً من رجال العشائر من العرب والكرد المحكومين بأحكام ثقيلة، بالأشغال الشاقة في المجالس العرفية العسكريةومنهم من ثار ضد التجنيد الاجباري ومنهم من رفع راية التمرد ضد دكتاتورية يس الهاشمي / نوري السعيد بدفع من الفئات المعارضة من الطبقة الحاكمة ذاتها. ومن هذه الشخصيات: سلطان الولع، أحد رؤساء عشيرة الاعاجيب (اليعاقبة) من قبيلة بني حجيم (حكيم) وكان شيخنا طويل القامة عريض المنكبين. ورغم كبر سنه أدخلوه في دكان الحياكة في السجن وهو بالبيجامة السجنية التي لا تكاد تغطي ركبتيه وكأنه بجعة هرمة مهيضة الجناح. فقد كان أبيض البشرة نرجسي العينين. واجلسوه على بساط مفروش على الارض وسلموه غزل اللحمة ودولاباً صغيراً يلف عليه الغزل علىالنبوبة وشرع الأسير بعمله الجديد الذي لو رأته عشيرته يمارسه بين ظهرانيها لرمته بالجنون لممارسة هذه المهنة المزدراة لدى قومه الذين

لايزالون مرتبطين ايديولوجيا بحياة البدو الرحل. ولكن ماذا يعمل سلطان الولع الذي لم يكن له حول ولا قوة. وللضرورات أحكام! لم ينبس حتى ببنت شفة احتجاجاً ممتثلاً بالحكمة الفلاحية الاقطاعية: الايد اللي ما تكدر تشابكها بوسها!

كان سلطان الولع شخصية اجتماعية فلم يكن قادراً على أن يمضي يوم العمل ملازماً للصمت منكباً على دولاب التنبيب ينبب الغزل. فالتفت إلى جاره وكان يلف لنفسه لفافات تبغ. فخاطبه سائلا:

- ما تنطيني جكيرة؟ فكان الجواب:

- عربي نا زانم !

فهم الشيخ العربي الجواب رغم أنه لم يكن يعرف أية كلمة كردية ولكنه لم يصدق أذنيه فالتدخين في مضايف ديرته مشاع مادام هناك عند احدهم تبغ وورقة يلفه بها. والفلاح الكردي في العراق كأخيه العربي كريم بيد أن الكرم والضيافة تتناسب طردياً مع بعد المكان عن السوق.

وبعد فترة شعر سلطان الولع بوطأة الملل والتوق الملح إلى التدخين والتفت إلى جاره الاخر وسأله بصوت متوسل:

- ماتنطيني جكيرة؟ وكان الرد على الفور:

- عربي نا زانم!

فعيل صبر الشيخ وأمسك بالنبوبة بين ابهامه وسبابته ورفعهما إلى أعلى وهتف مهولاً:

- هيه! هيه! هيه! داير ما داير نازانم!

وقد روى لي سلطان الولع حكايات من ذكرياته ومنها حكايه: إذ نزلت عنده في أيام العصمنلي حضيرة جندرمة من عشرة أفراد وعلى رأسهم عريفهم وكان هو ملزما باستضافتهم ليس فقط التزاماً بالتقاليد العشائرية التي تتناسب طردياً مع بعد الشقة عن الاسواق، بل لأنه أيضاً سركال (رئيس عمل) فيتحمل المسؤولية الجماعية عن عشيرته أمام الحكومة بما في ذلك استضافة الجندرمة والجباة. فقدم لهم العشاء والفراش واستعار المزيد من جيرانه حتى جهز به الأنفار العشرة وبقي العريف بلا فراش فاعتذر سلطان الولع له لأنه لم يبق لديه المزيد من الفراش فثارت ثائرة العريف وصرخ بوجه الولع:

- آني يريد فراش من جوه الكاع!

وبقي مصراً على أوامره لا يتزحزح ولم تجد معه أية حيلة فخطرت للشيخ خاطرة جهنمية فأمسك بيد الجاويش يجره جرا ويقول له تعال نام مع نسواني. فارتعب العريف وأسقط في يده إذ كان يعلم علم اليقين أن خطوة واحدة نحو حريم النساء يمكنها في ذلك الوسط العشائري المتمسك بالتقاليد والحريص على العرض أن يؤدي بحياته وحياة أنفاره العشرة على الفور. فتخلى نهائياً عن موقفه الهجومي والتزم الدفاع المستميت ليخلص نفسه من قبضة الشيخ العملاق الحديدية في أيام شبابه تلك.

وكان سلطان الولع مهوالاً أي من مشاهير مرتجلي الهوسات الحربية من بني حجيم. وكانت قبيلته أكبر وأول قبيلة من بين ثوار ١٩٢٠ وقد عاقبها الانكليز بحرمانها من مشاريع الري ومنح أراضيها الزراعية إلى ملاكين متغيبين من سكان المدن. فكانت تتحرك بسهولة ضد الحكومة إذا ما وجدت التشجيع والمال من أي فئة معارضة. وعندما كانت تتابع الحكومات تبعاً لتوالي الانقلابات الصامتة التى يقوم بها ضباط الجيش في معسكراتهم دون الاعلان عنها كانت القبائل

أيضاً سرعان ما تغير ولاءاتها فتهوس مع هذا الملاك الكبير اليوم وضده غدا. وعندما تمكن الهاشمي نكل بهم. وكانت نهاية حكمه بالطبع تعنى انفتاح باب الفرج أمامهم. وكان نشاطي بينهم هو كتابة العرائض لهم في شتى الامور وكتابة رسائلهم الخاصة.

فوجئنا بخبر انقلاب بكر صدقي ونحن في السجن وتنصيب حكومة حكمت سليمان. وكان السجناء السياسون العشائريون ينتظرون بفارغ الصبر أصدار العفو العام عن المحكومين بالاحكام العرفية. وقد استقبل السجناء العرب انباء العفو العام بمرح وهرج. أما فلاحو سنجار «اليزيدية» المتحفظون جداً فلم يسمحوا لمشاعرهم بالطغيان بل قابلوا أمر العفو بصمت رهيب وكأن على رؤوسهم الطي، وكان هؤلاء الفلاحون الكرد من طائفة اليزيدية المعروفة بطقوسها الدينية السرية، وهي مزيج من الاسلام والزرادشتية كما يقال.

اطلق سراحي من السجن في تشرين الثاني /١٩٣٦/ بعد أن امضيت نصف مدة حكمي، أي سنة كاملة في السجن والتوقيف. وكان الجو بارداً ممطراً ونزلت ضيفاً على زميلي في الدراسة والوظيفة رشيد مطلك منتظرا مجئ مهدي هاشم الذي كان في سجن اربيل وركبنا القطار إلى بغداد سوية وبلغ عدد السجناء السياسيين الذين اطلق سراحهم عدة مئات على عدة دفعات وكنا نحن السجناء الشيوعيين آخر من اطلق سراحه ولم يتجاوز عددنا أصابع اليدين.

29

شيوعيان يقودان مظاهرتين في آن!

بعد الانقلاب بخمسة أيام تقدم لفيف من المثقفين من أنصار الانقلاب الذى ساهم فيه عبد القادر اسماعيل وكامل الجادرجي وجعفر أبو التمن وحكمت سليمان، تقدموا وعلى رأسهم يوسف اسماعيل البستاني بطلب إجازة لتنظيم مظاهرة مؤيدة للانقلاب في ٣/تشرين الثاني/١٩٣٦ وقد نظمت المظاهرة فعلا من طلاب كلية الطب والحقوق ودار المعلمين العالية... والخ وقد اربى عددهم على الألف وعلامات الكليات على صدورهم وساروا بكل مهابة ووقار من كلية الحقوق في باب المعظم (حيث الآن ساحة) و ولجوا شارع الرشيد بعدة مئات الأمتار والجماهير تصفق لهم وعلى رؤوسهم ترفرف الشعارات المؤيدة للانقلب حتى جامع الحيدرخانة حيث ألقيت الخطب.

وفي هذه الأثناء، جاءت مظاهرة أخرى، يقودها يوسف متى، مسؤول المنظمة الحزبية الشيوعية السرية في بغداد. وكانت أيضاً مؤيدة للانقلاب. ولكنها تختلف عن الأولى في بعض التفاصيل. فإنها انطلقت من الجنوب إلى الشمال أى من الاتجاه المقابل للمظاهرة الأولى. وبدأت منذ الصباح من البو جمعة والبو شجاع في الكرادة الشرقية. وبدأها عمال البناء وكادحون اخرون. وكانت تقرع الدمامات التى يستهوى إيقاعها اسماع الجماهير في العراق ويجرها اليها وكأنها المغناطيس. وكانت المظاهرة ترفع رايات الاطراف أي محلات بغداد. وسارت وهي تزداد زخماً وتتضخم وكأنها فيضان دجلة حتى بلغت ملتقى شارع الكيلاني بشارع الرشيد فالتحق بها رافد آخر صخاب من جماهير باب الشيخ بدماماته ورايات محلاته. وواصلت التدفق في شارع الرشيد دون توقف الا هنيهات للاصغاء إلى الخطب النارية لخطباء المظاهرة حتى بلغت جامع الحيدرخانة، ملتقى المظاهرتين، وقد ناهز تعدادها الخمسين الف متظاهر. ولم يحدث «ما يعكر صفو الأمن» سوى أن المظاهرة الجنوبية الجماهيرية كانت تحمل بعض الشعارات «الاستفزازية» ومنها شعار «الخبز للجوعان» الذى غدى موضوعاً لتندر بعض مؤيدي «الاصلاح الشعبي» لأن ثمن رغيف الخبز كان فلساً (مليماً) واحداً والخبز مكدس في الأسواق. ولكن شيئاً واحداً فاتهم وهو أن الفلس الذى كانت قوته الشرائية محترمة كان عزيزاً على الكادحين وكانوا يقتنصونه اقتناصاً. ومن الصعوبة بمكان اصطياده. فالبطالة الجماهيرية كانت واسعة النطاق ولم يبق للعاطلين أي مدخرات او مال او حاجة يبيعونها ليقتاتوا بها. فكان شعار «الخبز للجوعان» تعبيراً عن حاجة جماهيرية قصوى. ولكن الشبعانين لم يكن لديهم احساس بمثل هذه الحاجة. بيد أن الشعار الاكثر «استفزازاً» والذى تصدر المظاهرة كان «فلتسقط الفاشستية المجرمة» فقد أثار هذا الشعار ثائرة سفير ايطاليا الفاشية في بغداد. فقدم إحتجاجاً للحكومة. فأوقفت حكومة الانقلاب قائد المظاهرة الجماهيرية الكبرى لبضعة أيام وأمرت المحكمة بمصادرة الشعارات وإتلافها باعتبارها «مستمسكات جرمية» ولكن الفراش أي منادي المحكمة عزّ عليه أن يتلف القماش فأخذه إلى بيته

ليحشو به مطرحاً «دوشك» ينام عليه ابنه. وتشاء الصدف أن يسجن الابن مع قافلة من ثوار وثبة كانون ١٩٤٨ في سجن الكوت بعد اثني عشر عاماً حاملاً معه فراشه فيتناوله التنظيم منه لغسله مع حشوته وأعادته نظيفاً. ويفاجأ الجميع بالشعارات التاريخية فتثير ضجة مبهجة بين المناضلين الجدد المحكومين بسبب المشاركة في المظاهرة. وقد أسعدهم هذا الشاهد التاريخي من نضال شعبهم وحزبهم.

كان الشعار في حينه قد أثار أيضاً غضب بكر صدقي وضباطه الانقلابيين الذين كانوا ينعتون جميع الديمقراطيين بما فيهم كامل الجاجرجي «بالشيوعية» فهاجموه بسبب المظاهرة الجماهيرية وشعار «تسقط الفاشستية» فغضب الجادرجي بدوره على الحزب الشيوعي ووجه اهتمامه للهيمنة عليه وتجريده من استقلاله السياسي، بواسطة العناصر القيادية المائعة في الحزب من امثال قاسم حسن ومهدي هاشم الملتصقين على الدوام باعوان الجادرجي (حسين جميل وصادق كمونة) واستطاع قاسم ومهدي أن يسيطرا على حسن عباس الكرباس وعبد الرحمن الداوود للاستيلاء على اجهزة الطباعة والحيلولة دون مواصلة الحزب إصدار صحافته أو إعلان وجهات نظره المستقلة. كما استطاعوا شق منظمة الجنود الحزبية. وكان الجادرجي يخشى من وجود المنظمة العسكرية الشيوعية خوفاً من أن يحاول الحزب بواسطتها القيام بحركة انقلابية. وبلغ حقد قاسم حسن علينا إلى حد انه ادلى بالشهادة امام ضباط التحقيقات الجنائية ضدنا، على أساس أننا المسؤولين عن التنظيم العسكري السري. واقنع عبد الرحمن الداوود وكان مجنداً وكذلك نائب العريف علي عامر بالاعتراف والادلاء بشهادة ضدنا. وقد شهدا ضدنا فعلاً أمام حاكم الجزاء الاول عبد العزيز الخياط. فحكمنا بالسجن سنتين وسنتين مراقبة لأنه لم تكن قد شرعت بعد المادة (٨٩ أ) المعدلة في قانون العقوبات البغدادي التى تحكم بالاعدام على من ينظم ويروج العمل الشيوعي في صفوف الجيش. وقد علم الجادرجي بخيانة قاسم حسن هذه واعتبرها نقطة ضعف ومع ذلك أصبح قاسم حسن فيما بعد سكرتيراً للحزب الوطني الديمقراطي برئاسة كامل الجادرجي.

ومن بابة تأليب الشيوعيين القدامى ضدنا كانوا يستغلون ولاء هؤلاء للرفيق فهد الذى كان في الخارج في تلك الفترة (١٩٣٥ - ١٩٣٨) اتهمونا بالعداء لفهد. وعندما عاد فهد إلى العراق ليقود الحزب، قام نفس الأشخاص بالشغب ضده أيضاً وكشف أسرار الحزب الشيوعي لأعوان الجادرجي. وانشقوا عن الحزب مرة أخرى. وانتمى حسن عباس الكرباس إلى الحزب الوطني الديمقراطي وتقدم في المراكز الحزبية. ثم ترك طبقته بعد أن ترك حزبه. فقد كان عاملا فأصبح محامياً.

وحكم المجلس العرفي عام ١٩٣٨ على عبد الرحمن الداوود واثنين آخرين من الجنود بالاعدام بموجب قانون العقوبات العسكري ولكن بسبب اعترافهما وشهادتهما علينا تم استبدال الحكم بالحبس ١٤ سنة. وكان ذلك بالطبع الجانب المظلم من جوانب القمر الحزبي قدمته للقارىء لاعطائه صورة واقعية عن نشاطنا في السنة التالية لانقلاب بكر صدقي (١٩٣٦ - ١٩٣٧).

وحال اطلاق سراحنا من السجن عام ١٩٣٦ ساهمنا بنشاط في تحرير صحافة الانقلاب: «الاهالي» جريدة عبد القادر اسماعيل و «الانقلاب» جريدة الجواهري و«الحارس» جريدة مكي جميل شقيق حسين جميل. وقد عملنا بمنتهى نكران الذات ولم تنشر أسماؤنا تحت مساهماتنا وانتمينا إلى «جمعية الاصلاح الشعبي» التى كان يقودها الجادرجي لنساعدهم في تنظيم مركز الجمعية دون أن تعلن أسماؤنا أيضاً. كنا جادين في تثبيت كيان حزب يساري إلى جانب حزبنا الشيوعي ليكون ظهيراً له.

كانت حكومة يس الهاشمي قد سنت قانون العمل رقم ٢٧ لسنة ١٩٣٦ كما سبق ذكره. وكان قانوناً تقدمياً بالنسبة لأوضاع الطبقة العاملة في العراق عهد ذاك. ولكنها لم تضع القانون

موضع التطبيق. ولم يكن بالامكان تطبيقه تلقائياً ما لم تتحرك الطبقة العاملة شأنه شأن أي قانون في صالح الكادحين. وقد تحركت الطبقة العاملة بعد الانقلاب، في حكومة حكمت سليمان. وقد عالجت هذا الموضوع في كراس «ربع قرن من تاريخ الحركة النقابية في العراق» وقد كتبته في السجن وفيما بعد قبل ثورة ١٤/ تموز/ ١٩٥٨ ونشره الحزب في «اتحاد الشعب» دون ذكر اسم المؤلف ونشر ثانية في كراس مستقل بأسم طالب عبد الجبار.

لعب الحزب الشيوعي، وهو لا يزال وليداً دوراً نشيطاً في الحركة الاضرابية. وكان اضراب عمال المواني‌ء في البصرة نموذجياً في تنظيمه وشموله الحركة التضامنية التي رافقته. وقد جاء وفد من العمال المضربين إلى بغداد لمراجعة حكومة الانقلاب واستشارونا في من الوزراء يجب أن يزوروا ليتدخل ضد تعنت الميجر وورد مدير الموانئ البريطاني الجنسية الذي كان مثالا لرب العمل الاستعماري، فرعوناً في تعامله مع عبيده العمال. ولسوء الحظ أشرنا عليهم بمراجعة الجادرجي وزير الاشغال والمواصلات آنذاك ظناً منا أن هو المرجع المختص للمواني‌ء من بين جميع الوزراء. ولكن ويا للغرابة ! ظهر لنا بعدئذ أن السكك والمشاريع الاخرى التى انتقلت ملكيتها مؤخرا من الحكومة البريطانية إلى الحكومة العراقية كانت مربوطة بوزير المالية، ووزيرها آنئذ الزعيم ابو التمن. وقد كلفنا الخطأ هذا غاليا إذ اعتبر الجادرجي توجيهنا العمال لمراجعته «دسيسة» لاحراجه «مام اعدائه الرجعيين لسمعته اليسارية وحتى «الشيوعية» مع العلم أن الجادرجي قبل أن يصبح وزيرا، كان يفاخر بأنه «ماركسي» جهارا حتى في غرفة المحامين في المحاكم.

وقد نجحت الاضرابات العمالية على العموم وكان منها ثلاثة اضرابات كبرى ضد المصالح الاستعمارية مباشرة كإضراب عمال شركة «بلفور بيتي» المتعهدة ببناء سدة الكوت، وعمال بناء قاعدة الحبانية الحربية البريطانية، واضراب عمال شركة النفط (I.P.C.) الذى كان امتداداً لاضرابهم العام في البلدان العربية المجاورة: فلسطين وسوريا ولبنان.

وقد حملت الحركة الاضرابية في المشاريع الكبيرة ومنها السكك الحديدية، حكومة الانقلاب على تحديد ساعات العمل لصالح العمال (٨ ـ ٩) ساعات تنفيذاً للنص الوارد في قانون العمل الملزم بتحديد يوم العمل حسب اتفاقيات جنيف.

وقد نص قانون العمل على تنظيم العمال في نقابات واتحادات طبقاً للمشاريع والفروع الصناعية. ولكن محمد صالح القزاز رئيس الاتحاد النقابي الملغى رسمياً أبى أن يقدم طلباً جديدا وإعادة تنظيم نقاباته طبقاً للقانون الجديد، بل بقي مصراً على إعادة الاجازة السابقة الملغاة، التى تجمع في صعيد واحد عمال مختلف المهن والصناعات وصغار أرباب العمل.

وقد تحركنا نحن فساعدنا سواق السيارات على تنظيم نقابتهم باسم «نقابة سواق السيارات ومساعديهم» وقد اجيزت فعلاً وباشرنا العمل مع عمال السكك لاعادة تنظيم نقابتهم وطلب اجازة حسب القانون الجديد. ولكن المنشقين خربوا جهودنا بتأثيرهم على خليل عباس شبر، وكان عامل سكك مثقف ومتخرج من لندن. وكان مترددا وواقعا تحت تأثير حسن عباس الكرباس، الانشقاقي. وضاعت الفرصة بعد سقوط حكومة الانقلاب. كان المنشقون عن حزبنا من اتباع الليبرالية آيديولوجياً وسياسياً. فكان نشاطهم منصباً ضد النشاط المستقل لحركة الطبقة العاملة، مما ساقهم إلى الاعمال التخريبية بين العمال والجنود وغيرهم.

وعلى أثر نجاح الانقلاب حل المجلس النيابي الموروث مما قبل الانقلاب. فانعقد المجلس النيابي الجديد الذى تم جمعه من قبل الحكومة بالطريقة التقليدية. فضم بين أعضائه ،اعضاء الهيئة الادارية لجمعية الاصلاح الشعبي، ومن بينهم عبد القادر اسماعيل وعزيز شريف ومحمد حديد وصادق كمونة... الخ أما الاكثرية الساحقة فكانت حسب العادة من روؤساس العشائر

والوجهاء الوؤيدين للحكومة، والذين يمكن أن ينقلبوا ضدها لدى أول إشارة من البلاط أو من السفارة البريطانية أو من الاثنين معا.

وبتشجيع من بكر صدقي وضباطه الانقلابيين قام في المجلس النيابي بوقان من ابواق الرجعية هما: روفائيل بطي صاحب جريدة البلاط والمحامي سلمان الشيخ داوود. وكانا من النواب المزمنين في العهد الملكي، قاما بشن حملة ضد جمعية الاصلاح الشعبي بأعتبارها «حزبا شيوعياً» وكان محمد حديد اشجع النواب التقدميين تصدياً لهما. وقد تحدى هذه الحملة بعد أن تفاقمت الزعيم ابو التمن نفسه فقال في اجتماع مجلس النواب امام الملأ مقولته المأثورة إذا كانت مناصرة الفقير وإنصاف المظلوم: «شيوعية فاللهم اشهد انني شيوعي» وفي الختام تكلم حكمت سليمان رئيس الوزراء وباسلوبه الدونكيخوتي الشعبي قال «اللي يهاجم الشيوعية بعد الان ترى اودي إلى فرد مكان بعد محد يدري بيه وين».

كان حكمت سليمان يعلم أن وراء الحملة بكر صدقي وضباطه، ومن ورائهم سفراء المانيا الهتلرية وايطاليا الفاشستية. وفي تلك الفترة أطلق بكر صدقي تصريحه المشهور «لن تنبت جذور الشيوعية في العراق إلا إذا نبتت النخيل في جبال النرويج!» وقد مارس بكر صدقي وضباطه شخصياً ووجاها الضغط وفيما وراء الكواليس على أبو التمن والجادرجي وحلفائهما من الوزراء لاحتوائهم وقمع أي نشاط معادي للفاشية. كان بكر صدقي يعلق آمالا جساماً على دول المحور الفاشي للحصول على السلاح، الذى رفضت بريطانيا الحليفة تزويد العراق به بموجب معاهدة١٩٣٠ ولم يسعفه المحور بالسلاح باستثناء خمس طائرات من قاذفات القنابل الثقيلة، زودته بها ايطاليا.

واستمر ضغط بكر صدقي على الوزراء اليساريين لحملهم على الاستقالة. ولم يستقيلوا الا بعد تمرد عشائر السماوة وقمعهم بوحشية على يد بكر صدقي، ونقل رؤوسائهم في قيض حزيران ١٩٣٧ بعربات الحمل المقفلة على الخط الحديدي من السماوة إلى بغداد. فقدم أبو التمن والوزراء التقدميون استقالتهم، احتجاجاً على الفور وسافر المستقيلون إلى الخارج للاصطياف، بإستثناء ابو التمن الذي بقي خلافاً لعادته في الصيف تحدياً للضباط وكان يعبر جسر الاحرار يومياً مشياً على الاقدام.

وجاءت نهاية بكر صدقي بعد ذلك بقليل في معسكر الغزلاني في الموصل على يد عريف اغتاله بالمسدس وهو يقدم له المنشفة اليدوية كما اغتال معه آمر القوة الجوية محمد علي جواد وكان وطنياً شهماً وجسوراً ولم يكن يميل لدول المحور. وكان من منفذي انقلاب ٢٩ / تشرين الاول / ١٩٣٦

لقد حاول الجادرجي عبثاً أن يسترضي الضباط الموالين للمحور بما في ذلك تجميد جمعية الاصلاح الشعبي بعد إجازتها من الحكومة. وتقديم طلب جديد بإسم «حزب الاصلاح الشعبي» وادخال أسماء أبواق الرجعية كرفائيل بطي وسلمان الشيخ داوود بين أسماء الهيئة المؤسسة الجديدة. فثارت ثائرة الجواهري ورد على الفور، بمقال افتتاحي بعنوان صارخ مفاده: ما هذا التراجع؟! وما هذا التخاذل؟! لا اذكره بالضبط بيد أن هذا كان مضمون المقال. واحتجاجا على استسلام الانقلابيين غير اسم جريدته من «الانقلاب» إلى «الرأي العام» بيد أن الحزب المذكور لم يتأسس في حين اغلقت الجمعية أبوابها. وكان النواب الرجعيون قد اقترحوا في المجلس النيابي اقامة تمثال لبكر صدقي، قبل مقتله، كجزء من الحملة ضد التقدميين. فلم يوافق المجلس.

وكان آخر عمل مارسه الجادرجي ضدنا الضغط إلى حد لا يقاوم على عبد القادر اسماعيل لإقصائنا أنا ويوسف متي عن العمل في جريدة الاهالي وإحلال قاسم حسن ومهدي هاشم محلنا.

وبعد ذلك بأيام، استقال الوزراء التقدميون وسكروا الجريدة من تلقاء أنفسهم وسافروا إلى الخارج كما أسلفت. وعندما بلغنا عبد القادر إسماعيل بقرار إقصائنا كان محرجا جدا ومترددا فبادرناه نحن بأننا نعلم بما تم وصارحناه فعلا بما يريد قوله وودعناه لنلتقيه ثانية بعد واحد وعشرين سنة أي بعد ثورة ١٤/ تموز/ ١٩٥٨ بعد أن عاد من منفاه في خارج العراق وخرجنا نحن من السجن داخل العراق وطننا الذي كان سجناً هو بدوره وتابعاً من توابع الناتو وعضو السنتو وعضواً في مكافحة الشيوعية التابعة للسنتو.

لقد كان انقلاب ٢٩/ تشرين الاول/ ١٩٣٦ إئتلافاً قلقاً بين الحركة الوطنية الديمقراطية وحركة الضباط ذوي الميول الفاشية. ولم يكن مثل هذا الائتلاف القلق ليعيش لمدة تستحق الذكر بعد إزالة العدو المشترك، حكومة الهاشمي ولكن رأي الجادرجي كان مخالفاً في تعليل انهيار الائتلاف. اذ كان يرى أن الذي أجج الخلاف بين الطرفين هو تطرف الشيوعيين الذين رفعوا في المظاهرة الجماهيرية الكبيرة لتأييد الانقلاب شعار «تسقط الفاشية المجرمة» مما أثار غضب سفارات المحور: برلين روما ومن ورائها ضباط بكر صدقي الذين كانوا يعولون عليها في التخلص من الانكليز. ولم يستطع القوميون اليمينيون من أي حزب كانوا سواء من أعوان بكر صدقي أو من الد أعدائه الذين كانوا يظنون أن هدفه هو اقامة دولة كردية منفصلة ولم يستطيعوا هؤلاء واولئك أن يفهموا أن الفاشية عدوة الشعوب وانها العدو الرئيسي من بين جميع الاعداء من القوى الإمبريالية ولم يكن بإمكاننا أن لا ننبه الجماهير إلى خطر الفاشية التى كانت قد ابتلعت تواً الحبشة «اثيوبيا» أقدم دولة افريقية مستقلة.

30

حلم ليلة في منتصف الصيف

وذات أمسية من عام ١٩٣٧ كنا في السينما الوطنية في المربعة من شارع الرشيد أنا ويوسف متي نشاهد فيلما لمسرحية شكسبير «حلم ليلةٍ في منتصف الصيف». كان الفلم تصويرا صادقاً للحلم كما كان ظلام دار السينما خلال العرض ليلاً بهيماً والسكون والظلام مخيمان على الحالمين. وكان النجم جيمس كاغني وهو من عمالقة هوليود في أيام عزها ، يلعب دوره الاخاذ جاذبا الانظار يشرب الماء من الساقية المسحورة وإذا به يتمرفج حماراً لحظة فلحظة ويعبر وجهه عن دقائق الكآبة المأساوية التي تحل بالانسان عندما ينتزعون منه إنسانيته. وتمضي لحظات قبل أن تمزق السكون والظلام جميعاً لا بروق الرعد بل صرخةٌ أنسية لروح فتية تغادر الحياة فجأة وقبل الأوانِ.. هل هي صرخة الانسان الذى مسخ حماراً لتوه؟ أم صرخة احتجاج على مسخ الانسان حمارا؟

وتعالت الاصوات: اشعلوا الأضواء! اشعلوا الأضواء! والتم الناس على كتلة سوداء وسط بركة من الدم. وإلى جانبها كهل قميء وبيده سكين لا يزال الدم الحار يقطر منها. كانت ابنته وقد جاء ليغسل عاره بدمها! وقف كتمثال من الشمع بلا خلجات انسانية على وجهه المقنع بقناع أصفر فاقع. وتعالت الصيحات خذوها للمستشفى! اسعفوها! وبعد مشوار طويل جاء ضابط الشرطة ليحقق في «الحادث» ركلها بخرطوم حذائه سائلا إياها عن اسمها! ولو جاء معه رجل اسعاف لربما انقذ حياتها. بيد أن «الانقاذ» لم يكن يخطر على بال السلطات! فالمهم عندها هو من الفاعل؟ والحال أن الفاعل قد بقي واقفاً ملازماً لفعلته يقبض على سكين يقطر دماً ولم يحاول قط مغادرة المكان فلم يكن يهتم بالعقوبة لثقته بمراعاة القوانين له بل كان همه أن يثبت للملاء وأمام أنظار الجميع إنه هو، أبوها، وليس غيره، الذى ذبحها بطعنة واحدة وكانت الضحية في ريعان شبابها وقد غادرت أهلها في الموصل وجاءت إلى بغداد لتعيش على هواها..

وانقلب حلم ليلة في منتصف صيف إلى كابوس ثم إلى يقظة رهيبة مباغتة على موت يافع قبل أجله المحتوم.

31

الانقضاض على المنظمات الشيوعية في الجيش

اعتقلت للمرة الثانية في تشرين الثاني ١٩٣٧ بعد كبس التنظيم الشيوعي في الجيش واعتقال كوادره من جنود وضباط صف على يد الاستخبارات العسكرية التى كانت خططها أشد حبكاً من خطط الشرطة «التحقيقات الجنائية» فبعد نجاح انقلاب بكر صدقي وصدور الصحافة الديمقراطية تصاعد نشاط الشيوعيين في فوجي المخابرات «اللاسلكي» الاول والثاني في بغداد وكركوك وانتشر النشاط في الافواج والكتائب الاخرى وجرى هذا النشاط المتصاعد على حساب سرية العمل والصيانة والضبط الحزبي والدقة في التنظيم وهي الامور الاساسية في منظمات الحزب ولا سيما منظمات الجيش. وضرب عرض الحائط بنظام الخلايا الصغيرة التى كان يجب ألا يتجاوز اعضاء الواحدة منها الـ (٣ ـ ٥) بل كانوا يعقدون الاجتماعات الموسعة في كاوورباغي الشهيرة في كركوك ويحظر الاعضاء المدعوون الجدد لأول مرة وينبري الخطباء لالقاء الخطب النارية عن الثورة العتيدة التي كانوا يتصورونها على نمط الانقلاب العسكري الكلاسيكي على أساس الكتمان والمباغتة ليباغتوا، ليس الاعداء فقط بل الشعب أيضاً، بانتصار الثورة. وحضر أحد عرفاء الاستخبارات العسكرية في أحد الاجتماعات وما أن انفض الاجتماع إلا وأخبر أحمد الراوي عقيد ركن الفرقة في كركوك بما سمعه ورآه فأمره العقيد بمتابعة اندساسه وجمع المعلومات عن نشطاء الشيوعيين الذين انتشرت بينهم الاستهانة بكشف المعلومات السرية عن التنظيم ولا سيما بعد مقتل بكر صدقي لاعتقادهم انهم مقبلون على «عمل حاسم» فما الداعي للتكتم على صانعي الثورة بالذات؟!

وبعد جمع المعلومات الكافية عن النشطاء الشيوعيين في جميع الوحدات العسكرية في العراق ابرقت الاستخبارات العسكرية برقية بأسمائهم مع الأمر باعتقالهم فوراً وفي ليلة واحدة. وقد تم ذلك بالفعل وبسبب النشاط الانشقاقي لزمرة قاسم حسن ومهدي هاشم انتشرت اسماؤنا الصريحة على أفواه الجميع فجاء اعتقالنا وايداعنا في سجن التوقيف انا ويوسف متي وحسن عباس الكرباس. ولم يدر حاكم تحقيق الرصافة باي تهمة يجب اعتقالنا ومع ذلك نفذ الأمر وفق المادة (٨٩ أ) من قانون العقوبات البغدادي التى تحرم أي دعاية وتحريض في الجيش ضد الحكومة بأي وسيلة كانت وحتى بالاشارة او الايماء.

وجاءنا معتقلاً أيضاً ويا للمفاجأة جميل توما. رافعاً عقيرته وبأعلى درجات صوته صارخاً: مونتي كريستو! وبعد أن هدأ اوضح لنا جلية الامر وكان بعيداً كل البعد عن موضوع نشاطنا في الجيش وعن أي نشاط حزبي منظم. وكل ما في الامر هو أن خصومه في سكك الحديد تآمروا عليه ليعتقل معنا تخلصا من نزاهته بعد أن عاد إلى وظيفته بفضل الانقلاب كما تآمر خصوم مونتي كريستو عليه في غابر الايام كما تحكي الرواية بقلم دوماس. وقد أفرجت الحكومة عن جميل توما فيما بعد إذ لم يأتي اسمه على لسان أحد من المعتقلين.

كانت أيامٍ التوقيف مع جميل توما مسلية ومثقفة جداً فكان متحدثاً طلي اللسان واسع الاطلاع ومهندساً مدنياً ممتازاً واسع المعرفة في مهنته وقد تخرج من أعلى معهدٍ للتكنولوجيا في أمريكا (ماسوشوستس انستيتوت اوف تكنولوجي MIT) وكان عفيف اليد نزيهاً ومن هنا كثرة خصومه في جهاز السكك الحديدية. وكان بعد تخرجه في أواسط الثلاثينات قد قام بجولة حول الارض، زار خلالها الاتحاد السوفيتي من مشرقه إلى مغربه وحدثنا احاديثٍ شيقة عن زيارته تلك. وكانت نقطة ضعفه هي عادة اصطياد الذباب بكفه اذ يتصدى لها جبهوياً ويدعكها دعكاً فيخمد أنفاسها على الفور ويلقيها جانباً وهي جثة لا حراك لها وقد تعلمها في بلاد العم سام وكان يمارسها في الموقف بشغف.

حوكمنا أمام عبد العزيز الخياط أيضاً ولسوء حظه لم تكن المادة القانونية التى تحكم بالاعدام على من يبث الدعاية الشيوعية في صفوف القوات المسلحة قد شرعت بعد. فلم يتسنى له سوى الحكم علينا نحن الثلاثة المدنيين يوسف متى وحسن عباس الكرباس وأنا بالسجن سنتين وبالمراقبة البوليسية سنتين اخريين لكل منا. ووزعونا كالعادة على سجون العراق.

لم يتقدم أي محامي للدفاع عنا فقررنا أن نوكل محاميا بأجرة قدرها (١٥) ديناراً دفعها عبدٍ متى ٍشقيق يوسف وكان عامل فندق. وكان غرضنا الوحيد من توكيل المحامي أن يكتب محضراً دقيقاً وليحد وجوده في قاعة المحكمة من تلاعب الحكام بالمحضر الرسمي وليكن شاهدا لدى الملأ على خيانة قاسم حسن للحزب ودوره في كشفنا للشرطة السرية وقد نفذ المحامي هذه المهمة بأمانة يشكر عليها وهو المحامي عبد العزيز جميل ابن عم حسين جميل.

وعندما شهد عبد الرحمن الداوود علينا وكان محكوماً بالاعدام كشف عن تحريضّ قاسم حسن له للشهادة ضدنا. فلم نوجه له أي سؤال لئلا نِحرجه وهو مثقل بسلاسل المحكوم بالاعدام. وكان حسن عباس الكرباس يعرف بخيانة قاسم سلفاً ومع ذلك فقد زامله فيما بعد في عضوية اللجنة المركزية للحزب الوطني الديمقراطي زهاء ١٦ سنة بعد أن ترك الحزب الشيوعي لخلاف بينه وبين فهد دار حول كيفية صيانة أدوات الطباعة الحزبية كما يدعي هو نفسه.

وعلى أثر محاكمتنا صدرت المادة القانونية التى تنص على الحكم بالاعدام حتى الموت على من يروج الشيوعية في صفوف القوات المسلحة وقد رفضت محكمة التمييز أن يكون للمادة أثر رجعي أي رفضت تطبيقها بحقنا.

32

في سجن الأشغال الشاقة

لقد أمضينا مدة الحبس حتى آخر يـوم منهـا، دون أن تشـملنا الاعفـاءات الملكيـة التـى تمنـح لسائر السجناء غير الشيوعيين. وفي هذه المرة أيضاً اودعت سجن كركـوك المركـزي. وواصـل عقيـد ركن الفرقة أحمد الراوي ملاحقتنا وضغط على إدارة السـجن لنقلنـا إلى سجن الحويجـة للاشـغال الشاقة. وكان السجناء يشقون قناة الحويجة التى تخترق احياناً صخوراً صلبة من الصـوان فكـانت معاولهم تقدح شرارا متطايرا ما أن تهوي سنانها على الصخر الاصم وقـد رأيـت هـذه الشـرر بـام عيني. وكان أشد الرجال هـم الذيـن يضربـون بالمعـاول والسـجناء الاضعـف كـانوا يحملـون علـى ظهورهم التراب في أكياس القنب الهندي (الكونـي) المفتوحـة يحملونهـا علـى ظهورهـم فيهـتزون تحتها ليتسلقوا بها كتف القناة الذي ينوف ارتفاعه احيانا على طابقين او ثلاثة. وتسوقهم عصـى الخيزران الصفراء ولسع ضرباتها على الظهر كلسعة الصل وهي بايدي زبانية الجحيم لتسوق عبيد الاهرام الأرقاء وجلهم من افقر الفلاحين المعدمين من العـاجزين عـن دفـع الرشـوة لادارة السـجون ليتفادوا اسوأ انواع العمل الشاق. كان عمل السجناء القاتل هذا بلا اجرة سوى الاكـل وهـو يكفـي لبقاء الروح في الجسد. وكان جـلاوزة السجن يحصـون عليهـم انفاسـهم ويراقبونهـم حتـى عندمـا يتغوطون ومرة وقف احد الجلاوزة يراقب سجيناً طـال وقـت جلوسـه فلمـا نهـض رأى أن تحـت السجين لم يكن سوى براز كلب جاف. فقال للسجين:

ـ ويلك ما هذا ؟ هذا ليس غائط آدمي! فرد السجين من فوره:

ـ أنت على رأسي وبيدك عصى الخيزران فكيف اتغوط مثل الاوادم؟!

لم يكن للانسان حرية أو كرامة تحترم في ذلك السجن حتـى في أداء أبسـط حاجاتـه الطبيعيـة من جانب كلاب حراسة الاقطاع والاستعمار إلى جـانب ذلـك كـان «العقـد النقـدي» يحـل محـل «العقد الاجتماعي» فكلما زادت الرشوة خفت الاعباء عن كاهل السجين وازدادت امتيازاته حتـى أن بعضهم (من التجار المحتالين) كان يتمتع بغرفة خاصة وبالخدم والغلمان والمخـدرات يحملهـا اليه السجانون وتزداد الاعباء على السجين كلمـا ازداد ادقاعـاً وفقـرا. وقـد جمـع ضبـاط السـجن وعرفاؤه الاموال الطائلة من سـرقة أرزاق السـجناء علـى شـحتها. وكـانت البيروقراطيـة السـجنية المتعفنة تتخـذ مـن بعـض السـجناء وكـلاء كـانوا أشـد وطـأة وتكـبرا وتفسـخا مـن اداري السـجن وجلاوزته في امتصاص دماء السجناء البؤساء اذ كانوا يعيشون بين هؤلاء ويعرفون كل نقاط ضعفهم ليتسلطوا على آخر ما يتبقى لديهم وكانت ادارة السجن تثير الشقاق بين السجناء لتقهرهم جميعـا ولاسيما عندما يتصاعد سـخط السـجناء أو يكـاد بركـان غضبهـم ينفجـر. وكـانت انظمـة السـجن ومصطلحاته ميراثاً من اداري الاحتلال البريطاني للعراق. وكان السجناء المعدمون لا يملكون حتـى شروى نقير، أي شراء قدح من الشاي الذى كـان يبيعـه سـجناء متـاجرون شـركاء ضبـاط السـجن

بفلس واحد للقدح الصغير «إستكان» (الاسم روسي المعرب عراقياً شأنه شأن معينه الأكبر السماور أي الغلاية والجاي الذي يحضر بالقوري).

وكان ثمن شفرة الحلاقة الالمانية علامة «مينورا» فلساً واحداً فقط بيد أنها كافية لحلاقة عشرة رجال ولكن فقراء السجناء لم يكونوا يملكونها فيبحثون في القمامة عن زجاجة « بطل» ليكسروها ويحلقوا بشظاياها رؤوسهم فتتفجر ينابيع الدم من النتوءات في جلدة رؤوسهم المصابة بأمراض سوء التغذية فهل هناك بؤس مماثل لهذا حتى بين العبيد الارقاء من بنائي الاهرام؟!

لقد شق هؤلاء السجناء قنوات الصقلاوية وابو غريب في غربي بغداد والحويجة ليموت المئات منهم وينعم ببركاتها مجاناً شيوخ القبائل وكبار الافندية وغيرهم من الملاكين والتجار ولتسلب من الفلاحين العشائريين أرض آبائهم وأجدادهم ولتتنازل الدولة عن الخراج (ريع الارض) لصالح الملاكين الجدد الغرباء عن زراعة الارض وأهلها.

عاد فهد إلى العراق عام ١٩٣٨ بعد غياب ثلاث سنوات ونحن في الحبس ولمّ شعث الحزب وأصدر جريدة سرية بإسم «الشرارة» بمساعدة عبد الله مسعود القريني. ولم نعلم طيلة سجننا بهذه الاخبار إذ لم تصلنا أية رسالة ولم يزرنا أحد حتى من أهلنا لما لاقوه بسبب نضالنا. فقد فصل أخي من الجيش وامتهن سياقة التاكسي ليكسب أسباب معيشته ومعيشة أمي.

إن انقطاعنا عن العالم وعن الحزب قد أضعف موقفنا تجاه إدارة السجن ومع ذلك كانت هذه تحاذر من تشديد النكير علينا لئلا نؤلب السجناء ضدها ولئلا نفضح فسادها. والسجناء على العموم يتعاطفون معنا عندما يعلمون أننا نناضل من أجل الفقراء. وكنا نكتب لهم العرائض والرسائل ولوائح الدفاع والاستئناف مجاناً ودائماً بصبر وأناة. وكان سجن الحويجة في لواء كركوك يضم سجناء من جميع الالوية والقوميات والطوائف وتسمع فيه جميع اللغات واللهجات العراقية. وفي هذا السجن رأيت فلاحين فقراء لا أدري من أي طائفة هم، كانوا يتحرجون من قتل القمل بعد أن يلتقطونه من ثيابهم فيرمونه على الارض ليموت فيما بعد جوعاً أو برداً أو يلجأ إلى جسم سجين آخر ليحل ضيفاً متطفلا على دمه. كانوا يعتبرون قتل القمل محرماً «كناحة» (جنحة)! ولم أعرف التعليل الديني لذلك أهو بسبب نجاسة الدم البشري في بطنه أم أن إزهاق الأرواح على العموم كان محرما لديهم! وكان المركب الكيمياوي الشهير قاتل الحشرات DDT حديث الظهور ونادر الحضور. فكنا نكافح القمل وكان اكثر غزارة من النمل بالتقاطه من ثيابنا وقصعه بأظافرنا وكان لذلك صوت على ضالته مسموع مقرف وتسنى لنا أن نرى أنماطاً لا عد لها من هذه الدويبة سواء من حيث تعدد صورها أو شفافيتها أو تلاوينها. وكان لإنتشاره علاقة مباشرة بفقر الفلاحين المدقع وجهلهم وربما ببعض الافكار الدينية الغريبة. وكان القمل ينتقل بسرعة فائقة بين السجناء بسبب تلاصق أفرشتهم المفروشة على الارض فبالكاد كان يستطيع السجين أن يتقلب ذات اليمين وذات الشمال دون أن يهز جاره.

وقد تميز السجن في هذه المرة بوجود سماعات للإذاعة منصوبة في فناء السجن مفتوحة طيلة أوقات البث. ومنها سمعنا خبر وفاة الملك غازي مع التقرير الطبي الرسمي. وكل من سمع الخبر قال في نفسه أو جهاراً قتلوه! وكان ضمير الجمع الغائب المتصل الفاعل يعود للانكليز وعملائهم وهكذا أيضاً استقبل الشعب العراقي على العموم النباء. اذ كان غازي قد نصب في قصره جهاز راديو للبث وعلامته بلبل آلي يصدح أهدته له اليابان. وكان يبث تعليقات الملك نفسه وقد ركز احاديثه وتعليقاته على المطالبة بضم الكويت إلى العراق. ومن هنا ربط الناس بين مقتله «في حادث سيارة مؤسف» ربما بعد خلخلة عصا القيادة «الرود» وبين الانكليز واعوانهم من بطانة

نوري السعيد الذين كانوا يتابعون غازي كظله. وكان هو مولعاً بالسياقة بنفسه بأقصى سـرعة بعـد أن يشرب ثلاث أرباع اللتر من الويسكي الأمر الذي يؤدي إلى الكارثة المحتومة في حالـة تخلخـل عصا القيادة.

ومن مذياع السجن أيضاً سمعنا نباء إنـدلاع الحـرب العالميـة الثانيـة في أوروبـا والتـى ابتـدأت بهجوم هتلر عل بولونيا.

33

نواعير عانة

بعد أن أمضينا مدة الحبس حتى آخر يوم منها خرجنا من السجن دون أن يحفل بنا أحد. بل أن رفاق السفر كانوا يشنون حملة ظالمة ضدنا بالقاء مسؤولية جميع الاخطاء والتقصيرات على عاتقنا إذ كانوا يعتقدون أن الاجهاز علينا سياسياً أمراً لا مفر منه لاثبات وجودهم كقادة للحزب، في حين أن الحكومة لم تكف عن مطاردتنا حتى في مجال البحث عن لقمة الخبز. وقد عثرت على عمل بائع مرطبات في كازينو في شارع أبو نؤاس كان صاحبه ضابطاً في السابق من ضباط الجيش. فأثار عملي هذا إعجاب المثقفين الطيبين وهنؤني على هذه «الجرأة» ومنهم جميل جموعة أستاذ الكيمياء وصاحب معمل كيمياوي صغير كان يعمل فيه كعامل, فهد نفسه. ولكن هذا العمل أثار ضنون الشرطة فجاء معاون مدير شرطة الكرادة وكان من خريجي كلية الشرطة في لندن. واتخذ مجلسه على إحدى الطاولات وبيده الغليون يراقبني من خلال نفثات الدخان الشفاف.. وفي اليوم الثاني سدد صاحب الكازينو اجوري للايام القلائل التى عملت فيها وصرفني نهائياً دون أن يبوح بالسبب أو يعتذر بأي عذر.

وبعد أيام القت الشرطة القبض علينا، أنا ويوسف متي. لتبعدنا إلى عانة وتضعنا تحت مراقبة شرطتها. كنا خاليي الوفاض إلامن بضع دراهم ولكننا لم نحفل بذلك فقد عدنا ضيوفاً على الدولة وهي الملزمة الآن بإطعامنا وإيوائنا وبذلك خلصنا من عناء البحث عن العمل ولقمة العيش!

كانت الرمادي أول محطة لرحالنا. احتجزونا في مركز شرطة الخيالة حيث كنا نمضي جل وقتنا في حانوت الشاي. كان ذلك في آب/١٩٤٠ بعد أن إنهارت فرنسا تحت اقدام الهتلريين وكانت تدور «معركة بريطانيا» اذ كان الطيران الهتلري يقصفها يوماً بعد يوم على مدى الساعة وكان كابوس الهتلرية مخيما على العالم.

كان صاحب «الجايخانة» من أرباب السوابق، لصاً قديماً فطناً ظريفاً ذلق اللسان مشوق الحديث رغم أنه كان هزيلا ويتحدث وهو مبهور الانفاس جراء ما عاناه من حمى البرداء «الملاريا» وقد حدثنا طويلاعن عانة حيث كان محكوما بالاقامة الجبرية تحت مراقبة الشرطة. وكان متحاملا على عانة وما فيها. وكان هجاؤه لها يدورعلى فقر أهل عانة وشحة مؤنها وحرص أهلها على ما لديهم من قليل. حدثنا قائلا: عندهم نخيل ولكن كم؟! لكل عدة عوائل نخلة واحدة مشتركة وفراخها « عش» اذ انهم لا يفردون الفسائل عن الام بل يتركونها حيث هي عالة على أمها لتثمر بدورها. فليس لديهم أرضاً يزرعون الفسائل الوليدة فيها ويحرسون العش حراسة مشددة فيرجبون عليق النخلة بالشوك أو العوسج أو الحسك بحيث يستحيل على العصفور أن ينفذ من الرجيب لينقر التمرة إلا إذا جازف بإحدى عينيه أو بكليتهما معاً. وما أكثر العصافير العور في عانة وعندما تحين القسمة يلتئم جميع الشركاء أو الورثة لينالوا كل حصته ويحملها بكفه إلى أهله.

أما الكمثرى أو السفرجل أو الحيوة «جوافة» أو سمها ما شئت فليست عديمة الوجود في عانة شأنها شأن الارطاب الاخرى ولكن كم تنتج وما نصيب الفرد منها؟ وشجرة الكمثرى محرمة أيضاً شأنها شأن عمتنا النخلة والاشجار المثمرة الاخرى. ولا يدنو منها أحداً من بني الانسان أو الحيوان حتى تينع ثمارها ويحين قطافها فيهتف شيخ الحارة: وإني لقاطفها.

ركبنا السيارة في طريقنا من الرمادي إلى عانة، منفانا، وكان في حراستنا افراد من الشرطة المسلحة من العانيين وقد ركب عريفهم جنب السائق وكان رأسه أصلع قليلاً من وسطه ولا يزيد حجمه عن حجم جوزة الهند (جوز النارجيل) وكان يتحدث عن عانة مغرياً إيانا بمثوانا الجديد حديثا طويلا مادحا إياها بخلاف اللص الظريف صاحب (الجايخانة) وكان يعرف القراءة وقليلا من الكتابة مثله مثل سائر العانيين فتحدث عن تاريخها نقلا عن «معجم البلدان» لياقوت الحموي، الجغرافي العباسي ذائع الصيت، مدعياً أن الحموي قال في مديح نساء عانة إنهن «نسيج الخام» كناية عن رواء بشرتهن البيضاء وربما أن ماقاله الحموي هو «ونساؤها ينسجن الخام» ولا أقول هذا لا ابخس شأن جمال النساء في عانة بأي حال من الاحوال وأنى للغربال أن يحجب شموس عانة!!

وكان الكهول هم الذين يغزلون القطن الذي يزرعونه في عانة طوال العصور والازمان وتنسجه النسوة خلافا للمألوف في سائر أنحاء العراق حيث النسوة يغزلن والرجال ينسجون ولله في خلقه شؤون! وكانت عانة تزرع القطن الملون المائل للحمرة أو الخضرة قبل أن يصطفيه علماء آسيا الوسطى السوفيتية بقرون. وقد رأيناه رأي العين.

أما الارطاب فقد حدثنا الشرطي العاني عن وجودها جميعا باستثناء البرتقال فرد عليه فوراً الشرطة الاخرون رداً حازماً سريعاً مفحماً اذ اكدوا أن شجرة منه قد غرست في بستان السيد أحمد الراوي في الجزيرة الفلانية في وسط مجرى فرات عانة وانها اثمرت ثماراً من ذهب!

وكانت كلتا الروايتين: رواية الشرطي العاني ورواية اللص الانباري متفقة في الجوهر وان كان الأول يقول أن نصف القدح ملآن والآخر يقول نصف القدح فارغ. فالكمثرى موجودة ولدى القسمة يصيب كل عائلة عانية بالمعدل الوسطي ثمرة واحدة كاملة فتتلقفها الجدة وتلفها بالقطن الخام «اللوكة» وتدفنها في خزانة الثياب طيلة فصل الشتاء أو حتى يحول عليها الحول. وإذا ما مرض احد افراد العائلة، تحمل الكمثرى الملفوفة بالقطن وتدنيها من خيشوم المريض فيستنشق عبق عبيرها الفواح فيسترد انفاسه للتو واللحظة فتعيدها على الفور إلى الصندوق. وهكذا كان شأن الفواكه الاخرى سواء كان من جنس الكمثرى التفاحية أو العفصية أو من سلالة الدراق والبرقوق والمشمش ذوات النواة الصلبة.

وقد حدثني عمي أنور وكان مهندساً للطابو (السجل العقاري) في عانة في العشرينات من هذا القرن: أنهم أبرزوا له سندات تملك بتوقيع البرامكة. وقد منّ الله على أهلها بصبرهم على بلواه فامر عباده بغمر بلدتهم باستثناء منارتها التاريخية بمياه الفرات المرتد عن سد حديثة بعد أن عاشت أربعة آلاف سنة وكانت مصيفاً للملوك القدامى وأولهم أزدشير إبن عاناتو الذي تيمنت باسمه، وقد عوضوا عنها «بريعانة» المنبسطة خلف التلال «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرلكم»! ولعل غرق عانة لن يطول فان الاتراك مصممون على حبس مياه الفرات وبيعها لاسرائيل ولعل ما يأسف عليه شيوخ عانة القديمة المطمورة هو نواعيرها التي بلغت شهرتها الخافقين. وقد رأيناها وكانت صورة رثة لنواعير حماها لتى لا تقل عنها شهرة في بلاد الشام. ومن أجل نواعير عانة انشأوا سدودا صخرية غاطسة تعترض مجرى الفرات وتجعل منه سلسلة من الشليلات (تصغير شلال) ومسقط الماء هو الذي يحرك أمواق (أكوان) الناعور الغاطسة ويملأها بالماء فتخرج بقوة دفعة

حتى تصل القمة بعد أن تفقد معظم الماء الذي غرفته لتصب البقية الباقية في الساقية وكانت كل ساقية تمد بالماء العديد من البيوت ومزارعها التي كانت أصغر من حدائق بيوت بغداد. وكان شعلان عطية شيخ الاكرع مبعدا في عانه وكان يملك عدة مضخات في الدغارة قوة كل منها مائة حصان. و قد بلغته شهرة ناعور عانة القديمة فلما رأى ساقية الناعور بهت وقال: لو اشخ لفاضت الساقية. هذا ما رواه لنا أحد العانيين والعهدة على الراوي. ومع ذلك فان هذه الساقية النحيلة كانت تروي البيوت ومزارعها وتؤمن للفلاح العاني رغيف يومه مع آدامه: رأس البصل أوبضع حبات من التمر. وكان الفلاح العاني يشق الجبل بمعوله بجهد جهيد لينتزع منه مصطبة صغيرة يغطيها بطين الفرات ليزرعها و يقتات منها بعد أن يسقيها بعرق جبينه.

وفي أول يوم من وصولنا جلسنا في مقهى صغير في ظل الناعور فأدركنا في الحال أن عانه بحق مصيفاً بالنسبة لقيظ تموز وآب في بغداد. وكان الناعور العاني الخشبي يأن أنيناً موجعاً وكأنه ينعي نفسه وأمه عانه، التي اذلت الفرات حتى عاد السلطان الجاري الكرة عليها وأزهق انفاسها ونواعيرها مرة وإلى الابد.

وكانت عانه طوال العصور تزرع القطن تغزله و تنسجه و تقايضه ثياباً مع البادية لقاء صوفها وسمنها وحملانها حتى غزاها خام مانجستر من إنكلترا بعد الثورة الصناعية الأولى في القرن الماضي. تلك الثورة التي سخرت البخار لأدارة المغزل الآلي والنول الآلي. فماتت تاريخياً صناعة عانة المنزلية اليدوية ومات معها نمط الأنتاج البضاعي البسيط القائم على المقايضة بين القصبة والبادية.

وذات يوم قائظٍ ونحن نمضي قيلولتنا مستلقين في غرفتنا في الطابق العلوي من الخان في قلب البلدة، سمعنا منادياً ينادي بأعلى صوته: اللي بطنو قبض! اللي عندو مرض! فتساءلنا: هل هذا ياترى صيدلية سيارة تفتق عنها الذكاء العاني للتغلب على طول قصبتهم؟ وكانت قصبة فعلا بطولها و عرضها و ليس مجازاً! أم أن هناك مفاجأة أخرى؟ فدفعنا الفضول إلى استجلاء الأمر وأطلينا من السطح على الشارع فلم نرى في الطريق في تلك الهجيرة سوى عجلة يجرها حمار مثقلة بالبطيخ الأحمر «الرقي» إما نسبة إلى الرقة المدينة العباسية في الجزيرة الفراتية أو الرقة التي تعني في العراق الشاطئ الرملي الرقيق المنسرح الذي ينحسر عنه الشط صيفا ليزرع كالبطيخ أو «الركة» وهي السلحفاة التي يشابه درعها قشر الركي، والله أعلم! فعرفنا لأول مرة أن الرقي بالنسبة لعانة، ولم يكن يزرع فيها بل يستورد من شمالها وحتى من سوريا، كان دواء الأمساك وشتى الأمراض! وعرفنا مثالاً آخر على أن كل شئ نسبي فإن ما يملأ بطون الناس والدواب صيفاً في بغداد وما يتسلى بتكريز بذوره طوال الحول كان دواء في عانه يحمل في صيدلية يجرها حمار. ومن يعيش رجبا يعيش عجبا.

كانت رياضتنا في عانه أن نتسلق عصر كل يوم ظهرها على الجانب الأيمن من الفرات لنرى بادية الشام المترامية ونتنسم نسائمها المنعشة ولنطلق العنان لأبصارنا لتسرح في الآفاق البعيدة منطلقة من محبسها الضيق بين ظهري عانه الشامخين كجدران سجن هائل.ففي البادية فقط كنا نرى اللانهاية منطلقين من حبسنا اليومي ونتساءل مع أنفسنا: هل كان يوجد ياترى الشعر الخالد لولا البادية اللانهائية؟

وفي ظهر عانه وجدنا الخزامة نابتاً بين شقوق الصخر الأصم وعرفناه لأول مرة ومن عرفه عرفنا عطور بلاد العرب، التي أشاد بها كأطيب ما في الدنيا من طيب شكسبير في شعره الخالد. وبوريقاته الخضر الشبيهة بشعاعات النجم لمسنا لأول مرة السلف الطبيعي «للخزّامة» الذهبية التي تزين بها الفلاحة العربية أنفها فتزيدها حلاوة على حلاوتها وبهاء على بهائها، مضوئة

خدها عنوان العافية. فننسى حبسنا ونسرح بأحلامنا ونواصل صمودنا، منقطعين عن طيبات الحياة، ونحن لانزال في شرخ الشباب.

كان أهل عانه يعيشون بالأساس على تصدير أبنائهم للعمل في المدن الكبيرة كبغداد. وينتظرون في رأس كل شهر الحوالة المالية البريدية من أبنائهم الأبرار. وكانت تتراوح بين نصف دينار والدينار ونصف.

نقلونا فجأة من الخان إلى مخفر شرطة الخيالة قرب محلة «جميلة» في النهاية الجنوبية لعانه وحجزونا في المخفر وحظروا علينا الخروج منه فأضربنا عن الطعام لثلاثة أيام متتالية وفي اليوم الرابع استدعانا قائم مقام القضاء وبعد أن تحدث عن عدم إكتراث السلطات بأضرابنا حتى لو أودى إلى موتنا جوعاً، في حين كان في الحقيقة قد تلقى امراً من السلطات العليا بتلبية مطالبنا فسألنا أخيراً عما نريد. فقدمنا مطالبنا و أبدى موافقته على تلبيتها وأستأجرنا داراً قرب المخفر واخذنا نعد طعامنا بأيدينا. وخصص لكل منا: يوسف وأنا، ثلاثة دنانير شهرياً وكانت تعادل الراتب الشهري للشرطي النفر. والحال كان راتب الحصان ستة دنانير! أي أن مخصصات حيوان واحد من الشعير والتبن كانت تعادل ضعف مخصصات عائلة من خمسة أشخاص أو أن معيشة عشرة بالمتوسط من بني البشر كانت تعادل معيشة الحيوان الواحد. بيد أن معيشة سكان البلدة بالمعدل كانت اوطأ من معيشة الشرطة باستثناء الاغنياء من المقاولين والتجار الكبار الذين لا يزيد عددهم على عدد أصابع اليد. وكان في عانه جالية يهودية ربما كانت اقدم الجاليات اليهودية في العراق (٧٠٠ ق. م) وتحتفظ بنسخة قديمة من التوراة مخطوطة على الرق من جلد الماعز. كان اغلبهم يمارس تجارة المفرد في دكاكين صغيرة. اما فقراؤهم فكانوا يتجولون في البادية بين الرعاة يطلون لهم أوانيهم بالقصدير لقاء اجور عينية من سمن الغنم وكان سؤ التغذية واضحا على وجوههم والفقر بادياً على ملابسهم الرثة.

وتوجد مساجلات تاريخية بين راوى وعانه والقصباتان توأمان كانتا متقابلتين على جانبي الفرات: عانه على الجانب الايمن (الشامية) وراوى على الجانب الايسر (الجزيرة) بيد أن مستوى راوى أعلى راكبة ظهر الفرات فلم يغمرها خزان سد حديثة كما فعل لتوأ مها. وكان العانيون يهجون أهل راوى ويتندرون عليهم وينسبون السذاجة اليهم ويسردون الحكايات بشأنهم. فيروي العاني أن راوياً حمل إلى أقربائه في عانه كيساً من الخام مليئاً باللبن الخاثر المكثف وكالعادة عبر الفرات سباحة بعد شد كيس اللبن على ظهره. ولما خرج من الماء على شاطىء عانه وجد الكيس خالياً خفيفاً نظيفاً ولكن ذلك لم يمنعه من أن يتبجح أمام أقربائه إنه جاءهم بهدية من اللبن الخاثر الفاخر الدسم المكثف لولا أن الشيطان اللعين الذي ركب قفاه ولحس ما في الكيس.

وقد رأينا الدعلج وهو قنفذ ضخم وسلاحه سهامه التي يرشق بها اعداءه دفاعاً عن النفس بهزة من جسمه وكان يسكن في مغاور عند جميلة ولا أدري الآن ما حل به بعد أن غمر الخزان الهائل أوكاره!

وقد حدثنا شرطي في مخفر الخيالة في جنوبي عانه عن حوار فولكلوري جرى بين الحنطة والشعير والدخن. وهي الأقوات الثلاثة الاساسية في المنطقة. فقالت الحنطة وهي فخورة: أنا أحمل الناس إلى العمل وأعود بهم إلى أهلهم! فرد الشعير متواضعاً بعض الشيء: وأنا أحملهم إلى عملهم ولكنني لست ملزما بعودتهم منه! بيد أن الدخن كان الاشد تواضعاً إذ قال: أنا لست مسؤولاً عن ولد الناس فأنا أملأ بطونهم وأقعدهم ولا شأن لي بذهابهم وإيابهم!

ومرة جلسنا في المقهى فتحدث طالب يهودي من أهل المحلة قائلاً: أن نبينا موسى.. وقبل أن يتفوه بكلمة أخرى نهره شرطي كان حاضراً بقوله ملاعين الوالدين هلنوبه تريدون تنهبون من

عندنا النبي موسى هماتينا! ولو كان النبي موسى حاضراً لتبسم ضاحكا من هذا النزاع بين مريديه على عائديته ولحار في أمره فلأي منهما يسلم ذقنه؟!

حدثت حركة مايس ١٩٤١ ونحن لانزال في عانه وكان المزاج العام في القصبة مع الحركة ومعادياً للانكليز بعنف وحتى اليهود تحمسوا وهوسوا مع الجمهور المحلي المسلم. ولم نلحظ بادئ ذي بدء عداء لليهود. وفي أواخر أيام الحركة جاء من سوريا في أعالي الفرات مجاهدون وصلوا إلى عانه وهم لايملكون سلاحاً أو واسطة نقل أو مؤنة للمعيشة فاستظافتهم أهالي المدينة وكان السوريون متحمسين جداً لمقاتلة الانكليز ولكنهم وصلوا بعد فوات الأوان وعادوا أدراجهم إلى سوريا محبطين وهم أشد غضباً على الاستعمار. وكانت سوريا لاتزال تحت احتلال الفرنسيين الفيشين الموالين للفاشية. وفي نهاية المطاف جاء إلى عانه فوزي القاووقجي ومجاهديه بعد أن انسحبوا من الرطبة التي احتلتها القوات الاردنية بقيادة «أبو حنيج» كلوب. وقد اثير العداء ضد اليهود، وأغلق أرباب الحوانيت منهم دكاكينهم وقبعوا في بيوتهم وأغلقوا أبوابهم باستثناء يهودي واحد اسمه موشي فتيح، وكان كهلاً أشيب يعمل بزازا. فكان في كل صباح يركب حماره الصغير ويذهب من أقصى الجنوب ليفتح دكانه في أقصى الشمال. وكان على طول الطريق تمطره كلمات السخرية أو الدعابة. ولكنه يواصل ذهابه وإيابه من أول أيام الازمة حتى اخرها والابتسامة العريضة تفرق بين شاربيه ولحيته الكثة التي وخطها الشيب.

كان خطر الفرهود ماثلاً وقد بذلنا كل ما في إمكاننا ضد اندلاع الفرهود. وقد حال القاووقجي دون وقوعه. فجمع اليهود له التبرعات وسلموه المال ليصرفه على مجاهديه في رحيلهم إلى سوريا ومن ثم إلى تركيا وقد خرج دعاة الفرهود المحليون صفر اليدين. إذ حمى مجاهدوا القاووقجي اليهود من الفرهود فتنفس هؤلاء الصعداء وعادوا إلى تجارتهم وكأن شيئاً لم يكن.. ولم يقتل منهم سوى صبية قتلها صبي مسلم كان يريدها لنفسه فلم تطاوعه ولم تترك اهلها من اجله.

ومع ذلك تفاقمت الدعاية الهتلرية بعد فشل حركة مايس ١٩٤١ معلقة الآمال على انتصار هتلر في الحرب العالمية. وفي هذا الجو جاء غزو ألمانية الهتلرية للاتحاد السوفيتي في ٢٢/ حزيران/ ١٩٤١ مفاجئا للذين كانوا يتوقعون الغزو الألماني بفارغ الصبر ولكن لمنطقة الشرق الأوسط وليس للاتحاد السوفيتي.

كنا نسمع راديو المقهى لاسبوع كامل وإذاعة لندن تذيع الأخبار عن تحشد القوات الالمانية على حدود الاتحاد السوفيتي الغربية وكنا بين مصدقين ومكذبين نراقب الأخبار المقلقة على كل حال. وفي ظهيرة ذلك اليوم المشؤوم ٢٢/ حزيران/ ١٩٤١ وبعد تناولنا الغداء وبدء القيلولة سمعنا راديو المقهى في جوارنا يلعلع جهوراً فوق العادة أو هكذا خيل لنا قلقنا فتسلقت سلالم البيت بسرعة حافي القدمين وكأنني أمشي على جمر حاسر الرأس تحت الشمس المحرقة لاصغي للنبأ. وعدت أدراجي وقلت لرفيقي يوسف: هتلر هجم على الاتحاد السوفيتي! وكنا نتوقع أن يتقدم هتلر في بداية الحرب لان هجومه كان مباغتاً وهو ما جرى فعلا. وكان معظم جمهور المستمعين لاخبار الراديو في المقهى مع المعتدي وينتظرون انتصاراته بلهفة ويفرحون لها على المكشوف بيد أن الشيوخ لم يكونوا مقتنعين بأن ألمانيا سوف تنتصر على روسيا وكانوا من مخضرمي الحرب العالمية الأولى. وقد قال بعضهم لو سقطت السماء على الأرض لتلقاها الروس وأقاموها بحرابهم! كانت ثقتهم ناجمة عن معرفتهم بتفوق الروس العددي على الألمان وبسالتهم في الحرب السابقة مع الألمان والترك وكنا نسمع ذلك بكل ارتياح بالطبع. وقد جمعنا هذا الظرف الاستثنائي روحياً مع شيوخ عانه المجربين بالضد من شبابها الساذجين. ولكن دفاع السوفييت المجيد وبسالة لينينغراد المحاصرة حصاراً طويلا وصعباً بدأت تفعل مفعولها في نفوس الشباب أيضاً. فقد كانوا يتوقعون

بادئ ذي بدء انهياراً سريعاً وشاملاً لروسيا كانهيار فرنسا التي اجتاحتها القوات الهتلرية خلال أربعين يوماً. وبدأ يدب اليأس بين أنصار هتلر ويترعرع الاعجاب بالجيش الاحمر السوفيتي وببسالة الشعب السوفيتي وينمو في نفوس الشباب أيضاً. وقد تركنا عانه بعد انتهاء معركة موسكو وصمودها في المعركة وقبيل التعرض السوفيتي العام المضاد الأول الشتوي في أوائل تشرين الثاني ١٩٤١. وكان ميل العراقيين إلى جانب ألمانية الهتلرية بمثابة تعبير عن كرههم للانكليز الذين قهروا بلادهم وتحالفوا مع الصهيونية.

ومن مكارم أهل عانه رغم ضعف حالهم وخوفهم من مطاردة الشرطة ما قدمه لنا أهل الشهيد توفيق منير الذين كانوا يزودونا بالخبز لفترة غير قصيرة من الزمن مع العديد من المحارم المنسوجة باليد من قطن عانه «الصابوري» ذائع الصيت. وحدث مرة حادث اضطرب له النصف الجنوبي من عانه إذ أفلت عجل كان معدا للنحر من بيت سعيد الشيخ والد شريف الشيخ. فهرع سكان النصف الجنوبي من عانه للحاق به وتطويقه وإلقاء القبض عليه. وكان مقدراً لنا أن نأكل من لحمه في وليمة أولمها الشيخ تكريماً لنا نحن الشيوعيين رفيقي ولده شريف مع عبد الرحمن البزاز ومصطافين آخرين من أهل القصبة.

كان القصابون في الحارة الجنوبية من عانه كلهم من اليهود بيد أن المسلمين كانو يستحلون ذبائحهم بناء على فتوى الملا شريف مفتي الحارة الذي حلل أكل لحم اهل الذمة لأنهم «أهل كتاب سماوي» وكان يغضب أحياناً لسبب غير معروف تماماً فيعلن متذمراً: ها نحن نأكل ذبح اليهود! وكان القصابون يبيعون اللحم بالدين حتى الحوالة البريدية الآتية أو الموسم الزراعي. وكان الفلاحون الفقراء لا يشترون اللحم بل الشحم فيذيبونه ويحفظونه في آنية (الدية) ويستعملونه في كل مساء ملء ملعقة منه مع طبخة البرغل أي الحنطة نصف الجاهزة للطبخ. وكانوا يعتقدون أن الشحم الحيواني ضروري للصحة أما اللحم فيذوقونه في المناسبات القليلة خلال السنة شأنهم شأن أغلب أهل العراق آنذاك.

لم يزرنا أحد من أهلنا طيلة فترة اقامتنا الجبرية في عانه سوى مرة واحدة زارنا فيها عبد متي شقيق يوسف حاملاً لنا ملابس شتوية داخلية وكتاب لغة انكليزي وكتاب بالانكليزية «الشيوعية السوفيتية، حضارة جديدة» لمؤلفيه الفابيين البريطانيين سدني ويب وزوجته بياتريس ويب وكان هذا الكتاب المعين الوحيد لدينا الذي ينعش أفكارنا في تلك الفترة. ولم يتصل بنا أحد من الحزب ولم نعرف شيئاً عن أخباره سوى أن بعض القادمين الجدد اليه ورفاق السفر كانوا يشهرون بنا دون أن نعلم ما ينسبونه إلينا بالضبط ما يستحق التشهير. فقد بقينا صامدين في السجن والمنفى حتى آخر يوم. ولم يعف عنا طيلة المدة رغم تتابع الحكومات والانقلابات. فتولد لدينا شعور بالغبن وهو أخطر مرض يصيب الثوريين الشباب. وقد أقعدنا هذا الشعور فتقاعسنا بدورنا عن بذل المحاولات للاتصال بالحزب والعودة اليه حال إنتهاء مدة المحكومية. تحت وطأة كبرياء المثقفين! وبقيت أنا هكذا ضائعاً حتى سجنت للمرة الثالثة عام ١٩٤٧ حيث التقيت فهد في سجن الكوت في أواسط سنة ١٩٤٧ حتى وثبة كانون الثاني ١٩٤٨

34

البحث عن اللقمة

كنت قد بلغت الثلاثين من العمر في السنة الاخيرة من منفاي في عانه وعدت إلى بغداد أبحث عن عمل فلم أجد عملاً في الصحافة. ولم أكن املك شيء من المال ولا مورداً. و تعلمت من كتب المحاسبة أو بالأحرى مسك الدفاتر. ولكن شتان بين هذه و الممارسة العملية للمهنة، التي لم يكن لي أي تجربة فيها. فلم أجد أي عمل في هذا المجال أيضا. ورغم كثرة الاعلانات عن وظائف شاغرة، فأن الطلبات التي قدمتها بقيت دون جواب. كان الأعلان عن وجود وظيفة شاغرة شيئاً شكلياً فقط. أما الاستخدام الفعلي فلم يكن يتحقق إلا على يد موظف في الشركة أو المؤسسة ولا يستخدم هذا إلا «المحسوبية» أو«المنسوبية» أو بدفع هدية أكبر.

وقرأت إعلاناً عن وظيفة مترجم شاغرة في مديرية الموانئ العامة في البصرة. فسافرت في الحال بدون حقيبة وأمضيت ليلة كاملة في القطار السريع وفي الدرجة الثالثة أي بدون فراش أو سرير نوم. وفي الصباح راجعت سكرتير المدير العام أنور مخلص، وكان عديل عزيز شريف. فقدمت له العريضة مع بطاقة توصية من صديقه المحامي جميل كبة. فنظر يتفحص هندامي ولم أكن قد حلقت صباحاً و بدلتي الوحيدة كانت قديمة ولابد أنه وجد قيافتي لاتتناسب مع وظيفة في مديريته وراتبها الشهري ستون ديناراً ولم تكن عندي لا شهادة مهنية ولا شهادة دراسة عالية فأستبعد جداً أن أكون كفوءاً لوظيفة بالغ في تبيان خطورتها. فقلت له: أنا مستعد للأمتحان، أمتحني! لم يكترث لطلبي ولم تكن معي نقود لأبقى في البصرة لأبحث عن عمل آخر.

عدت أدراجي في مساء اليوم ذاته و في نفس القطار إلى بغداد. وأشتغلت براتب زهيد عند بائع مواد بناء السيد رضا الصفار مقابل سوق الصفافير فتعرفت هناك على مقاول يدير حانوتاً «كانتين» في معسكر الشعيبة في البصرة فعرض علي عمل في حانوته فوافقت في الحال. كان الحانوت خيمة في المعسكر الصحراوي والزبائن جنود من الهند في طريقهم إلىالجبهة في ليبيا أو عائدين منها إلى الهند. وكان علي أن أبقى في الخيمة ٢٤ ساعة في اليوم أعمل وأنام وأتناول الطعام فيها ولا أخرج منها إلا إلى «التواليت» على بعد قليل منها.

ولا أعرف شيئاً عن العالم سوى ماكنت اقرأه في الصحف المحلية. بقيت هكذا أعيش حياة لا تطاق نحو شهر واحد كأنني في سجن الحويجة. فقرأت اعلاناً في الصحف المحلية عن وجود وظيفة مترجم شاغرة في مكتب العلاقات العامة للقنصلية البريطانية لتزويد الصحف بترجمة عربية لبرقيات رويتر وبصور جبهات القتال للحلفاء. فامتحنت واجتزت الامتحان وعينت مترجماً براتب لا يزيد عن ثلث الراتب المخصص للترجمة الشاغرة في مديرية الموانئ العامة.

وكان العمل متفقاً مع مزاجي، فقد كنت أسهم بدور بسيط في دعم المجهود الحربي للحلفاء ضد الفاشية، دور بسيط جداً بيد انه أفضل من لاشيء. ومن الناحية المهنية كنت أتدرب على

الترجمة الارتجالية السريعة. و من الناحية الاقتصادية حصلت على الحد الأدنى الضروري من أسباب المعيشة مع تقديم مساعدة صغيرة لاختي.

وبعد سنتين، في عام ١٩٤٤ انتقلت للعمل نفسه في مكتب الاعلام الحربي الامريكي في بغداد حتى فصلت من هذا العمل عشية انتهاء الحرب بعد أن تضاعف راتبي هنا. بيد أنه بقي نحو ثلثي راتب المترجم في الموانئ. وقد فاتني أن أذكر انني قبل الذهاب للعمل في البصرة، كنت قد طرقت مختلف أبواب العمل بما فيها مكتب العمل العائد للقوات البريطانية، وكان في كرادة مريم. وهناك كنت انتظر مع حشد من العمال والمستخدمين «الافندية» وبينهم موظف كمرك متقاعد كنيته أبو موشي والجميع يبحثون عن عمل. وكان ترجمان المكتب يخرج بين الفينة و الفينة ليعلن عن وجود فرصةٍ عمل شاغرة فينادي: مطلوب نجار يملك ادوات عمل! مطلوب سمكري معه ادوات عمل ومرة خرج لينادي مطلوب كناس نظيف يتكلم الانكليزية! فهتف أبو موشي على الفور ليش كناس مو ترجمان؟ فضحك الجميع.

وقد وجدت أخيراً عملاً في ساحة لتجميع عربات الحمل لسكك الحديد للجيش البريطاني بعنوان كاتب مخزن. وكان عليّ أن أعرف مقدماً اسماء أنواع شتى من الادوات وموضوعات العمل وسرعان ما اكتشفوا أنني لا أعرف حتى اسم البكرة التي ترفع الأثقال بالانكليزية. فصرفوني في الحال ولم آسف كثيراً فقد كان عليّ في هذا العمل أن انهض قبل الفجر بساعتين لألحق بالقطار الذي ينقل العمال إلى ساحات العمل عند الفجر. ولم يكن الراتب يزيد عن ثمانية دنانير. وخوفاً من ارتفاع رواتب العمال والمستخدمين في وقت اشتد الطلب على الايدي العاملة بسبب المجهود الحربي، تآمر الكولونيل وورد المدير العام لمصلحة الموانئ والسكك ومشروع حفر سد الفاو و..الخ، تآمر مع مكاتب الاستخدام البريطاني على أن لاتدفع أجوراً أو رواتب أعلى مما تدفعه مصالح الحكومة العراقية ودوائرها أو حتى مساوية لها. ولم يكن للعمال والمستخدمين أي تنظيم نقابي يجمعهم في الفترة الاولى من الحرب.

35

ذكريات من البصرة
والعمل في مكاتب الدعاية الحربية

في البصرة التقيت بأحد مؤسسي الحزب الشيوعي العراقي، سامي نادر، عضو اللجنة المركزية و كان معلماً في مدرسة ابتدائية، والآخر زكريا الياس دوكا وكان مترجماً في الميناء وقد استاجرت غرفة في بيت شقيقه في العشار. وكان سامي نادر يزودني بمنشورات الحزب وبعض الكتب وأخبار المنشقين عن قيادة فهد. وكان هو ركناً من أركان هذه القيادة. وذات مرة دعاني إلى اجتماع يعقد في بيته ويحضره الحزبيون والمنشقون لإصلاح ذات البين وقد لبيت دعوته وفي طريقي إلى بيته في ام الدجاج في العشار رأيت بعض المنشقين مزمعين حضور الاجتماع يتداولون مع علي عامر الذي كان نائب عريف في فوج المخابرة الأول وعضواً نشيطاً في التنظيم الحزبي في ذلك الفوج والذي نصب نفسه مدعيا عاماً متطوعاً ضد الجنود غير المعترفين في المجلس العسكري الذي حكمهم. فتكونت لدي فكرة أولية عن طبيعة المنشقين وهوياتهم. ولما انعقد الاجتماع اختاروني حكما، فكان أول ما طلبته منهم أن يعطوا كلمة شرف بألا يتحدثوا عما يدور في الاجتماع لأي أحد ممن لم يحضره وكنت أعني بالذات علي عامر. وحال انفضاض الاجتماع، وكان فاشلاً، هرعوا إلى علي عامر ليخبروه عن كل ما دار! ! كانوا من العناصر العدمية المتمردة على كل انضباط ولا سيما الانضباط الحزبي الشيوعي، والمحبه للثرثرة إلى مالا نهاية.

وفي البصرة كنت اتناول وجبة الغداء الرز مع السمك الزبيدي في المطعم بدرهمين أو ثلاثة لضيق الوقت أما الفطور والعشاء فكنت أعدهما بيدي وكانت المواد الاساسية الخبز والشاي والبيض. ومرة سالت بائع البيض في سوق المربد عما إذا كان البيض فاسداً فاستنكر ذلك قائلا بصراحة فاجأني بها: لا عمي احنا نبيع البيض الفاسد لاهل الكيك وبس! ! فعلمت لأول مرة أنه لايحسن طعم الكيك سوى البيض الفسد!

وفي البصرة زارني يوسف متي قادماً من بغداد لاشغاله الخاصة وسلمني مائة دينار طالباً توظيفها في البيع والشراء الأمر الذي لم اتجرأ عليه رغم أن شهادة الجنسية التي حصلت عليها في تلك المدة تشير إلى أن مهنتي هي «بياع شراي» في حين لم يكن عندي أي عمل عندما حصلت عليها. فأودعت المائة دينار لكاتب الطابعة في المكتب الذي كنت أعمل فيه ليشغلها «بالبيع والشراء» وقد أعادها بعد أشهر ناقصة عشرة دنانير قال إنه خسرها. وأعدتها بدوري إلى يوسف ولم أستطع أن أمارس العمل التجاري (بزنس) أيا كان! وبعد أن أعدت إلى يوسف نقوده شعرت براحة البال والضمير إذ تخلصت من التجارة وأحابيلها. أما هو فقد تعاطى البزنس لعدة سنوات وانتهى به الأمر إلى الافلاس. إذ أن الكتابة كانت اقوى ميوله وانتهى به المطاف إلى إتخاذ الترجمة التجارية مهنة له وفتح لها مكتباً خاصاً ولم يصبح رجل أعمال. وكان قصصياً جيداً ولكن الادب في العراق لم يكن يطعم الاديب خبزاً.

لاقيت من وراء العمل في مكاتب الاعلام الاجنبية خلال سنوات الحرب حملة تشهيرية صحفية من أعداء الحزب الشيوعي العراقي بتهمة أن الحزب هو الذي كلفني بالعمل في السفارة البريطانية وقد ظهرت الحملة لأول مرة في الصحافة الرجعية عندما قلب عبد الكريم قاسم ظهر المجن للحزب الشيوعي وتوارثتها بعدها وسائط الاعلام البعثية وكتب أصدرها «الأمن العام» بعنوان «أضواء على الحركة الشيوعية» ثم تلقفتها بعض الصحف «الاسلامية» التي تصدر في ايران فلم يكن لديهم مادة للتشهير بي سوى هذا وزواجي من عراقية «يهودية» أسلمت لتحول دون أبعادها إلى إسرائيل على أيدي السلطات العراقية وكرست حياتها للحزب الشيوعي والحركة الثورية العراقية وصمدت أمام المحن والتعذيب صموداً عزّ مثله بين الاخرين من غير اليهود من النساء والرجال وينسون أن إحدى امهات المؤمنين كانت من سبي يهود خيبر.

وفي البصرة جاءني من بغداد المنشقون على فهد ومنهم أحد إخوان ذنون أيوب وكان عامل مطبعة وخليل جموعة شقيق جميل. وحاولوا أن يستغلوا بعدي عن الحزب ليجروني إلى النشاط الانشقاقي فخيبت آمالهم. كان ذلك عام ١٩٤٣، عام الانشقاقات. ولم يكن عندي أي ميل للمنشقين على اختلاف فصائلهم. كنت أشعر أن فهد أقرب الجميع إلى الحقيقة.

وفي أواخر ١٩٤٣ تركت العمل في مكتب العلاقات في البصرة ومرة اخرى فتشت عن عمل آخر دون طائل فانتقلت إلى بغداد لاعمل في مكتب الاعلام الحربي الامريكي. وعندما فصلت من هذا العمل قبل انتهاء الحرب لم يكن في جعبتي معاً وفرته سوى (١٥٠دينار) وعدت إلى محاولاتي للعمل في الصحافة وكان ما حصلت عليه أعمالاً وقتية ولمدة قصيرة وبأجر لايسمن ولا يغني من جوع. ولولا معونات شريف الشيخ لما استطعت مواصلة هذا العمل.

عملت في صحافة الاحزاب الديموقراطية: الوطني الديموقراطي والاتحاد الوطني وصحيفة الجواهري. وقد عملت لفترة قصيرة في جريدة البلاد لالتقط لها الأخبار من الإذاعات ولم أكن مؤهلا على هذا النوع من العمل وكان النجاح الوحيد الذي أصبت فيه هو التقاط خبر إلقاء القنبلة الذرية الاولى على هيروشيما فكانت البلاد الجريدة الوحيدة التي نشرت الخبر في اليوم التالي بوضوح فقد نشرته بعنوان «القنبلة الذرية» ويبدو أن زملائي في الصحف الاخرى لم يفهموا الخبر. أما أنا فكنت مستعداً فكرياً لسماع مثل هذا الخبر بالنظر لمطالعاتي السابقة. ومع ذلك استغنت الجريدة عن خدماتي بعد حين. وفي الأهالي كنت أترجم لقاء أجر بالقطعة ولا ينشر لي سوى عمود واحد في الصفحة الأولى عن السياسة الدولية أو عن ما وراء الاخبار والتعليقات. ولم يكن إيرادي من هذا الحقل يكفي للمعيشة إذ لم يتعدى ثلاثة أو أربعة دنانير شهرياً وكنت اسكن الاعظمية وكانت معظم تنقلاتي ذهاباً وإياباً سيراً على الأقدام بالنظر لازمة النقل ومن أجل الرياضة وتوفير الدراهم. واشتغلت في جريدة الجواهري محرراً في مختلف الأبواب ولم يكن العمل سهلا عليّ ولاسيما كتابة افتتاحية في كل يوم. فكان الجواهري يتذمر بإسلوب غير مباشر إذ كان يثني على المحرر السابق سليم طه التكريتي قائلا:

أشهد بالله أنك محرر سرعان ما تدبج بيراعك المقال والمقالين أو الثلاثة في الساعة الواحدة.

وعملت أيضاً في جريدة «السياسة» لسان حال الاتحاد الوطني طيلة فترة صدورها. ودافعت بتوقيع صريح عن نقابة عمال السكك الحديدية و وجهت اللوم إلى جماعة من حزب الشعب تقدمت على الفور بطلب إجازة نقابة أخرى لعمال السكك تحل محل النقابة المغلقة. فهاجمتني جريدة حزب الشعب شخصيا مشيرة إلى عملي في مكاتب الاعلام الأجنبية خلال الحرب. حيث كان عزيز شريف نفسه قد زارنا في مكتب العلاقات للحصول على ورق لمجلته.

وترجمت بضعة كتب ومنها «رجل آسيا» وهو سيرة لماوتسيتونغ و«الحكومة الائتلافية» تأليف ماوتسيتونغ وتقرير لهاري بوليت زعيم الحزب الشيوعي البريطاني بعنوان «سياسة الطليعة البريطانية»، وكانت كتبا خاسرة تجارياً تحمل أعباؤها الاصدقاء الذين اصدروها.

وفي تلك الفترة التفت من حولنا: شريف الشيخ ويوسف متي وأنا مجموعة باسم «اللجنة الوطنية الثورية» منشقة عن حزب الشعب الذي كان يقوده عزيز شريف. وكنا نميل إلى الحزب الشيوعي أكثر من غيره ونتعاون مع جميع الاحزاب الديمقراطية ونمارس النقد ضدها أيضاً في نفس الوقت. ولم يغضب الحزب الشيوعي علينا حتى قمنا بحلها والاندماج بالحزب الشيوعي بعد وثبة كانون ١٩٤٨ بلا قيد أو شرط.

وفي معرض الحديث عن هذه الكتلة في «موسوعة» التحقيقات الجنائية بصدد محاكمات الشيوعيين في أواخر الأربعينات جاء ذكر إسمي باعتبار أنني «الشيوعي الوحيد من وجبة عاصم فليح (١٩٣٤- ١٩٣٦) الذي بقي متمسكاً بالمبدأ الشيوعي» وقصدهم هو الالتزام الحزبي. وفي الحقيقة بقي آخرون أيضاً من بين اصدقاء الحزب وإن لم يكونوا حزبيين ملتزمين والقليل جداً منهم من ناصب الحزب العداء.

أما الغرض من إشادة العدو بشيوعيتي فهو واضح وهو أن أحصل على أكبر نصيب ممكن من العقوبة. ولذا حصلت على سبع سنوات من الأشغال الشاقة وسنتين من مراقبة الشرطة في حين نال شريكي في نفس الدعوة شريف الشيخ سنتين من الحبس الشديد مع وضعه تحت مراقبة الشرطة سنتين أخريين.

36

ضرورة الحزب الشيوعي للحركة الوطنية

بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية وانهيار الفاشية الدولية واستسلام دول المحـور بـلا قيـد ولا شرط للحلفاء والمكانة العظيمة الجديدة التي احتلها الاتحاد السوفيتي في قلوب الناس بفضل الـدور الحاسم الذي أطلع به في تحطيم الهتلرية، تحقق وضع عالمي جديد مؤاتـي للحركـات الوطنيـة في مختلف الأقطار وبضمنها الاقطار العربية وأصبح للمفاهيم الديموقراطية في العالم من نفـوذ وسـلطان بحيث أنه حتى الأمير عبد الإله، الوصي على عرش العراق أخذ يتشدق بالديموقراطيـة. وأقيمـت وزارة من حزب الاحرار وكان حزباً إلى اليمين من الحزب الوطـني الديموقراطـي مباشـرة ويتزعمـه فعليا الشخصية الوطنية المعروفة سعد صالح. واجـيزت الأحـزاب الديموقراطيـة باسـتثناء الحـزب الشيوعي الذي لم يتقدم بطلب إجازة وحزب التحرر الوطني الذي كانت هيئته المؤسسة من أعضاء الحزب الشيوعي وفي مقدمتهم حسين الشبيبي وفي البدء كان المفروض أن يكون حزب الشـعب هـو الحزب العلني المجاز قانونا والذي يضم الشيوعيين والماركسيين وسائر اليساريين المتحالفين معـه. ولكن سرعان ما دب الخـلاف بـين عزيـز شـريف وفهـد. إذ كـان الأول يلـح علـى حـل التنظيم الشيوعي السري مدعياً أن بقاءه يعرقل إجازة الحزب اليساري العلني من جانب السلطات. وكـان رد فعل فهد صارما فقد ادان عزيـز شـريف ووصـف موقفـه بالتصفويـة أي تصفيـة حـزب الطبقـة العاملة الماركسي اللينيني. وسحب الحزب الشيوعي تأيده للهيئة المؤسسة لحزب الشعب باعتباره الحزب اليساري العلني للشيوعيين وحلفائهم اليساريين الأقربين. وألـف الهيئـة المؤسسـة لحـزب التحرر الوطني. وكان جمهور حزب التحرر أكبر وأكثر راديكاليـة واقـرب للكـادحين. وممـا يـدل على خطأ تقديرات عزيز شريف هو أن السلطات اجازت حزبه العلني بفضل وجود حزب شيوعي سري وليس العكس، على أساس «أهون الشرين».

وكنت أنا وسائر جماعة «اللجنة الوطنية الثورية» تميل إلى فهد في ذلـك الصـراع بـين اليسـاريين ونسير في فلكه بالضد من عزيز شريف. وكأن، تلك اللجنة كـانت المطهـر لنـا لتمهيـد عودتنـا إلى تنظيم الحزب الشـيوعي العراقـي، والعـود أحمـد! وقـد برهنـت الحيـاة أن مطلـب حـل الحـزب الشيوعي السري كان خاطئا فسرعان ما عمد الاستعمار وأعوانه إلى حل الاحزاب الديموقراطية عندما ساء الوضع الدولي. وبقي الحزب الشيوعي السري سـندا للمعارضـة الوطنيـة فكـانت تـزداد جـرأة ونشاطا كلما كان التنظيم السري قوياً ونشيطاً والعكس بالعكس. ومع ذلك فقد بقي الحزب الوطني الديموقراطي ينتقص على لسان رئيسه الجادرجي من شأن التنظيم السري والصحافة السرية.

ومن وسائل ربط التنظيم السري بالتنظيم الشرعي العلـني الـتي لجـأ إليهـا الحـزب الشـيوعي العراقي في تلك الفترة تنظيم «عصبة مكافحة الصهيونية» وكانت التنظيم الوحيد من نوعه في البلاد العربية إذ لم يجرأ أي حزب آخر فيها على العمل في صفوف اليهود لمكافحة الصهيونية والنشـاط

الصهيوني بينهم بل وقد عمدت الفئات الحاكمة العربية إلى التعاون مع الصهيونية لتهجير اليهود من بلادهم إلى «الوطن القومي» في فلسطين وبعد ضرب الحركة الديموقراطية في العراق بما فيها «العصبة» بدأ تهجير اليهود من العراق وكانت الكثرة منهم تذرف الدموع الساخنة على مفارقة أرض الوطن وتتناول حفنة من ترابه تأخذها ذخراً معها أملاً بالعودة إليه ثانية.

وكان مقر العصبة في الصالحية وفيه ساحة واسعة تكتض بالناس في اجتماعاتها العامة. وفي إحدى الامسيات القيت فيه خطاباً عن تجربتنا في النضال ضد الصهيونية منذ مظاهرتنا ضد الفريد موند عام ١٩٢٨ وكان ذلك في يوم سابق ليوم الاضراب العام الذي قابلت به الاحزاب السياسية مجئ بعثة التحقيق التابعة للامم المتحدة بصدد الموقف من الحلول المطروحة للقضية الفلسطينية. وكان حزب التحرر الوطني والحزب الشيوعي والعصبة ضد الاكتفاء بالاضراب العام فقط دون أي تجمع أو مسيرة في الشوارع. فكانت خطبتي تشجيعاً للتظاهر. فقوبلت بارتياح من جانب انصار التظاهر، أي الحزب الشيوعي وحزب التحرر والعصبة وانصارهم.

وفي يوم الاضراب العام فرقت الشرطة بالقوة كل محاولة للتظاهر وكان منتسبوا الاحزاب المجازة يتجولون في شارع الرشيد وساحاته كحرس للاضراب ضد التظاهر وقد شدوا على اذرعهم شارة انضباط سوداء.

ونزلت من الاعظمية في صباح ذلك اليوم أيضاً سيراً على الاقدام كعادتي وكانت وسائل النقل قد جمدها الاضراب. وعندما وصلت ساحة عنتر بن شداد منعتني الشرطة من السير على طول شارع الإمام الأعظم، الشارع الرئيس بين الاعظمية وبغداد فتحولت إلى الشارع الموازي له المار بكلية الهندسة حيث رأيت جمهرة كبيرة لمظاهرة طوقتها الشرطة وحبستها في حرم الكلية خلف الثكنة الشمالية واصغيت إلى احتجاج الطلاب من تعسف الشرطة وقسوتها وهم ينادوني من محبسهم فحييتهم وواصلت السير حتى باب المعظم فشارع الرشيد حتى ساحة الامين فناداني ناظم الزهاوي من الساحة فعبرت الشارع وإذ لاحظت إشارة الانضباط السوداء على ذراعه، رفعت ذراعي الأيمن بالتحية على الطريقة الفاشية وأنا أعبر الشارع وكأنني أوعز لوسائط النقل غير الموجودة بالوقوف. فضحك ناظم لأنه فهم النقد، والاشارة أبلغ كما يقول الحقيقيون. وكان أحد أعضاءالهيئة الادارية لحزب الاتحاد الوطني. ضحك ضحكة غبن لاشارتي بالغة القسوة.

كان الشارع مقفراً لولا حرس الاضراب وكانوا قلة وفي اليوم التالي صدرت صحف الاحزاب المجازة تحمل حملة شعواء قاسية على محاولات التظاهر وعلى المنظمات الثلاثة: الحزب الشيوعي وحزب التحرر والعصبة. ولم يكن أي من الطرفين على استعداد لاجراء تنازلات للطرف الاخر. وكانت الاحزاب المجازة ترفض إظهار أي تقارب أو تحالف مع الحزب الشيوعي أو أي منظمة يقودها ظناً منها أن ذلك يضعها أمام الفئة الحاكمة والاستعمار أو يضيع عليها الفرصة المؤاتية، فرصة الشرعية والعلنية بوجود حكومة ليبرالية دون أن تفكر بتوسيع هذه المكاسب وترسيخها عن طريق النضال الجماهيري بالتحالف مع قوى الحزب الشيوعي.

كانت تلك الاحزاب أمام معادلة صعبة عنيدة: كيف تستخدم الحزب الشيوعي كقوة جماهيرية ضاربة لانتزاع المكاسب دون أن تفسح له حرية العمل والانتشار في حين كان تاكتيك فهد يقوم على وضع الاحزاب الوطنية أمام الأمر الواقع لحملها على تأييد مواقفه الثورية وإلا انعزلت عن جمهورها. ومن هنا كان التصادم محتوما.

وكان عرس الاحزاب المجازة قصيراً فقد سقطت الوزارة الليبرالية عن طريق إضراب مجلس الأعيان الاقطاعي عن عقد جلسة لمناقشة الميزانية. وحلت محلها وزارة أرشد العمري ،ليعود

الحكم البوليسي السافر. وبالمقابل ليلتأم من جديد صف الاحزاب الوطنية ولتعود من جديد إلى الحوار مع الحزب الشيوعي عن طريق الهيئة المؤسسة لحزب التحرر الوطني.

وكانت الجماهير تنتظر مبادرة الاحزاب والشعارات السياسية التي ترشدها للنضال وتنظم صفوفها. وصاغ الحزب الشيوعي الشعارات السياسية الجديدة المناسبة لأوضاع ما بعد الحرب وفي مقدمتها إجلاء القوات الاجنبية عن أرض العراق. وكانت برامج الاحزاب الديموقراطية: التحرر الوطني والشعب والاتحاد الوطني والوطني الديموقراطي، متقاربة جداً.- وجوهرها انجاز الاستقلال الوطني وإقامة النظام الديموقراطي النيابي. وكان الخلاف بينها يتجلى في التاكتيك، بتعبير آخر: وسائل تحقيق البرنامج. وقد شرح ذلك فهد في كراسه «مستلزمات كفاحنا».

وقد نظم الحزب مظاهرة ٢٨/ حزيران /١٩٤٦ التاريخية تحت الشعارات السياسية المتفق عليها. وقد اطلق العمري عليها الرصاص دون أن يستطيع تفريقها على الفور وسقط فيها أول شهيد شيوعي. وكان فهد شخصياً يقود المظاهرة عن كثب دون أن يلحظه أحد. وقد أثارت المظاهرة وقمعها بالرصاص الاحزاب الوطنية فهاجمت الحكومة بشدة احتجاجاً على البطش البوليسي الدموي ودفاعا عن الحرية. وبذلك التأم الصف الوطني من جديد.

كما نظم الحزب الشيوعي إضراب عمال النفط في شركة نفط العراق I.P.C. للدفاع عن حقوقهم ضد الرأسمال الامبريإلى. وعادت الحكومة لاستخدام آخر وسيلة للقمع لكسر الاضراب، فأطلقت الرصاص على جموع العمال المحتشدين في كاووربـاغي، فسقط ١٣ شهيدا بينهم طفل وجرح العشرات. فألهب رصاص القمع الغضب الشعبي وانضمت الاحزاب الوطنية إلى حملة التضامن مع العمال المضربين والمطالبة باسقاط الحكومة التي قتلت العمال دفاعا عن الارباح المفرطة لشركات النفط الاحتكارية. وأخذ الحزب الشيوعي يهيء لاضراب سياسي عام بالتعاون مع جميع الاحزاب الوطنية للاطاحة بالحكومة الرجعية وإجراء انتخابات حرة. واعد البيان الذي يدعو الشعب للاضراب السياسي العام،ووقعت عليه جميع الاحزاب الوطنية.

أقلق هذا النشاط والمد الثوري المتصاعد في العراق الفئة الحاكمة والسفارة البريطانية وأخذت تعمل لوقفه. وفجأة كبحت أحزاب الوسط سير الاستعداد للاضراب العام ،فقد أوحت السلطات لها بان الانتخابات العامة سوف تجري في المستقبل القريب بحرية على يد حكومة ائتلافية وأن القلاقل من شأنها فقط أن تؤدي إلى إرجاء الفترة الانتقالية إلى آجال بعيدة!

رفض فهد مطالبة الرفاق بالسير في الاستعداد للاضراب العام والشروع به فعلاً من جانب الحزب الشيوعي وحده وعلى مسؤوليته مؤكداً على أهمية مساهمة الاحزاب اليسارية والوسطية الضرورية لانجاح الاضراب السياسي العام ولمواجهة المقاومة العنيفة التي تجابهها من جانب الاستعمار والرجعية.

وفوجئ الشعب بعودة نوري السعيد إلى الحكم في أواخر ١٩٤٦ بعد غياب تجاوز ثلاث سنوات. ولكنه عاد مقنعاً بقناع الديموقراطية. وشكل وزارة جديدة ضمت اليمين والوسط. وتولى فيها محمد حديد ثاني زعماء الحزب الوطني الديموقراطي، وزارة المالية ممثلا لحزبه في الوزارة السعيدية. وكان هذا أكبر مفاجأة للرأي العام وفتّ في عضد الاحزاب اليسارية. فثارت ثائرتها على الحزب الوطني الديموقراطي وزعيمه كامل الجادرجي.

وقد عالج فهد الوضع المتأزم في الحركة الوطنية بصبر وأناة، سواء بالمفاوضات أم بالنشاط الجماهيري. وقدم حزب التحرر مرشحيه للانتخابات وعلى رأسهم حسين محمد الشبيبي، واستأجر قاعة سينما الفارابي في المربعة من شارع الرشيد لعقد إجتماع إنتخابي حسب القانون وفي الوقت المحدد للاجتماع داهمت الشرطة القاعة وفضت الاجتماع باستخدام العنف ضد المجتمعين

فخرجوا بمظاهرة صاخبة وعلى رأسهم حسين الشبيبي المرشح للنيابة وسرعان ما هاجمت الشرطة المظاهرة واعتقلت الشبيبي.

غضب الجادرجي على نوري السعيد الذي فضّ الاجتماع الانتخابي بالقوة والعنف وتذمر من فهد الذي أراد من عقد الاجتماع الانتخابي أن يحرجه فيخرجه من الأئتلاف مع نوري السعيد ذي القناع الديموقراطي. وأخيراً وقبل أن تتم عملية تلفيق الانتخابات العامة للمجلس النيابي المهيأ لعقد معاهدة تحالف جديدة مع بريطانية تحل محل معاهدة ١٩٣٠ التي ينتهي أجلها عام ١٩٥٠، سحب الحزب الوطني الديموقراطي وزيره من حكومة نوري السعيد وانسحب ممثلو الوسط الاخرون وسقط القناع من وجه نوري السعيد ولكن بعد أن أدى دوره في إحباط الحركة الثورية الزاخرة في فترة ما بعد الحرب مؤقتاً.

كنت في تلك الفترة أعمل في جريدة «السياسة» لسان حزب الاتحاد الوطني، وكان رئيس تحريرها ناظم الزهاوي وهو من أقطاب هذا الحزب الذي تشكل كحزب مستقل بعد أن رفضت الاحزاب اليسارية: الشعب والوطني الديموقراطي قبول مؤسسيه في عداد هيئاتها المؤسسه. ولم يكن يملك تنظيما جماهيرياً بأي حجم كان. وكان يدعو إلى دمج الاحزاب اليسارية في حزب واحد، من الحزب الوطني الديموقراطي إلى حزب التحرر الوطني. ولم تلق هذه الدعوة آذانا صاغية من أحد حتى ألغى البوليس اجازات جميع الاحزاب الشرعية. ولم أنتم أنا ولاشريف الشيخ إلى هذا الحزب رغم صداقتنا الحميمة مع معظم قادته وكان من بينهم شاعرنا الكبير الجواهري.

وكانت كتلتنا السرية الصغيرة «اللجنة الوطنية الثورية» تتعاون مع جميع الاحزاب اليسارية ولاسيما حزب التحرر الوطني. وفي فترة الانتخابات السعيدية اتفقنا جميعاً بعد أنّ فض اجتماع الفارابي على عقد اجتماع انتخابي غير شرعي ومفاجئ في صحن الامامين موسى الكاظم ومحمد الجواد. وانعقد الاجتماع فعلا وقد حضره بضعة مئات وفي الوقت المعين صعدت المنبر الذي كانت تتلى من فوقه ملحمة الحسين الشهيد الخالدة وشرعت بإلقاء خطبة ضد تلفيق الانتخابات وخلال ذلك جاءت مفرزة من الشرطة يقودها ضابط صغير وأخذت تشق طريقها بين المجتمعين متجهه نحو المنبر ولم ينتبه لها معظم المجتمعين الذين ركزوا انتباههم على الخطيب. أما أنا فقد لاحظت تقدمها نحوي فرفعت صوتي أعلى فأعلى حتى جاء المفوض وأوعز لي بالنزول فلم أرضخ وأخذ يمسك بأطراف معطفي ويشده فلم آبه له وبدأت الشرطة بفض الاجتماع بالقوة ولكن الجمهور دخل في معركة بالايدي مع الشرطة وانهالت القبضات على المفوض أيضاً وانتهت المعركة بهزيمة الشرطة ولكن المجتمعين لم يواصلوا الاجتماع بل انفضوا من أبواب الصحن العديدة.

عدت من جديد مطارداً من قبل الشرطة! واعتقلت وفي التوقيف التقيت حسين الشبيبي مع بضع عشرات من المعتقلين السياسيين ومنهم كامل قزانجي ومناضل تونسي وكان يشملنا تنظيم واحد ومنظمنا المعلم الشيوعي جاسم حمودي وكان منظماً صارماً جداً وقد حرم المعتقلين حتى من لعب الشطرنج في بعض الاحيان. وفيما بعد شكوه إلى فهد، فالتفت اليه فهد وقال له مبتسماً ومعاتباً: سويت الشيوعية قنقينة (كنين) بعد منو يجي للحزب؟!

واصل فهد في تلك الفترة اتصالاته مع قادة الاحزاب الوطنية لرأب الصدع بينها ومن أجل قيام الجبهة الوطنية وللنضال من أجل تحقيق الجلاء والديموقراطية. وكان موعداً للاجتماع بسعد صالح القائد الوطني الفعال لحزب الاحرار ووزير الداخلية السابق الذي اجاز الاحزاب السياسية باستثناء حزب التحرر الوطني. وكان فهد وزميله زكي بسيم ينتظران الموعد في دار ابراهيم ناجي في الصالحية في الكرخ من بغداد فداهمت الشرطة الدار واعتقلتهما.

كنت في الموقف العام في باب المعظم ورأيت الحزن العميق على وجوه الجميع ولاسيما حسين الشبيبي رئيس حزب التحرر الوطني وعضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي.

وكان اعتقال فهد السكرتيرالاول للحزب الشيوعي العراقي نكبة وطنية حقيقية كان لها تأثيراتها السلبية الفادحة على الحزب الشيوعي وعلى عموم الحركة الوطنية. وكانت تهديداً للاحزاب الوطنية الاخرى، وتمهيدا لعقد معاهدة بوتسموث البريطانية العراقية. وقد أعقبها إغلاق أبواب مقرات الاحزاب الوطنية ودمغها بالشمع الاحمر من جانب حكومة صالح جبر التي تلت حكومة نوري السعيد، بعد أن هيأت هذه كل شيء لعقد المعاهدة. وفي الوقت نفسه كانت تجري الاستعدادات لتمزيق فلسطين وإقامة اسرائيل كقاعدة رئيسة للامبريالية في قلب البلاد العربية.

37

مع فهد في محبسه

حكمت بالحبس سنة مع مراقبة الشرطة لسنة أخرى بسبب الاجتماع الانتخابي وكان هذا أكبر محكومية صدرت ضد أي مشارك بذلك الاجتماع. أمضيت النصف الأول منها في الموقف العام في بغداد وفي سجن الناصرية والنصف الثاني في سجن الكوت حيث سجن فهد ورفاقه.

استقبلت في سجن الكوت استقبالاً رفاقياً حاراً من جانب فهد. كان هذا أول لقاء بيني وبينه. سبقه لقاء خاطف في مكتب مدير أموال القاصرين ناظم الزهاوي، بعد عودتي من المنفى في عانه في أواخر عام ١٩٤١ أو بداية ١٩٤٢ فقد جاء فهد لتسلم التبرعات من ناظم وخرج ولم أكن اعرفه ونبهني شريف الشيخ بعد خروجه فقط أنه فهد، مؤسس الحزب الشيوعي.

كان فهد بسيط المظهر كما لوكان فلاحاً، مربوع القامة متين البنية مقرح الجفنين قليلاً يضيء من بينهما شعاع بعيد ينم عن ذكاء عميق، خفيض الصوت يتكلم بأناة وقد مارس العمل اليدوي الصعب في معمل الثلج ردحاً من الزمن، وظل يمارسه أحياناً في مطبخ السجناء السياسين. وكان عهد ذاك في الخامسة والأربعين من عمره.

في الموقف العام في بغداد وفي سجن الكوت أمضيت عام ١٩٤٧ مع شباب فهد، وبتعبير آخر في تنظيمه إذ لم يكن في الموقف أو السجن أي تنظيم آخر بمواجهة تنظيم الادارة الحكومية البوليسي. ولم يكن لأي حزب وطني آخر تنظيم باستثناء شلة داود الصائغ إذ كان جل السجناء السياسين أن لم يكن كلهم عهدذاك من الشيوعيين أو حلفائهم. هذا من جهة ومن الجهة الاخرى كان الشيوعيون أكثر استعداداً للتنظيم، ودمج مصالحهم الخاصة بالمصلحة المشتركة سواء من الناحية النفسية أو السياسية، وقد كرس فهد جهوده في السجن على تربية الشيوعيين بالروح الجماعية، بحب التنظيم والانضباط ومن لم يكن على استعداد للاندماج بالجماعة كان بإمكانه أن ينتقل بمحض إرادته إلى التنظيم الاخر دون أن يحرم تماماً من رعاية التنظيم الشيوعي. وقد وجدت مثل هذه الأعشاش المنعزلة فعلاً في مختلف السجون جنباً إلى جنب مع التنظيم الشيوعي ولم تصب بسوء من الشيوعيين في حياة فهد.

وكانت الأغلبية الساحقة من السجناء السياسيين من الشيوعيين وحلفائهم رغم وجود أربعة احزاب سياسية معارضة لها تنظيم جماهيري آنذاك: الشيوعي والتحرر الوطني، الشعب، الوطني الديموقراطي، الاستقلال. وكان منتسبوها بدرجات متفاوتة جدا عرضة للحبس والاعتقال بسبب نشاطهم السياسي ولاسيما في الشارع في فترات تصاعد المد الثوري الجماهيري أما في الحالات الاخرى فمن النادر أن ترى في السجن غير الشيوعيين وحلفائهم. ذلك أن فهد قد أزمع أن يبني حزباً ثورياً مستعداً للنضال في جميع الظروف أي لا يعرف الموسمية في النضال وليكون القدوى للجماهير في نضالها الذي لن يتحقق بدونه شيء من طموحاتها في بلد غائب الحرية السياسية الا

نادراً. فكان الشيوعيون اكثر الفئات السياسية استعداداً للنضال في مختلف الظروف وبالتالي كانوا الأكثر استعداداً للتضحية ونكران الذات والتحدي وهو ما كان فهد يسميه «الثورية العراقية»، وقد ندد بعض نقاد فهد بقوله: «لو كان عندي مائة عضو فقط لما ترددت في الزج بهم في المظاهرات» وليس في هذا الزعم إفتئات على فهد إذ كان، أولاً، يريد أن يبني الحزب من عناصر مجربة متصلبة في النضال وجها لوجه مع العدو، وثانياً، يريد أن يهيئ الجماهير الواسعة للنضال عن طريق قوة المثال التي تضربها الطليعة للجماهير. وكان له ما أراد. وقد تربت الجماهير الثورية في العراق على ايدي الشيوعيين على النضال المنظم فلم تقع في أي مظاهرة قادها الشيوعيون في العراق حوادث نهب أو سلب أو حرائق أو تدمير ممتلكات الناس. وهكذا برهن الشيوعيون أيضاً على احترامهم للملكية الخاصة! وفي الانتفاضات الشعبية كانت الجماهير تخرج إلى الشارع قبل الشيوعين لتبدأ المظاهرات بعد أن تعلمت تنظيمها منهم.

لم يفرط فهد بالمناضلين في السجن بل كرس جهوده على العناية بمعيشتهم من مأكل وملبس ومنام ونظافة ورياضة وترويح عن النفس وقد عني بتثقيفهم ليس سياسياً فقط ولا بمبادئ الشيوعية العلمية وحدها بل بثقافتهم المدرسية أيضاً وباللغة العربية والانكليزية وبالادب العربي خصوصا الذي عهد بتدريسه للأديب المناضل حسين الشبيبي عضو المكتب السياسي وعندما تمنع هذا مرة بسبب تعكر مزاجه انتهره فهد على رؤوس الاشهاد! كان فهد مربياً للرجال صارماً صابراً طويل الاناة. وفي أحد الايام في السجن وقعت مشادة بين علي شكر رئيس نقابة عمال السكك وفهد فقال علي شكر محنقاً: «تصعدون (يعني قيادة الحزب) على أكتافنا إلى كرسي الحكم» فرد عليه فهد: «لا بل نصعد على اكتافكم إلى المشانق!» وهذا ما كان مع بالغ الأسى والأسف! فتأثر علي شكر وخجل واعتذر على الفور وانتهى كل شيء. وكان فهد يعتني بتعليم علي شكر حتى اللغة الانكليزية وقد أراني فهد باعتزاز كيف يخط علي شكر الحروف الانكليزية وكانت الحروف بارزة ومدورة فقلت مازحاً: هذه جروخ مال شمندفر (عجلات قاطرة) فقال فهد مشجعاً علي شكر: هذا يعني مدح! وكان لشدته في الخصومة الساسية مع الوطنيين الاخرين تأثير سلبي فعندما اشتدت الخصومة بينه وبين عزيز شريف بسبب دعوة الاخير لحل الحزب الشيوعي السري شبهه فهد بالديدان التي لاتريد أن تفارق الطين. وربما كان قد فرط ببعض المثقفين الذين كانوا يطالبونه بحرية المناقشة أو بصياغة برنامج ونظام داخلي للحزب مبكراً كما انه لم يتحمل النقد من خارج حزبه فقد نقلت له في سجن الكوت بعض انتقادات الاحزاب اليسارية الاخرى للحزب الشيوعي فنهض من جانبي وكنا جالسين القرفصاء على الارض وتركني وحيداً وكأنني اقترفت إثماً. ولم اكن كما يقال «ناقل الكفر ليس بكافر» فقد كنت متعاطفاً مع النقد المتعلق بطابع العلاقات بين الحزب الشيوعي والاحزاب اليسارية الأخرى، أعني طابع التشدد.

كان فهد يتحمل المناقشات الشفوية الحادة بين الرفاق بطول بال ولكن لم يرد له على بال نشر أي رأي مخالف في صحافة الحزب لانه كان يطبق المركزية الديموقراطية على الطريقة الستالينية. أي حكم الاكثرية من دون أي حقوق للاقلية كحق الدفاع عن الرأي مثلا في الصحافة.

ولم يكن يعاصر فهد سياسي آخر أكثر إلماماً بأحوال العراق كما أنه كان واسع الاطلاع بشؤون البلدان المجاورة أيضا. وفي أوائل الثلاثينات طبع بطاقة فيها صورته كسائح عراقي ليعيش من ريعها خلال جولته مشياً على الأقدام في أطراف العراق وفي البلدان العربية المجاورة.

وقد حدثني مرة عن لمحات من تلك السياحة. فقد كان عائداً من الكويت مشياً، فأدركه المساء وهو في قلب الصحراء ولم يجد مأوى سوى بيت بدوي منفرد من شعر الماعز فنزل ضيفا عليه. وبادر البدوي المسن من فوره وأمسك برقبة حمل يريد ذبحه عملاً بواجب الضيافة عند البدو فمنعه

فهد واكتفى من كرم الضيافة بالشنينة وهي اللبن الخاثر المخفف بالماء. وكان متعبا من المشي إلى حد الاعياء فمد له البدوي البساط ونام من فوره حتى ضحى اليوم التالي. وعندما أخذ يستيقظ وهو في المرحلة الانتقالية بين النوم واليقظ أخذ ضميره يوخزه لأنه حرم البدوي من فراشه طوال الليل واستأثر به هو. فنهض وياللعجب فلم تكن هناك لاخيمة ولا شاة ولا بدوي ولا فراش! فقد أزمعوا أمرهم عشاءً على الرحيل وقبل أن يصحو هو استلوا فراشهم من تحت الضيف الكريم وهو يغط في نومه العميق وغابوا عن الانظار في جوف الصحراء.

وفي الاردن حضر مجلساً للملك عبد الله جد الملك حسين الحالي. ومن بين ما حكاه، رأي الملك عبد الله في آل سعود الذين الحقوا وطنه الحجاز بالقوة وهو نموذج للغة الملوك في بعضهم ولهم من ديوان الخطيئة معين.

وكان حديث فهد أخاذاً آسرا ومعرفته موسوعية، وكان ملماً بالفولكلور وبحياة الجماهير، متضلعا بالشيوعية العلمية ولاسيما في الاقتصاد السياسي. وكان يدرسه بنفسه للرفاق ويعيد الدرس بعده محمد حسين أبو العيس. وكانت مسائله الأيضاحية مستمدة من الحياة، حياته بالذات الغنية بالتجارب.

وقمت بترجمة بعض المقالات بتكليف من التنظيم. وألّف فهد لجنة من الملمين بالانكليزية لمراجعة الترجمة. وكان يعمق فحوى المادة المترجمة ولا يقنع بالترجمة الحرفية. وقد شهد لي شهادة اعتز بها وهي أنني أترجم المعنى كاملاً عن الاصل. ومرة ترجمت عبارة عن مقال كتبه بالم دات بعنوان «سلطان الماركسية» عن الذكرى المئوية للبيان الشيوعي جاء فيه «لو كان ماركس حياً لاثلج صدره إذ يرى عالمنا المعاصر وقد طبع بطابعه» فاعترض عضو اللجنة ابراهيم ناجي قائلا:

ـ أن هذا بالعكس تماماً مما ورد في الأصل فهو «لدفأ ذلك قلبه»

فدافعت عن هذا التحريف بكون بلادنا حارة! فحكى فهد بالمناسبة حكاية مبشر مسيحي قام بالتبشير بين الاسكيمو في الدائرة القطبية الجامدة فقال لهم:

ـ من يكون مسيحياً سيدخل الجنة ومن لايكون مسيحياً سيدخل جهنم. فسألوه:

ـ وكيف هما؟ قال:

ـ الجنة باردة ذات هواء عليل وجهنم حارة كالنار! فقالوا له

ـ وهذا أفضل لنا دعنا من جنتك ومسيحيتك!

ومن اهتمامات فهد العناية بمطبخ السجناء السياسيين فكان يجري التحسينات على طريقة التحضير والافادة من المواد وعمل مرة مربى من قشور البرتقال والسكر وأعطاني ملعقة وبعد أن جربتها قلت:

ـ كان الأفضل أن نأكل كل مادة على حدة!

وكان يعمل جهده مثلاً لحصر البخار في القدر لينطبخ الطبخ بنار أقل وبسرعة أكبر وبصورة أتم دون نقص في القيمة الغذائية. وهو الذي اخترع طريقة للطبخ بالنفط الابيض والماء بنصب خزانين مرتفعين أحدهما للنفط والاخر للماء فيخرج النفط بقوة مشتعلاً فيختلط بالماء ويحوله إلى بخار ملتهب ومنتشر بدون دخان كثيف ولما عرفت إدارة مستشفى الكوت بهذا الاختراع أرسلت عاملا إلى السجن ليتعلمه وقد أنتشر فيما بعد استعماله وعلى هذه الصورة طور فرن الخبز فتخلص السجناء من الدخان الكثيف الذي كان يسببه النفط الأسود من دون زيادة في الكلفة وهذا حقق إصلاحاً بيئياً (ايكولوجيا) مبكرا.

وفي مقدمة اهتمامات فهد العناية بمزاج السجناء والترفيه عنهم. ففي كل اسبوع كان يقيم حفلة واحدة على الأقل للغناء والموسيقى والسمر فضلاً عن الحفلات السياسية بالمناسبات التاريخية.

كان فهد إنساناً وإنسانياً من كل الاوجه بقدر ما كان ثورياً صارماً وكان فيه نقطة ضعف للشطرنج يمضي ساعات طويلة يلعبه وهمه الأول التدريب وليس الفوز فكان يعيد بعض الحركات مراراً وقد منعه زكي بسيم من هدر أوقات طويلة في الشطرنج ليوفر الوقت للتدريس. وكان كل وقته مفتوحاً للرفاق لعرض مشاكلهم أو الاجابة على اسئلتهم في شتى المجالات.

وحكى لي كيف أن بهجة العطية مدير التحقيقات الجنائية عرض عليه بعد توقيفه في كانون الثاني/١٩٤٧ رغبة نوري السعيد في لقائه فعبر هو عن عدم ارتياحه لهذا اللقاء بالسكوت وعدم الاكتراث. ولم يحصل اللقاء إذ تيقن نوري السعيد أن هذا الثوري العنيد غير مستعد للانخداع. فصدر الحكم بالاعدام على فهد وزكي بسيم وابراهيم ناجي. بيد أن الحزب كان لايزال قوياً والوضع العالمي لم يكن قد توتر كثيراً وحملات التضامن الأممي قوية فأبدلوا حكم الاعدام بالسجن المؤبد.

كان نوري السعيد يريد أن يجدد التحالف مع بريطانية بدون ضجة أو معارضة جدية بأقل ما يمكن من المقاومة من جانب المعارضة الوطنية ولذا كان يخادع أقطابها. وقد شخص فهد كاقوى عدو في جبهة المعارضة الوطنية وكان مصيباً وعندما دخل فهد ورفاقه زنزانات الاعدام في سجن بغداد المركزي وجدوا فيها لفيفاً من أتباع البارزاني محكومين بالاعدام. وكان هؤلاء قلقين فطمأنهم فهد قائلا:

إنهم سينشغلون بنا وسيخرجونكم من هذه الزنزانات ويخففون أحكامكم!

وهذا ما حصل فعلاً.

كان فهد متفائلاً من المستقبل القريب في العراق بناء على نضج عوامل الثورة الوطنية الديموقراطية كما كان يرى. وكان حريصاً جداً على التحالف مع القوى الوطنية ولم ير عنه بديلاً. وقد هاجم الرفاق المتحمسون كامل الجادرجي لقبوله الائتلاف مع نوري السعيد وأفتوا بشطبه من لائحة القوى الوطنية، فرد عليهم قائلا:

- حتى لو بقي الجادرجي لوحده لتحالفت معه لأن الجادرجي يمثل تياراً معيناً في الحركة الوطنية ولا غنى عن هذا التيار.

وكان فهد غير راض عن اليساريين الماركسيين الذين دخلوا الحزب الوطني الديموقراطي للضغط على الجادرجي من داخل حزبه إذ كان يتوقع أن مثل هذا التاكتيك سيؤدي إلى نتائج معكوسة. وكان مصيباً في تقديره هذا. فقد كان الجادرجي يعرفهم ومع ذلك قبلهم أعضاء في حزبه وعندما أخذوا يعارضونه جهارا شن حملة على «الشيوعيين» لانهم جاءوا ليخربوا حزبه حسب زعمه. وفي مذكراته يرى الجادرجي أن الحزب الشيوعي جلب الشر على الحركة الوطنية لان وجوده فيها أعطى ذريعة للاستعمار لمحاربتها بضراوة. والحال أن الحزب الشيوعي العراقي كان في الحقيقة وواقع الامر مانعة صواعق، بالمعنى الايجابي، للحركة الوطنية إذ استقطب غضب الامبريالية. وكانت قوة الحركة الوطنية تتناسب طرداً مع قوة الحزب الشيوعي السري أو كما يقول الشاعر: «والخوافي قوة للقوادم».

وكان زكي بسيم اقرب مساعدي فهد اليه ويده اليمنى في التنظيم وكان ملاكاً طاهراً كشعاع الشمس. وكل وقته حركة دائبة في خدمة الرفاق والجميع حتى فهد نفسه يخضع لمحاسبته الرفاقية. كان حاضراً لسماع شكوى كل واحد وفي كل وقت حاضراً أمام أعين الجميع. وقد اخضع

حتى مدير السجن لقوته المعنوية الآسرة، لصدقه وصفاء سريرته واستقامته وحسن نواياه. كان عضو المكتب السياسي إلى جانب فهد وحسين الشبيبي وعبد تمر المنظم النقابي. ولولا فهد لكان مستوى المكتب السياسي دون المستوى المطلوب للقيادة السياسية للحزب الشيوعي العراقي.

كان الرفاق الثلاثة يقودون الحزب من داخل السجن بعد أن سجنوا وكانت هذه منتهى الغفلة السياسية إذ كانت بمثابة وضع رقبة الحزب على حافة المقصلة ورأسه بيد العدو الذي انزل المقصلة وقطع الرأس عندما حانت الفرصة. وبعد أن فوتت كثيراً من الفرص المؤاتية لإنقاذ الرأس. ولم تعوض الخسارة إذ لم يكن من الممكن تكوين قائد سياسي محنك حسب الطلب وفي الوقت المناسب.

كان فهد يعول في خروجه من السجن على الحركة الجماهيرية والدعم الاممي الذي انقذه من حكم الاعدام، هذا من جهة، ومن الجهة الاخرى كان يخشى أن يؤدي هروبه من السجن إلى تشديد الارهاب ضد السجناء السياسيين. وفي وثبة كانون ١٩٤٨ قدم الحزب الشيوعي شعار العفو عن السجناء السياسيين بيد أن أحزاب الوسط اعتبرت هذا الشعار «حزبية ضيقة» و«استفزاز» وكأن العفو العام عن سجناء كانوا يدافعون عن الوطن والديموقراطية «قضية حزبية ضيقة» لمجرد كونهم شيوعيين وكأن الديموقراطية محرمة على الشيوعيين وما عليهم الا أن يضحوا في سبيلها ليحرموا من بركاتها.

كان الشبيبي سياسيا سياسيا كفوءاً وبارزاً ومقداماً بيد إنه كان مزاجياً وقد اعتلى المشنقة بجنان لا يتزعزع وقال:

لي الشرف أن اشنق في نفس الساحة (باب العظم) التي طالما انطلقت منها المظاهرات الوطنية.

أما عبد تمر فكان منظماً نقابياً كفوءاً وليس سياسياً شيوعياً وبعد خروجه من السجن وقد امضى فيه فترة قصيرة ترك النضال السياسي باعتبار ذلك أسلم وبقي عاملا نقابياً مخلصاً للحركة النقابية.

كنت في سجن الكوت في نفس القاعة التي يدير شؤونها سالم عبيد النعمان عضو الهيئة المؤسسة لحزب التحرر الوطني. وكان منظماً صارماً، وبالاحرى بيروقراطياً، بقدر ما يتعلق الامر بفرض النظام على الاخرين. كان ينام على حشايا داثرة كثيفة ويتدثر باغطية دافئة وافية ويعصب عينيه عن نور الكهرباء الساطع ويكلف أحد الشباب بأن يقرأ له قصة حتى ينام. فخاطبته مرة:

- هل أنت هارون الرشيد حتى لا تنام إلا على تلاوة ألف ليلة وليلة؟

فتناوم ولم يجب، فقلت للشاب الذي كان يقرأ له:

- هيا انهض لقد نام..كفى.

ولاحظت محمد حسين أبو العيس قد انبسط كثيراً لتأنيبي لسالم. وكان من الشباب الواعد حمزة سلمان وساسون دلال اللذان استشهدا إذ أعدم ساسون دلال على يد الجلاد العميل نوري السعيد وأعدم حمزة سلمان على يد انقلابيي ٨/ شباط /١٩٦٣ عندما كان في السجن حيث أودعه عبد الكريم قاسم. كانا في سجن التوقيف يدرسان الشيوعية العلمية سوية ويتناقشان فيما بينهما ويجران الاخرين إلى النقاش ويسألان عن كل إشكال متلهفين للمعرفة لا يقر لهما قرار. كانا كتلتين من النشاط الدائب والحركة الدائمة. وقد حكى السجناء العاديون في سجن بغداد، وهم شهود عيان، كيف اعتلى ساسون دلال المشنقة برباطة جأش بعد أن قرأ النشيد الاممي أما جلادو انقلاب ٨/ شباط فقد حرموا الشهداء حتى من قراءة النشيد. وبعد أن اعدم ساسون دلال حكم عليه سالم عبيد النعمان بالاعدام المعنوي إذ وصمه بالتروتسكية لأنه كان يسلح المتظاهرين بالعصي

التي حدد طولها بخمسة وسبعين سنتمتراً ليدافعوا بها ضد عصي الشرطة وحمله مسؤولية اعدام فهد ورفيقيه لانه لم يعمل اللازم لانقاذهم والحال أن تنفيذ الاعدام جاء في ظروف التوتر الدولي إلى حافة الحرب وانتكاسة الوضع الثوري في العراق، بعد أن انتهت الوثبة إلى طريق مسدود وفشل الدول العربية في انقاذ فلسطين وحتى في إقامة دولة عربية في جزء من فلسطين..

واتهمت التحقيقات الجنائية ساسون دلال بالصهيونية وهي التي تعاونت مع الصهيونية لتهريب يهود العراق إلى اسرائيل.

تعرفت في سجن التوقيف على الشاب سميع جاني عامل الصياغة الصابئي وكان اقل من ساسون دلال وحمزة سلمان ثقافة ولم يكن أقل منهما شغفاً بتعلم الماركسية اللينينية ولا ينفك عن إلقاء الاسئلة. وقد كتبت عنه بعدئذ جريدة الحزب القاعدة في فترة «باسم»: «احذروا الجاسوس سميع جاني» وبعد ذلك قتله تحت التعذيب انقلابيو ٨/ شباط، فمات شهيداً.

يعيرنا البعث الصدامي بأننا حزب أقليات. أجل نحن حزب جميع أقليات أي جميع الطوائف بما فيها «الاقلية» الشيعية التي تناهز ثلاثة اخماس سكان العراق وهم حزب الاكثرية - اكثرية صدام التي يبدو أمامها جميع سكان العراق أقليات فما العمل؟ لقد جر الشيوعيون ابناء الطوائف المستضعفة إلى النضال بعد أن كانت الامبريالية تدعي حمايتهم لتضعهم ضد شعبهم وتجعل من «حماية الاقليات» وسيلة لقمع النضال الجماهيري الثوري والتحرر. وكان الاستعمار نفسه يثير الفتن ضد الاقليات ليدعي حمايتها وفي نفس الوقت ليفسخ الحركة الوطنية ويسهل ضربها كما فعل في فرهود ١٩٤١ عندما احتلت القوات البريطانية البصرة لضرب حركة مايس ١٩٤١ فأباحت الفرهود (النهب الغوغائي) وكما أباح عملاء الانكليز الفرهود في بغداد بعد فشل حركة مايس نفسها.

38

تنظيم حياة السجناء السياسيين

كان التنظيم يتسلم أرزاق السجناء السياسيين من الادارة، وكانت أفضل بكثير مما يناله رفاقهم في السجون الاردنية كما جاء في بدايات يعقوب زيادين، ويكافح سرقة الارزاق المخصصة رسمياً من جانب الادارة الفاسدة والمقاول. ويضيف الطباخون اليها المحسنات والمطيبات كالتوابل ومعجون الطماطة. ومع ذلك هذا لايكفي ويحتاج إلى إضافات من الرز والسمن و..الخ يأتي بها في الزيارات الأقارب القادرون على توفير شيء لأولادهم السجناء. ولكن الجميع كانوا يشاركون في الأكل من نفس القصعة سواء كانت لديهم هدايا من الأقارب أم لم تكن.

كانت بعض العوائل تتشهى طبخة معينة لأولادها ألفوها منذ الصغر فتقدمها لهم في الزيارات وكان فهد يرعى هذه الحالة النفسية بدقة فيعطي حصة الاسد من تلك الأكلة المنفوسة للولد المدلل الذي طبخها أهله له ويوعز بتوزيع الباقي على الجميع وأحياناً تجري القسمة بمقاييس صغيرة جداً لقلة حجم المقسوم وكثرة عدد الافواه الآكلة. بيد أن هذا كان مريحا للنفس.

وكان أكل السجناء فردياً منذ الاحتلال البريطاني فيعطى لكل سجين طاساً من النحاس، وفيما بعد من الالمنيوم، يتناول فيه جميع الوجبات اعتباراً من فطوره الصباحي وهو «الشوربة» أي عصيدة الرز مع العدس أو الماش أو الهرطمان (الشوفان) مع رغيف من الخبز والغداء عشرين حبة تمر زاهدي قسب مع رغيف الخبز وفي الصيف مع بعض الثمار كالبطيخ الاحمر (الرقي) والخيار، وفي العشاء الخضار المطبوخة وأحياناً الرز. وكان اللحم في البداية مرتين في الاسبوع وغدا أخيراً مرة في اليوم بعد أن تدفقت عوائد النفط على العراق.

ولكن الشيوعيين كانوا يأكلون في قصاع كل ستة في قصعة واحدة وكان الاكل الجماعي على القصاع يربي آداب المائدة. فمن تعود على الاكل الفردي والسريع عند أهله يتندرون عليه ويمنحونه لقب «طفار» حتى يتعود على الاكل بتأني. فيبدأ مع الجماعة وينتهي معها. وهذا أفضل لعملية الهظم والتمثيل كما يبدو. والاكل كان جلوسا على الارض وهذا «رياضة» صعبة بحد ذاتها بيد أنها تعلم الصبر على المكاره.

كان أولاد الدلال المبغددون يعيدون تربية انفسهم فيمارسون أعمالاً لم يمارسوها في بيوتهم كغسل الملابس والصحون وتقشير البصل وفرمه. وقد تخرج منهم طباخون عموميون أكفاء. وكان الكل يشتغل بالدور «خفارات» وقد لاحظنا أن الصحون والقدور تنجلي كالفضة المجلوة في خفارة النجار شاكر فقلنا له:

ـ تقديراً لعنايتك الفائقة في غسل الصحون والقدور قررنا بالاجماع إنتخابك خفراً دائمياً. فرد من فوره وبنبرة هادئة

ـ أهنئكم وأعزي نفسي!

إن مقولة ستالين بأن «الشيوعيين جبلوا من طينة خاصة» لا أساس لها في الواقع. فكل نقاط ضعف النفس البشرية موجودة عند الشيوعي وليس لديه إلا مزية واحدة تميزه وهي الاستعداد الأكثر للتضحية. وهذه الميزة أم الفضائل الانسانية والاخلاق الكريمة. وهي ليست وراثية بل تغرس بالتربية وقوة المثل. وكان فهد مثل هذا المربي والمثال. ويوجد دائماً وفي كل مكان من هم على هذه الشاكلة إنما يجب البحث عنهم واكتشافهم.

كان فهد يربي حب التضحية ونكران الذات بقوة المثل يضربه بنفسه سواء في العمل المتواصل على حساب أوقات الفراغ والراحة أو في التقشف في المعيشة واللباس. كان فهد خارج السجن يعيش في مساكن شعبية من أرخص فئات بدل الايجار ويشتري أرخص أنواع الخضراوات كالحمقاء (البربين) والقرع الاحمر ويعمل منها سلطة. وهكذا استطاع بناء الحزب عندما كانت موارده شحيحة جداً لقلة عدد أعضائه وفقرهم. وعندما تركه المثقفون ذوي المصادر المالية الوفيرة. كان يربي روح التواضع في المعيشة لدى الرفاق المناضلين. وكان إحتراف العمل الحزبي في عهد قيادته مقتصراً على من تمس الحاجة لتفرغهم كلياً للعمل.

39

قضية شعب مظلوم أم نزاع عربي إسرائيلي

قبل خروجي من السجن، وفي نهاية تشرين الثاني ١٩٤٧، سمعنا قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الامم المتحدة. نزل الخبر على الشيوعيين نزول الصاعقة ولا سيما لان الاتحاد السوفيتي كان من الموافقين على التقسيم. وقد لاحظت محمد حسين أبو العيس وكأنه أصيب بدوار، واستسلم إلى النوم في فراشه لساعات في وضح النهار. وعندما استيقظ من نومه شرع على الفور يجادل ضد التقسيم.

كان الحزب الشيوعي العراقي منذ تأسيسه يثقف أعضاءه وجماهيره ضد الوطن القومي لليهود وضد الصهيونية التي نمت وترعرعت تحت رعاية الامبريالية. وكان تثقيفه هذا يسترشد بالماركسية اللينينية التي كانت تدين الصهيونية باعتبارها حركة انشقاقية تعزل العمال اليهود عن سائر العمال الذين يتعايشون معهم في بلدانهم وتضعهم تحت هيمنة رأسماليهم. وكان استيطان اليهود في فلسطين يعني في الوقت ذاته اغتصاب الأرض من أصحابها الشرعيين الذين عمروها بدمائهم وعرقهم طوال أربعة عشر قرناً ولم يهجروا أراضيهم في فلسطين إلا بالاكراه. فبعد كل ذلك كيف يقدم الاتحاد السوفيتي على اعتبار المستوطنين اليهود من مختلف الامم شعباً له الحق في تقرير المصير بما فيه إقامة دولة منفصلة على أرض الشعب الفلسطيني العربي المغتصبة بقوة السلاح البريطاني والانتداب البريطاني؟! حتى فهد لم يجد جواباً لهذا التساؤل! وقد جاءني على انفراد وسرّني دهشته من ذلك قائلا:

ـ لا أدري كيف أعترف الاتحاد السوفيتي بدولة لليهود!

وفيما بعد كتب فهد رسالة للحزب صرح فيها بصورة قاطعة أن المستوطنين اليهود جماعة من الناس لهم حقوق معينة باعتبارهم أقلية وليسوا شعباً يستحق تقرير المصير وإقامة دولة بأي حال من الاحوال. وقد جاءت هذه الرسالة بعد أن غير الحزب موقفه بما يتوافق مع رأي الاتحاد السوفيتي وصدرت خارج السجن وثائق حزبية تبرر الموقف السوفيتي تبريرا ايديولوجيا. وكان لي شخصيا دور معين في هذا التبرير بعد خروجي من السجن. وكان الجذر الفكري لموقفي هذا هو الاعتقاد بان كل موقف سياسي يتخذه الاتحاد السوفيتي هو موقف مبدئي وما علينا إلا أن نبحث عن هذا الأساس المبدئي لنفهمه وندافع عنه. وإذا لم نجد ما يبرر ذلك صراحة في التعاليم الماركسية اللينينية كان يأتي دور التأويل والتفسير المؤدي إلى التبرير. فكنا نخضع الايديولوجيا للسياسة بدل العكس. وكان هذا هو نفس الجذر الفكري لأخطاء الحركة الشيوعية العالمية في المدة الاخيرة حيث كان المنظرون يبررون مواقف السياسيين. ولهذا الخلل الفكري علاقة بالاعتقاد بمعصومية القيادة السوفيتية وفي البدء معصومية ستالين وفيما بعد معصومية «القيادة الجماعية»

التي لايمكن أن يأتيها الخطأ. رغم ما جاء في رسالة لينين إلى أنيسة ارماند يقول فيها عن انجلس زميل ماركس في عمله: انه لا يعتقد بأن انجلس كان معصوماً من الخطأ. وفي العديد من المناسبات كان يشير إلى ارتكاب السلطة السوفيتية اخطاء خرقاء وإن تكن اقل خراقة من اخطاء الدول الرأسمالية. ولكننا كنا نمر بهذه الاعترافات مر الكرام ولم نمارس النقد لأساتذتنا الأكثر تمرساً وخبرة وعلماً كما ينبغي للتلامذه الشيوعيين أن يفعلوا ازاء أساتذتهم وكما يقتضي الواجب الاممي.

ولكن عندما اعدت الدول العربية قوات مسلحة لتحرير فلسطين بعد أن رفضت البديلين المعروضين عليها وهما (١) قيام دولة مشتركة بين العرب واليهود أو (٢) قيام دولتين منفصلتين واحدة للعرب والاخرى لليهود، بدأنا في جريدة الأساس الحملة تأييدا لحرب التحرير تحت شعارات مدوية ومنها «كل شيء للجبهة» واستمرت الحملة عدة ايام متتالية. وفي الموعد المقرر لتقسيم فلسطين، منتصف ايار/ ١٩٤٨، أعلن قيام «الدولة الاسرائيلية» وفي الحال اعلن إعتراف الولايات المتحدة الامريكية بها وفي نفس الساعة اعلن اعتراف الاتحاد السوفيتي بها أيضاً. فكان الاعتراف الاخير الصاعقة الثانية التي نزلت في ساحتنا نحن الشيوعيين العراقيين خلال اقل من نصف سنة. فأخذنا على عاتقنا تغيير موقفنا من الحرب بحيث ينسجم مع موقف الاتحاد السوفيتي. وبعد عدة ايام من الاعتراف لم تعد الاساس تنشر الشعارات الحربية وكتبت أنا مقالاً افتتاحياً ينتقد الدول العربية لانها اهملت الحل السلمي! كان واضحا اننا لم نعد من مؤيدي الحرب التي أيدناها في البدء بمنتهى الحماسة. وتولى عزيز شريف كشف الغطاء عن موقفنا الجديد في جريدته «الوطن» وأعلن صراحة أننا استوحينا موقفنا الجديد من الخارج يعني من الاتحاد السوفيتي. وأغلقت السلطات جريدة «الأساس» ولم يبق لنا سوى النشر السري. وفي النشر السري أخذنا كامل حريتنا في الرد على عزيز شريف وفي نقد الحكومات العربية.

وفي تلك الفترة جاءنا من باريس بحثاً يبرر قيام إسرائيل مع إضفاء صفة «التقدمية» عليها وعلى اعتبار أن البحث صادر من الحزب الشيوعي الفرنسي فاعاد المركز الحزبي في بغداد طبعه ونشره لتبرير موقفنا فكان ضغثاً على إبالة في الاساءة للحزب وسمعته النضالية الطويلة في سبيل القضية الفلسطينية واستغلت الحكومة ذلك ودفعنا الثمن غالياً.

وغير الحزب شعاره بالنسبة للقضية الفلسطينية من «تحرير فلسطين» إلى «قيام الدوله العربية إلى جانب إسرائيل في فلسطين» وكان هذا اعترافاً صريحاً بالتقسيم، ومع ذلك لو تحقق ذلك في حينه لوجدنا دولة فلسطين المستقلة ولما اضطر الفلسطينيون الآن إلى المطالبة بالحكم الذاتي على أقل من نصف القسم الذي خصصته هيئة الامم المتحدة من فلسطين لإقامة الدولة العربية الفلسطينية ولما تشتت الفلسطينيون. ولم يكن من مصلحة الامبريالية ولا الصهيونية قيام مثل هذه الدولة. ولكن ما شأن الدول العربية؟

إن الدول العربية لم تعمل على قيام الدولة العربية الفلسطينية. وقد صرح الرئيس الامريكي كارتر في عهد ولايته (١٩٧٧ ـ١٩٨٠) إنه لم يطلب منه أي رئيس دولة عربية منح الاستقلال للفلسطينين ليقيموا دولتهم. ولم يكذبه أي رئيس دولة عربية في حينه، هذا بعد أن أصبحت فلسطين بالكامل تحت الاحتلال الاسرائيلي وبعد أن اعترفت أكبر دولة عربية (مصر) بإسرائيل.

كانت الدول العربية والقيادات الفلسطينية في البدء لاتريد إقامة الدولة الفلسطينية في الحدود التي حددتها هيئة الامم لئلا يعد ذلك اعترافاً بإسرائيل وإن يكن ضمناً. وقد ادى هذا الموقف الرافض إلى سلسلة من الحروب استحوذت إسرائيل في نهايتها على كامل التراب الفلسطيني وأصبح قيام الدولة الفلسطينية أصعب منالاً وقد احتمت الطبقات الحاكمة العربية وراء شعار إزالة إسرائيل كدولة والحال كان معروفاً أن إزالة إسرائيل كدولة أو تحرير كامل التراب الفلسطيني لم

يكن ممكناً بالنسبة لعلاقات القوى القائمة في عالمنا وباختصار ما دامت إسرائيل محمية امريكية. ورغم ذلك لم يبخل لفيف من زعماء العرب بتقديم النصائح بين الفينة والفينة لأمريكا بانه من الأفضل لها أن تعتمد على العرب بدل إسرائيل!! وينسى اولئك الوعاظ الحكماء أن البلاد العربية بالنسبة لأمريكا هي الصيد في حين إسرائيل حارس الصياد. ولم يبلغ الغباء عند أمريكان حداً بحيث يقتلون الحارس بدلاً من الصيد. وكانت أمريكا تسمع هذه النصائح بأذنيها وتستمر في دعم إسرائيل في التوسع في فلسطين ونهب الأراضي العربية. وعلى تلك الخلفية ظهر على المسرح السياسي العربي حزب جديد وهو حزب البعث الذي يقول عن نفسه إن القضية الفلسطينية ويعني تحرير كامل التراب الفلسطيني هو سرّ قيامه ووجوده وسوف نرى كيف طبق هذا الحزب أقواله عملياً. ولابد لي أن أذكر أنني سمعت من ميشيل عفلق في القيادة القومية لحزب البعث في بغداد: أن الامبريالية لا مانع لديها من قيام الدولة الفلسطينية حسب قرار التقسيم! وقالها استخفافاً بهذا المطلب. إذ كان مطلبه تحرير كامل التراب الفلسطيني وضم فلسطين إلى سوريا وضم الدول العربية إلى سوريا أو العراق. فالأمر عنده سواء بسواء حسب نظريته في الوحدة العربية. وقد تحدى قبل بضعة سنوات السياسي الاسرائيلي عزرا وايزمن ياسر عرفات الزعيم الوطني الفلسطيني لاجراء حوار معه في أي مكان يختاره وقد جاء رد أبي عمار مفعماً:

ـ تعال نتحاور في هيئة الامم المتحدة لنشيد دولة واحدة للعرب واليهود على أساس ديموقراطي والمساواة بين العرب واليهود فالقمه حجرا.

40

العودة

لم أفاتح فهد بمسألة العودة إلى صفوف الحزب إذ كنت مرتبطا بجماعة «اللجنة الوطنية الثورية» فرأيت نفسي ملزماً أدبياً بأن أفاتحهم أولاً وأحاول إقناعهم بطلب الانتماء معي بدون عرض أية شروط على الحزب. وقد فعلنا ذلك بعد خروجي من السجن وقبلنا جميعاً في الحزب الذي منحنا شرف العضوية كأعضاء بسطاء أو كما يقال في هوية الجندي المكلف في الجيش (م.م.م.) أي جندي مكلف مسلح مشاة! وبهذا انهيت فترة الضياع فشعرت براحة الضمير.

حان موعد خروجي من السجن في أوائل أيام وثبة كانون الثاني/١٩٤٨ وعندما جئت أودع فهد كانت يداه منغمستين في محلول معجون الطماطة إذ كان يعد للسجناء السياسيين غداءهم فقبلت خديه وانصرفت لأودع الاخرين وعند الباب وجدت فهد حاضراً لتوديعي وبعد أن أقفلت الباب ورائي استدرت لاحييه من وراء القضبان فرفعت قبضتي اليمنى إلى الأعلى وكان هذا الوداع الأخير فقد استشهد فهد بعد ذلك بسنة وشهر واحد على المشنقة المنصوبة حيث يقوم اليوم المتحف الوطني.

سأل يومها أحد الشباب فهداً:

- لماذا رفع قبضته فوق رأسه؟ ماذا يعني بذلك؟ أجابه فهد:

- إنه يعاهدنا على النضال.

رحل فهد منذ أربعين عاماً ونيف وبقيت أنا قيد النضال لأروي لكم طرفاً من قصة نضاله ايها السائرون على دربه.

خرجت من السجن سعيداً لا لمحض حريتي بل لانني أيضاً حللت عقدتي ازاء الحزب والاكثر من ذلك أيضاً وأيضاً لأن رياح الوثبة قد هبت بوجهي فها هو الوضع الثوري أو العيد الشعبي قد حل. وكنت أغلي شوقاً للوصول إلى عاصمة الوثبة وبأقرب وقت. بيد أن إدارة السجن سلمتني حسب الروتين وحسب توصيات المافوق إلى يدي الشرطة لتسفرني هي بدورها إلى التحقيقات الجنائية في بغداد.

وفي رأس القرية من شارع الرشيد ببغداد في عمارة ذات ثلاث طوابق تحتلها التحقيقات الجنائية المكلفة بمطاردة الثوريين ولاسيما الشيوعيين، هنا في الطابق الثالث من تلك المؤسسة اللعينة أودعت حبس التوقيف وبقيت هناك مع موقوفين آخرين هم صالح الحيدري أخو جمال الحيدري ومناضل آخر من الحويجة في كركوك وثالث معلم من أهل الكاظمية. ويوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة تنطلق من النهر البشري الطاغي المسمى شارع الرشيد تنطلق كالرعد القاصف من حناجر الجماهير المدوية صيحات الثورة ونداءاتها وتهز العمارة وترتعد فرائص الجواسيس الذين طالما أقضوا مضاجع المناضلين وعوائلهم البريئة بغاراتهم الليلية شأن عصابات اللصوص. وأمام عيني يتوسل شرطي جائع كالشحاذ البائس بصبي بائع الشاي ليشتري له رغيفاً من الخبز من

الشارع الذي لم يكن يجرأ للخروج اليه بنفسه ونهتز نحن المعتقلين توقاً وشوقاً إلى أمنية وهي أن تقتحم الجماهير هذا الباستيل الحقير حتى ولو هلكنا معه. كان اعداء الثورة قد وضعوا مدفعا رشاشاً ثقيلاً من نوع فيكرز الانكليزي الذي يرمي ٥٠٠ طلقة في الدقيقة، في المجاز لحماية الباب من صولة الجماهير وغضبها العارم وكانت الجماهير مشغولة بكفاحها المقدس ضد اعدائها المدججين بالسلاح في الشارع نفسه فلم تلتفت إلى وكر الخيانة الغادرة.

وأخيراً بدأ التراجع المنظم من السفير البريطاني والوصي فأعفى وزارة صالح جبر التي عقدت معاهدة بورتسموث تحت اشرافه المباشر ومساهمته الفعالة. فراحت الوزارة كبش فداء ليبقى نظام الحكم وهدر دم الشهداء دون أن يحاسب القتلة. وجرياً على قاعدة «عفى الله عما سلف» التي يطبقها الحكام اللصوص أنفسهم بعضهم ازاء بعض.

أطلق سراحي من التوقيف بعد أن مرت الأيام الفاصلة من الوثبة واتصلت بجماعة «اللجنة الوطنية الثورية» واقتنعوا جميعاً وبلا صعوبة تستحق الذكر بحل اللجنة والانتماء كاعضاء بالحزب الشيوعي العراقي وتم لنا ذلك بعد بضعة اسابيع. وسكنت باديء الامر مع مالك سيف ويهودا صديق بضعة أيام ثم اسكنت في بيت قرب سوق الغزل مع هادي عبد الرضا من النجف.

كان مسكني الجديد ضيقاً جداً ورطباً غير صحي اختاره لرخص بدل ايجاره وكان يسكن معي رفيقان آخران وأحياناً ثلاثة. وعرفت تخميناً أن يهودا ومالك سيف هما اللذان يقودان الحزب خارج السجن كقيادة ميدان على ساحة النضال في حين أن القيادة العليا كانت في السجن.

حصل شريف الشيخ على امتياز جريدة الاساس اليومية ووضعها تحت تصرف الحزب. وكلفت أنا بتحرير المقالات الرئيسة فيها. وعلمت فيما بعد من إفادة الخائن مالك سيف أن فهد أوصى بمنحي العضوية أنا والاخرين من زملائي في «اللجنة» وأن أكلف بالكتابة وليس بالتنظيم. وفعلا لم أمارس التنظيم ولم اتصل بغير الساكنين معي والذين لم أكن أعرف أسماءهم سوى مالك سيف نفسه الذي كنت قد تعرفت عليه بواسطة مهدي الطعان، أحد أعضاء «اللجنة» البارزين. كان العمل في الكتابة يعني المساهمة في توجيه الحزب سياسياً وايديولوجياً أما انعزالي عن العمل التنظيمي فكان له نتائج سلبية سواء بالنسبة لي أم للحزب. فكان هناك فيما بعد حتى بين قادة الحزب من يحتقر العمل الكتابي والدعاية كما كان رب السيف يحتقر رب القلم في العصور المظلمة. وكان بعض خصومي أو نقادي من يعتبر توصية فهد بتكليفي بالكتابة فقط عدم ثقة بي من جانبه أو على الاقل تقديراً لعجزي عن الاعمال التنظيمية التي يضعونها في مستوى أعلى من مستوى الاعمال الكتابية. أما أنا فأرى العكس، أرى أن الحزب كان أحوج إلى الكتاب والخطباء والدعاة والمنظرين أكثر منه إلى المنظمين الذين لم يكن الحزب يفتقر إليهم بقدر افتقاره إلى اولئك. ولو كنت متصلا بالتنظيم وأعرف بعض الكوادر الحزبية التنظيمية النشيطة أو بعض العناوين لكان وضعي أفضل وأكثر فائدة للحزب عندما توالت الكوارث عليه وعندما أفلت من بين أصابع الشرطة في تشرين / ١٩٤٨ وهمت في الفلاة لاأدري إلى أين أولي وجهي. ولكن هذا أمر آخر سوف أعود إليه فصبراً.

إن الذين تولوا مسؤولية قيادة الحزب من خارج السجن بعد أن اعتقل يهودا ومالك سيف لم يجر اختيارهم بمبادرة القيادة في داخل السجن. كل ما في الامر هو أنها أنقطعت صلتها بالحزب جراء اعتقال المسؤولين في خارجه فقام آخرون من كوادر الحزب والذين يتمتعون بصلات ببعض منظماته، قاموا بمبادرة تولي المسؤولية لتسيير عمل الحزب واتصلوا فوراً بقيادة الحزب في السجن وأخبروها بما جرى. وبتقدير للموقف الحزبي منحتهم القيادة ثقتها وخولتهم تسيير العمل الحزبي آنياً. وتوالت سلسلة هيئات المسؤولية هكذا كلما اعتقلت هيئة، فزعمت التحقيقات الجنائية أن

كل من هذه الهيئات «لجنة مركزية» وأعطتها أرقاماً متسلسلة. ولم يكن بامكاني الاتصال بالقيادة في السجن ولا بأي منظمة حزبية خارجه وليس لدي أي عنوان. علماً أن مالك سيف سرعان ما اعترف على القيادة في السجن فنقلها العدو إلى الحجز في زنزانات أبي غريب وعزلها عن كل شيء. ولم أستطع الاتصال بالتنظيم إلا في وقت متأخر بواسطة يوسف متي. فجاءني (رفيق جالاك) مراسل التنظيم ثم راح من دون رجعة إلا بعد انهياره وخيانته ليسلمني إلى الشرطة.

41

عام الوثبة

كتبت في جريدة الأساس بدون توقيع معظم المقالات الإفتتاحية كما كتبت فيها بحثاً في عدة حلقات عن «بدل الملاكية والتأخر الزراعي» وكان بحثاً تاريخياً ونظرياً عن قضية الارض في العراق. لم أنجزه. فكان بمثابة تمهيد لكتابي«مسائل في الاصلاح الزراعي» الذي أقره المكتب السياسي عام ١٩٥٩ كأساس لسياسة الحزب في القضية الزراعية.

وكان أهم مقال افتتاحي كتبته في جريدة الاساس التي كانت جريدة الحزب الرسمية وأن لم يذكر عليها علنا، هو مقال بعنوان «المخرج من المأزق الراهن» أو«الأزمة» وقد وصفت فيه الحلول التي وضعتها حكومة الصدر التوفيقية «بأنصاف الحلول» أو«أشباه الحلول» فمثلاً رفض معاهدة بوتسموث مع الحفاظ على معاهدة ١٩٣٠، اطلاق سراح المتظاهرين الموقوفين خلال الوثبة وإبقاء المناضلين من اجل التحرر الوطني والديموقراطية في السجون. وكللت أعمالها بإعلان الاحكام العرفية وتسليطها على القوى اليسارية.

وقبل الاحتفالات بأربعينية شهداء الوثبة تصاعد النهوض الثوري وأخذ طابعاً اجتماعياً فضلاً عن الطابع الوطني فقد اندلعت حركة إضرابية عمالية واسعة من أجل ضمان الحقوق التي كفلها قانون العمل رقم ٧٢ لسنة ١٩٣٦ بحيث ارتعبت الطبقة الحاكمة اكثر مما أخافتها الوثبة كما عبر عن ذلك نوري السعيد نفسه فيما بعد. وعندئذ لعبت أحزاب الوسط دور الكابح للحركة الجماهيرية فاصدرت بيانات دعت فيها الجماهير إلى السبات السياسي جاء فيها:

- «.. والآن وقد مرّ أربعون الشهداء الأبرار نناشد الشعب الكريم كافة ووفود الالوية الكرام بعد اتمام واجبهم في تمجيد الشهداء... ونناشد الطلاب الذين أظهروا صلابتهم الوطنية وقوة إيمانهم، إننا نناشد هؤلاء جميعهم للانصراف إلى أعمالهم الاعتيادية والكف عن المواكب والمظاهرات لكيما يتجه العمل إلى تحقيق أماني الشعب ومطالبه بجو يسوده الهدوء» ١٩٤٨/٣/٦ وقد وقع رؤساء أحزاب: الاستقلال والاحرار والوطني الديموقراطي هذا البيان الذي يضع تحقيق أماني الشعب ومطالبه بيد الطبقة الحاكمة العميلة ويدعو الجماهير للهدوء والسكينة ربما كانت احزاب الوسط تأمل من إعطاء الفرصة لنوري السعيد وعبد الاله أن يعملا على «إنقاذ فلسطين» بفضل تحالفهما مع بريطانية. فقد بقيت معاهدة ١٩٣٠ سارية المفعول وقد نسوا أن بريطانيا هي التي اقامت «الوطن القومي» لليهود وأن نوري السعيد وعبد الإله ما هما إلا عميلين لبريطانيا، التي امتنعت عن تزويد حلفائها من العرب بالسلاح قبل حرب فلسطين بمدة طويلة رغم المعاهدات التي تلزمها بتسليحهم. وفوق ذلك نسوا أن الجماهير اليقظة والمعبأة سياسياً هي الضمان الوحيد لتحقيق «أماني الشعب ومطالبه» بما فيها تحرير فلسطين مهما كانت السلطة السياسية القائمة مخلصة لهذه الأماني والمطالب. فكيف بحكومة اختارها السفير البريطاني والوصي عبد الإله!!

واستمرت الحركة الجماهيرية تتصاعد بقيادة اليسار الذي كان يضم الشيوعيين والشعبيين ويساريي الوطني الديموقراطي (كامل قازانجي) والديموقراطي الكردستاني وعناصر أخرى. وحققت الحركة الاضرابية العمالية المطلبية عددا من النجاحات. وحرمت الحكومة اليمينية على الطلاب عقد مؤتمرهم في إحدى القاعات فعقدوه في ساحة عامة (السباع) من دون اجازة رسمية وأسسوا اتحادهم العام وانتخبوا قيادتهم بحراسة العمال في نيسان ١٩٤٨

وقد أنجزت المرحلة الأخيرة من الانتخابات البرلمانية في ظل الاحكام العرفية وكانت الاكثرية الساحقة من العناصر الرجعية الموالية للاستعمار. بيد أن الانتخابات لم يخيم عليها السكون الذي كان يسود الانتخابات عادة في العهد الملكي. وقد رشح ممتاز الدفتري نفسه للنيابة في نفس الدائرة التي رشح كامل الجادرجي نفسه فيها واستخدم الدفتري في حملته الانتخابية الشقاوات المسلحين ضد الديموقراطيين المؤيدين لخصمه الجادرجي. وكان اليسار مستعداً للضرب على أيدي شقاوات الدفتري ولكن الجادرجي فاجأ الجميع باعلان انسحابه من الانتخابات احتجاجاً على استخدام أساليب العنف! وقد هاجمت «الأساس» عصابة الدفتري وفي نفس الوقت انتقدت الجادرجي على انسحابه مستخدمة الطف تعبير ممكن «وكان انسحابه المؤسف». وقد رشح الحزب الشيوعي في تلك الانتخابات شريف الشيخ عن السليمانية وقد فاز فعلا ولكن الحكومة الغت انتخابه بعد إعلان الاحكام العرفية كما ألغت انتخاب مرشحين للحزب فازوا بالنيابة عن مدينة البصرة ومنهم على ما أذكر هادي ابراهيم. ولم تبطل حكومة الصدر قرار الغاء اجازات الاحزاب اليسارية على يد الحكومة السابقة.

وفي أواخر تشرين الثاني، ربما في عرفات عيد الاضحى جاءني مالك سيف إلى داري في سوق الغزل وكان قلقاً لأن مراسله هادي عبد الرضا ذهب إلى بيت يهودا صديق ولم يعد منذ الأمس. وكان هذا يعني إن تلك الدار قد كبست ونصبت الشرطة فيها فخاً لاستطياد من يزورها من المناضلين المحترفين. فأصابني هاجس وفي الحال نبهت مالك سيف ليكون حذراً ولا يذهب للدار المعنية الا بعد التأكد من مصير هادي. ولكن مالك سيف فعل العكس تماماً فغادرني وذهب رأساً إلى تلك الدار ليقع في الفخ المنصوب وكان ذلك بداية كارثة هائلة للحزب.

كنت حذراً وقد درست من أول يوم وضع الدار التي وضعوني فيها والواقعة في زقاق ضيق وتعرفت بواسطة هادي عبد الرضا الذي كان يخرج ويقوم بواجباته كمراسل حزبي ويزور عدة بيوت حزبية بلا مبرر من ناحية الصيانة أحياناً. تعرفت على هوية الجيران إلى اليمين والشمال وكانت مؤخرة البيت ملاصقة لخربة هي جزء من جامع الخلفاء (جامع سوق الغزل) قبل تجديده. وعندما كانت الشرطة تقتحم داراً لم تكن تهاجمها جبهوياً من الباب فقط بل تطوقها بكماشة من بيوت الجيران فاذا ما أراد أهل الدار المعينة المطوقة الخروج من أية جهة كانت، وقعوا في قبضة الشرطة. وفي مساء أحد الايام سمعت صوت موتور سايكل يقف فجأة ولغطاً يبدأ. فوقفت خلف الباب لانصت إلى ما يدور في الزقاق. وقد رابني الحوار الجاري إذ كانوا يسألون عن عنوان ثم تحرك المتورسايكل وولى فلما جاء هادي عبد الرضا طلبت منه نقلنا على الفور إلى مكان آخر ريثما ينجلي الامر. وخرجنا وبعد يوم أو يومين تأكد أن لا خطر على الدار. ولكن مالك سيف عاملنا باستخفاف باعتبارنا متطيرين. فصرت اكثر حذرا في تصرفاتي الناجمة عن اليقظة ولم اعد البس الا الشداشة. ولكنني بقيت في سري يقظا ،وفي ذهني خطة مرسومة للافلات من بين ايدي الشرطة في حالة هجوم مفاجئ.

بعد اعتقال مالك سيف بأيام سمعت لغطاً عند باب الجيران الايسر وكان بيت الجيران الايمن خاليا ومقفلا. ذهبنا أنا ورفيقي محمد الشبيبي شقيق الشهيد حسين، إلى الباب لنسترق السمع

عما يدور. كان الجيران من طائفة الكلدان نزحوا إلى بغداد من عهـد قريب ولم يتمكنـوا بعـد مـن اللغة العربية. وكان الجدل يدور بين رجال في الزقاق وامرأة عجوز خلـف البـاب المقفلـة. فسـألت العجوز عن هوية من في الباب فقال صوت من الزقاق: صديج (صديق)

كان واضحاً من «سر الليل» هذا أن من كان في الزقاق ليسوا من أهل الدار ولا مـن بـني قومهـم بل شرطة من عرب العراق. فأشرت إلى رفيقي محمد علي أن يتبعـني ويفعـل مـا أفعلـه. ولم يكـن هنالك وقت حسب تقديري حتى نتأخر دقيقة واحدة لجمع اهم حوائجي كالحذاء مثلاً. وصعدنـا السلالم ووصلنا إلى مؤخرة سطح الدار المطلة على الخربة فالجامع وأوعزت إلى محمد أن يقفز ففعل وقفزت بعده فعثرت قدمي على آجر مهشم فتقدمت فـوق كومـة الآجـر المهشـم إلى حافـة الخربـة وقفزت إلى أرض الجامع وأحسست قدمـاي الحافيتـان بـتراب نـاعم وبـارد بليـل وسـرت إلى بـاب الجامع الضخمة وإذا بها مسدودة بصخور كبيرة إلى ارتفاع نحو مترين وصعدت علـى سـطح كـوخ بائعة اللبن (الحليب) فرأيت أمامي الزقاق الـذي يـدور دورة كاملـة إلى اليمـين حتـى بـاب الـدار المكبوسة من الشرطة. ولبثت أراقب الطريق جالساً القرفصاء وأذاني عند الدار التي تركتهـا ورائـي وقد أصبحت على بعد بضع عشرات الامتار. وفجأة سمعت صوت الستارة الحديدية الـتي تفصـل بين سطح دارنا وسطح الجيران الايسر وهي تهوي في فناء دارنا. وكان هـذا دليـل قـاطع علـى أن الشرطة دفعت الستارة فسقطت واحدثت ذلك الصوت المعدني المدوي لتنزل على دارنا من السـطح ولم يعد لدي أدنى شك في هوية «الصديج» المداهم للجيران.

وفي تلك الحملة البوليسية الواسعة على دور المناضلين لم تصـادف الشـرطة مثـل هـذه الخيبـة سوى في دارين أو ثلاثة كما علمت من بعد.

لم ينتظرني رفيقي محمد علي لحظة واحدة ولم أجد له أثراً بعد أن قفزت في أثره. وكأنه فص ملح وذاب في ماء ساخن. كان يعرف دورا مأمونة تأويه وذهب إلى أحدها لاجئاً وغدا بمنجـاة مـن الاعتقال وأن يكن إلى حين.

أما أنا فقد قفزت إلى الزقاق وبعد عدة خطوات وجدت نفسي في سوق الغزل الشهير في بغـداد. كان السوق خالياً عدا عن قليل من المارة وأقل من المخازن المفتوحة الابواب وفي بـاب العلـوة وهـي مخزن كبير لبيع الحبوب رمقني رب المخزن وكان واقفاً بالباب مندهشا لمنظري. ولما لا يندهش!!

كنت حـافي القدمـين حاسـر الـرأس وفـروة رأسـي كقنفذ متحفـز للقتـال وقـد أشـهر سـهامه ودشداشتي من القطن الرقيق المخطط «بوبلين» تنسدل تحـت ركبـتي بقليـل واردانهـا مشـمرة عـن ذراعي حتى الكوعين. لم آبه له وواصلت سيري فاصابني ما يشبه الدوار بسبب تغيير الهـواء مـن هواء الغرفة الدافئ الوخيم إلى هـواء الشـارع الخريفـي المنعـش البليـل. ومهمـا حـاولت أن أحـدد الهدف: إلى أين؟ لم أجد جواباً. ولم أكن مغفلاً لاذهب إلى أحد بيـوت أقـاربي إذ لابـد أن تكـون تحت المراقبة في ذلك الوقت فصممت على أن أخرج من المدينة وكانت عندي لها خارطة في ذهني لابأس بها. فاتجهت صوب السدة الشرقية المحاذية للرصافة وفي طريقي اليها وجدت نفسي فجأة وسط مقبرة اليهود وكانت مكاناً خطـراً في الليـل إذ كـانت نادياً للصـوص وشـركائهم في دوريـات العسس. واجتزت المقبرة وأنا أكاد أسمـع تأففـات سـكانها ولعنـاتهم علـى اولئـك الاحيـاء الذيـن يقضون مضاجعهم ويحرمونهم سكرة نوم الليل وهي الذ ما في الدنيا والاخرة جميعاً. وأسـريت إلى السدة واتخذت مساري على طول سكة الحديد نحو الجنوب وكان الظلام دامساً وليس من مصابيح سوى النجوم والطريق مقفرا موحشاً ولم اصادف من البشر سوى عاملين كانا يصلحان خطوط البرق فتجاوزتهما وواصلت السري. وفجأة ارتطم ابهـام قدمـي بشـيء صلـب نـاتئ في الظـلام الدامـس، وتوقفت وإذا بي أمشي دون أن أدري على العوارض الخشبية «الشباشـب» الـتي تحمـل القضبـان

الحديدية فوق جسر ومن تحته هوة تخترق السدة فتحت لعبور وسائط النقل. أجل لقد كنت على جسر صغير لا سياج له وكان أقل اختلالاً بالتوازن يعني سقوطي في الظلام الدامس من ارتفاع أربعة ـ خمسة أمتار على ارض مبلطة بالكونكريت. أخافتني المفاجأة ولكني تداركتٍ الخوف على الفور إذ تخيلت صورة ستالين المهيبة! واجتزت الخطر. واصلت سيري جنوباً حتى الهزيع الاخير من الليل إذ رأيت اضواء كهربائية ساطعة فخمنت انه معمل الاسمنت قرب معسكر الرشيد. وجلست القرفصاء في ارض عارية انتظر الصباح، في الظلام الحالك، كأنني ذئب يتربص فريسته. وعندما أخذ الظلام يتبدد استطعت أن أشخص من بعيد السدة المحيطة بالمعسكر. وعندها وجدت الاتجاهات توجهت نحوالمسبح في الكرادة الشرقية ثم اتجهت من جديد نحو السدة الشرقية. وفي طريقي مررت بساحة لسباق الخيل هي الثانية في تاريخه. وصادفت مدربا للخيول سمينا وعلى رأسه كوفية بيضاء وعقال أسود وكأنه موصلي وكان يمتطي صهوة جواده ويدخن. نظر الي باستغراب فطلبت منه سيكارة فترددٍ ثم اعطاني سيكارة بعد أن أولع رأسها وسار في طريقه واتجهت نحو السدة الشرقية ووصلتهاٍ عوداً على بدء لاسير هذه المرة إلى الشمال فوصلت إلى محاذاة الرصافة عصراً. والتقيت كهلا وصبياً يرعيان غنيمات خلف السدة قرب محطة قطار باب الشيخ. ولم تكن الصرائف قد انتشرت هناك بعد فجلست قرب الشيخ وسردت له، بعد السلام والكلام قصة عن اللصوص الذين اقتحموا بيتي في الليلة الماضية وكيف تخلصت منهم باعجوبه. فرثى لحالي رغم إنه لم يصدق قصتي كما بدى لي من ملامحه ولا بد أنه ظن انني طريد الشرطة وقد تعاطف الشيخ الطيب القلب شأن أكثر الموطنين مع من تطاردهم السلطة.

كنت أظن أن الحصول على كوفية مرقطة «يشماغ» أضعها على رأسي بمثابة الحصول على طاقية الاخفاء لاستطيع ولوج أزقة الرصافة المكتضة لاصل إلى الدار التي قررت الجوء إليها في محلة المربعة. شجعني لطف الراعي الشيخ وتعاطفه معي فطلبت منه اليشماغ الذي كان على رأسه فأعطانيه بطيبة خاطر ووضعته على رأسي وبقي هو بطاقية فقط تغطي رأسه الاشيِب. وأعطاني العصى التي يهش بها على غنمه وكأنها عصى موسى. واستأذنته ورحلت عنه موليا وجهي نحو أزقة الرصافة بعد أن أمضيت بعض الوقت ليدركني الغروب.

وسرت في أزقة شعبية (سوق حنون وأبودودو وأبوسيفين) التي كانٍ يسكنهٍا اليهود الكادحون. رأيت النساء جالسات القرفصاء على أبواب بيوتهن وأنا أسير وئيداً متعكزا على عصى الراعي التي كانت أقصر مما يجب بالنسبة لطولي. وكنت متعبا من السير حافي القدمين ليلة ونهار بطولهما. لاحظت حالي شابة يهودية فاستوقفتني وهرولت إلى داخل بيتها وجاءتني بعصى اطول تناسبني فبادلتها عصاي بعصاها وواصلت زحفي الوئيد نحو المربعة. وفجأة اصبحت وجها لوجه امام نائب ضابط في الجيش فأظهر دهشته وتفحصني بنظرة سريعة من القدمين حتى الرأس بيد أن محياي كان كوجه تمثال مصنوع من الشمع لا يعبر عما تحته. فواصل العسكري سيره دون أن ينبس ببنت شفة وتابعت مسيرتي وبعد لأي بلغت غايتي بيت عبد متي شقيق يوسف متي. لم أجرأ أن آتي إليه في الليلة الماضية ولكن الحيرة والتعب خلال نحومن أربعة وعشرين ساعة والجوع أيضاً افعمتني بالشجاعة الكافية لاقتحم الاهوال!

طرقت الباب فلم أسمع جواباً. فقال لي الجيران أن العائلة ليست في البيت بل في البيت المجاور. وبعد دقائق قليلة ولكنها ثقيلة بطيئة جاءت فهمي أم عامل زوجة عبد متي مع أطفالها. وأصغرهم بنت اسمها عائدة وعمرها ثلاث سنوات ونصف كانت قد رأتني قبل سنة ونصف وهي في أزمة الفطام. ولم تعرفني فهمي ولا أطفالهامع إنني سألت عن يوسف ويبدو انه ليس فقط غرابة قيافتي بل وصوتي المتعب كانت غريبة عليهم تماماً. ولكن عائدة الصغيرة هتفت من تلقائها فجأة:

ـ عمو زكي!

فتح الجميع أفواههم دهشة وكأنهم طيور صغيره تستقبل أمها. فتحت فهمي الباب وجاءتني بالماء لتغسل قدمي وبملابس الافندي الكاملة وأما عن الطعام فحدث ولا حرج وكانت فرحتهم بي تطفح على وجوههم وايديهم وعيونهم. لقد غمروني بفيض عواطفهم. ولم اجزهم مثقال ذرة من عطفهم وكلما أذكرهم وكذلك زوجة يوسف متي سلمى أشعر بوخزة الضمير لأنني لم أكافئهم حتى بالزيارة.

وبعد مشوار جاءني يوسف وأخذني في الحال إلى بيته وأعطتني زوجته سلمى كل ما وفرته من دراهم ثم أودعني عند أحد أصدقائه لبضعة أيام ثم نقلني إلى بيت رفيق لبناني هوصديقي العزيز سليم الراسي وهو الان في فنزويلا في أمريكا الجنوبية في السبعينات من عمره مع عائلته الكبيرة.

كان البيت في مجموعة نمطية من اللبن غير المشوي للاجئين الأرمن إلى العراق بعد الحرب العالمية الاولى وعلى بعد نحو ٣٠٠ متر من ساحة التحرير فاعطاني غرفة خاصة فيها وأحاطتني العائلة بكل رعاية وهي من العوائل التي لم أوفها من عرفان الجميل. وقد روعت بسببي عندما داهمتني الشرطة في بيتها بعد أسابيع وفي هذا البيت عانيت من عذاب الانقطاع الاضطراري من الحزب والعذاب الأشد إيلاماً بما لايقاس حيث سمعت في هذا البيت بالذات الانباء الكارثية بتنفيذ أحكام الإعدام بالرفاق الخالدين يوسف سلمان يوسف (فهد) وحسين الشبيبي وزكي بسيم في ١٤و١٥/ ٢/ ١٩٤٩

وآلمني أيضاً فيما بعد دهراً طويلاً جمود الانتظار في ذلك البيت زهاء شهرين ونصف دون جدوى. وقد تركني المراسل الحزبي بعد أن زارني في تلك الدار انتظر حتى جاء بالشرطة لتلقي القبض عليّ بعد تنفيذ أحكام الإعدام بالرفاق الأماجد بأسبوع.

42

الحبس للمرة الرابعة

لم يساورني الخوف من حكم الاعدام لدى الثاء القبض عليّ ولكن الحزن العميق والاحباط حزّ في نفسي جراحاً عميقة وكذلك الاسف على ما سببته للعائلة من هلع بسبب وجودي في بيتها وعملية المداهمة والتطويق البوليسية المفزعة في منتصف الليل والقلق على ما سببته لسليم الراسي من حرج وهو لبناني ويعيش في بغداد في حالة طيبة ، مدير لفرع شركة سيارات دوج. وقد رأيته في اليوم التالي في التحقيقات الجنائية وأنا مع الرفاق الموقوفين وقد جاء إلى التحقيقات بصحبة شفيعه وهو أحد المشايخ وقد وجه اليّ نظرات القلق على مصيري عندما خرج وبقي يسأل عني أصدقاءه اللبنانين بعد عشرات السنين فراسلته في أواخر عام ١٩٨٩ ورد على رسالتي يعلن فرحته ويخبرني عن حياته الحالية في فنزويلا متقاعداً ورب عائلة كبيرة لبنانية بقضها وقضيضها.

إن أكبر نقيصة خطرة اكتشفتها عندي بعد هذا العمر الطويل هي عدم إيفائي بالدين لمن أحسنوا اليّ وما أكثرهم. ولا يشفع لي اني عشت حياة مضطربة ، ولاكثرة من أنا مدين لهم بالعرفان بالجميل ولا التذرع بكوني ما دمت قد كرست حياتي للاخرين فعليهم أن يقدموا لي العون دون أن ينتظروا جزاءً ولا شكورا. والحقيقة هي أن لهم حق عليّ مهما كانت حالي فعلى الاقل الذكر بالخير والشكر. وإن كنت خالي الوفاض وصفر اليدين ولا يشفع لي إني كنت احرص على أن لاأجلب أنظار العدو اليهم. وكم كنت اتألم عندما يستوقفني أحد المارة في شوارع بغداد ويسألني بلهفة بالغة هل تتذكرني؟ فاقف مشدوهاً واجماً لا أحير جواباً. إذ انني إما أن أكون قد نسيت اسمه أو ملامحه ويفارقني وخيبة الامل تحز في نفسه لأتذكره بعد فوات الاوان ولات ساعة مندم!

إن عدم ممارستي التنظيم لعشرات السنين قد رسخ في نفسي الانطواء على الذات وهذا أفظع ما يصيب المناضلين ويقتضي التربية تامة الاوجه للمناضل تنوع الممارسة وكما قال لينين: كل داعية منظم وكل منظم داعية. كما أن تمرين الذكرة على حفظ الاوجه والاسماء معا شرط ضروري لكل انسان اجتماعي متحضر وهو ضروري أخلاقياً. ولكن الحكمة تأتي مع الأسف بعد فوات الأوان.

كنت في المداهمة الاخيرة جالساً في غرفتي بكامل القيافة مرتدياً كل شيء حتى المعطف ولكني لم أكن يقظاً تماماً والجو في الغرفة دافئاً يبعث على الخمول والاسترخاء. وفجأة وبعد فوات الاوان خرجت إلى فناء الدار فرأيت على السطح شبحاً أسود فعرفت من صوته إنه مهدي القزويني أحد معاوني مدير التحقيقات الجنائية وكان من قبل موظفاً في الكمارك معي ولم تعد هناك فائدة من أية حركة فقد طوقت الدار من كل جانب من فوق ومن تحت. لقد استفاد العدو من نجربة افلاتي من قبضته من دار سوق الغزل في المداهمة السابقة. وكان رفيق جالاك معهم فأخذوني إلى دائرة التحقيقات الجنائية وجاء مدير الشرطة العام علي خالد حجازي ليطمأن على اني وقعت في قبضتهم. وأحضر جالاق وكان رأسه مضمداً وراح هذا يسرد قصة إتصالي بالحزب وحضوره إلى داري بصحبة يوسف متي ليتاكد من هويتي ومحل إقامتي ويعدني بالعودة الي بقرار الحزب

بنقلي. ولكنه هاهو الان يعود بقرار من العدو وقد ذكر بعض التفاصيل من قبيل وجود مجلات على الطاولة في غرفتي عندما زارني وكأن هذه التفاصيل التافهة كانت ضرورية لاثبات مصداقية أقواله ولئلا أدعي أن ما يقوله مختلقا. كان ما قاله صحيحاً ولا فائدة من نفيه فنظر إلي المدير العام وسألني عما اقوله فقلت له

ـ هذا إشصاير بحاله؟ فلم يفهم المدير العام ما أقصده ففسر قولي له أحد ضباط الشرطة الواقفين.

ـ سيدي يعني احنا معذبين رفيق جالاق!

وكنت فعلاً اقصد هذا و كنت آمل أن يحرك كلامي في نفس جالاق عرقاً خيراً ولكنه احتج علي وتمتم المدير العام بشتائم مقتضبة وسأل بهجت العطية عن مدى خطورتي فقال له:

ـ إنه كاتب شيوعي مثل مكسيم غوركي.

وكأنه أراد أن يفهم المدير العام الامي بأنني لست من أرباب السيف بل من أرباب القلم. وانتهى اللقاء البغيض مع أحد خدام البلاط الطموحين الذي سولت له نفسه فيما بعد أن يحاول الانقلاب على سيده وفعلاً كان قد وضع الشرطة تحت الإنذار ولكنه استسلم بعد ساعات قلائل بلا قيد أو شرط بعد أن انذروه. واعتذر إلى سيده الوصي بأنه كان سكراناً عندما أعلن تمرده. فعفى الوصي عن خادم العائلة المالكة الذي جاء معها إلى العراق من الحجاز.

لم أضرب في أي مرة اعتقلت فيها أثناء التحقيق إلا مرة واحدة بسبب شجار بيننا وبين الشرطة في مركز السراي قبيل ثورة ١٤/ تموز/١٩٥٨

كان بعض الرفاق ومنهم حميد عثمان يبالغ فيما لحقه من تعذيب و كانت المبالغة ضد مصلحة الحزب لانها تبعد عنه العناصر الثورية اليافعة التي ليست مستعدة بعد نفسياً لتحمل كل هذا التعذيب الجسدي. وكانت «بطولة» حميد عثمان هي ادعاءه بأنه تحمل تعذيباً يفوق طاقة البشر وأنه مع ذلك لم يعترف. وقد انطلى ذلك الادعاء على الجميع ومع ذلك تدخلت في أحد الاحاديث التي كان يلقيها حميد عثمان على السجناء السياسيين في سجن بعقوبة فقلت:

ـ إنني لم أعذب جسدياً قط رغم ما أشيع عني من مبالغات وإن هذه المبالغات تضيق من امكانات نمو الحزب وهي ضارة ويجب تجنبها.

استشاط حميد عثمان غضباً ولكنه لم يستطع تفنيد اقوالي. و بعد ثورة١٤/ تموز التقينا شاعرنا الجواهري في دار سليم المرزة في الكرادة الشرقية فحكى لنا عفو الخاطر انه عندما كان موقوفاً في التحقيقات الجنائية وفي غرفة حاكم التحقيق جاءوا بحميد عثمان و طلب منه الحاكم تصديق افادته الاولى امام المحقق. فقال إنه عذب بالضرب الشديد من قبل الشرطة وانه لهذا السبب أدلى باعترافاته المدونة والتي تحمل توقيعه وهو الان ينفي صحة هذه الاعترافات. وقد كرر شاعرنا القصة في مناسبة اخرى في براغ.

في صباح اليوم التالي جمعوني مع الرفاق الاخرين الموقوفين في حوش التحقيقات الجنائية على شاطئ دجلة قرب شارع النهر وكان بين الموقوفات الرفيقة عمومة مصري وسرب من بنات الحزب. وقد تميزت من بينهن، سعيدة مشعل بمحياها الاصهب وحيويتها الفاتنة فأصابت قلبي دون أن تدري، في ذلك اليوم بوابل من نبالها لا براء منه. ولم يطل جمعنا ذاك. وكان بين الموقوفين يعقوب مصري وآرا خاجادور ومحمد علي الشبيبي وآخرون لم أكن أعرفهم ولكن عرفت من بينهم ساسون دلال. وكان جلهم أن لم يكن كلهم في لباس النوم كحالتهم عندما القي القبض عليهم. ويبدو أن معظمهم لم يكن يحمل في جيوبهم شروى نقير أو ثمن أستكان الشاي واستطاع

قليل منهم شراء الشاي و كنت أحمل من النقود مايكفي لاروائهم بالشاي لولا انـني كنت ملتزماً بعادة قديمة هي تجاهل معرفة المتهمين الآخرين حتى إصدار الحكم. وقد عاتبني المصري فيما بعد لأنني لم أتبرع لهم بالشاي فأضاف إلى عقدي عقدة أخرى لا تحل.

وكان الامتياز الذي ميزني العدو به وضع سوار من حديد حول معصمي مربوطاً بسلسلة يمسك بطرفها الآخر شرطي لا يبارحني إلا ليحتل محله شرطي آخر. وقد استحقيت هذا الامتياز بفضل فراري من بين اصابعهم في المرة السابقة.

وفي نفس اليوم نقلونا إلى سجن أبو غريب الذي نقلوا منه فهد وزملاءه الشهداء إلى ساحات الاعدام قبل أيام. وهناك فرقونا على الزنزانات الانفرادية المظلمة الرطبة عديمة النوافذ التي بنيت على عجل في الموسم الممطر وكانت الابواب موصدة ليلا ونهارا مع براميل البول في داخلها والخروج إلى المراحيض مسموح به مرة أو مرتين في اليوم كل على انفراد. وكان الكلام محرما علينا. بيد أننا نثقب تلفونات سرية في الجدار الطري بواسطة السلك الفولاذي الذي يحمل به الفانوس النفطي السيار. وكان عريف «رقيب» الحرس يسترق السمع أحيانا من وراء الباب رغم اننا كنا نتكلم مع بعضنا باخفض صوت يمكن أن يسمعه المخاطب. وعندما نكتشف متلبسين بجريمة الكلام أي كان فحواه ومحتواه كنا نتعرض إلى أبغض تعنيف وتهديد ومع ذلك كنا نواصل أحاديثنا. فان أفظع تعذيب للانسان حرمانه من الكلام لانه يفقد ميزته الحسية على الحيوان. ولذا يبدأ صدام حسين بقطع السنة خصومه بسكين مرهف.

ومن خلال التلفون الجداري تعرفت على هوية جاري ابو باسم عمر الياس الموصلي وكان عريفاً سابقا في القوة الجوية وأحد مجاهدي حركة مايس/١٩٤١ كما تعرف هو أيضا على هويتي ولم نلتق بعدئذ إلا في سجن نقرة السلمان.

وبعد أن حكموا بالاعدام على ساسون دلال وضعوه في الزنزانة المقابلة لزنزانتي. واسمعوني حوارا مفتعلا بينهم من وراء الباب الموصدة مفاده أنني أيضا ينتظرني المصير نفسه.

لم يكن المركز الحزبي لساسون دلال ولا الاعمال التي مارسها بمستوى الحكم بالاعدام. ولكن العدو أراد أن يصبغ قيادة الحزب بصبغة يهودية و حتى صهيونية. وأراد الدجل في جو الاحباط من الحرب الفاشلة في فلسطين. ولا يبرر هذا الاستهانة إلى أي حد بالدور البطولي الذي لعبه ساسون سواء في قيادة العمل الحزبي على ساحة النضال في أحرج الظروف أو بمواجهته الموت بشجاعة ورباطة جأش منشدا النشيد الاممي أمام المشنقة فكان شهيداً شيوعياً بطلاً.

أجريت لي ولشريف الشيخ محاكمة واحدة لوحدنا. وكانت الإتهامات المسندة إلينا واحدة ومسؤليتنا واحدة سوى إنني تخفيت في بيت حزبي منذ خروجي من السجن ولكن المجلس العسكري حكم عليه بالحبس سنتين ومثلها تحت المراقبة وعلي بالحبس سبع سنوات زائدا المراقبة سنتين وقد زيدت فيما بعد بسبب محاولة الهروب من السجن مرتين لاقضي في السجن تسعة سنوات وسبعة أشهر أي حتى ثورة ١٤/تموز/١٩٥٨ التي أنقذتني من الابعاد إلى تركيا مع اسقاط جنسيتي لأعيش بقية عمري أسيرا في سجن المعاهدة المركزية «سنتو» كما كان أطراف حلف بغداد يقدرون ولكن الاقدار ضحكت عليهم.

43

زمهرير الحرب

عاد نوري السعيد إلى الحكم بعد أن فشلت الحملة العسكرية العربية لانقاذ فلسطين من التقسيم وبعد أن نالت اسرائيل أكثر من المساحة المقرر لها في هيئة الامم. وساد البلاد العربية الشعور بالاحباط والسخط على حكوماتها الفاشلة والحقد على الإمبريالية والصهيونية. وكان الوضع الدولي في أولى مراحل الحرب الباردة وواحدة من أشدها توترا. وقد عاد نوري السعيد إلى الحكم مبشراً بمهمة اعداد العراق للحرب العالمية الثالثة كما كشفت الاهالي بعد ذلك، التي كانت ستعني الحرب ضد الاتحاد السوفيتي وبلدان الديموقراطية الشعبية. وعلى هذا الاساس وضع في جدول العمل اليومي القضاء على الحزب الشيوعي وقمع الحركة الديموقراطية مما حمل احزاب الوسط إلى تجميد نشاطها كعادتها في الشدائد. ويقول كامل الجادرجي في مذكراته أن السفير البريطاني في بغداد أشرف بنفسه على محاكمة فهد ورفاقه وعلى تنفيذ حكم الاعدام علناً في الساحات العامة الرئيسة الثلاثة وفي يومين متتالين. وكانت الحركة الجماهيرية في حالة جزر ومعظم منظات الحزب محطمة فلم يستطع الحزب الا تنظيم مظاهرات صغيرة خاطفة كانت الشرطة تشتتها بسرعة. ورغم حملة التضامن العالمية أقدم العميل نوري السعيد على تنفيذ أحكام الاعدام.

وفي تلك الفترة بالذات نقل السجناء الشيوعيون إلى سجن نقرة السلمان الصحراوي في البادية الجنوبية وكان في الاصل مخفراً لشرطة البادية لمراقبة البدو الرحل وقد بناه أبو حنيك، كلوب باشا، الذي كان قائداً لشرطة البادية على الحدود السعودية ثم غدا قائدا للجيش الاردني وحتى اعفاه الملك حسين من منصبه وعين قائدا اردنياً بدله.

وبعد أن حكم المجلس العرفي العسكري علينا بالحبس نقلونا إلى محطة توزيع السجناء السياسيين في سجن التوقيف في باب المعظم وهناك تعرفت على حسين الرضي (سلام عادل) وبهنام بطرس وعبد الرزاق مطر الذي كان عضواً في السابق في اللجنة المركزية بقيادة فهد التي انتخبها المؤتمر الحزبي الاول ثم ترك الحزب. وكان حسين الرضي انشط الموجودين في ذلك السجن. وكان يوقظني قبل نهوض السجناء من نوم الصباح، ذاك النوم الاسر ويجمع بيني وبين رفيقين آخرين: بهنام بطرس وعبد الرزاق مطر وهو أيضا لكي القي عليهم «محاضرة» عن «الاسس اللينينية» لستالين. أجل محاضرة مرتجلة عن أعقد القضايا اللينينية بدون وجود أية مراجع أو أسانيد أو أي مطبوع وفي الصباح الباكر! كان الجيل الجديد من الشيوعيين يعتقد أنني من حفظة القرآن «بلا تشبيه» وانني أستطيع في أية لحظة أن أتلو عليهم آيات من كنز الماركسية اللينينية عن ظهر قلب أو أن أشرحها ارتجالاً كانوا شباباً متعطشين إلى النظرية الثورية ولم يكن في متناول أيديهم أي ورقة يقرأونها ليرووا غليلهم فلم يجدوا في تلك العزلة المضروبة عليهم وسيلة يبلون فيها شيئاً من

غليلهم سوى أن يعصروا رأسي لعلهم يستدروا منه قطرات من المعرفة. وقد تحدثت اليهم بكلام يدور حول حواشي الموضوع وكنت موقنا أن ما أقوله لا يروي غليلا. وقد أنقذني من هذا الموقف الحرج نقلي فجأة إلى سجن نقرة السلمان.

وفي الطريق إلى البادية الجنوبية ، التي يسميها العراقيون «بادية السماوة» تمييزا لها عن جارتها الشمالية «بادية الشام» بين السماوة ونقرة السلمان وقفت بنا السيارة عند أحد الأبار. ونزلنا من السيارة: عمر علي الشيخ وأنا لنتحدث إلى صبيان البدو وقد تعجب عمر وهو من السليمانية وهو يرى البدو العرب لأول مرة، من شقرة شعورهم وزرقة عيونهم في تلك الصحراء المحرقة التي يجب أن تجعل البيضة فحمة سوداء. وهي أن دلت على شيء فانها تدل على أن الدم العربي مزيج فائق الغنى من السلالات البشرية ومن هنا قوة العرب وقدرتهم على مقارعة الطبيعة القاسية والتغلب على مصاعب الحياة. ومن هنا أيضاً ما هم عليه من ذكاء، الذي خلف كنزاً حضارياً ضخماً للانسانية في العصور المظلمة بالنسبة لاوربا. ولغة جميلة من اغنى اللغات الحية في العالم المعصر. تلمست فروة رأس بدوي صغير بأصابعي فوجدتها نظيفة وناعمة فسألته:

ـ بماذا تغسل شعرك؟ فأجابني بلهجة بدوية، بكلمة لا أذكرها ولم أفهمها فسألته:

ـ بالشنان؟

والشنان نبتة تنبت في بادية الشام فتجمع وتجفف وتباع للناس ليستعملوها للغسيل بدل الصابون وقد استعملها أهلي في فترة الحرب العالمية الاولى عندما شح الصابون فقال صبي آخر اكبر سناً:

ـ لا ببول البعير!

فالبول الذي يستخرج منه الألمان ألطف أنواع «ماء الكولونية» بعمليات كيمياوية معقدة يستعمله البدو الرحل على طبيعته منظفا ومعقما مثاليا منذ الازل، ويقيهم شر القمل. فأي ثراء طائل يدره علينا هذا البعير الصحراوي! كل مسامة من مسامه تفرز شيئاً يسد حاجة من حاجات البدوي الضرورية: الغذاء والكساء والفراش والوقود والمنظفات. ومن اللبن واللحم والوبر والجلد والبعرور والبول! فيا له من كنز صحراوي. والان وقد وجد الانسان من العلم ما يعوضه عن هذا الكنز البدوي فقد غدا بمقدوره الاستغناء عن الجمل وسوف يتمكن من جعل الصحراء واحة خضراء ويطلق للجمل العنان ليسرح ويمرح فيها حراً طليقاً كما ولدته أمه وقد غدا أوفر ذكاء واغنى تجربة واعمق حكمة في الحياة بفضل تدريب الانسان ومعاشرته أو سيلجأ إلى الانسان بمحض رغبته لمعالجته وغسله وتمشيط وبره الحريري وتزينه فيزداد جمالاً على جماله الجملي الجليل الذي يضاهي جمال عماتنا النخيل!

وأخيراً وصلنا سجن نقرة السلمان والتقيت الكادر الحزبي الاساسي وتعرفت على معظمه لاول مرة وعشت بين ظهرانيه وتجاوزت معه المحن والامتحانات الصعبة أشاركه السراء والضراء زهاء عشر سنوات طوال كانت من خيرة سني عمري. اولئك هم الحرس الحزبي القديم المجرب، خلاصة تاريخ الحزب وقد رحلت نخبتهم: فهد، حازم، صارم إلى دار المجد والخلود بعد أن ربوا حزباً مجاهدا عنيداً لا يلين. متأهبا للاستشهاد في سبيل الشعب مهما تقلبت الاجواء والاحوال.

44

عشرة من أحسن سنوات العمر

دخلت سجن نقرة السلمان وأنا على استعداد لاداء أي واجب يناط بي وكان خطأي هو انني لم أقدم أي طلب أو شروط عمل أو شكوى من شيء، حاملا سلاسلي وامشي بها مرتاح الضمير والبال في الساحة الصخرية الغبراء وفي خفارتي كنت أحمل الكؤوس بهمة وخفة وسرور لاوزعها على الرفاق المصطفين انتظارا لشرب الشاي وكذلك كنت لدى خفارتي في نشر الغسيل على الحبال. وسارت الاحوال طيبة على هذا المنوال وأنا كأحد الرفاق البسطاء بدون أي مركز تنظيمي أو تثقيفي.

وذات يوم أخرج مسؤول التنظيم سالم عبيد النعمان أحد الكتب المخبأة وكان بالانكليزية وهو جزء من «الايديولوجية الالمانية» لماركس وانجلس لاترجمه سراً في سرداب الربيئة الجنوبية في السجن القديم. وفي مقدمة الكتاب يسخر ماركس وانجلس من مبالغة الايديولوجيين الالمان بدور الايديولوجيا فيقول: أن هؤلاء يعتبرون الايديولوجيا سبب كل شيء بما في ذلك غرق الناس في الماء فلولا إيمانهم بقانون الجاذبية الذي اكتشفه نيوتن لما غرقوا!

أنجزت ترجمة الكتاب وسلمته إلى سالم عبيد سراً لينفرد بقراءته وليلقي المحاضرات وكأنها وحي نزل عليه من السماء فيؤهل نفسه لملء الفراغ الذي تركه فهد مؤسس الحزب ومفكره ومنظمه الامر الذي يقتضي حسب ظنه أن يقوم هو نفسه أمام الانظار بكل المهمات التي كان فهد يضطلع بها. وكان هذا طموحاً مشروعاً بالنسبة له لولا أنه لم يملك شيئاً من مؤهلات فهد أو جهاديته ولاسيما تواضعه. وحاول أن يحل محل فهد في تدريس مادة الاقتصاد السياسي متجاهلا وجود محمد حسين أبو العيس الذي تخرج على يد فهد في تدريس هذه المادة. كما كان عدد من الرفاق الموجودين في السجن أكثر أهلية من سالم عبيد على تدريس الاقتصاد السياسي.

أخرج سالم عبيد كتاب ماركس «الرأسمال» من المخبأ وطلب مني أن أساعده ليحضر الدروس من هذا الكتاب ولكي لايعرف الرفاق أن أحداً يساعده واختار حجرة صغيرة في قبو السجن لنلتقي فيها لنتدارس فيها الموضوع وكأننا كنا نتآمر على سلامة الدولة في منتهى السرية ومع ذلك فشل في اقناع الرفاق بانه قادر على تدريس هذه المادة الصعبة جدا.

وحاول أن يقلد فهد في حركاته وسكناته وحتى في وضع يده عندما يمشي وكانت احد يدي فهد مصابة فيميلها قليلا. ولكنه تحاشا كلياً أن يقلد فهد في تعامله مع الرفاق أو في خدمته لنفسه بنفسه أو تواضعه في إبداء المعرفة أو في معيشته البسيطة.

كان في السجن كنوز من المواهب والمؤهلات مخفية تحت ستار من التواضع ونكران الذات والخجل والانطواء على الذات. وكان فيه أبطال صامدون يخفون بطولاتهم تحت ستار الصمت لتنفجر في المحن والملمات كما كان اولئك الذين أبدوا شيئاً من الضعف إلى هذا الحد أو ذاك في

التحقيقات الجنائية، كانوا يظهرون آيات البسالة في الملمات والشدائد ويتمنون الاستشهاد ليكفروا عما بدر منهم من ضعف أمام العدو.

وقد أدهشني رفيق في السادسة عشر من العمر يمشي في فناء السجن مشية رجل مجرب، اسمه ابراهيم احمد من شقلاوة فعندما رأى ابراهيم كيف ينقض العدو على منظمات الحزب ويحطمها الواحدة بعد الاخرى لتنبثق من أوساط الشعب المنظمات الجديدة تحل محلها في مدينته بادر هو الشاب الحدث إلى تنظيم خلية شيوعية من رجال لا يقل عمر الواحد منهم عن عمر ابيه. وكان سالم عبيد مشغولاً عن هؤلاء الرفاق بسمره يثرثر في مجلسه الخاص في مخزن الارزاق حيث كان فهد يعمل لخدمة السجناء السياسيين.

كان ماء الشرب شحيحا في نقرة السلمان حيث السجن ومقر شرطة البادية الجنوبية وعوائلهم كل هذه المئات من الشفاه تنتظر مياه الشرب الذي كان ينقل بسيارة واحدة من عيون خارج «النقرة» أي المنخفض. وعندما تأتي السيارة بحصة السجناء من الماء كان رفاقنا يخرجون بالدور حسب الخفارة لينقلوا الماء بصفائح من الصفيح «تنكات» مملوءة معلقة على طرفي قضيب طويل من الخشب يحملونها على اكتافهم ويهرولون به إلى داخل السجن معتنين كل العناية لئلا تنال الارض نصيبها من قطرات الماء بخلاف الخمرة التي يقول فيها الشاعر:

ـ وللأرض من كأس الكرام نصيب!

فالماء هنا أعز من الخمرة لو وجدت هذه. وقد حدث ذات مرة أن رشقة من الماء انطلقت إلى الارض من الصفائح التي كان يحملها رجب عبد الكريم الطالب الحقوقي فقامت قيامة مدير السجن على هذا «الهدر» ووجه كلمة مهينة إلى الرفيق فلما علم سالم عبيد بذلك فقد زمام نفسه وأصدر إيعازاً مرتجلا منفعلا صاعقاً بالكف فوراً عن الاكل. وكان الرفاق ملتمين حول القصاع وقد بدأوا توا بالاكل بين تناول الملعقة الثانية والثالثة. وكان الايعاز العسكري الفوري الصارم:

ـ اتركوا القصاع في فناء السجن!

وأعلن الاضراب عن الطعام حتى الموت أو حتى ينقل مدير السجن الجلاد عبد الجبار أيوب الذي شنقه طيب الذكر عبد الكريم قاسم بعد ثورة ١٤/ تموز ١٩٥٨ مع بهجت العطية مدير التحقيقات الجنائية سوية.

وتورطت المنظمة في اضراب مرتجل فجائي لم يفكرفيه أحد قط بما فيهم القائد الآمر الناهي الذي أوعز بالاضراب. والاضراب عن الطعام حتى الموت امتحان عسير يستلزم اعداداً جيداً وقناعة صادقة من الجميع. وفي الأيام الثلاثة الاولى من الاضراب يستذكر الانسان في خياله جميع الاكلات الطيبة التي حرم من تناولها أو تناول كفايته منها ثم ينسى الاكل بعدها بالتدريج ولكن حيوية الجسم تأخذ بالهبوط مهما كانت جرعات الشاي المحلى بالسكر والمغشوش ببضع غرامات من الحليب المحفوظ في العلب والذي يقصد من تناوله إطالة أيام الاضراب إلى أقصى حد ممكن حتى يسمع العالم خارج السجن بنبأ الاضراب ويتسنى للحزب تنظيم فعاليات تضامن مع المضربين للضغط على الحكومة للتراجع بعض الشيء لانقاذ المضربين من الموت. وقد طال الاضراب بسبب تأخر الخبر عن المتضامنين في بغداد، أي عوائل المضربين والشيوعيات اللواتي ينظمن المضاهرات. ولا يتوقف تحمل الاضراب على المناعة الجسمية أو العصبية بل على القناعة والروح المعنوية الجماعية. وكان ممن استشهد في هذه الاضرابات الشيخ علي الشيخ حسين وهو رجل دين من العمارة، مصاب بالسل ولكنه أبى أن يستثنى من الاضراب، بل فضل الشهادة مع الجماعة. واستشهد في أحد الاضرابات الشاب نعمان محمد صالح وهو من اطراف بغداد الشرقية الشعبية.

جاء مدير شرطة البادية إلى السجن وطلب وفدا من السجناء المضربين عن الطعام فاستدعانا (أنا وكاظم حمادة) سالم عبيد لينتدبنا للمفاوضات. وكان طلبه الرئيس كما أبلغنا طرحه طلب الوعد بنقل مدير سجن نقرة السلمان ليحل محله مدير آخر! وكان انتدابنا نحن الاثنين غريباً جداً فلا انا ولا كاظم حمادة من العشرة المبشرة او الحواريين او ذوي الحظوة بل كنا معدودين من اشباه الانتهازيين اليمينين أن لم نكن أسوأ بنظر «زملاء فهد الخلصاء» وعلى رأسهم سالم عبيد نفسه. فلماذا اختارنا لهذه المهمة الحساسة التي تستلزم منتهى الصلابة والامانة؟ هذا ما لم افكر به في حينه. بل قررت أن أكون ممثلاً أميناً لمن انتدبني أي لقائد الاضراب! فطلبت من مدير الشرطة وكان مسلكياً فظاً سيء الاخلاق تدرج من شرطي بسيط إلى ضابط شرطة كبير طلبت الوعد بنقل مدير السجن لننهي الاضراب. فانفجر كدملة مكتظة بالقيح وجرى سيل من القذارة من فمه. وحاول كاظم حماده تلطيف الجو بكلام غامض معسول لا يفصح عن شيء. وانتهت المفاوضات بالفشل وألقى سالم عبيد اللوم علي أنا وشرع بحملة تشهير ضدي. فيما بعد فهمت خطته أن ينهي الاضراب بعودة «ما كان إلى ما كان عليه» أما مطلب نقل مدير السجن فتعويذة للحفاظ على ماء الوجه أمام الرفاق إذ كان مقتنعاً أن هذا المطلب لن يتحقق لان عبد الجبار أيوب اختير خصيصا لاذلال الشيوعيين. و عندئذ سوف يقول ما العمل انتدبت كبار السن للاستفادة من تجاربهم الدبلوماسية وحكمة الشيوخ ولكنهم اثبتوا أنهم لايزالوا «انتهازيين» و«جبناء» فلم يجرأوا بحضور مدير السجن أن يطلبوا من مدير الشرطة حتى وعداً بنقله!

واستمر الاضراب بعد ذلك بايام قلائل اخرى و انتهى بشروط «جديدة» وهي استعادة المكاسب القديمة: المخزن والمطبخ واجراء تحسين طفيف في تجهيز ماء الشرب. وتكررت مثل هذه النتيجة «الظافرة» لاضرابات السجناء السياسيين عن الطعام مرات أخرى وفي سجون أخرى على قاعدة «اعادة ما كان إلى ما كان عليه».

وفي إضراب الماء هذا كان صمود الرفاق رائعا رغم عدم قناعتهم بحكمته فلم يحاول أي احد الافلات من الاضراب والانتقال إلى «المستنقع» أي الجانب الاخر من السجناء غير المضربين.

وفي الاضراب عن الطعام كانت تبرز آيات البطولات للرفاق الاطباء السجناء وأخص بالذكر ابراهيم ناجي الصيدلاني والدكتور حسين علي الوردي ويعقوب سحيق كانوا يواصلون السهر على المضربين ليلاً ونهاراً ويحملون من تحت المرضى ما قد يخرج من بطونهم بلا أدنى اشمئزاز او تقزز او ضجر. وعندما ينتهي الاضراب يزداد قلقهم على صحة الرفاق من عقابيل داء الاضراب التي تشبه في نظر الدكتور الوردي عقابيل التيفوئيد. ولم تكن بطولاتهم اقل باي حال من الاحوال من بطولات جبهة القتال رغم ضآلة امكانياتهم.

أما حصيلة ما نالني من وراء الاضراب فكانت القابا معكوسة حاد، متزمت، متطرف، استفزازي و حتى«يساري» ومع ذلك تكرر انتدابي لمثل هذه المهمات غير المشكورة مرة بعد أخرى.

شبع الناس من الاحكام العرفية و بلغت المأسات ذروتها. وللتنفيس عن الكرب قرر المخرج الانكليزي إخراج فصل كوميدي كما هي العادة في التراجيديات الشكسبيرية عندما تبلغ المأساة ذروتها، أوفياته «بستة أو طقطوقة» بعد المقام كالعادة المالوفة في الجالغي البغدادي: فجاء بحكومة تنفيس تنهي الاحكام العرفية ولكن في آخر ساعة أو كما يقال في الدقيقة الخامسة قبل الزوال جاء المجلس العرفي العسكري إلى نقرة السلمان. وكان أحد المتهمين الذين جاء المجلس العرفي لمحاكمتهم سالم عبيد النعمان بنفسه بدعوى قضية نشأت داخل السجن. وبث مدير السجن إشاعة عن طريق السجناء العاديين الذين يخدمونه مفادها: «أن العرفي جايب ويا مشنقة سفرية»

فتطير سالم عبيد ولم يطمأن لاي أحد سواي ليبدد له مخاوفه. و كانت الدعوى لا تستحق حكم الاعدام بأي حال من الاحوال ولا تتعدى قراءة نشيد ثوري. فرحت أطمئنه و قلت له:

ـ إن الرفاق فهد وزملاءه الذين اعدموا، اغرقوا بالمستمسكات ولاسيما منح العضوية للعسكريين الامر الذي يسوغ عقوبة الاعدام حسب التعديل الذي أدخل على قانون العقوبات البغدادي. فلا بأس عليك.

قلت له ذلك بعد أن شعرت أن التأكيد على تغير الجو السياسي لم يكن مقنعاً له بحد ذاته وخفت أن ينهار أمام العدو. وقد علمت فيما بعد من قاسم احمد العباس زميل عبد الرزاق الزبير في السجن والذي أصبح مديراً عاماً في وزارة الإصلاح الزراعي بعد ثورة ١٤/تموز، علمت منه أن سالم عبيد في تلك المحاكمة كان قد أعطى تعهداً للحكومة بعدم ممارسة السياسة بعد خروجه من السجن، والعهدة على الراوي. وفعلا لم يمارس سالم السياسة بعد خروجه من السجن. حينما كان على رأس التنظيم الحزبي في السجن أساء اساءات بالغة ومخجلة لأحد السجناء الديمقراطيين حلفاء حزبنا كامل قزانجي وهو المحامي الوحيد الذي صمد للدفاع عن فهد لدى محاكمته الاولى ولذا كانت الرجعية والسفارة البريطانية تضمران له الحقد الاسود فحكمته بالحبس خمسة سنوات.

كان هذا الاضراب حدثاً طارئاً على جو السجناء السياسيين الذي خلفه فهد، أي جو الدراسة والاستراحة بالنسبة للمناضلين، وهو عين ما كان يفعله المناضلون الثوريون الروس في السجون القيصرية. وبعد الاضراب عاد وضع السجناء السياسيين إلى ما كان عليه. وجرى النضال ضد سؤ قيادة سالم عبيد و بيروقراطيته الفظة وانعزاله عن حياة الرفاق البسطاء ومحاباته لبعض المناضلين دون غيرهم وإخفائه المكتبة ووقفه النشاط التثقيفي واختزاله إياه إلى أدنى حد. وكانت كل تصرفاته تدل على أنه كان يخشى على حياته من أن يختطفها العدو كما جرى لفهد ورفيقيه. وتولى قيادة المعارضة حميد عثمان الذي جاء مؤخراً إلى السجن واستقبله سالم عبيد استقبال الفاتحين على أساس الاشاعات القائلة أن حميد عثمان صمد صمود الابطال بوجه التعذيب الذي لم يسبق له مثيل، بحيث اندهش حميد نفسه بذلك الاستقبال ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وعاد ليلعب بدهاء دور البطل الاسطوري. وكان له زملاء سابقون من اربيل والسليمانية في النضال قبل السجن ومنهم عزيز محمد التفوا حوله. وبدأت المعارضة تستقطب حلقة بعد أخرى من الرفاق في السجن حتى شملت الاغلبية الساحقة. ودخل السجناء السياسيون في دوامة تدور في فناء السجن ليل نهار. واعتكفت هيئة الكادر الحزبي باستثنائي أنا في أحد اقبية السجن لتحل النزاع بالمداولة. واستمرت المداولات اياما بلياليها حتى تعمقت الخلافات إلى حد الانقسام. وتم الانقسام بالاتفاق وانحاز«باسم» الذي كان يقود الحزب إلى كتلة الاكثرية «اليسارية» بقيادة حميد عثمان رغم التنافس بينهما. فقد عقد اجتماع في سطح الربيئة الجنوبية ألقى فيه ممثلا الكتلتين وجهتي نظر كتلتيهما. وكان محمد حسين أبو العيس على رأس الاقلية «اليمينية» واتهم الرفاق الكرد واليهود من جماعة الاكثرية بالتكتل على اساس طائفي أو قومي فأساء إلى «اليسار» وقد طلب المثلان من الرفاق أن يصوتو بارجلهم: فمن كان مع«اليسار» ترك الربيئة الجنوبية وحمل فراشه وحاجاته وولى إلى الربيئة الشمالية التي غدت بمثابة نادي «اليعاقبة» في الثورة الفرنسية. وبقي الجيرونديون في مكانهم، لينقادوا لهم في كل معركة تقررها الاكثرية اليعقوبية. وكنت من أوائل المنضمين إلى «اليسار».

دب النشاط في حياة المنظمة وأخرجت المكتبة الماركسية المخفية وترجمت بضعة كتب عن الانكليزية ومنها كتاب ستالين «موجز تاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي» وكتابه «الماركسية

والمسألة القومية ومسالة المستعمرات» ولم أكلف بغير الترجمة وبتدريس قواعد الترجمة. إذ لم أكن يساريا في نظر حميد عثمان بل انتهازيا يمينيا! ولم أدع من أي طرف من الطرفين لحضور اجتماعات الكادر القديم الذي اتفق أخيرا على اقتسام المنضمة مقاسمة رضائية. واثارت تعليقاتي المستقلة استياء الطرفين. وقد اسأت إلى حميد عثمان بالذات إذ نبهت بعض الرفاق من الاكثرية بحضوره ضد تقديس الفرد عندما كانوا يكيلون له المديح جزافا.

وجاءت ذكرى ثورة اكتوبر وكنا نحتفل بها سنويا فكلفت بالقاء كلمة بالمناسبة. فتناولت تاريخ الحزب البلشفي عن الطبعة الانكليزية، ولخصت الفصول السبع الاولى بما فيها فصل الثورة والقيت التلخيص الذي استمر زهاء ساعتين وكان الصمت مخيما على الجميع وكأن على رؤوسهم الطير. وفي الختام قلت لهم أن ما سمعوه هو بالحرف الواحد منقول من موجز تاريخ الحزب البلشفي ففوجئوا بهذه الصراحة.

ترجمنا في السجون العديد من كتب ماركس وانجلس ولنين ولمؤلفين ماركسين آخرين. واستنسخنا المئات من الدفاتر عنها ليقرأها السجناء السياسيون ونسخ مصغرة على ورق رقيق أرسلناها للحزب. وكان أبرز خطاطينا بالخط المجهرى والعادي: حسين الرضي وعزيز وطبان وعزيز سباهي. وقد كانوا يواصلون الليل والنهار، يبذلون ماء عيونهم لانجاز مهمتهم بدقة واتقان ووفرة بالانتاج وقد برز من بينهم من له وفرة في الانتاج والتأفف عزيز وطبان وبذلك يعبرون عن الحاجة إلى تثمين جهدهم المضني وعن ارتياحهم لهذه التضحية. وقد تميز وراقونا عن وراقي العصر العباسي في أنهم كانوا يلتهمون المادة التي يستنسخوها فيجدون متعة مزدوجة. وقد استشارني حسين الرضي مرة عن لون الورق الاقل شفافية أو الأكثر كتامة من أرق أنواع الورق فقلت له الفستقي أو الشذري. وقد استخدموه في بريطانية خلال الحرب العالمية الثانية عندما شح الورق فأرادوا أن يحصلوا على أكبر مساحة من الورق من العجينة المحدودة التي كانت توزع على الصحف حسب وزن العجينة وليس حسب مساحة الورقة.

وعندما ترجمت «المسألة القومية» وقعنا في أشكال: إذ ينبه ستالين الشيوعيين إلى «ضرورة احترام عقائد الناس الدينية عدا بعض العادات» كعادة «شخسي فخسي عند التتار» فعجزنا عن فهم ما يريده وما هي تلك العادة التترية التي يعنيها. فرحت اتحرى بين الرفاق من أبناء العتبات المقدسة فسألتهم عما يردده عزاء التركمان أو العجم القادمين من ايران في كربلاء عندما يجلدون أنفسهم بشدة بسلاسل الحديد القصار. فقال لي أحدهم أنهم يقولون «شاه حسين واحسين» ترى كم تحرفت هذه الكلمات عندما نقلت إلى اللسان التتري وإلى الالف باء الروسية ثم الالف باء الانكليزية حتى غدت «شخسي فخسي».

أقبل الرفاق على مطالعة المواد المترجمة بينهم وانطلقت المناقشات الحامية وحتى المشادات حول الديالكتيك وقضايا الثورة وكان للغة الترجمة تأثيرها على أساليب الرفاق اللغوية في الكتابة والخطابة وقد ساعدت على اعدادهم كمنظمين ودعاة وكتابا وخطباء سياسيين أو دبلوماسيين من أمثال حسين الرضي وسائر الشهداء الابطال.

وقد لعب دورا نشيطا في الاعداد اللغوي العربي للرفاق السجناء حمدي أيوب النحوي والمحامي الموصلي. كان يواصل العمل ليلا ونهارا لتعليم الرفاق ويثير الجدل بينهم أياما متتالية حول هذه المسألة اللغوية أو تلك. فتحولت قلعة أبوحنيك من سجن إلى اكاديمية علوم وآداب وسوق عكاظ للشعر والخطابة. وكان حمدي أيوب بصوته الجهوري المدوي يؤدي دور المذياع ومضخم الصوت للمنظمة في الازمات كالاضراب عن الطعام وكان يبلغ رسائلنا الشفوية بصوته إلى القرية ضمن كيلومتين فيمزق سكون الليل ويسمع أصدقاؤنا وأعداؤنا على السواء بما نريد إبلاغهم

وأقام علينا الدنيا حمدي أيوب ولم يقعدها لأننا استعملنا مرة «كلما» في مكان حرف الشرط وجواب الشرط في عبارة واحدة وقد اجبرنا على حذف «كلما» من جواب الشرط بعد أن كسب الأكثرية الساحقة ضدنا فعزينا أنفسنا بأن للباطل جولة وللحق جولات!

ومن بابة ألطف ما يروى أن جريدة «لواء الاستقلال» جاءتنا بعدد يحمل افتتاحية بعنوان «أشر في الجوالق؟» بقلم فائق السامرائي. فحار زملاء حمدي ايوب وهونفسه في كيفية قراءة العنوان وتفسيره وقرأوه على مختلف الصور والتفاسير ومنها «أشرٌ في الجو ألق» يعني الاشر يتألق في الجو ولكن ما هذا الأشر؟ لم يجدوا تفسيراً أو مدلولاً أو معنى وكنت قد قرأت في الفترة السابقة كتاب «مروج الذهب» للمسعودي وفيه قصة «حصان طروادة العربي». وهي أن الاعداء عندما عجزوا عن اقتحام تدمر عمدوا إلى حيلة باخفاء المقاتلين في جوالق (عدول) الجمال لتدخل تدمر وتحتلها من الداخل وأن الملكة زنوبيا عندما رأت من شرفة قصرها أن الجمال تسير وئيداً لثقل ما تحمله في جوالقها تساءلت مرتابة، متوجسة:

ـ أشر في الجوالق (هل يوجد شر في الجوالق)؟

فسردت لهم القصة وضجوا بالضحك الصاخب لبساطة المعنى وقربه في حين أغلق عليهم لغالاتهم في الجدل ولعدم اطلاعهم على الفولكلور العربي. ولاأكون منصفاً للواقع إذا لم أقل أن الذنب يقع أيضاً على الكتابة العربية حمالة اوجه ولاسيما الطباعة بسبب حروفها المتصلة لاقتضابها ولخلاءها من الحركات وبالتالي قبولها شتى التفاسير والتأويلات وانغلاقها على المتعلمين وحتى النحويين. ولكنني لا أريد إبدالها بالاحرف اللاتينية أو غيرها أياً كانت. إلا إذا توصلت البشرية إلى الفباء مشتركة تصلح لضبط جميع اللغات إلى الحد الممكن والضروري. أما الآن فأنا من دعاة استكمال الالفباء العربية لتساعد على فهم المعنى وليس العكس. أي ليس ضرورياً فهم المعنى مقدما كشرط لابد منه لقراءة النص قراءة صحيحة كما هي الحال في الكتابة العربية الراهنة.

ومن التعقيدات الفكرية التي تمخض عنها نشاطنا الثقافي في السجن تعريف ستالين للامة فجملة الشروط التالية: وحدة الارض واللغة والثقافة والاقتصاد لتكوين أية أمة. ولكن قد لا تتوفر جميع هذه الشروط في وقت واحد في أية أمة من الأمم المعاصرة لتكون حسب الكاتلوك كما هي الامة الفرنسية مثلا، ومن الناحية العرفانية، لعل العيب الاختياري في موضوعة ستالين هو إنه لم يركز على أي شرط من الشروط باعتباره الشرط الرئيس أو الحاسم في تكوين الامة. وتجد هذا الشرط عند لنين وهو الحركة الجماهيرية التاريخية الفعالة الدائبة التي تسبق تكوين أية أمة من الامم لمدة طويلة. الحركة التي تخلق الدولة الوطنية. فالجماهير الهندية بفضل نضالها الوطني ضد الاستعمار البريطاني وحكمه كونت الدولة الهندية وعندئذ عند قيام الدولة الهندية نشرت الصحف الامريكية نبأ ميلاد «أمة» جديدة. والامة الهندية لاتملك لغة مشتركة ولاتزال تستعير الانكليزية كلغة رسمية مشتركة وتضم عشرات القوميات حتى قبل قيام الدولة الهندية المستقلة. فالاقتصاد المشترك قام في ظل الحكم البريطاني. ولكن قيام الدولة الهندية الوطنية طور وحدة الاقتصاد الوطني الهندي بصورة أسرع بما لايقاس وهذا يعني إن تطور الهنود كان مستمرا وبسرعة أكبر. إن الاقتصاد المشترك يمكن أن يتطور أو يتحقق بعد قيام الدولة الوطنية على الارض الواحدة الخالية من التجزئة الاقطاعية وهو في هذه الحالة ليس دائما شرطا مسبقا. أن ستالين إذ يشترط التكوين التاريخي للأمة يعني أيضاً أن اللغة والثقافة والاقتصاد و..الخ هي أيضاً تتكون تاريخياً بوتائر مختلفة ومع ذلك فقد انتشرت فكرة عقائدية جامدة مفادها ضرورة توفر كل الشروط الانفة الذكر سوية ومقدما كشرط لقيام الامة. وقد فشلت جميع تجارب الوحدة العربية حتى الآن لأن الحركة الجماهيرية في سبيل الوحدة لم تبلغ بعد المستوى الضروري لاسنادها ولأن الطبقات

الحاكمة لاتريدها ولأن الامبريالية والصهيونية تحاربها. وقد أدى الجدل بصدد الامة وشروط تكوينها إلى إثارة مسألة ما إذا كان الكرد بمقدورهم أن يكونوا أمة أي أن ينفصلوا في دولة مستقلة. وكان الشك بهذا الصدد يقلق الشيوعيين الكرد أنفسهم فجمع حميد عثمان كوادرهم في قبو القلعة الشمالية في السجن الصحراوي القديم واستدعاني لمناقشتهم. وكان من بين شكوكهم عدم وجود سوق قومي كردي مشترك لان المحافظات الكردية مرتبطة بسوق العاصمة بغداداكثر من ارتباطها بعضها ببعض مباشرة فقلت لهم:

ـ إن السوق المشتركة ظهرت في أوربا بعد انتهاء التجزئة الاقطاعية سياسياً ومع انهيار الاقتصاد الطبيعي وفي ظل الملكية المركزية المطلقة. وللامركزية الاقطاعية الكردية إنهارت في العراق منذ اواسط القرن التاسع عشر على يد الجيش التركي. والان لا يسود الاقتصاد الطبيعي في كردستان بل الاقتصاد البضاعي المرتبط بسوق بغداد. وإن من حق الاكراد أن يكونوا أمة واحدة أو اكثر أن أرادوا. وهذا يتوقف أيضاً على وجود حركة جماهيرية فعالة وعلى هذا العامل الحاسم يتوقف أيضاً ما إذا كان المستقبل سوف يرى دولة كردية واحدة أو أكثر. وخرج الاكراد من المناقشة أقل تشككاً على ما أظن.

كنا في السجن نحلم بالثورة كما نتصورها بيد أننا لم نكن نحلم بها فقط بل كنا نعد أنفسنا لها. ولو بقي فهد معنا لجنبنا الكثير من الجمود العقائدي والنصية ولأعدنا إعداداً أفضل كثوريين وماركسيين لينينيين. وفي هذا الشأن وفي فن القيادة السياسية لم تعوض خسارة فهد!

كان لنا في السجن الصحراوي في قلب الجزيرة العربية سوق عكاظ يتبارى فيه الادباء والشعراء من عرب وكرد وكان الشعر الكردي أكثر غزارة من حيث عدد الشعراء وكمية الشعر أما النثر الكردي فكان أقل غزارة. وهذا يرجع إلى التفاوت في مستوى التطور الثقافي للأمتين. وكان اسماعيل أحد الشعراء الكرد الديموقراطيين وكنا ندعوه «سيمكو» تيمناً باسم القائد الكردي الذي غدر به الشاه الايراني بعد أن دعاه للمفاوضات. وكان اسماعيل يعتز بهذا التصغير لاسمه لما فيه من تبجيل لشخصه وكان غزير الشعر وباستطاعته أن يتحفنا بقصيدة أو مقطوعة في كل يوم. فانقطع فجأة عن الابداع. فسألناه عن السبب فقال وكان لايجيد الكلام بالعربية الدارجة:

ـ زبابين هوايه ما اكدر اسوي شعورة.

اعتذر بكثرة الذباب عن انقطاعه عن نظم الشعر. وكان الذباب كثيراً حقا كما هي الحال في الواحات الاخرى، ولذا تغنى شاعرهم لبيد بطنين الذباب كناية عن الحياة الخضراء وتوفير المياه.

وقد تخرج من عكاظنا كتاب وصحفيون ترك بعضهم الحزب وعاشوا من أقلامهم التي أعطاها إياهم دون أن ينال منهم لاجزاءً ولا شكورا.

وكان بيننا فنانون مبدعون ومنهم رشاد حاتم الرسام التلويني. كان يرسم لوحات زيتية متقنة يقلد بها الرسام الهولندي الشهير كوخ. وقد سمع مرة من حمدي أيوب: «قل مفن ولا تقل فنان، فهذا يعني حمار الوحش» فقال رشاد من فوره:

ـ والله أفضل ألف مرة أن أكون حمار وحشي على أن أكون مفنا.

أنتج رشاد حاتم الكثير من الصور الزيتية للسجناء السياسيين ولكن مصيرها غير معلوم وكان من بينها صورة جامعة حافلة بنشاط السجناء اليومي ومن بينهم رفاق استشهدوا في معارك السجن وغيرها. بيد أن رشاد كان يرسم على هواه من يشاء وما يشاء ولم يرسم فهد وزملاءه وعندما ودعه فهد الوداع الاخير عاتبه قائلا:

ـ تاليها ما رسمتنا يا رشاد!

ولم يحرص رشاد على تدريب تلاميذ له وحتى أنه أمتنع عن إرشاد الرسام الهاويه عزيز سباهي بكيفية خلط الألوان فانتقدته مرة بقولي: انت مثل حرفيي القرون الوسطى الحريصين على سر المهنة لايكشفونه حتى لاولادهم قبل أن يبلغوا سن الرشد وإذا سرق أحدهم السر قتلوه.

امتعض رشاد من هذا النقد القاسي ولكنه لم يكشف شيئاً من السر. وسألني عزيز سباهي مرة كيف يحضر اللون الاسود في السجن فقلت له:

أطلب من المقاول الملتزم بتزويد السجناء بالارزاق أن يأتيك بشيء من بذر الكتان واقله ثم اسحقه بالهاون وضعه في قطعة شاش وأعصر زيته وحلل شيئاً من سخام القدور أو زجاجة الفانوس في زيت بذر الكتان فتحصل على صبغ كاربوني أسود فاحم سريع الجفاف بفضل سرعة تبخر زيت بذر الكتان.

وكان من بيننا شيوعي لبناني أرمني هو القائد الموسيقي الكهل كريكور الذي انتمى إلى حزبنا عندما جاء للعمل في العراق وصار رئيساً للفرع الارمني في الحزب. وقد سلمه مالك سيف للعدو هو وأعضاء لجنة الفرع ولم يستطع الصمود بوجه التعذيب فاعترف على هوية زملائه الحزبية ليندم فيما بعد. ويبدو أن شعوره بالاثم كان يعذبه دائماً وللتكفير عن خطيئته وإراحة ضميره المعذب كان يتطوع لتقديم مختلف الخدمات للرفاق ومنها التدليك. كان النظر إلى هذا الانسان المعذب يحزنني فأشفق عليه.

أما الكهل الارمني الاخر انترانيك فكان يجمع مزايا جيله من الارمن الكادحين. كان كدوداً جلداً واثقاً، خصب الانتاج متعدد المهارات وكأن كل اصبع من أصابعه العشرة عشرة مهارات مختلفة. كانت مهنته مصلح ساعات عالي المهارة والاجرة كان العمل في السجن حياته بالذات ولا يترك لنفسه وقتاً للفراغ بل يجد في العمل سلواه واستجمامه. ودخل في تنوع أعماله ومشاريعه لخدمة المنظمة: الشروع بصنع مضخة لسحب الماء من بئر السجن المالحة ليريح الرفاق من مشقة رفع الدلاء وأخذ يصنع الانابيب من صفائح النفط. وكان يسامر الرفاق اثناء عمله وكانوا يتمتعون باحاديثه وتعليقاته ونقداته. كان ناقداً جريئاً فانتقد حتى الناقد العربي الكبير طه حسين. كان انترانيك يصغي لقراءات الشباب لطه حسين وينتقد اسلوبه الريبي بمحاكاته فيردد:

ـ لاهذا ولا ذاك، بين هذا وذاك، تدور وتمور، وتخور ويلف ويدور..

وبالمناسبة كنت قد قرأت قبل السجن كتابيّ فقه «الخراج» لأبي يوسف و«الأموال» لأبي عبيدة تتبعا لقضية الارض في تاريخنا فأدهشتني سلاسة لغتهم ووضوحها ودقة احكامها رغم أن عمرها قد تجاوز الالف سنة. وقرأت «الفتنة الكبرى» لطه حسين عن الصراع بين علي وعثمان. وفي السجن قرأت «شرح نهج البلاغة» لإبن أبي حديد وفيه قصة الصراع ذاته وقد تملكني العجب فكيف استطاع إبن أبي حديد قبل ألف سنة أن يبز طه حسين عميد الادب العربي في القرن العشرين في سلاسته ودقة تحليله.

نفس الأفكار مكتوبة بلغتين عربيتين الاولى: صريحة دقيقة والاخرى: ريبية سائبة، مواربة. الاولى علوية الميول والاخرى: لاادرية ومع ذلك أرى إن طه حسين أفضل مؤرخ معاصر إلى جانب جرجي زيدان ، للمجتمع العربي.

ولنعد إلى سجننا الصحراوي. ومن أبطال العمل الشيوعي بالاضافة إلى إنترانيك كان عندنا شمشون بيرة الاشوري. كان بالفعل شمشون الجبار. شاب مرح لايعرف الهم والغم مفتول العضل، قوي البنية. مهنته حداد أخذ على عاتقه أشق الاعمال وأصعبها. كان عامل الصناعة الثقيلة يتلاعب بأثقل القدور. كان حاضرا للعمل في أي وقت أثناء الليل وأطراف النهار.

أما أكرم حسين المعلم البصري فكان من أبطال العمل الصامتين، دائب العمل والتفكير. كان همه أن يخترع أكلات طيبة يفاجئ بها الرفاق ليتمتع بابتسامات الرضى تنبسط على وجوههم.

وكان به ضعف للشاي المعتق فيبالغ في غليـه. ومتعتِـه أن ينبطح مرتكـزاً علـى كوعـه إلى جـانب «قوري» الشاي (ابريق الشاي) «المهدر» ويسرح بعيداً في عالمه الخـاص. وفي أحـد الأعيـاد أراد أن يتحف المناضلين السجناء بحلوى شعبية «الزلابية» أي (المشبك) بلغـة أهـل الشـام. فسألني عمـا اعرفه عن كيفية تحضيرها. ولم أكن أعرف كنههـا سـوى إننـي رأيـت في دكـان في سـوق الميـدان ببغداد عامل زلابية يصب عجينة سائلة من ابريق في يمينه على قمع في يساره فوق المقـلاة المـلأى بالزيت المغلي على النار ويرسم شبابيك في دورانه ثم يضع الشبابيك في صحن ويصب عليها السكر السائل. فتصبح زلابية جاهزة شقراء يسيل لها اللعاب لو رآها إبن الرومي لفضلها على الخشكنانج الذي تناوله رغم هواجسه في انه كان مسموما ليموت به.

لم أعرف مادة العجينة السائلة ومع ذلك لم أتردد في إعطاء وصفة مرتجلة لأكرم حسين: أكسر البيض وأعزل صفاره عن بياضه وأخفق البياض مع قليل من أدق دقيـق القمـح«نمـرة صفـر» حتـى يصير عجينة سائلة هي مادة الزلابية. وأعمل من الصفار والدقيق والسكر حلـوى أخـرى. ولم اكـن أعرف أن النشأ وليس بياض البيض هـو مـادة الزلابيـة، ومـع ذلـك فقـد صنـع أكـرم علـى ضـوء تلميحاتي زلابيا فاخرة يكاد من يتذوقها أن يأكل أصابعه معها لفرط لذة طعمها وطيبها وحلاواتها شكلاً ومحتوى.

ومن ذوي الاختصاص بيننا كان المسؤول عن حفظ مياه الشرب، عبد الحسين وقد أطلـق عليـه عزيز عبد الهادي الاعظمي لقب «مروق المـاء» وكـان يسـهر علـى ترويـق المـاء في براميـل الحديـد الضخمة ليل نهار ويبرده صيفاً بلف براميـل المـاء بأكيـاس الجنفـاص الـتي يرطبهـا علـى الـدوام والابتسامة لا تفارق شفتيه. وبعد ثورة ١٤/ تموز استوقفني رجل عند ملتقى شارع المتنـبي وشـارع الرشيد وسألني متلهفا:

ـ هل تعرفني؟

ذهلت للمفاجأة ولم أحر جوابـاً ولم أذكـره إلا بعـد أن ابتعـد عـني فتـألمت إذ أنـه كـان عبـد الحسين مروق الماء. إلا لعنة الله على السنين أنستني أسماء كثرة من الأبطال لا أزال أذكر محياهم وعملهم ومنهم القصاب البارح وهو شاب مـن عائلـة قصـابين مـن أطـراف الرصافـة وقـد استشـهد برصاص العدو في أحد مذابح السجون.كان البارح يذبح الذبائح ويسلخ جلدهـا ويقطعهـا فيوهيئهـا للطبخ. كان شعبياً شهماً «برمكياً» بالمعنى البغداداي للكلمة من طراز نعمـان ومحمـد صـالح عبلـي ابناء حارته. ولست قادراً على كتابة موسوعة وأن تكن موجـزة عـن شـهدائنا الراحلـين والمقيمـين حتى الآن. وكل ما اتمناه من نجاح أن يحفز مؤلفـي هـذا الاخريـن ذوي الذاكـرة الشـابة ليكتبـوا عنهم! أن يكتبوا كل التفاصيل صغيرها وكبيرها فلعل أديباً من عيـار غـائب طعمـة فرمـان يخـرج منها سفراً خالدا وغذاءً روحياً للمناضلين الثوريين وتاريخاً حياً لحزبنا ونضالات شعبنا.

45

من أحلام اليقظة

بعد هذا الانتعاش بين السجناء السياسيين استيقظت الآمال لنقل السجناء من سجن نقرة السلمان الصحراوي إلى سجن آخر في إحدى المحافظات حيث يكون الاتصال بعوائل السجناء أسهل نسبياً. فتوصل التنظيم إلى أن الاضراب عن الطعام من أجل الانتقال إلى الحواضر هو الوسيلة الوحيدة الممكنة للانتقال. وحضر تحضيراً جيداً للاضراب ولاسيما إقناع الحزب بتنظيم الاعمال التضامنية لإسناد الاضراب باخراج مظاهرات نسائية من عوائل السجناء والرفيقات الاخريات. وكانت الأحكام العرفية قد رفعت والحكومة القائمة آنذاك حكومة تسكينية. فطلب مدير شرطة البادية الجنوبية وفداً للتفاوض. وعرض علينا عروضا سخية لتحسين أحوالنا في سجن النقرة من كافة النواحي تحسيناً ملموساً حسب امتيازات السجناء السياسيين. ورفضنا عروضه جميعا واصرينا على مطلب نقلنا إلى إحدى الحواضر والغاء السجن الصحراوي.

وبعد أيام شرعوا بنقلنا على وجبات إلى سجن بغداد والكوت ولكنهم في آخر لحظة استبقوا خميرة من السجناء السياسيين في سجن نقرة السلمان.

وصلت مع وجبة حميد عثمان إلى سجن الكوت فوجدنا الوضع فيه أحسن إلى حد كبير من السجن الصحراوي وقبل أن نتم دور النقاهه من الاضراب الاول الطويل المنهك تلقينا فجأة أمراً من «باسم» بهاء الدين نوري سكرتير اللجنة المركزية، يلزمنا مجدداً بالاضراب وعلى الفور من أجل اطلاق سراح زوجته مادلين الموقوفة والمهددة بالابعاد. ومن دون اقتناع أي واحد منا اضربنا في الحال عدة أيام وقد أساء هذا الاضراب الاضافي إلى صحة جميع المضربين القادمين من سجن نقرة السلمان لأنه جاء بعد إضراب طويل منهك.

وجدنا في سجن الكوت ترجمات جيدة لكتب ممتازة ترجمها الرفاق السجناء وكان التثقيف الماركسي جيداً وكان مدير السجن رجلا وطنياً هو جابر منير العاني.

وبعد فترة وجيزة بوشر بحفر النفق من داخل السجن إلى خارجه وطلب حميد عثمان من بهاء الدين نوري أن يساعدنا على الهرب من السجن والالتحاق بالحزب بتهيأة واسطة لنقل الهاربين إلى بغداد. فاعتذر بأن الحزب غير قادر على إسعافنا بواسطة نقل ولا على إخفائنا في بيت من بيوت الكوت ريثما يتمكن من نقلنا. والاغرب من ذلك كله ، أن بهاء الدين أصدر بياناً سياسياً حزبيا بصدد اتفاقية النفط قرر توزيعه في نفس الليلة التي أخبرناه إننا سنهرب فيها. ومبعث الغرابة هو علمه بأن توزيع أي بيان يؤدي عادة إلى استنفار الشرطة والعسس وترصدهم للمارة. كان واضحاً إنه يعلم بما يطمح إليه حميد عثمان من وراء هروبه، يعني منافسته على زعامة الحزب. وعندما إستجوبناه بعد ذلك في سجن نقرة السلمان عن سبب تخييبه آمالنا في الهروب أجاب:

- ما كنا نعرف أهمية الهروب!

ولم يحر جواباً على توقيته توزيع البيان مع وقت الهـروب. وكـان واضحـاً إنـه يفضـل وقـوع لفيف من الكوادر الحزبية بيد العدو على نجاتهم ومشاركتهم له في قيادته الانفرادية للحـزب. لم يكن لي أي علم بعمليـة الحفـر وصعوباتهـا وعندمـا دعيـت للهـرب لم أتـردد لحظـة واحـدة رغـم المفاجأة.

خرجنا من النفق لنجتاز حاجزاً من الاسلاك الشائكة على باب الفناء الخلفي ثم اجتزنا مقـبرة غارقة في الظلام الدامس ومشينا مشواراً طويلاً على غير هدى حتى صرنا قبالة قصـر منيـف لاحـد أمراء ربيعة الاقطاعيين يتوهج بالانوار الكهربائية ،ولذنا ببقعة مظلمـة. كنـا نتوقـع سيارة حمـل تنتظرنا بناء على موعد مقرر. فانتظرنا بعض الوقت دون طائل. كنا نرتدي أزياء شعبية مختلفة شبيهة إلى حد ما بالأزياء المحلية. وكان عزيز الحاج يعرف المكلف بإحضار السيارة ويعرف عنوانه فـراح يبحث عنه وبعد مشوار عاد به إلينا وما أن رآنا إلا واستبدت به رعدة من الخـوف اصطكـت لهـا أسنانه وركبتاه واعتذر عن عجزه عن تزويدنا بواسطة نقل وانصرف لا يلوي على شيء.

كان علينا أن نقتحم الطريق المجاور لأنوار القصر ونمشي دون أن نستلفت أنظار حراسه. وقد نجحنا في اجتياز هذه العقبة واستدرنا إلى الشمال نحو السدة المحاذية لشاطئ دجلة الايسر شمـالي الكوت ومشينا في الظلام الدامس بعيداً عن المدينة ثم تركنا السدة وخرجنا إلى البرية. وكان دليلنـا مهدي حميد وهو من مدينة كركوك ولم يكن يعرف أي شيء على الاطلاق عن المنطقة وكان ضـابط مدفعية قبل سجنه وأخذ يتوقف عن المشي بين الفينة والفينة ليرصد النجوم ويتنسم الريـح ناشـراً ذراعيه ليكتشف اتجاهها وكأنه دليل بدوي من «الصلبة» حتى صرنا في وسط البريـة الخاليـة مـن كل علامة تدل على وجود الانسان على سطح كوكبنا وكأننا على سطح القمر. وسرعان ما انهارت السيطرة البيروقراطية المطلقة التي كـان يمارسـها حميـد عثمـان في السـجن وتحـارن هـادي هاشم الاعظمي، وكان يده اليمنى، وجلس على الارض وأبى أن يسير خطـوة واحـدة أخـرى. وعجـزت أوامر حميد عثمان ثم توسلاته عن تحريكه وعندئذ تذكرني فاستنجد بي لاسوقه معنـا. فـانتهرت هادي على تقاعسه ولكن لم تجد أي لغة لتحريكه فتركناه وواصلنا الاسراء باتجـاه النجـم القطـبي صوب الشمال فانهدت قوى آخر من مساعدي حميد عثمان وجلس على الارض فابقاني معـه وقـد كنت أكبرهم سناً وأضعفهم بنية بيد إنني لم أكن أولهم قعوداً. وواصلوا هم المشي في اتجاه الشـمال حتى اكتشف أمرهم عند نهر ديالى. وبقينا أنا وصاحبي جالسين حتى بانت خيـوط الفجـر. قمنـا نمشي تارة ونقعد أخـرى باتجـاه الغـرب للوصول إلى الطريـق العـام لعلنـا نستوقف سيارة مـارة ونتشبث بها لنقلنا بعيداً عن سجننا فقد ننجو من الوقوع في الاسر من جديد. زحفنا حتـى وصلنـا حدود الارض المزروعة فظهر اننا لم نبتعد عنها كثيراً في إسـرائنا البارحـة ولمحنـا فـلاح صـاحب المزرعة نسير عدة خطوات ونقعد فترة اطول فظن بنـا الظنـون وجـاء يقـترب منـا ببندقيتـه حتـى التقينا وجهاً لوجه وأدعينا إننا جئنا في طريقنا من بدرة إلى بغداد وقد تعطلت بنـا السـيارة فجئنـا لنواصل السفر بسيارة اخرى. ولم يكن هذا الفلاح الميسور ساذجاً إلى الحد الذي يصدق ادعاءنا وهو ابن المنطقة وعارف بأنواع الهاربين والمطاردين وضحك في سره فرحاً بهذا الصيـد الـذي سـاقه الله عليه. ودعانا على الفور إلى مضيفه وجلسنا على بساط لنرتاح وقد جعلنـا التعـب غـير مبـالين بمـا يجري. تقاطر الفلاحون المجاورون على المضيف. وبـدأ الاسـتجواب الفلاحـي التقليـدي عـن كـل التفاصيل عن هوياتنا وعناوين مساكننا، في أية ديرة؟ ومن أية عشيرة؟ فادعينا اننا مـن الكريعـات مقابل الكاظمية على الضفة اليسرى من دجلة وتملصنـا مـن انتسـابنا القبلـي لأننـا حضـر وكفـى. وبحضورنا هنأوا رب البيت بهذه الغنيمة الباردة، في هذا الصباح المبارك وكان مع كل منـا عشـرة دنانير اعطانا إياها التنظيم تفادياً للطوارئ ،لاسامح الله، فتساومنا مع مضيفنا الفلاح ليستأجر لنا مكانا في إحدى السيارات المارة إلى بغداد فأقسم بالله، لايتركنا نذهب لوحدنا هائمين وأعلن عزمـه

على أن يحرسنا حتى ابواب دورنا فشكرناه وألحفنا عليه الاّ يحمل نفسه هذا العناء. وماطلناً لنبقى في داره حتى الصباح وغاب عنا عدة ساعات ثم عاد وأخرجنا من داره ومشى معنا حتى الطريق العام ولم يكن بعيداً وركبنا في سيارة ركاب صغيرة وكان فيها معنا أربعة ركاب آخرون.

وما أن ركبنا السيارة حتى أدركنا للتو واللحظة أن مضيفنا سلمنا بيد الشرطة السرية، ركاب السيارة، بعد أن قبض منا ومنهم «حقوقه» وعند جسر ديإلى سلمونا بيد الشرطة القائمة بحراسة جسر ديإلى على الطريق إلى بغداد ـ الكوت. ولم يفلح من الهاربين سوى هادي هاشم الذي بعد أن تركناه، سار إلى الطريق العام وركب سيارة مارة وبقي طليقاً عدة أشهر حتى القي القبض عليه في قضية أخرى.

جمعونا من جديد في مركز شرطة الكوت لنستخلص الدروس الضرورية من تجربتنا الفاشلة هذه، وقد تعبنا كثيراً من توتر طاقاتنا في هذه التجربة الصعبة فأطلقنا حناجرنا في قراءة الاناشيد الثورية والطقطوقات الشعبية لننفس عن كربنا. وكان رفاقنا في السجن يقترون على أنفسهم ليمونوننا بضعف ما يكفينا من أفضل ما عندهم من طعام. وكنا نأكل بشهية ونبقي للشرطة القائمين بحراستنا نصيبا من مأكلنا وبعد الراحة من تناول الغداء وشرب الشاي نعود لقراءة الاناشيد. ومرة كنا نقرأ نشيد جاء فيه:

إننا اليوم جيــاع	وغداً سنشبع نشبع
وغداً حقنا المضاع	ســـيرجع يرجــع

فأطل عريف الحرس الكهل برأسه علينا من باب الزنزانه وقال:

ـ تعالوا اكلوني!!

لقننا حميد عثمان بما يجب أن نقوله للمحقق عن أسباب هروبنا وهـي على حد زعمه سؤ المعاملة في السجن. وكان هذا اسوأ جواب سياسي إذ كانت تلك الفترة يوجود مدير السجن جابر منير، أحسن معاملة نسبياً عومل بها السجناء الشيوعيون في السجون العراقية.

كان جابر منير العاني مدير السجن في الاجازة عند الهروب وكان لشهادتنا السلبية بحقه جانب ايجابي. إذ كانت تزكية له أمام رؤسائه وقد تنفي عنه تهمة التقصير في واجباته كمدير سجن إذ يتيح تساهله مع السجناء فرصة حفر نفق طويل والهروب منه. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

كان حميد عثمان محكوماً بالاشغال الشاقة المؤبدة فكان يخشى اذا ما علل هروبه بهدف سياسي أن يؤدي ذلك إلى اصدار حكم الاعدام. وعندما سألني حاكم التحقيق وكان صديقا حميما لمدير السجن وقلت له عن سؤ المعاملة أبدى شكه وامتعاضه وسألني عن أسباب أخرى فقلت له:

ـ هربت احتجاجاً على وجودي في السجن إذ يجب أن اكون حراً طليقاً.

أضافوا إلى حبسنا مدداً أخرى، بضعة أشهر وأعادونا إلى سجن نقرة السلمان فالتقينا من جديد رفاقنا الذين كنا غادرناهم في قلب الصحراء، قبل حين.

وأخذنا نواصل الضغط على بهاء الدين نوري ليتبنى شعار«الجمهورية» وحملناه على تبني ميثاق يثبت للشعب الكردي حقه في تقرير مصيره بنفسه بما في ذلك حقه في الانفصال في دولة وطنية مستقلة. وتبنى بهاء مشروعنا بعد أن حذف البرجوازية الوطنية من التحالف الوطني الذي يحقق الجمهورية المنشودة. أما الفريق الاخر في سجن بغداد بقيادة عزيز محمد فكان يواصل ضغطه عليه باتجاه معاكس تماماً بدعوى تفريطه بالتحلف مع البرجوازية الوطنية ومع الجادرجي على الاخص. فانحاز بهاء إلى اليسار كلياً ونقح رسالة «معين» كناية عن عزيز محمد بحيث تبدو انتهازية صريحة باعتراف كاتبها. ونشرها في جريدة الحزب «القاعدة» مع رد ثوري جداً عليها فانفعلت جماعة عزيز محمد من هذا الموقف اللاخلاقي وانشقت على الحزب وأعلنت نفسها انها

عما يدور. كان الجيران من طائفة الكلدان نزحوا إلى بغداد من عهـد قريب ولم يتمكنـوا بعد من اللغة العربية. وكان الجدل يدور بين رجال في الزقاق وامرأة عجوز خلـف البـاب المقفلـة. فسألت العجوز عن هوية من في الباب فقال صوت من الزقاق: صديج (صديق)

كان واضحاً من «سر الليل» هذا أن من كان في الزقاق ليسوا من أهل الدار ولا مـن بـني قومهـم بل شرطة من عرب العراق. فأشرت إلى رفيقي محمد علي أن يتبعـني ويفعـل مـا أفعلـهٍ. ولم يكـن هنالك وقت حسب تقديري حتى نتأخر دقيقة واحدة لجمع اهم حوائجي كالحذاء مثلاً. وصعدنـا السلالم ووصلنا إلى مؤخرة سطح الدار المطلة على الخربة فالجامع وأوعزت إلى محمد أن يقفز ففعل وقفزت بعده فعثرت قدمي على آجر مهشم فتقدمت فـوق كومـة الآجـر المهشـم إلى حافـة الخربـة وقفزت إلى أرض الجامع وأحسست قدمـاي الحافيتـان بـتراب نـاعم وبـارد بليـل وسـرت إلى بـاب الجامع الضخمة وإذا بها مسدودة بصخور كبيرة إلى ارتفاع نحو مترين وصعدت علـى سـطح كـوخ بائعة اللبن (الحليب) فرأيت أمامي الزقاق الـذي يـدور دورة كاملـة إلى اليمـين حتـى بـاب الـدار المكبوسة من الشرطة. ولبثت أراقب الطريق جالساً القرفصاء وأذاني عند الدار التي تركتهـا ورائـي وقد أصبحت على بعد بضع عشرات الامتار. وفجأة سمعت صوت الستارة الحديدية التي تفصـل بين سطح دارنا وسطح الجيران الايسر وهي تهوي في فناء دارنا. وكان هـذا دليـل قـاطع علـى أن الشرطة دفعت الستارة فسقطت واحدثت ذلك الصوت المعدني المدوي لتنزل على دارنا من السـطح ولم يعد لدي أدنى شك في هوية «الصديج» المداهم للجيران.

وفي تلك الحملة البوليسية الواسعة على دور المناضلين لم تصـادف الشـرطة مثـل هـذه الخيبـة سوى في دارين أو ثلاثة كما علمت من بعد.

لم ينتظرني رفيقي محمد علي لحظة واحدة ولم أجد له أثراً بعد أن قفزت في أثره. وكأنه فص ملح وذاب في ماء ساخن. كان يعرف دورا مأمونة تأويه وذهب إلى أحدها لاجئاً وغدا بمنجـاة مـن الاعتقال وأن يكن إلى حين.

أما أنا فقد قفزت إلى الزقاق وبعد عدة خطوات وجدت نفسي في سوق الغزل الشهير في بغـداد. كان السوق خالياً عدا عن قليل من المارة وأقل من المخازن المفتوحة الابواب وفي بـاب العلـوة وهـي مخزن كبير لبيع الحبوب رمقني رب المخزن وكان واقفاً بالباب مندهشا لمنظري. ولما لا يندهش! !

كنت حـافي القدمـين حاسـر الـرأس وفـروة رأسـي كقنفـذ متحفـز للقتـال وقـد أشـهر سـهامه ودشداشتي من القطن الرقيق المخطط «بوبلين» تنسدل تحـت ركبـتي بقليـل واردانهـا مشـمرة عـن ذراعي حتى الكوعين. لم آبه له وواصلت سيري فاصابني ما يشبه الدوار بسبب تغيير الهـواء مـن هواء الغرفة الدافئ الوخيم إلى هـواء الشـارع الخريفـي المنعـش البليـل. ومهمـا حـاولت أن أحـدد الهدف: إلى أين؟ لم أجد جواباً. ولم أكن مغفلاً لاذهب إلى أحد بيـوت أقـاربي إذ لابـد أن تكـون تحت المراقبة في ذلك الوقت فصممت على أن أخرج من المدينة وكانت عندي لها خارطة في ذهني لابأس بها. فاتجهت صوب السدة الشرقية المحاذية للرصافة وفي طريقي اليها وجدت نفسي فجأة وسط مقبرة اليهود وكانت مكاناً خطـراً في الليـل إذ كـانت نادياً للصـوص وشـركائهم في دوريـات العسس. واجتزت المقبرة وأنا أكاد أسمـع تأففـات سـكانها ولعنـاتهم علـى اولئـك الاحيـاء الذيـن يقضون مضاجعهم ويحرمونهم سكرة نوم الليل وهي الذ ما في الدنيا والاخرة جميعاً. وأسـريت إلى السدة واتخذت مساري على طول سكة الحديد نحو الجنوب وكان الظلام دامساً وليس من مصابيح سوى النجوم والطريق مقفرا موحشاً ولم اصادف من البشر سوى عاملين كانا يصلحان خطوط البرق فتجاوزتهما وواصلت السري. وفجأة ارتطم ابهـام قدمـي بشـيء صلـب نـاتئ في الظـلام الدامـس، وتوقفت وإذا بي أمشي دون أن أدري على العوارض الخشبية «الشباشـب» الـتي تحمـل القضبـان

الحديدية فوق جسر ومن تحته هوة تخترق السدة فتحت لعبور وسائط النقل. أجل لقد كنت على جسر صغير لا سياج له وكان أقل اختلالاً بالتوازن يعني سقوطي في الظلام الدامس من ارتفاع أربعة ـ خمسة أمتار على ارض مبلطة بالكونكريت. أخافتني المفاجأة ولكني تداركتٍ الخوف على الفور إذ تخيلت صورة ستالين المهيبة! واجتزت الخطر. واصلت سيري جنوباً حتى الهزيع الاخير من الليل إذ رأيت اضواء كهربائية ساطعة فخمنت انه معمل الاسمنت قرب معسكر الرشيد. وجلست القرفصاء في ارض عارية انتظر الصباح، في الظلام الحالك، كأنني ذئب يتربص فريسته. وعندما أخذ الظلام يتبدد استطعت أن أشخص من بعيد السدة المحيطة بالمعسكر. وعندها وجدت الاتجاهات توجهت نحوالمسبح في الكرادة الشرقية ثم اتجهت من جديد نحو السدة الشرقية. وفي طريقي مررت بساحة لسباق الخيل هي الثانية في تاريخه. وصادفت مدربا للخيول سمينا وعلى رأسه كوفية بيضاء وعقال أسود وكأنه موصلي وكان يمتطي صهوة جواده ويدخن. نظر الي باستغراب فطلبت منه سيكارة فترددٍ ثم اعطاني سيكارة بعد أن أولع رأسها وسار في طريقه واتجهت نحو السدة الشرقية ووصلتهاٍ عوداً على بدء لاسير هذه المرة إلى الشمال فوصلت إلى محاذاة الرصافة عصراً. والتقيت كهلا وصبياً يرعيان غنيمات خلف السدة قرب محطة قطار باب الشيخ. ولم تكن الصرائف قد انتشرت هناك بعد فجلست قرب الشيخ وسردت له، بعد السلام والكلام قصة عن اللصوص الذين اقتحموا بيتي في الليلة الماضية وكيف تخلصت منهم باعجوبه. فرثى لحالي رغم إنه لم يصدق قصتي كما بدى لي من ملامحه ولا بد أنه ظن انني طريد الشرطة وقد تعاطف الشيخ الطيب القلب شأن أكثر الموطنين مع من تطاردهم السلطة.

كنت أظن أن الحصول علي كوفية مرقطة «يشماغ» أضعها على رأسي بمثابة الحصول على طاقية الاخفاء لاستطيع ولوج أزقة الرصافة المكتضة لاصل إلى الدار التي قررت الجوء إليها في محلة المربعة. شجعني لطف الراعي الشيخ وتعاطفه معي فطلبت منه اليشماغ الذي كان على رأسه فأعطانيه بطيبة خاطر ووضعته على رأسي وبقي هو بطاقية فقط تغطي رأسه الاشيب. وأعطاني العصى التي يهش بها على غنمه وكأنها عصى موسى. واستأذنته ورحلت عنه موليا وجهي نحو أزقة الرصافة بعد أن أمضيت بعض الوقت ليدركني الغروب.

وسرت في أزقة شعبية (سوق حنون وأبودودو وأبوسيفين) التي كانٍ يسكنهٍا اليهود الكادحون. رأيت النساء جالسات القرفصاء على أبواب بيوتهن وأنا أسير وئيداً متعكزاً على عصى الراعي التي كانت أقصر مما يجب بالنسبة لطولي. وكنت متعبا من السير حافي القدمين ليلة ونهار بطولهما. لاحظت حالي شابة يهودية فاستوقفتني وهرولت إلى داخل بيتها وجاءتني بعصى اطول تناسبني فبادلتها عصاي بعصاها وواصلت زحفي الوئيد نحو المربعة. وفجأة اصبحت وجها لوجه امام نائب ضابط في الجيش فأظهر دهشته وتفحصني بنظرة سريعة من القدمين حتى الرأس بيد أن محياي كان كوجه تمثال مصنوع من الشمع لا يعبر عما تحته. فواصل العسكري سيره دون أن ينبس ببنت شفة وتابعت مسيرتي وبعد لأي بلغت غايتي بيت عبد متي شقيق يوسف متي. لم أجرأ أن آتيٍ إليه في الليلة الماضية ولكن الحيرة والتعب خلال نحومن أربعة وعشرين ساعة والجوع أيضاً افعمتني بالشجاعة الكافية لاقتحم الاهوال!

طرقت الباب فلم أسمع جواباً. فقال لي الجيران أن العائلة ليست في البيت بل في البيت المجاور. وبعد دقائق قليلة ولكنها ثقيلة بطيئة جاءت فهمي أم عامل زوجة عبد متي مع أطفالها. وأصغرهم بنت اسمها عائدة وعمرها ثلاث سنوات ونصف كانت قد رأتني قبل سنة ونصف وهي في أزمة الفطام. ولم تعرفني فهمي ولا أطفالها مع إننيٍ سألت عن يوسف ويبدو انه ليس فقط غرابة قيافتي بل وصوتي المتعب كانت غريبة عليهم تماماً. ولكن عائدة الصغيرة هتفت من تلقائها فجأة:

ـ عمو زكي!

فتح الجميع أفواههم دهشة وكأنهم طيور صغيره تستقبل أمها. فتحت فهمي البـاب وجـاءتني بالماء لتغسل قدمي وبملابس الافندي الكاملة وأما عن الطعام فحدث ولا حرج وكانت فرحتهم بـي تطفح على وجوههم وايديهم وعيونهم. لقد غمروني بفيـض عواطفهـم. ولم أجزهـم مثقـال ذرة مـن عطفهم وكلما أذكرهم وكذلك زوجة يوسف متي سلمى أشعر بوخزة الضمير لأنني لم أكافئهم حتـى بالزيارة.

وبعد مشوار جاءني يوسف وأخذني في الحال إلى بيته وأعطتني زوجته سلمى كل ما وفرته من دراهم ثم أودعني عند أحد أصدقائه لبضعة أيام ثم نقلني إلى بيت رفيق لبنـاني هوصديقـي العزيـز سليم الراسي وهو الان في فنزويلا في أمريكا الجنوبية في السبعينات من عمره مع عائلته الكبيرة.

كان البيت في مجموعة نمطية من اللبن غير المشوي للاجئـين الأرمـن إلى العـراق بعـد الحـرب العالمية الاولى وعلى بعد نحو ٣٠٠ متر من ساحة التحرير فاعطاني غرفة خاصـة فيهـا وأحـاطتني العائلة بكل رعاية وهي من العوائل التي لم أوفها من عرفان الجميل. وقـد روعـت بسـببي عندمـا داهمتني الشرطة في بيتها بعد أسابيع وفي هذا البيت عانيت من عذاب الانقطـاع الاضطـراري مـن الحزب والعذاب الأشد إيلاماً بما لايقاس حيـث سمعـت في هـذا البيـت بـالذات الانبـاء الكارثيـة بتنفيذ أحكام الإعدام بالرفاق الخالدين يوسف سلمان يوسف (فهد) وحسين الشبيبي وزكي بسـيم في ١٤و١٥/ ٢/ ١٩٤٩

وآلمني أيضاً فيما بعد دهراً طويـلاً جمـود الانتظـار في ذلـك البيـت زهـاء شـهرين ونصـف دون جدوى. وقد تركني المراسل الحزبي بعد أن زارني في تلك الدار انتظر حتـى جـاء بالشـرطة لتلقـي القبض عليّ بعد تنفيذ أحكام الإعدام بالرفاق الأماجد بأسبوع.

42

الحبس للمرة الرابعة

لم يساورني الخوف من حكم الاعدام لدى القاء القبض عليّ ولكن الحزن العميق والاحباط حزّ في نفسي جراحاً عميقة وكذلك الاسف على ما سببته للعائلة من هلع بسبب وجودي في بيتها وعملية المداهمة والتطويق البوليسية المفزعة في منتصف الليل والقلق على ما سببته لسليم الراسي من حرج وهو لبناني ويعيش في بغداد في حالة طيبة ، مدير لفرع شركة سيارات دوج. وقد رأيته في اليوم التالي في التحقيقات الجنائية وأنا مع الرفاق الموقوفين وقد جاء إلى التحقيقات بصحبة شفيعه وهو أحد المشايخ وقد وجه اليّ نظرات القلق على مصيري عندما خرج وبقي يسأل عني أصدقاءه اللبنانين بعد عشرات السنين فراسلته في أواخر عام ١٩٨٩ ورد على رسالتي يعلن فرحته ويخبرني عن حياته الحالية في فنزويلا متقاعداً ورب عائلة كبيرة لبنانية بقضها وقضيضها.

إن أكبر نقيصة خطرة اكتشفتها عندي بعد هذا العمر الطويل هي عدم إيفائي بالدين لمن أحسنوا اليّ وما أكثرهم. ولا يشفع لي اني عشت حياة مضطربة ، ولاكثرة من أنا مدين لهم بالعرفان بالجميل ولا التذرع بكوني ما دمت قد كرست حياتي للاخرين فعليهم أن يقدموا لي العون دون أن ينتظروا جزاءً ولا شكورا. والحقيقة هي أن لهم حق عليَّ مهما كانت حالي فعلى الاقل الذكر بالخير والشكر. وإن كنت خالي الوفاض وصفر اليدين ولا يشفع لي إني كنت احرص على أن لاأجلب أنظار العدو اليهم. وكم كنت اتألم عندما يستوقفني أحد المارة في شوارع بغداد ويسألني بلهفة بالغة هل تتذكرني؟ فاقف مشدوهاً واجماً لا أحير جواباً. إذ انني إما أن أكون قد نسيت اسمه أو ملامحه ويفارقني وخيبة الامل تحز في نفسه لأتذكره بعد فوات الاوان ولات ساعة مندم!

إن عدم ممارستي التنظيم لعشرات السنين قد رسخ في نفسي الانطواء على الذات وهذا أفظع ما يصيب المناضلين ويقتضي التربية تامة الاوجه للمناضل تنوع الممارسة وكما قال لينين: كل داعية منظم وكل منظم داعية. كما أن تمرين الذكرة على حفظ الاوجه والاسماء معا شرط ضروري لكل انسان اجتماعي متحضر وهو ضروري أخلاقياً. ولكن الحكمة تأتي مع الأسف بعد فوات الأوان.

كنت في المداهمة الاخيرة جالساً في غرفتي بكامل القيافة مرتدياً كل شيء حتى المعطف ولكني لم أكن يقظاً تماماً والجو في الغرفة دافئاً يبعث على الخمول والاسترخاء. وفجأة وبعد فوات الاوان خرجت إلى فناء الدار فرأيت على السطح شبحاً أسود فعرفت من صوته إنه مهدي القزويني أحد معاوني مدير التحقيقات الجنائية وكان من قبل موظفاً في الكمارك معي ولم تعد هناك فائدة من أية حركة فقد طوقت الدار من كل جانب من فوق ومن تحت. لقد استفاد العدو من نجربة افلاتي من قبضته من دار سوق الغزل في المداهمة السابقة. وكان رفيق جالاك معهم فأخذوني إلى دائرة التحقيقات الجنائية وجاء مدير الشرطة العام علي خالد حجازي ليطمأن على اني وقعت في قبضتهم. وأحضر جالاق وكان رأسه مضمداً وراح هذا يسرد قصة إتصالي بالحزب وحضوره إلى داري بصحبة يوسف متي ليتاكد من هويتي ومحل إقامتي ويعدني بالعودة الي بقرار الحزب

بنقلي. ولكنه هاهو الان يعود بقرار من العدو وقد ذكر بعض التفاصيل من قبيل وجود مجلات على الطاولة في غرفتي عندما زارني وكأن هذه التفاصيل التافهة كانت ضرورية لاثبات مصداقية أقواله ولئلا أدعي أن ما يقوله مختلقا. كان ما قاله صحيحاً ولا فائدة من نفيه فنظر إلي المدير العام وسألني عما اقوله فقلت له

- هذا إشصاير بحاله؟ فلم يفهم المدير العام ما أقصده ففسر قولي له أحد ضباط الشرطة الواقفين.

- سيدي يعني احنا معذبين رفيق جالاق!

وكنت فعلاً اقصد هذا و كنت آمل أن يحرك كلامي في نفس جالاق عرقاً خيراً ولكنه احتج علي وتمتم المدير العام بشتائم مقتضبة وسأل بهجت العطية عن مدى خطورتي فقال له:

- إنه كاتب شيوعي مثل مكسيم غوركي.

وكأنه أراد أن يفهم المدير العام الامي بأنني لست من أرباب السيف بل من أرباب القلم. وانتهى اللقاء البغيض مع أحد خدام البلاط الطموحين الذي سولت له نفسه فيما بعد أن يحاول الانقلاب على سيده وفعلاً كان قد وضع الشرطة تحت الإنذار ولكنه استسلم بعد ساعات قلائل بلا قيد أو شرط بعد أن انذروه. واعتذر إلى سيده الوصي بأنه كان سكراناً عندما أعلن تمرده. فعفى الوصي عن خادم العائلة المالكة الذي جاء معها إلى العراق من الحجاز.

لم أضرب في أي مرة اعتقلت فيها أثناء التحقيق إلا مرة واحدة بسبب شجار بيننا وبين الشرطة في مركز السراي قبيل ثورة ١٤/ تموز/١٩٥٨

كان بعض الرفاق ومنهم حميد عثمان يبالغ فيما لحقه من تعذيب و كانت المبالغة ضد مصلحة الحزب لانها تبعد عنه العناصر الثورية اليافعة التي ليست مستعدة بعد نفسياً لتحمل كل هذا التعذيب الجسدي. وكانت «بطولة» حميد عثمان هي ادعاءه بأنه تحمل تعذيباً يفوق طاقة البشر وأنه مع ذلك لم يعترف. وقد انطلى ذلك الادعاء على الجميع ومع ذلك تدخلت في أحد الاحاديث التي كان يلقيها حميد عثمان على السجناء السياسيين في سجن بعقوبة فقلت:

- إنني لم أعذب جسدياً قط رغم ما أشيع عني من مبالغات وإن هذه المبالغات تضيق من امكانات نمو الحزب وهي ضارة ويجب تجنبها.

استشاط حميد عثمان غضباً ولكنه لم يستطع تفنيد اقوالي. و بعد ثورة١٤/ تموز التقينا شاعرنا الجواهري في دار سليم المرزة في الكرادة الشرقية فحكى لنا عفو الخاطر انه عندما كان موقوفاً في التحقيقات الجنائية وفي غرفة حاكم التحقيق جاءوا بحميد عثمان و طلب منه الحاكم تصديق افادته الاولى امام المحقق. فقال إنه عذب بالضرب الشديد من قبل الشرطة وانه لهذا السبب أدلى باعترافاته المدونة والتي تحمل توقيعه وهو الان ينفي صحة هذه الاعترافات. وقد كرر شاعرنا القصة في مناسبة اخرى في براغ.

في صباح اليوم التالي جمعوني مع الرفاق الاخرين الموقوفين في حوش التحقيقات الجنائية على شاطئ دجلة قرب شارع النهر وكان بين الموقوفات الرفيقة عمومة مصري وسرب من بنات الحزب. وقد تميزت من بينهن، سعيدة مشعل بمحياها الاصهب وحيويتها الفاتنة فأصابت قلبي دون أن تدري، في ذلك اليوم بوابل من نبالها لا براء منه. ولم يطل جمعنا ذاك. وكان بين الموقوفين يعقوب مصري وآرا خاجادور ومحمد علي الشبيبي وآخرون لم أكن أعرفهم ولكن عرفت من بينهم ساسون دلال. وكان جلهم أن لم يكن كلهم في لباس النوم كحالتهم عندما القي القبض عليهم. ويبدو أن معظمهم لم يكن يحمل في جيوبهم شروى نقير أو ثمن أستكان الشاي واستطاع

قليل منهم شراء الشاي و كنت أحمل من النقود مايكفي لاروائهم بالشاي لولا انـني كنت ملتزماً بعادة قديمة هي تجاهل معرفة المتهمين الآخرين حتى إصدار الحكم. وقد عاتبني المصري فيما بعد لأنني لم أتبرع لهم بالشاي فأضاف إلى عقدي عقدة أخرى لا تحل.

وكان الامتياز الذي ميزني العدو به وضع سوار من حديد حول معصمي مربوطاً بسلسلة يمسك بطرفها الآخر شرطي لا يبارحني إلا ليحتل محله شرطي آخر. وقد استحققيت هذا الامتياز بفضل فراري من بين اصابعهم في المرة السابقة.

وفي نفس اليوم نقلونا إلى سجن أبو غريب الذي نقلوا منه فهد وزملاءه الشهداء إلى ساحات الاعدام قبل أيام. وهناك فرقونا على الزنزانات الانفرادية المظلمة الرطبة عديمة النوافذ التي بنيت على عجل في الموسم الممطر وكانت الابواب موصدة ليلا ونهارا مع براميل البول في داخلها والخروج إلى المراحيض مسموح به مرة أو مرتين في اليوم كل على انفراد. وكان الكلام محرماً علينا. بيد أننا نثقب تلفونات سرية في الجدار الطري بواسطة السلك الفولاذي الذي يحمل به الفانوس النفطي السيار. وكان عريف «رقيب» الحرس يسترق السمع أحياناً من وراء الباب رغم اننا كنا نتكلم مع بعضنا باخفض صوت يمكن أن يسمعه المخاطب. وعندما نكتشف متلبسين بجريمة الكلام أي كان فحواه ومحتواه كنا نتعرض إلى أبغض تعنيف وتهديد ومع ذلك كنا نواصل أحاديثنا. فان أفظع تعذيب للانسان حرمانه من الكلام لانه يفقد ميزته الحسية على الحيوان. ولذا يبدأ صدام حسين بقطع السنة خصومه بسكين مرهف.

ومن خلال التلفون الجداري تعرفت على هوية جاري ابو باسم عمر الياس الموصلي وكان عريفاً سابقا في القوة الجوية وأحد مجاهدي حركة مايس/١٩٤١ كما تعرف هو أيضاً على هويتي ولم نلتق بعدئذ إلا في سجن نقرة السلمان.

وبعد أن حكموا بالاعدام على ساسون دلال وضعوه في الزنزانة المقابلة لزنزانتي. واسمعوني حوارا مفتعلا بينهم من وراء الباب الموصدة مفاده أنني أيضاً ينتظرني المصير نفسه.

لم يكن المركز الحزبي لساسون دلال ولا الاعمال التي مارسها بمستوى الحكم بالاعدام. ولكن العدو أراد أن يصبغ قيادة الحزب بصبغة يهودية و حتى صهيونية. وأراد الدجل في جو الاحباط من الحرب الفاشلة في فلسطين. ولا يبرر هذا الاستهانة إلى أي حد بالدور البطولي الذي لعبه ساسون سواء في قيادة العمل الحزبي على ساحة النضال في أحرج الظروف أو بمواجهته الموت بشجاعة ورباطة جأش منشداً النشيد الاممي أمام المشنقة فكان شهيداً شيوعياً بطلاً.

أجريت لي ولشريف الشيخ محاكمة واحدة لوحدنا. وكانت الإتهامات المسندة إلينا واحدة ومسؤليتنا واحدة سوى إنني تخفيت في بيت حزبي منذ خروجي من السجن ولكن المجلس العسكري حكم عليه بالحبس سنتين ومثلها تحت المراقبة وعلي بالحبس سبع سنوات زائدا المراقبة سنتين وقد زيدت فيما بعد بسبب محاولة الهروب من السجن مرتين لاقضي في السجن تسعة سنوات وسبعة أشهر أي حتى ثورة ١٤/تموز/١٩٥٨ التي أنقذتني من الابعاد إلى تركيا مع اسقاط جنسيتي لأعيش بقية عمري أسيراً في سجن المعاهدة المركزية «سنتو» كما كان أطراف حلف بغداد يقدرون ولكن الاقدار ضحكت عليهم.

43

زمهرير الحرب

عاد نوري السعيد إلى الحكم بعد أن فشلت الحملة العسكرية العربية لانقاذ فلسطين من التقسيم وبعد أن نالت اسرائيل أكثر من المساحة المقرر لها في هيئة الامم. وساد البلاد العربية الشعور بالاحباط والسخط على حكوماتها الفاشلة والحقد على الإمبريالية والصهيونية. وكان الوضع الدولي في أولى مراحل الحرب الباردة وواحدة من أشدها توتراً. وقد عاد نوري السعيد إلى الحكم مبشراً بمهمة اعداد العراق للحرب العالمية الثالثة كما كشفت الاهالي بعد ذلك، التي كانت ستعني الحرب ضد الاتحاد السوفيتي وبلدان الديموقراطية الشعبية. وعلى هذا الاساس وضع في جدول العمل اليومي القضاء على الحزب الشيوعي وقمع الحركة الديموقراطية مما حمل احزاب الوسط إلى تجميد نشاطها كعادتها في الشدائد. ويقول كامل الجادرجي في مذكراته أن السفير البريطاني في بغداد أشرف بنفسه على محاكمة فهد ورفاقه وعلى تنفيذ حكم الاعدام علناً في الساحات العامة الرئيسة الثلاثة وفي يومين متتالين. وكانت الحركة الجماهيرية في حالة جزر ومعظم منظمات الحزب محطمة فلم يستطع الحزب الا تنظيم مظاهرات صغيرة خاطفة كانت الشرطة تشتتها بسرعة. ورغم حملة التضامن العالمية أقدم العميل نوري السعيد على تنفيذ أحكام الاعدام.

وفي تلك الفترة بالذات نقل السجناء الشيوعيون إلى سجن نقرة السلمان الصحراوي في البادية الجنوبية وكان في الاصل مخفراً لشرطة البادية لمراقبة البدو الرحل وقد بناه أبو حنيك، كلوب باشا، الذي كان قائداً لشرطة البادية على الحدود السعودية ثم غدا قائدا للجيش الاردني وحتى اعفاه الملك حسين من منصبه وعين قائدا اردنياً بدله.

وبعد أن حكم المجلس العرفي العسكري علينا بالحبس نقلونا إلى محطة توزيع السجناء السياسيين في سجن التوقيف في باب المعظم وهناك تعرفت على حسين الرضي (سلام عادل) وبهنام بطرس وعبد الرزاق مطر الذي كان عضواً في السابق في اللجنة المركزية بقيادة فهد التي انتخبها المؤتمر الحزبي الاول ثم ترك الحزب. وكان حسين الرضي انشط الموجودين في ذلك السجن. وكان يوقظني قبل نهوض السجناء من نوم الصباح، ذاك النوم الاسر ويجمع بيني وبين رفيقين آخرين: بهنام بطرس وعبد الرزاق مطر وهو أيضاً لكي القي عليهم «محاضرة» عن «الاسس اللينينية» لستالين. أجل محاضرة مرتجلة عن أعقد القضايا اللينينية بدون وجود أية مراجع أو أسانيد أو أي مطبوع وفي الصباح الباكر! كان الجيل الجديد من الشيوعيين يعتقد أنني من حفظة القرآن «بلا تشبيه» وانني أستطيع في أية لحظة أن أتلو عليهم آيات من كنز الماركسية اللينينية عن ظهر قلب أو أن أشرحها ارتجالاً كانوا شباباً متعطشين إلى النظرية الثورية ولم يكن في متناول أيديهم أي ورقة يقرأونها ليرووا غليلهم فلم يجدوا في تلك العزلة المضروبة عليهم وسيلة يبلون فيها شيئاً من

غليلهم سوى أن يعصروا رأسي لعلهم يستدروا منه قطرات من المعرفة. وقد تحدثت اليهم بكلام يدور حول حواشي الموضوع وكنت موقنا أن ما أقوله لا يروي غليلا. وقد أنقذني من هذا الموقف الحرج نقلي فجأة إلى سجن نقرة السلمان.

وفي الطريق إلى البادية الجنوبية ، التي يسميها العراقيون «بادية السماوة» تمييزا لها عن جارتها الشمالية «بادية الشام» بين السماوة ونقرة السلمان وقفت بنا السيارة عند أحد الأبار. ونزلنا من السيارة: عمر علي الشيخ وأنا لنتحدث إلى صبيان البدو وقد تعجب عمر وهو من السليمانية وهو يرى البدو العرب لأول مرة، من شقرة شعورهم وزرقة عيونهم في تلك الصحراء المحرقة التي يجب أن تجعل البيضة فحمة سوداء. وهي أن دلت على شيء فانها تدل على أن الدم العربي مزيج فائق الغنى من السلالات البشرية ومن هنا قوة العرب وقدرتهم على مقارعة الطبيعة القاسية والتغلب على مصاعب الحياة. ومن هنا أيضاً ما هم عليه من ذكاء، الذي خلف كنزاً حضارياً ضخماً للانسانية في العصور المظلمة بالنسبة لاوربا. ولغة جميلة من اغنى اللغات الحية في العالم المعصر. تلمست فروة رأس بدوي صغير بأصابعي فوجدتها نظيفة وناعمة فسألته:

- بماذا تغسل شعرك؟ فأجابني بلهجة بدوية، بكلمة لا أذكرها ولم أفهمها فسألته:

- بالشنان؟

والشنان نبتة تنبت في بادية الشام فتجمع وتجفف وتباع للناس ليستعملوها للغسيل بدل الصابون وقد استعملها أهلي في فترة الحرب العالمية الاولى عندما شح الصابون فقال صبي آخر اكبر سناً:

- لا ببول البعير!

فالبول الذي يستخرج منه الألمان ألطف أنواع «ماء الكولونية» بعمليات كيمياوية معقدة يستعمله البدو الرحل على طبيعته منظفا ومعقما مثاليا منذ الازل، ويقيهم شر القمل. فأي ثراء طائل يدره علينا هذا البعير الصحراوي! كل مسامة من مسامه تفرز شيئاً يسد حاجة من حاجات البدوي الضرورية: الغذاء والكساء والفراش والوقود والمنظفات. ومن اللبن واللحم والوبر والجلد والبعرور والبول! فيا له من كنز صحراوي. والان وقد وجد الانسان من العلم ما يعوضه عن هذا الكنز البدوي فقد غدا بمقدوره الاستغناء عن الجمل وسوف يتمكن من جعل الصحراء واحة خضراء ويطلق للجمل العنان ليسرح ويمرح فيها حراً طليقاً كما ولدته أمه وقد غدا أوفر ذكاء واغنى تجربة واعمق حكمة في الحياة بفضل تدريب الانسان ومعاشرته أو سيلجأ إلى الانسان بمحض رغبته لمعالجته وغسله وتمشيط وبره الحريري وتزينه فيزداد جمالاً على جماله الجملي الجليل الذي يضاهي جمال عماتنا النخيل!

وأخيراً وصلنا سجن نقرة السلمان والتقيت الكادر الحزبي الاساسي وتعرفت على معظمه لاول مرة وعشت بين ظهرانيه وتجاوزت معه المحن والامتحانات الصعبة أشاركه السراء والضراء زهاء عشر سنوات طوال كانت من خيرة سني عمري. اولئك هم الحرس الحزبي القديم المجرب، خلاصة تاريخ الحزب وقد رحلت نخبتهم: فهد، حازم، صارم إلى دار المجد والخلود بعد أن ربوا حزباً مجاهدا عنيداً لا يلين. متأهبا للاستشهاد في سبيل الشعب مهما تقلبت الاجواء والاحوال.

44

عشرة من أحسن سنوات العمر

دخلت سجن نقرة السلمان وأنا على استعداد لاداء أي واجب يناط بي وكان خطأي هو انني لم أقدم أي طلب أو شروط عمل أو شكوى من شيء، حاملا سلاسلي وامشي بها مرتاح الضمير والبال في الساحة الصخرية الغبراء وفي خفارتي كنت أحمل الكؤوس بهمة وخفة وسرور لاوزعها على الرفاق المصطفين انتظارا لشرب الشاي وكذلك كنت لدى خفارتي في نشر الغسيل على الحبال. وسارت الاحوال طيبة على هذا المنوال وأنا كأحد الرفاق البسطاء بدون أي مركز تنظيمي أو تثقيفي.

وذات يوم أخرج مسؤول التنظيم سالم عبيد النعمان أحد الكتب المخبأة وكان بالانكليزية وهو جزء من «الايديولوجية الالمانية» لماركس وانجلس لاترجمه سراً في سرداب الربيئة الجنوبية في السجن القديم. وفي مقدمة الكتاب يسخر ماركس وانجلس من مبالغة الايديولوجيين الالمان بدور الايديولوجيا فيقول: أن هؤلاء يعتبرون الايديولوجيا سبب كل شيء بما في ذلك غرق الناس في الماء فلولا إيمانهم بقانون الجاذبية الذي اكتشفه نيوتن لما غرقوا!

أنجزت ترجمة الكتاب وسلمته إلى سالم عبيد سراً لينفرد بقراءته وليلقي المحاضرات وكأنها وحي نزل عليه من السماء فيؤهل نفسه لملء الفراغ الذي تركه فهد مؤسس الحزب ومفكره ومنظمه الامر الذي يقتضي حسب ظنه أن يقوم هو نفسه أمام الانظار بكل المهمات التي كان فهد يضطلع بها. وكان هذا طموحاً مشروعاً بالنسبة له لولا أنه لم يملك شيئاً من مؤهلات فهد أو جهاديته ولاسيما تواضعه. وحاول أن يحل محل فهد في تدريس مادة الاقتصاد السياسي متجاهلا وجود محمد حسين أبو العيس الذي تخرج على يد فهد في تدريس هذه المادة. كما كان عدد من الرفاق الموجودين في السجن أكثر أهلية من سالم عبيد على تدريس الاقتصاد السياسي.

أخرج سالم عبيد كتاب ماركس «الرأسمال» من المخبأ وطلب مني أن أساعده ليحضر الدروس من هذا الكتاب ولكي لايعرف الرفاق أن أحداً يساعده واختار حجرة صغيرة في قبو السجن لنلتقي فيها لنتدارس فيها الموضوع وكأننا كنا نتآمر على سلامة الدولة في منتهى السرية ومع ذلك فشل في اقناع الرفاق بانه قادر على تدريس هذه المادة الصعبة جدا.

وحاول أن يقلد فهد في حركاته وسكناته وحتى في وضع يده عندما يمشي وكانت احد يدي فهد مصابة فيميلها قليلا. ولكنه تحاشا كلياً أن يقلد فهد في تعامله مع الرفاق أو في خدمته لنفسه بنفسه أو تواضعه في إبداء المعرفة أو في معيشته البسيطة.

كان في السجن كنوز من المواهب والمؤهلات مخفية تحت ستار من التواضع ونكران الذات والخجل والانطواء على الذات. وكان فيه أبطال صامدون يخفون بطولاتهم تحت ستار الصمت لتنفجر في المحن والملمات كما كان اولئك الذين أبدوا شيئاً من الضعف إلى هذا الحد أو ذاك في

التحقيقات الجنائية، كانوا يظهرون آيات البسالة في الملمات والشدئد ويتمنون الاستشهاد ليكفروا عما بدر منهم من ضعف أمام العدو.

وقد أدهشني رفيق في السادسة عشر من العمر يمشي في فناء السجن مشية رجل مجرب، اسمه ابراهيم احمد من شقلاوة فعندما رأى ابراهيم كيف ينقض العدو على منظمات الحزب ويحطمها الواحدة بعد الاخرى لتنبثق من أوساط الشعب المنظمات الجديدة تحل محلها في مدينته بادر هو الشاب الحدث إلى تنظيم خلية شيوعية من رجال لا يقل عمر الواحد منهم عن عمر ابيه. وكان سالم عبيد مشغولاً عن هؤلاء الرفاق بسمره يثرثر في مجلسه الخاص في مخزن الارزاق حيث كان فهد يعمل لخدمة السجناء السياسيين.

كان ماء الشرب شحيحا في نقرة السلمان حيث السجن ومقر شرطة البادية الجنوبية وعوائلهم كل هذه المئات من الشفاه تنتظر مياه الشرب الذي كان ينقل بسيارة واحدة من عيون خارج «النقرة» أي المنخفض. وعندما تأتي السيارة بحصة السجناء من الماء كان رفاقنا يخرجون بالدور حسب الخفارة لينقلوا الماء بصفائح من الصفيح «تنكات» مملوءة معلقة على طرفي قضيب طويل من الخشب يحملونها على اكتافهم ويهرولون به إلى داخل السجن معتنين كل العناية لئلا تنال الارض نصيبها من قطرات الماء بخلاف الخمرة التي يقول فيها الشاعر:

ـ وللأرض من كأس الكرام نصيب!

فالماء هنا أعز من الخمرة لو وجدت هذه. وقد حدث ذات مرة أن رشقة من الماء انطلقت إلى الارض من الصفائح التي كان يحملها رجب عبد الكريم الطالب الحقوقي فقامت قيامة مدير السجن على هذا «الهدر» ووجه كلمة مهينة إلى الرفيق فلما علم سالم عبيد بذلك فقد زمام نفسه وأصدر إيعازاً مرتجلا منفعلا صاعقاً بالكف فوراً عن الاكل. وكان الرفاق ملتمين حول القصاع وقد بدأوا تواً بالاكل بين تناول الملعقة الثانية والثالثة. وكان الايعاز العسكري الفوري الصارم:

ـ اتركوا القصاع في فناء السجن!

وأعلن الاضراب عن الطعام حتى الموت أو حتى ينقل مدير السجن الجلاد عبد الجبار أيوب الذي شنقه طيب الذكر عبد الكريم قاسم بعد ثورة ١٤/ تموز ١٩٥٨ مع بهجت العطية مدير التحقيقات الجنائية سوية.

وتورطت المنظمة في اضراب مرتجل فجائي لم يفكرفيه أحد قط بما فيهم القائد الآمر الناهي الذي أوعز بالاضراب. والاضراب عن الطعام حتى الموت امتحان عسير يستلزم اعداداً جيداً وقناعة صادقة من الجميع. وفي الأيام الثلاثة الاولى من الاضراب يستذكر الانسان في خياله جميع الاكلات الطيبة التي حرم من تناولها أو تناول كفايته منها ثم ينسى الاكل بعدها بالتدريج ولكن حيوية الجسم تأخذ بالهبوط مهما كانت جرعات الشاي المحلى بالسكر والمغشوش ببضع غرامات من الحليب المحفوظ في العلب والذي يقصد من تناوله إطالة أيام الاضراب إلى أقصى حد ممكن حتى يسمع العالم خارج السجن بنبأ الاضراب ويتسنى للحزب تنظيم فعاليات تضامن مع المضربين للضغط على الحكومة للتراجع بعض الشيء لانقاذ المضربين من الموت. وقد طال الاضراب بسبب تأخر الخبر عن المتضامنين في بغداد، أي عوائل المضربين والشيوعيات اللواتي ينظمن المضاهرات. ولا يتوقف تحمل الاضراب على المناعة الجسمية أو العصبية بل على القناعة والروح المعنوية الجماعية. وكان ممن استشهد في هذه الاضرابات الشيخ علي الشيخ حسين وهو رجل دين من العمارة، مصاب بالسل ولكنه أبى أن يستثنى من الاضراب، بل فضل الشهادة مع الجماعة. واستشهد في أحد الاضرابات الشاب نعمان محمد صالح وهو من اطراف بغداد الشرقية الشعبية.

جاء مدير شرطة البادية إلى السجن وطلب وفدا من السجناء المضربين عن الطعام فاستدعانا (أنا وكاظم حمادة) سالم عبيد لينتدبنا للمفاوضات. وكان طلبه الرئيس كما أبلغنا طرحه طلب الوعد بنقل مدير سجن نقرة السلمان ليحل محله مدير آخر! وكان انتدابنا نحن الاثنين غريباً جداً فلا انا ولا كاظم حمادة من العشرة المبشرة او الحواريين او ذوي الحظوة بل كنا معدودين من اشباه الانتهازيين اليمينين أن لم نكن أسوأ بنظر «زملاء فهد الخلصاء» وعلى رأسهم سالم عبيد نفسه. فلماذا اختارنا لهذه المهمة الحساسة التي تستلزم منتهى الصلابة والامانة؟ هذا ما لم افكر به في حينه. بل قررت أن أكون ممثلاً أميناً لمن انتدبني أي لقائد الاضراب! فطلبت من مدير الشرطة وكان مسلكياً فظاً سيء الاخلاق تدرج من شرطي بسيط إلى ضابط شرطة كبير طلبت الوعد بنقل مدير السجن لننهي الاضراب. فانفجر كدملة مكتظة بالقيح وجرى سيل من القذارة من فمه. وحاول كاظم حماده تلطيف الجو بكلام غامض معسول لا يفصح عن شيء. وانتهت المفاوضات بالفشل وألقى سالم عبيد اللوم علي أنا وشرع بحملة تشهير ضدي. فيما بعد فهمت خطته أن ينهي الاضراب بعودة «ما كان إلى ما كان عليه» أما مطلب نقل مدير السجن فتعويذة للحفاظ على ماء الوجه أمام الرفاق إذ كان مقتنعا أن هذا المطلب لن يتحقق لان عبد الجبار أيوب اختير خصيصا لاذلال الشيوعيين. و عندئذ سوف يقول ما العمل انتدبت كبار السن للاستفادة من تجاربهم الدبلوماسية وحكمة الشيوخ ولكنهم اثبتوا أنهم لايزالوا «انتهازيين» و«جبناء» فلم يجرأوا بحضور مدير السجن أن يطلبوا من مدير الشرطة حتى وعداً بنقله!

واستمر الاضراب بعد ذلك بايام قلائل اخرى و انتهى بشروط «جديدة» وهي استعادة المكاسب القديمة: المخزن والمطبخ واجراء تحسين طفيف في تجهيز ماء الشرب. وتكررت مثل هذه النتيجة «الظافرة» لاضرابات السجناء السياسيين عن الطعام مرات أخرى وفي سجون أخرى على قاعدة «اعادة ما كان إلى ما كان عليه».

وفي إضراب الماء هذا كان صمود الرفاق رائعا رغم عدم قناعتهم بحكمته فلم يحاول أي احد الافلات من الاضراب والانتقال إلى «المستنقع» أي الجانب الاخر من السجناء غير المضربين.

وفي الاضراب عن الطعام كانت تبرز آيات البطولات للرفاق الاطباء السجناء وأخص بالذكر ابراهيم ناجي الصيدلاني والدكتور حسين علي الوردي ويعقوب سحيق كانوا يواصلون السهر على المضربين ليلاً ونهاراً ويحملون من تحت المرضى ما قد يخرج من بطونهم بلا أدنى اشمئزاز او تقزز او ضجر. وعندما ينتهي الاضراب يزداد قلقهم على صحة الرفاق من عقابيل داء الاضراب التي تشبه في نظر الدكتور الوردي عقابيل التيفوئيد. ولم تكن بطولاتهم اقل باي حال من الاحوال من بطولات جبهة القتال رغم ضآلة امكانياتهم.

أما حصيلة ما نالني من وراء الاضراب فكانت القابا معكوسة حاد، متزمت، متطرف، استفزازي و حتى«يساري» ومع ذلك تكرر انتدابي لمثل هذه المهمات غير المشكورة مرة بعد أخرى.

شبع الناس من الاحكام العرفية و بلغت المأسات ذروتها. وللتنفيس عن الكرب قرر المخرج الانكليزي إخراج فصل كوميدي كما هي العادة في التراجيديات الشكسبيرية عندما تبلغ المأساة ذروتها، أوفياته «بستة أو طقطوقة» بعد المقام كالعادة المالوفة في الجالغي البغدادي: فجاء بحكومة تنفيس تنهي الاحكام العرفية ولكن في آخر ساعة أو كما يقال في الدقيقة الخامسة قبل الزوال جاء المجلس العرفي العسكري إلى نقرة السلمان. وكان أحد المتهمين الذين جاء المجلس العرفي لمحاكمتهم سالم عبيد النعمان بنفسه بدعوى قضية نشأت داخل السجن. وبث مدير السجن إشاعة عن طريق السجناء العاديين الذين يخدمونه مفادها: «أن العرفي جايب ويا مشنقة سفرية»

فتطير سالم عبيد ولم يطمأن لاي أحد سواي ليبدد له مخاوفه. و كانت الدعوى لا تستحق حكم الاعدام بأي حال من الاحوال ولا تتعدى قراءة نشيد ثوري. فرحت أطمئنه و قلت له:

- إن الرفاق فهد وزملاءه الذين اعدموا، اغرقوا بالمستمسكات ولاسيما منح العضوية للعسكريين الامر الذي يسوغ عقوبة الاعدام حسب التعديل الذي أدخل على قانون العقوبات البغدادي. فلا بأس عليك.

قلت له ذلك بعد أن شعرت أن التأكيد على تغير الجو السياسي لم يكن مقنعاً له بحد ذاته وخفت أن ينهار أمام العدو. وقد علمت فيما بعد من قاسم احمد العباس زميل عبد الرزاق الزبير في السجن والذي أصبح مديراً عاماً في وزارة الإصلاح الزراعي بعد ثورة ١٤/تموز، علمت منه أن سالم عبيد في تلك المحاكمة كان قد أعطى تعهداً للحكومة بعدم ممارسة السياسة بعد خروجه من السجن، والعهدة على الراوي. وفعلاً لم يمارس سالم السياسة بعد خروجه من السجن. حينما كان على رأس التنظيم الحزبي في السجن أساء اساءات بالغة ومخجلة لأحد السجناء الديمقراطيين حلفاء حزبنا كامل قزانجي وهو المحامي الوحيد الذي صمد للدفاع عن فهد لدى محاكمته الاولى ولذا كانت الرجعية والسفارة البريطانية تضمران له الحقد الاسود فحكمته بالحبس خمسة سنوات.

كان هذا الاضراب حدثاً طارئاً على جو السجناء السياسيين الذي خلفه فهد، أي جو الدراسة والاستراحة بالنسبة للمناضلين، وهو عين ما كان يفعله المناضلون الثوريون الروس في السجون القيصرية. وبعد الاضراب عاد وضع السجناء السياسيين إلى ما كان عليه. وجرى النضال ضد سؤ قيادة سالم عبيد و بيروقراطيته الفظة وانعزاله عن حياة الرفاق البسطاء ومحاباته لبعض المناضلين دون غيرهم وإخفائه المكتبة ووقفه النشاط التثقيفي واختزاله إياه إلى أدنى حد. وكانت كل تصرفاته تدل على أنه كان يخشى على حياته من أن يختطفها العدو كما جرى لفهد ورفيقيه. وتولى قيادة المعارضة حميد عثمان الذي جاء مؤخراً إلى السجن واستقبله سالم عبيد استقبال الفاتحين على أساس الاشاعات القائلة أن حميد عثمان صمد صمود الابطال بوجه التعذيب الذي لم يسبق له مثيل، بحيث اندهش حميد نفسه بذلك الاستقبال ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وعاد ليلعب بدهاء دور البطل الاسطوري. وكان له زملاء سابقون من اربيل والسليمانية في النضال قبل السجن ومنهم عزيز محمد التفوا حوله. وبدأت المعارضة تستقطب حلقة بعد أخرى من الرفاق في السجن حتى شملت الاغلبية الساحقة. ودخل السجناء السياسيون في دوامة تدور في فناء السجن ليل نهار. واعتكفت هيئة الكادر الحزبي باستثنائي أنا في أحد اقبية السجن لتحل النزاع بالمداولة. واستمرت المداولات اياماً بلياليها حتى تعمقت الخلافات إلى حد الانقسام. وتم الانقسام بالاتفاق وانحاز«باسم» الذي كان يقود الحزب إلى كتلة الاكثرية «اليسارية» بقيادة حميد عثمان رغم التنافس بينهما. فقد عقد اجتماع في سطح الربيئة الجنوبية ألقى فيه ممثلا الكتلتين وجهتي نظر كتلتيهما. وكان محمد حسين أبو العيس على رأس الاقلية «اليمينية» واتهم الرفاق الكرد واليهود من جماعة الاكثرية بالتكتل على اساس طائفي أو قومي فأساء إلى «اليسار» وقد طلب المثلان من الرفاق أن يصوتو بارجلهم: فمن كان مع«اليسار» ترك الربيئة الجنوبية وحمل فراشه وحاجاته وولى إلى الربيئة الشمالية التي غدت بمثابة نادي «اليعاقبة» في الثورة الفرنسية. وبقي الجيرونديون في مكانهم، لينقادوا لهم في كل معركة تقررها الاكثرية اليعقوبية. وكنت من أوائل المنضمين إلى «اليسار».

دب النشاط في حياة المنظمة وأخرجت المكتبة الماركسية المخفية وترجمت بضعة كتب عن الانكليزية ومنها كتاب ستالين «موجز تاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي» وكتابه «الماركسية

والمسألة القومية ومسالة المستعمرات» ولم أكلف بغير الترجمة وبتدريس قواعد الترجمة. إذ لم أكن يساريا في نظر حميد عثمان بل انتهازيا يمينيا! ولم أدع من أي طرف من الطرفين لحضور اجتماعات الكادر القديم الذي اتفق أخيرا على اقتسام المنضمة مقاسمة رضائية. واثارت تعليقاتي المستقلة استياء الطرفين. وقد اسأت إلى حميد عثمان بالذات إذ نبهت بعض الرفاق من الاكثرية بحضوره ضد تقديس الفرد عندما كانوا يكيلون له المديح جزافا.

وجاءت ذكرى ثورة اكتوبر وكنا نحتفل بها سنويا فكلفت بالقاء كلمة بالمناسبة. فتناولت تاريخ الحزب البلشفي عن الطبعة الانكليزية، ولخصت الفصول السبع الاولى بما فيها فصل الثورة والقيت التلخيص الذي استمر زهاء ساعتين وكان الصمت مخيما على الجميع وكأن على رؤوسهم الطير. وفي الختام قلت لهم أن ما سمعوه هو بالحرف الواحد منقول من موجز تاريخ الحزب البلشفي ففوجئوا بهذه الصراحة.

ترجمنا في السجون العديد من كتب ماركس وانجلس ولنين ولمؤلفين ماركسين آخرين. واستنسخنا المئات من الدفاتر عنها ليقرأها السجناء السياسيون ونسخ مصغرة على ورق رقيق أرسلناها للحزب. وكان أبرز خطاطينا بالخط المجهرى والعادي: حسين الرضي وعزيز وطبان وعزيز سباهي. وقد كانوا يواصلون الليل والنهار، يبذلون ماء عيونهم لانجاز مهمتهم بدقة واتقان ووفرة بالانتاج وقد برز من بينهم من له وفرة في الانتاج والتأفف عزيز وطبان وبذلك يعبرون عن الحاجة إلى تثمين جهدهم المضني وعن ارتياحهم لهذه التضحية. وقد تميز وراقونا عن وراقي العصر العباسي في أنهم كانوا يلتهمون المادة التي يستنسخوها فيجدون متعة مزدوجة. وقد استشارني حسين الرضي مرة عن لون الورق الاقل شفافية أو الأكثر كتامة من أرق أنواع الورق فقلت له الفستقي أو الشذري. وقد استخدموه في بريطانية خلال الحرب العالمية الثانية عندما شح الورق فأرادوا أن يحصلوا على أكبر مساحة من الورق من العجينة المحدودة التي كانت توزع على الصحف حسب وزن العجينة وليس حسب مساحة الورقة.

وعندما ترجمت «المسألة القومية» وقعنا في أشكال: إذ ينبه ستالين الشيوعيين إلى «ضرورة احترام عقائد الناس الدينية عدا بعض العادات» كعادة «شخسي فخسي عند التتار» فعجزنا عن فهم ما يريده وما هي تلك العادة التترية التي يعنيها. فرحت اتحرى بين الرفاق من أبناء العتبات المقدسة فسألتهم عما يردده عزاء التركمان أو العجم القادمين من ايران في كربلاء عندما يجلدون أنفسهم بشدة بسلاسل الحديد القصار. فقال لي أحدهم أنهم يقولون «شاه حسين واحسين» ترى كم تحرفت هذه الكلمات عندما نقلت إلى اللسان التتري وإلى الالف باء الروسية ثم الالف باء الانكليزية حتى غدت «شخسي فخسي».

أقبل الرفاق على مطالعة المواد المترجمة بينهم وانطلقت المناقشات الحامية وحتى المشادات حول الديالكتيك وقضايا الثورة وكان للغة الترجمة تأثيرها على أساليب الرفاق اللغوية في الكتابة والخطابة وقد ساعدت على اعدادهم كمنظمين ودعاة وكتابا وخطباء سياسيين أو دبلوماسيين من أمثال حسين الرضي وسائر الشهداء الابطال.

وقد لعب دورا نشيطا في الاعداد اللغوي العربي للرفاق السجناء حمدي أيوب النحوي والمحامي الموصلي.كان يواصل العمل ليلا ونهارا لتعليم الرفاق ويثير الجدل بينهم أياما متتالية حول هذه المسألة اللغوية أو تلك. فتحولت قلعة أبوحنيك من سجن إلى اكاديمية علوم وآداب وسوق عكاظ للشعر والخطابة. وكان حمدي أيوب بصوته الجهوري المدوي يؤدي دور المذياع ومضخم الصوت للمنظمة في الازمات كالاضراب عن الطعام وكان يبلغ رسائلنا الشفوية بصوته إلى القرية ضمن كيلومتين فيمزق سكون الليل ويسمع أصدقاؤنا وأعداؤنا على السواء بما نريد إبلاغهم

وأقام علينا الدنيا حمدي أيوب ولم يقعدها لأننا استعملنا مرة «كلما» في مكان حرف الشرط وجواب الشرط في عبارة واحدة وقد اجبرنا على حذف «كلما» من جواب الشرط بعد أن كسب الأكثرية الساحقة ضدنا فعزينا أنفسنا بأن للباطل جولة وللحق جولات!

ومن بابة ألطف ما يروى أن جريدة «لواء الاستقلال» جاءتنا بعدد يحمل افتتاحية بعنوان «أشر في الجوالق؟» بقلم فائق السامرائي. فحار زملاء حمدي ايوب وهونفسه في كيفية قراءة العنوان وتفسيره وقرأوه على مختلف الصور والتفاسير ومنها «أشرٌ في الجو ألق» يعني الاشر يتألق في الجو ولكن ما هذا الأشر؟ لم يجدوا تفسيراً أو مدلولاً أو معنى وكنت قد قرأت في الفترة السابقة كتاب «مروج الذهب» للمسعودي وفيه قصة «حصان طروادة العربي». وهي أن الاعداء عندما عجزوا عن اقتحام تدمر عمدوا إلى حيلة باخفاء المقاتلين في جوالق (عدول) الجمال لتدخل تدمر وتحتلها من الداخل وأن الملكة زنوبيا عندما رأت من شرفة قصرها أن الجمال تسير وئيداً لثقل ما تحمله في جوالقها تساءلت مرتابة، متوجسة:

ـ أشر في الجوالق (هل يوجد شر في الجوالق)؟

فسردت لهم القصة وضجوا بالضحك الصاخب لبساطة المعنى وقربه في حين أغلق عليهم لغالاتهم في الجدل ولعدم اطلاعهم على الفولكلور العربي. ولاأكون منصفاً للواقع إذا لم أقل أن الذنب يقع أيضاً على الكتابة العربية حمالة اوجه ولاسيما الطباعة بسبب حروفها المتصلة لاقتضابها ولخلاءها من الحركات وبالتالي قبولها شتى التفاسير والتأويلات وانغلاقها على المتعلمين وحتى النحويين. ولكنني لا أريد إبدالها بالاحرف اللاتينية أو غيرها أياً كانت. إلا إذا توصلت البشرية إلى الفباء مشتركة تصلح لضبط جميع اللغات إلى الحد الممكن والضروري. أما الآن فأنا من دعاة استكمال الالفباء العربية لتساعد على فهم المعنى وليس العكس. أي ليس ضرورياً فهم المعنى مقدما كشرط لابد منه لقراءة النص قراءة صحيحة كما هي الحال في الكتابة العربية الراهنة.

ومن التعقيدات الفكرية التي تمخض عنها نشاطنا الثقافي في السجن تعريف ستالين للامة فجملة الشروط التالية: وحدة الارض واللغة والثقافة والاقتصاد لتكوين أية أمة. ولكن قد لا تتوفر جميع هذه الشروط في وقت واحد في أية أمة من الأمم المعاصرة لتكون حسب الكاتلوك كما هي الامة الفرنسية مثلا، ومن الناحية العرفانية، لعل العيب الاختياري في موضوعة ستالين هو إنه لم يركز على أي شرط من الشروط باعتباره الشرط الرئيس أو الحاسم في تكوين الامة. وتجد هذا الشرط عند لنين وهو الحركة الجماهيرية التاريخية الفعالة الدائبة التي تسبق تكوين أية أمة من الامم لمدة طويلة. الحركة التي تخلق الدولة الوطنية. فالجماهير الهندية بفضل نضالها الوطني ضد الاستعمار البريطاني وحكمه كونت الدولة الهندية وعندئذ عند قيام الدولة الهندية نشرت الصحف الامريكية نبأ ميلاد «أمة» جديدة. والامة الهندية لاتملك لغة مشتركة ولاتزال تستعير الانكليزية كلغة رسمية مشتركة وتضم عشرات القوميات حتى قبل قيام الدولة الهندية المستقلة. فالاقتصاد المشترك قام في ظل الحكم البريطاني. ولكن قيام الدولة الهندية الوطنية طور وحدة الاقتصاد الوطني الهندي بصورة أسرع بما لايقاس وهذا يعني إن تطور الهنود كان مستمراً وبسرعة أكبر. إن الاقتصاد المشترك يمكن أن يتطور أو يتحقق بعد قيام الدولة الوطنية على الارض الواحدة الخالية من التجزئة الاقطاعية وهو في هذه الحالة ليس دائما شرطاً مسبقاً. أن ستالين إذ يشترط التكوين التاريخي للأمة يعني أيضاً أن اللغة والثقافة والاقتصاد و..الخ هي أيضاً تتكون تاريخياً بوتائر مختلفة ومع ذلك فقد انتشرت فكرة عقائدية جامدة مفادها ضرورة توفر كل الشروط الانفة الذكر سوية ومقدماً كشرط لقيام الامة. وقد فشلت جميع تجارب الوحدة العربية حتى الآن لأن الحركة الجماهيرية في سبيل الوحدة لم تبلغ بعد المستوى الضروري لاسنادها ولأن الطبقات

الحاكمة لاتريدها ولأن الامبريالية والصهيونية تحاربها. وقد أدى الجدل بصدد الامة وشروط تكوينها إلى إثارة مسألة ما إذا كان الكرد بمقدورهم أن يكونوا أمة أي أن ينفصلوا في دولة مستقلة. وكان الشك بهذا الصدد يقلق الشيوعيين الكرد أنفسهم فجمع حميد عثمان كوادرهم في قبو القلعة الشمالية في السجن الصحراوي القديم واستدعاني لمناقشتهم. وكان من بين شكوكهم عدم وجود سوق قومي كردي مشترك لان المحافظات الكردية مرتبطة بسوق العاصمة بغداداكثر من ارتباطها بعضها ببعض مباشرة فقلت لهم:

- إن السوق المشتركة ظهرت في أوربا بعد انتهاء التجزئة الاقطاعية سياسياً ومع انهيار الاقتصاد الطبيعي وفي ظل الملكية المركزية المطلقة. وللامركزية الاقطاعية الكردية إنهارت في العراق منذ اواسط القرن التاسع عشر على يد الجيش التركي. والان لا يسود الاقتصاد الطبيعي في كردستان بل الاقتصاد البضاعي المرتبط بسوق بغداد. وإن من حق الاكراد أن يكونوا أمة واحدة أو اكثر أن أرادوا. وهذا يتوقف أيضاً على وجود حركة جماهيرية فعالة وعلى هذا العامل الحاسم يتوقف أيضاً ما إذا كان المستقبل سوف يرى دولة كردية واحدة أو أكثر. وخرج الاكراد من المناقشة أقل تشككاً على ما أظن.

كنا في السجن نحلم بالثورة كما نتصورها بيد أننا لم نكن نحلم بها فقط بل كنا نعد أنفسنا لها. ولو بقي فهد معنا لجنبنا الكثير من الجمود العقائدي والنصية ولأعدنا إعداداً أفضل كثوريين وماركسيين لينينيين. وفي هذا الشأن وفي فن القيادة السياسية لم تعوض خسارة فهد!

كان لنا في السجن الصحراوي في قلب الجزيرة العربية سوق عكاظ يتبارى فيه الادباء والشعراء من عرب وكرد وكان الشعر الكردي أكثر غزارة من حيث عدد الشعراء وكمية الشعر أما النثر الكردي فكان أقل غزارة. وهذا يرجع إلى التفاوت في مستوى التطور الثقافي للأمتين. وكان اسماعيل أحد الشعراء الكرد الديموقراطيين وكنا ندعوه «سيمكو» تيمناً باسم القائد الكردي الذي غدر به الشاه الايراني بعد أن دعاه للمفاوضات. وكان اسماعيل يعتز بهذا التصغير لاسمه لما فيه من تبجيل لشخصه وكان غزير الشعر وباستطاعته أن يتحفنا بقصيدة أو مقطوعة في كل يوم. فانقطع فجأة عن الابداع. فسألناه عن السبب فقال وكان لايجيد الكلام بالعربية الدارجة:

- زبابين هوايه ما اكدر اسوي شعورة.

اعتذر بكثرة الذباب عن انقطاعه عن نظم الشعر. وكان الذباب كثيراً حقا كما هي الحال في الواحات الاخرى، ولذا تغنى شاعرهم لبيد بطنين الذباب كناية عن الحياة الخضراء وتوفير المياه.

وقد تخرج من عكاظنا كتاب وصحفيون ترك بعضهم الحزب وعاشوا من أقلامهم التي أعطاها إياهم دون أن ينال منهم لاجزاءً ولا شكورا.

وكان بيننا فنانون مبدعون ومنهم رشاد حاتم الرسام التلويني. كان يرسم لوحات زيتية متقنة يقلد بها الرسام الهولندي الشهير كوخ. وقد سمع مرة من حمدي أيوب: «قل مفن ولا تقل فنان، فهذا يعني حمار الوحش» فقال رشاد من فوره:

- والله أفضل ألف مرة أن أكون حمار وحشي على أن أكون مفنا.

أنتج رشاد حاتم الكثير من الصور الزيتية للسجناء السياسيين ولكن مصيرها غير معلوم وكان من بينها صورة جامعة حافلة بنشاط السجناء اليومي ومن بينهم رفاق استشهدوا في معارك السجن وغيرها. بيد أن رشاد كان يرسم على هواه من يشاء وما يشاء ولم يرسم فهد وزملاءه وعندما ودعه فهد الوداع الاخير عاتبه قائلا:

- تاليها ما رسمتنا يا رشاد!

ولم يحرص رشاد على تدريب تلاميذ له وحتى أنه أمتنع عن إرشاد الرسام الهاويه عزيز سباهي بكيفية خلط الألوان فانتقدته مرة بقولي: انت مثل حرفيي القرون الوسطى الحريصين على سر المهنة لايكشفونه حتى لاولادهم قبل أن يبلغوا سن الرشد وإذا سرق أحدهم السر قتلوه.

امتعض رشاد من هذا النقد القاسي ولكنه لم يكشف شيئاً من السر. وسألني عزيز سباهي مرة كيف يحضر اللون الاسود في السجن فقلت له:

أطلب من المقاول الملتزم بتزويد السجناء بالارزاق أن يأتيك بشيء من بذر الكتان واقله ثم اسحقه بالهاون وضعه في قطعة شاش وأعصر زيته وحلل شيئاً من سخام القدور أو زجاجة الفانوس في زيت بذر الكتان فتحصل على صبغ كاربوني أسود فاحم سريع الجفاف بفضل سرعة تبخر زيت بذر الكتان.

وكان من بيننا شيوعي لبناني أرمني هو القائد الموسيقي الكهل كريكور الذي انتمى إلى حزبنا عندما جاء للعمل في العراق وصار رئيساً للفرع الارمني في الحزب. وقد سلمه مالك سيف للعدو هو وأعضاء لجنة الفرع ولم يستطع الصمود بوجه التعذيب فاعترف على هوية زملائه الحزبية ليندم فيما بعد. ويبدو أن شعوره بالاثم كان يعذبه دائماً وللتكفير عن خطيئته وإراحة ضميره المعذب كان يتطوع لتقديم مختلف الخدمات للرفاق ومنها التدليك. كان النظر إلى هذا الانسان المعذب يحزنني فأشفق عليه.

أما الكهل الارمني الاخر انترانيك فكان يجمع مزايا جيله من الارمن الكادحين. كان كدوداً جلداً واثقاً، خصب الانتاج متعدد المهارات وكأن كل اصبع من أصابعه العشرة عشرة مهارات مختلفة. كانت مهنته مصلح ساعات عالي المهارة والاجرة كان العمل في السجن حياته بالذات ولا يترك لنفسه وقتاً للفراغ بل يجد في العمل سلواه واستجمامه. ودخل في تنوع أعماله ومشاريعه لخدمة المنظمة: الشروع بصنع مضخة لسحب الماء من بئر السجن المالحة ليريح الرفاق من مشقة رفع الدلاء وأخذ يصنع الانابيب من صفائح النفط. وكان يسامر الرفاق اثناء عمله وكانوا يتمتعون باحاديثه وتعليقاته ونقداته. كان ناقداً جريئاً فانتقد حتى الناقد العربي الكبير طه حسين. كان انترانيك يصغي لقراءات الشباب لطه حسين وينتقد اسلوبه الريبي بمحاكاته فيردد:

ـ لاهذا ولا ذاك، بين هذا وذاك، تدور وتمور، وتخور ويلف ويدور..

وبالمناسبة كنت قد قرأت قبل السجن كتابيّ فقه «الخراج» لأبي يوسف و«الأموال» لأبي عبيدة تتبعا لقضية الارض في تاريخنا فأدهشتني سلاسة لغتهم ووضوحها ودقة احكامها رغم أن عمرها قد تجاوز الالف سنة. وقرأت «الفتنة الكبرى» لطه حسين عن الصراع بين علي وعثمان. وفي السجن قرأت «شرح نهج البلاغة» لإبن أبي حديد وفيه قصة الصراع ذاته وقد تملكني العجب فكيف استطاع إبن أبي حديد قبل ألف سنة أن يبز طه حسين عميد الادب العربي في القرن العشرين في سلاسته ودقة تحليله.

نفس الأفكار مكتوبة بلغتين عربيتين الاولى: صريحة دقيقة والاخرى: ريبية سائبة، مواربة. الاولى علوية الميول والاخرى: لاادرية ومع ذلك أرى إن طه حسين أفضل مؤرخ معاصر إلى جانب جرجي زيدان ،للمجتمع العربي.

ولنعد إلى سجننا الصحراوي. ومن أبطال العمل الشيوعي بالاضافة إلى إنترانيك كان عندنا شمشون بيرة الاشوري. كان بالفعل شمشون الجبار. شاب مرح لايعرف الهم والغم مفتول العضل، قوي البنية. مهنته حداد أخذ على عاتقه أشق الاعمال وأصعبها. كان عامل الصناعة الثقيلة يتلاعب بأثقل القدور. كان حاضرا للعمل في أي وقت أناء الليل وأطراف النهار.

أما أكرم حسين المعلم البصري فكان من أبطال العمل الصامتين، دائب العمل والتفكير. كان همه أن يخترع أكلات طيبة يفاجئ بها الرفاق ليتمتع بابتسامات الرضى تنبسط على وجوههم.

وكان به ضعف للشاي المعتق فيبالغ في غليـه. ومتعتـه أن ينبطح مرتكـزاً علـى كوعـه إلى جـانب «قوري» الشاي (ابريق الشاي) «المهدر» ويسرح بعيداً في عالمه الخـاص. وفي أحـد الأعيـاد أراد أن يتحف المناضلين السجناء بحلوى شعبية «الزلابية» أي (المشبك) بلغـة أهـل الشـام. فسألني عما اعرفه عن كيفية تحضيرها. ولم أكن أعرف كنههـا سـوى إنـني رأيـت في دكـان في سـوق الميـدان ببغداد عامل زلابية يصب عجينة سائلة من ابريق في يمينه على قمع في يساره فوق المقـلاة المـلأى بالزيت المغلي على النار ويرسم شبابيك في دورانه ثم يضع الشبابيك في صحن ويصب عليها السكر السائل. فتصبح زلابية جاهزة شقراء يسيل لها اللعاب لو رآها إبن الرومي لفضلها على الخشكنانج الذي تناوله رغم هواجسه في انه كان مسموما ليموت به.

لم أعرف مادة العجينة السائلة ومع ذلك لم أتردد في إعطاء وصفة مرتجلة لأكرم حسين: أكسر البيض وأعزل صفاره عن بياضه وأخفق البياض مع قليل من أدق دقيـق القمـح«نمـرة صفـر» حتـى يصير عجينة سائلة هي مادة الزلابية. وأعمل من الصفار والدقيق والسكر حلـوى أخـرى. ولم اكـن أعرف أن النشأ وليس بياض البيض هـو مـادة الزلابيـة، ومـع ذلـك فقـد صنـع أكـرم علـى ضـوء تلميحاتي زلابيا فاخرة يكاد من يتذوقها أن يأكل أصابعه معها لفرط لذة طعمها وطيبها وحلاواتها شكلا ومحتوى.

ومن ذوي الاختصاص بيننا كان المسؤول عن حفظ مياه الشرب، عبد الحسين وقد أطلـق عليـه عزيز عبد الهادي الاعظمي لقب «مروق المـاء» وكـان يسـهر علـى ترويـق المـاء في براميـل الحديـد الضخمة ليل نهار ويبرده صيفاً بلف براميـل المـاء بأكيـاس الجنفـاص الـتي يرطبهـا علـى الـدوام والابتسامة لا تفارق شفتيه. وبعد ثورة ١٤/ تموز استوقفني رجل عند ملتقى شارع المتنـبي وشـارع الرشيد وسألني متلهفا:

ـ هل تعرفني؟

ذهلت للمفاجأة ولم أحر جوابـاً ولم أذكـره إلا بعـد أن ابتعـد عـني فتـألمت إذ أنـه كـان عبـد الحسين مروق الماء. إلا لعنة الله على السنين أنستني أسماء كثرة من الأبطال لا أزال أذكر محياهم وعملهم ومنهم القصاب البارح وهو شاب مـن عائلـة قصـابين مـن أطـراف الرصافـة وقـد استشـهد برصاص العدو في أحد مذابح السجون.كان البارح يذبح الذبائح ويسلخ جلدهـا ويقطعهـا فيوهيئهـا للطبخ. كان شعبياً شهماً «برمكيا» بالمعنى البغداداي للكلمة من طراز نعمـان ومحمـد صـالح عبلـي ابناء حارته. ولست قادراً على كتابة موسوعة وأن تكن موجـزة عـن شـهدائنا الراحلـين والمقيمـين حتى الآن. وكل ما اتمناه من نجاح أن يحفز مؤلفـي هـذا الاخريـن ذوي الذاكـرة الشـابة ليكتبـوا عنهم! أن يكتبوا كل التفاصيل صغيرها وكبيرها فلعل أديباً من عيـار غـائب طعمـة فرمـان يخـرج منها سفراً خالدا وغذاءً روحياً للمناضلين الثوريين وتاريخاً حياً لحزبنا ونضالات شعبنا.

45

من أحلام اليقظة

بعد هذا الانتعاش بين السجناء السياسيين استيقظت الآمال لنقل السجناء من سجن نقرة السلمان الصحراوي إلى سجن آخر في إحدى المحافظات حيث يكون الاتصال بعوائل السجناء أسهل نسبياً. فتوصل التنظيم إلى أن الاضراب عن الطعام من أجل الانتقال إلى الحواضر هو الوسيلة الوحيدة الممكنة للانتقال. وحضر تحضيراً جيداً للاضراب ولاسيما إقناع الحزب بتنظيم الاعمال التضامنية لإسناد الاضراب باخراج مظاهرات نسائية من عوائل السجناء والرفيقات الاخريات. وكانت الأحكام العرفية قد رفعت والحكومة القائمة آنذاك حكومة تسكينية. فطلب مدير شرطة البادية الجنوبية وفداً للتفاوض. وعرض علينا عروضا سخية لتحسين أحوالنا في سجن النقرة من كافة النواحي تحسيناً ملموساً حسب امتيازات السجناء السياسيين. ورفضنا عروضه جميعا واصرينا على مطلب نقلنا إلى إحدى الحواضر والغاء السجن الصحراوي.

وبعد أيام شرعوا بنقلنا على وجبات إلى سجن بغداد والكوت ولكنهم في آخر لحظة استبقوا خميرة من السجناء السياسيين في سجن نقرة السلمان.

وصلت مع وجبة حميد عثمان إلى سجن الكوت فوجدنا الوضع فيه أحسن إلى حد كبير من السجن الصحراوي وقبل أن نتم دور النقاهه من الاضراب الاول الطويل المنهك تلقينا فجأة أمراً من «باسم» بهاء الدين نوري سكرتير اللجنة المركزية، يلزمنا مجدداً بالاضراب وعلى الفور من أجل اطلاق سراح زوجته مادلين الموقوفة والمهددة بالابعاد. ومن دون اقتناع أي واحد منا اضربنا في الحال عدة أيام وقد أساء هذا الاضراب الاضافي إلى صحة جميع المضربين القادمين من سجن نقرة السلمان لأنه جاء بعد إضراب طويل منهك.

وجدنا في سجن الكوت ترجمات جيدة لكتب ممتازة ترجمها الرفاق السجناء وكان التثقيف الماركسي جيداً وكان مدير السجن رجلا وطنياً هو جابر منير العاني.

وبعد فترة وجيزة بوشر بحفر النفق من داخل السجن إلى خارجه وطلب حميد عثمان من بهاء الدين نوري أن يساعدنا على الهرب من السجن والالتحاق بالحزب بتهيأة واسطة لنقل الهاربين إلى بغداد. فاعتذر بأن الحزب غير قادر على إسعافنا بواسطة نقل ولا على إخفائنا في بيت من بيوت الكوت ريثما يتمكن من نقلنا. والاغرب من ذلك كله ، أن بهاء الدين أصدر بياناً سياسياً حزبيا بصدد اتفاقية النفط قرر توزيعه في نفس الليلة التي أخبرناه إننا سنهرب فيها. ومبعث الغرابة هو علمه بأن توزيع أي بيان يؤدي عادة إلى استنفار الشرطة والعسس وترصدهم للمارة. كان واضحاً إنه يعلم بما يطمح إليه حميد عثمان من وراء هروبه، يعني منافسته على زعامة الحزب. وعندما إستجوبناه بعد ذلك في سجن نقرة السلمان عن سبب تخييبه آمالنا في الهروب أجاب:

ـ ما كنا نعرف أهمية الهروب!

ولم يحر جواباً على توقيته توزيع البيان مع وقت الهـروب. وكـان واضحـاً إنـه يفضـل وقـوع لفيف من الكوادر الحزبية بيد العدو على نجاتهم ومشاركتهم له في قيادته الانفراديـة للحـزب. لم يكن لي أي علم بعمليـة الحفـر وصعوباتهـا وعندمـا دعيـت للهـرب لم أتـردد لحظـة واحـدة رغـم المفاجأة.

خرجنا من النفق لنجتاز حاجزاً من الاسلاك الشائكة على باب الفناء الخلفي ثم اجتزنا مقـبرة غارقة في الظلام الدامس ومشينا مشواراً طويلاً على غير هدى حتى صرنا قبالة قصـر منيـف لاحـد أمراء ربيعة الاقطاعيين يتوهج بالانوار الكهربائية ،ولذنا ببقعة مظلمـة. كنـا نتوقـع سيارة حمـل تنتظرنا بناء على موعد مقرر. فانتظرنا بعض الوقت دون طائل. كنا نرتدي أزياء شعبية مختلفة شبيهة إلى حد ما بالأزياء المحلية. وكان عزيز الحاج يعرف المكلف بإحضار السيارة ويعرف عنوانه فـراح يبحث عنه وبعد مشوار عاد به إلينا وما أن رآنا إلا واستبدت به رعدة من الخـوف اصطكـت لهـا أسنانه وركبتاه واعتذر عن عجزه عن تزويدنا بواسطة نقل وانصرف لا يلوي على شيء.

كان علينا أن نقتحم الطريق المجاور لأنوار القصر ونمشي دون أن نستلفت أنظار حراسه. وقد نجحنا في اجتياز هذه العقبة واستدرنا إلى الشمال نحو السدة المحاذية لشاطئ دجلة الايسر شمـالي الكوت ومشينا في الظلام الدامس بعيداً عن المدينة ثم تركنا السدة وخرجنا إلى البرية. وكان دليلنـا مهدي حميد وهو من مدينة كركوك ولم يكن يعرف أي شيء على الاطلاق عن المنطقة وكان ضـابط مدفعية قبل سجنه وأخذ يتوقف عن المشي بين الفينة والفينة ليرصد النجوم ويتنسم الريـح ناشـراً ذراعيه ليكتشف اتجاهها وكأنه دليل بدوي من «الصلبة» حتى صرنا في وسط البريـة الخاليـة مـن كل علامة تدل على وجود الانسان على سطح كوكبنا وكأننا على سطح القمر. وسرعان ما انهارت السيطرة البيروقراطية المطلقة التي كـان يمارسـها حميـد عثمـان في السـجن وتحـارن هـادي هاشم الاعظمي، وكان يده اليمنى، وجلس على الارض وأبى أن يسير خطـوة واحـدة أخـرى. وعجـزت أوامر حميد عثمان ثم توسلاته عن تحريكه وعندئذ تذكرني فاستنجد بي لاسوقه معنـا. فـانتهرت هادي على تقاعسه ولكن لم تجد أي لغة لتحريكه فتركناه وواصلنا الاسراء باتجـاه النجـم القطـبي صوب الشمال فانهدت قوى آخر من مساعدي حميد عثمان وجلس على الارض فابقاني معـه وقـد كنت أكبرهم سناً وأضعفهم بنية بيد إنني لم أكن أولهم قعودا. وواصلوا هم المشي في اتجاه الشـمال حتى اكتشف أمرهم عند نهر ديالى. وبقينا أنا وصاحبي جالسين حتى بانت خيـوط الفجـر. قمنـا نمشي تارة ونقعد أخـرى باتجـاه الغـرب للوصول إلى الطريـق العـام لعلنـا نستوقف سيارة مـارة ونتشبث بها لنقلنا بعيداً عن سجننا فقد ننجو من الوقوع في الاسر من جديد. زحفنا حتـى وصلنـا حدود الارض المزروعة فظهر اننا لم نبتعد عنها كثيراً في إسـرائنا البارحـة ولمحنـا فـلاح صـاحب المزرعة نسير عدة خطوات ونقعد فترة اطول فظن بنـا الظنـون وجـاء يقـترب منـا ببندقيتـه حتـى التقينا وجها لوجه وأدعينا إننا جئنا في طريقنا من بدرة إلى بغداد وقد تعطلت بنـا السـيارة فجئنـا لنواصل السفر بسيارة اخرى. ولم يكن هذا الفلاح الميسور ساذجاً إلى الحد الذي يصدق ادعاءنا وهو ابن المنطقة وعارف بأنواع الهاربين والمطاردين وضحك في سره فرحاً بهذا الصيـد الـذي سـاقه الله عليه. ودعانا على الفور إلى مضيفه وجلسنا على بساط لنرتاح وقد جعلنـا التعـب غـير مبـالين بمـا يجري. تقاطر الفلاحون المجاورون على المضيف. وبـدأ الاسـتجواب الفلاحـي التقليـدي عـن كـل التفاصيل عن هوياتنا وعناوين مساكننا، في أية ديرة؟ ومن أية عشيرة؟ فادعينا اننا مـن الكريعـات مقابل الكاظمية على الضفة اليسرى من دجلة وتملصنـا مـن انتسـابنا القبلـي لأننـا حضـر وكفـى. وبحضورنا هنأوا رب البيت بهذه الغنيمة الباردة، في هذا الصباح المبارك وكان مع كل منـا عشـرة دنانير اعطانا إياها التنظيم تفادياً للطوارئ ،لاسامح الله، فتساومنا مع مضيفنا الفلاح ليستأجر لنا مكانا في إحدى السيارات المارة إلى بغداد فأقسم بالله، لايتركنا نذهب لوحدنا هائمين وأعلن عزمـه

على أن يحرسنا حتى ابواب دورنا فشكرناه وألحفنا عليــه الاّ يحمـل نفسـه هـذا العنـاء. وماطلنا لنبقى في داره حتى الصباح وغاب عنا عدة ساعات ثم عاد وأخرجنا مـن داره ومشـى معنـا حتـى الطريق العام ولم يكن بعيداً وركبنا في سيارة ركاب صغيرة وكان فيها معنا أربعة ركاب آخرون.

وما أن ركبنا السيارة حتى أدركنا للتو واللحظة أن مضيفنا سلمنا بيد الشرطة السرية، ركـاب السيارة، بعد أن قبض منا ومنهم «حقوقه» وعند جسر ديإلى سلمونا بيد الشرطة القائمة بحراسة جسر ديإلى على الطريق إلى بغداد ـ الكوت. ولم يفلح من الهاربين سوى هادي هاشم الذي بعد أن تركناه، سار إلى الطريق العام وركب سيارة مارة وبقي طليقاً عدة أشهر حتى القي القبض عليه في قضية أخرى.

جمعونا من جديد في مركز شرطة الكوت لنستخلص الدروس الضرورية من تجربتنا الفاشلة هذه، وقد تعبنا كثيراً من توتر طاقاتنا في هذه التجربة الصعبة فأطلقنا حناجرنا في قراءة الاناشيد الثورية والطقطوقات الشعبية لننفس عن كربنا. وكان رفاقنا في السجن يقترون على أنفسهم ليمونوننا بضعف مـا يكفينـا من أفضل ما عندهم من طعام. وكنا نأكل بشهية ونبقي للشرطة القائمين بحراستنا نصيبـا مـن مأكلنـا وبعد الراحة من تناول الغداء وشرب الشاي نعود لقراءة الاناشيد. ومرة كنا نقرأ نشيد جاء فيه:

إننا اليوم جيــاع	وغداً سنشبع نشبع
وغداً حقنا المضاع	ســـيرجع يرجـــع

فأطل عريف الحرس الكهل برأسه علينا من باب الزنزانه وقال:

ـ تعالوا اكلوني ! !

لقننا حميد عثمان بما يجب أن نقوله للمحقق عن أسباب هروبنا وهــي علـى حـد زعمـه سؤ المعاملة في السجن. وكان هذا اسوأ جواب سياسي إذ كانت تلك الفترة بوجود مدير السـجن جـابر منير، أحسن معاملة نسبياً عومل بها السجناء الشيوعيون في السجون العراقية.

كان جابر منير العاني مدير السجن في الاجازة عند الهروب وكان لشهادتنا السلبية بحقه جانب ايجابي. إذ كانت تزكية له أمام رؤسائه وقد تنفي عنه تهمة التقصير في واجباته كمديـر سـجن إذ يتيح تساهله مع السجناء فرصة حفر نفق طويل والهروب منه. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

كان حميد عثمان محكوماً بالاشغال الشاقة المؤبدة فكـان يخشـى اذا مـا علـل هروبـه بهـدف سياسي أن يؤدي ذلك إلى اصدار حكم الاعدام. وعندما سألني حاكم التحقيق وكان صديقـا حميمـا لمدير السجن وقلت له عن سؤ المعاملة أبدى شكه وامتعاضه وسألني عن أسباب أخرى فقلت له:

ـ هربت احتجاجاً على وجودي في السجن إذ يجب أن اكون حراً طليقاً.

أضافوا إلى حبسنا مدداً أخرى، بضعة أشهر وأعادونا إلى سجن نقرة السلمان فالتقينا من جديد رفاقنا الذين كنا غادرناهم في قلب الصحراء، قبل حين.

وأخذنا نواصل الضغط على بهاء الدين نوري ليتبنـى شـعار«الجمهوريـة» وحملنـاه علـى تبـني ميثاق يثبت للشعب الكردي حقه في تقرير مصيره بنفسه بمـا في ذلـك حقـه في الانفصـال في دولـة وطنية مستقلة. وتبنى بهاء مشروعنا بعد أن حذف البرجوازية الوطنية من التحالف الوطني الـذي يحقق الجمهورية المنشودة. أما الفريق الاخر في سجن بغـداد بقيـادة عزيـز محمـد فكـان يواصـل ضغطه عليه باتجاه معاكس تماماً بدعوى تفريطه بالتحلف مع البرجوازية الوطنية ومع الجادرجي على الاخص. فانحاز بهاء إلى اليسار كلياً ونقح رسالة «معين» كناية عن عزيز محمد بحيـث تبـدو انتهازية صريحة باعتراف كاتبها. ونشرها في جريدة الحزب «القاعدة» مع رد ثـوري جـداً عليهـا فانفعلت جماعة عزيز محمد من هذا الموقف اللاخلاقي وانشقت على الحزب وأعلنت نفسها انهـا

هي الحزب وأصدرت جريدة جديدة باسم «راية الشغيلة» وهكذا انشطر الحرس الحزبي القديم وكانت جمهرة الحزب مع الميل اليساري وبقيت«راية الشغيلة» تمثل الاقلية حتى حلها واندماجها بالحزبِ بقيادة سلام عادل (حسين الرضي) عام ١٩٥٦ بيد أن جريدة «راية الشغيلة» ظهرت أشد تياسراً من جريدة الحزب والحق يقال!

وفي تلك الفترة أصدر «باسم» ميثاقاً جديداً للحزب كان أحد الأسباب المباشرة للانشقاق إذ كان يدعو إلى إسقاط النظام الملكي القائم وإقامةِ نظام جمهوري شعبي يمثل طبقات الشعب باستثناء البرجوازيةِ الوطنية التي لم يدع لها مكاناً في ميثاقه متمثلاً مع الفارق بـ«لابلاس» الفرنسي الذي لم يدع مكاناً للخالق في نظامه الكوني.

رفضت جماعة عزيز محمد على الفور الميثاق الجديد وبررت ذلك بتمسكها بميثاق فهد واستراتيجيته في التحالف مع البرجوازية الوطنية لانجاز الاستقلال الوطني وتحقيق نظام الحكم الديموقراطي، فاعتبرت الميثاق طفرة فوق اليسارية وشقت الحزب فمنحناها لقب «راية الشغيلة البلاطية» فاستاءوا من ذلك أيما استياء واحتج أحدهم مستنكراً بشدة

ـ احنا انحب الملك؟...ام الملك!

ونشرت راية الشغيلة فيما بعد برنامجاً لجماعتها بيد أنه كان يسارياً متطرفاً أكثر من ميثاق باسم وقد صاغه الحيدري.

لم يكتف حميد عثمان بتبني الحزب شعار الجمهورية بالاحتفال بهذه المناسبة السعيدة بإقامة حفلة سمر بل قرر البدء فعلاً داخل السجن الصحراوي بإقامة «جمهورية الشعب» فاعتصمنا في القلعة القديمة ومنعنا الشرطة من الدخول لاجراء التعداد الروتيني للسجناء وقطعنا براميل الماء الفولاذية واتخذنا منها سيوفاً ورفعنا العلم الاحمر لأول مرة في قلب جزيرة العرب الصحراوي. وأن يكن داخل سجن من سجونها!! وهذه «الاولوية» في كل شيء سمة ملازمة لليسارية الصبوية في العراق. وشرع حسين الرضي التعاون مع الشاعر زاهد محمد الذي كان يحول الطقطوقات الشعبيةِ الوجدانيةِ إلى أغاني سياسية وكان مهوالنا، اي ناظم هوساتنا وأهازيجنا السياسية وأصبح مهوالاً جماهيرياً بعد أن خرج من السجن في أيام ثورة ١٤/ تموز/ ١٩٥٨م وسرعان ما نظما ولحنا نشيد «جمهورية الشعب» وإليكم الكلمات:

ياجموع الشعب ياجيش الجياع　　　قد سئمنا العيش في ظل الطغاة

لطخي بالوحل تاريخ العروش　　　وابني جمهورية الشعب السعيد

إلى الامام إلى الكفاح
إلى السلاح للانتقام

سلب المستعمرون الظالمون　　　خبزنا وانتهكوا أوطاننا

وأقاموا حفنة من خائنين　　　نهبوا الارض ومصوا دمنا

إلى الامام إلى الكفاح
إلى السلاح للانتقام

أيها العمال ياقلب الحياة　　　نابضاً بالحب خلاق الوجود

نحن شيدنا القصور الشامخات　　　هل سوى الموت جنينا والقيود

إلى الامام إلى الكفاح
إلى السلاح للانتقام

أخذونا إلى المحاكمة في بغداد بعد انتفاضة تشرين/١٩٥٢ بتهمة قراءة نشيد ثوري فالتقينا في المعتقل جورج تلو فحدثنا عن الانتفاضة كشاهد عيان.

كان يقودنا كاظم فرهود فأملى علينا بأن نعترف بقراءة النشيد أمام المجلس العرفي العسكري الذي يجري محاكماته سرا ولا ينشر عنها إلا مدة الحكم، ولم أمتثل لأمره فلم يحكمني المجلس العرفي بل حكم على الاخرين بمن فيهم كاظم فرهود بالحبس الاضافي لبضعة أشهر فحمل فرهود علي ضغينة لا تنتهي مهما تقلبت الاحوال وطال الزمن. وأودعونا التوقيف في مركز شرطة السراي ثم نقلونا إلى محطة القطار في سيارة السجن السوداء احتياطاً وتقديراً لنا باعتبارنا من الهاربين من السجن. والسيارة مخصصة للمحكومين بالاعدام وفيها زنزانات انفرادية ضيقة بلا نوافذ سوى شقوق ضيقة للتنفس. ووقفت بنا السيارة في باب المحطة مدة طويلة كدنا نختنق في نهايتها. ولم يجدوا مكاناً مناسباً لخطرنا في القطار النازل إلى السماوة فاعادونا إلى مركز السراي وفي اليوم التالي جاءوا بنفس السيارة لنقلنا فرفضنا. فاستدعى الضابط اضعاف عددنا من الشرطة لإجبارنا على ركوب السيارة ونشبت معركة بالايدي بيننا وبينهم حتى رضوا عظامنا وقيدوا أيدينا وحملونا حملاً إلى السيارة وفي عربة القطار ربطونا بسلسلة واحدة حتى وصلنا إلى الديوانية وألقوا بنا في حجرة عارية من كل شيء في مركز الشرطة. فنمنا حتى الصباح على الارض العارية لشدة تعبنا.

كنا نزج أنفسنا في هذه المآزق وكأننا في حاجة إلى أن نثبت لأنفسنا بأننا لانزال على قيد الحياة ولسنا موتى رغم كل ما يصيبنا من أذى ومن زيادة محكومياتنا. وكان حميد عثمان يقودنا اليها لاشباع شهوة التسلط لديه وليستر خواءه الروحي والسياسي وكانت اللجنة الحزبية خانعة له ولم أكن عضواً فيها ولا في لجنة سابقة ولم أستشر في أية قضية عدا الوثائق التي أرسلت إلى الحزب باسم غيري. وكان الخيار أما الضوخ للأمر أو ترك المنظمة والحزب.

وهكذا وبذريعة الحفاظ على ثورية السجناء السياسيين وتصليبهم حول حميد عثمان السجن من دار استراحة ودراسة إلى جو من التوتر والقلق والحصار مما أبعد عناصر شابة يافعة وغير متصلبة او متمرسة بالنضال بما يؤهلها لتحمل مثل هذه الاجواء الصعبة. كما حاول بهاء الدين نوري وهو على رأس الحزب استخدم إضراب السجناء السياسيين عن الطعام لتحقيق بعض المطالب البسيطة بدلاً من النشاط الجماهيري.

وفي شتاء ١٩٥٣ اعتقل بهاء الدين وزملاؤه وحكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة وجاءوا بهم إلى سجن نقرة إلسلمان ونحن في حالة اعتصام فأعلن حميد عثمان «أقصى حالات الطوارئ» ولم يكن «باسم» إسماً مريحا بالنسبة لحميد عثمان وكان مجرد وصوله يعني تنحيته عن المركز القيادي في السجن الذي كان ينافس منه قيادة الحزب. ودخل ضيوفنا حيرى لا يدرون ماذا سيلاقون في ذلك الجو المكهرب حتى استقر بهم المقام وسكن روعهم.

خف التوتر في السجن بعد مجيء بهاء وبرز بذلك شذوذ حميد عثمان للعيان وتهالكه من أجل احتلال المركز الأول في الحزب وعدم توازنه رغم نواقص بهاء.

ولم أكن أعرف من هو باسم حتى جاء إلى السجن وعرفت أنه بهاء نفسه. وكان شاباً جم النشاط وكان منظماً حزبيا في السليمانية وبعد أن أصيب الحزب بضربات متتالية عام١٩٤٩ جاء إلى بغداد واستطاع أن يثبت مركز الحزب ويستأنف مجدداً مسيرته الثورية التي تكللت عهد ذاك بانتفاضة تشرين الثاني ١٩٥٢ ونهوض الحركة الوطنية من كبوتها.

وفي آذار ١٩٥٣ توفى ستالين فأقمنا له مجلس عزاء في فناء السجن. وكان الصمت رهيباً. ثم أخذ حميد عثمان يكلف الرفاق واحداً واحداً بالتعبير عن مشاعرهم وجاء دوري فقمت وأبنت ستالين بما أعرف من مآثره ثم قلت:

ـ إن الحزب الشيوعي السوفيتي سيعوض عن هذه الخسارة بتجنيد مئات الآلاف من الاعضاء الجدد من العمال الشباب إسوة بما فعل بعد وفاة لينين.

كانت هذه الجملة الاخيرة غريبة على حميد عثمان لأنه يعتبر الزعيم الفرد لايعوض حتى بالملايين أو مئات الملايين. كما أن الخالق لايعوض بأي عدد من مخلوقاته.

ولم يكشف عن اخطاء ستالين ولم تصدر إدانتها الا بعد ذلك في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي عام ١٩٥٦

وفي صيف ١٩٥٣ قررت الحكومة تجميع السجناء السياسيين في سجن بعقوبة لتخفيف حملة الاحتجاج العالمي والوطني على سجن نقرة السلمان الصحراوي. ولضمان عدم حفر نفق من السجن والهروب بسبب ارتفاع مستوى المياه الجوفية في بعقوبة ولابعاد السجناء السياسيين في بغداد عن قلب العاصمة وما تثيره أناشيدهم من ضجة وفوق كل شيء لسهولة عزلهم عن الجماهير في بعقوبة التي كان تعداد سكانها لايتجاوز العشرين ألفا ولأن السجن فيها يقع في جوار معسكر الجيش.

وبدأت الحكومة بنقل السجناء من بغداد. وقد امتنع السجناء السياسيون عن النقل فاستخدمت الحكومة قوات الشرطة السيارة المسلحة تسليحاً حديثاً لاخراجهم من السجن بقوة النار. وقد استشهد عدد غير قليل منهم وقتل مدير السجن عبد الجبار أيوب عدداً من الرفاق ببندقيته. فكانت مجزرة ١٨/حزيران /١٩٥٣ مريعة أثارت ضجة واسعة واجمعت كل القوى الوطنية على شجبها والمطالبة بمحاكمة المسؤولين عنها.

وفي الشهر التالي قررت الحكومة نقل السجناء السياسيين من سجن الكوت إلى سجن بعقوبة أيضاً فامتنعوا بدورهم عن النقل الا على شروط. فأعلن الجنرال طاهر الزبيدي مدير السجون العام الحصار عليهم وقاد الحصار بنفسه وقطع عن السجناء حتى ماء الشرب. وبدأت ملحمة فريدة من نوعها في تاريخ السجون في العالم تستحق أن يكرس لها كتاب باكمله من شهود العيان. وقد دام الحصار شهراً قنن السجناء كل ما لديهم تقنيناً ومع ذلك نفذت أرزاقهم حتى آخر حبة. وكانوا قد حفروا بئراً يستقون منه الماء. وبدلاً من إطلاق الرصاص الذي اثار ضجة على مجزرة سجن بغداد السياسي استخدمت الشرطة الحجارة لرشق السجناء فبادلوها بالمثل وليتقوا الاصابات وضعوا على رؤوسهم بدلا من الخوذات طاسات الشوربة المصنوعة من النحاس المطروق. واستخدمت الشرطة الرصاص مرة واحدة استشهد فيها صبيح مير وكان يجيد النظم على طريقة النحوي إبن مالك وقد نظم بعض مقولات الاقتصاد السياسي والديالكتيك ليسهل حفظها.

وأخيراً نفذ كل الاحتياطي فوافق السجناء على نقلهم على شروط وافقت عليها السلطة لتخل بها جميعا حالما استسلموا إذ انتزعت منهم كل شيء عدا البيجامات السجنية التي عليهم ومررتهم برتل «زكوي» الواحد بعد الاخر بين صفين من الشرطة يحملون الهراوات وبمنتهى القسوة انهالوا بالضرب كيفما اتفق على رؤوس السجناء.

وعلى هذه الصورة الدامية نقلوهم إلى سجن بعقوبة مكدسين في سيارات حمل كبيرة مثقلين بالسلاسل. ولكن قواهم المعنوية كانت عالية رغم ذلك ولاسيما بعد أن انضموا إلى رفاقهم الذين نقلوا من سجن بغداد وكذلك التقيناهم نحن سجناء نقرة السلمان الذين وصلنا قبلهم.

وقصة نقلنا من نقرة السلمان تختلف بعض الشيء. كان مدير شرطة البادية كهل مسلكي وكان ثعلباً ماكراً يتقن كل قواعد اللعبة البوليسية فوافق على كل مطالبنا التي قدمها التنظيم بواسطة ممثلنا مهدي حميد بما في ذلك إلغاء سجن نقرة السلمان. ونقلنا جميعاً مع جميع حوائجنا معنا وعدم إعادة السلاسل والخلاخل إلى أرجلنا مع نقل بعض السجناء العاديين من حلفائنا معنا.

وهيأوا لنقلنا مع بعض السجناء غير السياسيين سيارتي حمل مكشوفتين وضعنا فيها المطارف والحشايا وسارت السيارات من باب السجن لتقف على بعد كيلومتر واحد عند باب مقر شرطة البادية وأصدر الضابط أمره إلينا بالنزول من السيارات. رفضنا ذلك لان هذا النزول لم يكن من بين الشروط المتفق عليها وعندما سألنا عن السبب كان الجواب اقبح:

ـ لنضع السلاسل بأرجلكم!!

كنا قد كسرنا سلاسلنا ورميناها في السجن عندما بدأنا الاعتصام وأعلنا جمهوريتنا الشعبية فكان اعادة تقييدنا بالسلاسل خرق فاضح لاتفاق «الجنتلمان» مع مدير البادية الثعلب المراوغ.

وإزاء إصرارنا على عدم النزول أوعز ضابط الشرطة إلى شرطة البادية باطلاق النار فاطلقوا عدة صليات من الرصاص فوق رؤسنا فلم نتحرك وكانت السيارات مكشوفة بلا سقوف ولا جدران باستثناء سياج مشبك لايزيد ارتفاعه على المتر ومؤخرة السيارة مكشوفة تماماً. وقد أصبحنا على خط النار. كنا آرا وأنا في المؤخرة متقابلين وجها لوجه فاصبحنا في المقدمة. وأمر الضابط شرطته بالهجوم على سيارتنا باعتبارها سفينة القيادة إذ كانت تحمل أيضاً بهاء الدين نوري وحميد عثمان وكانا في وسط السيارة وبالقرب منهما عزيز الحاج. وكان ممثلنا مهدي حميد في السيارة الثانية التي كانت تحمل أيضاً السجناء العاديين. وكان ايعاز الضابط بالهجوم على سيارتنا بالذات وعندما وصلوا إلى بعد متر من المؤخرة رفع آرا بيده «بستوقة الطرشي» (قلة المخلل) ووجهها اليهم دون أن يفلتها فولوا الادبار هاربين وكأنه وجه اليهم صاروخا برأس نووي/حراري. والسر في ذلك أولاً أنهم بدو ولم يروا «البستوقة» في حياتهم وثانياً لان ادارة البادية أدخلت في روعهم بان الشيوعيين السجناء قادرين على صنع أي شيء بما في ذلك الاسلحة السرية فعندما وجهت اليهم البستوقة ظنوا انها سلاحاً سرياً رهيباً من أختراع السجنا الشيوعيين.

فأوعز الضابط برجمنا بالحجارة وكانت الارض مفروشة بشظايا حجر الصوان الذي كان اجدادنا في العصر الحجري الاول يتخذون منه فؤوسهم وسكاكينهم ومعاولهم وشرعوا يرجموننا به وإذا بشظية تشج جبين عزيز الحاج ليسيل الدم منه وبحكمة أخفى بهاء الدين وحميد عثمان رأسيهما بين المطارف والحشايا وكان حميد قبل هنية يصدر التعليمات متحدياً بهاء ويوعز إلى مهدي حميد بأن يكون مفاوضاً صعباً مع العدو مدعماً إيعازاته بالشروحات السياسية الضرورية فيقول له:

ـ لاتنظر إلى نسبة القوى هنا في هذا المكان وفي هذه الساعة انظر إلى نسبة القوى على النطاق العالمي

وفي تلك الايام بالذات كانوا قد قتلوا بالرصاص عدداً من رفاقنا في سجن بغداد. واستمرت الشرطة تارة تطلق صلية رصاص فوق رؤوسنا وتارة أخرى ترشقنا بالحجارة الصوانية فوقفت وخاطبت القيادة الثنائية

ـ هذا الاعتصام بلا معنى يجب أن ننزل.

لم أسمع جواباً فاعتبرت ذلك الصمت من بابة «السكوت علامة الرضى» إذ كان القائدان يخشيان تحمل المسؤولية فقلت:

ـ أنا راح أنزل قبلكم فاتبعوني

وخاطبت ضابط الشرطة طالباً الكف عن الرمي والرجم. فتوقفوا فعلاً ونزلت من السيارة وتبعني الجميع واحداً بعد الآخر..وبعد نزولنا وجهونا إلى باب مقر الشرطة حيث استقبلنا حرس الشرف المؤلف من صفين من الشرطة متقابلين وبيد كل منهم عصى غليظة قصيرة لا يتجاوز طولها القدمين

فأصابوا حميد عثمان (وكان قصير القامة) برأسه فترنح فأمسكت بذراعه لئلا يسقط ورفعت رأسي عالياً (لأني طويل القامة ١٧٨ سم لحسن الحظ) لئلا تصيب يافوخي ضربة من عصي الشرطة البدو قصار القامة. وسرت بين الصفين المتقابلين وكأنني ضيف شرف يزور بلداً أجنبياً معتزاً بان مبادرتي قد انقذت للحزب لفيفاً من الكوادر المجربة وأنا واحد منهم.وإن انتقل بعضهم :حميد عثمان، عزيز الحاج ،إلى صفوف اعداء الحزب.

وفي مركز البادية الجنوبية اجلسونا على الارض العارية ووضعوا السلاسل في أرجلنا وجردونا من كل شيئ حتى بستوقة المخلل ولم يبقوا لنا سوى البيجامة السجنية وما تحتها. وعلى ذكر المخلل، والشيء بالشيء يذكر، كان خبيرنا في صنعه معلم الكيمياء بهنام شماس توما. لم يكن يترك فضلة من الخضار لترمى في القمامة بل كان يكبسها جميعاً بما فيها اقماع الباذنجان ليصنع أنواع الطرشي. وكان حسين الرضي يعمل في المطبخ ولاحظ أن الشيء الوحيد الذي يفلت من يدي بهنام ويرمى في القمامة هو عظام الدجاج. ففكر بنكته يعملها مع بهنام. فتصنع الجد والخطورة وقطب ما بين حاجبيه وأقبل على بهنام ليسره باكتشافه، فقال له:

ـ من الضروري عمل طرشي من عظام الدجاج أيضاً كما يعملون عندنا في النجف. فعلاً عبرت النكتة على بهنام الطيب الدمث. وسألناه مرة كيف تعبر عليك مثل هذه النكتة وأنت معلم كيمياء؟ قال:

ـ ظننت أن الخل بامكانه أن يلين عظام الدجاج إذ يحلل الكالسيوم فتغدو صالحة للقضم والهضم!

أعادوا بهاء وصادق الفلاحي زميله في المحاكمة إلى سجن نقرة السلمان وأركبونا سيارة حمل مكشوفة وربطوا سلاسلنا بسلسلة واحدة مشتركة واجلسونا على الواح معدنية عارية بعد أن جردونا من كل شيء. وباتت حمى «كروان زاخو» في عظامنا المرضوضة لتهزنا سيارة الحمل هزاً متواصلاً لمسافة أربعمائة كيلومتر ونيف أكثر من ثلثيها صحراء وعرة غير ممهدة حتى وصلنا سجن بعقوبة في مرحلة واحدة.

كان القيظ جافاً مرهقاً ولم تتوقف السيارة حتى لشرب الماء الا بعد أن اجتزنا بغداد ورفضنا أن نشرب شيئاً يروي غليلنا من فصيلة البيبسي كولا واخواتها لان الحزب كان قد رفع شعاراً بمقاطعتها وشربنا مرطبات وطنية وواصلنا السير نحو بعقوبة.

أدخلنا السجن ثم مكتب المدير صالح فوزي وكان من الضباط الوطنين الذين شاركوا في حركة مايس ١٩٤١ وقد اشفقت عليه الملكة عالية لانه كان حارساً عليها أثناء الحركة. ولم يوافق على تسلمنا إلا بعد أن وقع مهندس الاشغال في لواء ديالى تقريراً رسمياً ينص على أنه من المحال حفر نفق في أرض السجن بناء على ارتفاع مستوى المياه الجوفية وتشابك عروق الاشجار المقطوعة من البستان التي بني فيها السجن، ولوجود سور فاصل يحيط ببناية السجن بعد السياج الخارجي و..الخ من الموانع الطبيعية والوضعية.

استقبلنا المدير بالتهديد والوعيد لترويضنا وإنذارنا بأن أي حركة نتحركها سيقابلها باطلاق الرصاص ولن يسلم جثثنا إلى أهلنا. فقلت له وكنت واقفا خلف رفاق آخرين:

ـ هذا أفضل لنا لأنه سيوفر على أهلنا تكاليف الجنازة!

فالتفت إليّ وقال مستغرباً:

ـ أحقاً ما تقول؟! هذه رجولة! فهل ستصمدون عليها؟! قلت له:

ـ بلي! ولا تنسى إن هذا العراق أبو الهزات والانقلابات!

فصار أكثر اهتماماً بكلامي وأكثر احتراماً في خطابه معنا.

وضعونا في زنزانات مخصصة للمحكومين بالاعدام في السور المحاط بجدار عالي وكنا في منتهى الاعياء فانطرحنا على الارض العارية المبلطة بالخرسانة وبدون غطاء ولم نشعر بالجوع. كان همنا الوحيد الراحة.

وبعد بضعة أيام في «المطهر» أدخلنا السجن والتقينا رفاقنا الناجين من مذبحة سجن بغداد ولنستقبل بعد حين رفاقنا الناجين من مذبحة سجن الكوت. وكانوا قد جردوا الجميع حتى من اقداح الشاي فكنا نشرب الشاي بطاسات الشوربة الثقيلة المصنوعة من النحاس المطروق وكانت الطاسة أشد حرارة من الشاي بحيث تكوي الشفة والشاي فاترا! ولكن كنا نحتسي الشاي المهدر جيداً على يد المعلم بهنام شماس بمرح ودعابة كجنود منتصرين في حرب خاضوها تواً سعداء باللقاء مع جميع الرفاق السجناء. كان رفاقنا من سجن بغداد يحدثونا بتفاصيل معركتهم الصعبة وبطولاتهم ولا سيما بطولات الشهداء باعتزاز وفخر. كانوا زهرة شعبنا بعث بهم ليتدفقوا دماً حاراً جديدا فواراً في عروق حزبنا المجاهد وليمنحوه نسغ الحياة. ولما جاء رفاقنا من سجن الكوت حكوا لنا تفاصيل ملحمتهم الاسطورية التي غطت على كل ماماثلها من نضالات السجناء السياسيين في العراق.

كان منظم الرفاق في سجن بعقوبة عزيز الشيخ فسلم الزمام إلى حميد عثمان وكان ذلك دليل على أن قيادة الحزب وعلى رأسها كريم أحمد اعترفت بعد اعتقال باسم بزعامة حميد عثمان لها. واختلى حميد عثمان بعزيز وسره بتجربته معنا أثناء السفر من نقرة السلمان. وقال له منتقصاً من صلابتنا:

ـ اضطجعوا كلهم في السيارة وتركوني قاعداً لوحدي!

شيئاً فشيئاً بدأنا نستعيد حقوقنا في السجن الجديد. وهو عبارة عن صندوق من الكونكريت ضيق ومزدحم جداً ولا أثر فيه للخضرة هذا اللون الذي بدونه تبدوا الحياة رصاصية وتنقبض النفس منها مهما توفرت الشروط الاخرى لإنشراحها.

كان الرفاق يمشون على البلاط الخرساني بالقباقيب الخشبية فينبعث رنين معدني يفرقع الاعصاب. وقد انعدم التمييز بين الليل والنهار والحركة دائبة بذريعة إتاحة الوقت للرفاق ليقرأوا الدفاتر التي ترجمناها من ماركس وانجلس ولينين، ليلاً ونهاراً، وكان ذلك على حساب صحة الاعصاب التي لا تتوفر من دون سكون الليل ونومه العميق. وفي كل ساعتين من الليل كان يوزع الشاي ليساعد الرفاق على السهر والقراءة. وكان بعضهم ينام في الليل وينتبه من نومه فجأة عندما تمر عند قدميه صينية الشاي باقداحها الكبيرة الزجاجية الرنانة فيمد يده وهومغمض العينين ويرمش باهدابه ليتناول قدحه من الشاي فيرشفه عن أخره ويضعه عند قدميه فارغاً، ولينام ثانية. لقد فقد الشاي والقهوة مفعولهما كمنبهين طاردين للنوم وأمسيا منومين نتيجة سؤ الاستعمال والفوضى التي سادت المنظمة بقيادة حميد عثمان النهلستية وسكوت زملائه القياديين.

وعمد العدو إلى محاربتنا بطرق خفية وخسيسة، بدس أحداث منحرفين مع كل وجبة من المتظاهرين الشباب المحكوم عليهم لبضعة أشهر ليرسلهم إلى سجننا. وكانت المنظمات الشيوعية لا تتساهل تجاه الممارسات الشاذة بل تحاسب المارسين حساباً عسيرا وتطرد من لا ينصلح بلا تردد. وكان العلاج المألوف لتعطش الشبيبة إلى الحب هو تشجيع الهوايات الفنية والادبية والغناء والرياضة. وإلى جانب ذلك كانت تتأجج العواطف الانسانية المشبوبة كما هي الحال بين رفاق السلاح في خنادق القتال في عمر الشباب من جراء العزلة التامة الطويلة عن الجنس الاخر. وكان الاباء العراقيون يعرفون جيداً أن انضمام ابنائهم إلى الحزب الشيوعي العراقي صيانة أخلاقية لهم اكثر من أي مجال آخر أومؤسسة أخرى. فلم يكن يقلقهم شيء بهذا الشأن.

ومعروف جيداً أن الشيوعيين العراقيين كانوا أشد الاحزاب السياسية محافظة حتى في العلاقة بين الجنسين الامر الذي من بين أسباب أخرى دفع كثرة من الشبيبة إلى تلك الاحزاب.

وكان السجناء المحكومون توا يتلهفون عند أول مجيئهم للسجن للقائي ليسألوني بعض الاسئلة السياسية والنظرية. وبعد التعارف يستدعون إلى المخزن حيث مقر التنظيم لينبههم من الاتصال «بالانتهازيين» فلا أراهم ثانية. وقد تمتم بذلك أحدهم، العامل النقابي، عبد حاتم، وهو في نومه.

واستطاع العمال النقابيون السجناء أن ينتزعوا من التنظيم حق السماح لهم بالافادة من خبرتي لكتابة تاريخ الحركة النقابية في العراق ، فكتبت لهم كراس: «ربع قرن من تاريخ الحركة النقابية في العراق» دون أية مراجع في متناول يدي أي كتبته من الذاكرة وعندما نشر الكراس في«اتحاد الشعب» لم يوضع عليه إسمي كمؤلف بل صدر بدون اسم المؤلف. وعندما أعيد طبعه بعدئذ في كراس مستقل نشر بإسم «طالب عبد الجبار» دون استشارتي وبعد أن استشهد الرفيق طالب عبد الجبار بعد انقلاب ٨/شباط/ ١٩٦٣ رفضوا الاعتراف بأبوتي للكراس بذريعة أن الرفيق قد استشهد ولم يعد من الائق حرمانه من مؤلف لم يكتب منه حرفاً واحداً. وعندما قرأت ما كتبه آرا خاجادور في كتابه «من تجارب شخصية في العمل النقابي العمالي في العراق» عن تأليفي للكراس إياه أحسست بانني قد وجدت ولدي الضائع منذ سنين طويلة. يعني الاعتراف بابوتي لكراسي الذي اعتز به لانه يعكس تجربتي في الحركة العمالية العراقية ويذكرني أيضاً بشبابي، فضلا عن أن الكراس كان شيئاً مما قدمه الشيوعيون من السجون لحزبهم وللحركة الثورية والعمالية.

وذات ليلة زار عزيز محمد، وكان على رأس جماعة راية الشغيلة في القسم الاخر من السجن، زار حميد عثمان واختلى به نحو ساعة من الزمن وانصرف.

وفي صباح اليوم التالي جمع حميد عثمان الرفاق في أكبر قاعة في السجن وألقى كلمة وهو واقف إلى جانب الصبورة وبيده الطبشورة قال فيها

- إن ميثاق الحزب الجديد غدا ملغياً!

وأكد ذلك بالطباشير على السبورة فانفجرت غاضباً على هذا التصرف الفردي الفضيع المرتجل قائلا:

- شخص واحد في السجن ومن دون أي تخويل يشطب بجرة طباشير فجأة على وثيقة برنامجية اتخذتها الهيئة القائدة ،اللجنة المركزية وثقف بها الحزب ردحاً من الزمن!!

وبعد أن سكت لاحظت الوجوم الذي ساد القاعة وسمعت حميد عثمان محتجاً على صياحي. لم يجرأ على طردي من التنظيم ولكنه شدد المقاطعة ضدي.

دبرت الهيئة المسؤولة عن التنظيم السجني تهريب حميد عثمان من السجن ليقود الحزب على الساحة «كهدية غالية» على حد تعبير خلفه هادي هاشم وفي ساحة النضال اكتشف الحزب سؤ معدن حميد عثمان فطرده من صفوفه وبمرور الايام عرى حميد عثمان نفسه بنفسه تماماً كعدو تافه للحزب.

46

النفق الثاني

وشرع التنظيم بحفر نفق جديد هذه المرة في سجن بعقوبة حيث قرر المهندس المسؤول إن الحفر مستحيلا. ولكن همم الرجال تقلع الجبال! رغم كل الصعوبات. فحفر النفق عميقا كان يعني حفر قناة لتمتلئ بالمياه الجوفية حالا، أما الحفر عاليا فكان يعرضه للانهدام من جانب المشاة فوقه، وكان الحفر صعباً لان التربة كانت مكتظة بعروق الاشجار المتشابكة وكانت المسافة أطول بكثير من نفق الكوت كما إن حفر نفق واسع كان خطراً يهدد بانهيار السقف. وفوق كل ذلك صعوبة التخلص من التراب المحفور فضلا عن مشكلة تزويد الحفارين بالنور والاوكسجين. وكل هذه المشاكل اوحت للمهندس المختص باستحالة شق نفق تحت أرض سجن بعقوبة المبني حديثا والمبلط بالخرسانة السميكة. ولكن بالمقابل كانت توجد تجربة حفر نفق الكوت وخبرة آرا خاجادور المكتسبة في حفر أسس دعائم جسر الصرافية لعبور القطار.

كان النفق عبارة عن حلزون غير منتظم الشكل بل مشوه إذكان يجري الحفر بمستوى معين واتجاه معين حتى يصطدم بعروق شجرة توت ضخمة فيتغير الاتجاه والمستوى. وتنبثق المياه الجوفية فيتغير المستوى واتجاه الحفر وهكذا دواليك وعلى هذا المنوال فيزداد طول النفق على ضعف المسافة بين مدخله ومخرجه على خط مستقيم ويتعذر التنفس إلى حد الاختناق او الاغماء. يالهم من ابطال صامدين! وياللصمت الجبار والصبر الطويل للشيوعيين العراقيين!

ونزلنا واحداً واحداً في منجم الحرية وكان أولنا مهدي حميد وكان التقدم يقاس بالسنتمترات و«المشي» على إبهامي القدمين والركبتين والاضلاع فيتافعى الجسم كالحية بشق الانفس ويضيق التنفس. وإيعازات مهدي حميد القائد تنقل بالتلفون البشري من فم إلى فم عبر النفق بعد لوي الذقن إلى جانب من الجانبين فوق الكتف.

خرج الأول مهدي حميد وعندما جاء دوري خرجت وسط كومة من الحصى دخل بعضه في جيوب سترتي ليبقى بينة على خروجي من النفق. كان مهدي حميد جالساً القرفصاء متكئا في الظل على السياج الاجري الخارجي للسجن والطريق خالياً من المارة. وكان أمامي درب مترب بين البساتين فأوعز لي مهدي حميد أن أذهب في الدرب المظلم فالتحق بي جاسم التاجي ورافقني إلى الأخير لم يكن ينتظرنا أحد من الخارج. إذ كانت الخطة تحرم ذلك لان الطريق يكون خالياً ليلا إلا من دوريات الشرطة التي سوف تشتبه بكل من ينتظر في درب ترابي بين البساتين وفي حلكة الليل كان على ادلائنا الذين انتدبهم الحزب أن يمروا على الدرب في تمام كل نصف ساعة ولكننا خرجنا بين موعدين متتاليين لأننا لم نستطع الخروج في تمام الساعة أو النصف ومثل هذا التفاوت منتظر في كل خطة أو في كل موعد. وكانت النقطة القاتلة في الخطة هي عدم وجود بديل لها. فأين يجب أن نولي وجوهنا فيما إذا لم نلتق بالادلاء. ولم نكن نعلم شيئاً عن الخطة إذ لم تناقش معنا جراء السرية المتزمته والبيروقراطية المتحجرة كأسلوب عمل.

كان معنا عبد اللطيف الراجي من أهل بهرز المجاورة ولكنه وقع في حيرة من أمره إذ عجز تماماً عن عمل شيء سوى جرنا إلى طريق مكشوف فيه مقهى مفتوح في ليلة رمضانية تعج بالحياة داخل بهرز فرأنا العسس المحلي وثارت شبهاته حولنا فنصبوا الكمائن لنا وألقوا القبض علينا فقد ظنوا أننا من المتسللين الايرانيين الذين يدخلون العراق بلا جوازات سفر.

كان علينا أن نمشي كالاغنام وراء راعينا وكان لكل منا قصته وكيف ومتى وقع في الاسر من جديد. جمعونا في مركز شرطة بعقوبة وزارنا المتصرف نجم الدين عبد الله صائب من مواطني كركوك ومدير شرطته ومدير الشرطة العام وجيه يونس قادماً من بغداد فسأل عني وأنا جالس بملابس كرنفالية تنكرية بلدية فلم أجبه فاستشاط غضبا وصرخ:

- أين زكي خيري الخطر وأنا أقرأ عنه عشرات الكتب الرسمية منذ عشرين سنة وحتى الآن!

فأشار إلي نجم الدين المتصرف وهو من معارفي القدماء وقد أمسك بالمدير العام ليمنعه من التجاوز علي. لم يكن المناخ السياسي في البلد يساعدهم على التنكيل بنا واكتفوا باضافة سنتين آخرين إلى محكومياتنا ونقلونا إلى مستقرنا في نقرة السلمان عوداً على بدء للمرة الثالثة.

وتركنا النفق وراءنا ليزوره قائد الفرقة الفريق نجيب الربيعي الذي صار بعد ثورة ١٤/ تموز/ ١٩٥٨ رئيساً لمجلس السيادة. وحاولوا أن يجدوا انساناً يجتاز النفق من أوله إلى أخره فلم يجدوا مثل هذا الثعبان بين بني البشر فالتجأوا إلى كلب مدرب مر من نهاية النفق إلى بدايته بسلام! فاقتنعوا بأن الهروب جرى من خلال النفق وليس عن طريق آخر متفق عليه مع إدارة السجن.

تلك قصة تثير الاعجاب والاشفاق معاً وكان هم قائد الفرقة وهو ضابط ركن أن يعرف عدد الايام التي استغرقها الحفر وكان قد خمنها بضعف المدة الحقيقية. ومعنى هذا إننا سجلنا رقماً قياسياً عالمياً في سرعة حفر الانفاق الحربية بدون الوسائط المجهزة بها عادة سرايا الهندسة في الجيوش! وكان رد آرا على سؤال الفريق:

- هذا سر المهنة!

عدنا إلى نقرة السلمان والتقينا من جديد الرفاق بهاء الدين نوري وزملاءه في المحاكمة والرفاق اليهود المسقطة عنهم الجنسية العراقية في السجن الجديد الكبير الذي يستوعب مئات السجناء ولم يكن فيه أكثر من ثلاثين. وإلى جانبنا وضعوا جماعة راية الشغيلة وعلى رأسهم عزيز محمد جاءوا بهم من سجن بعقوبة أيضاً وكان علاقتنا بهم ايجابية، رغم أننا خلعنا عليهم لقب «راية الشغيلة البلاطية».

وفي هذه الفترة انتخبت اللجنة المركزية حسين الرضي سكرتيراً أول لها وبدأ الحوار مع جمال الحيدري الذي يقود تنظيم راية الشغيلة خارج السجن وانتهى الحوار بالاتفاق على حل تنظيم راية الشغيلة وعودة اعضائها إلى أحضان الحزب وقد تم ذلك قبل الحصول على موافقة السجناء من أعضائها!

إنتهى الانشقاق في صف الحرس الحزبي القديم وصفوف الحزب وخلال ذلك دار عندنا في السجن بقيادة مهدي حميد نقاش حاد حول الانشقاق وعلى أي طرف تقع مسؤوليته. وكان من رأي عزيز الحاج: إن المسؤولية تقع على عاتق الحزب بناء على سوء تصرف باسم تجاه رسالة عزيز محمد و..الخ من التصرفات اللامبدئية التي ارتكبتها بحقهم قيادة باسم وثانيا لانهم هم الذين يحملون تراث فهد. وبناء عليه وعليه البناء فالحزب هو المنشق والمنشقون هم الحزب!!

وكان رأيي على العكس إذ كنت أضع المسؤولية على عاتق جماعة راية الشغيلة لانهم بادروا إلى تكوين حزب منازع للحزب الشيوعي دون أن يبالوا باكثرية كوادر الحزب وأعضائه الذين بقوا

مع الحزب بقيادة باسم. فشق جماعة راية الشغيلة وحدة الحزب وهي أهم شـيء في تـراث فهـد. وكان عزيز الحاج في الفترة السابقة يكيل لهم الهجاء السياسي «كأيتام جوشي» زعيـم المعرضة في الحزب الشيوعي الهندي و«أيتام غومولكا» زعيم المعارضة في الحزب البولوني و..الخ

وكان مهدي حميد منظمنا في السجن مولعاً بعقد الاجتماعـات الطويلـة الـتي تسـتغرق سـحابة الليل. فكنا نجلس القرفصاء على بطانية مفروشة على الخرسانة لنتناقش في جلائل الامور ونوافلها وتتيبس مؤخرتنا من طول القعود حتى تصبح كخف البعير.

47

حلف بغداد ينتزع المناضلين من أوطانهم

في شتاء ١٩٥٥ دخل العراق مع تركيا وايران وباكستان وبريطاني في «حلف بغداد» تحت رعاية الولايات المتحدة. وقد نظم الحزب الشيوعي العراقي مظاهرات صغيرة خاطفة ضد الحلف ولكنها أخفقت في جر الجماهير إلى النضال. وقد شكل الحلف «لجنة مكافحة النشاط الهدام» لمكافحة الحركة الوطنية الثورية ولا سيما الحركة الشيوعية. وأخذوا يشددون الخناق علينا في السجون أيضاً. ومن بوادر ذلك اسقاط الجنسية العراقية عن الشيوعيين وإبعادهم إلى تركيا كلاجئين في معتقل خاص. وذات يوم جاء ضابط الشرطة مع مفرزة مسلحة من بغداد وسيارة السجن وطلبوا من ممثلنا تسليم بعض الرفاق ومنهم بهاء الدين نوري وصادق الفلاحي وتوفيق منير وأنا. فترددت قيادة التنظيم بين تسليمنا والاعتصام بنا. فرفضت ذلك وألححت على أن نسلم أنفسنا ونرى ما سيكون. فالوضع السياسي لم يكن ملائماً للاعتصام حتى ليوم واحد. كان الاعتصام مجازفة خرقاء والشرطة كانت على استعداد لاقتحام السجن واختطافنا مهما كلف الامر. وقد إندهش ضابط الشرطة المكلف بنقلنا عندما خرجنا من السجن وقابلنا ببشاشة دبلوماسية. وجرة واحدة انطلقت بنا السيارة من نقرة السلمان إلى السماوة وأخرى إلى بغداد. وكنا قد عرفنا السبب وذهب بنا الظن إلى اننا نساق جرة واحدة إلى أنقرة على درب امرئ القيس. وجاشت نفوسنا بحب الوطن بحب الارض التي جبلنا منها وكنا نبص إليها من شقوق السيارة فنراها تجري بسرعة فائقة تاركة شريطاً متحركاً ورئنا من الارض التي تحمل على صدرها العاقول والشوك علائم الخصب الخالدة فنضطرب حنيناً لها كما يضطرب الرضيع إلى صدر أمه.

صادفنا في موقف السماوة باقر براهيم فأوصيناه بأخبار الحزب. وحال وصولنا إلى سجن بغداد وصلتنا رسالة من الحزب تطمئننا من أن العالم سيعرف بمصيرنا.

وفي سجن بغداد أودعونا زنزانات المحكومين بالاعدام وأغدقوا علينا بالطعام بمستوى السجناء السياسيين المتميز كنا نستهلك بعض ما يقدم لنا من زاد لكثرته وليس لقلة شهيتنا. وجاءوا ليحققوا مع كل منا على انفراد ليقرروا ما إذا كان يريد الخروج من السجن حالا تمهيداً لإبعاده إلى خارج العراق أم البقاء في السجن، فاتفقنا على أن نرفض الابعاد وأن نفضل البقاء في السجن على قاعدة «السجن أحب إلي مما يعدون» وبعد الاستجواب تلاقينا من جديد وتبين أن بعضنا خالف ما اتفقنا عليه. ونفذنا أنا وتوفيق منير ما اتفق عليه الجميع. فأعادونا جميعاً إلى سجن نقرة السلمان مجدداً.

وعندما أكمل كامل قازانجي وتوفيق منير محكوميتيهما أبعدا إلى أنقرة وبقيا هناك يعاملان كاسرى حرب على حساب حلف بغداد حتى استرجعتهم حكومة ثورة ١٤/ تموز. واستشهد كامل قزانجي في الموصل في فتنة الشواف واستشهد توفيق منير في انقلاب ٨/ شباط الفاشي.

وتطوع ضابط مطرود من الجيش اسمه محمد سعيد شهاب لتطويع السجناء السياسيين في نقرة السلمان وهم «أخطر الشيوعيين» حسب تصنيف العدو وكان هذا الضابط فاشياً بسلوكه. فدخل السجن على حين غرة ليرهب السجناء ويفرض سطوته عليهم بقوة مظهره العسكري ونظراته الشريرة. فلم يقم له أحد من الشيوعيين الجالسين لاستقباله كما كان ينتظر، بل التقاه ممثلنا لوحده. فاخذ يجرب جميع المضايقات والدس والاستفزاز ولجرنا إلى مصادمات والتنكيل بنا أو لترويضنا وإخضاعنا. واعتمدنا رباطة الجأش والصمود الطويل النفس بدلا من المجابهة الحادة والانجرار إلى المصادمات الجبهوية. كان الوضع السياسي ليس إلى جانبنا منذ إبرام معاهدة حلف بغداد دون مقاومة فعالة من جانب المعارضة. إذ كانت المعارضة الوطنية مشتتة والارهاب البوليسي شديداً وتاكتيك الحزب انعزالياً.

أخذ المدير الفاشي يشدد الخناق علينا من جهة ويفتح من الجهة الاخرى أبواب السجن على مصاريعه لمن أراد أن يتخلى عن مبادئه ويهجرنا إلى غير عودة على طريقة السناتور الامريكي الفاشي ماكارثي.

وكان بيننا في السجن ثلاث جنود حكمت عليهم المحكمة العسكرية وأرسلتهم الينا. كانوا متعلمين وقد لاذوا بالمنظمة لتحتضنهم وكان أحدهم شاباً مائعاً «ابن دلال» لم تعتركه الحياة. وأخذ يضعف أمام الضغط والارهاب من جهة وإغراء فتح باب السجن بوجه «التائبين» من جهة اخرى. وقرر الرفاق أن لايدعوا فرصة للعدو ليربح ولو مستسلماً واحداً من بين السجناء السياسيين. فتطوع كل رفيق من تلقاء نفسه لشد عزيمة الشاب المطعج حتى خجل هذا من نفسه أن يستسلم للعدو ويهجر هؤلاء الأبطال الحريصين على شرفه الوطني فتصلب عوده وصمد معنا حتى آخر المحنة وخرج محافظاً على شرف رجولته. وكان هذا النجاح موضع اعتزاز الرفاق بانفسهم وبقدرتهم على تعزيز ثقة الاخرين بانفسهم وقد عزز الشجاعة والرجولة في انفسهم. كما أن انشغالهم بتقوية العنصر الضعيف بينهم قد عمل بدوره على تعزيز ثقتهم بانفسهم وتضاعفت قدرتهم على المقاومة.

وسار الضابط الفاشي في خطته المنظمة أملاً أن يستسلم أعضاؤها واحداً واحداً وكلما ضعف عنصر من عناصرها فعزل من ظن إنهم «المحرضون» عمن ظن إنهم «المغرر» بهم. وذات يوم صادف عزيز محمد فوجه إليه سؤالاً ليختبره فرد عليه عزيز محمد رداً هادئاً بيد انه ينطوي على شيء من الاستخفاف بالمدير «متوخياً الدقة في التعبير» على حد قوله. فأضاف المدير إلى سلاسل عزيز خطاماً وهو قضيب فولاذي ترتبط نهايتاه بخلخالي سلاسله لتبتعد الشقة بين قدميه بحيث لا يستطيع المشي الا ببطء واحتراس جزاء وفاقا لتوخيه الدقة.

ووضعني المدير مع عبد السلام الناصري والكتور حسين الوردي وعزيز الحاج في حجرة واحدة خارج بناية السجن الكبير موصد ة النوافذ والباب لا يدخلها الهواء إلا من الشقوق وفيها برميل للتبول..والخ وطاسة المنيوم لشرب الماء بلا مطارح ولا حشايا وبخلخالي كل منا ترتبط سلسلة ثقيلة. والأنكى من ذلك كله هو أن سلاسلنا جميعاً ربطت بطرف سلسلة مشتركة نهايتها الاخرى مثبتة بوتد من حديد راسخ في الارض، في وسط الغرفة. ولإذلالنا قال أنتم تفرغون برميل البول خارج الحجرة ولا أحد يساعدكم. كانت الحجرة قريبة من مكتب المدير وغرف نوم الشرطة. وكانت جدران الحجرة مبنية من اللبن غير المشوي. فقررنا أن نقتصد إلى الحد الاقصى بماء الشرب ونكتفي بأن نبلل شفاهنا بدلاً من الارتواء بالماء وأن نقتصد بالأكل أيضاً لنقلل حجم ما يفرزه الجسم من فضلات إلى أقصى حد ممكن ومع ذلك فمن الممكن أن يطول المقام بنا في الحجرة وقد يمتلئ البرميل حينذاك. فقررنا حفر ثقب في أسفل الجدار حتى يجري البول إلى جهة

لاندري وفي رسائلنا السجنية إلى المنظمة في بناية السجن الجديد الكبير نكتب «تنكة» أي صفيحة قصدير كناية عن المدير الفاشي. ولو وقعت رسالة واحدة بيده لعرف أننا إياه نعني ليس إلا.

كنا نزجي الوقت بالأحاديث والذكريات والمناقشات والنكات على المدير تنكة ودخل علينا ذات يوم الدكتور هاشم الطعان شقيق مهدي الطعان وكان من أصدقائي وأصدقاء حسين الوردي فصدم لما رأه من حالة منكرة وبدا عليه الاشمئزاز والاستنكار فأشرنا إلى التنكة. فأمر بألا تبقى في الحجرة وتحسنت أحوالنا تحسناً طفيفاً وشعرنا بالارتياح العميق لأن واحداً من الناس عرف بحالنا وكأن العالم كله قد أطلع على بلوانا وعلى صبرنا فازددنا عزما ومضاء.

فشل العدو فشلاً ذريعاً في اقتطاف حتى ثمرة واحدة متهرئه في ذلك الامتحان للقوى الروحية فأعادونا إلى رفاقنا في المنظمة وهنأنا أنفسنا في أعماقنا على نجاح خطتنا المضادة الصبورة المتأنية والصلبة أيضاً في أن واحد. ولكن العدو لم يتخل عن خططه لتحطيم التنظيم الشيوعي في السجون فقرر من جديد تجميع السجناء السياسيين في سجن بعقوبة ،لتطبيق خطة جديدة بحقهم هذه المرة.

48

سجن أمريكي للمناضلين

إلتقينا في سجن بعقوبة في هذه المرة جميع المناضلين الذين جمعوا من مختلف السجون وقد جردوا من مكاسب نضالهم كافة ولاسيما القراءة والدراسة. فقد كان أشد ما يقض مضاجع العدو هو أن الشيوعيين العراقيين جعلوا من السجن مدرسة واستراحة يتخرج منها المناضلون وقد غدوا أصلب عودا وأثقف عقولاً وحتى أصح أجساماً، فحرمهم من كل كتاب أو دفتر أو حتى ورقة بيضاء أوقلم أو طبشور. وقد جربنا مرة أن نطلب من المدير الكتب السماوية :القرآن والانجيل والتوراة ،وذلك عند خروجنا من الزنزانات للتمشي في فناء السجن ساعة واحدة من كل ٢٤ ساعة. وقد صادفنا مدير سجن نقرة السلمان فلما طلبنا منه الكتب المقدسة ضحك ضحكة مستهترة وقال:

- حتى نرفض طلبكم لتقولوا حتى الكتب المقدسة منعوها عنا. لن تروا كتاباً ما دمتم هنا!

وبقينا فعلاً بلا ورقة نقرأها حتى ثورة ١٤ / تموز ١٩٥٨ بعد عدة أشهر كانت الخطة الجهنمية الجديدة من وضع لجنة مكافحة النشاط الهدام في حلف بغداد وكان مقرها في طهران وقيادتها امريكية وبالمعونة الامريكية حسب النقطة الرابعة بني جناح جديد في سجن بعقوبة حسب تصميم أمريكي، أشبه باقفاص النمور سيئة الصيت التي بناها الامريكان للأسرى الفيتناميين. وعندما وصلنا بعقوبة كان في دور البناء. يتوسطه ممر عرضه نحومترين وعلى جانبيه حجرات لاتزيد مساحة كل منها العشرة أمتار مربعة بما فيها المرحاض والمغسلة. وقد حشرونا نحن «الشيوعيين الخطرين» كل أربعة في حجرة واحدة. والباب لوح من حديد في أعلاه كوة ليراقبنا الحرس منها ويناولونا منها طاسات الطعام. وكان المدير يأتي أحياناً فيفتح الابواب لنخرج إلى الممر في صفين متقابلين ويمشي بينهما ليثرثر مع هذا الرفيق أو ذاك وقصده رفع الكلفة وتخدير اليقظة الثورية عند الرفاق فيجر لسان هذا أوذاك. وكان بعض الرفاق المتساهلين ينجر إلى رفع الكلفة إلى هذا الحد أو ذاك. ومع ذلك أخفق في أن يكسب أحداً.

وفي بداية وصولنا من سجن نقرة السلمان سألني المدير هل وصفي طاهر ابن عمك؟ فتوجست خيفة من سؤاله عن وصفي وكان ضابطاً في الجيش فقلت له بعدم اكتراث:

- إنه من أقربائي الأبعدين. لابعد الشبهة عن وصفي. فأعلن المدير استياءه من عدم اكتراثي وامر العريف بحلاقة فروة رأسي عقاباً وراح يراقبني بغيض كلما يلقاني. وعندما أوليه ظهري كان يخرج لسانه تهكماً.

وقبل أن نتوزع على الزنزانات كنا في إحدى داري السجن سوية وبعد ذلك وضعوا في الدار الاخرى السجناء السياسيين الذين استسلموا للعدو وكانوا ينتظرون العفو الخاص وإخلاء سبيلهم.

كان الحزب ينفتح ويتجدد بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي. وفي تشرين الثاني /١٩٥٦ صفي انشقاق راية الشغيلة وغير الحزب إسم جريدته «القاعدة» فأصبحت «اتحاد الشعب»

ونجح في إقامة «جبهة الاتحاد الوطني» في آذار ١٩٥٧ مع الاحزاب الوطنية المعارضة وكنا نسير وراء الحزب بصعوبه جراء الجمود العقائدي والتركة الستالينية. وعندما تسلمنا تقرير «الكونفرنس الثاني» أي المجلس الحزبي الثاني المنعقد في ايلول /١٩٥٦ كنا نتحلق في حلقات متتابعة لندرسه وكان معنا كريم أحمد السكرتير السابق للجنة المركزية وقد حكم بالحبس توا. كنا نناقش التقرير بحرية وبالشكل الحاد والجاد اللذين اعتدنا عليهما في مناقشاتنا السابقة فانتهرنا كريم احمد (عريان) منظم حلقتنا بعنف على «الاستهتار بالحزب» و«العداء لسياسته» و...الخ وكانت هذه أول معرفتي بكريم أحمد. كان التقرير متأثراً بالاتجاه الجديد الذي رسمه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفيتي الذي كشف عن أخطاء ستالين. وكان التقرير يتوقع تحرر العراق بالطرق السلمية. وقد صححت الحياة هذا التوقع بعد شهر واحد عندما اندلعت أزمة قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر والانتفاضة الشعبية التضامنية مع مصر في العراق والقمع الوحشي لها. فصححت اللجنة المركزية توقع الكونفرنس الثاني الذي جاوز الحد في تفاؤله السلمي ولم يتطرق التقرير إلى الاصلاح الزراعي في بلد غالبيته من الفلاحين وجل المساحة المزروعة (٨٠٪) فيه بحيازة كبار الملاكين والاقطاعيين والاهم من ذلك كله تنازل الحزب فيه مقدما عن دوره كشريك طبيعي في حكومة الثورة، معلنا تعهده بدعم الحكومة الآتية إذا ما نفذت البرنامج «حتى إذا لم يشارك فيها» وقد خلق هذا التنازل السخي للبرجوازية الوطنية، صعوبات كبيرة بعد انتصار ثورة ١٤ / تموز عندما أخذ الحزب يدعو إلى تشكيل حكومة ائتلافية من الاحزاب الوطنية كافة بما فيها الحزب الشيوعي العراقي.

وحتى عندما حشرونا في الزنزانات الجديدة لم ننعزل تماماً عن حياة الحزب ولا عن بقية السجناء السياسيين. لقد اعتمد العدو في عزلنا على الجدران الصماء والابواب الحديدية والاقفال الامريكية من ماركة «ييل» والحراس الأجراء المنحدرين من سلالات البروليتارية الرثة وكان هؤلاء بشر من لحم ودم ومواطنين بؤساء مرهقين بالخفارات ليلا ونهاراً وأجورهم شحيحة وعندهم أطفال يتأثرون بأبناء الشعب ويؤثرون على أبائهم. فلم يكن من الصعب علينا كسبهم وجعلهم صلة حية بحزبنا وشعبنا وليس مجرد آلات صماء أو سلطة علينا بيد العدو. وكان علينا أن نشخص اطيب العناصر. وكان هؤلاء أحياناً هم الذين يبادرون بالتطوع لخدمتنا كمراسلين بيننا وبين اهلنا وحزبنا.

وقد وضع العدو سياجين من قضبان الحديد بارتفاع مترين وبفاصلة مترين بينهما يسير الحرس فيها في حين يكون السجناء وراء أحد السياجين واهلوهم وراء السياج الآخر. ويتصايح الطرفان ليسمع كل منهما الآخر في ضجيج يصم الاذان ولا يمكن السماع الا بتدريب الاذن وتطبيعها على التقاط الموجة الصوتية لمحدثه.

وذات مرة دخل علينا في الزنزانه المدير العام للسجون عبد المجيد وكان زميلاً لي في الصف السادس في المدرسة المأمونية الابتدائية وسألنا عما إذا كان عندنا مطلب فشكوت إليه أمر السياج الحديدي الجديد الذي يعزل بين الزوار والسجناء وقلت له هذا مظهر غير إنساني فقال:

- هذا ضروري لئلا يناولكم أهلكم المناشير الشيوعية! فأجبته:

- ولكن الشرطي يقف على رؤوسنا في كل مواجهة. فقال:

- تعطوه درهماً.

وكان هو من قبل ضابط كبير في الجيش ويحتقر الشرطة احتقاراً مسلكياً كما كانت العادة في الجيش العراقي.

وعندما كان الحوار يدور بيننا كانت نسخة من آخر عدد من جريدة الحـزب المركزيـة مخفيـة تحت قدمي طي البطانية. ولو كان بيروقراطيونا محبين للفكاهة لاخرجت له النسخة وقلـت لـه: يعني مثل هذه!

كنا أربعة في الزنزانة مهدي حميد وآرا وبهاء وأنا ننتعش عندما نتلقى البريد الحزبي السـري. نقرأه ونناقشه ونرد عليه ويبقى جـل وقتنـا فراغـا فنتحـدث حتـى تفـرغ جعبتنـا مـن الاحـاديث ونصغي إلى نشرات الاخبار من المذياع كما يصوغها مطبخ نوري السعيد للدعايـة ونطـرب لمقامـات القبانجي وصوته الاوبرالي. وتنتهي الاذاعة ويسود الصمت الثقيل كالرصاص البـارد. ويتنـاقش آرا وبهاء وتتطور المناقشة إلى سجال بينهما والسجال إلى مشـادة والمشـادة إلى صيـاح فينبههـم مهـدي حميد ويعود الصمت الرهيب فترة غير قصيرة وأقطعه بمناشدتهما بـالعودة إلى السجال وإلا كيـف ينتهي الوقت في هذا الحبس الانعزالي:

- الا بالله عليكما تناقشا!

وأقص عليهما قصة عجائزنا. يلتقين بعد فراق طويل فيتعالى البكاء وتنهال دموع الفـرح باللقـاء اودموع الاسى على مـن مـات في فـترة الفـراق وينتهـي اليـوم الاول بـالحديث عـن شـتى الشـؤون والشجون حتى يفرغن ما في جعبتهن ويمر اليوم الثاني بسـلام وخيـم ويـأتي اليـوم الثـالث فتبـدأ الماحكات ثم المشادة ثم الصياح وهكذا وإلا فكيف يملأن فراغ حياتهن. أراد العدو أن يفرغ حياتنا أن يدفننا ونحن أحياء في هذا السجن الامريكي. وكان هذا السجن تقديراً من العـدو لخطرنـا علـى حلف بغداد والاستعمار والنظام الملكي الرجعي العميل.

سألني مضمد السجن في عيادته وكان فيها حب للماء وهو كوز لترويق الماء:

- ما الفائدة من صمودكم في هذا السجن الرهيـب؟ مـاذا تسـتطيعون أن تفعلـوا ازاء هـذا النظـام الراسخ!

وكانت اموال النفط تتدفق والاقتصاد الوطني يمر بدورة انتعاش ورواتـب الموظفـين وامتيـازاتهم تزداد فقلت له:

- انظر إلى هذا الحب وانظر إلى الناقوط من تحته نقطة فنقطة ويتسرب الماء تحت هـذا الجـدار المتين نقطة فنقطة فيهد أسسه وأخيراً يأتي واحد ويدفعـه مـن كتفـه فينقـض هـذا الجـدار القـائم ويصبح ركاماً.

وبعد أيام انهار جدار النظام الشامخ بدفعة مـن كتـف مسلح قـوي بعـد أن هـدّ أسسـه شـعبنا بنضاله الشاق الطويل وتضحياته التي لاتحصى.

وإذ بقينا الثلاثة قيد الحياة فقد استشهد مهدي حميد منظمنا بطلاً على مشنقة ٨/شباط/١٩٦٣ وقد ترك وصية ملؤها ثقة بالمستقبل وناشد فيها الحزب الديموقراطي الكردستاني أن يتحالف مـع الحزب الشيوعي. كان له قلب أسد ولكنه برئ براءة الاطفال.

49

إرهاصات الثورة

في السنتين السابقتين لثورة ١٤/ تموز تغيرت الاحوال في الحزب والحركة الوطنية في العراق فقد تولى حسين الرضي (سلام عادل) مسؤولية السكرتير الاول للجنة المركزيه وبادر بالتعاون مع جمال الحيدري مسؤول راية الشغيلة خارج السجن إلى تصفية الانشقاق وكذلك انضمت للحزب كتلة «النضال» التي يرأسها عزيز شريف وأخوه رحيم شريف وهكذا توحد الشيوعيون العراقيون كافة فتعززت قوى الحزب إلى حد بعيد وازداد وزنه النسبي في الحركة الوطنية وتكللت جهوده بالنجاح في لم شعث الحركة الوطنية في جبهة الاتحاد الوطني في آذار ١٩٥٧ وارتبطت حركة الضباط الاحرار في الجيش بقيادة عبد الكريم قاسم عن طريق وصفي طاهر بالاتصال بالحزب مباشرة مع حسين الرضي وكذلك عن طريق رشيد مطلك رسوله الخاص وعامر عبدالله. وكان عامر عبدالله لايزال محاميا شاباً متحمساً عندما زارنا في سجن الكوت بعد فشل هروبنا الاول وعندما التقينا من جديد رفاقنا في سجن نقرة السلمان زكيناه أمامهم بحضور حسين الرضي الذي قدم عامر بسرعة على سلم القيادة إلى المكتب السياسي بعد أن تولى هو منصب السكرتير الاول وكان العضو الثالث في المكتب السياسي جمال الحيدري.

تأثر الرضي إيجابياً بالمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي والمصارحة التي سادت فيه وقد كافح بعض المظاهر الضارة بين الرفاق كالمخاشنة والتوتر وطور القيادة الجماعية في مختلف المستويات فانتعش الحزب والحركة الوطنية والتقى حسين الرضي كامل الجادرجي في سبيل اقامة الجبهة الوطنية وحصلت مشادة بينهما بسبب تحامل الجادرجي الذي كان زعلاناً على الحزب إذ قال:

- شوفوا وجوهكم بالمرأة...

وتعني باللغة البغدادية أن وجوهكم ملطخة بالعار! فدس حسين الرضي يده في جيبه وأخرج صورة قادة الحزب الثلاثة فهد وحسين الشبيبي وزكي بسيم وقدمها للجادرجي قائلا:

- هذه هي وجوهنا!

فخجل الجادرجي واعتذر.

وفتش حسين الرضي عن الشيوعيين القدامى المهملين والمنكفئين واتصل بهم وعزز ثقتهم بالحزب وحركهم للعمل من جديد وكان من بينهم داوود الصايغ ويوسف متي. وكان حسين الرضي يرى أن فهد كان متشددا مع الشيوعيين القدامى أكثر مما ينبغي أحياناً. بيد إن تساهل حسين الرضي أيضاً لم يكن في محله أحياناً. ومع ذلك فقد سار في الاتجاه الصحيح على العموم ولعب دوراً كبيراً في اعادة بناء الحزب وتماسكه واعادة ارتباطاته بالجماهير وبالقوى الوطنية الاخرى. لقد صحح إنعزالية باسم وترددات عريان. كان حسين الرضي سياسيا ودبلوماسياً حاذقاً وبطلا كما أثبت ذلك أمام جلاديه انقلابيي ٨/ شباط/١٩٦٣ الفاشست.

وبجرأة قدم على سلم الكادر الحزبي شبانا واعدين كانوا جنود الحزب المجهولين من أمثال محمد صالح العبلي. ولما علم الحرس القديم في السجن بهويات القادة الجدد الذين اصطفاهم حسين الرضي استاءوا وطفقوا يقذفون القيادة الجديدة بالرسائل المقذعة إذ اصبحت القيادة بنظرهم بيد «الرعاع» وكان هذا الجيل من القادة يعبر عن النهوض الثوري الجديد. وهو ما كانوا يشككون فيه. وبعد أن خرجوا من السجن بعد ثورة ١٤/تموز/١٩٥٨ إلتقاهم حسين الرضي منذ اليوم الأول وأنبهم بلباقة على ضعف ثقتهم بالشعب وبالثورة الامر الذي انعكس على تصرفاتهم في السجن.

50

ثورة ١٤ تموز

أصبحنا فوجدنا المذياع صامتاً صمتاً مريباً. والحال كنا نسمع صوتاً مهيباً متواصلاً يبثه مذياع بعيد عنا وسرعان ما بشرنا أحد الحرس بالثورة فلبثنا قليلا بانتظار الخبر اليقين. فانطلق المذياع في جناحنا كاسراً الصمت الذي فرضة علينا جلاوزة حلف بغداد. فسمعنا البيان الاول فأطبقنا افواهنا لتنبجس الدموع الغالية شأننا شأن الملايين السبعة التي انطلقت لتوها إلى الشارع. وبقي الريبيون ينتظرون بقلق مصير نوري السعيد عميل الاستعمار الهرم فاكتشفه أحد أبناء الشعب محجبا بحجاب إمراة وأرداه وصفي طاهر قتيلا برصاصات رشيشة وتنفس القلقون الصعداء. ورفض إبن الشعب الذي اكتشفه أن يأخذ الجائزة السنية المعلنة لمن يعطي معلومات تكشف عنه.

وجاء جلادنا ليطلق أبواب الزنزانات فتمازجنا مع رفاقنا جميعاً وتعانقنا في جو طافح بالسعادة. ولم يكن مكوثنا في السجن عبثاً بأي حال من الأحوال. كنا قدوة للتضحية والفداء ونكران الذات بمجرد صمودنا أن لم يكن لشيء آخر.

وبقيت أبواب السجن الخارجية موصدة في وجوهنا ودماؤنا تغلي. كان السجن بعيداً عن البلدة الصغيرة وسكانها لم يصلوا إلى أبواب السجن والعدو من أجل هذه الاحتمالات اختار اختاره لنا. وبعقوبة تعني بالسريانية بيت العيقب إذ كانت في الماضي البعيد مقر الكهنوت المسيحي كما كانت بغداد تعني بيت الغنم كناية عن دار السلام وقد غدت الغنم أسوداً وحمل الكهنوت السيف.

أصبحت كل ساعة علينا ألف ساعة فالبرجوازية تعطي الحرية بالقطارة نقطة فنقطة. فقد جزأت العفو العام وفق البرنامج إلى إعفاءات خاصة بالمفرق ولم تسمح للشيوعيين اليهود بالبقاء في وطنهم بل ارسلتهم هدية إلى اسرائيل بالاضافة إلى مئات الالوف الذين أهداهم نوري السعيد. ولاذ بعضهم بالاسلام ليبقوا على أرض الوطن ولكي تكيل لهم الصحافة المعادية للديموقراطية الاهانات بين الفينة والفينة.

وعندما جاء دورنا للخروج من السجن لم يطلقوا سراحنا لنسير على هدانا بل سلمونا إلى الشرطة المسلحة لتسلمنا إلى مركز شرطة السراي حيث مقر الشرطة العام في بغداد ونبقى تحت الحراسة لنودع رفاقنا اليهود المبعدين إلى اسرائيل. وبعد حلول ساعات منع التجول فقط أطلقوا سراحنا.

لم نتمتع بالعفو بل بانتهاء محكوميتنا. والفرق عما قبل هو أنهم لم يبعدونا إلى تركيا. ومع ذلك لم يفسدوا سعادتنا فها نحن في قلب الثورة وقد دخلت اسبوعها الثاني ونحن الذين كرسنا حياتنا وأرواحنا من أجل حراثة أرضها. وجاء حسين الرضي في المحطة الأولى من حريتنا أي في

بيت حسن النهر المضياف والمشرع الأبواب للسجناء السياسيين الطلقاء وللرفاق بوجه عام. وفي أول امسية حرة ليتفقدنا ويهنئنا. وجاءت أمي مزغردة تشع سعادة وأخذت تعانق أبناء الثورة ورجالها. كانت كلمات الرفاق وقد عمدتهم نيران الثورة صادقة نظيفة منعشة وملهمة كنسائم الثورة ذاتها وذهبت مع أمي إلى البيت حيث التقيت الأهل صغاراً وكباراً وقد اضفت عليهم الثورة بهاءها وعنفوانها.

جاءتني أختي زكية بعريضة عمومة مصري وسعدية مشعل لانقلها إلى رئيس حكومة الثورة عن طريق وصفي طاهر ليبقين في وطنهن ومن ثم زرتهن في السجن لاطمئنهن باحتمال تلبية طلبهن. وكان قلبي متحيزا لوحدة منهن وما بي من حيلة. لم أكن قد ودعت بعد شبابي بقلب باكي ولم فها أنا الذي بلغ السابعة والاربعين وأمضى نحو ثلثها في السجون والنفى قد ولدت ثانية. ورحت أسعى لأبني عشاً.

51

إشكاليات التحالفات الاجتماعية وجبهة الاتحاد الوطني

قام حسين الرضي السكرتير الأول الجديد للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي بزيارة كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديموقراطي في ربيع ١٩٥٧ تمهيداً لعقد جبهة الاتحاد الوطني. قدم الجادرجي شروط التحالف إلى حسين الرضي،وقد نشرت فيما بعد في مذكرات الجادرجي، وأذكر منها: أولاً: ألا يبشر الحزب الشيوعي العراقي بمراحل الثورة. والمقصود الثورة غير المنقطعة التي بشر بها ماركس: من الثورة الديموقراطية إلى الثورة الاشتراكية من دون فترة انقطاع بينهما. وثانياً أن لايقوم الحزب الشيوعي بنشاط مستقل يضع الاحزاب الاخرى أمام الأمر الواقع. وثالثاً: ولم يضع هذا الشرط الثالث كشرط من الشروط بل كأمر مسلم به هو أن يكون هناك «مرجع» للجبهة ولم يسمه قيادة ولم يشترط نفسه مرجعاً من باب التواضع بيد أنه كان من المسلم به سواء في أوساط المعارضة أم لدى الطبقة الحاكمة، أن الجادرجي هو عميد المعارضة أياً كان تركيبها.

وهكذا وجد الجادرجي حلاً للمعادلة الصعبة وهي أن يستعمل الحزب الشيوعي كقوة جماهيريه ضاربة وأن يضع حداً لنشاطه المستقل ولطموحه لتطوير الثورة ودفعها إلى أبعد من المدى الذي تريده البرجوازية لها.

ولم يشترط الجادرجي التوقيع على اتفاقية خطية، بل على اعتبارها اتفاقية جنتلمان لفرط لطفه ولياقته.

وكان الجادرجي يعلم جيداً أن مجرد الاعتراف للحزب الشيوعي بالنشاط المستقل واطلاق العنان له سوف يؤدي إلى احتلاله المركز القائد في الحركة الوطنية، أعترفت الاحزاب الاخرى بذلك أم لم تعترف. ومن هنا قلقه. ومما لم يتنبه اليه قادة الحزب الشيوعي العراقي بعد فهد أن الأحزاب الأخرى لا تتحالف معهم ولو لساعة واحدة الا في حالة الضرورة القصوى وعندئذ على الحزب أن يمتنع عن أي تنازل على حساب المبادئ أو الاستراتيجية. وكان هناك اختلاف بين الاحزاب وحركة الضباط الاحرار.فهؤلاء كانوا يريدون إسقاط الملكية واعلان الجمهورية واعدام عبد الإله والملك في حين كانت الاحزاب تريد تغيير الحكومة. وكان هذا الخلاف أحد أسباب استعلاء الضباط وعلى رأسهم عبد الكريم قاسم على الاحزاب التي كانت مع الابقاء على فيصل الثاني متمثلة بمثال رومانية في بداية النظام الديموقراطي الشعبي فيها. وكان الجادرجي من بين قادة الاحزاب المعارضة يتميز بموقف الارتياب من نوايا العسكريين على العموم بناء على تجربته السلبية معهم بعد انقلاب الجنرال بكر صدقي. وفشل الائتلاف المتناقض بين المدنيين ذوي النزعة الديمقراطية والعسكريين ذوي النزعة الفاشية والميالين إلى دول المحور. ولهذا طرد الجادرجي

رشيد مطلك وزجره عندما زاره في السجن ليبلغه رسالة عبد الكريم قاسم الشفوية بدنو موعد الانقلاب الذي تحقق بعد أيام قلائل مطالباً بتأييده على الفور.

كان الجادرجي حذراً جداً ولاسيما وهو في السجن أما حسين الرضي فقد قطع لرشيد مطلك وعداً صادقاً وحازماً بان يدعم الانقلاب وعليه أن يبلغ الزعيم عبد الكريم قاسم «إن العمالة (عمال البناء) حاضرون» كناية عن استعداد الحزب الشيوعي لاسناد الانقلاب العسكري جماهيريا فور إعلان البيان الأول.

وكان عبد الكريم قاسم قد رفض من قبل اقتراح الحزب الشيوعي بأن تكون المظاهرات الجماهيرية هي فاتحة الثورة فيأتي العسكريون لاسنادها وأصر هو على أن يكون الانقلاب العسكري هو الفاتحة وكان له ما أراد.

وكانت الاهداف المتفق عليها:

- تنحية الوزارة السعيدية وحل المجلس النيابي.
- الخروج من حلف بغداد وتوحيد سياسة العراق مع سياسة البلاد العربية المتحررة.
- مقاومة التدخل الاستعماري. وانتهاج سياسة عربية مستقلة أساسها الحياد الايجابي.
- إطلاق الحريات الديموقراطية الدستورية.
- إلغاء الادارة العرفية وإطلاق سراح السجناء والمعتقلين والموقوفين السياسيين وإعادة المفصولين لأسباب سياسية.

وقد روى لي رشيد مطلك أن عبد الكريم قاسم كان يريد أن يعهد بالحكومة الإنتقالية إلى المعارضة المدنية أي إلى الاحزاب السياسية وإنه فاتح الجادرجي فيما إذا كان مستعداً لتولي هذه المهمة ولكن الجادرجي رفض ذلك ملقياً مهمة الفترة الانتقالية على عاتق العسكريين أنفسهم. أن هذه الرواية تتناقض مع روايات أخرى أكثر تواتراً تقول: أن قيادة الضباط الاحرار كانت اميل للانفراد بالسلطة ومناصبها.. كان الجادرجي يدرك صعوبة المهام الانتقالية في الثورة فلم يشأ أن يتورط مباشرة في تحمل مسؤولياتها الجسيمة التي تجره إلى صراعات حادة مع الاخرين أو إلى اتخاذ مواقف حدية كان هو يتجنبها طوال حياته السياسية وبكلمة تجنب التعاون مع العسكريين لبالغ ريبته بامانتهم في الحفظ على العهود بناء على تجربته مع بكر صدقي وضباطه.

والحال كان لابد من فترة انتقالية، كان لابد من حكومة ثورية انتقالية قادرة فعلاً على تحقيق هذا الانتقال وعلى قمع اعداء الثورة والديموقراطية بالعنف. وهذا ما كان يخشاه الجادرجي كخشيته من العسكريين ونكثهم بالعهود. وكان على الجادرجي وقد وضع نفسه في الوسط أن يعتمد على أحزاب اليسار لتحصين نفسه ضد العسكريين. ولكن حذر الجادرجي من اليسار لم يكن أقل منه إزاء العسكريين. ذلكم هو المأزق الذي أجهض مع أسباب أخرى ولادة الديموقراطية البكر في العراق.

وبالمناسبة فقد اطلقت ثورة ١٤/تموز سراح الجادرجي في نفس اليوم فتوافد عليه المهنئون من كل حدب وصوب في مساء ذلك اليوم التاريخي الأغر. ويروي ممثل الحزب الشيوعي عزيز الشيخ وكان بين المهنئين الاوائل: إن الجادرجي كان غضباناً ومحتجاً على «طغيان الحزب الشيوعي» ولكن كيف؟ ..لأن جدران بغداد قد غطيت بشعاراته ـ وكانت جميعها شعارات وطنية وديموقراطية وليس بينها شعار إشتراكي واحد رغم إنها كانت على الاغلب الأعم من صياغة الشيوعيين. وقد نسي الجادرجي أن ظهور الكتابة على جدران أريحا كان إيذاناً بسقوط الدولة القديمة كما جاء في الكتاب المقدس.

كان الميثاق الوطني الثاني للحزب ينص على الهدف الرئيس للحزب الشيوعي العراقي «جمهورية ديموقراطية شعبية للعمال والفلاحين و..الخ» مع طرح البرجوازية الوطنية خارجها. وقد تخلى الحزب عن ذلك الميثاق المتياسر المتطرف عندما تولى حسين الرضى القيادة ولم يتوقف الامر عند هذا الحد بل تعداه. فان المجلس الحزبي «الكونفرنس الثاني» في ايلول ـ١٩٥٦ تخلى حتى عن مطلب مشاركة الحزب في الحكومة الائتلافية حتى في الفترة الانتقالية وتعهد الحزب الشيوعي بأن يؤيد أية حكومة تأتي لتنفيذ البرنامج الانتقالي لجبهة الاتحاد الوطني وان لم يكن له فيها من يمثله.ولم يكن لهذا السخاء على حساب الحزب ما يبرره في الظرف الثوري. وكان تفريطا بدور الحزب في النضال من أجل تحقيق الديموقراطية في العراق وبالتالي تفريط بالديموقراطية ذاتها. وعندما أراد الحزب أن يصحح هذا الخطأ بعد الثورة جوبه برد فعل عنيف من حلفائه ولم يفلح في إقامة الحكومة الائتلافية القادرة على تحقيق الديموقراطية .فقد ضمت حكومة قاسم وزراء من مختلف الميول والاتجاهات تحت رئاسة جنرال يرى نفسه «فوق الميول والاتجاهات» لم تكن حكومة ائتلافية ، بل كان رئيسها يستوزر من يشاء ويعفي من يشاء وهو على كل شيء قدير والكلمة الاخيرة له دائما. وقد أراد باستيزار الرفيقة نزيهة الدليمي أن يقتل بحجر واحد اكثر من عصفور. كأن يسترضي الحزب الشيوعي بعد رفض مشاركته في حكومة ائتلافية يرأسها قاسم نفسه ، وأن يظهر حكومته بمظهرٍ حضاري إذ يضم من تمثل المرأة العراقية لأول مرة في تاريخ العراق المعاصر. وكان قاسم مغرماً بالاولوية في الشرق الاوسط في كل شيء ،كالجسر المعلق ، مثلا.

أوقف عبد الكريم قاسم زخم الثورة الوطنية الديموقراطية وراح ينفذ بعض اهدافها: إصلاح زراعي جزئي ، الانسحاب من حلف بغداد الذي اصبح يدعى بعد ذلك «السنتو» تأميم ٩٩,٥ ٪ من مساحة امتيازات النفط التي كانت تغطي مساحة العراق برمتها. ولم يحقق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة. فإن ما اتفق عليه الضباط الاحرار بما فيهم أشد الوحدويين حماسة وغيرة هو أن لا تطلب حكومة الثورة الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة إلا في حالة واحدة وهي التدخل الاجنبي المسلح ضد الثورة. ومع ذلك أخرجت الاحزاب الوحدوية بطاقة الوحدة فيما بعد كجواز يوصلها إلى سدة الحكم بعد الإطاحة بخصومها «الشعوبيين» يعني غير المؤمنين بالوحدة الاندماجية الفورية والتنكيل بهم. وعندما توالت تلك الاحزاب على سدة الحكم لم تخطو خطوة فعلية واحدة نحو الوحدة لامع الجمهورية العربية المتحدة ولا مع الجمهورية السورية الشقيقة العربية والجارة الملاصقة للعراق بل كل ما جرىٍ كان على النقيض من ذلك فقد غدت العلاقة المتوترة المزمنة بين العراق وسوريا ليس أقل توترا مما عليه بين أية دولتين متجاورتين متخاصمتين في عالم اليوم.

لقد تفرق شمل «جبهة الاتحاد الوطني» بعد انتصار ثورة ١٤/تموز وراحت أحزابها تتطاحن فيما بينها ففقدت زمام المبادرة السياسية وعض العسكريون بالنواجذ على زمام السلطة السياسية وراحت الاحزاب السياسية تحتمي بهم وتحرضهم بعضها على بعض.

52

نهاية جبهة الاتحاد الوطني وتعثر مسيرة الثورة

في صباح الاثنين ١٤/تموز /١٩٥٨ جلس وزراء الثورة على مقاعدهم الوزارية واستقبلوا المهنئين. وقد زار ممثل الحزب الشيوعي وزير المالية محمد حديد الشخصية التي تلي الجادرجي في قيادة الحزب الوطني الديموقراطي وهنأه ثم فتح معه موضوع نشاط جبهة اتحاد الوطني التي حظرت سياسياً للثورة، فسكب الوزير دلو من الماء البارد على رأس ممثل الحزب إذ رد عليه بهدوئه المعهود:

- انتهى دور الجبهة الآن لأن الثورة تحققت.

وهكذا رأت البرجوازية الوطنية حالما انتقل إليها السلطان أن الحاجة إلى التحالف مع الحزب الشيوعي كقوة سياسية معبئة للجماهير قد انتهت. وكان الحزب الشيوعي الحزب الوحيد غير ممثل في حكومة الثورة.

ومع إن حكومة الثورة ضمت ممثلين من جميع الاطراف الاخرى المساهمة في جبهة التحاد الوطني عدا الحزب الشيوعي كما ضمت ممثلين عن الضباط الاحرار فانها في الحقيقة لم تكن حكومة ائتلافية بل كانت بالأساس حكومة عسكرية يهيمن عليها بقبضة من حديد عبد الكريم قاسم الذي يحمل أكبر رتبة عسكرية بين الضباط الاحرار وهو الذي قاد الانقلاب المسلح «القابلة المولدة» للثورة في صباح ١٤/تموز وتولى منصب «القائد العام للقوات المسلحة» كما تولى منصب رئيس الوزراء وعين «مجلس السيادة» وأعضاءه وأصبح «أنا الدولة والدولة أنا» على حد تعبير لويس الرابع عشر. وكانت هذه النتيجة الطبيعية بالنظر لتخلي الاحزاب السياسية للعسكريين عن تولي مسؤولية الحكم مقدماً. وكان العسكريون يفتقرون إلى الخبرة في ادارة شؤون الدولة فعهدوا باكثر المناصب الوزارية إلى ممثلي الاحزاب السياسية عدا الحزب الشيوعي. والحال كانت الكلمة الاخيرة دائما لعبد الكريم قاسم وكان وزراؤه العسكريون رهن اشارته وكان هو الذي يختار الوزراء الحزبيين ولم تكن أحزابهم هي التي تعينهم. وهكذا خسرت الاحزاب السياسية الحكم مسبقاً قبل انتصار الثورة لانها لم تشترط سلفاً قيام حكومة الجبهة الوطنية المؤلفة من ممثلي كافة أحزابها ولم تنظر إلى الجبهة إلا كحلف سياسي مؤقت للمعارضة ينتهي بانتصار الثورة أي باسقاط الحكم القديم.

وبدلاً من استمرار التعاون بين الاحزاب السياسية حلت المزاحمة والاصطراع على النفوذ معتمدة على نفوذها بين ضباط الجيش. وكانت الاكثرية بين هؤلاء خاضعة بحكم الانضباط الوظيفي للقائد العام. وكانت أكثرية الضباط الحزبيين تنتمي إلى الاحزاب القومية «الوحدوية» وأقلية صغيرة بادئ ذي بدء كانت من أعضاء الحزب الشيوعي. ولذا بقي الحزب الشيوعي بلا

جريدة حزبية علنية طيلة ستة أشهر بعد الثورة وقد منح بعدها إجازة إصدار جريدته «اتحاد الشعب» بعد تنظيمه حملة جماهيرية واسعة جمع خلالها ٢٠٠،٠٠٠ توقيع في حين استولت الاحزاب الاخرى على الصحف الملكية ومطابعها بفضل تحيز وزير الداخلية عبد السلام عارف الشخصية العسكرية الثانية، تحيزاً حاداً ضد الحزب الشيوعي ومحاباته الصارخة للاحزاب «الوحدوية».

وقد احست اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بالغبن الذي لحق بالحزب. وفي اجتماع اللجنة المركزية في ايلول ١٩٥٨ وضعت يدها على التناقض بين تركيب الحكومة وتركيب القوى التي حققت الثورة فاقرت المطالبة «بإزالة التناقض» أي بضرورة تمثيل الحزب الشيوعي في حكومة الثورة. وكان عبد الكريم قاسم على استعداد في الوقت المناسب له، اختيار أحد الشيوعيين بنفسه وتعينه في منصب وزاري. ولكن هذا لايعني إنه كان يريد حكومة ائتلافية من ممثلي الاحزاب يفرضون عليه ارادتهم الجماعية أي ممارسة الحكم بإرادة الاكثرية كما تعنيه الديموقراطية بالضبط بيد أن «الوحدويين» لم يكونوا على استعداد حتى لتنصيب وزير شيوعي كيفما كان كما لم يكونوا مع تأليف حكومة ائتلافية تمثل الاحزاب بمعنى الكلمة بل كانوا مع الحكم الفردي كما كان الحال في مصر عهد ذاك. أما بالنسبة للحزب الشيوعي فقد كانت قيادة قاسم للحكومة أمراً مفروغاً منه وليس موضوع مناقشة. وقد حدثني حسين الرضي اكثر من مرة. إن قاسم أكد قبل الثورة لممثلنا لدى الضباط الاحرار، فاضل البياتي، إنه سوف يحول العراق خلال سنتين من الثورة إلى «جمهورية شعبية»! وكان حسين الرضي مطمئن البال من هذه الناحية. وقبل انتهاء السنة الاولى من الثورة ألقى قاسم خطابه سئ الصيت في كنيسة مار يوسف حيث هاجم الحزب الشيوعي بضراوة وحقد دفين. وقد حدثني حسين الرضي عن ظنونه بقاسم فقال:

ـ إنه أراد أن يتعامل معه كما تعامل الشيوعيون الصينيون مع الزعيم الديموقراطي الثوري صن يات صن وكسبوه إلى جانبهم.

وشبه لي قاسم بحجر مؤشرا بالابهام والسبابة الوسطى متقابلة قائلا: فبدلاً من أن تدع الحجر يفجخ رأسك الافضل أن تبتلعه!

كان حسين الرضي غير ملم جيدا بنشأة ومزاج الضباط العراقيين. فقد كان ذوو الطموح السياسي ومنهم قاسم وقبل أن يدخلون المدرسة العسكرية يحلمون بأن يكونوا نابليون بونابارت أو حتى الحجاج الجلاد الاموي للشعب العراقي.

وكان للجادرجي رأيه السلبي في العسكريين كما اسلفت ومع ذلك فان ساعده الايمن محمد حديد شارك بنشاط كبير في الاعداد للانقلاب بقيادة قاسم.

ولم أكن ضد استخدام الانقلاب العسكري كأداة لتسهيل ولادة الثورة في قطر كالعراق الذي لم يذق طعم الديموقراطية والذي يسوده حكم بيروقراطي بوليسي غاشم، رغم علمي بالنزعة البونابارتية السائدة بين ضباط الجيش وكانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وعلى راسها الرضي لا يشاركون الجادرجي رأيه السلبي بالعسكريين.

وأراد «الوحدويون» أن يهيمنوا على السلطة كما فعل اخوانهم في سوريا كممثلين لجمال عبد الناصر فرفعوا شعار الوحدة الفورية الاندماجية فاخافوا قاسم والاحزاب الاخرى. وكان الحزب الشيوعي من بينها إذ أن الوحدة الاندماجية أدت في سوريا إلى قيام حكم عسكري «مباحثي» ارهابي ليس فقط ضد الشيوعيين والديموقراطيين بل ضد جميع الاحزاب وبالمقابل رفع الحزب الشيوعي شعار «الاتحاد الفدرالي ..صداقة سوفيتية» فالتفت الجماهير حوله في مظاهرة

٦ / آب ١٩٥٨ في حين سار وراء شعار «الوحدة» الوحيد الذي كان بعرض الشارع عدة مئات من الوحدويين. فتنفست الصعداء الاحزاب الاخرى وعبد الكريم قاسم نفسه وازداد الحزب الشيوعي والجماهير التصاقا بعبد الكريم قاسم، كل من منطلقه.

كان الكرد وأكثرية العرب (الشيعة) أي نحو ثلاثة أرباع سكان العراق تخشى الوحدة الاندماجية، التي من شأنها ترجيح كفة الاقلية الطائفية السنية وهذا العامل السايكولوجي السلبي ضد الوحدة الاندماجية عبرت عنه جماهير النجف، مركز الشيعة الروحي بهتافها «جمهورية لا اقليم، ماكو زعيم الا كريم» وانجرف الشيوعيون مع الجماهير ولم يصمدوا أمامها.

إن تقديس عبد الكريم جاء تعبيراً عن الوطنية العراقية المتزمتة أو «الاقليمية» على حد تعبير الوحدويين وكانت البرجوازية العراقية ومعها جمهور البرجوازية الصغيره وفئات من العمال تريد أن تنفرد بثروات العراق الطبيعية ولا سيما النفط لتثرى منها هي نفسها. ونفس الاسباب أدت إلى إنهيار الوحدة السورية المصرية بعد أربع سنوات. وغدا الصراع في العراق بين الوحدة الاندماجية الفورية والاتحاد الفدرالي صراعا على السلطة، من الذي يحكم العراق ويدوس على عنق خصمه.

لقد اصطدمت تجارب الوحدة العربية بالوطنية القطرية التي جاء بها القرن العشرون ليشهد نهوضها والحال أن الاقطار الأوربية الغربية قد تجاوزت هذه المرحلة من التطور التاريخي ودخلت مرحلة تداخل الأمم واندماجها ببعضها.ومع أن مكونات الامة الواحدة لدى العرب ناضجة إلى هذا الحد أو ذاك فإن الخصوصية القطرية قد برهنت على إنها لاتزال هي الغالبة. وكانت مصيبة الذين قاموا بتجارب الوحد هي انهم لم يقدروا هذه الحالة حق قدرها فأصيبوا بخيبة الامل والاحباط وحتى التناحر.

ومما يميز سيرورة الوحدة العربية هو أنها تتزامن مع نضوج الوطنية القطرية وبلوغها أوجها لتدخل مرحلة التقارب والتداخل والاندماج بعضها ببعض في أمة عربية واحدة في ظل دولة واحدة، التي لن تكون مركزية مطلقة كما كانت الجمهورية العربية المتحدة (المصرية/ السورية) بل ستكون اتحادا فدراليا. فكيف يمكن تحقيق الوحدة الندماجية في بلاد تناهز مساحتها مساحة أمريكا الجنوبية؟!

إن حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق الذي كان يعتبر الاتحاد الفدرالي مؤامرة شيوعية لاحباط الوحدة ويصف أنصاره بالشعوبية قد برهن وهو على سدة الحكم على إنه أشد القطريين قطرية أو الاقليميين إقليمية وأنه يريد من الوحدة هيمنة قطره على الاقطار العربية الاخرى. ففي محاضرة ألقاها صدام حسين عام ١٩٧٨ قال أن العراق بحاجة إلى الاقطار العربية الاخرى كمصادر للمواد الاولية والخامات لصناعته الأخذة بالتطور وكأسواق لتصريف منتجاته.

وهذا يعني أن يكون العراق «المتروبول» أو المركز والأقطار العربية الاطراف أو التوابع. أين هذا من «الأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة!»

إن العلاقة الراهنة بين القطرين العربيين الجارين اللصيقين اللذين يحكمهما حزب البعث هي أسوأ علاقة بين أي بلدين جاريين. ومهما بلغت مسؤولية العامل الذاتي «القيادة السياسية» فإن لهذه الحالة الغريبة أسبابها الموضوعية أيضاً: طموح البرجوازية القطرية بما فيها البرجوازية الصغيرة للنمو والسيادة على حساب نظيرتها في القطر الاخر. والحال إن العامل يفضل الوحدة لأن الدولة الأكبر حجماً تتيح له فرصا أكثر للعمل كما قال لينين.

53

مولد جديد

بدأت حياة جديدة إذ خرجت من السجن ورحت أبحث عن جذوري في الارض من ناس وديار بعد انقطاع طويل. زرت عمي الشيخ أنور وكان بمثابة أبي بعد فراق مديد كما زرت آخرين من أقربائي عمومة وخؤولة. وقد أوعز لي الحزب بأن أزور كامل الجادرجي وأقدم له باسم السجناء السياسيين الشكر، وأنا أكبرهم سنا، لدفاعه عنهم في احلك الظروف.

وبالمناسبة أذكر زيارة البحاثة حنا بطاطو لي في سجن بعقوبة الانفرادي قبيل الثورة، منتدبا من جامعة برنستون الامريكية وتحت مراقبة مدير السجن ووكيل الامن زين العبدين. أبرز لي توصية وزارة المعارف العراقية لجميع الجهات الرسمية لتسهيل مهمته. فقرأتها وبقيت صامتا. فتدخل المدير قائلا:

ـ ما جدوى هذه التوصية بالنسبة له؟ أبرز له الشهادة الاخرى!

فأبرز لي بطاطو شهادة تحمل توقيع كامل الجادرجي يشهد فيها بأنه باحث موضوعي يمكن الوثوق به. وقال لي بطاطو انه زار الجادرجي عدة مرات في سجنه وإنه أملا عليه من الاحاديث ما ملأ بضعة عشر دفتر ملاحاظات اختزالا وأنه جاء المشرق العربي ليكتب تاريخ الحركة اليسارية فيه ولكنه بعد أن زار الجادرجي في محبسه غدا أكثر تواضعاً. فغزارة المادة التي جمعها في العراق اقنعته بان يكتفي بكتابة تاريخ الحركة اليسارية في العراق وحده.

وقال لي الجادرجي لدى زيارتي له إن بطاطو اقلقه عن اخبار صحتي في السجن وفي الحقيقة كنت لدى لقاء بطاطو مصابا بالانفلونزا ولم تكن صحتي على ما يرام.

ومن حسن الصدف أن التقي عند الجادرجي ولأول مرة الشيخ أحمد زعيم بارزان الروحاني .وقد أطلقت الثورة سراحه من السجن بعد سنين طويلة من الاقامة في زنزانة المحكومين بالاعدام في سجن البصرة. وكان معه أحد أبناء أخيه الملا مصطفى ليترجم للشيخ لأنه لم يكن يتكلم العربية بطلاقة. وقد جاء ليشكر الجادرجي أيضاً لدفاعه عن البارزانيين والكرد عموما. ولم تكن هذه المرة الاولى والاخيرة التي التقت فيها مصائر الشيوعيين والكرد.

كان الشيخ أحمد البارزاني شيخاً وقورا نحيفاً ممشوق القوام بادي الزهد والتقشف متحليا بمسحة من جمال الشيخوخة، وكان اتباعه ومريدوه يقدسونه باعتباره «خداي بارزان» أي سيد بارزان. وكأن الجادرجي أراد أن يمتحنه في دينه فذكره بـ: أيريد أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا؟! وأردف: إن بعض الشيوخ يحلل أكل لحم نوري السعيد ميتا فهل هذا حلال ام حرام؟

فرد عليه الشيخ احمد بداهة

ـ ولكن نوري السعيد لم يكن مسلماً لأنه كان يظلم المسلمين ويعذبهم.

صدق شيخنا البارزاني. إن من يظلم المسلمين ليس بمسلم مهما تظاهر بالاسلام وتشبث بحبال السماء وأسرف في العطاء لرجال الدين ودور العبادة.كما أن من يظلم البشرية ويعذبها ليس بانسان. فهل صدام حسين مسلم أو انسان؟!

ومن المعروف أن الشيخ أحمد في مجلسه كان يثني على الروس لانهم آووا رجاله وأكرموا مثواهم وصانوا كرامتهم طيلة ثلاث عشر عاما (١٩٤٥ ــ ١٩٥٨) وكان يتعاطف مع الشيوعيين العراقيين أيضا على هذا الأساس.

وبعد خروجي من السجن بقيت بضعة اسابيع مع أهلي في بيت أختي زكية. أجل عدت إلى أحضان أهلي بعد غيبة طويلة استمرت أثني عشر عاما كما لوكنت جنديا عائدا من الجبهة ليمضي إجازته عند أقرب الناس اليه. فإن أختي سميتي كانت بمثابة الام لي لان أمي كانت تفضل العيش مع أخي كامل وعياله وليس معي أنا الاعزب. وزكية أم لعشرة أطفال أحياء والاصغر سلام وكان في السابعة ويعزف بالصفير أي لحن يسمعه. وقد توفي في حادث حريق.وكانت أم فؤاد ناشطة في العمل الحزبي عهدذاك وقد وقع الحادث المؤلم في غيابها إذ كانت تقوم بزيارة السجناء السياسيين في بعقوبة. وقد نشطت أم فؤاد سياسيا لابتأثيري بل بتأثير ابنها الاثير نهاد. كانت العائلة بالاجمال متسيسة وكان رب العائلة علاء الدين البياتي وطنيا متدينا وهو رجل عصامي متخرج من مدرسة الصنائع في آخر سنوات العهد العثماني ومع ذلك كان يكتب مقالات قانونية ذات قيمة عن حقوق الاراضي.

كان جو العائلة صاخبا. وهذا ما كنت أحن إليه بعد غيبتي الطويلة وانقطاعي عن جذوري الطبيعية كل تلك الفترة. وكان بيت أم فؤاد يضج أيضا بالزوار من الجنسين: شيوعيين وشيوعيات ورابطيات أي مناضلات في سبيل حقوق المرأة قبل ثورة ١٤/ تموز وجاءت الثورة لتعطيه زخما هائلا.

كانت العائلة تسكن مدينة «الهادي» ضاحية الكاظمية وهي منطقة سكن شعبية وقد نظم إبن أم فؤاد سعدون ورفيق له اجتماعا محليا دعوني لالقاء كلمة فيه وقد حضرت الاجتماع وكان المنظمان أصغر الحضور سنا. وقد تحدثت لهم عن ضرورة اشتراك المرأة في النشاط الثوري لئلا تضيع الثورة. ولم أشعر بان الحضور كانوا متحمسين للفكرة. وكان الاجتماع على رصيف الشارع في الهواء الطلق إذ كان الجو قائضا. ولم تحضره أي امرأة.

وحضرت اجتماعين أخرين عقدا تكريما للسجناء السياسيين وفي الهواء الطلق مساء فكانت الحملان المحشية بالرز وافية وتقدم بسخاء وفي تلك الفترة التاريخية نحرت الخراف بلا حساب ابتهاجا بانتصار الثورة.

كانت العائلة تعيش في ضنك لكثرة الاكلين وقلة العاملين. وكانت أم فؤاد تأمل أن تستأجر بيتا أوسع وأن أعيش معهم لتزوجني. ولكن لم أكن أملك شروى نقير وليس لدي سوى سروال وقميص ومن دون سترة ولم أكن بحاجة إلى هذه لان الوقت كان صيفا.

وقد شاء الحزب أن يسكنني مع عائلة حزبية يعيلها الحزب فلم يسعفني بأي مبلغ من المال فلم أستطع تقديم أي مساعدة لأختي بل لم أدفع لها شيئا لقاء معيشتي في بيتها وقد المني ذلك. أما هي فلم تسألني أي شيء وكنت أشفق عليها لكثرة مصاعبها وتحملها مسؤولية عائلة كبيرة بذلك الحجم. وكانت هكذا معظم الوقت. ومع ذلك كانت تجد الوقت المكرس لنشاطها الحزبي والاجتماعي وكثيرون هم الرجال والنساء الذين استعانوا بها لقضاء اعمالهم: لعقد الزواج وتجهيز الاعراس والولادات والمآتم ..الخ لم تكن ام فؤاد مجرد ربة بيت بل شيخة عشيرة وعاملة اجتماعية أيضا وباختصار قاضي الحاجات.

وقد استشهد أفضل أبنائها، سعدون علاء الدين في أقبية صدام حسين تحت التعذيب وكان عامل طباعة وهو الذي نظم مطبعةً طريق الشعب العلنية في السبعينات. واستشهد معه حفيدها، نصير مأمون تحت التعذيب أيضاً وهو طالب ثانوية لأنه مناضل شيوعي. وتحملت أم فؤاد هذه المصائب بجلد وصبر على البلوى ولم تجزع.

أوعز لي الحزب بعد عدة أيام أن أسكن مع عائلة حزبية (آل الصفار) استشهد أكبر أبنائها عواد رضا الصفار في انتفاضة ١٩٥٦ التي خاضها الشعب العراقي تأييداً لمصر ضد العوان الثلاثي. وكان مستوى معيشة العائلة بسيط. وكانت شقيقات الشهيد مناضلات وأكبرهن نرجس زوجة الشهيد جمال الحيدري ولها ولدان استشهد أحدهما (فاضل) في أقبية الامن العام تحت التعذيب عام١٩٦٣ والاخر نظمي استشهد في السبعينات.

كنت أنتظر الايعازات من الرضي لأكتب ما يريد للحزب وشملتني العائلة برعايتها بيد أن الاعتكاف في بيت حزبي بعد ١٢ سنة من الحبس لم يكن شيئاً يحتمل ولاسيما وإن الشعب كان معيداً والشوارع تصطخب وتتدفق بأنهر بشرية فضقت ذرعا بالمكوث في البيت وطلبت من الرضي أن يطلق سراحي وأن يدعني أحتك بمنظمات الحزب حيث الحياة .وقد علمت منه بعدئذ أن ما طالبت به هو عين ما يطالب به كل رفيق خرج من السجن توا!كان ذلك أمراً طبيعياً.

عدت إلى بيت أختي وصرت اتصل بالناس وارتاد المقاهي السياسية بعد أن حرمت منها ردحا طويلا من الزمن. وشاركت في المظاهرة الجماهيرية الكبرى في ٦/آب ١٩٥٨ وكدت أموت بسبب الازدحام وضغط الناس ورأيت رأي العين واحسست بكل جوارحي أن أكثر الناس بعداً عن السياسة جاءوا ليصنعوا السياسة في شارع الرشيد «اتحاد فدرالي! صداقة سوفيتية!» كان هذا يعني أن انقلاب ١٤/تموز العسكري قد غدا ثورة الملايين كما يقول لينين معلم الثورة وإن تغييراً في حياة الناس قد حل لن يمحى أثره بالمرة!

كان الحزب الشيوعي العراقي منظم المظاهرة وصائغ شعاراتها. وقد استخدم لدعوة الجماهير إلى التظاهر وسائط الاعلام الجماهيري الحكومية الراديو والتلفزيون بموافقة الزعيم عبد الكريم الذي كان بأمس الحاجة إلى المظاهرة للوقوف بوجه الوحدة الاندماجية الفورية التي كانت تعني تجريده من سلطاته كافة وتحويلها إلى عقيد استخبارات يعينه جمال عبد الناصر وفي احسن الاحوال تخويلها إلى اقلية سياسية من القوميين المتعصبين.

وقد عززت المظاهرة الميل الديموقراطي في الثورة وفي الحكومة وفي الشارع.

لم يكن متوقعاً لدى من يراقب الوضع السياسي في العراق أن جمال عبد الناصر الذي كان يتمتع بشعبية هائلة قبل الثورة بوصفه زعيم العرب في نضالهم ضد الامبريالية وحلفائها، لم يكن يتمتع بالنفوذ السياسي الموجه للجماهير العراقية بعد الثورة. وإن الحزب الشيوعي العراقي اكثر منه تأثيرا في هذا المضمار لانه كان يمثل الوطنية العراقية ومع ذلك بقي نفوذ حزب البعث طاغيا بفضل دعمه من جانب الضباط القوميين ولاسيما وزير الداخلية عبد السلام عارف. شريك عبد الكريم قاسم في قيادة الانقلاب وحكومة الثورة.

وبعد انتصار الثورة باشر الحزب الشيوعي بتكوين المقاومة الشعبية بشكل علني في الشارع حيث كان يجري تسجيل المتطوعين فثارت ثائرة «الوحدويين» وحملوا قاسم على وقف العملية وإزالة نقاط التسجيل في الشارع بأمر عسكري.فتكهرب الجو وعقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اجتماعاً صاخباً دام الليل بطوله وتقرر مواصلة الضغط على الحكومة لتكوين المقاومة الشعبية بالنظر لتصاعد مخاطر التآمر والتهديدات الامبريالية. وفي جلسة أخرى لمتابعة المسألة

حضر الاجتماع فؤاد نصار السكرتير الإول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الاردني قادما من دمشق وبصحبته عامر عبد الله الذي عاد توا إلى العراق بعد أن غاب عنه منذ السنة الماضية. وتكلم فؤاد نصار ناصحا اللجنة المركزية بان لاداعي للقلق على النظام الجديد في العراق فقد «جاء ليبقى».

وأخيراً وافق عبد الكريم على تكوين المقاومة الشعبية وقد درب الجيش المتطوعين الذين سجلهم الحزب الشيوعي وزكاهم. ولكن البنادق كانت تحفظ في مشاجب الشرطة خلافاً لما عليه الحال في الجمهورية العربية المتحدة حيث كان المقاومون الشعبيون يحتفظون ببنادقهم معهم وفي بيوتهم. وكنت مع أعضاء اللجنة المركزية من المتطوعين الذين خضعوا للتدريب في معسكر أم الطبول في غربي بغداد.

حضرت اجتماع ايلول للجنة المركزية عام ١٩٥٨ الذي شخص التناقض بين قوى الثورة وتركيب حكومة الثورة ووضع الاسس لحل هذا التناقض وجرى انتخاب اعضاء المكتب السياسي وقد وسع من (٣)إلى (٥) بناء على اتساع مهام الحزب، عرفت منهم أربعة وهم حسين الرضي وعامر عبد الله وهادي هاشم أما الرابع فقد سمي «نهاد» فاستفسرت فأشار الرضي إلى بهاء الدين نوري.فاستغربت بناء على تصرفات بهاء السابقة عندما كان على رأس الحزب. فأراد الرضي أن يتفادى الامر فرشحني بالاضافة إلى المرشحين الخمسة لتنتخب اللجنة المركزية منهم خمسة فقط وبالرغم من إنني أمضيت السنوات العشرة الاخيرة في السجن فقد كنت أعتقد أن لدي المؤهلات السياسية المطلوبة لعضو المكتب السياسي. ولكنني حصلت على أصوات أقل من الاصوات التي حصل عليها بهاء فلم أفز في الانتخاب. لقد غفر حسين الرضي لبهاء خطاياه بسبب دوره السابق في إعادة بناء مركز الحزب بعد إعدام الرفيق فهد،وبسبب مؤهلاته الكتابية والادارية. وقد لامنا الرضي لاننا حاسبنا بهاء حساباً عسيراً وجردناه من صلاحياته في سجن نقرة السلمان في حين كان لايزال قائداً للحزب من الناحية الاسمية ونحن مجرد أعضاء بسطاء أي لم نكن عندئذ اعضاء في اللجنة المركزية! وبعد أقل من سنة شعر الرضي بخطئه تجاه بهاء ولات ساعة مندم! فبعد إعادة الاعتبار إليه وشعوره بالدفئ عاد ينفث مكنوناته.

وحضرت منتدباً عن الحزب الشيوعي اجتماعاً وزارياً لوضع قانون الإصلاح الزراعي حضره وزير الاعمار طلعة الشيباني ووزير العدلية مصطفى علي. وكتبت مقالاً عن الموضوع في «مجلة الثقافة الجديدة» في ايلول ١٩٥٨ وقد تبنى الحزب الشيوعي المقال كأساس لسياسته الزراعية وطالب الحكومة بأخذه بنظر الاعتبار. وبناء عليه حدد الحد الاعلى للحيازة الزراعية بـ(٤٠٠) مشارة (١٠٠) هكتار) في الارض الديمية (البعلية) أو ما يعادلها في الاراضي الاخرى. ولكن الحكومة لم تأخذ بهذا الحد الذي يخفض مستوى الملكية الكبيرة إلى مستوى ملكية الفلاح الغني من حيث مساحة الارض .وكان عبد السلام عارف إلى جانب تحديد الحد الاعلا ب(٥٠٠) دونم ولكن عبد الكريم قاسم حدده ب (٢٠٠٠) دونم في الارض الديمية و(١٠٠٠)دونم في الاراضي المروية دون أخذ التفاوت بالخصوبة بنظر الاعتبار متنازلا لضغط كبار الملاكين العشائريين والاحزاب البرجوازية ووزير الاصلاح الزراعي هديب الحاج حمود وكان من كبار الملاكين العشائريين وقد عينه عبد الكريم كاول وزير لوزارة الاصلاح الزراعي التي أنشأتها حكومة الثورة.

لقد كشف قانون الاصلاح الزراعي الطابع البرجوازي لحكومة الثورة وعلاقتها الحميمة مع كبار الملاكين سواء في تحديد الحد الاعلا للملكية أو في التعويض عما يزيد عن الحد الأعلى أو في التطبيق البطئ للاصلاح الزراعي. والحال أن الثورة قد قوضت نفوذ الاقطاعيين في الريف منذ اليوم الاول إذ لجأوا إلى بيوت عبيدهم الارقاء السابقين وهم من أصل افريقي ليستجيروا بهم من انتقام افلاحين الاقنان العادل.

وقد كتبت مقالا عن القانون بعد صدوره في مجلة قضايا السلم والاشتراكية عام ١٩٥٩ في الطبعة الانكليزية وقد نشر أيضاً في الثقافة الجديدة وبعد ذلك قرر المكتب السياسي وضع سياسة متكاملة بصدد المسألة الزراعية وكلف بكتابة التقرير بهاء الدين وعند مناقشته في المكتب عارضته بشرح واف وعندئذ كلفني المكتب السياسي بكتابة تقرير آخر فكتبت كراساً بعنوان «مسائل في الاصلاح الزراعي» ناقشه المكتب السياسي وأقره كسياسة للحزب في المسألة الزراعية واقترح الرضي أن ينشر باسمي.وقد طبعنا منه (٦٠٠٠٠) نسخة نفذت جميعها وقد بلغني في حينه أن كامل الجادرجي وحسين جميل كانا راضيين عنه باعتباره بحثاً علمياً في المسألة الزراعية في العراق. وقد علمت أيضاً أن عدداً من طلبة الدراسات العليا في الاتحاد السوفيتي وغيره من البلدان الاشتراكية اعتمد عليه كمرجع في وضع أطروحاتهم الجامعية في المسالة الزراعية.

54

باكورة ترحالي

بعد شهرين فقط من خروجي من السجن وقبل أن أنغمر في حياة الجمهور أرسلني الحزب مع «وفد الصداقة» العراقي إلى جمهورية الصين الشعبية وهي السفرة الاولى في حياتي إلى خارج العراق وأنا إبن السابعة والاربعين. وكان رئيس الوفد عبد الوهاب محمود، من قادة حزب الاحرار وكان صديقا للحزب وقد تعاون مع فهد قبل تأسيس الحزب الشيوعي العراقي وترجم معه البيان الشيوعي لماركس وانجلس وقد وقعت نسخة منه بيد الشرطة التي اتهمتني بترجمته واستكتبتني لجنة «خبراء» لتقرر إن الخط كان خطي!

اشترى لي الحزب بدلة كاملة جديدة للسفر وغدوت مزهواً بقيافتي وسافرنا إلى الصين عن طريق آسيا الجنوبية ونزلنا مطار دلهي عاصمة الهند ودخلنا قاعة كبيرة للاستراحة «من وعثاء السفر» ولاحظنا أن عدد الخدم الذين احاطونا من كل جانب كان ضعف عددنا نحن الضيوف وكانوا بملابس زاهية واستغربنا عندما لاحظنا إنهم كانوا جميعا حفاة الاقدام. ولا عجب فان الطبقات المالكة الهندية هي التي فرضت على عبيدها ذلك أما الانكليز فقد اعجبهم ذلك فتبنوا هذا البؤس على رعيتهم الهندية خلال قرنين من الحكم البريطاني للهند ليرسخوا العبودية في نفوس الهنود ويريحوا اعصابهم المتوترة من حفيف نعال خدمهم وقد أرهقها الحر والويسكي وانتفاضات عبيدهم.

ونزلنا في مطار سايغون (هوشي منه) في فيتنام وأجلسونا في العراء في وضح النهار الساطع وشاهدت لاول مرة الطبيعة في المنطقة الحارة فتذكرت البصرة وبساتينها الخضراء وطقسها الحار الرطب. ورأيت التفاح الصنوبري (البايناپول) في عربة يدوية مكشوفة معروضا للبيع في بلده وقد قطف توا. ذلك ما رأيته من فيتنام البلد الذي استلفت شعبه أنظار العالم طوال ربع قرن بمقاومته البطولية للغزاة لينتصر عليهم أخيراً بعد أن علم الشعب الامريكي درسا لن ينساه بما تعنيه الحرب.

وأنزلتنا المرحلة الثالثة من السفرة في هونكونك الصينية التي تحتلها بريطانية وشاهدنا الخضرة هنا خلابة فاتنة مع غنى هائل في الالوان والتلاوين والشوارع مكتظة بالسيارات والناس وخرجنا إلى الشارع لنلقي نظرة عابرة على المدينة وكانت السماء صاحية وبعد ساعة واحدة انهمر المطر وكانت قطراته ضخمة تتساقط على اكتافنا وكأنها هراوات ثقيلة من المطاط. ويقول الانكليز عن مثل هذا المطر: «أمطرت، قططاً وكلاباً» كناية عن قطرات المطر الهائلة. وكانت واجهات المخازن هي الاخرى مكتظة بذبائح مسلوخة وكأنها قطط وكلاب أيضاً ولربما كانت كذلك فعلاً أو لعلها أرانب أو خنوصات من يدري؟ فهنا كل حيوان يؤكل حتى الانسان يؤكل وهو حي يرزق.

غادرنا هونكونك لنعبر إلى ماكاو البرتغالية على القارة الصينية التي تناهز أوربا مساحة وتربو عليها سكاناً. ودخلنا الصين الشعبية لنركب القطار إلى كانتون (كوانكدونغ) العاصمة الجنوبية

ومهد الثورة الديموقراطية (١٩١١) كان مئات الالوف من سكانها يعيشون في قوارب عائمة في النهر الاحمر صيفا وشتاء وسافرنا بالطائرة إلى بكين عاصمة جمهورية الصين الشعبية فأنزلونا في أوتيل قديم فخم يحمل إسم المدينة وأنزلت لوحدي في غرفة تتسع لسكنى عائلة من أبوين وبضعة اطفال ويستوعبهم جميعاً السرير الكبير الوحيد فيها .قالوا لنا إن الفندق بني على الطراز الفكتوري نسبة لملكة بريطانية المشهورة في القرن التاسع عشر. واستقبلنا شوإن لاي رئيس الوزراء في مكتبه الرسمي. وكان على الطاولة في الوسط كل ما لذ وطاب من نقل ومرطبات. وكانت ثورتنا قد هزتهم اعجاباً وطرباً. واتخذها ماوتسي تونك دليلا من الادلة على صواب رأيه في أن الاستعمار: «نمر من ورق» وانطلق شوإن لاي يحدثنا ببالغ الاعجاب عن ثورة ١٤/تموز ومما قاله: انتم سحلتم الوصي اما نحن فتركنا جانكايجك سائبا! ثورتنا كانت كاسحة أما ثورتكم أيها العراقيون فأشد اكتساحاً! فالتفت بسرعة إلى اليمين لانظر باستغراب إلى جاري الصيني وكان عضواً في المكتب السياسي وجنرال ضخم الجثة مرحاً فغمز لي بعينه اليسرى غمزة تقول: دعه يبالغ فهو دبلوماسي رقم (١) ونظر الي شوإن لاي ليقرأ أفكاري.

كانت الصين منهمكة في «الطفرة الكبرى إلى الامام» أي الخطة الانفجارية للحاق اقتصادياً ولاسيما صناعيا بالدول الكبرى. وقد ثبت فشلها خلال ستة أشهر فأبعد ماو عن رئاسة الدولة «ليطور الماركسية» على حد تعبيرهم. وقد رأينا من مظاهر الطفرة الكبرى الطرق خارج المدن وهي مكتظة بارتال لاتنتهي من العربات الفلاحية تجرها البهائم وهي محملة بالفحم الحجري وفلز الحديد اللذين اقتلعوهما من سفوح التلال لينقلونها إلى الافران البلدية. ورأينا مدرسة ثانوية في إحدى المدن وقد ازدحمت ساحتها الكبيرة بالتنانير الاولى التي بناها بنو آدم وحواء عندما انتقلوا إلى العصر الحديدي. وخلال ستة أشهر اشترك ستون مليون مواطن صيني في اقتلاع الفحم والحديد ونقلها وصهر الحديد فصهروا ثلاثة ملايين طن من حديد الزهر من اسوأ الانواع. والحال أن فرناً واحداً من الافران العالية الحديثة الضخمة وعدة مئات من العمال كان بامكانهم انتاج مثل هذه الكمية من الحديد الزهر الفاخر خلال ثلاثة أشهر. فأوقفت الحكومة الصينية هذا الهدر بالعمل والمواد وتلويث البيئة.

ولماذا كان هذا الهدر؟ لان ماوتسي تونك وضع شعار للبناء الاقتصادي مبسط كشعارات حرب الانصار ومنها استخدام «التكنيك العصري والبلدي والاكثر بلدية» ويعني ذلك استخدام التكنيك الحديث الاجنبي مع التكنيك الصيني المتوسط نسبيا مع التكنيك البدائي، في وقت واحد، للحاق باسرع وقت بالدول الكبرى. كان التلهف لبلوغ مستوى دولة كبرى بأقصر الطرق هو الحافز للتسرع والمغامرة والهدر.

بيد أن الحماسة الشعبية الفائقة والنادرة التي شهدناها اغوتني وصرفت نظري آنذاك عن العيوب والخطايا جميعاً.

وقد أرسلني الحزب إلى الصين لادرس الاصلاح الزراعي فيها. وكان هذا هو الخطأ بعينه فشتان ما بين الصين والعراق: حضارة وسايكولوجية واقطاعاً ونظاماً سياسياً! وما هو الابعد شقة بين البلدين من جميع الاشياء الاخرى مسألة الارض وملكيتها وبالتالي الاصلاح الزراعي ومن هذه الناحية كانت الاشهر الستة التي أمضيتها في الصين قد ذهبت هدرا في نظري إذ إنها حرمتني من التشرب بالمناخ الثوري الذي كانت تعيش فيه الجماهير في الوطن. ومع ذلك لم تخل الرحلة إلى الصين من فائدة ولاسيما الروح الثورية والمتعة إذ رأيت عالما لا يشبه عالمنا. والاهم من ذلك رأيت شعباً كبيراً كدوداً يبدي كل تضحية ليبني حياة جديدة بلا كلل ولا ملل. بيد أن قيادة ماو بقدر ما كانت ملهمة بالنجاح خلال مرحلة النضال المسلح وتصفية الملكية الاقطاعية والكومبرادورية غدت بالعكس في مرحلة البناء والتصنيع والتثقيف. بسبب نزعة الهيمنة والجبروت.

زرت نانكين أي العاصمة الوسطى وهيَ العاصمة ألسابقة قبل الغزو الياباني للصين. وشاهدنا هنا تلا في ضاحية المدينة قال لنا مضيفونا أن جانكايشك أعدم هنا خلال عشر سنوات ١٩٢٧ ـ ١٩٣٧ نحو مائة ألف كادر شيوعي. وأعطونا حصو أحمر قالوا لنا هذا تذكار لدماء اولئك الشهداء الابطال وقد حملناه معنا إلى العراق.

وزرنا معملا في نانكين تعمل فيه النساء وقد خرجن إلى الفناء لاستقبالنا ووأت ثمينة ناجي يوسف في مقدمتهن «طفلة» لايتجاوز طولها متراً واحداً فداعبتها بحنان الام التي تركت اطفالها منذ شهر ولمست خدها بأطراف أصابعها وكأنها تداعب خد ابنتها إيمان فانفجرت العاملات بضحكة جماعية صاخبة مجلجلة وكأنها قنبلة موقوتة انفجرت فجأة. قال لنا موضيفونا إن «الطفلة» إياها أكبر العاملات سناً وفي حوالي الثلاثين من عمرها وهي قزمة ينصبها العاملات فخاً للزائرات العاطفيات ليضحكن على هذا المقلب البرئ. كان هذا ديدنهن!

وكانت مترجمتنا في نانكين طالبة حسناء هيفاء طويلة ممشوقة واسمها «دزو» وتعني خيزرانة، إسما على مسمى.

ومن المدن التي زرناها «آنشان» في منشوريا شمال شرقي الصين حيث شاهدنا أكبر معمل للفولاذ في البلاد وقد بني كما خبرونا بمساعدة الاتحاد السوفيتي. ولاول مرة في حياتي أرى مثل هذا المعمل حيث يسيل الحديد المنصهر الوهاج من الفتحة في اسفل الفرن العالي .ورأينا كيف تخرج قضبان سكك الحديد من مكابسها حمراء لاهثة وكأنها ألسن عفاريت من الجن وتصطف جنبا إلى جنب في درجة حرارة تحت الصفر المئوي لتبرد فتسقى أي تتصلب قشرتها بفعل التبريد السريع وتنزل عليها من السقف العالي كف جبارة ممغنطة فتلتصق القضبان بها لتنقلها إلى عربات سكة الحديد وكأنها قش وترتفع من جديد خالية من القضبان. آلات عملاقة تحقق حلم الانسان الذي بقي يصبو إلى أن يكون له اطراف عوج إبن عنق فيمد يده إلى اعماق البحار ليقبض على حوت ويرفعه إلى أعلى حت يكاد يلامس قرص الشمس فتشويه وتجعله لذيذ كمسكوف الرافدين أو أن يمد يده إلى الغابة البعيدة فيقتلع منها دوحة واحدة ليبني نوح بها سفينته ليحمل من كل جنس ونوع زوجين لينقذ الحياة على كوكبنا من الطوفان والفناء وعوج ابن عنق يومنا هذا هو العامل والمهندس في الصناعات الكبيرة القادر على أن يكتسح الجبال ويردم البحار ويسبح في الفضاء الكوني وكأنه في الحمام. هو الانسان الذي أصبح قادراً على كل شيء. ما أشد ما تحمست لان يكون للعراق معمل كمعمل أن شان للفولاذ ليصنع العظام الصلبة لجميع أنواع المكائن والالات والمنشآت والسفن والقطارات!

وبعد سفر وفدنا بقينا نحن الشيوعين الاربعة أم إيمان وعلى الوتار الذي استشهد فيما بعد على يد انقلابيي ٨/ شباط/١٩٦٣ وعبد الامير عباس وأنا لنسمع محاضرات عن تجربة الصين في العمل النقابي والنشاط الاجتماعي على العموم. وقد سجلت جميع المحاضرات عن تجربة الصين بحروف مهملة إذ كنت أكتب دون وضع النقط على الحروف وعدت بها إلى العراق فاستعارها الرفاق في البعثة ليفيدوا منها في محاضراتهم.

والتقينا في بكين الدكتور نبيه رشيدات عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاردني ثم السوري وعقدت معه أواصر الصداقة الحميمة الاخوية الرفاقية الباقية مدى الحياة. وهناك أيضاً التقيت غائب طعمة فرمان وقد جاء بكين بناء على توصية الحزب الشيوعي العراقي للمعالجة من مرض السل وللعمل مترجما في الاذاعة. وكان متألما من الرفاق الصينين لانهم كانوا يوعزون لكل فتاة يتعارف معها بالابتعاد عنه. وتوطدت أواصر الصداقة بيننا واقترحت عليه أن يغيير اسمه من غائب إلى «حاضر مرسوم جمهوري» لان ثورة ١٤ / تموز اعادت له وطنه ولم يعد غائباً وأقامت

جمهورية بدلاً من الملكية فلم يعد ابن فرمان ملكي بل مرسوم جمهوري. فأبدى موافقة مبدئية طبعا. وقد تميز غائب الاديب العراقي الكبير بثلاث خصال: الاولى انه خلال غيابه الاضطراري الطويل لم ينسى الدفاع عن الوطن، عن أرض العراق! والثانية انه كان دائبا على الانتاج فكان يكرس الساعتين الاوليتين من نهاره للكتابة من كل بد! والثالثة هي إنه حافظ على صداقته الخالصة للحزب الشيوعي العراقي حتى وفاته. وقد الح عليَّ أن اكتب مذكراتي أكثر من مرة ويعز علي إنه غاب هذه الايام ولن يطلع على ذكرياتي التي كنت أريد بها أن تكون مادة أولية يصنع منها الادباء أمثاله ما يشتهون من صور عن وطنهم العراق.

وفي أن شان رأينا نسوة كان جمالهن أقرب إلى الجمال الاوربي منه إلى الصيني وهن من المانشو القومية التي تنتسب اليها آخر عائلة مالكة صينية وجمالهن رائع واقرب إلى الاجناس القفقاسية.

أطلعونا على عينات من افضل ما عندهم وعلى طارفهم وتليدهم من الافران العالية إلى المسارح. ومرة أخذونا بعد العشاء مباشرة والامتلاء الكامل من الطعام والشراب، لمشاهدة «اوبيرا بكين» ذات الشهرة العالمية، وهي من التراث الصيني وتختلف عن الاوبيرا الغربية في أنها أقرب إلى الفن الشعبي فانها خالية من الوقار المهيب إذ أنها مطعمة بالبهلوانيات وتهريج السركس والفكاهات التي يضحك فيها الندماء ملوكهم. وبين الفينة والفينة يخرج إلى المسرح مهرج يقفز قفزة هوائية عالية ويهوي فيرتطم بخشبة المسرح فيدوي في اذنيك كقصف الرعد وإذ كنا ممتلئين توا ونجهل اللغة الصينية جهلا مطبقا ويعجز مترجمونا عن إفهامنا لذاعتها بالسرعة المناسبة والدقة اللازمة فقد نمنا عن آخرنا نحن اعضاء الوفد الستة عشر. ولم نكن ننتبه الا عندما يرتطم المهرج بخشبة المسرح بعد القفزة البهلوانية. وقد حرصنا جهدنا لئلا يكتشفنا نائمين مترجمونا الصينيون. ومع ذلك فسرعان ما اكتشفوا سرنا وتفهموا مشكلتنا ورثوا لحالنا.

والطباخ الصيني موسوعي فلا عد ولا حصر للالوان التي يبتكرها. وقد صرحت زوجة عبد الوهاب محمود رئيس الوفد وهي تركية من استانبول، إنها قبل مجيئها إلى الصين لم تكن تعتقد أن هناك مطبخاً في العالم اغنى من المطبخ الاستنبولي في تعداد الوانه، أما الان فانها قد اقتنعت بأن المطبخ الصيني اغنى ومع ذلك فنحن الشيوعيين الاربعة وقد بقينا في الصين لفترة أطول أخذت شهيتنا تهبط حتى أقلقت مضيفينا. فسألونا لنصف لهم اية اكلة نشتهيها ليعدوها لنا فلم يخطر على بالنا سوى الباميا الاكلة الاثيرة عند العراقيين. واجتهدنا أن نعرفها لهم بالعربية والانكليزية لمترجمينا ولكن دون جدوى. فحفزت كفاءاتي في الرسم ورسمت قرن باميا ولما رأى الطباخ صورة البامياء بريشتي هرول إلى المطبخ وجاءني فرحا كما لوكان أرخميدس يصرخ وجدتها! وبقبضته شيء فبسطها وإذا بها قرن أخضر ملتوي كذنب عقرب. وكان قرن فلفل أخضر! وخابت مساعينا في تعريف الصينيين بالبامياء مع أن بلدهم أغنى بلدان العالم إلى جانب الهند بتنوع الثمار والخضار والفواكه. ومن الاخيرة فقط عندهم ألفا نوع. وكان العوض إنني اكتشفت أن موهبتي بالرسم لم تكن واقعية بل فوق الواقعية أو السريالية كما يقول أهل الفن فالفلفل الاخضر اغنى بالفيتامينات من البامياء على كل حال ورحلت إلى جنوب الصين لوحدي من دون الزملاء لاطلع على الكومونات الزراعية. وهبطت شهيتي للطعام فجأة فحاروا في أمري وجعلوني أجرب مختلف الاكلات الغريبة والعجيبة دون جدوى. ومرة قدموا لي الرز وصحن آخر من أشياء تشبه صفار البيض المغلي كثيراً بحيث حال لونه إلى الزرقة فجربته وإذا به طعاماً شهياً ولا أشهى كطعم الكمأة السمراء من بادية الشام فسألت عنه وإذا به حيوان بحري من الشاطئ القاري للصين الغني بما خلق الله وما لم يخلق كما يقول أبو الطيب. ولم يكن ذلك بالطبع من الكومونات الزراعية.

سار بي القطار في كانون الثاني ١٩٥٩ من شمال الصين إلى جنوبها وخلال يومين متتالين كنت أتطلع نهاراً من النافذة على الارض المحروثة غير المكسوة بالخضرة ولم ينقطع المطر خلالهما بل كان يهطل رذاذاً. ورأيت الاشجار محملة بالسلال التي يخزن فيها الفلاحون ذخيرتهم من مؤنة الشتاء ويعلقونها عاليا لوقايتها من الرطوبة. ورأيت الفلاحين من ولاية كواندونك على الحدود مع الفيتنام الشمالية وهم يشتلون في الوحل نبتات الرز الشتوي الذي يحصدونه في نيسان فهم يجنون ثلاث محاصيل من الرز في السنة الواحدة من قطعة ارض واحدة التي يسمدونها بفضلات البشر والحيوان وبأيديهم العارية. وقد جند ماو طلاب الجامعات واساتذتها لنقل هذه الفضلات في صفائح معلقة على أكتافهم من القرى إلى الحقول «لاعادة تثقيفهم»! وفي يومنا هذا يعيش كل عشرة نسمات من الصينيين على هكتار واحد من الارض الزراعية ويصدرون «الفائض» إلى الخارج! وزراعة الحبوب في الصين هي في الحقيقة نوع من البستنة من حيث الكثافة والانتاجية.

وقد رأيت الكومونة بأم عيني، وهي بكلمة تنظيم اداري عسكري بيروقراطي وعلى صوت البوق يخرجون إلى الحقل وينهمكون في القتال ضد الارض. وفي الساعة العاشرة قبل الظهر يعزف البوق فيتحلقون حول القصاع ليتناولوا الوجبة الرئيسة الرز المسلوق. كلهم سواسية كأسنان المشط كما يقول الفقهاء عندنا لافرق بين مجتهد وكسول، مبتكر وبليد، قوي وضعيف. وكانت قرى عدة ترتبط بكومونة (مشاعة) واحدة وتندمج الادارة الاقتصادية بالادارة السياسية وهذه بالحزب. وبعد الاصلاح ألغي هذا الاسلوب غير الاقتصادي مع اشتراكية الثكنات «السوائية» في الريف واصبحت العائلة الواحدة هي الوحدة الاقتصادية. قلت لهم مرة إننا نحن السجناء السياسيين كنا نعيش في كومونة. فاستاءوا وأنا لم أقصد الاساءة إليهم أنني لم أكن أظن عند ذاك أن هذا الاسلوب كان خاطئا بالمرة! كنت مهتما بالتعرف على التجربة الصينية بكل شوق وكنت أكثر أعضاء الوفد العراقي اطلاعاً على احوال الصين بناء على مطالعاتي السابقة. فقد اخذت أتتبع أخبار الصين منذ المؤتمر العالمي السابع للاممية الشيوعية ١٩٣٥ الذي القى فيه المندوب الصيني تقريراً عن المسيرة الكبرى للانصار الشيوعيين من جنوبي الصين الشرقي إلىشمالها الغربي. وقرأت كتاب «ادجار سنو» الامريكي: » النجم الاحمر في سماء الصين» وبعد الحرب العالمية الثانية ترجمت منه فصلا عن ماو وبعنوان اخترته أنا «رجل آسيا» فقد كنت اعتقد أن النموذج الصيني سيعم آسيا. وفوجئت من استياء الصينين من ادجار سنو عندما ذكرت لهم انني ترجمت سيرة زعيمهم عنه. ولكنهم وسطوا ادجار نفسه عندما دعو الرئيس الامريكي نيكسون لزيارة الصين للمصالحة. أظن أن ادجار سنو قد كتب عن ماو بواقعية أزعجت عباده إذ وصف ماو عندما كان يصطاد البراغيث في ثيابه ليقصعها بأظافره!

وبعد الحرب أيضاً ترجمت عن ماو كتاباً بعنوان «الحكومة الائتلافية» وقد أعاد الحزب الشيوعي طبعه ثانية بعد ثورة ١٤/ تموز وشرح فيه ماو فكرته عن «الديموقراطية الجديدة» وهي نوع من الديموقراطية الشعبية المكيفة لاحوال آسيا. إذ يدخل البرجوازية الوطنية، ويعني بها البرجوازية الوسطى في عداد الطبقات الاربعة المتحالفة البروليتاريا والفلاحين والبرجوازية الصغيرة والبرجوازية الوطنية المعادية للاستعمار والاقطاع..وعلى هذا الاساس تبنى الديموقراطية الجديدة بقيادة الحكومة الائتلافية. وكان الحزب الشيوعي العراقي متبنياً لهذه الاستراتيجية. وكان الميثاق الوطني لسنة ١٩٥٢ يستثني البرجوازية الوطنية من هذه التشكيلة تحت تأثير بهاء الدين نوري.

وكان المترجمون الصينيون يعجبون من القدر الذي أعرفه عن بلادهم على ضآلة ما أعرف.

كانت الصين أول بلد أجنبي أزوره وقبلها لم أزر حتى أي بلد عربي واتفق أنها جاءت بعد تسع سنوات من انتصار الثورة الصينية وقيام جمهورية الصين الشعبية. وإذ كانت الحماسة

الثورية لاتزال تتقد في نفوس الجماهير إذ كانت تتجلى في انهماكهم بالبناء رغم ضآلة الحوافز المادية. وكان الجميع نساء ورجالاً يرتدون البزة الشعبية البنطال والسترة الزرقاوين المصنوعين من نسيج القطن والمحشوين بالياف القطن، لافرق بين ملك وصعلوك والعلامة الفارقة الوحيدة للمرأة كانت جديلتها الطويلة المرسلة على ظهرها على طول العمود الفقري. ونساء الجنس الصيني (هان) ليس لهن نهود. فان صادفت امرأة ناهد فاعلم إنها من الاقليات الاثنية.

إن التقشف الثوري لا يمكن أن يبقى فله حدود. والانسان بطبيعته يميل إلى تحسين احواله باضطراد وحتى إلى البذخ ولولا ذلك لبقي حيواناً أبكم، ويتحمل التقشف والزهد لحين ما دام مقتنعا أن وراء الصبر الظفر بحياة أفضل كثيراً. لقد وضع الماويون حلمهم باقامة دولة عظمى أولاً بدلا من تحسين معيشة الشعب ورفاهه فباؤوا بالفشل. فليتقشف القادة ما شاءوا أن يتقشفوا فتلك فضيلة ولكن عليهم أن لا يفرضوا التقشف على الجماهير فلصبر الجماهير حدود.

لاحظت الفلاحين في جنوبي الصين يحرثون الارض التي يعدونها لزراعة الرز باستخدام جواميس الماء لان أي حيوان آخر لا يقوى على العمل في الاوحال وتحت رذاذ المطر المستمر سوى الجاموس المائي ولم يكن سواده كسواد جاموستنا «الدبسة» الدامس بل هو سوادا خامدا أغبر. وأظن إن سبب ذلك سوء التغذية. قلت لهم:

- نحن نعني بالجاموس ونعلفه جيداً ونستخلص القشطة (القيمر) الفاخر من حليبه.

فاستغربوا لأن حليب الجاموسة عندهم لايكاد يكفي رضيعها فكيف يعطي القشطة! فحدثت نفسي: سوف يستخدمون الماكنات بدلها لحراثة الارض الموحلة وغير الموحلة في الصحو والمطر وعندئذ سيعلفون الجاموسة لتدر عليهم ما تدره على أهلها في العراق من حليب وقيمر ولبن رائب وسوف يسعون لتحسين نوعه فيستوردون فحل الجاموس العراقي القوي كالاسد للقاح جاموساتهم معتدا بجاموس الماء العراقي المعطاء.

وفي الصين عدت شاباً في السابعة والاربعين وتسلقت برشاقة الفتيان السور الصيني العظيم احد عجائب الدنيا السبع ومضرب المثل في الحجاب الكاتم أو الفصل القاطع. هاهي الشيوعية تحرر أكبر شعوب العالم عدداً وأعرقها حضارة! وها أنا وقد حررتني ثورة ١٤/ تموز من مصير مجهول.

غادرت الصين قبل زملائي لالتحق في موسكو بوفد الحزب الشيوعي العراقي للمؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي.وعلى العشاء الاخير حضر الرفاق الصينين ومنهم جنرال ومحارب قديم، كان ضابطا صغيرا في المسيرة الكبرى للجيش الصيني الاحمر (جيش التحرير فيما بعد) فسألته ثمينة ناجي عن أهم ما يتذكره من تلك التجربة التاريخية الفريدة. فتحدث قائلا:

- أن جملة من السلاسل الجبلية المنيعة اعترضتنا في طريق الزحف وفي الاخير وجدنا منتهى الصعوبة وبلغ إعياؤنا منتهاه وكان من يجلس لا يستطيع القيام ولكن أنا ومراسلي كنا نشجع احدنا الاخر لئلا نسقط من الاعياء وبعد أن اجتزناها سالمين شعرنا بأنفسنا من القوة والقدرة ما لا يصدق فقد زال عنا التعب فجأة وعلى غير انتظار. وهذا ما عزز ثقتنا بانفسنا إلى ما لا حد له. ولكننا أخيراً وجدنا أن هذه التجربة تركت عندنا ناحية سلبية أيضاً وهي إننا صرنا نستخف بالصعوبات مهما كانت بدلاً من أن نحسب لها الحساب الضروري

كانوا آنذاك يقيمون فشل الطفرة الكبرى إلى الامام في التنمية ولكنهم لم يبوحوا لنا بهذا

وفي هذه الوليمة عطشت ثمينة والصينيون عندما يعطشون يشربون أما المرطبات أو الماء الساخن ولا يشربون الماء القراح. فطلبت ثمينة الماء وحار المترجم في أمره فأي ماء عساها تريد؟ وعلى المائدة

جميع المشروبات الكحولية وغير الكحولية؟ فأردفنا عليه أسماء الماء ببضع لغات: ووتر فاسر فـودا فلم يفهم لأنه لم يفهم غرضها من الماء على هذه المائدة. وخطر لي خاطر فقلت لـه (H_2O) فضحـك الجميع وجاءوا اليها بالماء من الحنفيـة لـترتوي كعراقيـة اصيلـة وعنـت لي فكـرة استخدام رمـوز الكيمياء كلغة أممية مشتركة للتفاهم بين شعوب الارض فنوفر على أنفسنا دراسة اللغات الاجنبيـة فنقول (H_2O,SOS) عندما نريد أن نقول اسعفونا بالماء او نتعلم لغة كلغة الصم والبكم المستعملة في البث التلفزيوني لنقل الاخبار.

55

مهد الاشتراكية

ركبت الطائرة السوفيتية من بكين عبر سماء منغولية متجهين من الشرق إلى الغرب في سباق مع الشمس ونزلنا مطار اركوتسك. والتقيت المسؤول الحزبي للمنطقة في المدينة وتحدثنا عن أول مشروع خماسي لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي. وقلت له إنني قرأت كتاب ايلين «موسكو لها خطة» فوجدت أنه لم يسمع بالكتاب ولا بإسم المؤلف اللذين مضى عليهما نحو ثلاثين عاما فأسقط في يدي وألح علي أن آكل وكنت قد تناولت الغداء تواً في الطائرة فاعتذرت ولكنه استمر بالالحاح وقال هذه أكلة سيبيرية خاصة جربها وهي عجينة محشوة باللحم المفروم فقلت شبعت منها كفاية في الصين فكف عن الالحاح. وسألني عن أشهر محاصيل العراق فقلت التمر بالانكليزية لان المترجم لا يعرف العربية فلم يفهم فقلتها بالالمانية ولم يفهم فقلتها «خرمة» بالفارسية والتركية فقالت المرأة التي تقدم الطعام إنا أعرفها والحال أن الخرمة التي تعرفها لم تكن تمرا بل فاكهة اخرى تختلف عن التمر تماماً فالتمر بالروسية «فينيكي» أخذوها من الاغريق والاغريقين عن الفينيقين ولذا سموا التمر فينيقي وفي الصين أيضاً تحدثنا عن التمر فقالوا هو موجود عندهم فطلبناه منهم فجلبوا لنا كمية من النبق المجفف وهو ثمرة السدر.

بت ليلة في اركوتسك لسوء الاحوال الجوية وفي اليوم التالي وصلت موسكو فانزلوني في البيت الريفي الذي توفى فيه ستالين، في غابة الصنوبر الفضي في كانون الثاني ١٩٥٩ ولأول مرة شاهدنا الغابة الروسية والثلج المسكوفي وكان المشهد سحرياً خلاباً لم أرشبيها له من قبل حتى في بكين في درجة حرارة سبعة تحت الصفر المئوي. والتقيت في ذلك البيت لأول مرة فؤاد نصار السكرتير الاول للحزب الشيوعي الاردني وتوثقت أواصر الصداقة بيننا. وقد أبنته بعد وفاته في جريدة طريق الشعب والجريدة ليست في متناول يدي الآن. كان التواضع الجم السمة المميزة له. وكانت الحماية متشددة أكثر من مما ينبغي فلم تسنح لنا الفرصة لمشاهدة موسكو في تلك السفرة سوى القاء نظرات خاطفة من نافذة السيارة المسرعة. ولم نبق وحيدين في البيت إذ تجمعت فيه وفود الاحزاب الشيوعية من الاقطار العربية خلال شهر شباط انتظاراً للمؤتمر وهناك لأول مرة التقيت خالد بكداش الامين العام للحزب الشيوعي السوري/اللبناني. كنا نكبره بوصفه عميداً للشيوعيين العرب وندرس أعماله باهتمام وننظر إلى سوريا بوصفها رئتنا إلى العالم الخارجي أثناء الحكم الملكي. كان خالد بكداش مستاء من فهد وانتقده بشدة أمامنا جراء نشاط حزبنا بين اليهود في حياته. فقلت له بحدة أيضاً:

ـ أن فهد شهيد وقد أعدمه الاستمار لانه كان أممياً وقد اعتبره أخطر عدو له في المنطقة فرد خالد بكداش علي غاضباً:

ـ هل تعني إننا شوفينيين ولا نشكل خطراً على الاستعمار! وأنت نفسك تتحمل المسؤولية عن سياسة الحزب الشيوعي العراقي. قلت:

- كلا أبداً أنا احترم الحزب الشيوعي السوري وأتحمل المسؤولية عن سياسات حزبي جميعاً كما قلت أنت.

كانت تلك أول وآخر مشادة بيني وبين خالد بكداش وقد كف هو عن انتقاد فهد. وقد ربطتنا أواصر صداقة متينة لا تنفصم عراها.

وفي تلك الدار التقينا بضعة وفود حزبية شيوعية و قمت بدور مترجم وسيط مع المترجم السوفيتي الذي لم يكن يتكلم العربية بطلاقة مناسبة للترجمة الفورية. وكان من بين الوفود وفد فيتنام يتكلم بلغة «طاي» و كنت اشفق على المترجم الروسي الذي كان يترجم انكليزيتي المترجمة عن العربية إلى لغة طاي. كانت كل كلمة من هذه اللغة ترن في اللاذن كطلقة نارية كان يطلقها من الاعماق بعد جهد جهيد و توتير حباله الصوتية إلى أقصى حد فتدوي الكلمة الطائية في جو الغرفة دوياً رهيباً. لا توجد لغة تستحق الذكر في العالم اجمع لا يجيدها المترجمون الروس.

كتب حسين الرضي رئيس الوفد الكلمة التي سوف يلقيها باسم الحزب الشيوعي العراقي من على منبر المؤتمر وعرضها على الرفاق السوفييت ليروا فيما إذا كان هناك أي مانع من إلقائها. فلم يعترضوا على شيء سوى أنهم اقترحوا عليه أن يضيف إلى اسم عبد الكريم قاسم رئيس حكومة الثورة عبارة «ابن الشعب البار» فأعتذر الرضي عن قبول اقتراحهم فألحوا عليه فأمتنع. ودار جدال طويل حول هذا الاقتراح بين الرضي والرفاق السوفيت حضره خالد بكداش الذي تدخل في النقاش و خاطب الرضي:

- لماذا هذا الاصرار منك على الامتناع؟ لعل الرفاق السوفيت يعرفون عن قاسم ما لا تعرفون!

كان البعض يظن أن قاسم كان «شيوعياً» يخفي هويته ربما حتى على الحزب الشيوعي العراقي!! والحال أن شيوعية قاسم لم يكن لها أساس. وفي آخر المطاف تجاوب الرضي مع اقتراح السوفيت وأضاف عبارة «ابن الشعب البار» إلى القاب قاسم في الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي.

كانت شعبية الحزب الشيوعي العراقي كبيرة في الحركة الشيوعية العالمية بفضل أستشهاد قادته وانتصار ثورة ١٤/ تموز. وكانت الحركة فرحة جداً بهذا الانتصار لأنه فكك حلفاً من أهم الاحلاف الموالية للامبريالية و العدوان. وقد جاء انتصار ثورتنا دليلاً على أنه لم يكن كل شيء مأمون الجانب في المعسكر الامبريالي.

وبعد إنتهاء المؤتمر زرنا لينينغراد مهد الثورة، حيث رأينا قلعة بطرس و بولس التي قضى فيها أجيال من الثوريين احسن سني حياتهم في زنزانات رهيبة حقاً. ورأينا الطراد أورورا الذي آذنت مدافعه بانتصار ثورة اكتوبر الكبرى. وزرنا في ضاحية فيبورغ البيت الريفي الذي تخفى فيه لينين. ورأينا «الصريفة» أي السقيفة الصغيرة التي كان يعتكف فيها وألف فيها كتابه «الدولة والثورة» فسألهم بهاء الدين نوري، وهو ابن قرية، ورئيس وفدنا في زيارة لينينغراد:

- هل الحلفاء على سقف السقيفة لاتزال كما كانت عندما كان لينين هنا؟ فردوا عليه بكل جد:

- لا بل نبدلها في كل سنة لأنها تتلف!

وفي المساء زرنا مسرح كيروف لنشاهد باليه «جيزيل» والباليه الروسي قمة من قمم الفن العالمي يندمج فيه الرقص الايقاعي بالموسيقى السيمفونية بالتمثيل الصامت «البانتوميم» وفنانة الباليه الروسية «الباليرينة» تربى منذ السابعة تربية صارمة «سبارتية» وتعيش على رجيم (نظام) قاسي حتى تنمو وتنشأ نحيلة «جلد وعظم» فترقص وكأنها طيف من الاطياف. ترى أهي تجسيد حي

لانغام الموسيقى تسبح معها في الفضاء على أجنحة الاثير أم أن أنغام الموسيقى حفيف حركاتها الدائبة المبدعة أبدا؟ فأيهما يسبق الآخر؟ كلاهما! كانت فنانة الباليه الأولى لتلك الأمسية لتمثل جيزيل: غالينا أولانوفا التي اجمع نقاد الباليه في أوربا على أنها أعظم باليرينة خلال المائتي سنة الاخيرة.

تتهادى غالينا على صورة جيزيل شهيدة الحب ترفرف باجنحتها وتتوارى في ضريحها ثم تبعث حية لتلتقي حبيبها في عالم الحب الخالد، الحب الانساني المنزه، تؤدي الفنانة العبقرية مناسكه الروحية القدسية برقص بتولي، طائرة، محومة، وكل ريشة منها تعزف نغما من الانغام.

يسدل الستار وتنار الانوار ومن أعماق جمهور الحالمين تتعالى الهتافات: غالا! غالا! برافو غالا! وتخرج اليهم لتتلقى التحية الفنانة الكبيرة وقد تخطت الخمسين، أمضت ستة اسباعها في خدمة الفن الثري الملهم وإتقانه. أفرغت فيه مواهبها وقواها الروحية والبدنية، حتى غدت مصدورة، متغضنة المحيا، وركعت للجمهور ورفعت اليه وجهها متوسلة أن يرحمها ويكف عن الهتاف، ويدعها تخلد إلى الراحة. ولكن الهتاف لا ينقطع و الجمهور الحالم لا يرحم ويلح عليها ويستحضرها المرة تلو المرة، ليتوثق منها أكان الحلم الذي مثلته هو الحقيقة أم أن الحقيقة لاتزال حلماً؟! خبرينا أيتها الساحرة العبقرية!

كانت بعد كل حفلة تنام اسبوعاً في الفراش لتسترجع قواها.

وأخيراً خرجنا إلى العراء. وتوجه رئيس وفدنا، إلى المرافقة بالسؤال:

ـ ألم تجدوا بدلاً من هذه العجوز راقصة شابة حلوة ممتلئة تؤنسنا في هذه الليلة؟!

استغرقت مرافقتنا اللينينغرادية، وكانت بعمر غالينا بضحكة مجلجلة مسترسلة من كل قلبها ظننت إنه يمزح معها.

كان المؤتمر الحادي و العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي، أول مؤتمر حزبي أحضره. كانت جلسات المؤتمر المكشوفة مظاهرات أكثر منها جلسات عمل منتج فقد ذهب عهد الجلسات الصاخبة في حيات لينين والتي كنا نقرأ عنها في الكتب. وأصبح التصويت بالاجماع تقليدا. وجميع المداخلات مهيأة سلفاً وإن لم تخل من النقد والنقد الذاتي. وفي هذا المؤتمر انتقد خالد بكداش جمال عبد الناصر، وقد أدى ذلك إلى مشادة بين الصحافة المصرية والسوفيتية. وقد اتهم عبد الناصر الشيوعيين العرب بالعمالة فرد عليه خروشوف من على منبر المؤتمر، مستنكرا:

ـ عملاء من نحن؟! ودافع عن الشيوعيين العرب.

كان حسين الرضي وهو خارج العراق في تلك الايام يتابع شؤون الحزب ويتصل تلفونياً بمركز الحزب في بغداد إذ كان الجو السياسي مشحوناً جداً جراء احتدام الصراع بين الوحدويين و عبد الكريم قاسم. وفي تلك الفترة كانت «اتحاد الشعب» الجريدة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في الايام الاولى من إصدارها علناً ومجازة قانوناً، فاصدر حسين جميل وزير الاعلام أمراً إدارياً بتعطيلها مؤقتا بسبب مقال نشرته. فنظم الحزب حملة احتجاج امطرت الحكومة بوابل من البرقيات فأوعز حسين الرضي لمركز الحزب برفض أي مساومة والمطالبة بالغاء قرار الاغلاق وعودة الجريدة إلى الصدور ورفض كل حل وسط كتغيير اسم الجريدة مثلا. وقد استجاب قاسم لهذا المطلب وأوعز للحاكم العسكري العام باصدار أمرا يلغي أمر الوزير لتعود «اتحاد الشعب» إلى الصدور. وفيما بعد عندما ساءت العلاقات بين قاسم والحزب الشيوعي أعلن قاسم في إحدى خطبه بانه ضحى بوزير كان عزيزاً عليه كرماً لخاطر الحزب الشيوعي.والحقيقة انها كانت المرة الوحيدة في تاريخ العراق تنتصر فيها الجريدة على الوزير إذ كانت الجريدة هي الضحية في جميع العهود

والازمان. وكان سبب اغلاق إتحاد الشعب غريباً حقاً فانها كانت قد اسندت التعديل الوزاري الذي أقصى القوميين المتآمرين.

وفي موسكو التقينا عائلة فهدٍ: أرملته وابنتهما وكانت البنت شديدة الشبه بأبيها حتى أن أحد الرسامين اتخذها موديلاً ليلطف ملامح صورة فهد الصارمة عندما كان يكبر صورته الفوتوغرافية. وقد هزني مرآها فهرعت لتقديم الكاميرا التي أهدانيها مضيفونا هدية لها. وفيما بعد حاسبني الرضي على تصرفي الفردي إذ كان يجب عليّ أن أضيف هديتي إلى سائر الهدايا الحزبية التي قدمها هو للعائلة. هكذا كنا نفهم «انصهار» الفرد بالمجموع أي انصهار الدراويش بشيخ الحلقة حتى عاطفيا.

وفي أوائل آذار ١٩٥٩ امتطينا: حسين الرضي وكريم أحمد وأنا الطائرة إلى صوفيا عاصمة بلغاريا الشعبية بدعوة من قيادة الحزب الشيوعي البلغاري وكان اهتمام الرفاق البلغار بثورة ١٤/ تموز أكثر حرارة من اهتمام الروس والصينيين. فاستقبلونا استقبال الظافرين وأجرى المفاوضات مع وفدنا وفدهم بقيادة الامين العام لحزبهم جيفكوف. والقى حسينٍ الرضي خطبة كبيرة على اجتماع حاشد لكوادر الحزب الشيوعي البلغاري وكنت أترجم ارتجالاً الخطبة إلى الانكليزية ليترجمها المترجم البلغاري إلى البلغارية ومع ذلك كان تأثيرها واضحاً في استجابة المستمعين الذين استحسنوها بحرارة.

وقد استضافونا في قصر الملك السابق إمعاناً منهم في تكريمنا وشعرنا في ضيافة البلغار بقرابة اكثر مما شعرنا بها في موسكو والصين وكنا نحن الشيوعيين العراقيين أقل الوفود تطلبا أينما حللنا. وإن الطابع الفلاحي الغالب على شعبينا وأربعة قرون من الحكم التركي عليهما تركت بينهما الكثير من الخصال المشتركة ومنها كرم الضيافة والمخاشنة وحدة الطبع، وسائر مخلفات التربية العصمانلية.

أولم لنا رئيس الجمهورية البلغارية وليمة عشاء صغيرة تبودلت فيها الاحاديث الودية المرحة في جو عائلي وأنشدت الاغاني الشعبية وأنشد حسين الرضي نشيد الجمهورية ولم يكنٍ كريم أحمد يعرف كلمة واحدة منه أما أنا فقد نسيت معظم كلماته وحتى لحنه المعقد كان صعباً علي فكنت اتمتم مجاريا المنشد ومتعاطفا معه ولكن ذلك لم يفت على الرفاق البلغار فلامنا الرئيس لأننا لم نشارك الرضي نشيده وتركناه لوحده ينشد وكأنه يؤدي امتحاناً مدرسياً ولم يكن بوسعنا تقديم أي عذر مقبول لمضيفنا فوقعنا في حرج. وبعد بضع سنوات أزيح الرئيس البلغاري من منصبه ولم يكن لإزاحته أي علاقة طبعاً بقراءة نشيدنا بل تولى جيفكوف رئاسة الجمهورية بالاضافة إلى زعامة الحزب تركيزاً لجميع السلطات بيد واحدة الأمر الذي أدى في آخر المطاف إلى انتفاء كل السلطات من يد الحزب «نفي النفي»!!

أصدرنا بياناً مشتركاً مع الرفاق البلغار وقدمنا صياغة لإدانة الصهيونية فتحرج الرفاق البلغار بادئ ذي بدء ثم طلب جيفكوف الانسكلوبيدية السوفيتية الكبرى واطلع على مادة (زيونيزم) فوجد انها تدين الصهيونية كحركة رجعية تفرق العمال اليهود في كل بلد عن الطبقة العاملة ..الخ فوافق على اقتراحنا وأدرجت الادانة في صلب البيان المشترك.

56

سلة الرمان

بعد غيبة عن الوطن استمرت نحو ستة اشهر عدت مع الوفد الحزبي إلى بغـداد في أوائـل آذار ١٩٥٩ وكان الصراع قد اشتد بين الوحدويين من جهة وعبد الكريم قاسـم مـن جهـة اخـرى. فقد اعفى سندهم وزير الداخلية عبد السلام عارف من كافة مناصبه الحكومية بعد اكتشاف تآمره لاسقاط قاسـم وإعـلان الوحـدة. واتكـأ قاسم على الحـزب الشـيوعي والمقاومـة الشـعبية لحمايـة الجمهورية من المتآمرين عليها وكان هذا يعني الاصطدام بدعاة الوحدة الاندماجية الفورية وتصفيـة الجمهورية وتحويل العراق إلى إقليم يحكمه ضابط مباحث كسوريا. وكانت المقاومة الشعبية تفتـش سيارات الوزراء ومنهم محمد حديد وزير المالية الذي فتشت سيارته مرة فثارت عاصفة هوجاء ضد المقاومة الشعبية ودور الحزب الشيوعي فيها. لقد حدثـت فعـلا مبالغـات وتجـاوزات. فالجماهـير التي خرجت من سبات سياسي طويل كانت تبالغ في اثبات وجودها وفي تجاوزاتهـا علـى القديـم وحرصها على الجديد وهو ما حدث في كل ثورة كبيرة، ثورة الملايين. ولكـن لـو احصينـا خسـائر اثني عشر شهراً من تلك الثورة لما بلغت خسائر يوم واحد من أيام انتفاضة آذار ١٩٩١، العفويـة التي انجرت الإحزاب السياسية وراءها بسبب عفويتها وشدة زخمها ولم تستطع أن تعطيها طابعاً منظما ومنضبطا كما فعل الحزب الشيوعي في ثورة ١٤ / تموز /١٩٥٨ الذي لم تبلغ خسائره عشـر معشار خسائر يوم «حـرق القـاهرة» ويتجلـى دور الحـزب الشـيوعي العراقـي في تنظيـم الجماهـير وتوجيهها بالمقارنة مع ما يحدث في انتفاضات القاهرة من حرائـق وأعمـال تدمـير و«فرهـود؟» اي نهب غوغائي على نطاق كبير. أن شيئاً مـن هـذا لم يحـدث خـلال عـام الثـورة العراقيـة بفضـل التنظيم الجماهيري والتوجيه الحزبي باستثناء ما جـرى في الموصـل بعـد عصيـان العقيـد الشـواف ومظاهرة ١٤/تموز/١٩٥٩ في كركوك أي في الذكرى السنوية الاولى للثورة وسنأتي عليها. ولا أعـنـي إن حزبنا لم يبالغ خلال دفاعه عن الجمهورية في إسـناد قاسـم اكـثر ممـا ينبغـي بحيـث أمسـك بالنهاية القذرة من العصـى بـدلاً منـه فقـد أخـذ الحـزب الشـيوعي علـى عاتقـه نصـب الفخـاخ للمتآمرين كما جرى فعلا مع عصابة «رشيد عالى الكيلاني» في خريف ١٩٥٨ وتسليم الادلـة لقاسـم الذي شجع حسين الرضي على الاستمرار في هذا النشـاط. وعندمـا قلـب قاسـم ظهـر المجـن ضـد الحزب الشيوعي استغل كل اخطائه ضده ليسترضي خصومه.

كان الرضي يريد أن يشعر قاسم بانه تحت حماية الحزب الشيوعي لكسبه أو «لبلـع الحجـر» على حد تعبيره. وكان قاسم يرى أن لولاه هو لبقي الشعب العراقـي ألـف سـنة أخـرى مسـتعبدا. وكان بعض مرافقي قاسم من أعضاء الحزب الشيوعي وفي إحدى لقاءات عـامر عبـد الله مـع قاسـم أوصاه خيراً باولئك الرفاق فكانوا أول من أبعدهم قاسـم عـن مقـره في وزارة الدفـاع عندمـا توتـرت علاقته مع الحزب الشيوعي.

كانت بغداد في تلك الآونة ترفل بحلة قشيبة وهي تعيش أعياد الثورة بيد أن نار الفتنة كانت تستعر تحت الرماد. وفي الأسبوع الاول من آذار جاء العقيد الشواف آمر حامية الموصل العسكرية إلى بغداد ليلتقي عبد الكريم قاسم ويخادعه. ونصح ضباط المقر العام في وزارة الدفاع قائدهم بأن يحجز الشواف في بغداد ولا يدعه يعود إلى حاميته لان تآمر الشواف ضد النظام لم يكن سراً. ولكن قاسم ضرب بنصائحهم عرض الحائط واستقبل الشواف في مكتبه في وزارة الدفاع وانخدع له وسمح له بالعودة إلى الموصل.

وحاول الشواف أن يلتقي حسين الرضي في بغداد ولكن محاولته باءت بالفشل لأن الرضي كان مطلعا على نوايا الشواف التآمرية ويقظا ازاءه ولم ينخدع له.

وفي ٨/آذار/١٩٥٩جرى احتفال في ساحة الكشافة في شارع الامام الاعظم احتفالاً بيوم المرأة العالمي. وكنت حاضرا مع الرضي في شرفة المتفرجين وبعد ساعة أسر الرضي باذني هيا إلى مكتب اتحاد الشعب في شارع الكفاح، حدث انقلاب عسكري في الموصل. فذهبنا سوية وكان عامر عبدالله حاضراً فلخص الرضي الموقف: الموصل منقطعة عن بغداد منذ الصباح وإذاعة الشواف تبث البيانات وتحرض على التمرد. الاتصال الوحيد هو الخط البرقي الخاضع لسكك الحديد وهو بيد رفاقنا ومنهم نوري رفائيل في مصلحة السكك. ناظم الطبقجلي لم يحرك القطعات العسكرية إلى الموصل خوفاً من انضمامها إلى التمرد. وفتح باب المناقشة. فتكلمت، وقد تذكرت انقلاب بكر صدقي وكيف أن الطائرة القت (٤) رمانات يدوية في باب السراي فاستقال رئيس الوزراء يس الهاشمي، وتذكرت تمرد أمين العمري في معسكر (الغزلاني) نفسه في الموصل، وكيف كنا نتحدث يوسف متي وأنا عن أنه لو ألقيت بضع رمانات على معسكر الغزلاني لقمع التمرد في مهده. واقترحت ‹ تذهب طائرة واحدة لتلقي سلة من الرمانات اليدوية على معسكر الغزلاني حيث مقر آمر الحامية المتمرد العقيد الشواف فتقمع الفتنة في مهدها. وقبل المجتمعون الفكرة وتلفن حسين الرضي إلى جلال الاوقاتي قائد القوة الجوية مقترحا عليه إرسال طائرة مع سلة رمان. وكان جواب الاوقاتي مفاجئا محبطا. إذ اعتذر بأنه لايملك تحت قيادته أية طائرة ليلية وكان الغروب وشيكا. ترى ألم يكن بمقدوره استعارة طائرة مدنية من الخطوط الجوية العراقية المزودة باجهزة الطيران الليلي لتلقي سلة الرمان في تلك الليلة على معسكر الغزلاني؟ لاأجزم لحد الان ما إذا كان ذلك ممكناً من الناحية الفنية بل لدي انطباع وهو أن جلال الأوقاتي وكان إثقف الضباط العراقيين واوسعهم اطلاعاً لم يكن مبادراً عسكرياً أو سياسياً أو يقظاً كما كان منتظراً من قائد للقوة الجوية في مثل تلك الظروف الحرجة. وقد تجلى سؤ ظني يوم ٨/ شباط/١٩٦٣ إذ رغم إنذار الحزب له قبل يوم بأن موعد الانقلاب غداً، فقد خرج مبكراً في اليوم المشؤوم ومعه طفله ليشتري له شيئاً مع العلم أن ساعة صفر الانقلاب كانت اغتياله هو بالذات. وقد اغتالوه فعلا وبدأ الانقلاب مباشرة بعد مصرعه.

راحت الطائرات الحربية في صباح (٩) آذار وقصفت مقر الشواف فقمعت الفتنة في مهدها. ودعا قاسم الجماهير لمطاردة فلول الفتنة وأباح دماءهم لمدة ثلاثة أيام. وكان ما كان. ولكن بعد بضعة أيام القت المقاومة الشعبية القبض على نفر من المشاركين في الفتنة و هم من رجعيي الموصل وبعد محاكمتهم في محكمة شعبية أخذتهم إلى الدملماجة بالقرب من الموصل وأعدمتهم! وابتهل قاسم الفرصة لينزل ضربة معادلة بحلفائه لاسترضاء اعدائه وليوجه هؤلاء ضد الشيوعيين.

عندما حاسبنا المسؤولين الحزبيين في الموصل بصدد تلك العملية المتأخرة التي استغلها قاسم ضد الحزب قالوا: إن لديهم توجيه من جمال الحيدري لتصفية الرجعيين!

وطالب أعضاء المكتب السياسي محاسبة المسؤولين الحزبيين ومعاقبتهم بعقوبات حزبية وهي لاتتجاوز الطرد من الحزب في أقصى الاحوال، ولكن حسين الرضي رفض ذلك رفضاً باتا وكانت

حجته في ذلك أن قاسم اعتقلهم وبدأ ينكل بهم فهل يليق بنا أن نتجاوب معه ونعاقبهم حزبياً من جانبنا أيضاً!

وأرسل الحيدري لحمايته من المحاسبة الحزبية إلى الدراسة في أكاديمية العلوم الاجتماعية في موسكو وفيما بعد عندما اقتص الرضي من معارضيه في المكتب السياسي أعتبر تلك المطالبة بالمحاسبة الحزبية حجة من حجج الادانة باعتبارهم من مطايا النفوذ البرجوازي في الحزب.

وهكذا تحمل الحزب جريرة بضعة اعضاء من أعضائه كانوا ملكيين أكثر من الملك تجاه المتمردين. وقد تحرج موقف الحزب الشيوعي.وبعد أن كان حاميا للزعيم قاسم غدا تحت رحمته أو نقمته. وأطلق الزعيم العنان لانصار فتنة الشواف واغتالوا من شيوعيي الموصل أضعاف ما قتل منهم في الدملماجة ومن أجل حمايتهم وإطلاق يدهم عين اسماعيل عباوي، الضابط المتقاعد، مدير شرطة الموصل وهو من عائلة موصلية اشتهرت بالتهريب وكان ضابطاً من ضباط بكر صدقي وآمر سرية السيارات المصفحة التي طوقت سميل الاشورية عام ١٩٣٣ وكان سكانها (٣٠٠) نسمة مدنيون عزل: نساء وشيوخ وأطفال تركهم رجالهم المسلحون الذين لجأوا إلى سوريا بعد أن طاردهم الجيش العراقي.فأمر اسماعيل عباوي بإبادتهم جميعاً بنيران الرشاشات بعد أن صفهم على جرف وادي لتتدحرج جثثهم. ولم ينج منهم سوى فتاة واحدة أعجب بها واختارها لنفسه. وقد اثارت المجزرة المروعة الرأي العام العالمي وعصبة الامم آنذاك. وحضر يس الهاشمي اجتماع عصبة الامم واعتذر عن المجزرة الرهيبة ووعد بمحاسبة المسؤولين والقصاص منهم ولم ينفذ وعده اختار عبد الكريم قاسم هذا السفاح مديرا لشرطة الموصل ليوازن بين الطرفين - وليسهل اللعب على الحبلين حتى التف احدهما على عنقه وأزهق روحه في آخر المطاف. في حين ربطنا مصيرنا بمصيره.

وفي حين انحرج موقف قاسم أشد الحرج في نظر ضباطه الذين حذروه من إعادة الشواف إلى معسكره في الموصل وبقينا ننظم المظاهرات والمسيرات الجماهيرية الكبيرة التي تهتف باسمه.

كان الرئيس المصري جمال عبد الناصر قد ربط نفسه علنا في فتنة الشواف فقد كرس وسائل اعلامه الجبارة لتأييدها وتحريض العراقيين على قاسم جهاراً وكتب مستشاره محمد حسنين هيكل البيان الاول لانقلاب الشواف بقلمه وأذيع من دمشق قبل الموصل وورط قبيلة شمر برئاسة الياوور في الجزيرة الفراتية العليا لتشارك في الفتنة مما عرضها لخسائر فادحة على يد القوة الجوية العراقية. وكان عبد الناصر يعتقد أن نظام قاسم هو العقبة الرئيسة التي تقف دون اندماج العراق بجمهوريته «العربية المتحدة» فأثار هذا سخط الاكثرية الساحقة من أهل العراق التي كانت تأبى أن تجعل جمهوريتنا اليافعة المستقلة محض أقليم من أقاليم الجمهورية العربية المتحدة فرفعت قاسم بمواجهة عبد الناصر هاتفة:

جمهورية لاأقليم!   ماكو زعيم إلا كريم.

لم يكن هذا الهتاف من صياغة أي قيادة بل انطلق عفوياً من جماهير النجف ثم انتشر. وأخذ البعض يعبر عن سخطه بالصاق صورة رأس عبد الناصر على صورة جسد إمرأة عارية ويلصقونها على اعمدة شارع الرشيد. ومع إن الحزب الشيوعي سمح لنفسه الانجرار إلى هذا الحد أو ذاك وراء عفوية الجماهير فقد حاول أن يمنع «رمي الطفل مع ماء الغسيل». وقد جاهدت «اتحاد الشعب» لانقاذ سمعة عبد الناصر في العراق كمناضل ضد الاستعمار وانتقدت اولئك الذين كانوا يعتبرونه عميلا من عملاء الاستعمار. ولكن التيار كان جارفا. كان الشعب العراقي قلقاً على مصير الثورة التي أتاحت له الحرية والديموقراطية مما جعله قدوة للشعوب العربية والشرق أوسطية في حين تلاشت الديموقراطية في ظل الوحدة في الجارة سوريا حيث حلت الاحزاب السياسية واعتقل

المناضلون ولم يكن شعب العراق يريد مصيراً كمصير سوريا في حين كان عبد الناصر خائفاً من أن يضيع عليه مثال العراق أقليمه الشمالي سوريا. ولم تكن تجربة الوحدة الاندماجية الفورية قد أثبتت فشلها بعد للناظرين. كان البعث وعبد الناصر وسائر الوحدويين يرون في شعار الاتحاد الفدرالي الذي صاغه الحزب الشيوعي ونشره بين الجماهير محض: «مؤامرة شعوبية ضد الوحدة العربية. وقد تبنى الوحدة الفدرالية البعث وعبد الناصر فيما بعد كما جاء في وثائق «الوحدة ١٧/نيسان /١٩٦٣» وبعد أن اصطدم بعنف بقوة الخصوصية القطرية في كل بلد عربي، لانها نشأت في مجرى التطور التاريخي للبلاد العربية ورسخها الاستعمار. وهذا الدرس الذي أثبتته الحياة كلف البلاد العربية تضحيات باهظة جدا. وقد عانى منه شيوعيو البلاد العربية أكثر من غيرهم. واصبح حتى الاتحاد الفدرالي بعيد المنال تتصدى له الامبريالية والاسر الحاكمة العربية وحتى البرجوازية في الاقطار الغنية، ولن يتحقق ما لم تنال الشعوب السيادة الحقيقية في كل بلد عربي يدخل الاتحاد، أي في ظل الديموقراطية.

57

تكوين القيادة السياسية

في ربيع ١٩٥٩ ضمنا: محمد حسين أبو العيس وأنا إلى المكتب السياسي كعضويين بالاضافة إلى أعضائه الخمسة المنتخبين من قبلِ اللجنة المركزية في أيلول ١٩٥٨ وغدا المكتب السياسي أغنى خبرة سياسية ولكن أقل تجانساً فالثلاثة الاوائل حسين الرضي وعامر عبد الله والحيدري كانوا فيه منذ ١٩٥٦ أن لم يكن قبلها في حين كنا نحن الثلاثة بهاء وهادي هاشم وأنا من ذوي الاحكام الثقيلة في السجن وأبو العيس كان في إيران. وجاء اجتماع السبعة هذا في ظروف جديدة على الجميع وفي غاية التعقيد وسرعة التغيير. يضاف إلى ذلك ضيق الصدور وحدة الطبع العراقي والافتقار الشديد إلى إتقان فن المناقشة والجدال ولا يستثنى من ذلك السكرتير الاول نفسه. بيد انه كان يتمتع بتفوق نسبي على الاخرين. وكانت هذه طريقته في ضم اعضاء جدد إلى قيادة الحزب، جارية منذ الخمسينات .ففي أواسط الخمسينات لم يبق من أعضاء اللجنة المركزية خارج السجن سوى ناصر عبود فقام هذا بضم حسين الرضي إلى عضوية اللجنة المركزية وكلما برز كادر نشط ضموه إلى اللجنة المركزية حتى أصبحت تضم عشرة أو ينوف وبعد ثورة ١٤ /تموز ضموني أليها حال خروجي من السجن ثم جرى ضم آخرين سواء من الخارجين من السجن أو من العائدين إلى الوطن. وهكذا كان التجانس في اللجنة المركزية أضعف منه في المكتب السياسي.

كان الرضي قائداً جريئاً للرجال ومعتداً بنفسه ويمتاز عن منافسيه بالمبادرة السياسية والثبات والاصرار على قناعاته والجدال عليها دون كلل. وكان دبلوماسياً حاذقاً أيضاً. برزت مواهبه هذه في تأليف جبهة الاتحاد الوطني عام ١٩٥٧ وفي التنسيق مع حركة الضباط الاحرار. وكان يعرف كيف يشخص ويستخدم الكفاءات الحزبية وكيف يصطفي الكوادر الجديدة بسرعة. وقد قدم عامر عبد الله بسرعة خاطفة إلى المكتب السياسي عبر اللجنة المركزية وكان يستعين به على كتابة التقارير والمقالات السياسية بعد أن يحدد له الموضوعات ورؤوس الاقلام ويناقشها معه وبعد تحريرها يدققها من جديد ويقرها للطبع والنشر وبالطبع هذا لايعني إنه كان مصيباً في تشخيصه دائماً. كان عامر عبد الله يتمتع بثقافة سياسية أوسع نسبياً وبمران وكفاءة في التحرير ولكنه دون الرضي صبراً في الجدل والمزايا الاخرى. أما بهاء الدين الذي تولى قيادة الحزب بعد أن ثبت المركز الحزبي (١٩٤٩ ــ ١٩٥٣) فكان دائب الحركة لايستقر على حال ولديه قدرة على الكتابة السياسية، متعدد الاهتمامات متشعب الاهواء ولكنه يفتقر إلى مزايا حسين الرضي. وقد بلغ اعتداده بنفسه واستبداده برأيه وضيق صدره بالمناقشة وفضاضته مع الرفاق حداً أنفض معه الرفاق عنه بعد أن أصبح يتصل بهم مباشرة ووجاها في ظروف العلنية أوشبه العلنية وليس من وراء ستار السرية.

وبقي الرضي مهاباً في مرحلة النهوض الثوري بفضل إنجازاته السياسية وفي بناء الحزب ووحدته، بقي القطب الموحد الذي تلتف حوله القيادة الحزبية ومنظمات الحزب. بيد أن

الانتصارات التي تحققت للحزب تحت قيادته في مدة وجيزة تركت عليه جانبها السـلبي أيضاً، وهو الشعور بالرضى عن النفس وهو اسوأ الأمراض التي تصيب القادة الثوريين. وعندمـا أخـذ المد الثوري بالانحسار وتألبت القوى الاخرى ولا سيما الحكومة ضد حزبنا ظهرت المعارضة في المكتب السياسي وكانٍ قطباها حسب تشخيص الرضي: بهاء الدين نـوري وعـامر عبـد الله. وكـان الاشـد لجاجة وإقلاقاً وجزعاً حتى شبهه الرضي وجها لوجه بالعقرب التي تلـدغ نفسـها لتمـوت عندما تحيط بها النيران من كل جهة. وقال عنه مرة إنـه يقسـم الكـوادر الحزبيـة بـين جدولـين عنـوان أحدهما: أحبهم وعنوان الاخر: لاأحبهم. ولا تدري متى ينتقل هذا من هنا إلى هناك ولماذا؟

58

اصطراع قوى الثورة

أعقب قمع فتنة الشواف تصاعد المد الثـوري الجماهـيري بقيـادة الشـيوعيين وقـد أطلـق عليـه خصومنا اسم «الطغيان الاحمر» و«المد الخمسيني» (٥٠) يوما نمت فيه المنظمات الاجتماعيـة نمـوا عظيما ولا سيما نقابات العمـال وجمعيـات الفلاحـين ورابطـة المـرأة العراقيـة واتحـادات الشـبيبة والطلبة. وكـان الشـيوعيون في مقدمـة المبـادرين إلى تأسيسـها قبـل الثـورة وكـان قاسـم يسـتجيب لطلباتها بالعمل الشرعي ويشجعها. وكان الحزب يدافع عن قاسم ولم يفكر قط في إزاحته او حتـى اجراء انتخابات عامة في تلك الايام وانتخاب المجلس التأسيسي يتمتـع بالسيادة ويقيـد سـلطات قاسم. وكانت شعبية الحزب قد بلغت في تلك الفترة ذروتها ولو أجريت الانتخابات لنال الحـزب ٧٠ ٪ من الاصوات حسب تقدير قاسم نفسه في لقاء له مع الرضـي الـذي كـان يسـعى مـع كـامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديموقراطي لاعادة تأليف جبهة الاتحاد الوطني حيث كـان رد فعل قاسم سلبياً للغاية إذ قال للرضي:

ـ ما حاجة حزب إلى الجبهة وهو يتمتع بتأييد (٧٠ ٪) من السكان؟

كان القوميون قد انسحبوا من حكومة قاسم الواحد بعد الاخـر ولم يبـق سـوى ممثلـي الحـزب الوطني الديموقراطي ولم يكن فيها أي شيوعي. وكان قاسم قد جمد في مقره العام كل نشاط لوصفي طاهر الذي كان مرافقة الاقدم وصلة الوصل مع حسين الرضي. وأراد الحزب الشيوعي أن يشـترك بالحكومة في حين كان قاسم يعد العدة للانقضاض عليه. وكان قد طمأن السفير الامريكي في طهران على لسان وزير خارجيته هاشم جواد عندما استقبل السـفير الامريكي قائلا:

ـ سنقص أجنحة الحزب الشيوعي.

وقد سمعنا ذلك من سفير العراق في موسكو عبد الوهاب محمـود فقـد حملـه السـوفييت رسـالة شفوية إلى قاسم حول هذه المعلومات التي قالوا إنهم لم يحصلوا عليها لامن بغـداد ولا مـن طهـران بل من مصادر أخرى. وفي أواخر نيسان ١٩٥٩ نشرت «إتحاد الشعب» سلسـلة مقـالات افتتاحيـة ساهم في كتابتها عامر عبد الله وبهاء الدين نوري تدعو لتمثيل الحزب الشيوعي في حكومـة قاسـم الرئيس والقائد المعترف به من الجميع.

وفي مساء ٣٠/ نيسان /١٩٥٩ أعد اتحاد نقابات العمال بمناسبة يوم العمال العالمي، الاول مـن أيار حفلاً حضره عبد الكريم قاسم وألقى خطاباً هاجم فيه بعنف الحزبية والاحزاب وزاعمـا أنهـا من وضع الاستعمار. كان ذلك نذير شؤوم ولكننا تجاهلناه وكأن شيئاً لم يكن.

وفي الاول من أيار /١٩٥٩ ومنذ الصباح خرجت أول مظاهرة جبـارة لـلاول مـن أيـار في تـاريخ العراق وقد وصفتها وكالات الانباء الغربيـة بأنهـا المظـاهرة الثالثـة في نفس اليوم بعد مظـاهرتي

موسكو وبكين. والشيء الذي تميزت به عن مثيلاتها في البلدان الاشتراكية في رأي المشاهدين من أبناء تلك البلدان عفوية المتظاهرون من كل طبقات الشعب. وبقي خصوم الحزب الشيوعي لفترة طويلة يعبرون عن حقدهم بسخرية من الاساتذة الكبار الذين اشتركوا في المظاهرة لانهم كانوا يرقصون «ويهزون كروشهم» غير مبالين باي مظهر من مظاهر «الوقار» التقليدي. وبعد المظاهرة بمدة قصيرة ألقى العلامة المؤرخ لتاريخ بغداد مصطفى جواد حديثا من الاذاعة وصف فيه مسيرة كرنفالية في شوارع بغداد في العصر العباسي شديدة الشبه بمسيرة الاول من أيار ١٩٥٩ استعرض فيها أرباب جميع الصناعات والحرف صناعاتهم وحرفهم بما فيها تنانير الخبز المشجورة والمحمولة على متن عربات تجرها الحيوانات. أما مسيرة أول ايار فقد كانت السيارات والجرارات تجر المعروضات التي كان أكثرها من صنع العمال في المعامل الكبيرة ولا سيما معامل السكك إلى جانب الحرفيين.

وقد أجرى آرا خاجادور لها بروفات في السجن عندما كان سجينا. ومن صفوف المظاهرة انطلق هتاف:

عاش الزعيمي عبد الكريمي حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي

نقل خبر الهتاف إلى حسين الرضي وكان يقود المظاهرة سياسياً من إحدى الشرفات المطلة على شارع الرشيد، في حين كان قادة الحزب الاخرون يسيرون في مقدمة المظاهرة حسب تكليفه. وافق الرضي على الفور على الاستمرار بترديد الهتاف حتى طغى على كل هتاف اخر.

زعم أعداء الحزب الشيوعي إنه «يستعرض عضلاته» تمهيداً للزحف على السلطة تحت ستار الاشادة بالزعيم عبد الكريم.والحقيقة إن شيئاً من هذا لم يدر حتى في خلد الرضي أو جمال الحيدري. بل كل ما في الأمر كان الرضي يريده كما صرح لي هو في حينه أن يسند قاسم جماهيرياً. إذ كان هذا ينوي اجراء تعديل في حكومته وإدخال وزير شيوعي فيها. وكان محمد حديد قد نصحه باستيزار عامر عبد الله بالذات وكان الرضي يدعو أيضاً لاستيزار عبد القادر اسماعيل الذي لم يكن عضواً في المكتب السياسي بل في اللجنة المركزية فقط ولم يكن هذا الشيء المهم. فالخلاف المهم بين الحزب الشيوعي وقاسم. كان في الحقيقة وواقع الامر هو أن قاسم كان يريد حكومة تضم كل الميول والاتجاهات على شرط واحد وحيد وهو أن يكون القول الفصل للزعيم الاوحد.

والحزب الشيوعي يريد حكومة ائتلافية برئاسة عبد الكريم قاسم على أن يحافظ كل حزب على استقلاليته. أن يكون للحزب الحق في أن يقول (لا) وشتان بين ما نريد أن نكون وما يراد لنا أن نكون.

كان رد فعل قاسم على المظاهرة رداً صارخاً. فقد اضرب عن الخروج إلى شرفة وزارة الدفاع ليرد على تحيات المتظاهرين وأخذ يشن في خطبه حملة عنيفة على الحزب الشيوعي إذ لم يكن يتوقع أن تصطبغ مظاهرة أول أيار بصبغة حزبية وكان هو نفسه قد زج فيها بالكليات العسكرية ومدارس الشرطة وبالعديد من ضباط الشرطة الكبار الذين أظهروا منتهى الحماسة في ترديد الشعار: «حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي!» والرقص على أنغامه. لقد اختلط الامر على الناس إذ كانوا يظنون أن قاسم رجل الحزب الشيوعي وإن الحزب الشيوعي هو حزب قاسم.ـ ولم يكن بالامكان فرز قوى الحزب الشيوعي عن قوى قاسم آنذاك.

وبين اجتماع اللجنة المركزية في ايلول ١٩٥٨ واجتماع تموز ١٩٥٩ لم يدع المكتب السياسي اللجنة المركزية إلى الاجتماع رغم الاحداث الجسام التي جرت في حياة العراق في تلك الفترة. وكان الرضي يعقد اجتماعات ارتجالية في مكتب «اتحاد الشعب» يحضرها من يصادف حضوره هناك سواء من أعضاء اللجنة المركزية أو كوادر أخرى، ويطرح عليهم قضايا الساعة دون أن يعدّ لها أو

يعقد اجتماعاً موسعاً أو غير موسع للجنة المركزية. والحال حدثت قضايا كان كل منها يستوجب عقد المؤتمر الثاني للحزب أو أي مؤتمر استثنائي أو مجلس حزبي «كونفرانس» ولا سيما والظروف ملائمة لانعقادها. وبقي اعضاء اللجنة المركزية جاهلين لميول وامزجة بعضهم بعضا ولاسلوب المناقشة المناسب.

واجتمع المكتب السياسي بعد مظاهرة أول أيار لتقييم التطورات التي اعقبتها ورد الفعل السلبي من جانب قاسم والتوتر في الجو السياسي وذلك في مكتب اتحاد الشعب في شارع الكفاح. وقد جوبه الرضي باحتجاج عنيف من جانب أعضاء المكتب باستثناء جمال الحيدري، الذي كان موقفه إلى يسار موقف الرضي بوجه عام. لقد وجه أغلب أعضاء المكتب السياسي وأنا من بينهم اللوم إلى الرضي بناء على اقراره ترديد هتاف «حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي» الذي انطلق عفويا من المتظاهرين. فاحتج الرضي بإن الهتاف جاء استجابة من الجماهير لحملة الحزب في جريدته المركزية من أجل اشتراكه في الحكم بصورة حكومة ائتلافية يرأسها قاسم فهل يليق بالحزب اسكات الجماهير المستجيبة لدعوته؟

كان رد الرضي منطقيا ولكنه لم يقنع المكتب السياسي وبعد جدال حاد وطويل توصل الاجتماع إلى تنظيم «حملة تثقيف» لشرح شعار الحزب بصدد الاشتراك بالحكم. وذلك عن طريق عقد اجتماعات محلية صغيرة في المعاهد والمشاريع والمحلات السكنية. ولكن هذه الحملة التثقيفية لم ترض قاسم بل سدد ضربته الجوابية عليها بحمل محمد حديد على إعلان تجميد الحزب الوطني الديموقراطي لنشاطه بغياب كامل الجادرجي للعلاج في الاتحاد السوفيتي. وقد عارض قرار التجميد بضعة عشر من أعضاء الحزب الوطني الديموقراطي البارزين ومن بينهم المحامي ناجي يوسف وعبد المجيد الونداوي سكرتير تحرير جريدة «الاهالي».

واجتمع المكتب السياسي لدراسة الوضع المتغيير بسرعة والمتوتر وتمخض الاجتماع عن قرار بوقف الحملة التثقيفية «رأبا للصدع في الصف الوطني» وقد عارض القرار جمال الحيدري وكان يرى أن تستمر الحملة حتى يتحقق مطلب الحزب بتمثيله في الحكومة وان التراجع غير مأمون العاقبة ..الخ كان الرضي مع اجراء تراجع منظم من جانب الحزب في حين كان الحيدري يرى أن أي تراجع سوف يؤدي إلى الهزيمة.

وقد عمل عبد الكريم قاسم في تلك الاونة على إحباط مساعي الحزب الشيوعي لاقامة الجبهة الوطنية من جديد ولذا سعى إلى تجميد الحزب الوطني الديموقراطي. وقد نجح في مسعاه بفضل استجابة محمد حديد له ووضع الحزب الشيوعي في موضع الدفاع السلبي عن النفس.

59

إنتصار الدكتاتورية الفردية

كان حسين الرضي قد فتح باب المفاوضات مع كامل الجادرجي بشأن اعادة تأسيس الجبهة الوطنية بعد قمع مؤامرة الشواف وفي عنفوان المد الجماهيري. وكان الجادرجي مستاء من «طغيان الحزب الشيوعي» على حد زعمه وكان يقارنه بطغيان البعث بعد ثورة ١٤ /تموز مباشرة وقبل أن تترك الاحزاب القومية المسرح السياسي العلني. وكان الحزب الوطني الديموقراطي ينمو إلى جانب الحزب الشيوعي ويفتح المقرات في المحافظات والقصبات. وقد اشتد الاحتكاك والمزاحمة بين فروع الحزبين ولا سيما في الصويرة.كان الجادرجي يحتج على «تجاوزات الشيوعيين» على أنصاره وقد بذلت المساعي بين الحزبين لتلطيف العلاقات بين فروعهما وتألفت في مراكز القصبات لجان مشتركة لتسوية النزاعات ولاشك في وقوع بعض المشاجرات بين الشيوعيين ومنافسيهم من أعضاء الحزب الوطني الديموقراطي ولكن التوتر بين قواعد الحزبين كان دون التوتر بين الشيوعيين والبعثيين بمراحل.وحتى مع هؤلاء لم يبلغ التوتر إلى حد الاقتتال كما جرى مؤخراً بين وطنيي جنوب افريقيا مثلا ولم يقتل أو «يسحل» حتى بعثي واحد أيا كان. ولكنهم تبنوا كل من قتل فيما بعد للتشنيع على الحزب الشيوعي العراقي واستباحة دم الشيوعيين. بيد أن جوهر الخلاف بين الجادرجي والرضي هو أن الاول يسعى لتأليف تحالف مع الحزب الشيوعي ضد قاسم في حين كان الرضي ضد مثل هذا التحالف ويريد أن يجعل من قاسم قاسماً مشتركاً بين الوطنيين. ولم يكن الجادرجي مع القوميين الذين يريدون دمج الجمهورية العراقية بجمهورية عبد الناصر المتحدة، في هذا شأن الحزب الشيوعي. وكان الجادرجي قد التقى جمال عبد الناصر في القاهرة قبل ثورة ١٤/ تموز ولم يعجب أحدهما الاخر. فقد وجد عبد الناصر في الجادرجي «سياسياً من الطراز العتيق البالي» أما الجادرجي فقد وجد في عبد الناصر «عسكريا بونابارتيا كعسكريينا» وكان عبد الناصر يرى في نفسه «منقذا» لشعب خانع تحت «جزمة» حكامه كما ذكر لأكرم الحوراني وكما صرح لنا عبد الكريم قاسم إذ قال لنا في اخر لقاء له معنا في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٠

ـ أن الشعب العراقي كان يائساً مستكيناً. وأنا الذي أنقذته، وأن الاحزاب لم تكن تريد سوى تعديل وزاري وأنا الذي جعلت التغيير ثورة وأقمت الجمهورية.

ويبدو أن هؤلاء المخلّصين يبدأون كيسوع وينتهون كقيصر.

وكان الجادرجي يريد نظاماً ديموقراطياً برلمانياً ولكنه كان متطيراً من المد الثوري الجماهيري في نفس الوقت. وتلك كانت محنته فكيف يمكنه إدخال الديموقراطية في بلد اقطاعي عشائري لم يذق طعم الديموقراطية، من دون ثورة شعبية عارمة تجر وراءها أبعد الجماهير عن السياسة وتدمر مخلفات القرون الوسطى وتكتسح اعداء الثورة بلا هوادة. لتنبثق المؤسسات الديموقراطية من بين الجماهير ذاتها.

في عام ١٩٤٦ قلت للجادرجي أن أول ما يجب أن تفعله حكومة ديموقراطية في العراق هو الغاء نظام دعاوي العشائر الذي تركته لنا إدارة الاحتلال البريطاني فقال:

كيف؟ أن هذا يجب أن يدرس بتأني أولاً قبل البت فيه..

وقد الغاه قاسم بجرة قلم!

كان الحالمون البرلمانيون ينتظرون ولادة البرلمان في دواوين الدولة اللاديموقراطية وفي جو «يسوده الهدوء والسكينة» كما جاء في بيان الاحزاب البرجوازية الثلاث في أربعينية شهداء وثبة كانون الثاني ١٩٤٨ أي إنه لايولد في الشارع على يد الجماهير الثورية.

ولكن الخلاف دب في قيادة الحزب الوطني الديموقراطي. فان النخبة المثقفة وعلى رأسها محمد حديد وزير المالية آنذاك لم تكن مع الجادرجي في موقفه السلبي من قاسم. إذ كانت تجد في الالتفاف حوله الفرصة التاريخية السانحة لجعل حزبها، الحزب الحاكم وهو ما ورد صراحة في مقال كتبه محمد حديد في جريدة «البيان» لسان حال «الحزب الوطني التقدمي» المنشق عن الوطني الديموقراطي. وقد أدى الخلاف بين قطبي الوطني الديموقراطي إلى سفر الجادرجي للعلاج في موسكو بواسطة حسين الرضي. وكان ذلك في أواخر نيسان ١٩٥٩ عندما بلغت مفاوضات الجبهة إلى حد إعداد الوثيقة الختامية الجاهزة للتوقيع.

وعندئذ استجاب محمد حديد لحملة قاسم ضد الحزبية والاحزاب في خطابه بارحة أول أيار ١٩٥٩ وقرر تجميد الحزب الوطني الديموقراطي إذ هو رئيسه بالنيابة في غياب الجادرجي. وقد صرح الجادرجي فيما بعد إنه لم يكن ضد التجميد مبدأياً احتجاجاً على الطرفين: دكتاتورية قاسم الفردية وطغيان الحزب الشيوعي.

كان الجادرجي يتميز عن سائر زعماء البرجوازية الوطنية في العراق سواء السياسيين منهم والايديولوجين في فرادة شخصيته واعتداده بنفسه إلى حد قد يتخذ أحياناً موقفاً يتعارض إلى هذا الحد أو ذاك مع مصالح طبقته الانية .ويرجع هذا إلى تكوينه الثقافي وجزئيا إلى انه سليل اسرة ارستقراطية. اما محمد حديد فلم يكن كذلك رغم جميع الصفات المشتركة بينهما في الاغلب الاعم من الحالات. وبهذه المناسبة أذكر أن الجادرجي صرح مرة لأحد أعضاء المكتب السياسي واظنه عامر عبد ا لله قائلا:

ـ انتم هيجتم الخنزير البرجوازي إذ جرحتموه ولم تجهزوا عليه وها هو ينقض عليكم.

وقد كتب الجادرجي في مذكراته إنه لو كان متفقاً مع الحزب الشيوعي في وجهة النظر لما وجد أي عيب في الانتماء اليه يعني إنه لم يكن يحرم الانتماء للحزب الشيوعي من الناحية الاخلاقية.

ولكن محمد حديد أراد التجميد احتجاجاً على الشيوعيين وتجاوبا مع قاسم الذي أراد عزل الشيوعيين عن حلفائهم وتركهم لوحدهم في الساحة أمام أنظار الجميع لترويض الحزب الشيوعي من جهة وترضية خصومه القوميين من الجهة الثانية.

وكانت أمريكا لا تألو جهداً في الضغط عليه لصد المد الثوري خوفا من انتشاره في المنطقة البترولية الحساسة التي يشكل العراق قلبها النابض. ومن هنا ضرورة «قص أجنحة» الحزب الشيوعي العراقي على حد تعبير قاسم ومن هنا إحباط كل جهد لاحياء جبهة الاتحاد الوطني. ولم يكن قاسم عميلا للامبريالية فقد أنزل ضربات قاصمة في أخطر مصالحها إذ استرجع منها ٩٩،٥٪ من مساحة امتيازاتها البترولية وسحب العراق من «حلف بغداد» فتحولت بغداد إلى مركز من مراكز الاشعاع الثوري التحرري في آسيا وافريقية. ولكن قاسم كان مطوقا بين نارين: الامبريالية من جهة وخصومه الوحدويين الاندماجيين من جهة أخرى. ومن هنا خوفه من

التحالف مع الشيوعيين. إن الذين كانوا يرمونه بالعمالة للامبريالية لم يكونوا يتورعـون عـن رمي بعضهم بعضا بالعمالة والخيانة وحتى بالشعوبية عندما يتخـاصمون اليـوم ليعـودوا لبـوس اللحـى غدا. وقد استعانوا بالامبريالية والرجعية العربية لاسقاط قاسم والاستحواذ على السلطة.

وكان تاكتيك الحزب الشيوعي يرتكزعلى فصل قاسم عن الامبريالية والرجعيـة بحيـث يقطـع عليه خط الرجعة وكمثال على ذلك تنظيـم حملـة المطالبـة الشعبية بتنفيـذ حكـم الاعـدام بعمـلاء الامبريالية المحكومين بعقوبة الاعدام.ولكن المطلب لم يتحقق وارتد على الحزب. ومع ذلك انفصل قاسم عن الامبريالية وحلفائها بتأميم مناطق امتيازات شركات النفط والانسحاب من حلـف بغـداد والتعاون الوثيق مع الاتحاد السوفيتي. وبعد أن أوقف الحزب الشيوعي حملته من أجل تمثيلـه في الحكومة استمر النشاط الجماهيري بالضد من موقف قاسم السـلبي مـن الحزبيـة وكـانت الحشـود تقاطع خطبه بشعاراتها المضادة لاتجاهه اللاديموقراطي حتى نهاية السنة الاولى مـن الثـورة. وقـد حدثني وصفي طاهر وكان مرافق قاسم عندئذ قائلا:

ـ أن قاسم خرج عن طوره مرة عندما قاطعه الجمهور وأخـذ يفشـر علـى النـاس بصـوت واطـئ وبكلمات بذيئة، متوعدا إياهم..

60

اتحاد الشعب

كان الحزب الشيوعي آخر أحزاب جبهة الاتحاد الوطني في الحصول على جريدة سياسية تعبر عن وجهة نظره. وقد تردد قاسم كثيراً قبل أن يجيز «اتحاد الشعب» لتصدر كجريدة علنية بموجب القانون. وقد منح امتيازها إلى عبد القادر اسماعيل وكان ما يخشاه قاسم هو سياسة الحزب الثورية وخوفه من إثارة أعداء الشيوعية ولا سيما الولايات المتحدة الامريكية. ولكن تفاقم نشاط القوميين المعادي وتحدي الشيوعيين لهذا النشاط والضغط الجماهيري الذي نظمه الحزب الشيوعي من أجل إصدار جريدته العلنية كانت هي العوامل التي اضطرت قاسم لاجازة الجريدة وان لم تكن أول جريدة شيوعية علنية،فانها كانت اول جريدة علنية يعترف الجميع بانها جريدة الحزب الشيوعي العراقي الرسمية.

وقد نشرت «اتحاد الشعب» في أول عدد من أعدادها العلنية برنامج عملها وكانت اوسع الجرائد السياسية انتشارا. وقد تميزت عنها بجيش المراسلين الذين يزودونها بالاخبار إذ كان مراسلوها هم أعضاء الحزب الشيوعي وأصدقاءه القادرين على التقاط الاخبار وكتابتها وكذلك المنظمات الحزبية ومساهماتهم كانت تغطي القسم الاكبر من صفحاتها، فكانت جريدة الجماهير فعلا، محررين وقراء!

وقد اشرف على هيئة التحرير بادئ ذي بدء عامر عبد الله وتلاه بهاء الدين نوري ثم جاء دوري في حزيران ١٩٥٩ بيد أن الرضي كان اكثر الجميع اهتماما بتحرير الجريدة وتتبعا لكتابة المقالات الرئيسة وتوجيهها سياسيا. وكثرة من المقالات الافتتاحية كانت أما بقلمه أو بناء على رؤوس أقلام وضعها هو.

وكان أنشط المحررين رحيم شريف عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وعدنان البراك وكان شاباً مثقفاً أشغل دوره بكفاءة كسكرتير تحرير. وكان جريئاً في نقده الصارم لمن فوقه أو بمستواه حزبياً إلى حد إنه كان يخجلهم عندما يقصرون في عملهم ولولا صراحته لما بلغت الجريدة المستوى الذي بلغته بحيث أصبحت في مقدمة الصحافة العراقية إن لم أقل العربية. وقد استشهد كلاهما على أيدي انقلابيي ٨/شباط/١٩٦٣ تحت التعذيب في قصر النهاية ودفنا في القبر الجماعي في أبو غريب ضاحية بغداد الغربية وكلاهما كان يعمل من الضحى إلى منتصف الليل.

كان الرضي يتفقد المنظمات الحزبية في بغداد ويجند المتطوعين للعمل في هيئة التحرير فيتوافدون ليجربوا حظهم. وكانت هيئة التحرير تختار اكفأهم للعمل مساء تحت إشرافها. وقد برز عدد من الصحفيين من خريجي سجن «نقرة السلمان» وقد زودت اتحاد الشعب صحفا تقدمية أخرى كجريدة «العالم العربي» لصاحبها لطفي بكر صدقي بالمحررين وكان أبرزهم الأديب

يوسف متي وكان من قدماء أعضاء الحزب الشيوعي ومن اوائل القصصين العراقيين. وكان من محرري اتحاد الشعب المهندس ابراهيم علاوي من خريجي بريطانيا وهو شخص وديع كما يدل عليه مظهره ولكنه لم يتردد لحظة في اعدام زميل له (خضر) من نفس الميل اليساري المتطرف، عندما شق عصى الطاعة عليه بعد أن أنشق هو نفسه عن الحزب الشيوعي عام ١٩٦٧ وكان من محرري الجريدة عزيز الحاج وقد تمرن على الكتابة السياسية في السجن ولم يتميز بميل معين بل كان يتكيف مع رؤسائه فيسخر قلمه كما يراد منه أن يكون فكان موضع رعايتهم الخاصة على اختلاف مشاربهم وميولهم واهوائهم. أما مع مرؤسيه فكان فظاً غليظاً. وقد قال احدهم عنه

ـ إنه كان يجمد الابتسامة على شفاهنا.

أفاد الحزب الشيوعي من مكاتب الجريدة العلنية فجعلها مقراً للجنة المركزية وكانت المكاتب في شارع الكفاح بالقرب من ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني وقد انتقلت هيئة التحرير إلى مطبعة فريد الاحمر في النهاية الشمالية من شارع الشيخ عمر. وقد ساعد المليونير فريد الاحمر الحزب الشيوعي على تأسيس هذه المطبعة في كراج له وقد صادرها انقلابيو ٨/شباط/١٩٦٣ ولم يعيدوها إلى اصحابها الشرعيين. وكانت ماكنة الطباعة بادئ ذي بدء ماكنة صغيرة فريدة من نوعها.كان بامكان غرفة صغيرة أن تستوعبها ولكنها كانت تطبع جريدة بأثني عشر صفحة من القطع النصفي «تابلويد» بسرعة (١٥,٠٠٠) نسخة في الساعة. وكانت تطبع «اتحاد الشعب» في ساعتين في حين كان صف حروف الجريدة بالآت الصف كانت تستغرق ١٢ ساعة. وكانت المطبعة المومة إليها تطبع جريدة الحزب الشيوعي الالماني «دي روته فانه» من عام ١٩١٩ـ١٩٣٣ أي حتى استيلاء هتلر على الحكم وقد أهداها لنا الرفاق الالمان لتطبع جريدتنا المركزية وقد نجت من المصادرة بفضل فطنة واعتزاز فريد الاحمر. فعدنا إلى استعمالها لتطبع «طريق الشعب» جريدة الحزب الشيوعي المركزية بعد أكثر من عشر سنوات قبل أن نستورد ماكنة طبع أكبر منها من المانية الديموقراطية وأعدنا المطبعة التاريخية للرفاق الالمان الذين تعجب خبراؤهم الجدد عندما رأوها عندنا وقالوا لنا إنهم سيضعونها في متحف ماكنات الطباعة عندهم وقد دهشوا لعظم قدرتها بالنسبة لحجمها. وهكذا نجت للمرة الثانية من مصادرة زمرة صدام حسين التي تعرضت لها المطبعة الكبيرة الثانية لجريدة الحزب المركزية عام ١٩٧٩

كنت أسهر في المطبعة حتى الصباح لمدة شهرين حتى استقر العمل وبدأت الجريدة تصدر بانتظام في الموعد المحدد وفي يوم عطلة الجريدة الاسبوعي (الجمعة) وكانت الجريدة سابقاً تصدر في جميع أيام الاسبوع خلال السنة الاولى من الثورة. كنا نجمع المحررين في اجتماع موسع اسبوعي لبحث شؤون الجريدة وتحسينها وفي الحقيقة لم تكن اتحاد الشعب عندئذ بمستوى جريدة يومية شعبية بمستوى سواد القراء بل غدت مجلة يومية للكادر الحزبي لولا مقالات أبو سعيد الهجائية التي كانت بمثابة نبض الحياة فيها وكانت أشد وقعاً على خصومنا من وقع الصواعق أو سياط النار. كنا نتدخل فيما يكتبه أبو سعيد نشذبها ونخفض من حرارتها إلى أقصى ما نستطيع ولكن النتيجة هي هي! إذ كانت النداءات التلفونية تترى احتجاجاً على شدة هجوم أبو سعيد فلا يزال المزاج العراقي مزاجاً بدوياً يتحمل نار جهنم ولا يتحمل مثقال من الهجاء أو النقد. وحتى كامل الجادرجي كان يلح علينا بالرجاء لنكف عن نشر مقالات ابو سعيد. والحال كان الهجاء بيد الثوريين معولاً هداماً للرجعية وللتقاليد البالية التي ولى زمانها. وكان تعلق الجماهير بمقالات أبو سعيد طاغياً يقرؤوها بلهفة وتتداول تعابيرها اللاذعة بحق أعداء الشعب. لقد استشهد أبو سعيد على يد انقلابيي ٨/ شباط/١٩٦٣ في حزيران ١٩٦٣ ودفن في قبر جماعي

مع رفاقه الشهداء جمال الحيدري ومحمد العبلي.ولكن آثاره الادبية لن تموت .وقد ترك فراغـاً في الأدب العراقي «الهجاء السياسي».

وكان من محرري اتحـاد الشعب، ابراهيـم الحريـري، محـرراً شـاباً غزيـر الانتـاج يميـل إلى السخرية أكثر منه إلى الهجاء السياسي ولم يبلغ شأو أبو سعيد.

وكانت المشكلة اليومية في العراق مشكلة المقال الافتتاحي. ما الذي نعالجه اليـوم ومـن يكتبـه. ماهي المسائل المحرم معالجتها في الجريدة؟ أي فهـم الضـرورة مـن أجـل ممارسـة الحريـة عندمـا يكون المد الجماهيري صاعداً يطرح ما لا عد له من القضايا على بساط البحـث لمعالجتهـا وعندئـذ تصبح القضية، أي موضوع منها هو الذي يحتل المكانـة المركزيـة والرئيسـة. وكـانت هـذه الحالـة سائدة منذ صدور العدد الأول وحتى نهاية السنة الاولى من الثورة ثـم بـدأ الجـزر الثـوري فكـانت أكثر المقالات الافتتاحية تدور حول الجبهة الوطنية الموحدة المفقودة وقد تكرر هذا الموضوع إلى حـد (العلك) وغدا مملاً. وليس في متناول يدي أرشيف اتحاد الشـعب لاشـير إلى مـا كتبتـه.وقـد كتـب عامر عبد الله مقالاً مطولاً بالاتفاق مع الرضي وضـع عليـه إسمـي دون أن أقـرأه قبـل الطبـع وقـد فوجئت به واحتججت على عدم اطلاعي عليه ولا أذكر الان ما جـاء فيـه ولا أدري لمـاذا وضعـوا إسمي عليه في حين كتبت مقالاً كبيراً عن الحياة الحزبية ونشر بـدون ذكـر اسمـي شـأن المقـالات الافتتاحية عادة التي كنت اكتبها.وكتبت أشياء كثيرة نشر بعضها بإسمي ولاأذكرها.

وقد أردت أن أدرب هيئة التحرير على الاسـتقلالية في ممارسـة مهماتهـا فكنـت في السـاعات الحرجة اتغيب عن الاجتماع وأدع إليهم معالجة مشاكلهم بانفسهم وقد قوّت هذه الطريقة الاعتماد على النفس لديهم والمبادرة وعدم انتظار نزول الايعازات من فوق .وكان حضور المشرف ضروريـاً في الحالات غير الاعتيادية.

وفي فـترة النهـوض الثـوري الهـائل اختفـت الصحـف المعاديـة مـن دون أن تقـوم السـلطات بتعطيلها، إتقاء غضب الجماهير وبعدها التجأ قاسم لمحاربة الحزب الشيوعي إلى احياء الصحـف الرجعية ومدها بجميع أنواع المساعدة والحمايـة. وقـد اسـفت إحـدى الصحـف القوميـة إلى أوطـأ دركات الاسفاف وإذ كانت اتحاد الشعب تشيد بأوسـع الجماهـير كـانت تلـك الجريـدة تسـميها «جريدة أوسخ الجماهير» وقد اشادت اتحاد الشعب مرة برجل كـادح مـن اعمـاق الجماهـير اسمـه «شخنوب» فأطلق الاعداء علينا اسم «حزب الشخانيب».كان اعداء الحزب باسفافهم يعترفون بـأن الحزب الشيوعي العراقي نابع من أعماق الجماهير من سـواد الشـعب. وفي لقائنـا مـع قاسـم بعـد خروجه من المستشفى «نصحنا» بأن نترفع عن الرد على تلـك الصحـف الوقحـة الـتي بعثهـا هـو لشتمنا وشتم أصدقائنا.

إن السخرية بالكادحين وممثليهم كانت دائما السلاح المفضل لدى الطبقات المالكـة في نضالهـا الطبقي ضدهم. ولا فرق بين الاقطاعيين والـبرجوازيين. وعندمـا يسـتخدم الثوريـون ضدهـم سـلاح السخرية والهجاء تقوم قيامتهم ويتباكون على الاحترامية وعلى الاداب العامة و..الخ

ولم يسلم من قلم أبو سعيد، وبالاحرى معوله الهدام، حتـى قاسـم وآيـة ذلـك حكايـة سـارق الاكفان وولده التي قارن فيها بين نوري السعيد وقاسم فكتب

ـ سأل الابن أمه:

ـ لماذا يشتم الناس أبي؟

قالت الام:

ـ لأنه كان يسرق أكفان موتاهم!

فرد الابن:

ـ حسناً سأجعلهم يترحمون عليه!

وشرع الابن لتوه بسرقة أكفان الموتى ودق خازوق في شرج الميت. فراح الناس يترحمون على أبيه لأنه كان يكتفي بسرقة الكفن ويتركه دون أن يدق في شرجه خازوقاً!

ومع ذلك لم يحاول قاسم الانتقام من شخص أبو سعيد. أما البعثيون في العراق فقد عذبوه عذاباً شنيعاً حتى مات. ودقوا الخوازيق في أدبار خصومهم السياسيين وهم أحياء واستخدموا جميع وسائل التعذيب التي عرفتها العصور المظلمة وخلفتها الهتلرية واتقنتها الامبريالية الامريكية في الفيتنام.

61

أن تموت شاباً بعد عمر طويل

أن أكتب ذكرياتي من دون التطرق إلى حياتي الخاصة، لايتفق مع روح العصر، بل يجرد الذكريات من أي رونق. وقد سبق أن بسطت للقارئ في الفصول الاولى انطباعات صباي وحداثتي وقد توزع شبابي بين السجون والتخفي وعلي الان أن أذكر شيئاً عن كهولتي.

بعد أن حوسبت كأحد أفراد المعرضة جاء الرضي السكرتير الاول وأطرى خصلتين من خصالي وهما روح الشباب والفكر العلمي، على حد تعبيره. فاحسست آنذاك وكأنني ملاكم مغلوب جاء قرينه الغالب فعالج بالمرهم الكدمات التي تركها على جسمه. وما سرني في الحقيقة وبخاصة هو أن روح الشباب لم تغادرني بعد. فما احلى أن يموت الانسان شاباً بعد عمر طويل!

خرجت من السجن للمرة الاخيرة وأنا في السابعة والاربعين من عمري دون أن أجد الزوجة والاطفال. فلم أكن قد تزوجت بعد. فأي حياة جافة كنت قد عشتها قبل أن ألتقيتها؟!

التقيتها أول مرة في نهاية الاسبوع الثالث من شباط /١٩٤٩ كنا معتقلين مع نحو ثلاثين رفيقة ورفيق في دار التحقيقات الجنائية في شارع النهر. والتقيتها ثانية في سجن النساء قرب باب المعظم مع رفيقاتها السجينات في أواخر تموز /١٩٥٨ والتقيتها ثالثة في بيت توفيق العبايجي قرب المقبرة الملكية في الاعظمية مع عمومة مصري وكانتا مع مادلين مير قد اختارتا البقاء في الوطن لقاء التنازل عن ديانة أبائهن اليهودية. وكنت بصحبة الرضي. وقبلها طرح علينا الرضي سؤال هل تبقى سعيدة مشعل تعيش في كنف الحزب أم تعود لامها التي كانت تطالب بها بالحاح وكانت تنتظرها وترعاها من خارج السجن زهاء عشر سنوات؟!

كانت هي قد وضعت مصيرها بيد الحزب الشيوعي ووجه السؤال إلي: - ماذا تقول!

وقعت في حرج وأي حرج! في دوامة التناقض بين الضمير والقلب. الاول يقول دعها تعود إلى أحضان أمها.. وهذا هو الحل الانساني الوحيد. والاخر يقول: هل تضيع فرصتك الاخيرة وتترك قلبك يجف كحشفة يابسة؟! ويل لك ما أشقاك!

استسلمت لنداء قلبي وتركت ضميري يعذبني بين حين وآخر. وكان القرار بالاتفاق بأن تبقى في كنف الحزب. وانتصرت الانانية على الانسانية.

أسكنوها مع ناهدة العبايجي وزوجها حسين جواد القمر في بيت حزبي في عرصات الهندية، حيث يجتمع المكتب السياسي بعد أن أصبحت اجتماعاته العلنية في مكتب اتحاد الشعب غير مأمونة جراء تنمر قاسم على الحزب الشيوعي.

كنت أكلفها بترجمة مواضيع للجريدة وجئتها بنسخة جديدة من القاموس العصري وقد وصلت متأخراً عن اجتماع المكتب السياسي فوضعت القاموس جانبا فنظر الرضي إلى القاموس شزرا وإليّ

تأنيباً. ها قد جئت بهديتك الخاصة! كف عن هذا! هكذا كانت تنطق نظراته وتخيلت القاموس وقد غدا باقة زهورٍ وقلت في نفسي:

ـ قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه!

وذات يوم سألتني عن عمري، قلت:

ـ سبعة وأربعين.. فقالت بلهجة راضية مطمئنة

ـ الفرق ١٨ سنة!

فقلت في نفسي ياله من ذكاء رياضي خارق! ما أسرع ما وجدت حاصل الطرح. وهكذا اصبحنا زوجين على كتاب الله ورسوله ولكننا أطعمنا العلقم بدلاً من حلاوة العسل!

المكتب السياسي لا يوافق على زواج عضو من اعضائه وهو شيوعي معروف من رفيقة من والدين يهوديين! ولم يقف الامر عند هذا الحد ففي عام ١٩٦١ قامت السكرتارية بفصلها عني ونقلت فعلا لتعيش مع عائلة كانت هي بدورها تعيش على خبز الحزب الشيوعي وبعد بضعة أشهر أخرى سفرها الحزب إلى الاتحاد السوفيتي لتدرس الاقتصاد في جامعة الصداقة (لومومبا) وقد سمح لنا المكتب السياسي بالعيش سوية في أواخر عام ١٩٦٤ أي بعد أربع سنوات فقط!

لم يكن زواجنا نزوة شبابية جامحة عابرة فسننا نحن الاثنين لم يكن يساعد على ذلك. فالعشرة في بيتٍ واحدٍ زهاء سنتين كانت كافية ليسبر كل منا عمق الاخر. فوجد كل منا مكمله في الاخر وجدانياً وعقلياً وسرعان ما أصبحنا ليس أبوين لطفلين بل فريق عمل واحد في خدمة الحزب وغدت لي أخيراً أماً حنونا بعد أن بلغت الشيخوخة بحيث تستحيل عليّ الحياة بدونها. ولست من اولئك الرجال الذين تستهوي النساء معاشرتهن بل من اولئك الذين ليس في مقدور كل إمرأة أن تعاشرهم طويلا. فمعاشرتي صعبة عسيرة اذ لم تتح لي سيرتي فرصة كافية للمعاشرة والتحدث في غير السياسة فبأي حال كنت اليوم لولا زوجتي سعاد؟!

وأنا مدين لها حتى بكتابة ذكرياتي هذه بخطها.

62

الفخ

تهيأت جميع مدن العراق للاحتفال شعبياً بمرور سنة على ثورة ١٤/تموز وجرت الاحتفالات في كل مكان في جو من الحماسة والمرح لايكدره مكدر باستثناء ما حدث في مدينة كركوك.

ومدينة كركوك مركز لأقدم حقول النفط المستثمرة في العراق وفيها اهم مقرات شركة النفط العراقية .I.P.C وأوساط العملاء للشركة وجواسيسها. وكركوك يقطنها الكرد والتركمان والعرب والاشوريون وفيها منظمة شيوعية قوية إلى جانب الاحزاب القومية الكردية والتركمانية. وكانت مباءة للتناقضات والصراعات التي برع بها الجواسيس الانكليز في تأجيجها. وكان النفوذ البريطاني قوياً في المدينة بفضل وجود الشركة وعلى أساس هذه الخلفية المتوترة أشد التوتر خرجت المظاهره في المدينة وكان انفجار قنينة مشروبات غازية كافيا لوقوع المأساة بعد اختلال النظام والانضباط في المظاهرة. وكان بعض التركمان هم الضحية كما كان بعض القوميين الاكراد هم الاداة. وصرع العشرات..ووقع الحزب الشيوعي في الفخ..إذ أن جريدته المركزية في بغداد «اتحاد الشعب» تسرعت قبل التحقيق في الكارثة فاستحسنت ما جرى في كركوك باعتباره عقاباً عادلاً لعملاء شركة النفط! !

كان على رأس الفرع الكردي للحزب الشيوعي العراقي عزيز محمد ومقره في كركوك.ولكن زمام المظاهرة أفلت من يده في الحال. وترك الشارع وانزوى كما قال كريم أحمد. وقام قائد الفرقة الشيوعي باتخاذ الاجراءات اللازمة لوقف الاجرام ومنع حشود الفلاحين الزاحفة إلى المدينة للقيام باعمال السلب والنهب.

وبعد العيد قام قاسم بافتتاح كنيسة مار يوسف الجديدة في الكرادة الشرقية وألقى خطابه المشؤوم مركزاً هجومه على الحزب الشيوعي العراقي مستغلا الورطة التي أوقعته به جريدته.

وواصل قاسم حملته لتصفية المنظمات الديموقراطية وتحويلها إلى أدوات بيروقراطية خاضعة له. وكان آخرها اتحاد الفلاحين الذي أعطى زمام قيادته إلى أحد الملاكين المتوسطين، عراك الزكم، عضو الحزب الوطني الديموقراطي. وتفاقمت الازمة وتوترت أكثر بين قاسم والحزب الشيوعي وفي هذا الجو المكهرب اجتمع المكتب السياسي لمناقشة تقرير الرضي المعد لاول اجتماع تعقده اللجنة المركزية منذ ايلول ١٩٥٨ وقد حضر نيقولا الشاوي الامين العام للحزب الشيوعي اللبناني وبصحبته عامر عبد الله عائداً من الخارج وشرح نيقولا القلق السائد في المشرق العربي مما يجري في العراق. وقال أن البرجوازية اللبنانية مذعورة من احتمال مجئ الحزب الشيوعي العراقي إلى سدة الحكم .هذا مع العلم إنها لم تكن تملك ما يستحق الذكر في العراق. ولكن يبدو انها خائفة من سريان الثورة إلى بلاد الشام. وأوحى إلينا الشاوي بالاعتدال بعد أن أشاد بمنجزاتنا وبطولاتنا وتضحياتنا. وخرج من الاجتماع. وكان مجيئه إلى العراق لأول مرة في حياته، خصيصاً لينصحنا.

واستمر النقاش الحاد حتى الصباح. ولم يكن إلى جانب الرضي سوى الحيدري. وفي الصباح الباكر خرج كلاهما سوية وبقي سائر أعضاء المكتب السياسي على مائدة الافطار ليواصلوا الجدل بلا نظام وبغياب السكرتير الأول وأعربوا عن سخطهم عليه واقترح بهاء الدين نوري وكان اشد الجميع لجاجة في معارضته للرضي على تنحيته عن مركز السكرتير الاول واقترح طرح تنحيته على اللجنة المركزية في اجتماعها الوشيك ولم يعلن احد رفضه صراحة لهذا الاقتراح. وكنا ننتظر ما سوف يتمخض عنه الاجتماع. وكانت انتخابات السكرتير الاول في اللجنة المركزية تجري كما هي العادة كخاتمة لدورة اللجنة المركزية لم يتبنى المكتب السياسي تقرير السكرتير الاول فقدمه للجنة المركزية بإسمه. وكان اجتماع اللجنة المركزية صاخباً ومحور الجدل العلاقة بين الحزب وقاسم. وكان الجو عموما ضد الرضي إلى هذا الحد أو ذاك. وتكلم عبد القادر اسماعيل بإنفعال شديد جداً وكان في تلك الفترة ممثل الحزب لدى قاسم وقال إن الحزب يجور على قاسم. وبعد هذا الاجتماع رفض قاسم أن يستقبله ثانية! وكان الجو العام في اللجنة المركزية مع التراجع حرصا على علاقة الحزب بقاسم.ولم يقف الرضي ضد هذا الموقف من حيث المبدأ، بل كان يدعو إلى «التراجع المنظم» لئلا ينقلب التراجع إلى هزيمة. في حين بدأ قاسم هجومه ضد الحزب والمنظمات الديموقراطيه. وضد الرضي والحيدري كان يقف هادي هاشم وبهاء وعامر وكان موقفي الوسط. واقترح الرضي تأليف هيئة تحرير ثلاثية منه ومن عمر ومني لصياغة الوثيقة الختامية على ضوء المناقشة بحيث تكون مقبولة لدى الاتجاهات الثلاثة. فوافقت اللجنة المركزية على الاقتراح. فانزوينا نحن الثلاثة. وأملا الرضي على عامر رؤوس الاقلام لم يكن لدي أي اعتراض عليها. ولم نسمع اعتراضا من عامر الذي عكف على كتابة الوثيقة الختامية على ضوء رؤوس الاقلام. ثم قرأها علينا فوافقنا عليها،الرضي وأنا. وسرعان ما عدنا إلى الاجتماع وقرئت الوثيقة وكانت مختصرة والكل كانوا آذاناً صاغية أو وكأن على رؤوسهم الطير وما أن انتهت التلاوة إلا وثارت ثائرة هادي هاشم وبهاء وانحيا باللائمة على عامر لتجاهله تحفظاتهما وتوصياتهما على حد زعمهما، وكانا إلى اقصى اليمين بالاحرى إلى الانبطاح أمام قاسم.

واحتدم النقاش عوداً على بدء وانتهى بتوصية اللجنة المركزية للمكتب السياسي الجديد ليعيد صياغة الوثيقة بصورة مفصلةٍ على ضوء مناقشتها ونشرها بإسمها. وأعادت اللجنة المركزية انتخاب الرضي سكرتيراً أولاً وكذلك اعضاء المكتب السياسي مع اضافة عزيز محمد إلى قوامه وكنت أنا الذي رشحه بناء على حث الحيدري لي. ولم يرشح كريم أحمد أحد لعضوية المكتب السياسي وكان هو يرى في نفسه الجدارة لهذه العضوية إذ انه انتمى منذ بدء حياته للحزب الشيوعي وقد حافظ على طهره العذري ولم يدنسه بالانتماء إلى أية منظمة مزاحمة للحزب في كردستان. ولكنه أيضاً لم يرشح نفسه اذ كان هذا خلافا لتقاليدنا. وحتى عندما يرشحنا أحد كنا نتململ في مقاعدنا ونتحرج في قبول الترشيح وهو ما فعله عزيز محمد أيضاً عندما رشحته. وبعد مايقرب من عشرين سنة الح حشد من الشيوعيين على عزيز محمد السكرتير الاول أن يحدثهم عن سيرته أو تاريخه الحزبي فقال فيما قاله انه مر بجميع المنظمات المزاحمة للحزب الشيوعي في كردستان وقد تبين أن كريم أحمد قد تعاطف مع كل كتلة قومية أنفصلت عن الحزب. رشحني بهاء بديلا عن الرضي فاعتذرت وانتقدت نفسي لأننا كنا نحن أعضاء المكتب السياسي قد بحثنا مسألة عدم تجديد انتخاب الرضي في غيابه. ولكنه سجل النقد الذاتي كسابقة شددت العقوبة لدى محاسبة المعرضة في ايلول ١٩٦٢ والفت اللجنة المركزية بناء على اقتراح الرضي مكتب سكرتارية لتطوير القيادة الجماعية ورشح هادي هاشم وبهاء الدين لعضوية السكرتارية وكأنه أراد احتوائهما سياسياً ولكن النتيجة جاءت معكوسة. وقد وافقت اللجنة المركزية على اقتراحه. وعقد المكتب السياسي عدة اجتماعات صاخبة لتحرير التقرير الذي أوصت به اللجنة المركزية لكنه في

الحقيقة تجاوز توصياتها إذ شدد النكير على الحزب لترضية قاسم. وبعد نشر التقرير على صفحات اتحاد الشعب واصل قاسم حملته المعادية للحزب الشيوعي وللديموقراطية بتزييف منظمتها فأراد بموجب عقليته العسكرية أن يستثمر الانتصار الذي حققه إذ فرض التراجع على الحزب ليحوله إلى هزيمة.

63

اليسار الكردي

عندما أنقلب قاسم على الحزب الشيوعي عام ١٩٥٩ تحرك الملا مصطفى البارزاني من جهته أيضاً ليصفي الحساب مع يساره في الحزب الديمقراطي الكردي (بارتي ديموكراتي كورد) و كان هذا اليسار بقيادة حمزة عبد الله من أهالي زاخو. وكان لدى تأسيس الحزب الشيوعي العراقي طالباً في كلية الحقوق في بغداد وزميلا ليوسف متي الذي رشحه عضواً في الحزب الشيوعي وقد كان الحزب السياسي الوحيد في العراق الذي يعترف للشعب الكردي بحقه في تقرير مصيره بنفسه على أرضه كردستان. وجراء نشاطه الشيوعي أسقطت عنه الحكومة الجنسية العراقية بحجة إنه من أكراد تركيا في الاصل وحاولوا إلقاء القبض عليه وابعاده إلى تركيا. فاختفى عند آل خانقاه في كركوك الذين استضافوه عند فلاحيهم الكاكئية وانقطعت صلته بالحزب الشيوعي بسبب الحملات البوليسية على تنظيماته. ومال في عزلته هناك إلى الحركة القومية الكردية بقيادة البارزاني والتحق بالملا مصطفى الذي انضم مع رجاله المسلحين إلى جمهورية مهاباد الكردية في ايران بعد أن لاحقه الجيش العراقي عام ١٩٤٥ وكانت تلك اول جمهورية كردية في التاريخ. وقد انهارت تحت ضربات الجيش الايراني بعد انسحاب الجيش السوفيتي من ايران عام ١٩٤٦ وفي مهاباد وضع حمزة عبد الله خطته لتاليف حزب ديمقراطي كردي في العراق واختار رئيساً فخرياً له هو الملا مصطفى البارزاني الذي تبنى الحزب فعلا دون أن يتخلى عن زعامته العامة للاكراد كزعيم «فوق الميول والاتجاهات». وعاد حمزة عبد اللة إلى العراق ودأب على تنظيم حزبه الجديد. وقد التقيته في بغداد عندما كان يهيئ وثائق تاسيس البارتي فاطلعني عليها وكان قد رسم فيها سلفاً حدود كردستان وقد ضم اليها مدينة الموصل. فقلت له

ـ هذا استفزاز للعرب يؤلبهم عليكم ولماذا هذا الاستعجال في رسم الخرائط وتحديد الحدود؟!

وفي أواسط الخمسينات عندما قاد الحزب حسين الرضي حصل تقارب جديد بين حزبينا وقد ارتبطا بتحالف سياسي وميثاق مشترك عام ١٩٥٧ بعد أن رفضت الاحزاب الاخرى في جبهة الاتحاد الوطني انضمام البارت إلى الجبهه. وقد استمر التحالف بين الحزبين حتى أواسط ١٩٥٩

عندما انضم البارزاني إلى قاسم في الحملة ضد الحزب الشيوعي وكانت أول خطوة خطاها في هذا السبيل إعفاء حمزة عبد الله من مركزه كسكرتير عام للبارت وأرسل إليه رسولاً يبلغه بتجميد نفسه بنفسه وبانفعال وثقة لا حد لها بالنفس شأن المثقفين الكرد رد حمزة على الملا بقوله

ـ لا توجد قوة على الارض تستطيع تجميدي.

وقد سمعت هذه الكلمات لأول مرة من فم البارزاني نفسه عندما التقيته سنة ١٩٦٠ في بغداد، وقد عقب عندئذ على اعتداد حمزة عبد الله ساخرا

ـ لا توجد قوة على الارض تستطيع تجميدي! ! ولكن أنا أستطيع تجميدك أرسل لك ديكاً ينقر بطنك نقرة واحدة فتتجمد إلى الأبد!

لم يعد ملا مصطفى البارزاني زعيماً قومياً فوق الميول والاتجاهات بل غدى حزبياً. وقد أبعد حمزة عبد الله فعلا عن قيادة البارتي مرة وإلى الابد.

وبعد ١٤/تموز/١٩٥٨ كان قاسم مترددا في الاعفاء عن الملا مصطفى البارزاني ورجاله اللاجئين في الاتحاد السوفيتي لاعادتهم إلى وطنهم ولكن الحزب الشيوعي العراقي لعب دورا فعالاً في اقناع قاسم بارجاعهم إلى العراق. فأعادهم فعلا وقد نقلهم السوفييت هم وعائلاتهم السوفيتية وعفشهم عن طريق البحر إلى البصرة ومن هنا استقبلتهم الجماهير العربية بكل حرارة حتى وصولهم إلى كردستان. وغدا البارزاني زعيماً وطنياً عراقيا بنظر الجماهير.

وبعد أن قلب قاسم للحزب الشيوعي ظهر المجن راح البارت يوسع نفوذه على حساب نفوذ الحزب الشوعي في كردستان بمساعدة الحكومة بادئ ذي بدء. ثم شعر قاسم بخطر نفوذ البارتي فتنكر لهم بدورهم. وعندئذ التقيت البارزاني في حفلة دبلماسية لسفارة أحد البلدان الإشتراكية لأول مرة فوجدته مكتئباً. وكان أحد رجال «استخبارات الحق» العائدة لقاسم شخصياً يلازمه، وانتظرت حتى التقيته لوحده و بادرته بالسلام وعرفته بنفسي وقلت له:

ـ هكذا دائماً عندما تبدأ الحكومة بنا تنتهي بالاكراد وبالعكس تبدأ بكم تنتهي بالحزب الشيوعي!

وبقيت كلماتي في ذاكرته وقد ذكرني بها في السنة التالية عندما التقيته بناء على طلبه هو وكان الحزب الديموقراطي الكردستاني قد رفض التحالف مع الحزب الشيوعي للقيام بحملة جماهيرية سياسية لإنهاء الفترة الاستثنائية وإقامة حكم ديموقراطي للعراق يمكن في ظله فقط حل القضية الكردية حلا ديموقراطياً عادلاً

طلب البارزاني اللقاء بي شخصياً بعد عودته من الاتحاد السوفيتي كما أسلفت وكنت آنذاك قائماً بأعمال السكرتير الاول إذ كان الرضي يدرس في موسكو فذهبت مع عزيز محمد إلى دار نوري شاوويس عضو المكتب السياسي للبارتي وانتظرنا ساعة مجئ البارزاني وفجأة فتح الباب فاقتحمه جلال الطالباني، رأس النفيضة وبيده رشاشة مرهفا حواسه لكل طارئ ودخل بعده البارزاني بعينه يتبعه كظله حرسه الخاص وهم أعضاء المكتب السياسي باستثناء ابراهيم أحمد. نهضت لاستقباله ثم أمر الجميع أن يتركوا الغرفة ليختلي بي.

وبدأ حديثه معي. وذكرني بلقائنا الاول في الحفلة الدبلوماسية واخذ يجس النبض عما سيفعله الحزب الشيوعي إذا ما آلت الامور بين الكرد وقاسم إلى القتال المسلح. وكعادتي في الحديث المكشوف أوضحت له أن حزبنا ضد الاشتباك المسلح مع حكومة قاسم ولكننا نؤيد جميع حقوق الشعب الكردي القومية الاقليمية المشروعة ومع النضال الجماهيري السلمي لتحقيقها ونحن نرفض مبدئيا كل قتال مسلح بين فئتين وطنيتين لئلا يدفع أحدهما أو كليهما إلى أحضان الامبريالية أو القوى الرجعية في المنطقة. وكان بامكان النضال الجماهيري غير المسلح،على أساس الجبهة الوطنية أن ينتزع من حكومة قاسم مطالب جوهرية في حقل الديموقراطية ومنها الحكم الذاتي لكردستان.

كان البارزاني يصغي إلي بانتباه فاستنتج استنتاجاً لم يبح لي به في حينه بل صارح به عزيز شريف فيما بعد في مقره الجبلي حيث كان عزيز ضيفا مقيما عنده قائلا:

ـ أن زكي خيري أطرش!

وقبل اسبوعين أو أقل من انتفاضة ايلول/ ١٩٦١الكردية المسلحة طلب اللقاء بنا ابراهيم أحمد الذي حل محل حمزة عبد الله كسكرتير عام في ادارة شؤون البارت بأمر من البارزاني وكان الرضي لايزال في الخارج. فذهبنا عزيز محمد وأنا للقائه. ودار بيننا جدال مكشوف وحامي الوطيس تبلور فيه تباين وجهتي نظرنا ازاء حمل السلاح ضد حكومة قاسم. وما أذكره قوله

ـ حتى الاقطاعيين الاكراد مظلومين ظلماً شوفينياً.. وان الاكراد الان يعتبرون النضال السلمي أي غير المسلح شأن من شؤون «الجبناء» أو «المخانيث»!

وافترقنا على غير اتفاق ولم ينجح في استفزازي.

وفي أوائل أيلول ١٩٦١ تحشد نحو ٢٠٠٠ ـ٣٠٠٠ كردي مسلح في مضيق بازيان على الطريق بين كركوك والسليمانية، بقيادة المكتب السياسي للبارت.وما لبث الجيش العراقي والقوة الجوية أن شتتوا هذا التجمع المسلح في ٩/ايلول/١٩٦١ ولكن المسلحين الاكراد أعادوا تنظيم صفوفهم واستحكموا في المناطق الجبلية الوعرة. وقد ادان الحزب الشيوعي التجاء الحكومة إلى القمع العسكري وعدم لجوئها إلى الحل السلمي.

ولم يتحرك البارزاني الذي كان آنذاك في بارزان وهكذا كانٍ يخيل إلينا حتى توهمنا أن تحرك البارت في دربند بازيان لم يكن بموافقته، بل اريد به جره جرا إلى حمل السلاح بوجه الحكومة، حتى أن الحزب الشيوعي كلف عزيز محمد بزيارة البارزاني لاقناعه بالتمسك بالصبر. ولكن عزيز محمد لم يستطع الوصول إلى البارزاني وعاد من اربيل إلى بغداد. ويخيل الي إنه لم يكن مقتنعا بالمهمة التي كلفناه بها.

وكان محمد حسين أبو العيس مشرفاً على لجنة فرع الحزب الشيوعي العراقي في كردستان وكان ضد الحركة المسلحة بصورة جذرية وجبهوية فاستدعاه الحزب إلى بغداد. وفجأة قامت القوة الجوية بغارة على بارزان وأنزلت خسائر كبيرة بالسكان الامنين فاصدر الحزب الشيوعي بيانا احتجاجيا شديدا ضد الحكومة وعلى الفور انتشرت قوات البارزاني في منطقة بهدينان المحاذية للحدود التركية و هي الان محافظة دهوك ثم انتشرت في محافظة اربيل ولم يكن الانسجام، حتى في ذلك الوقت المبكر من الثورة الكردية، سائداً بين البارزاني ومكتبه السياسي الذي يتزعمه ابراهيم أحمد وجلال الطالباني.

كان المكتب السياسي للبارت أكثر تصلباً في حين كان البارزاني أكثر مرونة سواء اتجاه الحكومة العراقية او اتجاه الحزب الشيوعي. و قد مارس البارزاني الدبلوماسية مذ كان صبيا في الثانية عشر من عمره كعضو وفد العشيرة إلى الوالي التركي في الموصل، قبيل الحرب العالمية الاولى. وقد احتضن البارزاني كوادر الحزب الشيوعي اللاجئة إلى منطقته وحماهم في تلك الايام الصعبة التي تعرضوا لها فيما بعد.عام ١٩٦٣ أما المكتب السياسي للبارت فقد سلك سلوكا معاكسا على خط مستقيم. فقد ذبح نحو ١٠ كوادر شيوعية لاجئة.

انتدب الحزب الشيوعي رفيقاً كردياً كهلاً ليلاقي البارزاني في مقره في بهدنان. وكان الرفيق عضواً في اللجنة المحلية في الموصل واستطاع أن يلتقي البارزاني وسأله عما يستطيع الحزب الشيوعي أن يعمله لدعم نضاله. فلم يطلب سوى المال. وقد أبلغ الحزب الشيوعي طلبه إلى إحدى الجهات الصديقة التي اعتادت أن تسعف عائلة البارزاني. فأسعفت طلبه في الحال. وكان هو ينوه في مجالسه الخاصة بهذه الاعانة التي يعتبرها محض إعانة للعائلة الكبيرة وأصبحت بمرور الزمن حقاً مكتسباً ثابتاً لاسرة البارزاني على تلك الجهة.

وفي شتاء ١٩٦٢ توقف القتال بفضل هطول الثلوج وسنحت الفرصة للمكتب السياسي للحزب الشيوعي أن يدرس القضية الكردية دراسة عينية على ضوء التجربة القاسية وتجربة الكفاح المسلح الدامي والمدمر دون الوصول إلى قرار. وقد كتبت تقريراً مفصلا عرضته على المكتب السياسي كان المنطلق الذي انطلقت منه هو أن الحرب الاهلية في كردستان هي نتيجة سلبية لانتهاء الوضع الديمقراطي الثوري الذي ساد العراق في العام الاول من ثورة ١٤/تموز عندما كانت القضية العامة المشتركة لثورة الشعب، العربي والكردي على السواء هي السائدة. وأن انتهاء الوضع الثوري إلى دكتاتورية عسكرية شخصية بدلا من نظام حكم ديموقراطي يتمتع الشعب الكردي بظله بكامل حقوقه القومية الاقليمية هو الذي أثار القضية الخاصة بمعزل عن القضية المشتركة بعد أن رفض القوميون الاكراد التحالف مع الحزب الشيوعي لانهاء الفترة الاستثنائية.

عارض جمال الحيدري هذا المنطلق بشدة وكان منطلقه هو أن الانتفاضة المسلحة ثورة كردية طبيعية وايجابية وجاءت في وقتها المناسب ويجب على الحزب الشيوعي تأييدها بدون تحفظ وتعاطف معه عزيز محمد. وقد أعد الحيدري تقريرا بديلا ينطوي على تحريض الكرد على الكفاح المسلح. عارضه محمد صالح العبلي الذي كان مع الحل الديموقراطي السلمي للقضية الكردية. وكنت قد التقيت نوري شاويس عضو المكتب السياسي للبارت فابدى لي استغرابه من تحفظ الحزب الشيوعي على لجوئهم إلى حمل السلاح. وأكد لي أن جمال الحيدري التقاه خارج العراق قبل نشوب القتال في كردستان بأشهر وإنه كان مشجعاً لحملهم السلاح ضد قاسم.

وكانت النتيجة تقريرا مشتركاً يضم منطلقات جمال الحيدري بصورة مخففة و الصيغة التي وضعتها أنا لحل القضية الكردية على أساس الحكم الذاتي الاقليمي أي على الارض وليس بدون الارض بمجلس تشريعي منتخب من الشعب ومجلس تنفيذي منبثق عنه. وقد طرح التقرير على اجتماع اللجنة المركزية في آذار/١٩٦٢. وكان الرضي لايزال في موسكو عندما ناقش اجتماع آذار /١٩٦٢ القضية الكردية وأصدر برنامجا ديموقراطيا وافيا لحل القضية الكردية باعتبارها جزء لا يتجزأ من قضية الديموقراطية العامة في العراق وفي عين الوقت القضية التي لا يمكن من دون حلها انتصار الديموقراطية في العراق بعامة. وقد غلغل الحزب الشيوعي العراقي هذا المفهوم بين أوسع الجماهير الشعبية في جميع انحاء العراق، بحيث أصبح هذا القطر منذ عشرين سنة وحتى الآن القطر الوحيد من بين الاقطار التي تحتوي على جزء من كردستان يعترف بحق الشعب الكردي في ادارة شؤونه بنفسه على أرضه كردستان العراق.

وكان بالامكان في ولاية قاسم فرض الحل السلمي الديموقراطي للقضية الكردية فيما لو اتحدت القوى الديموقراطية بما فيها القوى الكردية في جبهة موحدة لانهاء الحكم الدكتاتوري العسكري الفردي وإقامة حكم ديموقراطي وطني للعراق عامة والحكم الذاتي لكردستان العراق. وكان البديل لحكم قاسم الذي تحقق في انقلاب ٨/ شباط /١٩٦٣ أسوأ من حكم قاسم بما لايقاس سواء للشعب العربي أم الكردي في العراق. ولم يكن «الكفاح المسلح» دستوراً مقدساً لا بالنسبة للبارزاني ولا لمكتبه السياسي، فقد تهادن اكثر من مرة مع الحكم العسكري الدكتاتوري في بغداد ونال منه المساعدات المالية، كما تحالف المكتب السياسي (ابراهيم احمد وجلال الطالباني) مع حكومة البعث في بغداد وحارب البارزاني بالسلاح. ويروج بعض الشيوعيين سابقاً والمعادين لاحقاً الذين يعتبرون الكفاح المسلح دستورا مقدساً ويزيفون تاريخ حزبنا بالادعاء باننا كنا نريد نزع سلاح الثوار الاكراد، والحال أن هذا لم يرد على لسان أي واحد من المجتمعين في اجتماع اللجنة المركزية (آذار ١٩٦٢) أو في أي وقت آخر. بيد أن الحزب الشيوعي العراقي لم يكن يؤمن بقدسية الكفاح المسلح بل يعتبره محض تاكتيك، شكل من أشكال النضال ليس إلا، يكون ضرورياً في

ظروف معينة وضاراً في ظروف أخرى، لاي قضية مهما كانت عادلـة ومبدئيـة. ولم يقتصر نشاط الحزب الشيوعي العراقي على العراق وحده لنصرة القضيـة الكرديـة والدفـاع عـن حقـوق الشعب الكردي، فقد وجـه حسين الرضـي وكـان في موسـكو، منـذ نشـوب القتـال في كردسـتان، بوصفـه السكرتير الاول للجنة المركزية لحزبنا رسالة إلى قادة الاحزاب الشيوعية ورؤساء الدول الاشـتراكية يناشدهم فيها تبني قضية الشعب الكردي العادلة والوقوف ضد الحـرب الشـوفينية الـتي يشـنها ضده النظام العسكري في العراق. وفي جميع المؤتمرات واللقـاءات العربيـة والدوليـة كـانت القضيـة الكردية على رأس القضايا التي يثيرها ممثلوالحزب الشيوعي العراقي، وقد سـاهم الحـزب بقسـط كبير في تدويل القضية الكردية، وفي كسب الرأي العام العالمي إلى جانبها. وكانت الاكثرية العربية في الحزب الشيوعي العراقي أكثر تحمساً للقضية الكردية ولم يفرض عليها كما يدعـي الشـيوعيون الاكراد سابقاً، ذوو الافق القومي الضيـق لاحقـا، بـل تبنـى الشـيوعيون العـرب ذلـك بدافـع مـن امميتهم على اختلاف مستوياتهم.

ورد في الدستور المؤقت لثورة ١٤ /تموز أن العرب والكرد شركاء في الوطن. وعندما ثـار الاكـراد فسر قاسم هذه الشراكة بانها حق مشاع غير قابل القسمة،وهذا التفسير ضد حق الانفصال، وحتى الحكم الذاتي كان يعتبره قاسم انفصالي. ومع ذلك فان مجرد الاعتراف الشكلي بموجـب الدسـتور بالمساواة بين العرب والكرد كان خطوة مهمة في تاريخ القضية الكردية في المنطقـة. وكـان القوميـون اليمينيون في البلدان المجاورة يعتبرون مثل هذا الاعتراف كاعتراف «باسرائيل ثانية».

وفي الشهرين الاخيرين من حكم قاسم أعلـن وقـف القتـال مـن جـانب واحـد،أي مـن جـانب الحكومة وحدها وكان الحزب الشيوعي يواصل الضغط الجماهيري على قاسـم بالمظـاهرات لتمديـد الهدنة. فعجل انقلابيو ٨/شباط بانقلابهم الذي أيده البارت.

64

حول التنظيم الشيوعي في الجيش

في اجتماع المكتب السياسي المنعقد في دار هادي هاشم في الكاظمية في أواخر آب ١٩٥٩ فاجأنا السكرتير الأول حسين الرضي بقرار السكرتارية المؤلفة منه ومن بهاء الدين وهادي هاشم، بالاجماع بحل تنظيمنا الحزبي في القوات المسلحة. لأن هذا التنظيم أصبح على حد تعبيره، دملة على علاقات الحزب بقاسم..فحرصاً على هذه العلاقات يجب حله..!

لم تكن ثمة مفاجأة لنا مطالبة القطبين اليمينين بهاء وهادي بهذا المطلب التصفوي، ولكن المفاجأة كانت تبني حسين الرضي لهذا الحل. وبدلاً من أن يحتويهما، أحتوياه في هذه القضية الخطيرة فصدق قول ماركس:

- العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة في السوق!

واستأذنته، فأذن لي بالكلام وقلت:

وماذا نفعل إذا مات الرجل فجأة أو قتل؟! فرد هادي هاشم:

- والان ماذا نستطيع أن نعمل؟! وكان منفعلا. ورد عليه الرضي:

- هاذي لا! يوجد كل الفرق في هذه الحالة بين وجود التنظيم أو عدمه. وتراجع بهاء الدين على الفور معلنا تبديل رأيه وبقي عزيز محمد مع حل التنظيم الحزبي في الجيش، اما جورج تلو فقد اقترح استفتاء الاشقاء الكبار السوفييت والصينين. ووافق المكتب السياسي على الاستفتاء وكان عامر عبد الله غائباً في موسكو وعندما عاد حملوه السوفييت فتوى خطية صاغها سوسلوف مسؤول العمل الايديولوجي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وجاء فيها:

- أن احتفاظكم بتنظيمكم الحزبي في الجيش يدل على جديتكم وحرصكم على ضمان انتصار ثورة الشعب.

أما الصينيون فقد رفضوا الجواب ما لم يرسل حزبنا وفدا رسمياً. وقد اكتفينا بالرد السوفيتي المبدئي والقاطع.

كان الرفاق السوفييت يردون على كل استفتاء نوجهه اليهم في المنعطفات السياسية الحادة ويقدمون لنا النصح الخالص. ولم يكن رد الفعل من جانبنا إيجابيا دائماً. ولم يقاطعونا بسبب توترنا بل يواصلون الحوار بروح رفاقية وبنفس طويل. وكنا نحن الذين نعرض عليهم خلافاتنا وعلى أشقائنا الشيوعيين الاجانب لنتسلح بفتاويهم في جدالنا مع بعضنا.

وبعد نحو ستة أسابيع جرت محاولة البعث لاغتيال قاسم في رأس القرية. وقد قدر الخبراء أن نجاته من الموت كان محض صدفة من الصدف. ولو مات في تلك المحاولة لكان موته في غير

مصلحة القتلة، بالنظر لنسبةٍ القوى القائمة آنذاك. أمّا بالنسبة للقوى الديموقراطية فلربما كان من بابة: وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم!

وقد أدان الحزب الشيوعي المؤامرة فورا في مقال افتتاحي في «اتحاد الشعب» في صباح اليوم التالي وقد أعيد فيه لقاسم بأمرٍ من الرضي لقب «إبن الشعب البار» وعندما قرأه الاديب الهجاء الكبير ابو سعيد علق عليه قائلا:

ـ أن هذا المقال مفعم بالشعور بالاثم!! لماذا يارفاق؟!

كنا نقوم بمحاولة يائسة لرأب الصدع بيننا وبين قاسم.وعندما سمعنا الخبر كنا مجتمعين في اجتماع المكتب السياسي فتوجهنا إلى مكاتب اتحاد الشعب في شارع الكفاح فوجدنا بعض التحشدات الصاخبة في طريقنا،خرجت للاحتجاج على المتآمرين حالما سمعت البيان الرسمي من الاذاعة. ولما وصلنا المكتب علمنا إن عزيز الشيخ وعضو آخر من أعضاء اللجنة المركزية هو حسين سلطان كانا قد خرجا إلى الشارع ليدعوا الجماهير إلى الهدوء والسكينة والانصراف إلى بيوتهم .فاستشاط الرضي غضبا على هذه المسكنة التي تصيب بعض القادة الشيوعيين في اللحظات الحرجة.

وبعد أيام وبتكليف من المكتب السياسي زرنا قاسم بهاء وانا للتهنئة على سلامته وتطمينه من جانب حزبنا. فسمعنا منه معسول الكلام وحصدنا «قبض الريح» وكان في سره يقول لنا: صبراً حتى تندمل جراحي وأخرج من قبر الاحياء هذا لاتمم ما وعدت به الامريكان وهو قص أجنحة حزبكم لادجنه.. كأن يظن أن ما بيته لحزبنا سوف يقيه شر أعدائه المتربصين به. ولكنه اضطر وهو طريح الفراش إلى وقف الحملة ضد حزبنا حتى خروجه من المستشفى.

عقد المكتب السياسي اجتماعاً بعد محاولة الاغتيال لتقييم الموقف وألقى الرضي تقديراته وتخميناته فيما لو نجحت المؤامرة في حين اخذ الحزب على حين غرة! والقى باللوم على المعارضة أي أكثرية المكتب السياسي لانها رفضت اقتراحاته التي طرحها بعد حل المقاومة الشعبية من جانب قاسم. إذ كان قد اقترح تشكيل مفارز مسلحة صغيرة في المحلات من شأنها مشاغلة الانقلابيين حتى يتسنى تحريك القطعات العسكرية الموالية. وقد رفض المكتب السياسي تكوين تلك المفارز السرية لأنها لا يمكن أن تبقى سرية ولان وجودها سوف يثير مخاوف قاسم وحكومته. ولكن المكتب السياسي وافق على وضع الاسلحة في مخابئ وتهيئة بعضٍ الخلايا الحزبية المنتقاة لحملها في حالة الخطر. وبوشر بذلك فعلا وعلى نطاق محدود جداً واستخدم بعضها في باب الشيخ والكاظمية ضد انقلاب ٨/ شباط م١٩٦٣ لبضعة أيام حتى استنفذت عتادها دون أن تتحرك القطعات العسكرية الموالية ضد الانقلاب!

قلت في الاجتماع:

ـ إن الخطر كان يأتي من حل التنظيم الحزبي في الجيش وليس من عدم وجود مفارز مسلحة في الاطراف. فتردد الراضي في قبول هذا الرأي. إذ قال متسائلا:

ـ هل هذا يعني لو نفذنا حل التنظيم في الجيش لانهار الوضع؟!

ولكن كان واضحاً أن فكرة الحل كانت خاطئة من أساسها. أما العامل الحاسم لفشل المؤامرة البعثية فقد كان موقف الجماهير منها. إذ نزلت الجماهير من تلقاء نفسها إلى الشارع فور صدور البيان الرسمي بعد وقوع الحادث متصدية للمتآمرين.

كان محمد حسين أبو العيس يتحدث في كل اجتماع من اجتماعات المكتب السياسي عن ضرورة المحافظة، على وضع الجماهير في حالة تعبئة دائمة. بيد أن الجماهير الشعبية ليست

احتياطيا عسكريا يمكن وضعها تحت الانذار ورهن اشارة القيادة. وللجماهير مزاجها الذي لا يستقر طويلا على حال واحد. إنما يمر بفترات مد وجزر .وقد تيأس من الانتظار المستكن. وكم من وضع ثوري في التاريخ ضاع على الثوار جراء الانتظار غير الفعال.والقوات المسلحة بدورها تتأثر بمزاج الجماهير وبوجود الوضع الثوري أو عدمه. كان الرضي يشبه تنظيمنا في الجيش بمسدس بهاء الذي لم يكن ينظفه حتى «جيم» اي لم يعد يصلح لاطلاق النار وكذلك تنظيمنا العسكري لم نكن نحركه حسب رأيه.

كان خطنا التاكتيكي يعتمد على الانتظار على ترصد القوى المعادية فاذا ما قامت هذه بحركة مسلحة لاسقاط قاسم قمنا بالدفاع عنه لِ التخليد نظامه بل لفرض نظام ديموقراطي بدلاً منه. وكانت القوى المعادية هي بدورها أيضاً تترصدنا. وفي كل معسكر من معسكرات الجيش كان ضباط من مختلف الميول والاتجاهات يسهرون الليالي يترصد بعضهم بعضاً. كما كان السنتو يترصدنا. والأهم من كل ذلك أن الجماهيرلم تكن مستعدة لاسناد أي محاولة للاطاحة بقاسم مباشرة وحتى التنظيم الشيوعي في الجيش لم يكن مضمونا تحركه ضد قاسم دون أن يلمس إسناداً جماهيريا واسعاً مباشراً مستعداً لدعمه.

لم يطالب أحد باجراء انتخابات عامة لافي ١٩٥٨ ولا في ١٩٥٩ وفي خطاب القاه قاسم في يوم الجيش ٦/كانون الثاني /١٩٦٠ تساءل:

- ترى ماذا كانت ستؤول اليه النتيجة لو جرت الانتخابات العامة في السنة الماضية؟!

كان سؤاله موجهاً للاحزاب البرجوازية مذكراً إياها بخطر فوز الحزب الشيوعي بالاكثرية خلال المد الثوري العظيم في ربيع ١٩٥٩ لم تطالب تلك الاحزاب طيلة عام الثورة ١٩٥٨ — ١٩٥٩باجراء انتخابات عامه أو إنهاء الفترة الانتقالية، كما لم يطالب حزبنا أيضاً. الكل كان يسعى إلى كسب السلطة عن طريق كسب الجيش أو بالاحرى قيادته سواء قاسم أم منافسيه من ادعياء الوحدة. لقد حركنا صفوف الجماهير والجيش للضغط على قاسم بل لتشجيعه على ادخال ممثلين عن حزبنا في حكومته وتحت رئاسته، ولكن هذا التحريك أرعبه ويا للمفارقة. وقد ظن الاعداء إننا نريد تكرار التجربة البلشفية بنقل الثورة من شباطها إلى اكتوبرها، من المرحلة البرجوازية إلى المرحلة البروليتارية خلال ثماني أو تسعة أشهر. كان الأولى بنا لنحبط مناورة عزلنا بسفر الجادرجي المفاجئ وتجميد محمد حديد للحزب الوطني الديموقراطي بالتواطؤ مع قاسم، لاحباط مطالبة الحزب الشيوعي بالاشتراك بالحكم، كان الأحرى بنا أن نطالب بانهاء الفترة الانتقالية وإجراء انتخابات عامة حرة تتنافس فيها الاحزاب لانتخاب مجلس وطني تأسيسي يتمتع بالسيادة التامة، أما محاولة القيام بانقلاب عسكري فلم تكن تؤدي في تلك الظروف في ظل نسبة القوى القائمة آنذاك سوى إلى تأليب جميع القوى ضدنا.

65

بين محاولة قاسم لترويض الحزب الشيوعي وتغيير اسم الحزب

في بداية ١٩٦٠ قام قاسم بإجازة جميع الاحزاب التي طلبت الاجازة باستثناء حزبنا، إذ أجاز بدلاً منه حزباً وهمياً بنفس الاسم لداوود الصايغ الذي كان من زمن مضى عضواً في اللجنة المركزية لحزبنا وتواطأ مع قاسم لترويض حزبنا عن طريق هذه المناورة الخسيسة .وقدمنا طلباً ثانياً بإسم «الحزب الشيوعي العراقي (اتحاد الشعب)» باضافة اسم جريدتنا المركزية بين هلالين بعد اسم الحزب. وكنت أنا الموقع على الطابع المالي الملصق على الطلبين وجرت حملة جماهيرية بتأييد الطلبين على التوالي باسم زكي خيري ورفاقه، بقرار من المكتب السياسي ظنا منه إن توقيع الرضي يثير قاسم وإن توقيعي أهون الشرين ولكن قاسم رفض الطلبين على التوالي، ليضطرنا إلى أن نطأطئ رؤوسنا وندخل معلف داوود الصايغ. فأبينا إلا أن نكون رجالاً كما اوصى لنين في حالة كهذه. وجاءتنا فتوى من سوسلوف بان نقتدي بمثل البلاشفة الذين وافقوا على الوحدة مع المنشفيك في المؤتمر الرابع للحزب في استوكهولم «مؤتمر الوحدة» فرفضنا هذه الفتوى وشتان بين المنشفيك الذين كانوا آنذاك الاكثرية في الحزب الروسي وبين داوود الصايغ الفرد الصنيعة! الذي لم يستطع حتى جمع الحد الادنى من المؤسسين أي (٦٠) توقيعا. فأوعزنا لبعض رفاقنا غير المعروفين آنذاك بالتوقيع معه وفي اللحظة الحرجة استقالوا وأعلنوا استنكارهم لعملية التزييف. وتكررت العملية أكثر من مرة فضحك الناس من قاسم ومن حيله المفضوحة حتى أن الجادرجي صرح في مجلسه الخاص:

- بأن حزباً آخر لم يبهذل رئيس حكومة كما فعل الشيوعيون بقاسم!

وفي تلك الايام استقبل الجادرجي داوود الصايغ وقال له

- أما تستحي يا رجل!

كان الجادرجي مستاء من عمل داوود الصايغ التخريبي لحساب قاسم.

وفي تلك الفترة استدرجنا قاسم إلى مقره في وزارة الدفاع لنلتقيه بتوسط بعض الاصدقاء في مقر وزارة الدفاع من ذوي «المساعي الحميدة» فانتدب المكتب السياسي ثلاثة من أعضائه وهم: أبو العيس وعامر عبد الله وأنا. ودخلنا مكتبه ليرينا قميصه الخاكي المدمى وقد علقه في صندوق زجاجي كذخر مقدس لمحاولة اغتياله وحمدنا الله على سلامته. وقدمت لنا فناجين القهوة التركية المسكرّة وأضاف هو ماء بارداً على قهوته. وجلسنا حول المائدة المعدة لاجتماعات مجلس وزرائه. وأخذ يتكلم ويتبجح بمنته على الشعب الذي حرره هو لا غيره وإلا لبقي مستعبداً لألف سنة اخرى وإنه هو الذي أسس الجمهورية في حين أن لاحزاب السياسية لم تكن تطمح بأكثر من تبديل وزاري. وكيف إنه واقف بالمرصاد لكل من يتجاوز الحد كالبستاني الذي يقطع الاغصان

الهابسة ليكفي الناس شر أذاها. وحاولنا عبثا أن نتكلم. وقد لاحظنا أن الزعماء البرجوازيين وليس قاسم وحده يمارسون تاكتيك الاستبداد بالحديث ولا يفسحون المجال لمحدثيهم ليتكلموا. ولذا فإن الجادرجي اشترط على قاسم عندما طلبه قاسم للحوار اشترط مقدما أن يتعهد قاسم بان يفسح له المجال ليتحدث هو أيضا.

شتان بين لقاء قاسم وهو طريح الفراش في المستشفى وبين لقائه في بزة الفريق الاول وفي مقره العام في وزارة الدفاع، متنمرا وبيده سيف التحريم القانوني لأقوى حزب سياسي في العراق آنذاك.

خرجنا منقبضي النفوس بعد أن جئنا مستبشرين ولكننا عقدنا العزم على أن لا نطأطىء رؤوسنا للطاغية. ولدى العودة إلى مكاتب اتحاد الشعب، رن جرس التلفون وكان النداء من وزارة الدفاع حيث سكرتير قاسم يطلب حضوري أنا وحدي بدعوة من الزعيم. وقبل أن استشير احدا قلت للرفيق حامل سماعة التلفون: قل له انني غير موجود! ولا أذكر أن أحدا من قادة الحزب الشيوعي التقى قاسم بعدها حتى قضي عليه انقلاب شباط/١٩٦٣ بعد ذلك بثلاث سنوات.

كان قاسم يسعى إلى حتفه بظلفه حتى تكون لديه مركب نفسي عجيب ففي أواخر خطبه كان يؤبن نفسه بنفسه ويقارن حاله بحال الخلفاء الراشدين الذين اغتيلوا الواحد تلو الآخر وهم في أوج السلطان. ويؤبن نفسه بعد أن «دخل التاريخ من أوسع ابوابه» كما قال هو عن نفسه.

وبعد اللقاء بأسابيع كتبت مقالاً مطولاً ناقشه المكتب السياسي ونشره بدون توقيع في اتحادالشعب، لخصت فيه تجربة الحياة الحزبية في العراق من ايام فيصل الاول إلى أيام قاسم. ولو كان الارشيف في متناول يدي لاوردت بعض مقاطعه.

بعد أن رفض قاسم طلبنا لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي وفقاً للقانون وإعطائه الاجازة لحزب داوود الصايغ وقدمنا الطلب الثاني باسم «الحزب الشيوعي (اتحاد الشعب)» استاء الرضي اشد الاستياء من هذا التدبير التساومي. ولدى محاسبة المعارضة في ايلول ١٩٦٢ اعتبر ذلك دليلا على انتهازيتنا وإدخالها النفوذ البرجوازي إلى الحزب. وكانت مناورة فاشلة فلم يكن قاسم مستعداالاعطاء اجازة قانونية للحزب الشيوعي بهيئته المؤسسة مهما غير في اسم الحزب فلماذا إذن تغيير الاسم التاريخي الذي اكتسب شعبية واسعة جعلت الحزب قوة جماهيرية كبيرة بحيث أقض مضاجع الامبريالية فاخذت تضغط على قاسم للانقضاض عليه. ومع ذلك دفعنا بعدد من رفاقنا داخل حزب داوود الصايغ وفي جريدته «المبدأ» لئلا يستغلها أعداؤنا. وبعدئذ قطع قاسم عنها الدعم.

وبعد أن نجى قاسم من مؤامرة رأس القرية لم يعد يعطي آذانا صاغية لاي حزب أو أية شخصية سياسية وأخذ يستسلم للغيب الذي نجاه من الموت الأمر الذي حمل محمد حديد بعدئذ إلى الاستقالة من حكومة قاسم ففقدت الحكومة كل صيغة حزبية ولم يعد يحيط به في مكتبه سوى صوره الفوتوغرافية حتى أن الرئيس السوفيتي ميكويان عندما زاره نصحه بأن يرفع تلك الصور ويحيط نفسه بالحلفاء وكما قيل آنذاك. ومع ذلك فان ولعه بصوره لم يبلغ عشر معشار ما بلغه ولع صدام حسين بصوره وجدارياته وتماثيله بنسبة طردية مع تخريبه للعراق وحياة شعبه.

وكانت الحركة الجماهيرية قد دخلت في دور الجزر بعد خيبة الامل التي منيت بها جراء تحجيم الحزب الشيوعي والمنظمات الديموقراطية وسائر الحريات الديمقراطية وتعثر تطبيق الاصلاح الزراعي الذي أخذ يرواح.

وأراد قاسم أن يناور لاحتواء المعارضة فأخذ يلوح باجراء الانتخابات العامة وبوضع الدستور الدائم. ودعا فعلا كامل الجادرجي إلى مكتبه فلبى الدعوى ولما أراه قاسم قميصه المدمى نصحه بإحراقه. وخلال الحوار نقل له الجادرجي ما يدور حوله من نكات ومنها إن وزراءه شكوا مما

يعانونه من طول جلسات مجلس الوزراء التي كانت تجري كلها ليلا وحتى الصباح التالي. فتم الاتفاق على أن تنتهي الجلسة الليلية عندما يؤذن المؤذن آذان الفجر في المساجد الموجودة في قلعة الدفاع. وفي الجلسة التالية اذن المؤذن آذان الفجر والشمس رأد الضحى!

وطلب قاسم من الجادرجي أن يضع صيغة الدستور الدائم كما يشاء الجادرجي نفسه. فكان جوابه:

ـ لو كان الطلب جدياً لما خرجت من هنا قبل أن أكمل صياغة مسودة الدستور الدائم.

وقد نشر الجادرجي محضر لقائه مع قاسم في نشرة داخلية محدودة النسخ زودنا بواحدة منها.

ونشر آنذاك بهاء الدين مقالات في اتحاد الشعب يناقش فيها صيغ القوانين الانتخابية المختلفة وطالب بنظام الانتخاب النسبي وردت عليه جريدة البيان للحزب الوطني التقدمي رافضة الانتخاب النسبي على أساس أنه لا يصلح إلا للبلدان ذات التقاليد الحزبية الراسخة، ولكن لم يتحقق لاهذا ولا ذاك. فلا قانون الانتخابات ولا مسودة الدستور الدائم اللذين وعد بهما قاسم ظهرا إلى الوجود. وقد امضى قاسم معظم وقته في سنوات حكمه الاخيرة في تخطيط الساحات العامة «الفلكات» والمنتزهات العامة في بغداد حتى أطلق عليه الناس لقب «أبو فلكة» بيد أن هذا لايبرر الاستخفاف بما تم في عهده من منجزات كبيرة في مختلف الميادين ولا سيما ضد الاستعمار والاقطاع.

66

العلاقة بين الوطني والديمقراطي

بعد منح الإجازات للأحزاب الأخرى لتمارس نشاطها الشرعي في أوائل عام ١٩٦٠ بادر الحزب الشيوعي إلى جمع (ألف) توقيع من وجوه المجتمع ذوي الميول الديموقراطية من عمال واساتذة وأدباء وأطباء ومهندسين ومحامين للمطالبة بانهاء «الفترة الاستثنائية» التي غدت منذ ١٩٥٨ وحتى الان أي نحو ثلث قرن هي الحالة «الطبيعية» وكان من جملة المطالب إنهاء الأحكام العرفية وسن قانون انتخاب ديموقراطي وإجراء إنتخابات عامة لتأليف مجلس تأسيسي لسن دستور دائم وإطلاق الحريات السياسية و..الخ وعلى اساس هذه المضبطة قرر الحزب القيام بحملة جماهيرية لإسناد هذه المطالب.

أحس الدكتاتور بخطر هذه الحملة فجاء تبشيره بسن قانون الانتخابات وتكليفه للجادرجي بصياغة الدستور الدائم ولكنها كانت مناورة فارغة لم تنته إلى شيء.

وبادر قاسم في تلك الفترة إلى فتح باب المفاوضات مع شركات النفط I.P.C. وكانت كونسرسيوم بريطاني - هولندي - فرنسي - أمريكي. وراح يذيع يوميا محاضر المفاوضات في وسائط الاعلام الجماهيري. وقد تولى بنفسه رئاسة الوفد العراقي ليلعب على شاشة التلفزيون دور المفاوض الصعب الفطن الذي يستهوي الجماهير. وكنا قد اعددنا كل شيء للبدء بالحملة الجماهيرية من اجل الديموقراطية. والآن وقد طرأ طارئ جديد..وهو مفاوضات النفط لانتزاع حقوق العراق الوطنية من الشركات الاحتكارية. فأيهما نقدم: النضال الوطني ضد الامبريالية أم النضال الديموقراطي ضد الدكتاتورية الفردية الوطنية المتورطة في صراع مع الامبريالية؟

ولم نتردد طويلاً فقدمنا الاول على الاخير: الوطني على الديمقراطي.. ولم يدر حتى على بال السكرتير الاول المتهم بالتطرف اليساري تقديم الديمقراطية على النفط أو حتى الخيار الثالث وهو الاصح: دمج الحملتين معاً. المطلب الوطني والمطلب الديموقراطي..تحرير الثروة النفطية وتحقيق الديموقراطية فليس بينهما أي تعارض بل الواحد يعزز الآخر. أما الاحزاب القومية فلم نألوا جهداً لاسقاط قاسم سواء خلال المفاوضات أو بعد أن أمم قاسم ٩٩،٥٪ من مساحة الامتيازات التي كانت تغطي مساحة العراق بالكامل أي انه لم يترك للاحتكار الامبريالي سوى الحقول المستثمرة.

ومن ثم شرع قاسم قانون شركة النفط الوطنية التي كان عليها أن تستثمر الاراضي المنتزعة من الكونسرسيوم بما فيها حقل الرميلة الذي كانت الشركة قد اكتشفته وأرجأت استثماره إلى الوقت المناسب لها. وكان الكونسرسيوم يأمل أن يعود قاسم ليسلمها من جديد الاراضي المنتزعة بصيغة جديدة كما فعل شاه إيران بتأميمات مصدق عام ١٩٥٢ ولكن صدور مشروع قانون الشركة الوطنية أقض مضاجعها. فأتصل السفير الامريكي في بيروت بضابط عراقي كان في إجازة وهو شقيق محمد علي جواد آمر القوة الجوية الذي قتل مع بكر صدقي ومن أقرباء قاسم أيضاً كلفه السفير بأن يعود

إلى بغداد ويحذر قريبه من مغبة وضع توقيعه على مسودة القانون. و كانت جاهزة للتوقيع لتصبح قانوناً نافذاً. وكان قاسم متردداً في التوقيع حتى تلك اللحظة فلما سمع بالانذار الامريكي له طلب الائحة ووقعها في الحال. وكان هذا التوقيع بمثابت التوقيع على حكم بالاعدام على صاحبه رمياً بالرصاص. وقد نفذه إنقلابيو ٨/شباط/١٩٦٣ حالما قبضوا على قاسم فقدموه قرباناً للاحتكارات الامبريالية.

كان الانذار الامريكي بمثابة الضوء الاخضر لانقلابيي ٨/شباط و قد صرح أحد أقطابهم علي صالح السعدي نائب البكر بعد أن استيقظ ضميره «لقد ركبنا قطاراً امريكياً» وجراء تصريحه هذا استدعاه البكر بعد انقلاب ١٩٦٨ وأمر بجلده في مقر رئاسة الجمهورية وبحضور الرئيس نفسه ونائبه صدام.

و في عام ١٩٦١ وقع إضراب أصحاب السيارات التاكسي بسبب رفع سعر البانزين الذي كان أوطأ سعر في المنطقة كما اضرب عمال السكاير وكان لحزب البعث ضلع في هذين الاضرابين. وزجت الحكومة بالشرطة ضد العمال المضربين و تدخلت جريدتنا «اتحاد الشعب» فايدت العمال المضربين مما أدى إلى تعطيل الجريدة علي يد الحكومة وكان لدينا احتياط امتياز لاصدار جريدة «صوت الشعب» لصاحبها محمد حسين أبو العيس. فقرر المكتب السياسي إصدارها بدلاً من «اتحاد الشعب» ومواصلة تاييد الاضراب. وكان رأي الرضي أن لا نصدرها قبل انتهاء الاضراب لئلا نخسر جريدتنا العلنية الباقية الوحيدة. وبعد إسبوع أغلقت «صوت الشعب» وبقينا بلا جريدة علنية كما توقع الرضي وأخذنا نستفيد من النشر في جريدة «١٤/تموز» الأسبوعية لصاحبتها نعيمة الوكيل. وعدنا إلى النشر السري أيضاً فأصدرنا «طريق الشعب» و«ريكاي كردستان» في خريف ١٩٦١

لم يعد قاسم يتحمل النقد العلني في الصحافة. وقد غدى في أيامه الأخيرة يفضل الموت على العيش بمؤازرة الشيوعيين. وحتى عندما اخبرناه بموعد إنقلاب ٨/شباط قبل وقوعه، ضرب بالاخبار عرض الحائط واعتبرها دسيسة من جانبنا للايقاع بينه وبين أعدائه الالداء المتآمرين على سلطانه وحياته!

وقبل ذلك حاولنا أن نزيل التوتر بيننا و بين القوميين ولا سيما حزب البعث الذي غدى القوة الرئيسة بينهم ونشرنا الدعوات الحارة في صحافتنا العلنية. وجاء الجواب في جريدة البعث السرية «الاشتراكي» تحت عنوان «تقطع اليد التي تمتد إلى الشوعيين»!!

وكان واضحاً كل الوضوح أن أعداء قاسم الذين اتحدوا تحت شعار «يا أعداء الشيوعية اتحدوا!» كانوا متحمسين للانقضاض على الحزب الشيوعي اكثر من حماستهم للقضاء على قاسم وأن الجهد للمصالحة معهم كان عبثاً. وقد اعطونا رأيهم النهائي في التعامل معنا عن طريق كامل الجادرجي الذي أبلغ ممثلنا عامر عبد الله بانهم عازمون على هدم مقر قاسم على رأسه وأن نصيحتهم الوحيدة للشيوعيين هي أن يتخلوا عن الدفاع عن قاسم نهائيا و يلتزموا الحياد!

كان واضحاً إنهم يريدون سحق خصومهم الواحد بعد الآخر وحتى بعد القضاء على قاسم واعتقال الرضي رفضوا أي تفاوض معه بل قتلوه تحت التعذيب وذهبت مساعينا أدراج الرياح أيضاً لدى الجادرجي لاحياء جبهة الاتحاد الوطني أو إقامة جبهة موحدة جديدة. وكانت حجته هي أنه لم يكن يريد أن ينحاز إلى طرف دون الاخر ولذا لن يعقد معنا أي تحالف أو إتفاق من دون البعث.

واستطاع انقلابيو ٨/شباط كسب تأييد البارزاني لانقلابهم مقدماً مؤملين أياه بحل سلمي للقضية الكردية مع أنهم كانوا يحملون على قاسم «لعدم جديته» في سحق الثورة الكردية. وكانوا

في الحقيقة يضمرون شيئاً آخر تماماً. وكان قاسم قد أوقف القتال من جانب قواته لمدة شهر ثم مدد التوقف تحت ضغط الحملة الجماهيرية التي نظمهـا الحـزب الشيوعي مـن أجـل الحـل السـلمي الديموقراطي للقضية الكردية. وكان المتآمرون يخشون من أن يقدم قاسم على تسوية مـع البـارزاني كالتسوية التي تمت فيما بعد على يد الرئيس عارف ولذلك عجلوا بالانقلاب. وما أن استتب لهـم الامر حتى شنو اقسى حملة عسكرية على الثورة الكردية منذ قيامها حتى عام ١٩٦٣

وحسب اجتهادي غدت القضية الكردية احدى العتلات الرئيسة إن لم تكـن العتلـة الأرأس في حياة البلاد السياسية. والحرب ضد الاكراد هي التي عجلت سقوط قاسم وكذلك حكم البعث عـام ١٩٦٣ ولكن يبقى حلها رهن بحل قضيـة الديموقراطيـة في العـراق. وهـذا لايـزال واردا الآن رغـم جميع التغيرات التي حصلت في اللوحة السياسية العامة. وهو وارد أيضاً بالنسبة للقضية ذاتهـا في البلدان المجاورة للعراق أيضاً.

كنا ندعو لبناء العراق الديموقراطي. وليس إلى أي شيء آخر ولم يكن حزب البعث يريـد ذلـك بل شيئاً آخر هو العراق الواحداني يعني البعثي الخالص في كل صغيرة وكبـيرة. كـانوا في حاجـة إلى حلفاء وقتيين خاضعين لقيادة حزب البعث الخاضع بـدوره للفـرد «الأب الرئيـس القـائد». ولم يكونوا يريدون حزباً جماهيرياً قوياً مستقلا كالحزب الشيوعي العراقي يقاسمهم السلطان أو النفـوذ الشعبي فضلا عن أن التحالف مع الحزب الشـيوعي يحرمهـم الضـوء الاخضـر الـذي فتحـه لهـم الامريكان ويحرمهم من مؤازرة القوى الرجعية في المنطقة. وبعد أن عادوا إلى الحكـم في عـام ١٩٦٨ قالوا لنا إنهم قد يخسرون الحكم مرة أخرى أيضاً ولكنهم لن يتركوا الحزب الشيوعي قوياً بحيـث يكون بديلا لحزبهم. لانهم سوف يستعيدون سلطانهم فيما بعد من أي حزب آخـر عـدى الحـزب الشيوعي الـذي لـن يستطيعوا إنـتزاع زمـام الحكـم منـه بسـهولة مـا أن يقبض عليـه علـى حـد قولهم.

وبعد انتهاء الحملة من أجل إجازة الحزب الشيوعي وبقاء الحزب بدون إجـازة قانونيـة شـرع قاسم من جديد مواصلة حملته البوليسية ضدنا ولم تكـن السجون لتخلـو مـن مئـات الشـيوعيين: يطلق سراح وجبة ليعتقل وجبة اخرى. وتكهرب الوضع في المكتـب السياسـي مـن جديـد وكـانت المعارضة ترى أن تصلب السكرتير الاول كان السبب في تدهور العلاقات بين الحزب وقاسـم وكـان هذا لايحب الرضي وإن تغيير السكرتير الاول من شأنه انفـراج الازمـة! وكـانت المعارضـة تحـاول تقييد الرضي ولكنها كـانت تبؤ بالفشـل بسـبب نشـاطه علـى مستوى القـاعدة الحزبيـة. وعنـد التحضير للاجتماع الموسع للجنة المركزية حددت له النمط الذي يحرر به التقرير السياسـي: بـان يستعرض التقرير ما تم تنفيذه وما لم يتم من مقررات الاجتماع الموسع السابق. ولكن الرضي قدم في الاجتماع تقريره الذي نحا فيه منحاً آخر. وبعد نقاش حاد بصدد هذه النقطة رفضـت الاكثريـة في المكتب السياسي مناقشة التقرير أو تبنيه فقدمه الرضي للاجتماع الموسع باسمه.

وفي هذا الاجتماع رشحني عامر عبد الله لمركز السكرتير الاول فلـم أرفـض في هـذه المـرة لاؤدي الثمن غالياً فيما بعد. وقد وضح عامر عبد الله في اجتماع آب ١٩٦٤ بتقرير مسهب سبب ترشيحه لي بأنه لم يكن بناء على قناعته بجدارتي بل لمحض ظنه بأنني أهون شرا. وأن بعض الظـن إثـم. وفاز الرضي بالاكثرية المطلقة ففشلت المعارضة في تنحية السكرتير الاول. وقـد ندمـت علـى قبـولي الترشيح ولات ساعة مندم! وفي تقرير الاتهام الذي كتبه الرضي بحق المعارضة فسـر ترشـيحهم لي بمثابة تنصيب حكومة مؤقتة ريثما يحل «قطبا» المعارضة بهاء وعامر عبد الله خلافاتهما حول مـن منهما يجب أن يتولى زمام القيادة بعده. وقد اكد فيما بعد ظنه سوء سلوكهما وما كتباه عني. ومـع ذلك فان موافقتي على خوض الانتخابات بالضد من الرضي كـانت سـببا مشـددا لمعـاقبتي بنفـس

العقوبة التي انزلت «بالقطبين» في اجتماع اللجنة المركزية في ايلول ١٩٦٢ وهي التنحية من اللجنة المركزية مع عقوبات اضافية لهما بحيث جردا من عضوية الحزب من الناحية العملية. وكان هادي هاشم قد انحاز إلى جانب السكرتير الاول بعد عودته من الدراسة وانسحب جورج تِلو من المعارضة بفضل فضاضة بهاء الدين نوري معه. أما عزيز محمد فكان مع المعارضة سياسياً ولكنه نأى بنفسه عن المشاحنات وقد تظافرت جهود الرضي والحيدري لانتشاله من وسط المعارضة كما تستل الشعرة من العجين فلم يصيبه أي اذى.

في النصف الثاني من عام ١٩٦١ كنت سكرتيرا بالنيابة لغياب الرضي وعندما عاد، قال:

ـ أن تلك الفترة شاهدت أشد حملة ضد حكومة قاسم في صحافة الحزب.

ولكنه مع ذلك لامنا لأننا استبشرنا عندما أطلق قاسم سراح المعتقلين السياسيين في نهاية السنة ١٩٦١

وفي سنة ١٩٦٠ تفاقم الخلاف بين أكبر حزبين شيوعيين: الصيني والسوفيتي وظهر على المكشوف بعد نشر الحزب الشيوعي الصيني مقال «تحيا اللينينية» في معارضة السياسة السوفيتية. وقد ألح الرضي على هيئة التحرير لتنشره في اتحاد الشعب بعد أن ترددت في نشره. ثم تخلى عنه.

وفي تشرين الثاني ١٩٦٠ إنعقد المؤتمر العالمي للاحزاب الشيوعية في موسكو وترأس وفدنا إليه بهاء الدين نوري وكان يميل إلى الجانب الصيني. فلم يلتزم في المؤتمر بتوصيات المكتب السياسي وهي إلى جانب السوفييت. فقرر المكتب السياسي تجميد عضويته في الهيئات القيادية وإبقائه في موسكو للدراسة.

اتخذ تقرير الرضي من ذلك دليلا على اتهام المعارضة بالميل الصيني فوق اليساري من جهة وباليمينية من جِهة اخرى. والحقيقة لم يكن بين المعارضين للرضي ميل واحد يجمعهم سواء كان يمينيا أم يساريا. وفي اجتماعات المكتب السياسي التي كان يحتد فيها الصراع كنت أحاول التوفيق بين الرضي والمعارضين له. وفي أحيان كثيرة كنت أوفق إلى صياغة يوافق عليها الطرفان وهي في جوهرها لاتختلف عما يريده الرضي. وكان هذا يسيئه. لماذا يوافقون على صياغتي دون صياغته وهما من جوهر واحد.

عاد الرضي من موسكو ١٩٦٢ دون أن يتم الدراسة التي انتدبه المكتب السياسي لها. فقد كان في دخيلته يظن إن انتدابه للدراسة في موسكو محاولة من المعارضة لابعاده عن التأثير المباشر على سياسة الحزب وكان في ظنه هذا شيء من الحقيقة ولكن حتى اصدقاؤه كانوا موافقين على إخراجه من العراق بدافع الحرص على حياته إذ كان التوتر مع قاسم يتفاقم يوماً بعد يوم والوضع الامني في البلاد يتفاقم. وكان من بين الدوافع الملحة لعودته محاسبة المعارضة وتطهير المكتب السياسي واللجنة المركزية منها وفرض الاتجاه الواحد فيهما. ولهذا عاد قبله جمال الحيدري وهادي هاشم كما عاد اخرون من اعضاء اللجنة المركزية مع أن بقاءهم في الخارج كان احتياطيا تستلزمه الظروف المتفاقمة السوء واشتداد النشاط التآمري المعادي الذي كان من بين أهم اهدافه الانقضاض على الحزب الشيوعي.

عاد الرضي وباشر بممارسة نشاطه القِيادي وأعد تقريراً لإدانة المعارضة وكان قطبا المعارضة على حد تعبيره يدرسان في موسكو فضلا عن إن بهاء الدين، أنشطهما مشلول النشاط بعد قرار المكتب السياسي تجميده. وجمدت قيادة الحزب عضويتي في اللجنة المركزية قبل أن تبدأ المحاسبة. فكان الجو مهيئا لاجراء محاسبة في جو يسوده الهدوء والاتجاه الواحد. وقد وصف الحيدري المعارضة بانها «معارضة منظمة» ولقب أعضاءها «بالفرسان الاربعة» (وهم بالاصل سبعة

والآخرون هادي هاشم وجورج تلو وعزيز محمد) وهو الوصف الذي أعطاه خروشوف للستالينين الاربعة (مولوتوف ورفاقه) وكان معروفاً للجنة المركزية أن «الفرسان الأربعة» لم يكن يجمعهم ميل واحد وحتى صداقة شخصية فكيف السبيل لاقناع اللجنة المركزية بوجود كتلة؟! كان شيء واحد يجمعهم وهو معارضة السكرتير في التاكتيك وفي بعض تصرفاته. وقد تهيأ الرضي لمثل هذا الصراع. اتصل الرضي في موسكو بالرفاق السوفييت المطلعين على الاسلوب القيادي السائد في الحزب عندهم وكيفية التعامل مع المعارضين المزمنين. فعلم منهم كما أفاد لدى عودته أنه مجرد تكرار تصويت عضو واحد أوجملة أعضاء ضد موقف السكرتير أوالاكثرية فان هذا التكرار في التصويت بلا يعتبر اتجاهاً أوميلا وكل ميل معارضة وكل معارضة تكتلا مضاد للحزب يستوجب التطهيرحتى اذا لم يثبت وجود أي وحدة فكرية بين المعارضين أوأي انضباط خاص بهم. وكل من يقرأ تقرير الادانة الذي كتبه الرضي بحق المعارضين الاربعة يتوصل إلى أن تكرار التصويت ضد السكرتير الذي انتخبته اللجنة المركزية، انما هو تكتل ضد الحزب. وقد اقرت اللجنة المركزية بالاجماع أي بما فيها المعارضين هذا المبدأ، وكذلك العقوبات التي ترتبت عليه أي تنحية المعارضين الاربعة جميعاً من اللجنة المركزية. في ذلك الجو ركبني شعور بالاثم لميلي للجانب الصيني في تقييم قضية ستالين و«الجزاء من نفس العمل» فقد انتقدت نفسي، أي جلدتها على الطريقة الستالينية، تكفيراً عن النفس تجاه ائمة الشيوعية وليس اعدائها كما يفعل المرتدون اليوم. فقد كانت معالجة خروشوف لاخطاء ستالين مغالية وقد ولدت لدينا نحن الشيوعيين من المرحلة الستالينية رد فعل عنيف آخر لعمق أخطاء ستالين اوقعنا في الماوية وهي نمط أسيوي من الستالينية.

إن الطموح الشخصي للتقدم في المراكز القيادية كان له دوره في الصراع داخل المكتب السياسي. ولكن الطموح إلى تولي أعلى المراكز القيادية لم يكن بمعزل عن النزعة الفكرية والسياسية لكل طامح، يعني طموحه في توجيه الحزب نحو وجهته الخاصة. ربما باستثناء بهاء الدين، فان طموحه الشخصي للتسلق كان طاغيا حتى على نزعته الفكرية والسياسية. وخطر مثل هذا الطموح انه كان يعطي للنضال الفكري والسياسي الداخلي، أي ضمن الهيئة الحزبية القائدة طابعاً خطراً، ولا سيما في الأزمات وخلال المصاعب التي يجتازها الحزب، وكان بهاء ابعد الجميع عن روح القيادة الجماعية. ومما يروى عنه انه لم يجمع اللجنة المركزية لمناقشة الميثاق الوطني الثاني للحزب، لأدري مبالغة في الصيانة لسرية التنظيم أو خوفاً من المناقشة الجماعية. ويقال أنه مرر المشروع وهو على صهوة البايسكل، على اعضاء اللجنة المركزية واحداً فواحداً لأخذ أرائهم! وبهاء مدين في سلوكه الشخصي لتربيته فهو الابن الاثير لملا هو في نفس الوقت فلاح غني. تربى مدللا على حساب اخوته تربية ملائية اقطاعية ليكون رئيس اسرته الذي لا يرد له كلام. ولم يتربى تربية حزبية صالحة بناء على الظروف المضطربة الاستثنائية التي مر بها الحزب وسنحت له ليتسلق أعلى مراكز الحزب في فترة وجيزة حيث مارس قيادة فردية صارمة وسرية للغاية. ولم يعد يطيق العمل الجماعي وسرعان ما تضيق أنفاسه من المناقشة ويحاول إملاء رأيه إملاءاً بتكراره مرارا. حتى غدت اجتماعات المكتب السياسي لاتطاق.

ولكن العلاج الذي جاء به حسين الرضي للوضع القيادي في الحزب لم يكن علاجاً لينينياً، أي لم يكن إدخال الوحدة في التنوع، بل فرض الاتجاه الواحد على التنوع، اتجاه السكرتير الاول. وانتقد تقرير الادانة حتى اللجنة المركزية لأنها رفضت مرة محاسبة بهاء. أصبح بعد هذا السكرتير الاول هو الحزب والحزب هو السكرتير! وهذا يعني المركزية المطلقة أي نقيض المركزية الديموقراطية، التي هي مبدأ القيادة الماركسي اللينيني. وبعد شهرين من إقصاء المعارضة من اللجنة المركزية والمكتب السياسي كتب الرضي (عمار) في ٣/تشرين الثاني ١٩٦٢ الرسالة التالية إلى أحد الرفاق:

«نؤكد على التقيد التام بالوجهة العامة في داخل الحزب، لامصالحة أبداً مع خرق وحدة الاتجاه والعمل في جميع المنظمات والهيئات، لانقبل اجتهادات خاصة لا بالطول ولا بالعرض». (كراس «سلام عادل بطل الشعب العراقي» تأليف جماعة من الشيوعيين، موسكو، ص٣٣).

كان لمحمد صالح العبلي وحده رأيه المستقل، فمع أنه صوت مع الإجماع بإدانة المعارضة كان ضد قدسية الفرد بصدق مع انه صديقا حميما للرضي.

منذ عودة الرضي من موسكو كنت أسكن مع عائلة الشهيد جليل عبد الرضى وهو تركماني من قره تبه استشهد في معتقل أبو غريب ودفن في قبر جماعي مع مئات الشهداء بعد انقلاب ٨/شباط ١٩٦٣

وبعد العقوبة التي تلقيتها في ايلول ١٩٦٢ بقيت انتظر شهرين حتى تم تسفيري للنجف لانضم إلى لجنة منطقة الفرات الاوسط. وكان يقودها باقر ابراهيم العضو الجديد في المكتب السياسي ومساعده صالح الرازقي العضو الاحتياط في اللجنة المركزية. وكانا يشكلان مكتب لجنة المنطقة بالاضافة إلى عضو ثالث تنتخبه اللجنة. نسبتني قيادة الحزب للعمل هنا لأتصلب كما ينبغي للشيوعي بالعمل في القاعدة الحزبية. وفي جمهورية الصين الشعبية يفرضون على كل جنرال أن يعيش ويعمل كجندي بسيط لشهر واحد في كل سنة، ولكن ليس كعقوبة حزبية أو عسكرية بل كعلاج للترهل الذي يصيب القادة جراء انعزالهم عن حياة الجمهور وتقوقعهم في مكاتبهم.

أُسكنت لفترة ضيفاً على الرازقي في بيته الحزبي حيث كان يحضر باقر ابراهيم ليبحثا الشؤون الحزبية وكانا يشركاني في البحث مع عضو الثالث لمكتب لجنة المنطقة المنتخب وكان شاباً نشيطا، وعندما يوصي بتقديم احد الشيوعيين في سلم الكادر الحزبي يصفه بأنه «منظم حوك» ربما كان يعني بذلك «بيروقراطي صارم» بلغة اليوم. ولكنه عندما وقع في فخ لشرطة ٍ قاسم انهار وقدم اعترافه، فاطلق سراحه. وفي الحال أخبر الحزب بما جرى له؟. وكان معيلاً لعائلة كبيرة من الاخوات. فكان لابد من انتخاب عضو اخر محله في مكتب اللجنة في آخر جدول عمل اللجنة في اجتماعها كالعادة. ولم يرشح باقر ابراهيم ولا الرازقي احدا فتكلم سكرتير اللجنة المحلية للواء كربلاء وهو اسكافي وكان من أصدقائي في السجن، ورشحني لانتخب كعضو ثالث في المكتب. فلاذ الجميع بالصمت فاعتذرت عن قبول الترشيح «لأن الحزب جاء بي إلى هنا لاتصلب في العمل مع القاعدة الحزبية وليس لاسهم في قمة القيادة» وقد انتخب رفيق آخر لملء الفراغ الشاغر. وبعد الاجتماع فكر مسؤول كربلاء مع نفسه: اذا كان زكي خيري قد جئ به ليتصلب معي فمع من يجب أن اعمل لكي أتصلب؟! فقدم استقالته من الحزب وعاد اسكافيا يمارس مهنته من جديد في مدينته كربلاء. فهل كانت صراحتي ذات اثر سلبي؟ أم عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم!!

ومن الناحية العملية بقيت لتكملة العدد أشارك العضوين الطبيعيين معظم مداولات المكتب في غياب الثالث بعد اعتقاله في لواء الحلة.

ثم أُسكنت مع عدنان عباس في بيته في النجف وقد وجدت أن الكادر المحترف في النجف يعيش في مستوى معيشة أدنى مما كانت عليه معيشة الكادر في بغداد فقررت تخفيض تكاليف معيشتي لأخفف العبء عن مالية المنظمة بأن أقاطع التدخين المادة الكمالية الوحيدة في حياتي اليومية.. وقد سمعت مرة من حسين الرضي عندما كان الحديث يدور عما إذا كان من الممكن للمرء أن يقاطع التدخين نهائياً وبنجاحٍ فقال:

ـ أنا نفسي قاطعت التدخين نهائياً وبنجاح أكثر من عشر مرات!

فقررت مقاطعة التخين بنجاح مرة واحدة فقط! حسب الخطة الاتية: أضع عشرين علبة سكاير على الطاولة أمامي واثنتي عشر علبة كبريت لثلاثة أيام متتالية بلياليها بحيث تكون في متناول يدي ليلاً ونهاراً فاذا لم تمتد يدي اليها ولا مرة واحدة فإن الخطة تكون ناجحة.

وهكذا نجحت المقاطعة في ١٢/١٢/ ١٩٦٢ وبعد ثلاثة اشهر كنت واقفاً عند صندوق كبير لتنضيد الفراش عليه وجهاز راديو لأصغي إلى نشرة الأخبار، وإلى جانب الجهاز علبة سكاير مع علبة كبريت فسمعت النبأ المفجع: تنفيذ حكم الاعدام بحسين الرضي ورفيقيه محمد حسين أبو العيس وحسن عوينه. فامتدت يدي تلقائياً إلى علبة السكاير ولكنها تراخت في آخر لحظة وقلت في نفسي: وهل سيعيدهم التدخين إلى الحياة؟! فكانت المقاطعة ناجحة مرة وإلى الابد.

قرأت كثيراً عن مساوئ التدخين ومرة واحدة عن فائدته وهو أن الهنود الحمر في بيرو وهم أول من مارس عادة التدخين ونشرها في العالم، يدعون أن تدخين سيكارة واحدة يعادل تأثيره على الاعصاب تأثير النوم لثماني ساعات! ووجدت الفلاحين في الفرات الاوسط يدخنون جماعياً في مضايفهم عندما يكون لدى أحدهم شيئاً من التبغ، ويقاطعون التدخين عندما لا يكون ثمة شيء يدخنونه.

67

في بارحة الكارثة

تلقينا من مركز الحزب توجيهات عن الوضع السياسي و عن ما يجب عمله لتحقيق وحدة الاتجاه في الخلايا الحزبية على ضوء ما تم تحقيقه في اللجنة المركزية ومكتبها السياسي. ويستطيع القارئ أن يكوّن فكرة عن الوضع السياسي كما يراه السكرتير الاول للحزب من قرأءة رسالته التالية

«إن الوضع العام يتميز بتفكك جبهة أعداء الشيوعية التي قامت منذ أكثر من ثلاث سنوات، غير أن الدكتاتورية خسرت مبادرتها في مهاجمة القوى الديموقراطية وتنامى استعداد الجماهير للنضال. أن على الحزب أن يهيئ نفسه فكرياً وسياسياً وتنظيمياً لقيادة نضالات الجماهير. فعملاء الاستعمار والرجعية وبعض الاوساط البرجوازية اليمينية يحاولون استلام المبادرة التي خسرتها الدكتاتورية, ودون نضال حازم من الحزب والطبقة العاملة وسائر القوى الثورية فان الازمة الراهنة لن تتحول لصالح الجماهير. إننا كما تلاحظون نؤكد على رفع الوعي الطبقي والحزم المبدئي واليقظة الثورية، وتنشيط النضال ضد الافكار والميول الانتهازية ومن أجل تنشيط دور الحزب في الحركة العمالية ومن أجل تعميق الوعي والنضال الطبقي في الريف ضد الميول المتذبذبة أو الذيلية من البرجوازية في الحركة الجماهيرية. أن نعمل للجبهة الديموقراطية من أساسها الصحيح، تحالف العمال والفلاحين وفي المسائل الداخلية من أجل تعزيز الوحدة والانضباط والمركزية وتنشيط النقد والنقد الذاتي.

تمنياتي بالصحة ولحزبنا الظفر. ١٧ /١٠ /١٩٦٢ ....عمار»

(من كراس «سلام عادل»ص ٣٣)

هذا كلام يقال قبل انقلاب ٨/شباط باقل من أربعة أشهر عندما اشتد النشاط التآمري وتراصت القوى المعادية لقلب النظام والاستيلاء على السلطة والانقضاض على الحزب الشيوعي. ربما كان هذا الوهم لدى سلام عادل ناشئاً عن بعض الاخبار التي كانت تسرب إلى الحزب من اعدائه لتخدير يقظته.

والنقطة الثانية: الدكتاتورية خسرت مبادرتها في مهاجمة القوى الديموقراطية «الاعداء يحاولون استلام المبادرة التي خسرتها الدكتاتورية» وهذا يعني إن قبضة قاسم الدكتاتورية كانت تضعف والمتآمرون ينشطون لتحقيق الانقلاب الذي يقضي على حكم قاسم وينقض على الحزب الشيوعي وعلى القوى الديموقراطية التي كان يحاربها قاسم نفسه، مستغلين الصراع بين اعدائهم لضربهم الواحد بعد الاخر وهذا ما جرى فعلا في انقلاب ٨/ شباط. وفي مأزق كهذا أي موقف كان على الحزب الشيوعي أن يتخذه؟ مع قاسم أم ضد قاسم أم الحياد؟

الجواب تعطيه الرسالة هو: «دون النضال الحازم من الحزب والطبقة العامله وسائر القوى الثورية فان الازمة الراهنة لن تتحول لصالح الجماهير» ولكن النضال ضد من؟ ضد قاسم أم ضد أعدائه؟ أن الرسالة تطارد أرنبين في أن واحد. والرسالة تشير إلى تفكك جبهة أعداء الشيوعية وبذلك كانت تضعف اليقظة السياسية لدى الحزب والجماهير تجاه انقلاب شباط المهني والتوصيات التنظيمية والتثقيفية انصبت على قضايا أخرى غير الخطر الرئيس. ولاأعني أن الحزب تخلى عن قاسم وتركه ليلاقي مصيره بنفسه. ففي ٨/ شباط أوعز الحزب إلى اعضائه وانصاره بالدفاع عن قاسم بالسلاح. وعدئذ لم يبحث الحزب ما إذا كان من الجائز عقائدياً الدفاع عن دكتاتور.. ففي المواقف السياسية المصيرية تطرح القضية على نحو آخر: أيهما أخطر على القضية: هذا العدو أم ذاك؟ دكتاتورية قاسم الفردية أم دكتاتورية شباط الفاشية؟ أو الدكتاتورية أوالامبريالية؟.ولكن قبل الانقلاب احتدم النضال الجماهيري الذي يقوده الشيوعيون ضد قاسم. ففي الشهرين الاخيرين قبل الانقلاب أوعز قاسم للقوات المسلحة بالكف عن القتال ضد الثورة الكردية مالم تبادر هي إلى إطلاق النار على الجيش العراقي ومدد فترة وقف إطلاق النار بشهر ثم مددها شهراً آخر واستمرت المظاهرات تطالب بوقف اطلاق النار نهائياً وليس لفترة محدودة وركز قاسم جهوده على قمع المظاهرات ليخفي ضعفه ويستر تراجعه. وكانت هذه فرصة مؤاتية للمتآمرين الذين كسبوا البارزاني إلى جانبهم بوعود خلابة لئلا يتهادن مع قاسم. وقد ساهمت عناصر من البارت في انقلاب ٨/شباط ولا سيما في القوة الجوية بتعطيلها الطائرات في معسكر الرشيد.

أما عندنا في الاطراف فقد غدت المنظمات القاعدية في شغل شاغل لتضبيط الخلايا وتحقيق «وحدة الاتجاه» كما في المركز. وعلى الرغم من بيان الحزب الشيوعي قبل انقلاب ٨/شباط بنحو شهرين، الذي يشير فيه إلى تفاقم التآمر ويشخص حتى قيادات الوحدات العسكرية التي سلمها قاسم للمتآمرين بطبق من ذهب والتي ستقوم بالانقلاب ضده، فمع ذلك لم ندرس ما سوف نعمله على وجه التعين أو بالملموس. إذ مرت عبارة الانقلاب المحتمل في بغداد، ولم نتفقد قطع السلاح القليلة المخبأة هنا وهناك التي اختفت نهائيا كما ظهر فيما بعد. ولم يكن لدى كوادر الحزب حتى مسدسات للدفاع الذاتي؟ وذلك في مدينة كالنجف فيها سوق رائج للاسلحة المهربة من كل نوع وحجم من الاسلحة الخفيفة. وحتى المال لم يفكر أحد بالاحتفاظ به لليوم الاسود. فبعد ٨/شباط سحب المركز اخر مبلغ من المال الذي في صندوق المنطقة لان صندوق المركز وقع بيد العدو مع المطبعة بعد خيانة هادي هاشم الذي سلم معظم البيوت الحزبية مع من فيها للعدو. وقد اعتقل السكرتير الاول حسين الرضي ولم ينج من أعضاء المكتب السياسي من الاعتقال سوى جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي في بغداد وعزيز محمد في كردستان وباقر ابراهيم في الفرات الاوسط. وقد استشهد جورج تلو برصاص الحرس القومي الذي داهم داره. ولم يكن من أعضاء القيادة خارج العراق سوى عبد السلام الناصري.

قاد المقاومة المسلحة في باب الشيخ محمد صالح العبلي وصبيح سباهي لبضعة أيام حتى نفذت ذخيرتهم. وقد نجا العبلي واتصل بالحيدري ليقودا ما بقي من تنظيم الحزب في بغداد حتى قبض عليهما في الصيف وكانا يسكنان لدى عائلة حزبية وعندما شعرا إنهما مطوقين تماماً بالحرس القومي البعثي الذي كان يضيق الخناق عليهما من دار إلى دار، خرجا من مكمنهما اشفاقا على العائلة فوقعا في قبضة الحرس القومي وعندما سألوا العبلي عن هويته بصق في وجوههم. واستشهد كليهما تحت التعذيب ودفنا في قبر سري شأن معظم الذين استشهدوا على يد حكم البعث في العراق.

كنا في النجف عندما أعلن «البيان الاول» لانقلاب ٨/شباط ولم يكن الانقلاب مفاجأة لنا بيد أننا فوجئنا بضعف المقاومة. كنا نعول كثيراً على التنظيم الشيوعي في الجيش الذي كان يضم (٤٠٠) ضابط و(١٠٠٠) ضابط صف. ولكنهم على العموم مكثوا في بيوتهم وقلّ من بادر منهم

ليهرع إلى معسكره حتى جاءهم الانقلابيون إلى بيوتهم ليعتقلوهم أو يقتلوهم فوراً. وتجمهر الشيوعيون على أبواب وزارة الدفاع مطالبين بالسلاح ليقاوموا الانقلاب الفاشي ولكن عبثا فان قاسم كان مصابا بمزاج انتحاري كالذي أصيب به، مع الفارق، روبسبير زعيم اليعاقبة الثوريين في الثورة الفرنسية الكبرى في آخر أيامه. كان لسان حاله يقول: اقتلوني ومالكا! اقتلوني والحزب الشيوعي! ولم يكن هذا المزاج غريباً عن وعيه الطبقي وذهنه العسكري كضابط كبير.

وكانت اللامبالاة السياسية هي المزاج السائد لدى أوسع الجماهير بعد أن توقفت الثورة والاصلاحات منذ ثلاث سنوات ولم تجن الجماهير بعد ثمرات تأميم ٩٩،٥٪ من مساحة امتيازات النفط، فلم تخرج أوسع الجماهير لسد الطريق على الانقلابيين كما فعلت في المؤامرات السابقة بل بقيت متكلة على القوى الديموقراطية في الجيش والحال كانت هذه تنتظر خروج الجماهير إلى الشارع أولاً وقبل كل شيء. كانت خطيئتنا هي أننا كنا نعتقد بأنه ما أن تسمع الجماهير بخبر المؤامرة الانقلابية الا وتتحرك لتتصدى للمتآمرين والحال أن هذه القوى سواء كانت مسلحة أو غير مسلحة لن تتحرك بصرف النظر عن الحالة النفسية الجماهيرية هل حالة ثورية أم لا؟ وهذا ما لايتفق بأي حال من الاحوال مع استراتيجية الدفاع السلبي التي تعني ترك المبادرة للعدو!

كانت مصيبتنا إننا كنا ندافع عن عدو «ومن نكد الدنيا وأنكده على الحر أن يرى عدواً لـه ما من صداقته بد» صدق المتنبي. فقد كنا امام عدو اخر لايختلف عـن هتلر في الامر التالي: اما أن ابيدك او تبيدني وما من بديل اخر وقد صاغ البعث في العراق هذه الاستراتيجية بشعار «تقطع اليد التي تمتد لتصافح الشيوعيين»! رداً على دعواتنا الصادقة للقاء لبحث خلافاتنا والاتفاق على بديل ديموقراطي للدكتاتورية. ذلك لانهم لم يكونوا يريدون بديلا ديموقراطيا بل دكتاتورية اشد عتوا ودموية بما لايقاس: إبادة الشيوعيين والديموقراطيين المتحالفين معهم وقمع الثورة الكردية. كان جمال عبد الناصر مع الانقلاب وقد تبنته اذاعاته منذ اللحظة الاولى وتحت تأثيره كما يبدو سارع الاتحاد السوفيتي بالاعتراف بشرعية حكومة الانقلاب كما اعترفت أمريكا وبريطانية أيضاً. وهذه الاعترافات كانت من المثبطات لعزائم المقاومين للانقلاب وكاننا ماكبث شكسبير عندما تحققت بالمعكوس تكهنات ساحراته الخادعة. كنا نتلقى المثبطات تترى الواحدة بعد الاخرى شهرا كاملا من ٨ /شباط حتى ٨/ آذار إذ أعلن خبر الانقلاب البعثي السوري وبرقية البعث العراقي اليه «إسحق حتى العظام» في حين لم تكن أمامه أية مقاومة. وكانت القوى الرجعية في العراق تنضم إلى الانقلابيين تحت شعار «يا أعداء الشيوعية اتحدوا!» وكانت محطة راديو سرية تابعة للـ CIA الامريكية تذيع عناوين بيوت الشيوعيين في العراق كدليل للانقلابيين الفاشست كما اثبت ذلك ملك الاردن الحسين في كتابه. كانت تلك المحنة من أصعب المحن التي يمر بها المناضلون فلم يكن آنذاك أي حل وسط، أي فرصة للمساومة فأما الاستسلام المخزي وإما الصمود حتى الموت. وقد انهار بعضهم وصمد الاخرون. وكانت الرفيقة ربة البيت الذي أسكنه في النجف وهي زوجة المراسل الحزبي بين لجنة المنطقة ومنظماتها في الريف،كانت أمامي مثالاً لما يعانيه خيرة أبناء شعبنا في تلك الأيام الكارثية من آلام مبرحة وحزن عميق وبصبر لايقهر كانت تسهر الليل بطوله لاتفوت اذاعة عربية لعلها تسمع خبراً منعشا فيه بارقة أمل. كنت اقرأ في عينيها الحزينتين أعمق مشاعر شعبنا المجاهد الذي داهمته الكارثة وهو مصاب بشلل وقتي ولم يعد في متناوله ما يذود به سوى نظرات الاستنكار. كان عذابها يشد من عزمي وحقدي على الانقلابيين الفاشست.

وكانت ثالثة الاثافي إعلان نبأ إعدام حسين الرضي (سلام عادل) قائد الحزب الشيوعي العراقي مع رفيقيه محمد حسين أبو العيس وحسن عوينة.

بلغت السكين العظم، كان الجرح عميقاً، وككل جرح عميق يطّرد إيلاماً مع الأيام. بيد أن المهم هو دلالة استشهاد حسين الرضي. إنها كانت عنواناً على عزم الشيوعيين العراقين على البقاء، يعني الصمود والمقاومة حتى آخر نفس، وآخر قطرة من دم، ولم يكن لدينا رصيد يذكر من الرصاص لأقول حتى آخر رصاصة!

أوحت لي المصيبة الاخيرة بأن أمل الرد العسكري الفوري على الانقلاب قد تلاشى في اللحظة الراهنة وان بقاء الكوادر الحزبية في بيوتها وفي المدن معناه تسليمها للعدو. وأن المخرج هو الخروج إلى الريف. وكانت حاسة شم الخطر مرهفة لدي كما أثبتت تجاربي وكنت أعتمد عليها.

وقد جاء إلى مسكني باقر ابراهيم وصالح الرازقي بعد سماعهما نبأ استشهاد حسين الرضي مباشرة وتداولنا الامر فيما بيننا نحن الثلاثة واقترحت عليهما أن نرحل إلى الريف في التو واللحظة.كان الحفاظ على أرواح الكوادر آنذاك رأس الحكمة اذ لم يعد ثمة أمل في أن تتحرك قطعات عسكرية ضد الانقلابيين. وتذكرت تقديرات حسين الرضي في السنة الماضية فيما لو وقع انقلاب. إذ قال أنه في أحسن الاحوال سيؤول الوضع في العراق إلى ما آل اليه في لاؤوس التي كانت مقسمة إلى ثلاث اجزاء متطاحنة يسار ويمين ووسط. وهو ما لم يحدث طبعا في العراق حيث وقع الاسوأ.

اعترض الرازقي على الرحيل وأصر على البقاء في النجف باعتبارها معقلا من معاقل الحزب عهد ذاك. ولكن باقر ابراهيم وافق على اقتراحي فتقرر الرحيل. وخرجنا أنا والرازقي في صباح اليوم التالي مبكرين بملابس ريفية. ونزلنا في «بحر النجف» باعتبار ما كان وقد غدا غامة [illegible] كثيفة. وسرنا في ١١/آذار /١٩٦٣ في ظلال نخيلها حتى مشارف أبي ص[illegible] ضاحية الحيرة عاصمة المناذرة.كان الرازقي اجتماعيا حلو المعشر ورفيق طريق [illegible]. عرفته لاول مرة، عندما كان شابا وسيما عام ١٩٣٧ في الديوانية عندما ذهبت [illegible]رة حزبية تفقدية.بيد أن مصيره الحزبي كان مؤلما ومخيباً للامال بعد حين عندما وقع بيد العدو واستسلم له. وكان يعاني من علة في المخ إذ كان ينام نوماً متقطعاً خلال المناقشات.

وفي اليوم التالي ١٩٦٣/٣/١٢ انقض الحرس القومي على الدار التي كنت اسكنها بعد ٢٤ ساعة من خروجنا فقط. وفي الحقيقة كانت النجف في حاجة إلى من يقودها وهي قاعدتنا الرئيسة في المنطقة وفيها أكبر منظماتها الحزبية وارسخها وهي محط أنظار فلاحي الفرات الاوسط ومركزهم الروحي وعاصمة ثورة العشرين الوطنية الفلاحية المسلحة القابلة المولدة للدولة العراقية المعاصرة. ولكل هذا أقدر تعلق الرازقي بها. بيد أن بيوتنا الحزبية فيها لم تكن سراً على أحد فقد كانت أشبه بمضاييف مفتوحة للجميع «دشر» فكان البقاء فيها يعرض لخطر الوقوع بيد العدو كوادر لا يمكن التعويض عنها بسرعة. والنجف من جهة أخرى مركز لألد أعدائنا.

وصلنا أنا والرازقي إلى ريف الفرات ولم تكن هذه المرة الاولى، فقد زرته قبل الانقلاب بقليل بصحبة عدنان عباس سكرتير منظمة ريفية في المنطقة. واجتمعنا بلجنة المنظمة ولاول مرة التقيت الفلاحين الشيوعيين في بيوتهم،على الطبيعة كان هذا الجو الحزبي منعشاً في الحقيقة وكنت مدينا به لقيادة الحزب.كنت اتصور انهم سيتحدثون «بالحسجة» يعني لغة الريف، واذا بهم ينطقون بملء أفواههم: البروليتاريا والبرجوازية والديالكتيك... وما إلى ذلك من الكلمات الفرنجية في القاموس الماركسي كما لو كانوا مثقفين متبغددين من آل وبني، يعني ابا عن جد. بل كانوا يتحذلقون أحياناً في رطانتهم!

عانيت صعوبة في البدء، لا في الحديث بل في الجلوس متربعاً أو القرفصاء على الحشوة (الدوشك) أو البسط، عوداً على بدء، بعد الحياة الحضرية لأكثر من أربع سنوات خارج السجن.

وكانت الصعوبة الأكبر الجلوس لقضاء الحاجة الطبيعية والتشطف. فالمرحاض زريبة للبقر وأرضيتها مفروشة بالتبن والسرجين، اسفنجية القوام حيث تغطس القدمان لدى الجلوس وينسد المخرج أوتوماتيكياً ويصعب قضاء الحاجة. وبعد ثلاث سنوات حضرت بصحبة كريم احمد المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي حيث تحدث شولوخوف الاديب السوفييتي الحائز على جائزة نوبل، وتطرق من على منبر المؤتمر عن الادباء وضرورة اختلاطهم بالشعب بالعمل معهم باليد والعيش معهم. وكيف جاء لفيف من الادباء الشباب السوفييت إلى ريف الدون ليعملوا ويعيشوا مع الفلاحين. فتحملوا كل شيء إلا محنة المرحاض الريفي لم يتحملوها فقفلوا راجعين إلى مدنهم!!

كانت الكثرة من الكوادر الشيوعية من الحضريين المتعلمين الشباب لبوا نداء الحزب الشيوعي العراقي للعمل في الريف لتنظيم الخلايا الشيوعية والجمعيات الفلاحية وقد الفوا حياة الفلاحين الخشنة وتطبعوا عليها وكأنهم البط يسبح في مياهه التي ألفها. كانوا يقضون معظم أيام السنة في الريف غير مبالين بزمهرير الشتاء أو حمارة الصيف وهواء الاهوار الحار الوخيم صيفا والبارد القارص شتاء. كانوا ينقلون للفلاحين الأميين كلمة الحق ويعلمونهم القراءة والكتابة ويقرأون لهم صحف الحزب دون أن يفضلوا البندقية على القلم ولا هذا على ذاك. فلكل منهما مكانه المناسب وزمانه ودوره. ولم يكن الفلاحون يحتقرون معلمهم الاعزل بل يحترمونه أيضاً. كانت كوادر الحزب الشيوعي هذه تعمل في الريف من الدعاة المبشرين المتواضعين حفاة الاقدام كالمبشرين المسيحين الاوائل يواصلون السير نهاراً وليلا، لاداء رسالتهم المقدسة: التبشير بالثورة معرضين حياتهم لرصاص الغدر في كل خطوة كانوا في الحقيقة مجاهدين كالشعبيين الروس الذين هاجروا إلى الشعب الفلاحي في القرن الماضي منكرين ذواتهم .بيد انهم امتازوا عن اقرانهم اولئك في أنهم فهموا بأي لغة يخاطبون شعبهم ويكسبونه لقضية الثورة وأفلحوا فيما أرادوا أكثر من اولئك.

لم ينافس الحزب الشيوعي العراقي أي حزب سياسي في تنظيم الفلاحين وتوعيتهم كما أن حزباً آخر لم يكن لديه مثل تلك الكوادر العاملة في الريف ولا منهج كمنهجه. أما حزب البعث فبعد أن استولى على السلطة والمال استطاع أن ينشر نفوذه في الريف بفضلهما وعن طريق اغنياء الريف وفوق كل شيء توسيع الاصلاح الزراعي. وعن طريق القمع الوحشي لمنافسيه وحتى إبادتهم.

وقد حذرت جريدة «تايمس» اللندنية أم الصحافة البرجوازية العالمية الديمقراطية الوقورة في مقال لها بعد شهر من انقلاب شباط حذرت الانقلابيين من الاستسلام للاطمئنان بسبب نجاح انقلابهم مشيرة إلى أن الحزب الشيوعي العراقي متغلغل في جميع خلايا المجتمع العراقي،وهو حزب حسن التنظيم! وهذا ما علق في ذهني من المقال الذي سمعته من الاذاعة البريطانية في حينه وأنا في ريف الفرات.كانت الامبريالية تأمل من وراء انقلاب ٨/ شباط القضاء التام على الحزب الشيوعي العراقي، وإن يكن على يد حزب البعث (وهي الان تسعى للقضاء على كل حزب أو نظام راديكالي في البلدان النامية) ومنذ القدم عن طريق الأحزاب الأقرب.

68

المقاومة في الفرات الأوسط

ترك عبد الكريم قاسم مئات السجناء السياسيين ومنهم العشرات من المحكومين بالاعدام كرهائن ليسلمهم من يخلفه وينفذ بهم حكم الاعدام. وكان في سجن الكوت حوالي (١٥٠) سجيناً سياسيا بعضهم من المحكومين بالاعدام. وفي ٨/ شباط ١٩٦٣ كانت مصائر هؤلاء المناضلين في كفة القدر. فثارت ثائرتهم وتحشدوا على بوابة السجن يهزون الباب ويهتفون بأعلى أصواتهم مطالبين بفتح الباب وإطلاق سراحهم ليقاوموا الانقلاب وتجمهرت مظاهرة من مواطني الكوت على باب السجن الخارجي تضامناً مع السجناء السياسيين فاستجاب حرس السجن وفتحوا الابواب وانضم السجناء إلى المواطنين في مظاهرة كبرى سارت في شوارع المدينة وبالتالي ترك السجناء الاحرار المدينة طلباً للنجاة.

جاءنا محمد الخضري من الكوت مخترقاً نقاط السيطرة التي نصبها الحرس القومي في المنعطفات وتقاطع الطرق وكنا لانزال في النجف.كما جاء رفاق اخرون اجتازوا الجزيرة من الكوت إلى النجف مشياً على الاقدام وانضموا إلى منظمة الفرات الاوسط.

وفي اجتماع حضره باقر ابراهيم وصالح الرازقي لبحث مسألة تنظيم المقاومة المسلحة في ريف الفرات الاوسط، ولمن تسند قيادة المقاومة. وكان لدينا خيارين: إما محمد الخضري أو عدنان عباس. وكنت حديث العهد بمعرفة الاثنين فملت إلى الخضري بعد أن اطلعت على مبادرته في سجن الكوت واقترحته ووافق الاخران على الاقتراح. وبعد أن تعرفت عليهما عن كثب اتضح لي أن عدنان عباس كان أجدر نسبياً وأكثر معرفة بشؤون المنطقة التي هو من أبنائها. فهو من ريف الشامية نشأ فيها وشارك في بناء منظمتها الشيوعية وأولى الجمعيات الفلاحية. والخضري من ناحية الخضر التابعة للناصرية في المنطقة الجنوبية. وعدنان عباس من قبيلة كردية اسكنها الاتراك عنوة في ريف الشامية فاستعربت ونشأ هو عربيا أكثر من العرب وإن كان أهل المنطقة يدعونه «عدنان الكردي» وهو إبن ملاك كبير ضيقت عليه السلطات بسبب ابنه الشيوعي. والخضري ابن شرطي كردي وام عربية من الخضر وهو مستعرب تماماً. وكان شخصية بارزة ومحبوبة في نقابة المعلمين وكان دمثا ومرحاً وفي هذه الخصال كان يتميز عن قرينه عدنان عباس الذي يعاني من الحدة والخشونة في الطبع. وكلاهما كان مثابراً في عمله الحزبي. وجرى توزيع العمل بينهما. وكنت في حماية الخضري وقد ابتلى بي واحسن البلاء على وجه العموم. كنت في الريف كالمتنبي في شعب بوان، غريب الوجه واليد واللسان، مع الفارق طبعاً. فقامتي فارهة ووجهي أصهب ولساني بغدادي ويدي خالية من السلاح و«اليشماغ» الكوفية والعقال لايثبتان على رأسي لان شعري كث وأشبه بسهام القنفذ وحتى مشيتي كانت غريبة عليهم. وبعض الذين شاهدوني قالوا همساً هذا هو المهداوي! وكنت قد جاوزت الخمسين وكان من الصعب علي السري

طوال الليل ساعات طويلة متوالية. فقد كان من الخطر أن أمكث في مكان واحد ومع جماعة واحدة لا خوفاً من وشاية الاعداء فقط بل من ثرثرة الاصدقاء أيضاً، ومن الاثقال على مضيفي.

مكثت عدة أيام متوالية عند عائلة واحدةٍ في الخشانية من ريف الشامية. واحتجت إلى سروال داخلي قصير من الخام فقد أصبح ذلك شائعاً في الريف حتى بين النساء بعد أن كانت الفلاحة العربية ترى من العار أن تلبس السروال قصيراً كان أم طويلاً، وهي لاتعرف خياطة الملبوسات فعلى الفلاح أن يؤمن حاجته من خياط من المدينة. وقد تطوع احد الاخوة الثلاثة الذين كنت اسكن عندهم أن يؤمن لي «اللباس القصير» من خياط الشامية فاوصيته أن يخيط الخياط شريطا عريضاً من المطاط بدلاً من الشريط الرفيع. وذهب فعلاً للشامية وأوصى خياطه بما أوصيته به. فاستغرب الخياط من هذا الطلب الغريب على الفلاحين فسأله: ولماذا شريط عريض؟ ومن اوصاك به؟ أجاب صاحبي:

- هش لاتقول لأحد! للمهداوي!

وخلال ذلك انتقلت من ذلك البيت إلى بيت فلاح آخر كهل إسمه كاظم، وبين البيتين خمسة دقائق هرولة بالنسبة للفلاحين الشباب وثلث ساعة بالنسبة لي والطريق كلها وحول ومياه في موسم زراعة «الشلب». وفي ضحى اليوم التالي سمعت طلقات أو بالاحرى صليات. فاستغربت وكنت اسمع الطلقات ليلا تطلق على اللصوص الهواة وما أكثرهم في ذلك الريف. كانت الفلاحة لا تحترم زوجها كثيراً إذا لم يجرب السطو ليلا. وكانت المسروقات ترد لصاحبها بعد أن يدفع للحرامي غرامة جزاء وفاقا على عدم يقظته. أما إطلاق النار نهاراً فكان حدثاً يجلب الانتباه. قلت لربة البيت: هذه «زركة» وهي كناية عن الغارة البوليسية المفاجئة في اصطلاح الفلاحين هناك:

- إذهبي إلى فلان وقولي له هذه زركة، فجاءني الرفيق الفلاح المسؤول عن حمايتي وقال بفضاضة:

- ماكوشي!

وبعد دقائق معدودات عاد إليّ ممتقع الوجه وقال هيا أسرع الزركة من بيت فلان ويعني البيت الذي كنت فيه وأوصيت فيه على اللباس ذي الشريط المطاطي العريض المشؤوم.

وضعت الكوفية والعقال على رأسي والعباءة على كتفي وزوجة الفلاح الحامي تهرول أمامي كلبوة وتلعن الحرس القومي والبعث. كان علينا أن نعبر نهر الخشانية في موسم الفيضان وكان يجري بسرعة الانهار الجبلية في كردستان. وشقت لي الفلاحة الباسلة عباب النهر الدافق وأنا اتبعها كوليدها. وبعد عشرات الخطوات من ضفة النهر تركتني اختبئ بين النخيل. وجاء ثلاثة عشر حارساً قومياً وبيد كل منهم رشاشة «سترلنك» ليفتشوا البيت الذي خرجت منه توا ولو زاغوا عن الطريق مائة أو مائتي خطوة على الأكثر إلى اليمين لوجدوني قابعاً بين النخيل، بعباءة فاقعة اللون «حمرة غنم» تجلب الأنظار من بعيد. ولكنهم قفلوا راجعين بخفي حنين.

كان ذلك جزاء غلطة فادحة ارتكبتها وهي مطلب شريط المطاط العريض بدلاً من الرفيع! بيد أنها لم تكن أول وآخر حادثة من نوعها. فبعد خروجي مع الرازقي من النجف إلى ضواحي أبو صخير أصبحت في عهدة المنظمة الحزبية هناك، ولم تأمن هذه على ايوائي عندها وقررت تسليمي إلى تنظيم الشامية وكل من أبو صخير والشامية على فرعين متشعبين من عمود الفرات وبينهما أرض جرداء كلسية يكثر فيها الحصو ومن هنا تسميتها «الحصوة» واجتزنا هذه الارض المكشوفة بسلام، ودخلنا أرضاً زراعية. كان الريف معنا وضد الانقلاب الاسود. سرنا حثيثاً من الصباح الباكر حتى العصر وكان على أن أسابق حراسي الثلاثة وكلهم شباب، أكبرهم أقل مني سناً بنحو

عشرين سنة ومتمرس في السير والسري في الريف لانه منظم محلي وإن كان حضريا. والاخر أصغر سناً وهو معلم ينتمي إلى قبيلة الجبور وهي أوسع القبائل انتشاراً في العراق. وكان في الرمادي أثناء وقوع الانقلاب فترك وظيفته في الحال والتحق بالمقاومة المسلحة والثالث فلاح فتي دون العشرين نشط مقدام نحيف كالصل كما يقول تأبط شراً في لاميته الشهيرة «وينفث السم صل» وكان المسلح الوحيد بسلاح ناري من حرسي. كان يحمل بندقية صيد من ارخص الانواع. وكان المنظم المحلي يحمل مطرقة «كلنك» تستعمل في العراق للدفاع عن النفس. أما معلمنا الجبوري فلا أذكر انه كان ثمة سلاح في يده. وأنا بالطبع لم أكن أحمل أي شيء، ولا فخر، فكأن الحياة ارادت أن تعاقبني هكذا لاهمال تسليح الكادر الحزبي في منطقة لم يكن فيها غنى عن حمل السلاح لمن يريد أن يحافظ على حياته أو عرضه وكرامته أو ماله.

وعند العصر وفي أرض مكشوفة رأينا من بعد ثلاثة أشخاص من حملة البنادق يتقدمون صوبنا واستطعنا أن نشخص انهم شرطة ولكن لم يبق من الوقت متسعا لتغيير اتجاهنا ولم يكن بالقرب منا بيت أو تضاريس أرضية أو جداول نلوذ بها. وتقاربنا نحن وهم حتى اصبحنا على مبعد بضع عشرات الخطوات، فأوعز عريفهم الكهل إلى احد الشرطيين النفر بان يتقدم ليتجاوزنا لكي يطوقوننا وهذا ما كان وبالمقابل قام حراسي الثلاثة بحركة التفافية ليحيطوا بالعريف والشرطي الاخر واخذ رفاقي الثلاثة يصرخون صرخات رهيبة بوجه الشرطة:

ـ هدوه! هدوه!

بندقية صيد فيها طلقة واحدة لصيد الطيور! وكلنك ويدين خاليتين بالضد من ثلاث بنادق انكليزية فيها ثلاثين طلقة! لم يكن توازن القوى متكافئاً فلمن الغلبة؟ كانت اصوات رفاقي اقوى من الرصاص فقد تسمر الشرطة وقالوا في سرهم:

ـ هؤلاء الباشبزغ (المدنين) مستذبحين والمنطقة غير مأمونة والفلاحون ضد الانقلاب ولا يؤمن جانبهم فاذا ثارت طلقة من أي جانب، لا يمكننا أن نحرز ما سيفعله الفلاحون في هذا الجوار. يبدو أن هذا الاسير هو المهداوي وياله من صيد سمين!!

وبقي العريف متردداً أما الشرطيين فقد كان قلبهما معنا وضد السلطة الجديدة وأخيراً هتف العريف برفاقنا:

ـ خذوه الله يلعنكم!

69

مع الفلاحين في صرائفهم

وأخيراً أصبحنا في حمى الفلاحين المنظمين. كانت فرصة فريدة أيضاً بالنسبة لي لاتصلب معهم كما أراد الحزب. كانوا يطعمونا من أفضل ما عندهم. وقد لاحظت بؤس اطفالهم إذ كان سوء التغذية بادياً عليهم. وكذلك الكلاب كانت تعيش في جوع مزمن فالعظام كانت نادرة لندرة اللحم. كانت تلعق نوى التمر لتمتص أثار حلاوته.

وفيما عدى موسم العمل الزراعي الكثيف كالحراثة وقلع الادغال والبذار او الغرس «الشتال» والحصاد ودراسة الحبوب لايام معدودة في السنة فان العبئ الرئيس يقع على المرأة. ففي الصباح الباكر عليها أن تهئ أول وجبة من الخبز الحار. والخبز الحار والشاي يؤلفان القوت الرئيس للفلاح. وللرجل معدة عجيبة فعندما لايكون لديه ما يعمله في الحقل يكتفي برغيف واحد من الخبز مع الشاي في الوجبة الواحدة، وعندما يكون لديه عمل جدي يتناول في الوجبة الرئيسة رأد الضحى سبعة أرغفة مع الأدام: البصل أو الباذنجان أو الخيار أو اللبن الخثر المخفف بالماء (شنينة).

تخبز المرأة في الريف ثلاث مرات في اليوم. فالخبز الحار يمكن أن يؤكل حتى إذا كان من دون آدام. والمرأة تنظف البيت وتعد الفراش للبقر من الروث والتبن وتحلب البقرة وتخثر الحليب وترعى الأطفال والحيوانات وتغسل الملابس وطبعاً لاتدعها تجف في الشمس تماماً لئلا يستهلك النسيج قبل الاوان. وعندما يلتمن في خلوة من الرجال يتحدثن بلغة الادب المكشوف. ومن اقوالهن:

ـ أكثر العيب من المستحى!!

ويعني أن حياء المرأة هو الذي يدعها تستسلم للرجل في الغالب. وتتفاخر الفلاحة بعدد الطلقات النارية التي أطلقت ليلة زفافها. والفلاحة تطرب على أزيز الرصاص وهو يطلق في الريف في الاعراس أو في المآتم. وليس لديهن من مواد زينة سوى الصابون والكحل والحناء. وكان السوادٍ هو الغالب على ملابسهن. ورأيت الفلاحة تضع روث الحمير الجاف المطحون في قماط طفلها بدلاً من البودرة! ولم يكن زوجها فلاحاً فقيراً بل ميسوراً من فلاحي الرز. والفلاحة عندما لا يكون لديها ما تعمله في البيت تذهب إلى الحقل لمساعدة زوجها في اعماله او تجمع الحطب.

وأنا مدين بحياتي مدى الحياة للنسوة الفلاحات والحضريات اللواتي أطعمنني من جوع وأوينني من تشرد وآمنني من خوف في احلك الايام.

كنت ذات يوم في الصريفة، وهي مخبأ من القصب أقل حتى من أن تسمى كوخاً اتطلع إلى الساحة، وأنا في الظل أرى التنور الشجور وأمامه الفلاحة تخبز وبين كفيها «شنقة» العجين

لتصفقها قرصا كالبدر وتدنو من التنور الفائر فيلفح وجهها لهيبه، والشمس في السمت تلهب كيانها كسياط من نار والعرق يتصبب من جميع مسامها ناشرا عبيرها الممتزج برائحة الخبز الحار، ترفع كعبيها ويشرئب عنقها لتتقي الوهج وبلطمة ماكرة من يمينها يرتطم القرص بباطن التنور، يلتصق به،يصطلي بناره ريثما ينضج ويتضوأ كقرص الشمس. وبأنامل ساحرة تستله رغيفا حارا شهيا يتهافت الجياع على لثمه تبركا. بيد صانعته العذراء «أم شاني». وخطر لي وأنا أراقبها هل هي ياترى ساحرة هذه الفلاحة الفتية الساذجة أم هي «باليرينا» بالفطرة تؤدي دورها عفويا في «باليه العمل الفلاحي»!؟ وكنت قد رأيت الباليه قبل ذلك بأربع سنوات في بكين وموسكو ولينينغراد وقرأت عما يستلزمه من تدريب شاق وترويض يخضع لهما التلاميذ منذ السابعة من العمر. أما هذه الفلاحة الاميه فمن اين تخرجت؟! من العمل الفلاحي الشاق. ألم يقل غوته شاعر الالمان «في البدء كان العمل؟!» وهل الرقص في الاصل سوى الاداء الجماعي للعمل؟!! اوَ لم تنبع المعارف جميعاً من رغيف أم شاني!

والعمل الجماعي ضروري ضرورة قصوى في جنوب العراق،ليس فقط في الاعمال الاساسية الكبيرة كبناء السدود على ضفاف الانهار الكبيرة وصيانتها وحفر الجداول وتطهيرها و..الخ الامر الذي كان السبب في قيام اقدم دولة هنا، بل أيضاً في الفلاحة بالذات. ومع إن لكل فلاح حقله «حبل» الذي كان يتغير كل موسم فان العمل الفردي،عمل الفلاح وعائلته لايكفي لانجاز الفلاحة في الموعد المحدد. فادوات الفلاح بدائية جدا.ولذا ترسخت تقاليد العمل الجماعي «العونة «إذ يدعو الفلاح الفرد جيرانه: نحو (٢٠ ـ٣٠) رجلا لمساعدته في انجاز العمل المطلوب. ويولم لهم وليمة غداء عند الضحى بعد عمل متواصل منذ الفجر، ويصيب كل فرد نحو(٢٥٠) غم من لحم الضأن عدا الرز والخضروات والشاي وعلبة سيكاير.

ويتبادر سؤال :اذا كان كل فلاح يحتاج عونة جيرانه الفلاحين الاخرين فكيف يجد الوقت لاسداء العونة اليهم؟! يدرك كل فلاح سألته هذا السؤال فيجيب:

ـ العمل الجماعي لعشرين او ثلاثين رجلا ليس محض حاصل جمع عملهم الفردي بل شيئاً آخر أكبر بكثير. أما في أيام الحصاد ودرس الحبوب فيحتاجون إلى العمال الجوالين وقد ادخل الشيوعيون عنصراً جديداً إلى العونة، وهو إعفاء الفلاح الفقير من تكاليف الوليمة. وتحدثت مع فلاح متوسط ميسور الحال عن فكرة المزارع الجماعية وكانت المشكلة الوحيدة التي أثارها هي مسألة التوزيع: كيف يتساوى في المردود الفلاح الكسول مع الفلاح المجتهد؟! وقد وضع يده بقوله هذا على الحجر العثرة الذي تحطمت عليه بعض تجارب الزراعة الجماعية:

ـ كيف يكافأ العامل على قدر عمله؟

وفلاحو الرز يتبطلون أكثر أيام السنة «ويسنحون» أي يضطجعون على جنب ويسندون رؤوسهم على الكف ومرفقهم على الارض قائما يسمعون الراديو ويدخنون أن وجد ما يدخنوه ويهيئون الشاي بأيديهم ويثرثرون ويصدرون الاوامر إلى زوجاتهم: ولج جيبي الماي! (ويلك احضري الماء).

ولكن أيام عملهم ليس أشق منها حتى عمل الافران. فالشمس تصهر رؤوسهم وارجلهم منغمسة في وحل ساخن تنهشها حشرة غير مرئية يسمونها «شرع» لايعرفون لها علاجا منحنين على عملهم و يديهم في الارض تكاد أنوفهم تلامس الوحل. هكذا كما كان اسلافهم منذ عشرةآلاف سنة ولم يطرأ عليهم سوى المحراث الآلي.

استضافني سيد (شريف) في بيته مرتين لعدة ايام في كل مرة .وفي بيته تقام مجالس التعزية الحسينية في محرم الحرام. وكان ميسورا وكانت شارته ابراء العرسان الذين يعجزون عن فض بكارة العروس في الليلة الاولى. وسالته عن سر المهنة فكان صريحاً معي وقال:

ـ أمثال هؤلاء العرسان يعانون الخوف ..يتهيبون من الفعل وما علي إلا أن أزيل عنهم الخوف واشجعهم ليستعيدوا ثقتهم بأنفسهم ويقتحموا حاجز الخوف ومن ثم حاجز البكارة. فقلت في نفسي هذا طبيب نفساني عفوي آخر وهو مختص بامراض الفلاحين أما الأول فكنت قد لقيته قبل ثلاثة عشر عاما في عانه وكان مختصا بمعالجة الرعاة الاحداث المرعوبين لحد الخبل بالتغذية المناسبة ولم يكن أي منهما دجالا كما لم يقرأا فرويد

يستغرب المرء عجز الفلاح الشاب عن الدخول في عرسه وهو الذي لايعجز حتى أن يأتي مع البهيمة إن التقاليد هي التي أرعبته من اقتحام البكارة بحيث غدت عنده اصعب من القتل. أما بالنسبة للفتاة فإن فقدان البكارة قبل الزواج يعني فقدانها حياتها إذ تذبح على يد أخيها أو إبن عمها كما تذبح الشاة. ويرجع ذلك في الاصل إلى الحرص على صحة النسب عند العرب، وهم من أشد الشعوب حرصاً في هذا الشأن. وكلما كان القوم أقرب عهداً بحياة الرعي والبداوة كانوا اشد حرصا على صحة النسب وبعد أن ينتقل الفلاح إلى حياة المدينة ويرتبط بالسوق تبدأ التقاليد القبلية بالانحلال السريع. وقد حاول المجلس «الوطني» البعثي في بغداد عام ١٩٩٠ أن يكرس تلك التقاليد بقانون يبيح دم المرأة العراقية، فأثار ثائرة الرأي العام العالمي بحيث امتنع حتى صدام حسين عن إبرام هذا القانون البربري

أودعني الرفاق في حماية فلاح شيوعي فاكرم ضيافتي وفي يوم من الأيام خرج منذ الصباح الباكر. ولم يعد عند الظهيرة ليواكلني كما يقتضي كرم الضيافة العربية.فتناولت الغداء لوحدي ولم يعد الا عند العشاء .فسألته عن اخباره واسباب غيابه فقال:

ـ والله كنت في الديوانية

ـ وماذا تفعل في الديوانية؟

ـ والله رحنا نستقبل البكر!

ـ وماذا حصلت من البكر؟

ـ وعدنا بالارض .لعله تطلع صدق!

فلاح شيوعي في بيته شيوعي مطلوب والحكومة مستعدة لدفع مبلغ من المال لقاء رأسه حياً أوميتاً ومضيفه مستعد للقتال حتى آخر طلقة دفاعاً عنه أن لم يكن وفاء لالتزامه الحزبي فعلى الاقل التزاماً بالتقاليد .وها هو يتركه ليستقبل عدوه اللدود. هذه التجربة الصغيرة تعادل قراءة كتاب عن قلق الكالك الصغير وتردده

كان تطبيق الاصلاح الزراعي قد توقف عمليا منذ أن انقلب قاسم ضد الحزب الشيوعي قبل انتهاء السنة الاولى من الثورة. وقد بررت البرجوازية الوطنية عندئذ وقف الاستيلاء على أراضي الملاكين حتى يتم المسح التفصيلي «الكادسترو» للاراضي ليمكن تمليك الارض بعد الاستيلاء مباشرة .فانكمش الفلاحون عن الحركة الثورية التي لم تدافع بما فيه الكفاية عن الاصلاح الزراعي ولم تعمد إلى قيادة الفلاحين في طرد الملاكين والاستيلاء على أراضيهم بطريقة ثورية وتخلوا عن حكومة قاسم وسمحوا لانقلاب ٨/شباط بالمرور ولكن الانقلاب خيب أمالهم بدوره. ولما نجح انقلاب تشرين الثاني١٩٦٣ في طرد حزب البعث من الحكم والانقضاض عليه. استبشر الفلاحون وظن بعضهم في البدء أن الحزب الشيوعي هو الذي اسقط حكومة البعث. وكنت في مضيف أحد الفلاحين الشيوعيين فأخبرتني أم البيت بخبر الانقلاب الجديد وهي مستبشرة ضنا منها أن الحزب الشيوعي هو الذي قاد الانقلاب. وأفهمتني إنها وأن كانت امراة فهي أيضاً مهتمة بالامر ومنتظرة الثورة التي يقودها الحزب الشيوعي. وكان لكلامها أبلغ الاثر في نفسي. فها هي الفلاحة

الامية المكدودة المهضومة الحقوق تنتظر الثورة التي تحررها من عبوديات القرون الوسطى فهي أحوج إليها من زوجها.

كنا في الربيع الماضي قد جئنا، الخضري وأنا إلى هذا البيت نفسه في ساعة متاخرة من الليل طلبا للمأوى وقد هدنا التعب بعد طول السري. كان رب البيت خائفاً، وكان الخوف والامان يتناوبان عند الفلاحين الشيوعيين المنظمين فلم يستضيفنا في مضيفه بل فرش لنا على بعد (٣٠٠) متر وفي ساقية جافة فرشة من التبن وعليها بساط ولحاف وهو غطاء محشو بالقطن فدخلنا تحت اللحاف وتساندنا ظهرا لظهر ونمنا نوماً عميقاً حتى الصباح الباكر فجاءنا مضيفنا بالفطائر من العجين المقلي بالسمن مع الشاي وبعد الفطور غادرنا المكان بحثا عن مأوى آخر.

وبعد انقلاب تشرين زاره بعض الملاكين لعلهم يستشفون شيئاً عن طبيعة الانقلاب الجديد وأبدوا ارتياحهم من الانقلاب إلا أنهم في نفس الوقت عبرو عن قلقهم بعبارة «إن الوضع في بغداد ممولس» إذ لم يعد بالامكان ثبات أي حكومة ولا يعرف الناس ما سيحدث غدا من تغيير. هاقد تسيس حتى الملاكون القبليون! بفضل ثورة ١٤/تموز والانقلابات بعدها و بلغتهم لخصوا الوضع السياسي القائم وأزمة الحكم بكلمة واحدة «ممولس» وتعني: أملس، سائب، بلا أضراس، منفلت.

70

اضرب واهرب

نظم الخضري فصيلاً من شباب الفلاحين من أجل المقاومة المسلحة وقد دربه أحد ضباط الصف المسرحين وكان الفصيل ضعيف السلاح حتى على المستوى السائدِ في الريف. وكان الخضري يقودهم بنفسه في جولات ليليةٍ. وكانت هذه الجولات توغل بعيداً جداً عن مساكن أعضائها لابعاد الشبهة عن أهلهم خوفاً من انتقام السلطات. وفي إحدى الجولات سار الفصيل من غروب الشمس حتى منتصف الليل ليقطع أسلاك التلغراف بين الديوانية والشامية وعاد إلى قواعده في الصباح سالماً وقد علمنا فيما بعد أن الحكومة عاقبت الفلاحين المقيمين بالقرب من الاسلاك المقطوعة عقوبة جماعية حسب العرف القبلي البربري الذي مايزال معمولاً به في العراق.

وفي المنطقة الاخرى حيث كان يعمل عدنان عباس وباقر ابراهيم قام الفلاحون بمظاهرة مسلحة وهاجموا مقر الشرطة في الشامية ولم تصدهم سوى نيران الرشاشات المثقيلة.

وبالضد منا قام فصيل من الحرس القومي من النجف بجولة استطلاعية في ريف الكوفة واصطدم بحظيرة من بضعة رفاق من الفلاحين. واستطاع رفاقنا أن يصرعوا أمر الحرس القومي في النجف وهو عميد أسرة الراضي فهرب فصيل الحرس القومي عائداً إلى النجف. وقام الراضي بعمل انتقامي قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة إذ نادى آمر حضيرتنا باسمه وكان يعرفه فدنا الرفيق منه فاطلق عليه الراضي نار مسدسه ماستشهد رفيقنا ومات الراضي على الاثر.

وجاءتنا من عريف في سرية التدريب في النجف رسالة يقترح فيها إرسال مفرزة مسلحة من أنصارنا إلى مشجب السرية حيث يوجد نجو مئتي بندقيةٍ للتدريب وسوف يسلمهم السلاح. ولكن باقر ابراهيم رفض حتى مناقشة الاقتراح وكان قد جاء تواً من ريف الكوفة حيث تعرضوا لحملة شديدة من الحرس القومي فتراجع عن تنفيذ خطة طموحة لمهاجمة مقر شرطة الشامية.

كان هذا أول لقاء بباقر ابراهيم بعد لجوئنا إلى الريف في مقاطعة الخشانية من ريف الشامية وكان هذا أول اجتماع حزبي أحضره في الريف على مستوى قيادةِ المنطقة كان باقر ابراهيم متحفضا ازاء آفاق الكفاح المسلح في ريف الفرات في حين كنت متفائلا جداً. ففي الازمات الحادة من الناس من يستسلم لليأس ومنهم من يحلق على اجنحة الخيال. وكنت في أحاديثي مع باقر ابراهيم لا أتحرج من تبيان مشاريعي بصدد تطوير الكفاح المسلح كتعبئة جيش من الانصار الفلاحين للزحف على بغداد والاستعانة بعرباتٍ السكك الحديدية بدلاً من الدروع وهلمجرا. وكان باقر ابراهيم يصغي إلي بانتباه ويكون انطباعاً في غاية السلبية بقدر ما يتعلق الامر بسلامة تفكيري، ولم يفصح عنه إلا في اجتماع اللجنة المركزية في براغ، في آب/١٩٦٤ بغيابي عند إجراء انتخابات المكتب السياسي. ولم انتخب إليه عندئذ بل أعادوني إلى عضوية اللجنة المركزية فقط

بخلاف قطبي المعارضة بهاء الدين نوري وعامر عبد الله فقد احتسبوا لهما مدة العقوبة كأعضاء في المكتب السياسي!!

والحقيقة هي أن الفلاحين لم يكونوا على استعداد لشن حرب أنصار ضد الحكومة إنما كانوا ينتظرون المبادرة من أعلى من انقلاب عسكري في بغداد يعلن «البيان الاول» كما جرى يوم ١٤/تموز/١٩٥٨ ولم تكن طبيعة الارض ملائمة لشن كفاح مسلح خلافاً لما هي عليه الحال في كردستان العراق أو البطائح «الاهوار» الواسعة الجنوبية ولم يكونوا في حالة يائسة ليجازفوا بكل شيء. كان يخيفهم حرق الحكومة لبيوتهم من الجو وإن لم تكن بيوتهم سوى خباءات حقيرة من قصب وليس فيها سوى البسط و الاغطية وقدر الطبخ والصحون وقناني فارغة وباتريات مستهلكة وحتى قطع آجرّ إذ أن الفلاح لم يكن يرمي حتى الانقاض من صنع الانسان فلعله يستفيد منها يوماً ما! ولكن الفلاحين الشيوعيين قاطعوا حكومة الانقلاب ولم يترددوا على المدن حتى انقلاب تشرين ١٩٦٣ المضاد للبعث.

وفترت حماسة الخضري للكفاح المسلح أخيراً فلجأ إلى الراحة في بيت فلاح. وداهمته بعدئذ مفرزة من الحرس القومي، قتلت حاميه الفلاح الشهيد عبد وقبضت عليه. وقد سمعت الطلقات النارية للحرس القومي لأنني كنت في بيت فلاح آخر غير بعيد عن مكان الغارة. لقد فوجئ الخضري لأنه كان في بيت على ضفة النهر وقد جاء الحرس القومي بزورق بخاري وحالما توقف دوي الزورق نزلوا إلى الارض وطوقوا البيت. بينما كان ملجئي أنا بين البساتين وبعيداً عن الشاطيء ونقلني مضيفي في الحال إلى منطقة أبعد لتأمين صيانة أفضل. وكان وكلاء العدو يحاربوننا ببث الاشاعات وأهمها أن الحرس القومي أو الشرطة سوف يقومون الليلة الآتية «بزرقة» فنضطر إلى المبيت خارج البيت بين النخيل حيث توجد أوفي الجداول الجافة وما أكثرها أوحتى في قارب في هور قريب. وكان الأخير أصعب ملاذ للحضريين.

71

أزمة البعث

جاء إنقلاب ١٨/ تشرين ثاني ١٩٦٣ متنفساً للناس. فان كبار العسكريين وعلى رأسهم عبد السلام عارف تخلصوا من حزب البعث وحرسه القومي بعد أن استخدموهما كمخلب قط ضد الشيوعيين والديموقراطيين وبدأت منظماتنا تنتعش من جديد واستأنف الرفاق نشاطهم وأعيد تكوين مركز الحزب القيادي في بغداد إذ انتقل اليها عمر علي الشيخ من كردستان وباقر ابراهيم من الفرات الاوسط واستأنف المركز نشر البيانات الحزبية. بيد أن المشانق لم تتوقف عن تنفيذ أحكام الاعدام الصادرة في أيام حكم البعث وحكم قاسم بحق الشيوعيين والاكراد. وكانت السجون تغص بهم. وقد تحصن عبد السلام عارف بالولاء الاسمي لعبد الناصر و«الوحدوية» الكاذبة. وكان الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه الضامنين للرجلين.

ولذلك توقفت الحملة التضامنية مع ضحايا الارهاب. وذهبت قيادة الحزب في الداخل بقيادة باقر ابراهيم وعمر علي الشيخ أبعد من ذلك فقد أصدر المركز الحزبي في بغداد بيانا زكى فيه حكومةٍ عبد السلام عارف وبالغ فيه بتقييم إجراءات التأميم لبعض المشاريع الوطنية، واعتبر ذلك تجديداً لثورة ١٤/ تموز مما اثار القاعدة الحزبية وغضبها. وكذلك فعلت قرارات اللجنة المركزية في اجتماعها في براغ في آب /١٩٦٤

في ذلك الوقت كنت قد رجعت من الريف إلى النجف والتقيت الرفاق وعشت محنتهم وقد انتقل حقدهم من حزب البعث وحرسه القومي إلى عبد السلام عارف. وكتبت في حينه رسالة إلى اللجنة المركزية ضد الآمال التي علقتها على عارف وتعويلها على عبد الناصر وتأثيره الايجابي على حكومة عارف من أجل «تحقيق الاستقرار في العراق»! وقد رضخت قيادة الحزب فيما بعد لجمهرة الشيوعيين العراقيين لترفع من جديد شعار «إسقاط الحكومة» القائمة. ولكن هذا الشعار لم يكن شعار عمل إذ لم تكن هناك مستلزماته، كان بمثابة نزع ثقة بالحكومة القائمة من جانب الشيوعيين.

وقدم كامل الجادرجي مذكرة إلى عبد السلام عارف، رئيس الجمهورية بعد انقلاب ١٨/ تشرين الثاني فحواها: أن «الطنطل» وهو البعبع الذي يخيفون به الأطفال، وكان يعني به الحزب الشيوعي، قد غاب، ولحق به حزب البعث، وقد أن الاوان الان لكي يسلم العسكريون زمام الحكم إلى أيدي الاحزاب المعتدلة! ويروى والعهدة على الراواة إنه ما أن فرغ السكرتير من قراءة المذكرة على عبد السلام عارف إلا وضغط «الرئيس المؤمن» بشفتيه على أطراف لسانه واخرج من بينهما صوتاً منكراً «زيقاً» يستظرفه ذوات بغداد. وكان الجواب الوحيد في جعبة العسكريين للاحزاب المعتدلة بعد أن غاب الحزبان «المتطرفان».

لم يكن الوسط المعتدل في العراق يملك النفوذ الشعبي الكافي الذي يتمتع به في بلاد كالهند مثلا. وقد أعطاه التارخ الفرصة الذهبية في ثورة ١٤ / تموز التي جاءت بالاحزاب الوسطية إلى

الحكم ولكنها لم تملك الجرأة الكافية للسير بالاصلاح الديموقراطي قدماً. ولم تجرأ حتى على المطالبة باجراء انتخابات عامة وعقد المجلس التأسيسي وإرساء حياة برلمانية، إبان صعود الثورة خوفاً من أن تفوز «الاحزاب المتطرفة» وبقيت تنتظر هبوط المد الثوري. وكان العسكريون أجرأ منها. وأخذت تحلم بتسليم العسكريين لها بالحكم لتجري الانتخابات في جو يؤمن لها الفوز على الرجعية وعلى الاحزاب المتطرفة على السواء.

فلو أن مهام الثورة الوطنية الديموقراطية قد انجزت وجرى تجاوزها ولم يحن بعد إمكان الانتقال إلى المرحلة التالية من الثورة ووقعت الازمة التي لايمكن حلها الا باقصاء الحزب «المتطرف» عن المسرح السياسي لجاءت الاحزاب المعتدلة لتعيد «الأمور إلى نصابها» ولكن ثورتنا الوطنية الديموقراطية توقفت تراوح في منتصف الطريق دون أن تحقق الديموقراطية، وقد تخلى الحزب المعتدل عن دفعها إلى الامام فكان الامر يتطلب أن يلعب دوره اعمق الاحزاب اصالة ثورية وعلى الحزب المعتدل أن ينتظر دوره عندما يعجز الحزب الثوري عن مواصلة السير بعد أن تتجاوز الثورة حدودها

ويلوم الديموقراطيون الجدد الحزب الشيوعي العراقي لأنه لم يمتثل لارادة كامل الجادرجي لكي يحقق الديموقراطية في العراق فليسألوا انفسهم هذا السؤال:

- أكان الجادرجي على استعداد لتولي زمام السلطة السياسية في البلاد بمساندة الحزب الشيوعي لمواجهة الامبريالية؟! أما الحزب الشيوعي فكان على اتم استعداد لذلك شرط أن يتمتع بنفس الحقوق المتاحة لغيره من الاحزاب، لا أكثر؟

أما كامل الجادرجي فقد بقي في جميع الاحوال يتحاشى الصعود على اكتاف الشيوعيين للوصول إلى سدة الحكم خوفاً من أن يستفز الامبريالية والحكام الرجعيين في المنطقة. ولم يكن هذا الخوف طابعاً شخصياً خاصاً بالجادرجي، فحتى عبد الناصر الذي اعتمد على الاتحاد السوفيتي لانتزاع المصالح المصرية من براثن الامبريالية كان يتحاشى الاتصال بما يسميه محمد حسنين هيكل «بالشيوعية الدولية» خوفاً من استفزاز أمريكا. وقد اشترط على الشيوعيين المصرين حل حزبهم ليخرجهم من السجون. وتحدث احد قادة الحزب الوطني الديموقراطي بكل صراحة مع جاره مكرم الطالباني في المعتقل بعد انقلاب ٨/شباط عن ضرورة وضع معوقات على كاهل الحزب الشيوعي في أي سباق ديموقراطي آتي بالنظر لميزان القوى السياسية في البلاد. وكان يعني خطر فوز الحزب الشيوعي وحلفائه اليساريين فيما إذا اطلق العنان للجميع على السواء في أي انتخابات عامة حرة عهد ذاك. أن الاحزاب الاخرى تنتظر دائماً الحزب الشيوعي أن يلعب دور الجندي المجهول، اي أن يكون لدى الطبخ حاضراً وغائباً عند الاكل.

72

الطريق الجديد للتطور

انعقد اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في آب /١٩٦٤ في براغ عاصمة جيكوسلوفاكية، وكان أول اجتماع لها خارج العراق، وبعد كارثة ٨/شباط. كان على الاجتماع أن يرسم سياسة الحزب في ظل حكومة آل عارف في العراق. وكما سبق أن اشرت كان اطار هذه السياسة قائما على الاعتماد على حكمة عبد الناصر «كرجل دولة» وتأثيره الايجابي على عبد السلام عارف الدكتاتور العسكري لاحلال «الاستقرار وهو اهم ما تفتقر إليه البلاد» وتخفيفٍ الاضطهاد على الشيوعيين العراقيين إلى هذا الحد أو ذاك. ولكن هذه السياسة كانت مرفوضة سلفاً من جمهرة الشيوعيين العراقيين. وكان هذا ظاهر هذه السياسة المرفوضة أما حقيقتها فكانت أعمق وأخطر من ذلك بكثير: حل الحزب الشيوعي العراقي!!

ولكن ما هو الجذر النظري لهذه السياسة؟

كان ماركس هو الذي اكتشف القانون الاقتصادي للمجتمع الرأسمالي والحتمية التاريخية لزوال هذا المجتمع ليخلي السبيل للمجتمع الاشتراكي، كما أخلى المجتمع الاقطاعي السبيل للرأسمالي، كما جرى في اوربا الغربية. ولا يعني هذا البتة حتمية المرحلة الراسمالية في تطور كل شعب من الشعوب كما أكد ماركس نفسه، وإنما يتوقف مرور أي بلد بالمرحلة الرأسمالية أو تجنبها على الظروف التاريخية المعينة للبلد. فالتشكيلة الاجتماعية الرأسمالية ليست حتمية لكل بلد وكذلك الامر بالنسبة للتشكيلة العبودية والتشكيلة الاقطاعية. فلم تمر كل البلدان في تلك المراحل من الشيوعية البدائية إلى الرأسمالية. وكذلك كان رأى انجلس ولينين الذي قال بامكان المستعمرات وسائر البلدان ناقصة التطور تجنب المرور بالمرحلة الرأسمالية والوصول إلى الاشتراكية عن طريق آخر. وهذا الطريق الآخر للتطور أطلق عليه «طريق التطور اللارأسمالي» أو طريق «التوجه الاشتراكي»

ولم يفرض أحد الطريق الجديد، اللارأسمالي، على أي بلد من البلدان. ولكن مصر تحت قيادة عبد الناصر، وكانت في مقدمة البلدان العربية السائرة في طريق التطور الرأسمالي أرادت الافلات من التخلف بأسرع الطرق، فجربت بادئ ذي بدء تشجيع الرأسمال الخاص لتصنيع القطر ولكن التجربة فشلت فلم تجد بدا من اللجوء إلى تجربة الاتحاد السوفيتي أول بلد اشتراكي فاقتبست التخطيط المركزي الاقتصادي الاجتماعي وبناء الاقتصاد الوطني على يد الدولة وتأميم المشاريع الاجنبية، والمشاريع الكبيرة للرأسمال الخاص المصري. وشجعت المشاريع الخاصة الصغيرة والمتوسطة. وباختصار سارت على سياسة اقتصادية شبيهة بسياسة لنين «الاقتصادية الجديدة» التي طبقها بعد انتهاء الحرب الاهلية والتدخل الاجنبي. وقد اطلق عبد الناصر على سياسته الاقتصادية اسم «الاشتراكية العربية» بناء على الشعبية الواسعة التي كانت تحظي الاشتراكية بها في البلاد العربية، بفضل مواقف الاتحاد السوفيتي وإنجازاته.

وقد دهش الكتاب والمنظرين في الاتحاد السوفيتي والمانية الديموقراطية لما يجري في مصر. فرأى بعضهم إنه طريق جديد للتطور وأنه يتجنب التطور الرأسمالي فأطلقوا عليه اسم التطور اللارأسمالي وهو الاسم الذي نحته أوتو كوسنين السكرتير الفلندي للاممية الشيوعية عام ١٩٢٦ وتجنبا للتسمية السلبية المبهمة سمي أخيراً بطريق التوجه الاشتراكي. وهو يعني ضمناً تجنب المرور بالاطوار العليا من الرأسمالية في الطريق إلى الاشتراكية حتى بالنسبة للبلدان التي سبق لها أن ولجت الطريق الراسمالي للتطور. ولكن زعيم ألمانية الديموقراطية ذهب إلى حد أبعد في الخلط بين طريق التوجه الاشتراكي والطريق الاشتراكي ذاته فقد قال

ـ أن إناساً مثل جمال عبد الناصر فقط يبنون الاشتراكية في افريقيا!

ولم يكن اولبرخت الالماني الوحيد بين الزعماء الشيوعيين في هذا الموقف، مما أثار البلبلة في صفوف الشيوعيين. فأي طبقة تقود البناء الاشتراكي وأي حزب يمسك بزمام القيادة: الحزب الشيوعي أم الديموقراطي الثوري؟! ودار صراع فكري واسع متشعب. وانعقدت ندوة برلين عام ١٩٦٣ حضرها ممثلو الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية ودار نقاش حامي الوطيس عن مصير الاحزاب الشيوعية في البلدان النامية.. وكان ممثلو الحزب الشيوعي السوداني ومنهم معاوية (رئيس الوفد) «ناصريين اكثر من عبد الناصر»، كما يقال. وقد انبرى خالد بكداش الامين العام للحزب الشيوعي السوري للدفاع عن وجود الحزب الشيوعي ودوره القائد بالضد من التصفوية بكل ما لديه من قوة وحزم. أما ممثل الحزب الشيوعي العراقي عبد السلام الناصري وكان سكرتير منظمة الحزب في الخارج فقد لاذ بالصمت. وقد سمعت بنفسي مرة من فرانتسيف رئيس تحرير مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» أن على الشيوعيين في بلد كالعراق أن يكرسوا جهودهم على القضايا الاقتصادية! !وقال بانيماريوف لاحد الرفاق العرب البارزين: لماذا تبقى في الوجود احزاب شيوعية ضعيفة التأثير على الحياة السياسية في بلادها ؟فرد عليه الرفيق العربي محتجاً: ولماذا يبقى الحزب الشيوعي الهولندي؟' فقال بانيماريوف: تلك قصة أخرى! !

إن فكرة حل الاحزاب الشيوعية في بلدان «التطور اللارأسمالي» وردت على تفكير بعض القادة السوفييت وغيرهم ولكنها والحق يقال لم تصبح سياسة رسمية، ولم يتخلى الحزب الشيوعي السوفيتي والاحزاب في البلدان الاشتراكية الاخرى عن دعم الاحزاب الشيوعية المضطهدة في البلدان النامية كالعراق وإن توقفت الحملة التضامنية مع حزبنا في ظل حكم آل عارف مراعاة لعبد الناصر.

ووقع الشيوعيون الجزائريون في نفس الخطأ الذي وقع فيه رفاقهم المصريون إذ حلوا حزبهم تضامنا مع ابن بله. وعندما داهم الخطر بن بله وجد القادة الشيوعيون انه لم تعد لديهم المنظمة الحزبية التي يدافعون بها عن بن بله، فقد غدو قادة بلا عساكر بعد أن حلوا منظماتهم وأوعزوا لاعضائها بالانتماء كأفراد إلى جبهة التحرير الجزائرية.

وفي بغداد قام الناصريون بقيادة عبد السلام عارف رئيس الجمهورية بمناسبة عيد١٤٠/تموز عام ١٩٦٤م بإصدار مراسيم التأميم لمشاريع القطاع الخاص التي لم يتجاوز مجموع رساميلها (٢٥) مليون دينار والحال كان قطاع الدولة يساوي(١٥٠) مليون دينار على أقل تقدير. وفي نفس الوقت أعلن برنامج «الاتحاد الاشتراكي العربي» على النمط الناصري في مصر وفتح أبواب الحزب هذا لكل من هب ودب. وبالرغم من العداء الصريح للشيوعية في هذا «الاتحاد» فان المركز الحزبي للشيوعيين في بغداد تحت قيادة باقر ابراهيم وعمر على الشيخ لم يتوان عن إعلان الرغبة في انضمام الشيوعيين العراقيين إلى صفوف هذا الحزب. وقد توسع في هذه الرغبة ونظر لها الاجتماع المسع للجنة المركزية المنعقد في آب ١٩٦٤م في براغ بقيادة عزيز محمد والذي انتخب عزيز محمد سكرتيراً أولاً للحزب الشيوعي العراقي. وأعلن الاجتماع:

«ضرورة توسيع إطار هذه المنظمة «الاتحاد الاشتراكي» ليشمل جميع القوى الثورية في البلاد وفي مقدمتها الحزب الشيوعي العراقي. وفي هذه الحالة يمكن للاتحاد أن يتطور في ظروف ديموقراطية واسعة ليصبح اداة لتحقيق تحالف شعبي واسع يضم العمال والفلاحين وكل القوى التقدمية في البلاد. وأن يتحول بالنتيجة إلى شكل سلطة سياسية شعبية قادرة على تطبيق برامج تقدمية جريئة تستهدف تحولات عميقة في الاقتصاد وبناء المجتمع وتنظيم الدولة».. وهكذا استرسل اجتماع آب /١٩٦٤ بالاوهام.

كان عبد السلام عارف قد قابل مذكرة الجادرجي المطالبة بوضع زمام الحكم بيد الاحزاب المعتدلة بالصوت المنكر الذي أخرجه من بين شفتيه فبأي صوت رد على المطالب الطوباوية لاجتماع آب ١٩٦٤!!!

ودعا اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في آب ١٩٦٤ إلى عدم وضع الديموقراطية كشرط للتعامل الايجابي مع نظام آل عارف في العراق معللاً ذلك بأن الديموقراطية السياسية ستأتي كحصيلة لتطور الاوضاع العربية وضغطها على العراق. وقد رفضت جمهرة الشيوعيين هذه الخطة السياسية المعتمدة على الخارج واضطرت اللجنة المركزية إلى تعديلها في اجتماع عقد في بغداد لمواصلة النضال من أجل الاطاحة بالحكم العسكري.

وانقسم الشيوعيون العراقيون في الموقف من التطور اللارأسمالي إلى ثلاث اتجاهات: الأول: الرافضين كلياً لأي تطور لارأسمالي.. أي أنصار حتمية الطريق الرأسمالي باعتباره الطريق الوحيد خلافاً لاستنتاجات ماركس وانجلس ولينين. والثاني: أنصار طريق التطور اللارأسمالي أو التوجه الاشتراكي على أن يساهم الشيوعيون في قيادته «وأنا مع هذا الاتجاه». والثالث: أنصار التطور اللارأسمالي وتسليم الدور القيادي «للديموقراطيين الثوريين» ويلعب الشيوعيون دور المؤيد والداعم. وهو الدور الذي فرض على الاحزاب الشيوعية في البلدان التي يقودها «الديموقراطيون الثوريون»!!! أي الدكتاتوريات البونابارتية.

ومن الجدير بالتنويه أن عزيز محمد المبادر لاعادة النظر في قضية المعارضة القديمة في المكتب السياسي ورد الاعتبار إلى اعضائها ووافقت اللجنة المركزية بالاجماع

ولم أحضر الاجتماع المنعقد في آب /١٩٦٤ لانني كنت في النجف آنذاك أسكن في رعاية عائلة فلاحية حزبية من ريف أبو ضخير. عائلة أبو حازم، جواد العطية الذي استشهد على يد سلطات البعث في ريف الكوت عام ١٩٧٠وكانت شقيقته أم شروق مراسلة تحمل بريد المنطقة إلى المركز. وكانت فترة استجمام بالنسبة لي مع هذه العائلة الطيبة بعد محنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤ في ريف الفرات الاوسط.

وفي هذا البيت زارتني شقيقتي زكية بعد فراق طويل وأحضرت لي ملابس خرجت بها من العراق بجواز سفر مزور أعده الحزب لي. وكان إسمي في الجواز ناجي مهاوي من مواطني الديوانية والمهنة عامل. وعندما شاهدني ضابط شاب من ضباط الجيش على الحدود الكويتية خاطبني: يا استاذ! رغم أنني كنت بدون ربطة عنق وكانت بدلتي فضفاضة. ولربما ظنني أستاذ متقاعد ضمر جسمه فجأة ركبت سيارة كويتية من الحدود بعد أن ودعت العائلة التي أوصلتني إلى الحدود وكانت عائلة نجفية جندت نفسها لخدمة الحزب. وبقيت وحيداً بلا حماية. فكان علي أن أعول على نفسي وأن أتسلح باليقظة. ومع ذلك فعندما استوقفني ضابط باسبورت في منتصف الطريق بين الحدود ومدينة الكويت وسألني عن اسمي تلفظت بصورة عفوية... وكدت أنطق إسمي بالكامل وتداركت الامر ونطقت بالاسم المكتوب على الجواز. وكان علي أن أتشرب هذا الاسم لئلا أغلط مرة أخرى.

وفي الطريق توقف سائق السيارة ليتحدث إلى شرطي كويتي بدوي امي. تفرست الشرطي ولاحظت نطاقه وقد انقلبت طرته البرونزية رأساً على عقب ومعها بالضرورة كلمة «الكويت» منقوشة عليها فنبهت الشرطي إلى هذا الخلل الفاضح في قيافته فارتعب وأصلح حاله فورا وعجز عن إيجاد العبارة الوافية للتعبير عن امتنانه لي. هكذا نحن العراقيين حريصين على استقامة الكويت.

دخلت الكويت لأول مرة في حياتي وكان أول عمل قمت به قطع بطاقة سفر بالطائرة إلى بيروت. واشتريت حقيبة جلد كانت آكبر حقيبة عثرت عليها في السوق وكأني اردت التعويض عن افتقادي الحقائب طول تلك الفترة ولكنها استثارت اهتمام السلطات المختصة في كل بلد زرته، إذ كانت في الوقت ذاته افرغ من فؤاد أم موسى.

ومن بيروت سافرت إلى براغ. ولأول مرة أشاهد المدينتين العربية والجيكية. وكان في استقبالي في براغ آرا خاجادور برفقة رفيق جيكوسلوفاكي. وفي فندق اللجنة المركزية للحزب الجيكوسلوفاكي التقيت نزيهة الدليمي عضو اللجنة المركزية في حزبنا وسفيرته في براغ وثابت حبيب العاني عضو اللجنة المركزية أيضاً وبهاء الدين نوري الذي أصبح عضو المكتب السياسي من جديد وأخيراً التقيت عزيز الحاج وكان ممثل الحزب في مجلة قضايا السلم والاشتراكية. وكان الحزب قد أرسله للعمل في المجلة حرصاً عليه منذ انقلاب قاسم ضد الحزب.

وكان اهتمامي بجيكوسلوفاكية قديما منذ الفترة بين الحربين العالميتين عندما اصبحت عرضة لاطماع هتلر وقد شبهها الجنرال الالماني لوندورف بحاملة طائرات العدو في قلب ألمانيا. وقد قدمتها بريطانية وفرنسا حليفتاها عهد ذاك غنيمة باردة لهتلر. وحررها الجيش السوفيتي بتضحية ١٢٠,٠٠٠ من شبابه في أيار ١٩٤٥ ولم يتسن لي التجول في المدينة فبعد يومين من وصولي فجأبتني المضيفة بالتهيؤ للسفر إلى موسكو.

وفي موسكو التقيت عزيز محمد وقد اصبح السكرتير الاول للحزب وباقر ابراهيم وعامر عبد الله وعبد السلام الناصري. وهكذا خسرنا خسائر لا تعوض من قادة الحزب ولكن لا يزال لدينا طاقم قيادي يستطيع مواصلة العمل، ويعيد بناء مركز الحزب، فقد بعث الحزب إلى الخارج للاحتياط قبل النكبة بعدد من كوادره السياسية المجربة والمتمرسة بالعمل الحزبي في قطر لا أثر فيه للديموقراطية كالعراق. وكان اللقاء باولئك الرفاق قد بعث في نفسي الاطمئنان على مستقبل الحزب. وكانت فرحتنا ببعضنا فرحة جنود دخلوا معركة صعبة اختلط فيها الحابل بالنابل والعدو بالصديق وانقطع الاخ عن اخيه ولم يعد يعرف بعضهم بمصير بعض. والتقوا اخيرا وقد انجلى الغبار ليلعقوا جراحهم ويتفقدوا خسائرهم ويلموا صفوفهم ويواصلوا مسيرتهم على الدرب الوعر الطويل.

وبعد لأي أذن لي الحزب باللقاء بزوجتي سعاد مصادقاً على زواجنا وبعد فراق طال أكثر من ثلاث سنوات التقيتها في فندق اللجنة المركزي للحزب الشيوعي السوفيتي في موسكو. انطلقت إليها كما ينطلق الحمل الرضيع إلى أمه بعد أن يفك وثاقه. وفي لحظة نسينا كل ما عانيناه من ألم وحرمان وشعرنا وكأننا أصبنا بفقدان الوزن الذي يصاب به الملاحون الكونيون في الفضاء الخارجي فقد نفضنا همومنا عن كاهلنا

73

ديموقراطية الشيوعيين الهنود

بعد عدة أيام من وصولي إلى موسكو سافرت برفقة عزيز محمد إلى الهند لنمثل حزبنا في المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الهندي، الذي انعقد في بومبي أعظم مدن الهند على البحر العربي. والحزب الشيوعي الهندي منقسم تاريخياً إلى حزبين بنفس الاسم وما يميز أحدهما عن الاخر هو إنه يضع بعد إسمه كلمة (الماركسي) بين هلالين والمؤتمر الذي حضرناه لايمثل هذا بل الآخر الذي يتفق مع الخط العام للحزب الشيوعي. وكان هذا الحزب يحكم ولاية كيرالا لسنين عديدة. كان عدد الوفود من الاحزاب الشيوعية المدعوة للمؤتمر قليلا لضعف مالية الحزب الشيوعي الهندي وكان كل الحزب قد استصحب مترجمه الخاص. فقمت أنا بدور المترجم لوفدنا. والترجمة الارتجالية لانكليزية الهنود كانت بالنسبة لي من الصعوبة بمكان لانهم يتكلمون بانكليزية هندية بالكاد تشبه الانكليزية، فلم تكن ترجمتي مرضية لرئيس الوفد مع الاسف فقد حرمته من متابعة كثرة من مداخلات دانكه رئيس الحزب الشيوعي الهندي المرتجلة الطويلة جداً جداً.

كان المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في شباط ١٩٥٩ أول مؤتمر شيوعي احضره في حياتي. وكان جوه مهيبا ورسمياً بالرغم من لطائف رئيسه خروشوف والكلمات التي القيت فيه كانت معدة سلفاً ومدققة من جانب القيادة جيداً والارتجال نادراً والتصويت اجماعياً بحيث لم تكن ثمة حاجة لاحصاء الموافقين والمخالفين والممتنعين عن التصويت. فقد أعد كل شيء في بروفا أو وراء الكواليس كما يقول المسرحيون.

أما المؤتمر الشيوعي الهندي فكان له طابع آخر. إذ كان أقرب إلى المؤتمرات التي قادها لنين في حياته إذ كان يسوده جو شعبي يتميز بالبساطة خالياً من التكلف. والمداخلات تلقى ارتجالاً قام جوشي وهو السكرتير العام السابق للحزب وألقى مداخلة هاجم فيها انغلاق حزبه على «حزب المؤتمر الوطني الهندي» الحاكم ثم عاد إلى الجلوس على كرسيه على المنصة كعضو في هيئة الرئاسة. ونهض بعده مندوب من قاعة المؤتمر ليرد عليه بكل حدة مهاجما حزب المؤتمر الهندي المفتقر لأي مبادرة وأدار ظهره إلى المؤتمرين ليوجه أصبع الاتهام نحو جوشي مقرعاً إياه بعنف.. إنها البساطة الهندية التي لاتقلد والديموقراطية الفطرية.

وكانت القرارات تصاغ في جلسات المؤتمر وتطرح للمناقشة وتجري عليها التعديلات فيقترح احدهم تعديلا ويليه آخر فيقترح تعديلا للتعديل وهكذا دواليك حتى الدرجة الخامسة أو السادسة وعندما تنقطع سلسلة التعديلات يطرح التعديل الأخير للتصويت فإذا رفض طرح ما قبله وهكذا حتى نقطة البدء. وكان واضحاً أن المؤتمر مؤتمر كوادر حزبية عريق في البرلمانية الحزبية.

وقد طرحت في المؤتمر مسألة وحدة الحزبين الشيوعيين، وكان واضحاً إنها مسألة مزمنة تطرح في كل مؤتمر للحزب دون نتيجة.

كنت أحمل مسبحة «يسر» حباتها من خشب أسود نادر تتوالد تلقائياً، أي تنسلخ قشرتها. وقد فوجئت لان جميع الانظار اتجهت إليها، وسألني عنها العديد منهم، ما معنى هذه المسبحة؟ ما هي عقيدتك؟ و..الخ وكنت اعتقد أن المسبحة شائعة الاستعمال في الهند، بلد النساك اكثر من أي بلد آخر حتى تبين لي أنها نادرة الاستعمال هنا فأهديتها إلى مرافقتنا الرفيقة الهندية الكهلة.

وزرنا معبداً هندوسياً ورأينا النساك الهندوس وقد لطخوا جباههم بسرجين البقر المقدس عندهم تبركا وتيمنا فتقزز رئيس وفدنا فخرجنا مسرعين. وعرضت علينا مرافقتنا زيارة تكية الشيخ عبد القادر الكيلاني المدفون في بغداد ورفض عزيز محمد ذلك وهو رئيس الوفد ولم يكن بالطبع من اتباع الطريقة القادرية ولا أي طريقة أخرى من طرق الصوفية المنتشرة في كردستان العراق باي حال من الاحوال.

وأخذنا موضيفونا الهنود مع جميع الوفود الاجنبية لنرى البحر. لكنني لم أفهم الدعوة لاول وهلة فترجمتها للرفاق اننا ذاهبون إلى حديقة الحيوانات. السبب هو انهم يلفضون كلمة (Sea) التي تعني البحر كما لو كانت (Zoo) وتعني حديقة الحيوانات وعندما وصلنا إلى أخر الشوط عرفنا عندئذ فقط انهم يقصدون البحر العربي ولم يحمل أي منا ملابس السباحة وكان معنا خالد بكداش رئيس وفد الحزب الشيوعي السوري الشقيق فقال متحسرا:

ـ لقد أتيحت لي فرصة السباحة في كل البحار الا هذا البحر العربي!

وقد أسفت أنا لان سوء فهمي لانكليزية الهنود هو الذي حرم الشيوعيين العرب وعلى رأسهم خالد بكداش من السباحة في البحر العربي. وفي طريقنا من الفندق إلى بناية المؤتمر كنا نمر بشارع يشبه شارع الرشيد بيد أنه أطول بكثير. قد لاحظت لافتة لمطعم ايراني فنبهت عزيز محمد اليها فسألني جاري الطلياني وهو رجل ضخم، اترجم له ما قلت، قلت له هذا مطعم إيراني، سألني

ـ وما هو الصحن القومي الايراني؟ قلت بدون تردد:

ـ الفسنجون! فسألني:

ـ وماهو الفسنجون؟ قلت:

ـ الدجاج مع الجوز.

وفي اليوم التالي افتقدت الرفيق الطلياني فقد تغيب عن المؤتمر وعن الغداء ليجرب صحن الفسنجون في المطعم الايراني.

ألقى عزيز محمد كلمة التحية من حزبنا للحزب الشيوعي الهندي الشقيق وشرح وضع الحزب بعد خروجه من محنة انقلاب ٨/شباط الاسود وعندما قال «والآن وقف حزبنا على قدميه من جديد» ضجت القاعة بالتصفيق مع أن رفاقنا الهنود ليسوا مولعين بالتصفيق

اتيحت للوفود الاخرى زيارة أماكن جديرة بالزيارة على حسابها الخاص. أما وفدنا وقد كان نظيف الجيوب،فقد اعتكف في الفندق متمثلا بقول الشاعر: مكانك تحمدي أو تستريحي!

ومرة رأينا شاباً هندياً واقفاً عند عربة بائع فواكه متجول يأكل صحناً من سلطة فواكه «توتي فروتي» وكان سوء التغذية بادياً على محياه. فسأله أحد المندوبين الاجانب عن حاله. فتبين إنه جائع وأن صحن الفواكه يكلفه أقل من تكلفة رغيف الخبز والفرق هو أن رغيف الخبز بإمكانه أن يوصله إلى محل عمله أن كان له عمل وصحن الفواكه لايتعهد الا بملء بطنه ويبقيه مكانه لينسيه الجوع ساعة من الزمن.

والتقيت الوفد اليوغسلافي، وهي المرة الاولى التي نلتقي فيها برفاق يوغسلاف. حدثونا عن مدينة هندوسية زاروها، سكانها نصف مليون نسمة ولم يجدوا فيها سوى قصاب واحد! قضينا

معهم سهرة ممتعة حدثونا عن تضامنهم مع حزبنا وشعبنا في محنة شباط /١٩٦٣ بملء الحماسة فشكرناهم. ودعونا لزيارة يوغسلافيا فشكرناهم ولم نذهب تضامنا مع الحزب الشيوعي السوفيتي، مع أن خروشوف نفسه كان قد زار يوغسلافيا واعتذر للرفاق اليوغسلاف عن التحريم الستاليني وخلال الحديث الطويل تطرقنا إلى ذكر «ليديتسا» البلدة الصغيرة الجيكية التي محاها الهتلريون عن وجه الارض خلال الحرب العالمية الثانية والاحتلال النازي فقال رئيس الوفد اليوغسلافي مقاطعا

ـ والله يارفاق لقد محا النازيون ألف ليديتسا يوغسلافية لايعرف عنها العالم ما يعرفه عن ليديتسا واحدة جيكية! قلنا

ـ هذا يعني أن رفاقنا الجيكوسلوفاكيون أساتذتنا في فن الدعاية!..فصاح:

ـ وهل في فن الدعاية فقط! بل في كل شيء!

وفي طريق العودة إلى موسكو على متن الطائرة السوفيتية دعا مساعد بونيماريوف رئيس القسم الدولي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، دعا عزيز محمد رئيس الوفد لشرب نخب بمناسبة دخول الطائرة الاجواء السوفيتية فرفض عزيز محمد أن يذهب لوحده فذهب الشيخ اليانوفسكي وعاد ليدعونا سوية لشرب نخباً في سماء ملتقى خمس دول: الاتحاد السوفيتي وباكستان والهند والصين وأفغانستان أي سرة سماء نصف سكان المعمورة.

كان عزيز محمد قد انتخب توا لمنصب سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي ويتحرج من التصرف كرئيس ولا سيما اتجاهي ولذا لم يخضع للبروتوكول السائد بين الأحزاب.

عفوا! نسيت أن أحدثكم عن العنبة. والعراقيون ولا سيما العراقيات شغوفون بالعنبة وهي فاكهة هندية اسمها «المانكو» ولا سيما غير الناضجة، المكبوسة والمتوبلة بتوابل هندية حارة جداً وقد أوصانا الرفاق في موسكو أن نحمل لهم هدية منها. فذهبنا عزيز محمد وأنا نفتش في طول سوق بمبي الرئيس وهو يشبه سوق الشورجة في بغداد ولكنه أطول. ولاحظنا كثرة الذباب ولاسيما عند البقالين فاستنتجنا انهم لايكافحونه ولا يحدون من تناسله بالنظافة لاسباب ومنها تحرج الهندوس من قتل أي حي حتى إذا كان مؤذيا للبشروحقيراً كالذباب و يبدو أن آلهة الهند المعروفة بالقسوة سلطت الذباب للحد من تكاثر سكانها الذي لا يضاهى. ومضينا في سبيلنا وكل بضعة خطوات كنا نسأل عن العنبة بالانكليزية فيهزون رؤوسهم نفياً أو استنكاراً ولكننا لم نكل ولم نمل لثقتنا بوجودها. وأخيراً سألنا شاباً عنها فتطوع في الحال ليدلنا على آخر دكان في السوق وكان يبيع العنبة. كان صاحب الدكان كهلاً والوحيد الذي يعتمر طربوشاً أحمر في السوق وملامحه غريبة فسألناه عن العنبة، فسألنا فوراً بالانكليزية

ـ هل أنتم عراقيون ؟

وعرفنا من سحنته وطربوشه إنه يهودي من أصل عراقي شأن معظم يهود الهند أن لم يكن كلهم، هذا أولاً وثانياً أن العنبة الهندية المكبوسة بالتوابل لايأكلها الهنود ولا يسأل عنها غير العراقيين، إلا نادرا. والا كيف عرف هذا إننا عراقيون؟ ولماذا لا يوجد في مثل هذا السوق العظيم سوى دكان واحد يبيع العنبة! وحديث العنبة ذو شجون ففي بولونيا التقينا فتاة بولونية زارت العراق فسألناها:

ـ هل تذوقت المسكوف العراقي؟ فهتفت كالملذوعة:

ـ أواه يالها من أكلة كاوية!

ففهمنا إنهم أطعموها المسكوف المتوبل بالعنبة فأحرقوا شفاهها الوردية الغضة!

74

اصطراع في الحركة الشيوعية

وبعد عودتنا إلى موسكو قرر المكتب السياسي انتدابي للعمل في مجلة قضايا السلم والاشتراكية في براغ وكانت مجلة الحركة الشيوعية العالمية باستثناء الحزب الشيوعي الصيني والاحزاب الضالعة معه. واقام عزيز محمد حفلة عشاء مختصرة تكريما لزواجنا ولوداعنا، حضرها بعض أعضاء المكتب السياسي وابلغني بمهمتي الجديدة كممثل للحزب في المجلة ومسؤول عن تنظيم الحزب في الخارج وطلب مني أن أدافع عن سياسة الحزب التي وضعها الاجتماع الكامل للجنة المركزية في آب /١٩٦٤ فاعتذرت بأنني لست مقتنعا بتلك السياسة فكيف أستطيع الدفاع عنها؟!

وبعد وصولنا إلى براغ بفترة وجيزة جاءتني رسالة من عزيز محمد توعز لي بتسليم مسؤولية التنظيم الحزبي في الخارج إلى الرفيقة نزيهة الدليمي التي كانت هي المسؤولة عنه قبلي. وكان هذا شيئا طبيعيا. ولكنني لاأكون صريحا مع نفسي لو قلت انني قابلت ذلك بارتياح. وبعد فترة وجيزة جاء عزيز محمد إلى براغ والتقى بي وبثابت حبيب العاني وكلفني ثانية بأن أتولى مسؤولية تنظيم الخارج من دون أن يكلفني هذه المرة بالدفاع عن سياسة الحزب وكان السبب أن الدكتورة نزيهة كانت قد تشاجرت مع جلال الطالباني وقالت فيما قالت: لن نعطيكم نفط كركوك، كما قال لي عزيز محمد.

وفي شتاء ١٩٦٥ عاد كثير من الرفاق إلى الوطن للعمل في صفوف الحزب وبضمنهم ثلاثة من أعضاء المكتب السياسي: بهاء الدين نوري وعامر عبد الله وعبد السلام الناصري. فقلت لعزيز محمد كيف تترك الحزب بيد رؤوس الحراب الثلاثة وانت بعيد عنهم خارج الوطن؟ وعاد عزيز محمد إلى الوطن فيما بعد بناء على استدعاء بهاء الدين له لانهم مقبلون على «عمل حاسم»! وقصة العمل الحاسم هذه قصة أخرى سوف أعود اليها.

سجلت في سجل مجلة قضايا السلم والاشتراكية باسم ناجي مهاوي المكتوب على جواز سفري المزور في حين كان الجميع يعرف اسمي الحقيقي. وحضرت لاول مرة اجتماع مجلس التحرير وكان جدول العمل مقالات للمناقشة تمهيدا لنشرها ومنها مقال باسم بيتيا عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الإيطالي. وكان الحزبان الشيوعيان الصيني والايطالي على طرفي نقيض فبقدر ما كان الصيني متياسرا كان الايطالي متيامنا. وبقدر ما كان الحزب الشيوعي السوفيتي متسترا على الخلافات في الحركة الشيوعية العالمية «لئلا تفيد منها الامبريالية» كان الحزبان الاخران مثيران للجدل. ولم يكن للحزب الصيني ممثل في المجلة والحال كان للايطالي ممثله، وأي ممثل! وكان اسمه «روسي» رمز العواصف والاعاصير في مجلس التحرير. وكان الجميع يتحاشى الاشتباك معه إذ كان لسانه أحد من السيف وصوته عاصف والمساجلة حياته. ولم أكن أعرف عنه شيئا بادئ ذي بدء.

تطرق مقال بيتيا إلى الحركة الشيوعية العالمية ومما جاء فيه بهذا الصدد: إن الوحدة «المونوليتية» ، (المقدودة من صخر) لم يعد لها وجود في الحركة الشيوعية ومن العبث استعادتها، وكنت قد تهيأت لمناقشة هذه النقطة وكنت أول من طلب الكلام، ولما أذن لي رئيس التحرير حملت حملة شعواء على المقال وأكدت أن الوحدة المونوليتية باقية ولها مركز واحد هو الحزب الشيوعي السوفيتي. ولما انتهيت ساد الوجوم في القاعة وكان قبالتي تماما روسي الايطالي بعينه وقد أسند فكه الاسفل على كفه ليتفحصني بنظراته. وبعد أن أنفض الاجتماع جاءني مراد القوتلي ممثل الحزب الشيوعي السوري وعلائم الدهشة لا تزال على محياه.وحدثني عن روسي وعن دوره في المجلة وقال لي أن مداخلتك كانت قنبلة بالنسبة للجو السائد في هيئة التحرير وعليك أن تنتظر رد الفعل. وأصبح روسي يتودد لي ويقدمني باحتفاء لكل زائر من حزبه. والسر في ذلك هو غرام روسي بالجدل والمجادلين.كان همه أن يجعل المجلة منبرا للجدال بين شيوعي العالم. وكان ممثلو الاحزاب الشيوعية في الدول الاشتراكية يقاومون هذه النزعة بكل قواهم، بقولهم «لئلا تتحول المجلة إلى صندوق بريد» ومع ذلك خصصت المجلة في وقت لاحق ركنا من اركانها للتبادل الحر للأراء على مسؤولية المساهمين بالجدال أنفسهم استجابة لارادة الطليان. وفي فترة اخرى من عملي في المجلة في أوائل الثمانينيات بذلت جهدا مضنيا لامرار مقال ضد الارهاب الذي تمارسه الحكومة في العراق ضد المعارضة ولكن لم أفلح. وأحيانا يوافق رئيس التحرير السوفيتي على النشر ولكن ممثلي الاحزاب الشيوعية في الدول الاشتراكية الاخرى يحولون دون النشر وينبع نفوذ تلك الاحزاب من انها إلى جانب الحزب الشيوعي السوفيتي كانت تساهم في تمويل المجلة وكانت هذه الدول تراعي النظام في العراق بسبب امكانياته الواسعة الاقتصادية والاستراتيجية.

وكانت هيئة التحرير قد طلبت من إيليا اهرمبرغ الاديب السوفيتي ذائع الصيت أن يكتب للمجلة مقالاً عن الأدب السوفيتي فلبى الطلب. وطرح المقال للمناقشة وأجيز نشره ولكنه لم ينشر! وتحت وطأة الحاح مجلس التحرير أخرج من الارشيف ونوقش مرة ثانية وأجيز. ولكنه لم ينشر بل نام في الارشيف عوداً على بدء وتكررت المناقشة المرة تلو المرة ليجاز فيعود للنوم في الارشيف. ولكن لماذا؟! لان المقال ينص على أن الأديب السوفيتي ليس حراً فيما يكتبه. فلم يكن كل شيء هادئا على جبهة التحرير. وفي السنتين أو الثلاث الاخيرة من حياتها أصبحت فعلا منبراً للجدل الجدي بين الاراء المتباينة وحتى المتناقضة وأصبحت تقرأ من الغلاف إلى الغلاف. وعندئذ اغلقت لانقطاع الموارد من الاحزاب المساهمة في تمويلها باستثناء الحزب الشيوعي السوفيتي والمنغولي أو وهكذا علل إغلاقها. وعلى كل حال فان غلقها كان إيذاناً بانتهاء مرحلة من مراحل تطور الحركة الشيوعية العالمية لتبدأ مرحلة جديدة لا تزال في المخاض. وسوف تنهض حركة الطبقة العاملة العالمية وتبرز منابر فكرية أممية تطلق الحرية لتبادل التجربة وللنقاش ولتنوع الاراء إلى حد أوسع من منحى قضايا السلم والاشتراكية.

75

في عشنا الزوجي

في براغ عشنا، أنا وسعاد، لأول مرة عيشة عائلية لاينغصها منغص في حارة الجبل الابيض «بيلا هورا» الهادئة ننتظر طفلنا الاول البكر أنا في الربعة والخمسين وهي في السادسة والثلاثين وكانت ظروف معيشتنا جيدة وأفضل الظروف التي مرت بنا طيلة حياتنا من كافة الوجوه. وحتى تلد سعاد ولادةٍ سهلةٍ كنت اجرها معي للمشي ساعات كل يوم في ازقة براغ القديمة المتافعية الملتوية صعوداً ونزولاً وفي كل زقاق كنا نفاجأ بآية من آيات العمارة الجيكية. وقد اطلق كاتبٍ امريكيٍ على براغ اسم «سيمفونية الحجارة» وكان أول سائح أجنبي ترك كتاباً عن براغ تاجراً اندلسياً اسمه «يعقوب ابن ابراهيم كتبه بالعربية وسماها «مدينة الحجر الاسود» وذكر فيه حتى اسعار الخضروات آنذاك .فكان المشي في أزقتها متعة فالمدينة متحف تاريخي رائع. تتخلله الحدائق والخمائل. وفي ظل الحكومة الشيوعية كانت جيكوسلوفاكيا أرخص بلد في العالم من حيث الاسعار وبدلات الايجار مع توفر كل الحاجيات.

ومع ذلك لم تكن ولادة يحيى سهلة فقد استمرت ٤٨ ساعة. وذهبت في اليوم التالي لاراها في المستشفى ولم يسمحوا لي ولكنني رأيت يحيى بين عشرة أطفال بأقمطة بيضاء مصفوفين على مائدة متحركة وكأنهم أرانب للاختبار لولا انهم كانوا يصرخون سوية كالاجراء وقد تميز يحيى من بينهم جميعا بفروة رأسه السوداء. فالطفل الجيكي الاصيل يولد أصلع. إنفعلت بحيث لاأدري ماذا أفعل أمام ولدي البكر. لم يكن مسموحاً لي بأن أمد يدي اليه لاحمله وأضمه إلى صدري. فمددت يدي إلى جيبي وقبضت على النقود وضغطتها في يد الممرضة التي امتنعت عن قبضها. ولجهلي بلغتهم حرت فيما أقوله لاعبر عما يجيش في نفسي من مشاعر الامتنان.

اجتمع شملنا وقد غدونا ثالوثاً: الام والابن والاب وكنت أشاركها في غسله كل يوم وفي الليل عندما يصرخ بسبب الغازات كنت أرفعه وأضمه إلى صدري قائماً حتى يسكن ريحه ويهدأ روعه. وراح أطفال حارتنا الجيكيون يعتزون به. كنا نضعه مقيداً بعربته ساعات في الشارع وكان هو يتحرش بالرائحات والغاديات فيستلفت أنظارهن ويهتفن «هسكي اندسكي» أي (هندي جميل) وكاد اطرأهن لطفلي الجميل يوقظ في نفسي النرجسية الكامنة في نفس كل رجل وحتى الغواية والعياذ بالله.

76

ضجة «العمل الحاسم»

في تشرين الاول ١٩٦٥ انعقد في بغداد اجتماع ضم (٢٥) كادرا حزبياً متقدماً ومن بينهم أعضاء في اللجنة المركزية والمكتب السياسي وعلى رأسهم بهاء الدين نوري القطب اليميني السابق. وكان التحضير «للعمل الحاسم» محور الاجتماع. ولم يكن «العمل الحاسم» سوى انقلاب عسكري تقوم به وحدات من الجيش باسلوب «الكتمان والمباغته» كما جرى في ١٤ /تموز /١٩٥٨ وقد تمنى عامر عبد الله القطب اليميني الاخر، على المجتمعين أن يقرأ هو بنفسه البيان الاول للعمل الحاسم من الاذاعة والتلفزيون. وكان رأي بهاء الدين هو: لماذا يحرم على الحزب الشيوعي القيام بانقلاب عسكري بواسطة وحدات من الجيش في حين تمارس الاحزاب الاخرى هذا الاسلوب؟! وهي فعلاً كلمة حق! لماذا؟

بيد أن القضية لم تكن قضية حقوقية. فللحزب الشيوعي الحق في أن يمارس نفس أشكال الكفاح التي تمارسها الاحزاب الاخرى بما فيها الانقلاب العسكري المتنكر باسم «العمل الحاسم» أو بأي إسم آخر، بل القضية هل بامكان الحزب الشيوعي أن يستخدم هذا الشكل من اشكال الصراع السياسي؟ وفي اية ظروف؟!

في انقلاب ١٤/ تموز الذي جعل الشعب منه ثورة كبرى كان النظام القائم متهرئاً ومعزولاً على نطاق العراق والبلاد العربية، والاحزاب الوطنية بما فيها الحزب الشيوعي متفقة ليس فقط على التغيير بل أيضاً على اسلوب التغيير، والجماهير ولا سيما في بغداد قلب العراق ومركز السلطة مستعدة سياسياً لتلبية نداء الثورة والخروج إلى الشارع على الفور للتصدي لثورة الردة، وأخيراً وليس آخراً كانت توجد قطعات عسكرية مستعدة بأمر ضباطها لانزال الضربة الفاصلة في قلب النظام القائم ولمساندة بعضها بعضا لصد قوى الردة.. هذا باقتضاب في الداخل، أما في الخارج فكانت الجمهورية العربية المتحدة الجارة اللصيقة بالعراق امتداداً استراتيجياً لثورته وفوق كل ذلك كان الاتحاد السوفيتي وهو في أوجه معادياً للنظام الملكي صنيعة الغرب ومحبذاً للثورة ضده.

لم يكن أنصار العمل الحاسم جاهلين بكل ذلك ولكنهم كانوا معتمدين على الحظ! على وضع الجميع، العدو والصديق أمام الامر الواقع. وفي حالة الفشل تكويم أسباب الفشل بقضها وقضيضها على الصديق المتكئ الذي خذل أصدقاءه في اللحظة الحرجة تماماً كما كانت تفعل الانظمة التقدمية بعد كل مجازفة فاشلة..

كان مؤلفوا العمل الحاسم يشترطون لنجاحه الا تسبقه اية مبادرة جماهيرية إضرابات، مظاهرات، انتفاضة شعبية.. الخ ولكن لماذا؟ أوَليس الاسناد الجماهيري شرط لازم لنجاح أي انقلاب عسكري تقدمي؟! يجيب الضابط الحقوقي سليمان يوسف وهو من أبرز ممثلي العمل الحاسم:

ـ أن النشاط الجماهيري السابق للعمل الحاسم سوف ينبه السلطات إلى الخطر ويجعلها تستنفر قواها المسلحة وتهيمن عليها بفضل الانضباط الوظيفي، أي الانضباط العسكري التقليدي وبذلك تحبط العمل الحاسم سلفاً. ومن هنا الكتمان والمباغتة والحرص على سرية ساعة الصفر سيراً على آثار الزعيم عبد الكريم قاسم.

أما آرا خاجادور واحد مهندسي العمل الحاسم البارزين فكان يعلل الانقلاب العسكري كأسلوب بديل عن اساليب النضال الجماهيري، بأن الجماهير ملت هذه الاشكال التي لاتغير الوضع بل تريد عملاً حاسماً يغير الوضع رأساً على عقب وأنه يكفينا بناء حزبنا المرة تلو الاخرى ليعود اعداؤنا إلى هدمه في كل مرة.كان هذا تبريراً آخر للعمل الحاسم بدلاً من الانصراف إلى بناء الحزب بعد أن خرب انقلاب ٨ /شباط أكثر منظماته. وأخذوا يمجدون الجيش العراقي بحيث اصبح «صانع جميع الامجاد الوطنية» وشطبوا من سجله الاعمال الوحشية التي ارتكبها في قمع تطلعات الشعب منذ تأسيسه.

كان مصمموا العمل الحاسم غير غافلين عن أن انقلاباً يقوده الحزب الشيوعي سيثير مقاومة ضارية من مختلف الجهات حتى من سوريا التي يحكمها البعثيون جماعة صلاح جديد «اليسارية». وعندما التقيت نور الدين الاتاسي رئيس الجمهورية السورية في صيف ١٩٦٦ وجدته قلقا من احتمال قيامنا بانقلاب. وكان يقدر تنظيمنا الحزبي من ضباط الصف فقط في الجيش العراقي بألف عضو حزبي.

كانت الضجة التي اثارها دعاة العمل الحسم العتيد قد بلغت حكام سوريا وأقلقهم خوفاً من أن ينفرد الشيوعيون بالسلطة ويبقى انصارهم في العراء. وكانوا يعرفون أن خصومهم (جناح البكر ـ صدام) اليميني يتهيأون لانقلاب بعثي .ولستر الطابع الشيوعي «للعمل الحاسم» هيأ مهندسوه وزارة ليس فيها عضو شيوعي معروف، برئاسة عبد الوهاب محمود. ولكن مثل هذا التمويه لم يكن لينطلي على أحد بالطبع.

كانت جمهرة الشيوعيين مع العمل الحاسم بفضل الصدمة التي أصيبوا بها بسبب مرور انقلاب ٨/شباط ولم يكن أي شرط من شروط النجاح قائماً للعمل الحاسم. ولم تقع حتى محاولة يائسة للشروع به. لماذا؟ يبدو هذا السؤال غريباً للوهلة الاولى، فكيف يقدم مناضلون سياسيون مجربون بمحاولة لم يتوفر لها أي عامل من عوامل النجاح؟ فالسؤال غير وارد ولا يحتاج إلى أي جواب .ولكن لم يصدر أي قرار من اية جهة للتخلي عن العمل الحاسم الذي أقره اجتماع تشرين الاول ١٩٦٥ للكوادر الخمسة والعشرين..لماذا؟ ومات القرار تدريجياً بعد أن طواه النسيان واعيدت قطع السلاح التي استعيرت من أعضاء الحزب واصدقائه لتسليح الانصار المساندين للقطعات العسكرية التي سوف تضطلع بالحركة الانقلابية.. لماذا؟

لان هكذا قطعات عسكرية لم يكن لها وجود! إذ لم يبق للحزب الشيوعي تنظيم في الجيش قادر على تحريك قطعة من القطعات العسكرية القادرة على القيام بأية محاولة من هذا القبيل... فعلى ماذا كانت تلك الضجة؟

يبدو أنها كانت مبنية على معلومات كاذبة عن الوضع الحزبي في الجيش من احدهم (ابو .) ومع ذلك فان ذيول العمل الحاسم لم تنته.

والشيء بالشيء يذكر: فقد زار الاميرال قائد الاسطول بارجة من بوارج اسطوله في أحد الموانئ واستشاط غيضاً لأنه لم يسمع أي اطلاقة من اطلاقات المدفعية المقررة لاستقبال أمثاله وسأل:

ـ لماذا؟ فكان الجواب من قائد البارجة

وأخذ يعدد الاسباب فاورد ١٣ سببا وكان السبب الثالث عشر عدم وجود البارود! فرد عليه قائد الاسطول:

كان يجب أن تذكر السبب الاخير أولاً وتكتفي به.

أما كان ينبغي لي أن أفعل كما أراد هذا الاميرال وأكفيكم شر هذه التفاصيل؟ وفي ربيع ١٩٦٦ استأنفت الدكتاتورية العسكرية الحرب ضد الشعب الكردي على نطاق واسع وبوحشية جديرة بانقلابيي ٨/شباط. وعندئذ كتبت رسالة إلى قيادة الحزب في الوطن «اقترحت فيها شن الكفاح المسلح في القسم العربي من العراق». ولم تكن الامكانات من هذا القبيل معدومة بالمرة بيد أن التنظيم الحزبي لم يسترجع عافيته ليضطلع بمثل هذه المهمة ولم يكن أنصار العمل الحاسم متحمسين لهذه الاشكال من الكفاح المسلح الصابر الطويل. فقامت بعض العناصر بتنظيم حركة أنصار في الاهوار جنوب العراق بمعزل عن الحزب، ولم تستمر طويلا. فقد سحقتها الحكومة.

وبعد فشل الحملة العسكرية لسنة ١٩٦٦ على كردستان عادت الدكتاتورية العسكرية للمهادنة مع البارزاني. وكان البارزاني حريصاً على مهادنة الحكومة ليعطي فترة راحة لانصاره للاستجمام وكسب الرزق. في حين كانت الحكومة تدفع له مساعدة مالية ريثما يسترجع الجيش العراقي انفاسه ويستعد من جديد «لحملة تأديبية» قادمة.

ولدى عودتي للوطن في خريف ١٩٦٦ عن طريق سوريا وكردستان التقيت البارزاني في مقره في حاج عمران.وفي هذا اللقاء سألته مساعدتنا لتوسيع الكفاح المسلح .فشاغلني بأسئلة حادة سريعة بعيدة عن الموضوع ليتملص من الرد السلبي المباشر على طلبي إذ سألني لماذا لاتقتلوا جلال الطالباني ؟!قلت له :كيف؟ نحن حزب سياسي ولسنا منظمة ارهابية! قال: تدعوه للتفاوض لتأليف جبهة وطنية.. وعندما يحضر تقتلوه! لم يكن البارزاني سياسياً ساذجاً.. بل كان يعرف ضعف الشيوعيين العرافيين والحاحهم لتأليف جبهة وطنية، فضرب على الوتر الحساس وكان يريد أن يسد باب الطلب بوجهي مقدماً. وكانت مخاوف البارزاني من الايغال في التعاون مع الشيوعيين لا تقل عن مخاوف الجادرجي في هذا الشأن فقبل كل شيء لم يكن يريد نمو القوة العسكرية للشيوعيين في كردستان بحيث تصبح منافساً جدياً لقواته كما كان يخشى من ردود فعل تعاونه معنا لدى الامبريالية والرجعية في المنطقة وفي كردستان. كما كان يراعي شروط الهدنة مع الحكومة ولذلك وضع حدا لنمو قواتنا المسلحة لاتتعداه نحو (٥٠٠) بندقية.

أما الاحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية ولاسيما الاتحاد السوفيتي فلم تكن مع الكفاح المسلح بوجه عام ولم تعط السلاح الا للحكومات للدفاع عن النفس باستثناء منظمة التحرير الفلسطينية التي تلقت جميع انواع المساعدات من الدول الاشتراكية. وكانت الصين الشعبية تزود حركات الانصار بالسلاح في بلدان جنوبي شرق آسيا على شرط الانحياز ضد الاتحاد السوفيتي.

وفي حين قدس العمل الحاسم الجيش وجعلوه صانع «جميع الامجاد الوطنية» فان باقر ابراهيم وكاظم الصفار وجاسم الحلواني قد عارضوا العمل الحاسم بالحرب الاهلية وجعلوا الجيش صفراً إلى اليسار. وكأن حرباً أهلية تستحق هذا الاسم يمكن شنها من دون زج قسم من الجيش ضد قسمه الاخر وبالطبع لا العمل الحاسم ولا الحرب الاهلية يمكن أن تستحضر بناء على توصية أو بمجرد الرغبة الذاتية. واعتبر انصار العمل الحاسم الحرب الاهلية مناورة لاحباط العمل الحاسم. ليس إلا

77

تقييم سياسة الحزب

لم يكن الجدل في التاكتيك الجانب الرئيس في الجدال الحزبي الداخلي بل كانت مسألة الموقف من الحكم هي المحور الرئيس للجدال. فالدعوة لاسقاط الحكم العسكري وإقامة حكم ديموقراطي يشترك فيه الحزب الشيوعي بشكل فعال كانت تقترن بالدعوة لتبني أشكال الكفاح المسلح أو العمل الحاسم. وقد وجه الميل اليميني تعبيره المكثف في مقال منير أحمد وهو بهاء الدين نوري، المنشور في مجلة قضايا السلم والاشتراكية عام ١٩٦٤ وفي هذا المقال تنازل عن مساهمة الحزب الشيوعي في الحكم كشرط من شروط انجاز الثورة الوطنية الديموقراطية. وفي كونفرنس عقدته المجلة للاحزاب المشتركة في تحريرها قدمت أنا مداخلة هاجمت فيها الاتجاه الانتهازي الذي يدافع عنه المقال. ولكن رئاسة تحرير المجلة استنجدت بعزيز محمد وكريم احمد فحالا دون نشر مداخلتي. وفيما بعد تنصل جميع اعضاء المكتب السياسى من مسؤولية نشر مقال منير أحمد وعما جاء فيه رغم عرضه عليهم قبل نشره.

وقد أدى تردد اللجنة المركزية في تبني شعار إسقاط الحكم العسكري إلى اضعاف ثقة الشيوعيين بها وإلى البلبلة الفكرية والسياسية فضلاً عن شعور الخيبة والاحباط الذي تركه مرور انقلاب شباط بسهولة نسبية فتشتت القوى السياسية الهائلة التي التفت حول الحزب الشيوعي العراقي خلال المد الثوري العظيم عام ١٩٥٩، وكرد فعل للناصرية التي اقترنت بالحكم العسكري وضد الطموحات الديموقراطية للشعب العراقي، تشكل ميل يساري مغامر بين جمهرة من الشيوعيين متمركزا في منظمة بغداد وهي اقوى منظمات الحزب الشيوعي. وقد تزعم هذا الميل كوادر متوسطة طموحة وتزعمهم فيما بعد عزيز الحاج. وكان هذا إمعة طوال حياته الحزبية لا رأي له غير رأي رؤوسائه على اختلاف ميولهم من سالم عبيد النعمان المتحفظ إلى حميد عثمان المغامر. وفي براغ هيمن عليه ماجد عبد الرضا ومهدي الحافظ ونفخا فيه روح التمرد وأصبح معارضاً لسياسة الحزب. وبعد أن عاد إلى العراق تحت ضغط نوري عبد الرزاق انضم إلى التكتل اليساري المغامر في منظمة بغداد وتزعمه عام ١٩٦٧

وقد بلغني وانا في براغ أنٍ الحزبٍ يستعد لعقد مؤتمر الحزب الثاني وأن علي أن أهيئ بعض الوثائق. وقد هيأت فعلا تقييما انتقاديا لسياسة الحزب منذ الكونفرنس الثاني في ايلول ١٩٥٦ وحتى اجتماع اللجنة المركزية في آب /١٩٦٤ وكان محور التقييم ضعف اهتمام الحزب بقضية السلطة السياسية في الدولة وتضييع الفرص التاريخية التي سنحت له. ومن الاخطاء التي ارتكبتها انني كلفت عزيز الحاج بان يضيف اليه اضافات حشوية نظرية .فكتب حواشي ليست جوهرية حذفناها فيما بعد أنا وباقر ابراهيم عندما هيأنا التقييم للمناقشة في الكونفرنس الحزبي الثالث عام ١٩٦٧.

وكتب عامر عبد الله ردا على التقييم الذي كتبته لا يقل عنه حدة أن لم يكن أحد منه ومضاد له في الاتجاه على طول الخط ولم يأبه التكتل اليساري في بغداد بأي تقييم واعتبره محاولة لتضليل الحزب.

وتبنى الكونفرنس الحزبي الثالث التقييم الذي اعددته واعتبره وثيقة حزبية داخلية لتثقيف اعضاء الحزب وليس للنشر العلني ولذا تم نشره في «مناضل الحزب» النشرة الخاصة باعضاء الحزب وليس في طريق الشعب جريدة الحزب المركزية التي يقرأها الجميع.

كان الصراع الفكري الداخلي في الحزب قاسياً جدا ومتوتراً لا يساعد على التفكير الهادئ المتروي بالرغم من أن المضمون يستحق المناقشة ولذا فان المؤتمر الوطني الثاني للحزب عام ١٩٧٠ اعتبر وثيقة التقييم مستنداً من المستندات لكتابة تاريخ الحزب.

والآن بعد الازمة العميقة التي أصابت الحركة الشيوعية العالمية يجب دراسة الوثائق الحزبية جميعا بروح انتقادية للفكرة والاسلوب جميعاً كما تقتضي الماركسية. أن الميزة الايجابية للتقييم الانف الذكر هو أنه أدخل في حياة الحزب العراقي روحاً انتقادية، أي الانتقاد الذاتي بدلاً من الاكتفاء بالتمجيد الذاتي الذي يرد دائماً تحت عنوان: ولا تزال سياستنا محتفظة بكامل صحتها وصوابها! ! أن السكوت عن الاخطاء يعني إضاعة التجربة التي كلفت الحزب والشعب غالياً وهو ليس مقياس جدية الحزب، أي حزب سياسي كان.

ومنذ ذلك الحين لم يوجد في العراق حزب سياسي آخر تعامل مع اخطائه وخيباته بنفس الجدية التي تعامل بها الحزب الشيوعي، بل تجاوز الحد أحياناً. فالنقد والنقد الذاتي الشيوعي لا يعني مطلقاً تسويد صفحة الماضي بالكامل وليس في العراق حزب سياسي بز الحزب الشيوعي العراقي بتضحياته رغم جميع اخطائه ورغم أنه لم يتولى السلطة السياسية في الدولة يوما من الايام.

78

في ضيافة الرفاق السوريين

أدى طول الاقامة في الغربة ولا سيما في الدول الاشتراكية، إلى هبوط الثقة بالشعب العراقي لدى العديد من المناضلين جراء البعد عن الجماهير في الوطن .ولم تعجبهم الاوضاع حتى في البلدان الاشتراكية لدى مقارنتهم إياها بالمجتمع الاستهلاكي الغربي الثري الذي يبتز العالم الثالث وبالعكس كان وضع الطلاب في أوربا الغربية حيث كانوا يصطدمون بسلبيات الرأسمالية فتتعزز ثوريتهم. وكان العائدون من البلدان الاشتراكية إلى الوطن يفيقون إلى ما فقدوه من نعم الاشتراكية بعد أن يصطدموا بواقع الحياة في بلادهم إذ تتوإلى عليهم التكاليف الباهضة لايجارات الدور والماء والكهرباء والعلاج و..الخ

وفي عام ١٩٦٦ استدعاني الحزب للعودة إلى الوطن مع رفاق آخرين. فتردد بعضهم وبرروا مخاوفهم من الجازفة بعدم الثقة بقيادة الحزب في الوطن التي لم يكونوا يعرفون شيئاً عنها.

ودعت سعاد ويحيى، لتكمل هي دراستها الجامعية في موسكو، وغادرت براغ إلى دمشق حيث حللت ضيفاً على الرفاق السوريين ليدبروا لي أمر الرحيل إلى العراق عن طريق كردستان والتقيت هناك الشيخ علي البرزنجي وقد انتدبه بهاء الدين نوري للحصول على السلاح من سوريا. وقد فشلت مهمته بالطبع لان البعثيين السوريين لم يكن من مصلحتهم تسليح الشيوعيين العراقيين باي حال من الاحوال. كما نصحنا خالد بكداش. ثم التحق بنا قادما من موسكو كريم احمد عضو اللجنة المركزية، في طريق عودته إلى الوطن. وقد اكرم الرفاق السوريون ضيافتنا أيما كرم لاكثر من شهرين وقد اربى عددنا على السبعة، وتمهلوا كثيراً في تدبير سفرنا لئلا يتعرض أحدنا لمكروه.

وانتهزنا فرصة وجودنا في دمشق لنشتري بما معنا من نقود بضع نواظير ميدان ومسدسات وتسمى «جوارده خور» بالكردية وتعني ذات الطلقات الاربعة عشر وكانت هذه أثمن الهدايا التي يمكن حملها لرفاقنا في كردستان. وقد أدهشنا أن بيع السلاح في دمشق لا يحتاج إلى اذن رسمي خلافاً لما عليه الحال في العراق. ومع ذلك حذرنا الرفاق السوريون من التمادي في هذا الشأن.

وقد هيأ الرفاق السوريون لدى سفرنا هيئة مرافقة من قادة الحزب إمعاناً منهم في تكريمنا، وعلى رأسها يوسف فيصل، نائب الامين العام الذي رافقنا إلى دير الزور حيث سلمنا إلى عهدة رمو شيخو سكرتير منظمة الحزب في الجزيرة الفراتية العليا. وقد تطوع بنقلنا بسيارته من دمشق إلى الفرات الدكتور نبيه رشيدات الحاضر في الملمات وقاضي الحاجات طبيب النفوس والابدان. واستضافنا عمر السباعي في حلب الشهباء وفي دير الزور تناولنا غداء فاخراً من بزّ الفرات سيد الاسماك. وعبرنا الفرات على جسر دير الزور إلى الجزيرة موطن الخوارج «الشراة» الذين اشتروا الاخرة بالدنيا والذين طاردوا جيش هارون الرشيد حتى هيت حيث تبارز قائدهم مع قائد الجيش العباسي هازجا:

أنا الوليد بن طريف الشـاري قســورة لا يصطلى بنـاري

ظلمكم أخرجني من داري

وبعد أن قتل في المبارزة تولت القيادة زوجته غزالة ثم انسحبت بجيشها بسلام. ولما عادت إلى الجزيرة هاجت شجونها وانشدت:

أيا شـجر الخـابور مالك مورقـاً	كأنك لم تحزنعلى ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى	ولا المـال إلامن قنـا و سـيوف
ولا الذخـر إلا كل جرداء شـطبة	وكل رقيـق الشـفرتين خفيـف
فقدنـاك فقـدان الربيـع فليتنـا	فدينـاك من أبطالنـا بألـوف

وصلنا القامشلي وأنزلنا رمو شيخو ضيوفا لدى عائلـة حزبيـة أرمنيـة أطعمتنـا الخـبز الارمـني الرائع «الاواشي» وكل ما لذ وطـاب. وسـهرت على خدمتنـا عـدة أيـام بـلا كلـل ولا ملـل حتـى غادرناها عائدين إلى الوطن.

أشترينا بغلين سوريين لتحملنا في جبال كردستان العراق. وفي ظـلام الليـل الدامـس سرينا إلى الحدود السورية العراقية حيث يخرج نهر دجلة الاعلى من تركيا ليفصل سوريا عن العراق لمسافة قصيرة وقد رتب رمو شيخو كل شيء لعبورنا بسلام. ودجلة هنا نهر جبلي ضحـل ولكنـه عنيـف شديد الجريان و لم تكن عليه عهدذاك أي وسيلة للعبور. ولكن عبقرية مهربي الاغنام مـن العـراق إلى سوريا ابتدعت وسيلة غاية في البساطة و آية في القدرة على عبور التيـار الجـارف: وهـي إطـار مطاط «جوب» من أضخم قياس يؤطر لوح خشبي يتسـع لاربعـين غنمـة مرصوفـة رصفـا محتشـدة بعضها على بعض كعلب ساردين وعلى مركب الاغنام هذا أجلسونا نحن وحقائبنا. وجلس رفيقان متدربان على التجذيف كل منهما في جانب من العبارة التي ذكرتني بالقفة العراقيـة مـع الفـارق. أخترقنا جبهة التيار العاتي وفي الظلام الدامس عبرنا من سوريا إلى العراق في دقـائق. كـان الظـلام شرطا لسلامة العبور توقيا لاعين الرقباء إذ كانت سرية من الجيش العراقي في جـوار «ديـره بـون» تراقب الحدود المائية في مثلث الحدود العراقية السورية التركية. عبرنـا بسـلام وجلسـنا القرفصـاء بعد أن ارتدينا سراويلنا واحذيتنا ننتظر الوجبة الثانية من رفاقنا عبر النهر السرمدي. بتنـا ليلتنـا في ديره بون في دار إليـا كريـم العين لنسـتانف السـري في الليلـة التاليـة لان السـير ليـلا آمـن في كردستان أيضاً كما في الفرات الاوسط.

كان معظم الرفاق في قافلتنا يمشي على الاقدام لعدم وجود ما يكفي مـن المطايـا ولانهـم شـباب قادرين على المشي في المسالك الجبلية الوعرة. وركبنا نحن الشيوخ بغالنا وكان «الاسترسوار» يعني فارس البغال المغوار بيننا بلا منازع والذي لا يشق له غبار كريم احمد. ولم يكن مـن السـهل علـى ركوب البغال في الجبال وأنا ابن الخامسة والخمسين لولا أن أحد الرفاق «وردة» الالقوشي تعهدني برعايته بامر من توما توماس الذي دخلنا مقر جمهوريته البهدنانية الفاضلـة في اتـروش وغدونـا في حماه و قاد ركبنا إلى برسيرين في ما وراء بهدنان.

عجيب للبغل كيف يشق طريقه على شفا جرف هار. كنت وأنا على ظهـره ليـلاً لا أدري أيـة هوة سحيقة سنهوي اليها نحن الاثنين معا فيما لو زل حافره. وكنت نهاراً اراقـب خطواتـه علـى الممرات الحرجة وكيف يفكر ملياً حتى لاتخيل إنه يضع حافره على صدغه كما يفعل ابـن حـواء عندما يلتبس عليه الامر قبل أن يضع حافره في موضع مكين بين الصخور. وقد خيل الي أيضاً انـه كاتب متروي يتامل ملياً وقلمه بيده ليضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب. لقد اخترعته عبقريـة الانسان كأداة فعالة لقهر الجبال فهو أقوى من خاله الحصان وأكثر حكمة من أبيـه الحمـار، انـه

قاهر الجبال! وحينما يغضب من سؤ معاملته ويخرج عن طوره لا يتوانى عن الانتحار ملقيا بنفسه وبراكبه من شاهق إلى هوة سحيقة منهيا شقاءه ومنتقما من ظالمه كما يفعل العبد الثائر بمالكه. وليت جميع العبيد أباة كالبغال فمنهم من يفضل حياة الهوان على مغبة الاحتجاج الحاسم.

وفي طريقنا إلى اعالي بهدنان رأينا غابة فيها من أشجار الارز أضعاف ما يوجد منها في جبال لبنان ومع ذلك لا يسمي أهلها الكرد بلدهم ببلد الارز! ورأينا شلالات رائعة جبارة تصب في الزاب الكبير. وما هذا النهر الا رافداً من روافد دجلة وأي رافد هو! كان الاحرى أن يكون دجلة الاعلا رافدا له، فهو عندما يلتقيه فقط يغدو دجلة سلطاناً جباراً قهاراً مروعاً.

لقد عانت البيئة في كردستان الويلات كالناس من الحروب فقد أبيدت الغابات ولم يبق إلا النادر من الحيوانات الوحشية. وحتى الاسماك تعرضت للابادة باستعمال القنابل اليدوية للصيد.

وفي بهدنان اجتزنا سهلا مجدباً يسميه رفاقنا صحراء الربع الخالي، وهو دشت الزيباريين. كان النزول اليه على سلالم طبيعية نزولاً سهلا ميسورا فارتجلت لامشي وارتاح من الركوب الطويل المتعب. فلاحقني الشيخ علي البرزنجي والح علي أيما إلحاح بأن أعود واركب مطيتي. واضطررت فعلا إلى الركوب ثانية وبعد مشوار قصير هبط البغل إلى دركة واطئة فانخرطت من فوق رأسه لارتطم بالصخور. ونهضت لامشي من جديد وسط الصمت هذه المرة. وفي الايام التالية اصطبغ جلدي ببقع داكنة تشير إلى الكدمات والرضوض التي منيت بها من آثار السقوط من على ظهر البغل ورأسه على سلالم دشت الزيباريين. وفي الدشت أنخنا مطينا واسترحنا وارحنا البغال. و كان ربعنا الخالي من الناس ملجئا للقبج وهو شبيه بالدراج أو الحجل لولا أن القبج يتميز بغنائه الجميل الشجي. وكنا معنيين على الاخص بلحمه اللذيذ. وقد اصطاد لنا توما توماس بعضه ببندقيته لنتذوقه مشويا على طريقة الصيادين فوجدناه الذ من لحم الدجاج. السبب هو انه لم يكن بضاعة نقدية مسجاة بل غنيمة حرب أومقايضة بدلا من طلقة نارية. والصيادون الكرد يصطادون قبجا ويربونه حتى يتعلم الغناء جيدا ويستخدمونه شركاً لاستهواء بني جنسه واستدراجها إلى الفخ بغنائه المتقن وهو بالنكليزية «DECOY» ونسيت اسمه بالكردية. وفي السياسة أيضاً يستخدم الحكام الدهاة قبجاً بشرياً يستهوي بغنائه الماكر الساسة السذج من صفوف المعارضة ليقعوا في الشرك.

امضينا فترة راحة طيبة لا تنسى مستمتعين بشمس الزيباريين الخريفية الدافئة مشنفين آذاننا باغاني قبجها الصداحة. وغادرنا هذا «الربع الخالي» على مضض فقد حان وقت الرحيل.

وعلى طول طريقنا بمحاذات الحدود العراقية التركية التي تفصل كردستان الشمالية عن الجنوبية. كنا نلاقي فلاحين فقراء فتكت بهم الملاريا وسوء التغذية وحتى الجوع. كانوا يظنوننا اطباء وقد جئنا لاسعافهم فكانوا يلتمسون الكنين، علاج الملاريا. كانت خمس سنوات من الحرب الاهلية والحصار قد هدت قواهم وقد خيم عليهم البؤس والفاقة ولم يروا طبيباً خلالها. كان يوجد مضمد واحد في جميع أرجاء بهدينان من سوريا إلى ايران، منحته الجماهير لقب دكتور من عندها تعويضاً عن دكتور كامل وهذه حيلة انسانية قديمة، إذ يحاول الناس تغيير كنه الاشياء بتغيير اسمائها كما لاحظ ماركس. ورغم الفقر المدقع والمرض كان المسافر يستطيع أن يرى نماذج اصيلة من الجمال الأوربي بين البهدينانيات على طول الطريق.

وصلنا بالك على الزاب الكبير منهوكي القوى ووجدنا سقفاً نلوذ به ثلاثة أيام متتالية بلياليها مستسلمين لنوم عميق. وبعد أن استجمعنا قوانا واصلنا السري منذ الهزيع الاول من الليل. وأخيرا وصلنا دركله فالقينا عصا الترحال وأنخنا مطايانا حيث كان مقر بهاء الدين نوري قائد أنصارنا الاعلى وسكرتير فرع الحزب الشيوعي في كردستان. فرحب بنا وفيما بعد أشعرنا بعدم ارتياحه من

مجيئنا. لأن مجئ قافلتنا أثر موجة من الاشاعات في ساحة البيشمركة بأننا جئنا مثقلين بالاسلحة والمساعدات من سوريا والحال لم يكن معنا إلا المسدسات والنواظير التي لا يزيد عددها على عدد اصابع اليد الواحدة. وفي الحقيقة كان بهاء الدين ساخطاً لأننا جئنا خالي الوفاض ولاننا احبطنا مهمة الشيخ علي حسب ظنه.

كانت تلك الفترة، فترة هدنة بين البارزاني وحكومة عبد الرحمن عارف بعد أن فشلت الحملة العسكرية التي شنها النظام في ربيع ١٩٦٦ وقد التقيت هناك بضباط عرب تركوا الجيش بعد كارثة ٨/شباط/١٩٦٣ والتحقوا بقوات الانصار وتعرفت هناك على (الرئيس) الرائد كمال والملازم خضر والملازم احمد الجبوري. وحدثوني عن معركة برسرين. وكيف استطاعت سرية مؤلفة من (٦٠) نصيرا أن تهزم على جبل برسرين فوجاً من أفواج الجيش المدجج بالسلاح، كان متحصننا في الربيئات الحجرية، فعاد القهقري إلى معسكر ديانا في جوار راوندوز. فاستبدت الحماسة بسرية الانصار وراحت تطارد الفوج المهزوم بلا مبالاة معرضة نفسها لخطر الابادة بنيران المعسكر، وبالكاد استطاع الضباط كبح السرية وايقافها بعد أن استشهد عريفها الكردي الذي كان يتقدم الجميع على رأس النفيضة. وأخذ الجنود المهزومون معهم بنادقهم فقط وتركوا الاسلحة الباقية. ولكن سرية الانصار لم تستطع الاحتفاظ بالغنائم الحربية فان قيادة البيشمركة التابعة للبارزاني صادرتها.

كان الرئيس كمال قائدا محنكاً بامكانه أن يقود بنجاح فرقة كاملة من الجيش ولكن الامكانات المتاحة للانصار كانت محدودة جداً بحيث لا تفسح في المجال لابراز مواهب ضباطنا والملازم خضر ضابط ذكي ومبادر في المعارك ودبلوماسي ماهر. كسب حضوة لدى البارزاني. والملازم أحمد الجبوري ضابط ركن مدقق ومدرب طويل النفس ومنظم لا يهمل التفاصيل ومتواضع جدا.

وقد غنم رفاقنا اجهزة راديو سيارة للاتصال من قريب على الماشي (ووكي تووكي) وكانوا يستخدمونها في فترات الهدنة للتدخل في مخابرات ضباط حامية راوندوز ولالقاء خطب سياسية عليهم فيربكونهم. كانت تلك الاجهزة سلاحاً سياسياً فعالاً

وقد نسيت أن أحدثكم عن مصير البغال السورية التي جئنا بها إلى دركله. لقد اطلقها الرفاق لترعى في جبل برسرين دون رعاية احد فعثر عليها فارس آغا الزيباري خال الملا فصطفى البارزاني. فلعن الشيوعيين الذين يهملون العجماوات التي ليس لها لسان تتشكى به إلى خالقها من جور الانسان وعقاباً لهم على هذا الاهمال قرر مصادرتها على الفور والحاقها باصطبله الضخم المحتشد بالدواب المصادرة كعقاب عادل لاصحابها الذين أهملوها ولن يعيدها لاصحابها باي حال من الاحوال.

ولما حان الرحيل إلى بغداد جاءني الملازم أحمد الجبوري بفرسه الاصيلة المطهمة الوديعة لاركبها في مسيرتنا نحو الجنوب من دركلة إلى معسكر جوار رانية وسد دوكان. وكان طريقنا جبلياً أيضاً سوى انه أقل وعورة من طريق بهدينان الطويل المضني. والاروع في نفس الوقت. ومكثت أياماً في معسكر الملازم أحمد ثم غادرته إلى بغداد عن طريق كركوك.

وهكذا رأيت كردستان لاول مرة في حياتي لاكسائح ومصطاف، يمضي إجازته بل كشيوعي عربي آمن منذ اكثر من ثلاثين عاما بحق الشعب الكردي في تقرير مصيره بنفسه، وبالاخوة العربية الكردية. زرت كردستان لا بالطائرة ولا بالسيارة السياحية على طرق ممهدة بل على ظهر الدواب عبر الطرق والمسالك الجبلية الوعرة التي لم يكن عبورها أيسر ولا آمن من طرق الجنوب إلى الخارج أو من الخارج.

79

التطير

في شباط ١٩٦٧ انعقد اجتماع اللجنة المركزية لحزبنا وكـان أول اجتماع أحضره خـلال فـترة خمس سنوات منذ تنحيتي من عضويتها. وقـد انتخبـت عضـوا في المكتـب السياسـي، في اجتمـاع السنة الماضية بغيابي. وقد ساهمت في اتخـاذ تـاكتيك الكفاح المسلح المتـوازن الـذي لاينفـي دور الجيش ولا دور الجماهير غير المسلحة ونضالها العنفـي وغـير العنفـي جنبـا إلى جنـب مـع كفـاح القـوات المسـلحة ولا سـيما الجيـش خلافـاً للخطتـين وحيدتـي الجـانب اللتـين طرحهمـا ميـلان متعارضان في اللجنة المركزية .وقد اكدت اللجنة المركزية على ضرورة التنظيم الحزبي والدعايـة في القوات المسلحة ونفت النظرة المتحيزة إلى تآليه الجيش باعتباره صانع «جميـع الامجـاد الوطنيـة» والنظرة الاخرى التي تعتبره مجرد اداة قمع بيد الطبقة الحاكمة. ومع ذلك بقيت الجذور الفكريـة للنزعتين المتحيزتين راسخة في أذهان الشيوعيين العراقيين.

وفي هذا الاجتماع ارتكبنا خطأً فاحشاً اذ انتخبنا عزيز الحاج عضواً في المكتـب السياسـي رغـم تطيره وتردده في العودة للوطن حينما دعاه الحزب للعـودة وقـد عـزّ عليـه أن يغـادر رغـد العيـش الميسور في براغ على هواه وان يعود إلى بغداد ليتحمل مصاعب الحياة السرية. ولم يعد الا بعـد أن الح عليه نوري عبد الرزاق السكرتير العام لاتحاد الطلبة العالمي، الـذي نصحـه بـان هـذه فرصتـه الاخيرة ليلعب دوره المعروف والا فان الامتناع عن العودة سوف يعني نهاية حياته السياسية. وقد عاد أخيراً ليلعب دوره في التيار المعارض في منظمة بغداد الحزبية وقد اشغل مركزه الحزبي كعضو في المكتب السياسي ومشرف على منظمة بغداد ليشق المنظمة إلى شـطرين ويـترأس الشـق المتياسـر. وغدا العداء للحزب المحتوى الرئيس لنشاطه. وألف فيما بعـد مـا اسمـاه «بالقيـادة المركزيـة» مـن محبي الزعامة الفاشلين، والذين أصبحوا خدماً للنظام الذي برروا شق الحـزب لانـه رفـض حمـل السلاح ضده، النظام الذي أعدم من رفض خدمته منهم.

وفيما بعد عرض عزيز محمد على المكتب السياسي قراره بالرحيل إلى موسـكو عـوداً علـى بـدء وكلفني بإدارة المركز الحزبي في غيابه .فاقترحت عليه أن يدع اللجنة المركزيـة تختـار نائبـه كمـا فعل حسين الرضي لدى سفره إلى موسكو وقد رشحني وانتخبت بـالتصويت السـري. ولكـن عزيـز محمد استغنى عن هذا التقليد الديموقراطي وقال لا حاجـة لذلـك فهـو امـر مفـروغ منـه. وسـكت سكوت الرضى مبررا لنفسي هذا الخطأ وقلت لهـا لربمـا استشـارهم واحـدا واحـدا كعادتـه. وقـد تحملت المسؤولية في وقت حرج سواء بالنسبة للوضع السياسي في العراق أو في البلاد العربيـة أو في قيادة الحزب ومنظمة بغداد. ولم تعد اللجنة المركزية انتخاب أربعـة لعضويـة المكتـب السياسـي: بهاء الدين نوري وعامر عبد الله، وباقر ابراهيم، وعبد السلام النـاصري. وعـارض عزيـز الحـاج، العضو الجديد في المكتب السياسي بشدة سفر عزيز محمد إلى موسكو ونيابتي عنه، لانه كان يعتقد

أن وجود عزيز محمد يسهل إمرار مخططه للاستيلاء على قيادة الحزب. ووجدت لضرورة استكمال نصاب المركز الحزبي لابد من ثالث على الاقل إلى جانبي وجانب عزيز الحاج، فاستبقيت بهاء الدين نوري بناء على خبرته في الاعمال الروتينية للمركز ولمعادلة الضغط «اليساري» لعزيز الحاج، وأخيرا وليس آخرا، للحفاظ على علاقات الحزب بالبارزاني. فقد استفزه بهاء الدين إلى حد انه قال لي في لقائي إياه في مقره في حاج عمران: ان بهاء الدين ليس ماركسيا بل ماويا! فعلمت أن البارزاني لم يضيع (١٢) سنة من عمره في الاتحاد السوفيتي لاجئا. فقد تعلم على الاقل الاصطلاحات الماركسية والهجاء الشيوعي. ولم اعرف بما استفزه بهاء الدين إلى هذا الحد الا من بهاء نفسه الذي أراد أن «يقشمر» هذا الداهية الكردي كما «قشمر» من قبل المغفل العربي قاسم.. أراد أن يعزل البارزاني سياسياً بدهاء، فعمد إلى طريقة آية في التبسيط جربها قبله ابراهيم احمد وجلال الطالباني، فأسرّ إلى بعض حاشية البارزاني قائلا: أن «الازبني» (السيد) يجب أن يبقى زعيما للامة الكردية ويترفع عن زعامة أي حزب معين، ويبقى فوق الميول والاتجاهات. فلم يعد البارزاني يستطيع أن ينظر إلى بهاء الدين عينا بعين. ولما اكتفى بذلك لولا حرصه على بقاء علاقات معينة مع حزبنا. وبالنسبة لنا كانت المنطقة التي يتحكم فيها البارزاني ملاذا لكوادر حزبنا لانها عصية على الحكومة المركزية مع ضعف قاعدتنا الحزبية فيها. كانت أحلام بهاء الدين في انتزاع زعامة البارزاني ليست قابلة للتحقيق، وتؤدي إلى استفزاز البارزاني وتخريب علاقات حزبنا معه. وقد حاولت مع عزيز محمد لسحب بهاء الدين إلى المركز واستبداله بكريم احمد، ولم أفلح لان عزيز محمد لم يكن مستعدا لكسر خاطر بهاء الدين، وهذا لم يكن مستعدا للعمل كمرؤس. وإذ لم يعد بامكانه الترؤس في بغداد فقد تشبث بالعمل على رأس المنظمة في كردستان حيث يستطيع أن يرسل السفراء إلى الخارج لطلب المعونات العسكرية والدس ضد البارزاني لانتزاع زمام القيادة منه و..الخ من الاحلام.

ولم يكن بهاء فرداً شاذاً أو نسيجاً وحده فقد التقيت في حياتي الحزبية الطويلة عدداً لابأس به من المركب النفسي لبهاء، وهم من أولاد الدلال الاثيرين عند ابائهم الذين ربوهم على حساب اخوتهم ليكونوا أولياء عهد. وقد أفسدهم الدلال، وغرس في أنفسهم انانية مفرطة غير مشروعة مع نرجسية من جميع النواحي نواستخفاف بامكانيات ما عداهم. وطيلة بقائي في دركلة حيث مقر بهاء الدين، ضيفا ثقيلا عليه في طريق عودتي، لم يفاتحني في أية قضية من قضايا الحزب ولم يطلب مني إبداء الرأي في أي شأن من شؤون منظمته الكردستانية. كان يخاف من أن يتعلم شيئاً من الاخرين بطريقة مباشرة وصريحة، بالسؤال والجواب، لئلا يكتشف جهله في أية مسألة ومهما كانت.

كان بهاء الدين يعبر عن سخطه على الاتحاد السوفيتي الذي يبيع طائرات سوخوي للحكومة العراقية فتستخدمها في قصف الثوار الاكراد بقوله آه لو أنهم يعطونا مساعدة بقيمة جناح واحد من أجنحة سوخوي! كان يريد تكوين قوة مسلحة تنافس قوة البارزاني على أرض البارزاني بمساعدة السوفييت، في حين كانوا هم ضد هذا الكفاح المسلح على طول الطريق، كانوا مع الحل السلمي الديموقراطي للقضية الكردية

80

الشيوعيون وحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني

في أيار مايو/١٩٦٤ ظهرت إلى الوجود منظمة التحرير الفلسطينية والمجلس الوطني الفلسطيني، تعبيرا عن طموح الشعب الفلسطيني لإقامة دولته الوطنية المستقلة. بيد أن إسرائيل والدول العربية المعنية لم تسلم إليهم الأرض الفلسطينية التي حددتها للعرب هيئة الأمم المتحدة، ولم تعترف بهما كسلطة سياسية. وكانت استراتيجية المنظمة تحرير كامل التراب الفلسطيني. وقد ألغى الشقيري حكومة عموم فلسطين في غزة كما صرح لنا أبو عمار في دار نديم عبد الصمد عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني واضطلعت منظمة التحرير الفلسطينية بتنظيم المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل.

ومنذ آذار ١٩٦٣ تولى الحكم في سوريا بانقلاب عسكري الجناح اليساري لحزب البعث العربي الاشتراكي. وكان هذا الجناح متمسكا بموقف ميشيل عفلق من القضية الفلسطينية بالرغم من صدور الحكم بالإعدام على مؤسس الحزب ميشيل عفلق نفسه. وكان يمارس القصف المدفعي من الجولان ضد الإسرائيليين بين الفينة والفينة.

وفي ربيع ١٩٦٧ تفاقم الوضع في المنطقة إذ كانت إسرائيل تستعد لشن الحرب على سوريا لاقتطاع هضبة الجولان .وفي هذا الجو المكهرب، عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي اجتماعها في ٢٢/ايار/١٩٦٧ كرسته لدراسة الوضع في المنطقة العربية و أصدرت بيانا جاء فيه: «إن الوضع في المشرق العربي يتأزم جراء التحرشات الإسرائيلية المدعومة من المستعمرين الأمريكان والإنكليز وتهديداتهم الوقحة وتحشدا تهم العسكرية ضد سوريا والجمهورية العربية المتحدة. أعلنت مساندة الحزب الشيوعي العراقي لإجراءات سوريا ومصر من أجل تقوية دفاعاتهما ضد التهديد الاستعماري الإسرائيلي. ويقف الشيوعيون في العراق بعزيمة واستعداد كامل للتضحية لمجابهة أي عدوان يشنه المستعمرون وعملاؤهم الصهاينة على البلدان العربية المتحررة». وطالب البيان «بتعبئة شاملة لجميع قوى التحرر والتقدم ضد خطر العدوان». وأدان البيان موقف الحكومة العراقية لتجميد غالبية الجيش العراقي في محاربة الشعب الكردي في وقت تعلن فيه إسرائيل التعبئة العامة للبدء بالعدوان.

كان الاتحاد السوفيتي قد حذر القادة العرب من الاستعدادات الحربية التي تقوم بها إسرائيل لمهاجمة سوريا واقتطاع الجولان. ولم تبق تلك الاستعدادات سرا. وكانت سياسة الاتحاد السوفيتي الثابتة، الحيلولة دون نشوب الحروب وليس التشجيع على اندلاعها بل إطفاء جذوة كل حرب مشتعلة. وفي لقاء في بغداد بين وفد حزبنا برئاسة عزيز محمد وبين كوسيغين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي سمعته يقول:

ـ سوف نعمل على إطفاء كل نار يتدفأ بها الإمبرياليون!

ومهما تضاربت الآراء بصدد الموقف من الحروب فهذه هي الحقيقة التي كان على الجميع أخذها بالحسبان مقدما. وبعد حرب ١٩٤٨ في فلسطين كسر الاتحاد السوفيتي احتكار السلاح الذي فرضته الإمبريالية على البلدان ضعيفة التطور والمستقلة حديثا. وأخذت الأسلحة السوفيتية تتدفق على البلدان العربية الراغبة في تسليح نفسها بعد أن حرمتها الدول الإمبريالية من التسلح الضروري للدفاع. وبقدر ما يتعلق الأمر بالناحية العسكرية الفنية لم يكن لإسرائيل تفوق على بلدان المواجهة سوى التدريب والتنظيم العسكري.

وتبقى الناحية السياسية: هل كانت شعوب بلدان المجابهة على استعداد للحرب؟ لم أكن أعرف شيئاً آنذاك عن مزاج الشعب المصري الذي تحمل على الدوام العبء الأكبر من التضحيات في الحروب مع إسرائيل. وقد كنت في صيف ١٩٦٦ في دمشق وذات يوم مساء كنت في مقهى سوق الصالحية وإذا بالمذيع يعلن من الراديو أمراً من القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، الحزب الحاكم، بمنع التجول. ساءلت نفسي: لماذا بأمر حزب الحكومة وليس حكومة الحزب؟ أهما سيان كما هي الحال في دول أوربا الشرقية؟ ولكن هناك يحافظون على الشكليات أما هنا فيبدو أن النظام والحزب مثل انطونيو وكليوباطرا! ولكن لم يكن هذا كل الشيء المهم في تلك الساعة. بل لماذا منع التجول؟ كنت على علم من الرفاق السوريين أن ضابطاً صغيراً اسمه حاطوم قد شق عصا الطاعة على الحكومة واعتقل رئيس الجمهورية نوري الدين الاتاسي في السويداء مركز جبل الدروز (العرب) ومع ذلك: لماذا يمنع التجول في دمشق قلب النظام؟ لماذا لا تدعو جماهير البعث إلى التظاهر احتجاجا على العصاة وتسد الطريق على ذيول العصيان والتمرد بدلا من أن تدعوا الجميع إلى أن يقبعوا في جحورهم؟ لماذا؟ لماذا؟

تركت المقهى في الصالحية وخرجت إلى الشارع المركزي في المدينة الممتد من محطة قطار الحجاز إلى البنك المركزي والذي يسمى في كل بضعة عشر خطوة باسم خاص. سرت باتجاه البنك. كان الناس يعودون إلى بيوتهم على مهل زرافاتا ووحدانا، رغم إيعازات بعض أفراد المقاومة المسلحين بالرشاشات بالإسراع:

ـ آوام! آوام!

كنت أرهف السمع لما عسى أن يقوله الناس عن منع التجول مسرعاً متخطياً جماعة بعد جماعة حتى بلغت شارع بغداد مواصلا المشي مصغيا لأحاديث الناس زهاء ساعة. هل يصدق القارئ أنني طول الوقت لم اسمع حتى كلمة واحدة عن منع التجول بوجه خاص وحتى عن السياسة بوجه عام؟ وان يكن على سبيل التندر كما يفعل الأشقاء المصريون. وتساءلت في نفسي: أحقاً أنا الآن في قلب دمشق، قلب العروبة النابض؟!!

توصلت إلى قناعة واحدة هي أن الشعب السوري الآن مصاب «باللاؤبالية» السياسية. وقلت هذا صراحة لخالد بكداش عندما زرته بعد رفع حضر التجول. واللاؤبالية السياسية أخطر مرض يصيب شعب ولا سيما وان العدو لا يبعد إلا بضع عشرات الكيلومترات عن عاصمته. والحزب الحاكم بالطبع هو المسؤول عن تفشي هذا الداء تحت شعار:

ـ اخلدوا إلى النوم ودعوا القيادة التي كرب موسى لا تنام، تدبر كل شيء!! كفوا عن التفكير ونحن نفكر بالنيابة عنكم! دعوا السياسة للسياسيين المحترفين!

والشعب يعاقب. والشيء السيء في هذا الشأن هو أنه أحياناً يعاقب نفسه فضلاً عن عقابه لزعمائه. وهذا ما جرى في السنة التالية لعصيان حاطوم.

كان الزعماء العرب «المنقذون» طوال هذا القرن يعتقدون أن العناية الإلهية بعثتهم لإنقاذ شعب مغفل استطعم الذل والهوان ولا يريد النهوض من سباته التاريخي .وليس العكس أي إنهم هم نتاج ثانوي لنضال هذا الشعب ونهضته.

ذات مرة تكهرب الجو وصادف عندها التقاء جورج حاوي الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني مع أحد رؤساء دول المجابهة فقال له

ـ لماذا لا تدعوا الجماهير للتظاهر؟ فأجاب الرئيس

ـ وما أهمية ذلك ؟ إننا نستطيع في أي ساعة وبواسطة التلفون تنظيم مظاهرة. ثم ماذا ؟

وكان ادعاء الرئيس هذا صائباً تماماً فان تنظيم المظاهرات أصبح مؤمماً، أي ملك الدولة وتحت إدارة الحزب الحاكم كما هي الصحافة والفنادق من فئة خمس نجمات. وبإشارة تلفونية يمكن إعداد أي فندق في أي لحظة لإقامة أية حفلة وكذلك المظاهرات وحتى المتظاهرون أنفسهم معدون سلفا من فئة معينة من فئات جهاز الدولة وما المظاهرة بالنسبة لهم إلا وقت عمل إضافي (overtime) عليهم ممارسته لدى الطلب في ساعات دوامهم الرسمي أو خارجها ومن بينهم رباعون قادرون على رفع ارزن رئيس مع سيارته على الرؤوس بيد أن هذا ليس نشاطاً جماهيرياً واعياً لأنه ليس حقاً ديموقراطياً مباحاً !المطلوب أن تبادر الجماهير من تلقاء نفسها إلى الإعراب عن الاحتجاج أو الابتهاج إزاء أي حادث أو ظاهرة سواء بالتظاهر أو الاجتماع أو أي شكل من أشكال النضال أو أي عمل من أعمال الإسعاف و الإنقاذ والنجدة. في مثل هذه المبادرات الجماهيرية كان يفكر جورج حاوي وليس على اعتماد الجماهير الكلي على الايعازات الصادرة من أعلى. واستجابة الجماهير لما يتطلبه الوضع لا يتوقف فقط على الديموقراطية أو الحرية السياسية بل يعتمد أيضاً وبالطبع على أن المهمة الملقاة على كاهلها مهمة واقعية ممكنة التحقيق في ظل ميزان القوى العالمي والإقليمي والوطني. وقد غدت هذه الشروط مسلمات بديهية.

هكذا كان الوضع العام عشية حرب حزيران /١٩٦٧ وبهذا الشأن كان يجب البحث عن الحلقة الاستراتيجية في الوضع، تلك الحلقة التي يمكن عن طريق التشبث بها جر السلسلة بكاملها كما يرى الشيوعيون وإلا بقينا ندور في حلقة مفرغة لا مخرج منها إن لم نضع أنفسنا في وضع أسوأ.

لقد أسدل ستار النسيان على القضية المركزية، قضية الشعب الفلسطيني بالذات أي كيانه الوطني السياسي يعني دولته. فقد حول المتطرفون الأنظار عنها بشعار تحرير كامل التراب الفلسطيني الذي لم تكن موازين القوى تسمح بتحقيقه وتجاهله الآخرون ولم يعد قضية ذات موضوع ما دامت الأجزاء المخصصة للفلسطينيين قد ألحقت بهذه الدولة أو تلك .وقد تحولت القضية أمام أنظار الرأي العام العالمي بمسعى من الصهيونية إلى قضية «نزاع عربي ــ إسرائيلي» بين أمة تبلغ عشرات الملايين تعيش في ساحة تبلغ نحو مرة ونصف المرة من مساحة أوربا وبين مليونين يهودي يعيشون في جزء صغير من هذه المساحة. أما الشعب الفلسطيني الصغير المشرد والذي يعيش في الخيام فقد اختزلت قضيته إلى قضية لاجئين. وكان الحل الواقعي الوحيد إعادة القضية إلى نصابها من نزاع عربي إسرائيلي إلى قضية الشعب الفلسطيني المصيرية، إلى إقامة الدولة الفلسطينية العربية وان يكن في نحو نصف مساحة فلسطين، أي حسب قرار التقسيم للأمم المتحدة عام ١٩٤٧

81

القادة مضربون!!

في بداية حزيران عام ١٩٦٧ انعقد اجتماع الجنة المركزية ولم يحضر بعض الرفاق وبقينا ننتظر بقية الرفاق ليحصل النصاب دون جدوى. وكان هـذا الحـادث فريـد مـن نوعـه في تـاريخ اللجنـة المركزية للحزب الشيوعي العراقي. فقد أضرب عدد من أعضائهـا عـن حضـور الاجتمـاع بمعـاذير واهية شتى، وقد راهنوا على إثبات عجزي عن تسيير شؤون المركز الحزبي في غياب عزيز محمـد .والحال كان أحدهم، عامر عبد الله قد رشحني عام ١٩٦٢ لمركز السكرتير الأول للجنـة المركزيـة بدلا من حسين الرضي. فقرر المجتمعون تعيين يـوم ٩/حزيـران موعـداً لاجتمـاع اللجنـة المركزيـة واستدعاء الأعضاء المضربين إلى الاجتماع لمحاسبتهم وهم: عـامر عبـد الله وثـابت حبيـب العـاني وآرا خاجادور وستار خضير.

كان ذلك الحديث أوائل حزيران ١٩٦٧ والحـرب تطـرق الأبـواب والوقـت في منتهـى الحـرج ويستلزم منا أن نسبق الأحداث بشعاراتنا وتوجيهاتنا.

وفي ٥/حزيران شنت إسرائيل الهجوم على الدول العربية المجـاورة دون سـابق إنـذار. فـأصدر الحـزب الشـيوعي العراقـي في نفـس اليـوم نـداء إلى الشـعب تحـت عنـوان: كـل شـيء إلى الجبهة!

وطالب النداء بتوزيع السلاح على الشعب وفتح مكاتب التطوع وتنظيـم وتدريـب الفصـائل مـن العمال والطلاب والشباب وقطع العلاقات الدبلوماسية مع الدول التي تسـاند العـدوان الإسـرائيلي ومصادرة أسهمها في شركات النفط وتعزيز العلاقات مع الاتحاد السوفيتي الصديق الثابت للشعوب العربية ومع سائر بلدان المنظومة الاشتراكية. ودعا القوى الوطنيـة لتوحيـد صفوفهـا والمسـاهمة في المعركة التي تخوضها الأمة العربية ضد المستعمرين وصنيعتهم إسرائيل. واصـدر المكتـب السياسـي للحزب الشيوعي العراقي توجيهات إلى جميع المنظمـات الحزبيـة تسـتهدف تعبئـة الجماهـير في المعركة ضد العدوان الإسرائيلي ونظم الشيوعيون عشرات المظاهرات وشكل الحـزب فـرق الدعايـة. واستخدمت الحكومة وسـائل القمـع ضد المظـاهرات واكتفـت بإرسـال قـوات رمزيـة إلى الجبهـة وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع أمريكا وبريطانية كما قطعت تصدير النفط لهما. وفي ٩/ حزيران اجتمعت اللجنة المركزية وأثنـاء الاجتمـاع كـانت تتـوارد الأنبـاء عـن الحـرب وتتـوالى الأحـداث التاريخية لتقطع سير الجدل وتطرح مسائل ملحة فجائية من جهـاز الراديـو علـى جـدول العمـل المفتوح. كان ذلك الاجتماع فريداً مـن نوعـه في تـاريخ لجنتنـا المركزيـة وكـان أشـد الأخبـار وقعـاً استقالة الرئيس المصري جمال عبد الناصر ومظاهرات الشعب المصري لدعمه وحملـه علـى سـحب الاستقالة التي كانت بمثابة تقديم الحساب إلى الشعب عن مسؤوليته الشخصية في الكارثة وهو مـا لم يقدم عليه أي مسؤول دولة آخر في تاريخ الأمة العربية

وفي ذلك اليوم التاريخي ناقشت اللجنة المركزية الأزمة على ضوء المستجدات في الوضع التي كانت تتوارد على موجات الراديو وقد طرحت على بساط النقاش مطلب «حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بنفسه على أرضه» باعتبار أن هذا المطلب هو مفتاح الأزمة. لان قضية الشعب الفلسطيني التي هي لب النزاع كانت قد طمست في معمعان «النزاع العربي ــ الإسرائيلي» وابقي الشعب الفلسطيني من دون كيان وطني يجمع شمله ويمثل سيادته الوطنية، وهو ما كانت هيئة الأمم المتحدة قد أقرته في قرار التقسيم دون أن يرى النور. وأراد بعض أعضاء اللجنة المركزية أن يعمق الصيغة أو يجذرها بمطها قليلا بحيث يمكن أن يشمل المطلب كامل التراب الفلسطيني. فاقترح ماجد عبد الرضا إضافة كلمة واحدة فقط في نهاية الصيغة وهي «فلسطين» والحال لم يكن المجتمع الدولي ولا الرأي العام العالمي يقبل بهذا التعديل ومن الناحية العملية لم يكن واقعيا ما دامت إسرائيل محمية أمريكية .ولم يحظ التعديل البارع بموافقة اللجنة المركزية. ولكن عامر عبد الله بعدئذ باعتباره ملحقاً بوفد حزبنا في الاجتماع العالمي للأحزاب الشيوعية عام ١٩٦٩ قدم اقتراحاً بنفس التعديل أي إضافة «فلسطين» على «حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بنفسه على أرضه» في إحدى لجان الاجتماع فانتبه الأعضاء الغربيون إلى المقصود من التعديل ورفضوا المطلب والتعديل معاً وخسرنا الخيط والعصفور.

وقد انفض اجتماع اللجنة المركزية في نهاية اليوم المحموم بعد أن أقر البيان الذي حرره عامر عبد الله باعتباره خبير اللجنة المركزية في تحرير الوثائق السياسية وقد تناسينا محاسبة الأعضاء الذين اضربوا عن حضور الاجتماع السابق عشية نكبة حزيران التي وضعت كامل التراب الفلسطيني تحت أقدام المحتلين الصهاينة مع الإضافة شبه جزيرة سيناء المصرية وهضبة الجولان السورية وبقيت قضية الشعب الفلسطيني وكيانه الوطني القضية المركزية ويبقى حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره على أرض وطنه مفتاح القضايا كلها.

وعلى منوال «دفع الله ما كان أعظم! قال أصدقاء الغرب:

ـ البقاء في حياة الأنظمة التقدمية!

والحال أن حرب حزيران تركت شعورا هائلا بالإحباط لدى العرب وزعزعت الأنظمة التقدمية ولا سيما النظام الناصري في مصر والبعث اليساري في سوريا من الأساس وفي إسرائيل تفاقم التيار الشوفيني الصهيوني المتطرف وتراجع دعاة السلام وفي العراق أفسح في المجال لاستيلاء البعث اليميني (صدام ـ البكر)على زمام الحكم بعد إزاحة العسكريين الموالين لعبد الناصر.

كان ذلك رد الفعل المباشر لحرب حزيران تلاه بعد ذلك رد فعل معاكس في بلدان العالم الثالث والقوى المحبة للسلام فقد تنبهت إلى الطبيعة العدوانية لإسرائيل التي رفضت جميع قرارات الأمم المتحدة للانسحاب من الأراضي التي احتلتها في حرب حزيران وبدأت سلسلة طويلة من قطع العلاقات مع إسرائيل ومقاطعتها وأدانتها كدولة عنصرية. وكان الاتحاد السوفيتي على راس الحملة المناوئة للعدوان الإسرائيلي المدعم من أمريكا. وكان من ذيول حرب حزيران إلقاء اللوم في الكارثة العسكرية على السلاح السوفيتي و«تفوق» الأسلحة الأمريكية لدى إسرائيل عليه. ولكن نفس السلاح السوفيتي في الفيتنام تفوق بعد ذلك بقليل على القوات الأمريكية وأسلحتها، أي على أكبر حملة عسكرية فيما وراء البحار في التاريخ العسكري. كانت القيادة المصرية قد حشدت جيشها على الحدود أي على الجبهة الجنوبية وكانت تنتظر هجوم جيش العدوان الإسرائيلي على سوريا أي الجبهة الشمالية لينتقل الجيش المصري إلى الهجوم على مؤخرة الجيش الإسرائيلي. ولكن إسرائيل ركزت هجومها المفاجئ على الجيش المصري باعتباره القسم الرئيس من القوات العربية بعد أن قامت الطائرات الإسرائيلية بتحطيم الطائرات المصرية وهي جاثمة على

الأرض في غارة شنتها على ارتفاع منخفض بحيث لا يكتشفها الرادار. وهذا نفس ما فعله هتلر في مستهل الحرب ضد الاتحاد السوفيتي. وبعد تصفية الحساب مع الجيش المصري واحتلال سيناء حتى القناة، اتجه العدوان الإسرائيلي في اليوم الأخير من الحرب على الجيش السوري واحتل الجولان. وانتبه الرئيس المصري إلى الأخطاء الاستراتيجية بعد فوات الأوان. وقال أن الجيش ما كان ينبغي له أن يحتشد على الحدود بل في مضايق «تيران» في وسط سيناء الملائمة لتحصين الجيش ضد الهجوم الإسرائيلي بدلاً من بقائه مكشوفاً على الحدود، معرضاً للاختراق السريع كما جرى له فعلا.

82

الانشقاق في الحزب

لقد زعزعت الهزيمة العسكرية في حزيران ١٩٦٧ الثقة بالأنظمة القائمة في الأقطار العربية وحركت الجماهير الشعبية ضدها وبدأت منظمات الحزب الشيوعي بالانتعاش وكذل المنظمات الاجتماعية كالحركة الطلابية والنقابية. ونشط التكتل اليساري في منظمة حزبنا في بغداد مطالباً بشن الكفاح المسلح في وقت توقف فيه إطلاق النار بين الحكومة والثورة الكردية. وبدلاً من الإفادة من الفرصة التي أتاحها حكم الجنرال عبد الرحمن عارف الضعيف لإعادة بناء منظمات الحزب بعد ردة شباط ١٩٦٣ تفاقم الصراع داخل الحزب.

لم يكن من أعمال العنف ممكناً سوى الإرهاب الفردي كاغتيال بعض الجواسيس الصغار أو وضع قنبلة هنا وهناك.. والخ من الأعمال التي لا تؤدي إلا إلى الانعزال عن الجماهير ما لم تكن هناك انتفاضة شعبية. وقد رفض البارزاني والبعث السوري تسليحنا كما أسلفت والعامل الأكثر أهمية وحسما وهو أن الجماهير لم تكن بمزاج يتعاطف مع النضال المسلح لا في كردستان العراق ولا في الجنوب وتفاقم الصراع في منظمة بغداد التي انشطرت من القمة إلى القاعدة وكان عزيز الحاج يؤجج الصراع من وراء الكواليس بحكم دور «المشرف» الذي أوكله إليه المكتب السياسي. وقد حضرت جملة اجتماعات ورأيت بعيني تدهور العلاقات بين الرفاق إلى حد العداء المكشوف وكأنهم من أعضاء حزبين متناحرين وليس أعضاء حزب شيوعي واحد اجتازوا سوية المحن والشدائد والانتصارات والاخفاقات. كانت مأساة مروعة! غدا عزيز الحاج بطل الكفاح المسلح ولا عجب فقد أسكروا الفأر فأشهرت سلاحها على القط! كان في الحقيقة يعمل على هدم الحزب من الداخل كما برهن عمليا بعد ذلك بسنة واحدة فقط. كان يخرب الحزب كفارة وأية فأرة!

عملت على تهدئة الصراع الداخلي وتنظيمه لا لإلغائه وكان محالاً ودعوتهم لحل الخلافات عن طريق المؤتمر وهو أعلى سلطة في الحزب. وهو سلطة ديموقراطية ينتخبها أعضاء الحزب. وهو الذي يقرر مصائر الحزب وسياسته وأشكال نضاله. وكان جواب أحد أقطابه : حسين جواد الكمر:

ـ ومن الذي سيجمع المؤتمر ؟سيجمعه هؤلاء القادة أنفسهم (يعني اللجنة المركزية) ولن يخرج المؤتمر عن طاعتهم لما لهم من براعة وقدرة على المناورة ..الخ

وكان واضحاً إنهم يخافون المؤتمر خوف الحية من النار. كانوا يخافون حكم أكثرية الكوادر الحزبية، فان أي مؤتمر وطني للحزب الشيوعي يعقد في مثل الظروف التي يعيشها الحزب الشيوعي العراقي لن يكون سوى كوادر الحزب في الغالب الأعم. وعندما تأكدوا أن الحزب كان جاداً في عقد المؤتمر عجلوا في شق الحزب علناً ووضعوا في جدول أعمالهم استخدام العنف المسلح والإرهاب الفردي لا ضد الحكومة بل ضد الحزب وكوادره وقادته.

ذات يوم جاءتني عائدة ياسين و أخبرتني أن الشرطة السرية داهموا بيتها واشهروا السلاح واعتقلوا زوجها بهاء الدين نوري! عجبت للأمر لأن البيت قد استؤجر توا ولم يكن يعرفه سواي أحد غير عزيز الحاج فكيف اكتشفته الشرطة السرية بهذه السرعة. ولم يدر في خلدي أن الشرطة السرية لم تكن سوى عصابة عزيز الحاج المسلحة. ورغم الإشاعات التي تطايرت في تلك الأيام بأن المعارضة «اليسارية» تعد العدة لاعتقال اللجنة المركزية. سمها ما شئت: إفراط في الغفلة أم إفراط في الطيبة فالأمر سيان في السياسة. ولذا بقيت مصدقا أن العصابة كانت شرطة سرية!!

وفي عصر ذلك اليوم جاءني إلى بيتي في حي المعتصم الذي ابتلعه الآن مطار صدام حسين، كل من عزيز الحاج وشقاوته أبو صفدر الذي كان مرافقا لسلام عادل كحماية شخصية وسائق سيارته. وكرد فعل ضد ماضيه كحارس أمين لقادة الحزب تحول إلى شقي منتقم يملأ الحقد صدره. ولم يكن من أعضاء قيادة عزيز الحاج بل مجرد مخلب قط بيده. وهكذا بدلاً من الديموقراطية ومقارعة الحجة بالحجة مع حصومهم السياسيين ولا أقول رفاقهم بالأمس القريب لجأ أبطال الكفاح المسلح إلى استخدام العنف المسلح ضد الشيوعيين. وبدلا من اللجوء إلى المؤتمر لجأوا إلى شق الحزب وأعلنوا أنفسهم «قيادة مركزية» بالضد من اللجنة المركزية. أعود وأقول جاءني عزيز الحاج وأبو صفدر وبسحنه كئيبة منافقة ادعيا إنهما جاءا ليأخذاني إلى بيت آخر آمن. فحملت أوراقي الحزبية وسرت معهما إلى السيارة فوجدت إن السائق هو حسين جواد القمر وكان أحد الذين حضر اجتماع الخمسة والعشرين كادرا في تشرين ١٩٦٥ «للعمل الحاسم» وبعد أن ركبت السيارة بين عزيز الحاج وأبو صفدر كشروا عن أنيابهم. نقلوني إلى بيت القمر وهناك كشفوا أوراقهم. دعوني لاجتماع عقدوه لمناقشتي فرفضت. قالوا:

ـ تعال وتكلم وإن شئت اشتمنا!! قلت:

ـ لن أعطي طابعاً شرعياً لاجتماعكم غير المشروع بحضوري فيه وامتنعت من مناقشتهم وأنا معتقل أو مختطف بين أيديهم مهما حاولوا. وهددني القمر مرتين فقلت له:

لقد حسمت هذا منذ انتمائي للحزب قبل اكثر من ثلاثين عاما وقلت لامي: يمكن أن تريني معلقا بحبل المشنقة في باب المعظم في يوم من الأيام.

وانقطع الكلام بيني وبينهم وكان يتولى الحراسة علي أعضاء قيادتهم المركزية الواحد بعد الآخر.

وبعد أن عرف الحزب باني معتقل في بيت القمر أسرع المنشقون بنقلي إلى بيت آخر وعندما أصبحت في الشارع تخلصت من أيديهم مستعينا بالمارة إذ قلت لهم:

ـ هذا الشقي (وكان حارس عزيز الحاج الشخصي) يريد ابتزازي.

وعدت إلى الحزب بعد أن لجأت إلى بيت أحد أبناء أخت عامر عبد الله.

كانت تجربة أليمة لا تنسى أن اعتقل على يد من كانوا لأكثر من عشرين سنة رفاقاً في النضال، تعرضت وإياهم إلى صنوف المعاناة والمحن واطلاق الرصاص من الطغاة والإضرابات الطويلة عن الطعام في السجون.. وينسون فجأة كل تلك الرفقة النضالية الطويلة ويتحولون إلى مختطفين وسجانين!!

كان زعيمهم عزيز الحاج وقد تجرد حتى من مثل الرجولة دع عنك المبادئ السياسية والإنسانية لكي يقدم على مثل هذه الجريمة بذرائع سياسية باطلة تخلى عنها فيما بعد وسلم زملاءه المنشقين أعضاء مكتبه العسكري سلمهم إلى المشنقة حالما وقع في قبضة السلطات وهو لا يزال في السيارة ليسلم بجلده. وقد حكم عليه أعوانه بالإعدام جزاء خيانته لهم ولكنه لاذ بالحكومة التي أراد «إسقاطها بالكفاح المسلح» وتقبل شاكرا وظيفة حكومية في باريس يتحصن فيها.

وفي ١٧ أيلول /١٩٦٧ أعلنوا بيانهم الانشقاقي ولحسن الحظ كان بهاء قد أفلت من معتقلهم في بيت أم صفدر. والتحق بالحزب وقاد اجتماع اللجنة المركزية الذي انعقد على الفور لمعالجة الانشقاق إذ كان عزيز محمد لا يزال في خارج العراق. ودعا إلى التنديد بالانشقاق بحزم ورفض الرضوخ للمنشقين المطالبين بالاستقالة من اللجنة المركزية. ولم يقف بعض أعضاء اللجنة المركزية مثل هذا الموقف الحازم. وأصدر الاجتماع بياناً حازماً أدان الانشقاق والمنشقين ودعا الرفاق للتخلي عنهم والعودة إلى صفوف الحزب. وقد نشر البيان على الفور وأذيع من إذاعة صوت الشعب العراقي السرية وكان له تأثير فعال على رفاق الحزب وأصدقائه.

وأخذ شقاواة عزيز الحاج يستخدمون العنف المسلح لنهب أدوات عمل الحزب كالمطابع والسيارات.. والخ فلم نجد بداً من مقابلة العنف بالعنف وتصدى لهم بهاء الدين وأوقفهم عند حدهم. وكان رب العائلة الحزبية التي تأوي عزيز الحاج، جلال الدباغ، قد ساير الانشقاق في البداية ثم ندم لما رآه من سلوك عزيز الحاج الشائن فاتصل بالحزب ليسلم عزيز الحاج إليه. ولكننا أوعزنا إليه بإخلاء سبيله في الحال. وبقي عزيز الحاج يواصل نشاطه التخريبي ضد الحزب ويشتمنا بالتعاون مع النظام الحاكم الفاشي.

83

الكونفرنس الحزبي الثالث

كان قد مضى على المؤتمر الوطني الأول للحزب الشيوعي زهاء (٢٢) عاماً وعلى الكونفرنس الحزبي الثاني (١١) عاما. فتقرر عقد الكونفرنس الثالث. وكانت المنظمات الحزبية قد انتخبت (٥٥) مندوبا كامل الصلاحية ومراقبين اثنين لحضوره بالإضافة إلى أعضاء اللجنة المركزية وهم أعضاء طبيعيون في الكونفرنس. وكان هذا التمثيل اكبر تجمع لكوادر الحزب المجربة، منذ المؤتمر الوطني الأول للحزب. ومع ذلك أعطينا هذا المؤتمر اسم الكونفرنس الثالث وهو اسم أكثر تواضعا من المؤتمر الوطني، وذلك مراعاة منا للرفاق الذين انجروا وراء الانشقاقيين لنتيح لهم الفرصة للعودة إلى حزبهم والاشتراك في المؤتمر الوطني التالي. بيد أن هذا التدبير ذهب سدا.

وعاد إلى الوطن أخيراً وبعد انتهاء الأزمة عزيز محمد ليقود الكونفرنس الثالث الذي انعقد في «داربسر» في كردستان بعد الاستئذان من البارزاني. وقد طلبنا من لجنة فرع الحزب في كردستان أن تبني قاعة من الطين تستوعب المؤتمر ولكنهم كانوا أكثر تواضعاً منا ففضلوا انعقاد الكونفرنس في إسطبلات الفلاح الشيوعي علي مولود أحد قادة اتحاد الفلاحين البارزين أيام المد الثوري (١٩٥٨ - ١٩٥٩). وكان مكان الاجتماع صفاً من الحضائر الضيقة وقد فتحت الأبواب بين كل منها والأخرى. وقد نصب المنبر في واحدة منها ولم يكن يرى الخطيب من مستمعيه سوى ما لا يزيد على أصابع يديه. وهم وحدهم كانوا مشاهديه أما بقية المندوبين فكانوا يسمعون صوته دون أن يروه أو يراهم وكأنهم يصغون إلى جهاز الراديو. وكان هذا يتيح لهم فرصة الإفصاح عن ردود الفعل المباشرة المناسبة والتعليقات المتبادلة فيما بينهم بعيداً عن أعين الرقيب أو الخطيب. ومن هذه الأوجه كان الكونفرنس الثالث فرديا في تاريخ المؤتمرات التي عقدها الحزب. والفضل في فرادته هذه يعود إلى لجنة الفرع. وقد شكرهم الكونفرنس جدياً على ما بذلوه من جهود صادقة لتأمين انعقاده واستضافة مندوبيه خلال عشرة أيام من أيام الاجتماع ونحو أسبوع قبلها وبعدها حتى تمت عودة الجميع إلى قواعدهم سالمين.

وقد عرض الكونفرنس تقريران لتقييم سياسة الحزب تقيماً إنتقادياً للفترة بين الكونفرنس الثاني (١٩٥٦) والكونفرنس الثالث (١٩٦٧) وكان الأول التقييم الذي أعددته وشذبته بالاشتراك مع باقر إبراهيم بحذف كل ما كان قد أضافه عزيز الحاج كما سبق ذكره. وبعد مناقشة مستفيضة وإجراء بعض التعديلات اقره الكونفرنس ليصبح مادة للتثقيف ويعرض مرة أخرى على المؤتمر الوطني الثاني. ورفض الكونفرنس التقرير الذي أعده عامر عبد الله الذي جاء ردا على التقييم الأول. وعلى ضوء المناقشة شجب الكونفرنس الانحرافات اليمينية واليسارية على السواء.

وفي التكتيك رفض الكونفرنس تكتيك الانقلاب العسكري على أساس «الكتمان والمباغتة» أي بمعزل عن النشاط الجماهيري واستعدادها للدعم المباشر كما رفض في الوقت نفسه تكتيك «الحرب

الأهلية» الذي يستخف بالجيش ودوره في الحسم. وأوصى بتقوية قوات الأنصار وكسب القوات المسلحة في نفس الوقت مع مواصلة الاهتمام بالنضالات الجماهيرية اليومية المطلبية.

وأدان الكونفرنس انشقاق ١٧/ايلول والزمرة التي شقت الحزب واقترن عملها بأساليب فوضوية ولصوصية وإرهاب فردي ضد رفاق الحزب.

وحلل الكونفرنس الطبيعة البرجوازية الصغيرة القلقة لحزب البعث العربي الاشتراكي وازدواجيتها وما اقترفه هذا الحزب من جرائم ضد الشيوعيين والديموقراطيين في انقلاب ٨ /شباط، وأخذ بعين الاعتبار أيضاً النقد الذاتي الذي مارسه المؤتمر القومي السادس لحزب البعث، وقرر جواز التعاون مع الجناح اليساري لحزب البعث وعدم جواز التعاون مع الجناح اليميني برئاسة (البكر ـ صدام)

وأكد الكونفرنس على الهدف المباشر وهو الحكومة الائتلافية الانتقالية التي تحقق المطالب الملحة ولا سيما الحريات الديموقراطية والتمهيد للهدف الاستراتيجي الثاني أي «الجمهورية الديموقراطية الثورية» بقيادة الطبقة العاملة. وكان هذا التحديد جريا على المخطط الكلاسيكي للثورة الدائمة ومصدر إزعاج للأحزاب الأخرى، ولا سيما للجادرجي.

لقد ساهمت بنشاط في صياغة وثائق الكونفرنس. أدركت الآن فقط أن هذه الصياغات النظرية يجب أن لا توضع في برامج الحزب الشيوعي، فمحلها المناسب في الدراسات النظرية حيث يجب أن يكون الحزب واضحاً كل الوضوح دون أن يخفي أي شيء من مبادئه وان يثقف بها أعضاءه والجمهور بدأب لا بالتلقين بل بالمناقشة والحوار.

وأقر الكونفرنس الخطة السياسية الطموحة لإشاعة الديموقراطية في الثورة الكردية مؤكداً على تعذر حل القضية الكردية من دون إقامة النظام الديموقراطي في العراق. ولا تزال القضية معلقة ومفتاح حلها تحقيق الديموقراطية للعراق بعامة.

وأولى الكونفرنس اهتماماً خاصاً بالقضية الفلسطينية ولاسيما وحرب حزيران لم يمض عليها سوى ستة اشهر. وأكد على حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامة دولته الوطنية المستقلة. وحلل هزيمة حزيران بعجز البرجوازية العربية عن قيادة حركة التحرر الوطني بالمقارنة مع قيادة الثورة الفيتنامية. وأكد ضرورة قيادة الطبقة العاملة للنضال التحرري العربي.

وبصدد الصراع في صفوف الحركة الشيوعية العالمية أعلن الكونفرنس الثالث التضامن مع الحزب الشيوعي السوفيتي ضد قيادة ماوتسي تونك.

ولو حضر المنشقون الكونفرنس لكان النقاش فيه أكثر حيوية وأن يكن أشد صعوبة ولما آل مصيرهم إلى الدمار مما أدى إلى فقدان الحزب لنحو ألف كادر حزبي مجرب دفعة واحدة.

وبناء على اقتراح من قاعة الكونفرنس تقرر تحديد أعضاء اللجنة المركزية بـ(١٣) عضواً عدا الاحتياط وكان الغرض من التحديد إقصاء الأعضاء المغضوب عليهم من جانب جمهرة الحزب لشتى الأسباب ومنها الميول اليمينية. ورشحت هيئة الرئاسة المكونة من عزيز محمد وكريم أحمد ومني، قائمة بثلاث عشر عضواً فقط. فغضب علينا الرفاق الذين أغفلنا ذكرهم إذ كانوا يتوقعون أن تدرج أسماءهم في القائمة ليعتذروا بدورهم هم أنفسهم عن قبول الترشيح. ولهذا استقال أحدهم (صالح دكله) حتى من عضوية الحزب. وانتخبت اللجنة المركزية بالإجماع عزيز محمد كسكرتير أول لها كما انتخبت بالأكثرية أعضاء المكتب السياسي وكنت من بينهم.

كان الكونفرنس الثالث علامة نهوض الحزب الشيوعي العراقي من كبوته واستعادة ثقته بنفسه ورص صفوفه التي بعثرها مؤقتاً الانشقاقيون بنشاطهم الفوضوي وأخذ الحزب يتقوى جماهيرياً

ويوماً بعد يوم بفضل نشاط أعضائه وصواب سياسته في حين سار الانشقاقيون إلى تدمير أنفسهم بأنفسهم بفضل مغامراتهم الانعزالية وخيانة رئيسهم عزيز الحاج وغدره بهم في اللحظة الحرجة.

لقد عانيت عام ١٩٦٧ كثيرا بسبب الصراع الداخلي العنيف حقاً في صفوف الحزب وخرجت منه بعد الكونفرنس بعقد أقل وتجارب أغنى. وكان أثمن ما تعلمته هو ضرورة الصبر في معالجة الخلافات بين المناضلين وأن شر الأخطار على الحزب والحركة الثورية ضيق الصدر السياسي.

84

الناصريون على سدة الحكم

بدأ الحكم العسكري منذ ارتداد عبد الكريم قاسم عن السيرورة الديموقراطية لثورة ١٤/تموز بعد مرور سنة واحدة عليها. وكان من مظاهره العداء للحياة الحزبية ولاسيما العداء للحزب الشيوعي. وقد تحالف العسكريون ضد قاسم لانهم اعتبروه أقل حزماً مما ينبغي في الكفاح ضد الشيوعيين، وضد تطلعات الشعب الكردي إلى إدارة شؤونه بنفسه. فتحالفوا مع حزب البعث تحت تأثير الضباط الشباب من منتسبي هذا الحزب، ثم رفسوه لأنه حاول أن يمارس السلطة بنفسه متجاوزا كبار العسكريين و لأنه أنهى المهمة التي أوكلت إليه وهي الانقضاض على الحزب الشيوعي والحركة الديموقراطية. ولكنهم كانوا يشعرون بالحاجة الماسة إلى حزب سياسي، إلى جهاز سياسي لتكوين سند جماهيري للمؤسسة العسكرية. فالحكم على شعب مسييس كالشعب العراقي لم يكن ممكناً بدون حزب سياسي يتمتع بنفوذ شعبي إلى هذا الحد أو ذاك، وليكن نفوذاً غوغائياً «ديماغوغياً». وحاولوا جر البساط من تحت أقدام حزب البعث بتبني برنامج «عروبي اشتراكي» وفي الذكرى الخامسة لثورة ١٤/تموز أعلنوا تأسيس حزب «الاتحاد الاشتراكي» أسوة بنظيره المصري وتشبهاً بعبد الناصر أي «الاشتراكية العربية» فأمموا جزءاً من الرأسمال الخاص الوطني ليكون جزءاً صغيراً نسبياً من رأسمال الدولة الموجود فعلا منذ العهد الملكي ليغيضوا البرجوازية الوطنية التي استحوذت على مكاسب ثورة ١٤/تموز. وفتحوا أبواب الحزب الجديد للجميع باستثناء الشيوعيين. ولكن هذا الحزب لم يستهو الجماهير ولا منتسبي حزب البعث. أما تشبثه بركاب عبد الناصر فلم يزده شعبية. قبل ثورة ١٤/تموز/١٩٥٨ كان عبد الناصر يتمتع في العراق بشعبية لا تبارى ولا تجارى. كان بطل النضال العربي ضد الإمبريالية. ولكن تحيزه في الصراع الداخلي في العراق بعد الثورة أفقده الكثير من شعبيته .والوحدة الاندماجية من دون ديموقراطية بين مصر وسوريا أفقدت شعار الوحدة العربية الكثير من شعبيته. أما وحدوية البعث العروبية فلم تكن تعني الاستسلام للقيادة المصرية ولا حتى المشاركة معها في قيادة العرب، بل إخضاع العرب من المحيط إلى الخليج إلى القيادة القطرية وليس القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي في القطر المعني في سوريا أو العراق. والتناحر بين بعثيي سوريا والعراق حول هذه النقطة وهو ما يفسر أيضاً انشقاق بعث سوريا عن الوحدة مع مصر عام ١٩٦٢

ومن الأسباب التي أحبطت تطور الحزب الناصري في العراق أي «الاتحاد الاشتراكي» هو أن العسكريين العراقيين من القاسميين والعارفيين لم يكونوا ملمين بقواعد اللعبة الحزبية بل أن قاسم ذهب إلى حد اعتبار الحزبية والأحزاب: رجس من عمل الاستعمار في خطابه في بارحة الأول من أيار/١٩٥٩

وكانت أمام الحزب الناصري في العراق فرصة تاريخية واحدة ليكون حزباً جماهيرياً وهي أن ينفتح على الحزب الشيوعي والأحزاب الديموقراطية الأخرى ولكنه كان يقابل هذا الاحتمال

بسخرية وتعالي أو بالخوف والتردد أو بهما معاً. وقد جرى نقاش حول التعاون مع الحزب الشيوعي بين الناصريين الصادقين ولكنهم لم يجرءوا على اتخاذ القرار! فضيعوا الفرصة التاريخية وتركوا السلطة السياسية للعسكريين المغامرين.

وكان اجتماع أيار /١٩٦٤ لأعضاء اللجنة المركزية في بغداد قد قيم انقلاب ١٨/تشرين الثاني عام ١٩٦٣ ومما جاء فيه «وهكذا فإذا كان انقلاب ٨/شباط تجمعا للقوى السوداء المعادية للشيوعية والحركة الديموقراطية كلها، فان انقلاب ١٨/تشرين الثاني يشير إلى تمزق جبهة أعداء الشيوعية»!

وتحت تأثير الاستياء المتفاقم في صفوف الجيش والشعب قام انقلابيو! ١٨/تشرين الثاني بحل الجهاز التنفيذي لحزب البعث «الحرس القومي» وفي ١٠/شباط ١٩٦٤ أعلنوا إيقاف الحرب ضد الشعب الكردي وعقدوا اتفاقاً أولياً مع ممثلي الحركة القومية الكردية لحل المشكلة سلمياً. وأعادوا الحياة للقانون رقم (٨٠) لسنة ١٩٦١ بشأن تأميم (٩٩,٥٪) من مناطق الامتيازات البترولية للشركات الاحتكارية وصادقوا على قانون تأسيس شركة النفط الوطنية. وهذان مكسبان شعبيان منذ مدة حكم عبد الكريم قاسم. ولكنهم بعد استئناف الحرب ضد الشعب الكردي والأزمة المالية التي نشأت منها راحوا يسعون إلى زيادة الموارد المالية من ريع النفط بفتح ثغرة في قانون التأميم المذكور لصالح استثمار شركات النفط الاحتكارية بحيث أطرتهم التايمس اللندنية في شباط ١٩٦٤ قائلة «لقد قلص قاسم ارض عمليات شركة نفط العراق إلى أقل من واحد بالمائة من منطقة الامتياز. وكان لشركة النفط الوطنية المنوي إقامتها الحق في العمل في كل ما تبقى من البلاد. ولكن الدلائل تشير إلى أن الحكومة الجديدة قررت وضع هذه الفكرة على الرف. إن العلاقات بين الغرب والحكومة الجديدة مشجعة نسبياً وبصورة خاصة تحررت شركات النفط من الخوف اليومي من مطالب قاسم التي لا يمكن إشباعها. وتمت فعلاً تسوية مشكلة ضرائب ميناء البصرة ونزاعات أخرى خلفها الحكم السابق كما أهملت الحملة الموجهة ضد الكويت أيضاً».

تلك هي شهادة حسن السلوك التي قدمتها أم الصحافة الإمبريالية للانقلابيين الجدد!

وقد حذر تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في أيار/١٩٦٤ من هذا الاتجاه نحو الالتفاف على تأميم الامتيازات البترولية.

وانكسرت حدة الإرهاب ضد الجماهير دون أن تختفي وتحقق وضع انسب لنشاط الحركة الوطنية الديموقراطية، إلا أن ثغرات كبرى كانت لا تزال باقية في حياة البلاد السياسية، إذ استمر الحكم الدكتاتوري العسكري في اتباع سياسة مكافحة الشيوعية. واستمر حجز المواطنين في المعتقلات والسجون واستمرت المحاكم العرفية للشيوعيين والديموقراطيين مع تدابير حجز الأموال ضد المعارضين واستمر بقاء آلاف الطلاب والموظفين والعمال المطرودين وسحب الجنسيات وجوازات السفر. وفي نفس الوقت كان يجري العفو عن أعوان نوري السعيد وتعينهم في أخطر مراكز الدولة. فكان هذا الوضع بؤرة جديدة للنشاط الاستعماري في البلاد ووضعاً ملائماً لإجهاض الاتفاق مع القادة الأكراد ومسخ محتوى الحقوق القومية للشعب الكردي وبالتالي لتوتر الجو ثانية في البلاد فشنت السلطة حملة عسكرية في ربيع ١٩٦٦ باءت بالفشل فأوقفت القتال في ٢٩/حزيران/١٩٦٦ وفي تشرين الثاني ١٩٦٦ عقدت السلطة العسكرية مع كبار العسكريين اجتماعا في القصر الجمهوري لمجابهة «اليسار المتطرف» وكان المقصود به الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث. وكان هذا الاجتماع نتيجة لفشل الحملة العسكرية في كردستان وانتعاش الحركة الديموقراطية وفشل الاتحاد الاشتراكي حتى في جمع الأجنحة القومية العربية. وأخذ العسكريون يستخدمون سياسيين من الطراز القديم من أمثال عبد الرحمن البزاز الذي عين رئيسا للوزراء

لتسكين الوضع ولاسترضاء البرجوازية التي أغاضها الناصريون بتأميم مؤسساتها ومصارفها وبذلك تحول العسكريون البونابارتيون من الاعتماد على البرجوازية الصغيرة إلى الاعتماد على البرجوازية. وذلك بعد أن ضعف تأثير الحزب الناصري على الحكومة على اثر الانقلاب الفاشل الذي قام به أبرز أقطابهم عارف عبد الرزاق الذي كان قائدا للقوة الجوية ورئيسا بالوكالة للجمهورية أثناء اجتماع القمة العربية في المغرب. وغياب رئيس الجمهورية عبد السلام عارف. وقد تهكم الناس على قائد الانقلاب الذي فشل في الانقلاب الذي قاده بنفسه ضد نفسه.

وكان الحكم العسكري منذ ارتداد قاسم قد خفض سيرورة الإصلاح الزراعي لاسترضاء الملاكين حتى غدت أبطأ من السلحفاة. فقدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في اجتماعها في نيسان ١٩٦٥ أن تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي يتطلب ربع قرن إذا استمر على نفس الوتيرة. وحتى بعد تنفيذ القانون تماماً تبقى ملايين الدونمات وهي أخصب الأراضي بيد الملاكين الكبار كما ويبقى مئات الألوف من الفلاحين بدون أرض. أدخلت الحكومة العسكرية تعديلات على القانون تبيح تأجير الأراضي للملاكين الكبار بموجب عقود. وفسخت الآلاف من عقود التأجير التي تمت بين إدارة الإصلاح الزراعي والفلاحين وهدمت الشرطة في بعض الأحوال بيوت الفلاحين وقلعت الأشجار التي غرسوها لإعادة الأرض للملاكين وأعادت «للسراكيل» وهم الوسطاء بين الملاكين والفلاحين بعد أن ألغت ثورة ١٤/تموز دورهم وضاعفت حكومة البزاز التعويضات للملاكين إلى ثلاثة أضعافها وزادت في سعر الفائدة عليها وخفضت آجال الدفع من ٤٠ سنة إلى ١٠ سنوات.

85

انتعاش الحركة المطلبية

خلال الحكم العسكري كان الحزب الشيوعي ينظم المقاومة الفلاحية ضد تجاوزات الملاكين وضد التعديلات المجحفة بحق الفلاحين لقانون الاصلاح الزراعي وضد الديون التي يدعيها الملاكون عليهم. وفي بعض الاحوال لجأوا إلى حمل السلاح واطلقوا النار على قلعة أكبر اقطاعي في الحي. وفي مدينة الديوانية قاوموا الشرطة المسلحة وقتلوا (١٢) من افرادها فهرب الاخرون. وانتعشت الحركة العمالية المطلبية وأضرب عمال السكك في ١٩٦٥/١٠/٢٠ منذرين بتجديد الاضراب في ١٩٦٥/١٠/٣٠ ما لم تلب الحكومة مطالبهم وفي مقدمتها زيادة الاجور .فاضطرت الحكومة إلى تلبيتها. وفي ٨ /١١ /١٩٦٦ اضرب ثلاث الاف عامل في معامل شهداء الجيش وحصلوا على جزء من مطالبهم كما اضرب ١٥٠٠ عامل نسيج وحصلوا على بعض حقوقهم وتضامن (١٠) آلاف عامل في ٢٤ معملاً للمشروبا غير الكحولية مع (٧٠) عاملا طوردوا من العمل فاضطرت الشركة إلى الغاء الطرد .ولكن استمرت أوضاع العمال المعاشية تتدهور. فقد اثبتت سجلات الدوائر الصحية أن اكثر من (٩٠٪) من أمراض العمال وأطفالهم ناجم من سوء التغذية. وكان العمال يعانون من انتشار البطالة.

وانتعشت الحركة الطلابية. ونظم الاتحاد العام لطلبة العراق، اضراب كلية الاداب في ١٩٦٦/٢/١٢ احتجاجاً على قرار الحكومة بتعيين خريجيها على الملاك الابتدائي بدلاً من الثانوي واحتجاجاً على اطلاق الحكومة النار على طلاب كلية التربية وجرح عدد من الطلاب. واعلنت جميع الكليات الاضراب العام الذي استمر (١٣) يوماً من ١٤/ ١ /١٩٦٨ وطالب المضربون بمعاقبة المجرمين واطلاق سراح الطلبة المعتقلين وتطهير الجامعة من العناصر المشبوهه والرجعية وسحب قوات الامن والاستخبارات منها. وساندت الجماهير الاضراب ولكن حزب البعث تعاون مع الشرطة والاستخبارات لكسر الاضراب، بقيادة صدام حسين شخصيا.

ورضخت الحكومة عام ١٩٦٧ لمطلب الطلاب باجراء الانتخابات لاتحادهم ففازت بالاكثرية الساحقة قائمة التحالف الشيوعي الديموقراطي (الاتحاد العام لطلبة العراق) فاستصدرت القوى المعادية قراراً من «ديوان التدوين القانوني» بعدم شرعية الانتخابات لانها جرت قبل الموعد المقرر لها ! ! كما أصدر حزب البعث بياناً يشجب فيه فوز القائمة الديموقراطية باعتبارها «دسيسة من دسائس الاستعمار» ! !

وجرت انتخابات نقابة المعلمين في جو إرهابي فقاطع الانتخابات ثلثا المعلمين وصوت للقائمة الفائزة نصف الباقي أي سدس مجموع المعلمين. وفاز المهندسون اليساريون في انتخابات نقابتهم كما فاز المحامون التقدميون على أربعة قوائم منافسة.

كانت هذه الدلائل تشير إلى تصاعد النضال الديموقراطي الجماهيري في اتجاه التغيير بعد أن استفاقت الجماهير من دوخة انقلاب ٨/شباط الفاشي وكانت سياسة الحزب متجهه نحو اسقاط

الحكم العسكري وإقامة حكومة ائتلافية ديموقراطية على أساس الجبهة الوطنية. وكان العسكريون يشعرون بعجزهم ازاء الاحزاب السياسية الجماهيرية. ويبدو انهم كلفوا صديق شنشل بالاتصال بالأحزاب لجس النبض .وطلب اللقاء بنا وقد التقيته في بيت عبد اللطيف الشواف السياسي المستقل وكان معي مهدي الحافظ وكان أحد ممثلي حزبنا في اللقاءات مع الجهات الاخرى. وفي هذا اللقاء أبديت لصديق شنشل استعداد الحزب الشيوعي للمشاركة في حكومة ائتلافية على اساس ديموقراطي وقلت له لسنا مستعدون لان نلعب دور الجندي المجهول. فقال شنشل:

ـ أن العسكريين يخافون منكم، يخافون من أن تستولوا على الحكم فيما لو أطلقوا لكم العنان قلت له

ـ أن اجراء انتخابات عامة حرة هو القول الفصل وسوف نحترم قرار الاكثرية. قال:

ـ الرجعية هي التي سوف تفوز في الانتخابات.

وبذلك عبر عن مخاوف العسكريين من استيلاء الاكثرية الشعبية على الحكم عن طريق الانتخاب العام الحر. أما إبان ثورة ١٤/تموز فكان خوفهم من احتمال فوز الحزب الشيوعي وحلفائه إذ كان يتمتع باوسع نفوذ جماهيري بين جميع الطوائف والقوميات. فقلت لشنشل:

ـ أن المؤسسة العسكرية هي الحاجز بين أكثرية السكان وسدة الحكم ولم يكن للطوائف والقوميات من خلاص سوى عن الطريق الديموقراطي على اساس التحالف بين القوى والاحزاب السياسية المؤمنة بالديموقراطية.

كان هذا اول لقاء سياسي لي مع الزميل شنشل بعد سنوات الدراسة. وكان اللقاء صريحاً بلا لف ولا دوران كما كانت الحال في المدرسة قبل حوالي أربعين سنة. ولعب لطيف الشواف رب البيت دور الملطف لجو المناقشة الحامي، والمساعد على التفاهم وقد اثنى شنشل على رصانة الحزب الشيوعي وقال:

إنه واثق من أنه لو كان الشيوعيون في السلطة لما ارتكبوا تلك «الصبيانية اليسارية» مستخدماً اصطلاح لينين التي ارتكبها القوميون.

وكان في ذهنه اجراءات التأميم التي اجراها الناصريون في ظل الحكم العسكري عام ١٩٦٤ وانتهى اللقاء كما تنتهي عادة لقاءات جس النبض.

وفي شباط ١٩٦٧ عرض الحزب الشيوعي العراقي في جريدته السرية «طريق الشعب» مشروع برنامج للجبهة الوطنية حدد فيه الهدف السياسي المباشر: حكومة ائتلافية تضم كافة الاحزاب السياسية التي يهمها انهاء الدكتاتورية العسكرية البوليسية المتسلطة على البلاد ومن أجل ذلك دعا حزبنا ولايزال يدعو إلى اقامة ائتلاف سياسي للنضال في سبيل أكثر المطالب الآنية الحاحاً والتي تلتقي عندها جميع القوى والاحزاب الديموقراطية ونحن لانكتم على احد بان الحكومة التي تقوم على هذا الاساس ستكون حكومة مؤقتة انتقالية اذ ستتوج اعمالها باجراء انتخابات عامة ديموقراطية للمجلس الوطني التاسيسي الذي يتمتع بكامل السيادة ويختار الحكومة الدستورية ويصوغ الدستور الدائم.

إلى هذا الحد كان كلامنا مفهوماً ومقبولاً من جانب البرجوازية الديموقراطية وعلى رأسها كامل الجادرجي ولكننا لم نقف عند هذا الحد كما يفترض في مشروع برنامج للجبهة. وكنا نعتقد اننا كحزب شيوعي لانستطيع اخفاء هدفنا الاشتراكي بل لابد من تثقيف الجماهير بهذا الهدف منذ الان ولابدلنا من ربط حاضر الحركة بمستقبلها. والمستقبل بالنسبة لنا هو الاشتراكية والطريق إليها ليس طريق الراسمالية فهذا الطريق بعيد وليس محتوما فنحن لانختلف مع البرجوازية في المستقبل

الذي نسعى إليه فقط بل نختلف معها أيضاً في اختيار الطريق المؤدي إلى المستقبل طريق التطور العاجل اللارأسمالي..ومع هذا فهنالك ما يجمع بيننا وبين البرجوازية الديموقراطية. فالديموقراطية نفسها هي ما يجمعنا لمرحلة طويلة رغم خلافاتنا، وهي مرحلة البناء الحضاري التي تقربنا من الاشتراكية ولذلك جاء في مشروع برنامج الجبهة المنشور توضيحا للثورة المقبلة «ان الثورة الوطنية الديموقراطية التي نواجهها هي من غير نمط وطبيعة ثورة ١٤/تموز/١٩٥٨ انها اعمق محتوى ومضمونا ويحقق انتصارها مقدمات الثورة الاشتراكية وهي لن تقف وتراوح بل ستسير قدما نحو الثورة الاشتراكية».

وهذ الاستدراك الاخير هو الذي اثار مخاوف الديموقراطيين بمن فيهم كامل الجادرجي فهم ضد الثورة المستمرة نحو الاشتراكية. ولكن حتى لو صرفنا النظر في برنامجنا عن الهدف الاشتراكي كما كان عليه الميثاق الوطني الذي وضعه فهد فان ذلك لم يكن كافياً لاقناع الديموقراطيين الاخرين بالتحالف معنا بمختلف التبريرات. أن الاحزاب الاخرى لم تكن مستعدة للتحالف مع الحزب الشيوعي الا إذا اضطرتها الظروف اضطرارا ووجدت إن التحالف في مصلحتها تماماً وإنه يؤمن لها الامساك بدفة القيادة للسلطة السياسية على أن يكون الحزب الشيوعي القوة الضاربة في «الشارع» فقط ولن تجري انتخابات عامة مالم تضع المعوقات على كاهل الحزب الشيوعي.

وهكذا تضيع الفرص على الشعب العراقي لتحقيق البديل الديموقراطي بأقل التضحيات وتفسح في المجال لتعاقب الدكتاتوريات..

86

آخر مؤتمر عالمي للحركة الشيوعية

في أوائل شباط /١٩٦٨ رحلنا أنا وعمر على الشيخ لنحضر كممثلين للحزب الشيوعي العراقي الاجتماع التحضيري في بودابست عاصمة المجر للاحزاب الشيوعية لمناقشة جدول عمل المؤتمر العالمي لها الذي عقد عام ١٩٦٩ ولحرماننا من جوازات السفر الشرعية اضطررنا إلى السفر عبر كردستان وسوريا واستغرقت رحلتنا الشتائية عشرة أيام في الطرق الجبلية الوعرة المغطاة بالثلوج. واضطررنا مرة أن نجلس على الجليد ونتزلج كما كنا في طفولتنا نتزلج على الطين اللزج على شواطئ دجلة والفرات. وانحدرنا بسرعة على درب ملتوي كاللولب وشديد الانحدار .إذ كان المشي خطر والركوب أخطر. ولدى صعود اول جبل حيث مقر توماً توماس الذي لم يسعفني هذه المرة بمطية تصعد بي الجبل. فحملت قدمي تسعين كيلوغراماً ونيف و(٥٧) سنة! وبعد أن حرمت في السنة الاخيرة منها حتى من رياضة المشي بسبب التخفي في العمل السري. كان تسلق الجبال بالنسبة لتوما توماس الذي يعتبره أصحابه قديساً لتبتله وعمر على الشيخ من النوافل في حياتهما الجبلية القاسية .وقدٍ تذكرت هذه المسيرة في مؤتمر بودابست عندما رفع المندوب الاسترالي العملاق عقيرته صارخاً:

ـ لقد قطعنا (١٠,٠٠٠) ميل لنحضر هذا المؤتمر!

اجل لقد جاء الرفيق الاسترالي بالطائرة التي توفر كل أسباب الراحة بما فيهاٍ النوم في أقل من يوم واحد، فيا لوعثاء السفر! ! وتحاشينا نحن الاشارة إلى طريق سفرنا حرصاً منا على سرية العمل.

وفي المؤتمر كان امامي على الطاولة عنوان «الحزب الشيوعي العراقي» والاسم المكتوب على جوازي المنتحل «ناجي مهاوي» وعندما رآه المترجم المجري الذكي هتف:

ـ اقسم بالله أن هذا الاسم غير حقيقي!

وجاء خالد بكداش ووقع بصره على الاسم المنتحل فاحتج بشدة قائلا:

ـ عيب عليكم ياناس تخفون أسماءكم الحقيقية، هذا العمل على حساب الحزب. أن الحزب الشيوعي العراقي بحاجة من أجل الدعاية لنفسه إلى أن يكون لديه اسماء معروفة. ورفع اللافتة بكل مودة واوعز إلى المرافق المجري أن يغير الاسم ليحل محله اسمي الصريح.

وقد نشر خالد بكداش مداخلتي في «نضال الشعب» جريدة الحزب الشيوعي السوري الشقيق باسمي الصريح. وقد حاسبني باقر ابراهيم على هذا الافشاء للسر. فتنصلتٍ عن المسؤولية وألقيتها على عاتق خالد بكداش وذكرت تبريراته. إن صيتي كشيوعي كان معروفاً منذ ولادة الحزب وكان تمثيلي للحزب في المؤتمرات الاممية يزيدني شهرة بالطبع وبالمقابل لايضر الحزب أن لم يخدمه.

ومع ذلك نشرت مداخلتي في طريق الشعب بدون اسمي ولم أرشح لعضوية المؤتمر العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد عام ١٩٦٩

وفي الاجتماع القى خالد بكداش مداخلة وقد تضمنت نقداً صريحاً ومباشراً للحزب الشيوعي الروماني. وقد اثار النقد ثائرة الوفد الروماني الذي هدد بالانسحاب من المؤتمر ما لم يعتذر خالد بكداش، ولم يعتذر خالد. وانشغل الاجتماع يوماً بطوله تتابعت فيه الوفود على الالتماس من الوفد الروماني بالاينسحب. ولكن دون جدوى فإن الوفد كان مرتبطاً بخط تلفوني مباشر مع جاوشسكو زعيم الحزب في بخارست وانسحب من الاجتماع فعلا اخر الامر بصورة درامية.

كان النقد والنقد الذاتي الاداة الضرورية لتحسين العمل عند الشيوعيين ومؤلفات ماركس وانجلس ولينين مترعة بالنقد اللاذع الذي لايرحم. وقد تميز النقد البلشفي بصرامته. وكانوا يقاطعون لنين نفسه في الاجتماعات العامة والمؤتمرات فيرد عليهم على الفور ولا يضيق صدره مطلقا وكانت الحركة الشيوعية في فجرها وعنفوانها. وبعد أن اصبحت حركة عالمية جبارة وتحكم ربع المعمورة بدأ ضيق الصدر بالنقد والنقد الذاتي وكأنه احتراب وليس جدالاً وأصبح من يمارسه أما أن يعتبر عدواً أو شاذاً من الشواذ.

فرغت جميع الوفود الاخرى من القاء مداخلاتها وجاء دوري فقال لي كاشتان رئيس الوفد الكندي على سبيل الجناس:

ـ صاحب الكلمة الاخيرة له الكلمة الاخيرة!

القيت مداخلتي وقد جاء فيها:

إننا ندعو إلى وحدة نضالية بين الاحزاب الشقيقة. وحدة رفاق السلاح وحدة لا تنفي النقد والنقد الذاتي بل تفترضه مسبقا ليس فقط عبر المراسلات الخاصة بين الاحزاب المعنية وانما كذلك في الندوات المشتركة كالندوة الحالية.

وخطأت في المداخلة بشكل قاطع حل الاحزاب الشيوعية مهما كانت الظروف واكدت على ضرورة رعايةالاحزاب الفتية والمساعدة على تكوين احزاب شيوعية حيثما لا توجد وجاء فيها:

«لقد إنحل حزبان شيوعيان (واعني المصري والجزائري) خلال السنوات القليلة الاخيرة في العالم الثالث لكي يندمجا في حزبين كبيرين ثوريين غير متبلورين للبرجوازية الصغيرة .هل قمنا نحن في الحركة الشيوعية العالمية بتحذيرهما؟ هل أن رفاقنا المعنيين سعداء بذلك؟ هل نشجع محاولاتهم لاعادة بناء أحزابهم؟ أن الواجب على حركتنا تشجيع العناصر الشيوعية مهما كان عددها على تنظيم نفسها في حزب سياسي مستقل في أي بلد لايوجد فيه حزب شيوعي بعد. أن تنظيم الاحزاب الشيوعية في البلدان المتحررة هو الضرورة الاولى لكسب الاحزاب البرجوازية الصغيرة الثورية إلى جانب الاشتراكية العلمية».

ينبغي على وثيقتنا أن تصفي الحساب أيضاً مع الوهم القائل بأن من الممكن تحت قيادة البرجوازية الصغيرة غير المتجانسة وغير المتبلورة صيانة النظام الثوري وحتى بناء الاشتراكية بتخطي الراسمالية. إن هذا الوهم لايناقض نظريتنا الثورية فقط بل أن الحياة لم تزكه أيضاً.

لقد ذهبت حركتنا بعيداً في تثمين الانظمة التقدمية في البلدان المتحررة حديثاً، وكان النقد الماركسي النقد البناء لهذه الانظمة محرماً تقريباً خلال هذا العقد من السنوات. وقد عاملنا قادتها بالمديح فقط. واذا كانت التحذيرات لامثال هذه الشخصيات في وقتها المناسب غير مجدية، ألسنا مسؤولين أمام جماهير الشعب في اعطاء التحذير اللازم علناً ومسبقاً لمساعدتها في تطوير اليقظة الثورية والوعي السياسي لديها؟

إننا نعتقد أن الامية البروليتارية ستبقى مجرد صيغة مالم تترجم إلى مهمات ملموسة في وقتها، وفي الظرف الراهن نقر جميعا أن التضامن مع شعب الفيتنام البطل هو ألح شكل ملموس للتضامن الاممي.

وثمنت مداخلتي تثميناً عالياً التضامن العالمي مع الشعوب العربية ضد العدوان الاسرائيلي وأشرت فيها إلى أن حزبنا الشيوعي قد تربى منذ تأسيسه لان يفخر بكونه فصيلة لا تنفصل عن الحركة الشيوعية العالمية التي يشكل الحزب الشيوعي السوفيتي طليعتها وتربى لاليكون فخورا باستقلاليته وهذا لايعني على الاطلاق اننا نفقد استقلاليتنا أبداً، بل على العكس فنحن أنفسنا قررنا خطنا السياسي دائماً.

وانتقدت المداخلة بعض الاوساط التي تتحامل على المركز الطليعي للاتحاد السوفيتي وحزب لنين في الحركة الشيوعية، إن هذه الاوساط تنسى إن هذا المركز هو نتيجة للتطور التاريخي واكثر من ذلك أيضاً نتيجة للتضحيات الهائلة. إنهم ينسون أن أربع سنوات من الحرب ضد الفاشية كلفت الشعب السوفيتي (٢٠) مليونا من الانفس وهو ما يعادل سكان رومانية أو يوغسلافية حالياً. وعلى المرء أن يتذكر مثل هذه التضحيات ليس فقط من قبيل العرفان بالجميل وانما أيضاً من أجل حساب احسن لمعرفة الاصدقاء الحقيقين والدائميين.

وأشارت المداخلة إلى الكونفرنس الثالث لحزبنا الذي قيم سياسة حزبنا وعرى أخطاءنا بدون رحمة واكدت على اننا سنكون سعداء باغناء حركتنا الشيوعية العالمية بخبرتنا بكل ما فيها من ايجابي وسلبي. ولا يمكن التقليل اطلاقاً من أهمية تجاربنا لأن حزبنا كان في مركز انتباه أصدقائنا واعدائنا لفترة غير قصيرة. ونرحب في الوقت نفسه بأي انتقاد من أي حزب شقيق بالنسبة لسياسة حزبنا في ندوة كهذه أوبالكتابة الينا ونحن نعتبر هذا الانتقاد تعبيراً عن التضامن الاممي مع حزبنا.

وكان أمامي بعد انتهاء الاجتماع إما العودة إلى الوطن حيث تركت سعاد تعاني لوحدها مصاعب الحمل، إذ كانت تنتظر الحدث السعيد الثاني، واما إن ابقى لمجادلة طلابنا في البلدان الاشتراكية، وقد اقلقتهم اخبار الانشقاق في المركز وكانوا أيضاً يتلهفون للاطلاع على مجريات الكونفرنس الثالث للحزب وقد اطلعوا على وثائقه. فبقيت لا لعدم وجود من يعوض عني، حاشا، بل لرغبتي الملحة في خوض الجدال بنفسي.

والتقيت مع عمر علي الشيخ رفاقنا في براغ وبرلين وموسكو. وكان اتباع المنشقين موجودين في منظماتنا ولم يعلنو الانشقاق رسميا ليستفيدوا مما تتيح لهم منظماتنا الحزبية والديموقراطية من فرص وحصانات ليواصلوا نشاطهم الانشقاقي ويثيروا الصخب في اجتماعاتنا. ولم اسايرهم أو اراوغ أو أداري لعجزي عن ذلك بل جابهتهم على طول الخط فكشفوا عن هويتهم الانشقاقية.

وكانت قرارات الكونفرنس قد أسقطت حججهم سواء بالتأكيد على شعارات اسقاط النظام الدكتاتوري القائم أو في تبني تاكتيك الكفاح المسلح باعتباره الطريق الرئيس للتغيير بالاقتران بالعمل الجماهيري السلمي والعمل داخل القوات المسلحة. وكانت مقاطعة المنشقين لحضور الكونفرنس في غير صالحهم وقد كشفت عن ضعفهم وعزلتهم في نظر الرفاق الذين كانوا يستخدمون عقولهم للمحاكمة والتفكير بدلاً من عواطفهم واهوائهم.

وحضرنا ندوة العيد المائة والخمسين لميلاد كارل ماركس في موسكو في ٥/ايار/١٩٦٨ وكان أهم نقاط المناقشة في تلك الندوة النظرية «القدرة الكلية للماركسية في عالمنا المعاصر» أي عدم اقتصارها على المجتماعات المتطورة. ومن أقوال لينين: إن الماركسية كلية القدرة لانها صادقة. وكان ممثل حزب الشعب المنغولي في الندوة اشد المتحمسين للفكرة وكانت حجته الدامغة «منغولية الشعبية بلد

الرعاة التي طبقت الماركسية بإبداع»!! وفي حفلة الوداع التي أقامها معهد الماركسية اللنينية للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي كانت المداعبات تدور حول حماسة الرفيق المنغولي للفكرة إياها وجاء دور العرب ليقترحوا نخباً في المناسبة التاريخية فكلفني ظهير عبد الصمد بان اقوم بهذا الواجب عن الحاضرين من العرب يعني هو وانا، فاقترحت «نخب الماركسية كلية الصدق من منغوليا ما قبل الثورة حتى الولايات المتحدة الامريكية!» فقوبل النخب بمرح صاخب من الجميع بمن فيهم الرفيق المنغولي.

أما مداخلتي في الندوة فقد نشرت في جريدتنا «طريق الشعب» باسم وفد حزبنا.

وفي تلك الجولة فرضنا أنفسنا ضيوفاً على الرفاق البلغار واستضافونا على أحسن وجه وكان رئيس القسم الدولي للجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري فالتشييف حاضراً في اجتماع بودابست وقد سمع مداخلتي الانتقادية فسألني مداعبا:

ـ وهل ستنتقد الحزب الشيوعي البلغاري أيضاً؟! فقلت:

ـ نعم عندما تدعون أن حزبكم مستقلاعن الحزب السوفيتي! فانفجر ضاحكاً فقد كان حزبهم يتفوق على جميع الاحزاب الشيوعية تقرباً إلى الحزب الشيوعي السوفيتي.

وقد هيأوا لنا زيارات لعدد من المعامل ومنها معامل سبق لي رؤيتها في الزيارة الأولى مع حسيين الرضي وكريم أحمد وكان منها معمل فولاذ ومعمل نسيج وكان واضحاً حتى للعين غير الخبيرة أن البلى قد شاع فيهما. ولكننا رأينا أيضاً معامل كيمياوية حديثة ومنجماً مكشوفاً لاستخراج الفحم منه و قالوا لنا أن الخبراء الاوكرانيين زاروه وقالوا عنه إنه أفقر في الفحم حتى من تربة اوكراينا الزراعية السوداء! اماكان الاجدر بهم تنمية صادراتهم للعراق مقابل النفط؟!

وأذونا إلى الجنوب حيث مقدونيا البلغارية. ومقدونيا المجزأة ككردستان بين الدول المجاورة وأكبر اجزائها في يوغسلافيا الاتحادية. وفي لقائنا مع فالتشييف كانت القضية المقدونية شغلهم الشاغل إذ إن إذاعة الجمهورية المقدونية المجاورة تقلقهم بنداءاتها إلى المقدونيين البلغار ليقرروا مصيرهم بانفسهم. وكان الرفاق ينفون اطلاقا وجود قضية مقدونية! فالمقدوني بلغاري ليس إلا! ولسانه السلافي هو لسان بلغاري أيضا! وحتى ديمتروف المقدوني كان زعيم بلغاريا وإن الادعاء بالقومية المقدونية إنما هو نهلستية (عدمية) بالنسبة للقومية البلغارية على حد تعبير جيفكوف!

أما ديمتروف نفسه قبل الثورة فيقول:

ـ أن الشوفيني فقط يستطيع أن ينكر القضية القومية المقدونية!

فهل كان ديميتروف عدمياً بالنسبة للقومية البلغارية؟! كلا بالطبع كانت مقدونيا اليوغسلافية في الحقيقة أكثر تطوراً. فقلنا لهم لماذا لا تبذلون عناية خاصة لتطوير مقدونيا البلغارية بحيث تتحصن ضد دعوات الجيران؟

والعجيب بعد كل ذلك أن جمهورية مقدونية اليوغسلافية انفصلت عن يوغسلافيا الأم في حين بقيت مقدونيا البلغارية ملتصقة بأمها حتى الان.

وبعد أن فرغت من مهماتي الحزبية في الخارج قفلت راجعاً إلى الوطن في اواسط تموز/١٩٦٨ عن طريق بيروت حيث نزلت في ضيافة الرفاق اللبنانيين والتقيت نيقولا الشاوي الامين العام للحزب الشيوعي اللبناني الشقيق والصديق الحميم لحزبنا، الذي لم يتردد عن التضامن معنا في يوم من الايام كما التقيت آرتين مادويان أحد رواد الحركة الشيوعية في المشرق العربي، وكريم مروة، وهو أكثر من نصف عراقي بفضل علاقته الروحية بالنجف ويوسف خطار الحلو مؤرخ الحزب الشيوعي اللبناني والشيوعي النقابي الريادي في بلاد الشام مصطفى العريس وغيرهم.

وفي بيروت سمعت نبأ انقلاب ١٧/تموز/١٩٦٨ من فم رب الفندق الذي تفجع للعراق لكثرة الانقلابات المتتابعة وتباكى على عهد فيصل الاول الذي لم يقع فيه أي انقلاب. وكان هو من بقايا أنصار فيصل عندما كان ملكاً على سوريا، ومن انصار وحدة بلاد الشام ـ سوريا الكبرى.

وعندما سمعت تفاصيل نبأ الانقلاب شرعت أفكر فيما عسى أن يكون موقف الحزب الشيوعي العراقي منه. و كان الكونفرنس الثالث قد حرم التحالف مع الجناح اليميني لحزب البعث (البكر ـ صدام) وكان البكر قبل الانقلاب بحوالي ثلاثة اشهر قد فاتح الحزب الشيوعي بشأن التحالف ضد حكومة عارف فرفض المكتب السياسي الاقتراح بناء على قرار الكونفرنس الحزبي الثالث.

وعقدت الاحزاب الشيوعية في المشرق العربي اجتماعاً في دمشق في اذار/١٩٦٩ قررت فيه دعم الحزب الشيوعي الاردني الذي أسس قوة مجاهدة مسلحة باسم «الانصار» وكانت المنضمات الفلسطينية حتى ذلك الحين تعيب الحزب الشيوعي الاردني لانه لم يؤلف قوة مسلحة تشترك في الكفاح مع سائر الفصائل الفلسطينية المسلحة. وبعد أن ألف الحزب قوة «الانصار» قوبلت هذه القوة بموقف سلبي من الفصائل الاخرى كما لو كانت منافساً جديداً في السوق!!

وقدم الحزب الشيوعي العراقي الدعم لقوة الانصار الجديدة بجمع التبرعات وتجنيد المتطوعين. وبعد الاجتماع العالمي للاحزاب الشيوعية عام ١٩٦٩ قابل وفد من الامناء العامون للاحزاب الشيوعية في المشرق العربي سوسلوف مطالبين مساعدة قوة الانصار الاردنية بالسلاح. وقد أرسل السوفيت شحنة من السلاح لقوة الانصار عن طريق إحدى دول المشرق العربي، ولكن السلاح لم يسلم لقوة الانصار! يبدو إن القوميين على اختلاف مشاربهم لم يكونوا يرغبون في وجود قوة مسلحة مجاهدة يقودها الشيوعيون لان وجودها يحرمهم من متعة طعن الشيوعيين «كشعوبيين» وقد توالت الاحباطات على قوة الانصار مما اضطر الحزب الشيوعي الاردني إلى حلها.

عدت إلى الوطن في اواخر تموز/١٩٦٨ فوجدت سعاد قد عانت الامرين في غيابي الذي استمر أكثر من أربعة أشهر بسبب الحمل والتشرد من بيت إلى بيت جراء اعتقال بعض الرفاق. واجتمع شملنا من جديد تحت سقف واحد.

كان في أعماق نفسي حنين إلى طفلة. فقد توفيت لي ثلاث شقيقات كن في عمر الورود غادرن الحياة قبل أن يرتوين من عبث الطفولة، وتركن في قلبي فراغاً منغصاً. وبعد عودتي إلى الوطن بشهر واحد وضعت سعاد في٢٧/آب/١٩٦٨، وليدتنا وداد، لتملأ الفراغ وتعوضني عن فقيداتي ولتهذب ولدي يحيى بالحيلولة بينه وبين غرور الولد الوحيد. وليتها جاءت قبله لتكون له أماً ثانية. ولكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه، وقد ساعدت أمها في حضانتها لتمكينها من مواصلة نشاطها الحزبي فمارست الامومة في سن غير مبكر إذ كنت في أواخر الخمسينات من العمر. ويا لها من مهمة صعبة!

87

الموقف من انقلاب
١٧/تموز/١٩٦٨

استحوذ البعث على السلطة في هذه المرة بوجه جديد، بقناع ديمقراطي، مخفيا مخالبه بشعارات الحرية و العدالة الاجتماعية، فضلا عن القضية الفلسطينية المقدسة. وقد توصلت وأنا في بيروت إلى أنه يجب على الحزب أن يمهله في هذه المرة وان يضعه على المحك. وقد سرني إذ علمت فيما بعد أن الحزب، وبالاحرى المكتب السياسي، اتخذ موقف التمهل. ولم يصغ لنصيحة بهاء الدين نوري بضرورة معالجته بشعار «الاسقاط» كما فعل تجاه الحكومات السابقة. ودعا المكتب السياسي اللجنة المركزية إلى الانعقاد وكنت غائباً فقررت تجميد شعار «الاسقاط» وطرح المطالب الوطنية الديمقراطية الملحة على حكومة الانقلاب التي انفرد بها جناح (البكر ـ صدام حسين) بعد انقلاب ٣٠/تموز/١٩٦٨ التكميلي الذي اطاح برفاق السفر العسكريين اللذين لعبوا الدور الرئيس في انقلاب ١٧/تموز/١٩٦٨ ووضعوا البكر وصدام حسين على سدة الحكم و«الغاية تبرر الواسطة» كما قال ميكافلي قديما، وهو دستور قيادة البعث حالياً.

كان موقف اللجنة المركزية من الحكومة الجديدة يعكس أيضاً، حاجة الحزب إلى مهلة لاستعادة أنفاسه ولم شعثه وإعادة بناء منظماته التي تحطمت منذ انقلاب ٨/شباط/١٩٦٣ وبالتالي اعادة روابطه بالجماهير. ولم يعد حزب البعث للحكم في هذه المرة بنفس العنجهية التي جاء بها في عام ١٩٦٣ ففي المؤتمر القومي السادس لحزب البعث العربي الاشتراكي المنعقد في لبنان، اجرى هذا الحزب النقد الذاتي بصدد الاعمال الوحشية التي ارتكبها عام ١٩٦٣، وتخلى عن مقولة الحزب الواحد أو القائد وتبنى مقولة الجبهة الوطنية.

وفي التطبيق شرع باطلاق سراح السجناء السياسيين، ومعظمهم من الشيوعيين. وأخذ رفاقنا يوزعون منشورات الحزب الشيوعي في المقاهي والمحلات العامة، دون أن تتصدى لهم اجهزة القمع. ولكن عندما نظمنا اجتماعاً في ساحة السباع التاريخية، في بغداد احتفالا بثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى، هاجمتهم عصابات البعث وذبحت اثنين من المتظاهرين من الوريد إلى الوريد. وعندما أضرب عمال الزيوت النباتية اطلقت الشرطة عليهم النار وقتلت بعضهم. ومع ذلك واصلنا اتباع سياسة التحالف مع النظام البعثي على قاعدة التضامن في الايجابيات والكفاح ضد السلبيات، بخلاف «الاسقاط»، في سبيل اقامة حكومة ائتلافية. لم يكن بالامكان أن نستمر في التمسك بشعار «الاسقاط» في حين شرعت حكومة البعث في التوسع بالاصلاح الزراعي، وتشريع قانون تقدمي للعمل وسياسة خارجية معادية للامبريالية و...الخ. معتمدة على التعاون مع الاتحاد السوفيتي والقوى التقدمية في الخارج والتحالف، وإن يكن ضمنيا، مع الحزب الشيوعي في الداخل. إن شعار «الإسقاط» لم يكن يساعد عندئذ على تجميع القوى الضرورية لتحقيق الاسقاط فعلا، بل غدا شعاراً إنعزالياً في تلك الفترة.

بيد أننا في تلك الفترة بالذات وحتى منتصف السبعينات واصلنا النقد اللاذع لحكومة البعث على انتهاكاتها و سلبياتها.

هل كانت حكومة (البكر - صدام) في تلك الفترة دكتاتورية؟ أجل كانت دكتاتورية تعتمد على القوة المسلحة و العنف و ليس على القانون أو البرلمان، بيد انها كانت دكتاتورية البرجوازية الصغيرة الراديكالية، بدليل ما قدمته للفلاحين و العمال على حساب الملاكين والرأسماليين. وفوق ذلك كانت وطنية أيضاً، بدليل تأميم حقول النفط المستثمرة على حساب الاحتكارات الامبريالية، فضلا عن موقفها الدولي المعادي للامبريالية. ولو تمسكنا بمبدأ العداء لكل دكتاتورية أو على الاقل تحريم أي تحالف أو تعاون مع أية دكتاتورية مهما كانت راديكالية، ومهما كانت الظروف العينية وميزان القوى السياسية والاجتماعية، لكنا إما قد اضعفنا سيرورة التطور أو كنا قد عزلنا انفسنا بانفسنا عن أوسع الجماهير.

إن الظروف التاريخية العينية أو النسبة بين القوى الاجتماعية السياسية قد تضطر الحزب أحيانا إلى التحالف مع قوى لا تؤمن بالديمقراطية، بحق الانتخاب العام الشامل والمتساوي والمباشر، بالاقتراع السري. ومثل هذا التحالف إما أن ينتهي بكارثة كما جرى فعلا في التحالف مع البعث في العراق أو إلى تغيير جذري في موقف الحليف من الديمقراطية، وامثلة هذا التغيير ليست معدومة في تاريخ الشعوب والاحزاب، شرط المواضبة على نقد الدكتاتورية وعدم القبول بقيادتها للتحالف.

انتهى الجزء الاول من المذكرات عام ١٩٩١ ولم يتم نشرها ولذا لم يجد الفقيد المشجع لاستكمالها بالجزء الثاني حتى رحيله في ١٩/شباط/١٩٩٥ ولم تكتحل عيناه برؤيتها وايصالها إلى شعبنا الذي كرس حياته من أجل تحرره وإسعاده.



يوعي العراقي

ب الشيوعية

١٩٦٩



زء منها إلى لندن عام ١٩٧٩ لتنشر في جريدة الحزب الشيوعي البريطاني

، سعاد خيري من براثن الدكتاتورية.





رفاقه بملابس البيشمركة في كردستان في ١٩٨٤/٧/٢٥



مقابلة صحفية مع طالبة جامعية تهيء فلماً عن تأثيرات مؤلفات ديمتروف على نضالات الأحـزاب الشـيو
ـسبيل الجبهة الوطنية عام ١٩٨٧



، وأسى لفراق الشام عام ١٩٨٩



سبة الاحتفال بزواج
ى في أيلول ١٩٩٣
راغ



في شقلاوة استعداً للمؤتمر الخامس للحزب الشيوعي العراقي في ١٩٩٣/١٠/١٠



مع ابنته وداد في شوارع موسكو عام ١٩٩١



في احتفالات الجالية العراقية بمناسبة رأس السنة في نادي ١٤/تموز/ عام ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤



في المؤتمر الخامس للحزب الشيوعي العراقي المنعقد في ١٢/١٠ـ ٢٥/١٠/١٩٩٣ في كردستان



آخر صورة عائلية لزكي خيري في ١٧/١٢/١٩٩٤



ى في يوم ١٩٩٤/٣/٢٦



مراقي بمناسبة العيد الستيني.

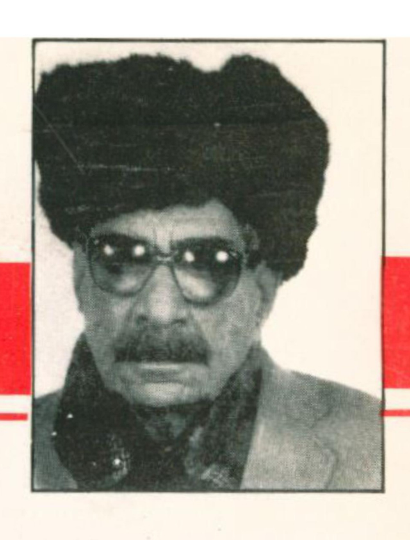


لقاء مع كاسترو على هامش مؤتمر الحزب الشيوعي الكوبي في هافانا



مع الرفيق خالد بكداش في بلغاريا
تموز ١٩٧٣

المحتوى



زكـــي خيــري

عميق كالبحر يزخر بالعواطف الإنسانية، واسع الحلم كالكون لايمكن سبر أغواره، وينبوع للمعرفة فياض بقدر ماهو تلميذ متواضع في الحياة يشعر كل من حوله بأنه يحتاجه ويعتمد عليه، وما أعظم صبره وقدرته على التحمل..

ولد زكي خيري في بغداد في ١٢/نيسان/١٩١١ وفي التاسع عشر من شباط ١٩٩٥ توقف دفق الحياة في القلب الذي روّى ضمير العراقيين بحب الوطن والشعب والإنسانية.

ساهم في الحركة الوطنية منذ صباه وشارك في أول مظاهرة في بغداد دفاعاً عن حرية الرأي عام ١٩٢٧ وفي أول مظاهرة لنصرة الشعب الفلسطيني وضد الصهيونية عام ١٩٢٨.

وكتب في مذكراته بعد سبعين عاماً ونيف: ما أسرع ما ينطوي الزمن! ولست آسفاً على ما فات، إذ أتذكر قول الفيلسوف جون بريمون: الشيخوخة هي أن يحل الأسف على ما فات محل الأمل بما هو آت. كيف آسف وقد نذرت حياتي لتحرير الانسان من استثمار أخيه الانسان ومن ظلمه! هذه القضية وهي أعظم القضايا تستأهل تكريس حياة جيل وجيلين أوأكثر.. وما أحلى أن يموت الانسان شاباً بعد عمر طويل!

كان مجدداً دون أن يتملكه الخيلاء في إمكانية صنع التاريخ متواضعاً.. متسامحاً.. صارماً.. عسيراً.. كريماً.. أميناً.. وخلف ذلك كله قلب عامر بالحب للناس وللعراقيين خصوصاً..

زكي خيري صحفي وكاتب وأديب يتميز بأسلوب أخاذ ذو نكهة خاصة تأسر القارىء وتشده. ومن مؤلفاته الأخرى:

- ربع قرن من تاريخ الحركة النقابية في العراق - عام ١٩٥٤.
- مسائل في الإصلاح الزراعي - عام ١٩٥٩.
- دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي - بالإشتراك مع رفيقة حياته ونضاله سعاد خيري - عام ١٩٨٤.
- الحرب العراقية الإيرانية وقضايا الثورة - عام ١٩٨٧.

ثمن النسخة ١٠ دولارات أو ما يعادلها يضاف إليها أجور البريد